أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه

محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثالث

مؤسسة الإيمان
بيروت . لبنان

دار الرشيد
دمشق . بيروت

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

المسمى

تفسير البيضاوي

تأليف
القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وضبط نصه
محمد صبحي حسن حلاق و محمد أحمد الأطرش

المجلد الثالث

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

تفسير البيضاوي

المسمّى

أنوار التنزيل وأسرار التأويل

تأليف

القاضي ناصر الدين أبي سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي

ت: ٧٩١ هـ

حَقَّقَهُ وَعَلَّقَ عليه وَخَرَّجَ أحاديثَهُ وَضَبَطَ نَصَّهُ

مُحَمَّد صُبحي بن حَسَن حَلَّاق و الدكتُور مَحمُود أَحمَد الأطرَش

المجلّد الثالث

مؤسسة الإيمان
بيروت - لبنان

دار الرشيد
دمشق - بيروت

الطبعة الأولى
١٤٢١ هـ - ٢٠٠٠ م


بسم الله الرحمن الرحيم

سُورَةُ القَصَصِ

ترتيبها ٢٨ — آياتها ٨٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طسٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِٱلْحَقِّ لِقَوْمٍ
يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ
وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ
وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥﴾

سورةُ القصص مكيةٌ[1]

وقيل إلا قولَه تعالى الذين آتيناهم الكتابَ إلى قوله لا نبتغي الجاهلين وهي ثمانٍ وثمانون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿طسٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾.

(٣) ﴿نَتْلُوا۟ عَلَيْكَ﴾ نقرؤه بقراءة جبريلَ، ويجوز أنْ يكونَ بمعنى ننزِّلُه مجازاً ﴿مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ﴾ بعضِ نَبَئِهما، مفعولُ نتلو ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ مُحقِّينَ ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ لأنهم المنتفِعون به.

(٤) ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استئنافٌ مبينٌ لذلك البعضِ، والأرضُ أرضُ مِصرَ ﴿وَجَعَلَ أَهْلَهَا

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٣٨٩) و«زاد المسير» (٦/ ٢٠٠).

﴿شِيَعًا﴾ فِرَقاً يُشيعونه فيما يريدُ، أو يشيعُ بعضُهم بعضاً في طاعته، أو أصنافاً في استخدامِه استُعْمِل كلُّ صِنْفٍ في عملٍ، أو أحزاباً بأنْ أغرى بينَهم العداوةَ كي لا يتَّفِقُوا عليه ﴿يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ﴾ وهم بنو إسرائيلَ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ جَعَلَ، أو صفةٌ لشيعاً أو استئنافٌ، وقولُه ﴿يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِۦ نِسَآءَهُمْ﴾ بدلٌ منها، كان ذلك لأنَّ كاهناً قال له يولدُ مولودٌ في بني إسرائيلَ يَذهبُ مُلكُك على يده، وذلك كان من غايةِ حَمَقِهِ فإنه لو صَدَقَ لم يندفعْ بالقتلِ وإن كذَب فما وجهُه؟ ﴿إِنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ فلذلك اجترأ على قتلِ خلقٍ كثيرٍ من أولادِ الأنبياءِ لِتخيُّلٍ فاسدٍ.

(٥) ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أنْ نتفضَّلَ عليهم بإنقاذِهم من بأسِه، ونريدُ حكايةُ حالٍ ماضيةٍ معطوفةٍ على (إن فرعونَ علا في الأرض) من حيثُ إنَّهما واقعانِ تفسيراً للنبأ، أو حالٌ مِنْ يستضعفُ ولا يلزمُ من مقارنةِ الإرادة للاستضعافِ مقارنةُ المرادِ له، لجوازِ أنْ يكونَ تعلُّقُ الإرادةِ به حينئذٍ تعلُّقاً استقبالياً مع أنَّ مِنَّةَ الله بخلاصِهم لمّا كانتْ قريبةَ الوقوعِ منه جازَ أنْ تجريَ مَجرىٰ المقارَنِ ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً﴾ مقدَّمين في أمرِ الدين ﴿وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ لِما كان في مُلك فرعونَ وقومِه.

وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٧﴾ فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۗ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟ خَٰطِـِٔينَ ﴿٨﴾

(٦) ﴿وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مصرَ والشام، وأصلُ التمكينِ أنْ تجعلَ للشيء مكاناً يتمكَّنُ فيه ثم استُعيرَ للتسليط وإطلاقِ الأمن ﴿وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم﴾ من بني إسرائيلَ ﴿مَّا كَانُوا۟ يَحْذَرُونَ﴾ من ذهابِ مُلكهم وهلاكِهم على يدِ مولودٍ منهم. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويرىٰ بالياءِ وفرعونُ وهامانُ وجنودُهما بالرفعِ.

(٧) ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ بإلهامٍ أو رؤيا ﴿أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ ما أمكَنكِ إخفاؤُه. ﴿فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ﴾ بأن يُحَسَّ به. ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ في البحرِ يريد النيلَ. ﴿وَلَا تَخَافِى﴾ عليه ضَيعةً ولا شِدَّةً ﴿وَلَا تَحْزَنِىٓ﴾ لفراقِه. ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ عن قريبٍ بحيثُ تأمنينَ عليه ﴿وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ رُوِيَ أنَّها لما ضرَّ بها الطلقُ دعتْ قابلةً من الموكَّلاتِ بحَبَالى بني إسرائيلَ فعالجتْها، فلما وقعَ موسى على الأرض هالها نورٌ بين عينيه وارتعشتْ مفاصِلُها ودخلَ حبُّه في قلبها بحيثُ منعها من السِّعاية، فأرضعتْه ثلاثةَ أشهرٍ ثم ألحَّ فرعونُ في طلبِ المواليدِ واجتهدَ العيونُ في تفحُّصِها فأخذتْ له تابوتاً فقذفتْه في النيلِ.

(٨) ﴿فَٱلْتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ تعليلٌ لالتقاطِهم إياهُ بما هو عاقبتُه ومؤدَّاه تشبيهاً له بالغرضِ الحامل عليه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحُزْنا. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا۟

خَٰطِـِٔينَ﴾ في كلِّ شيء فليسَ بِبِدْعٍ منهم أنْ قتلُوا ألوفاً لأجلِه ثمَّ أخذوه يربُّونه ليكبَرَ ويفعلَ بهم ما كانوا يحذَرون، أو مذنبينَ فعاقبهم اللهُ تعالى بأنْ ربَّى عدوَّهم على أيديهم، فالجملةُ اعتراضٌ لتأكيدِ خَطَئِهم أو لبيانِ الموجبِ لما ابتُلوا به، وقُرِىءَ خاطِيْنَ تخفيفُ خاطِئينَ أو خاطين الصوابَ إلى الخطأ.

وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿وَقَالَتِ ٱمْرَأَتُ فِرْعَوْنَ﴾ أي لفرعونَ حين أخرجتْه من التابوتِ ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ﴾ هو قرَّةُ عينٍ لنا لأنهما لما رأياه أُخرِجَ من التابوتِ أحبَّاه، أو لأنه كانتْ له ابنةٌ برصَاءُ وعالجها الأطباءُ بريقِ حيوانٍ بحريٍّ يشبه الإنسانَ فلطَّخَتْ برصَها بريقه فبرئَتْ، وفي الحديث أنه قال: لكِ لا لي[1]. ولو قال هو لي كما هو لك لهداهُ الله كما هداهَا. ﴿لَا تَقْتُلُوهُ﴾ خطابٌ بلفظ الجَمع للتعظيم ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾ فإنَّ فيه مخايلَ اليُمْنِ ودلائلَ النفعِ، وذلك لِما رأتْ من نورٍ بينَ عينيهِ وارتضاعِه إبهامَه لبناً وبُرءِ البرصاءِ بريقهِ ﴿أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ أو نتبنّاه فإنه أهلٌ له ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ حالٌ من الملتقطين أو من القائلةِ والمقولِ له أي وهم لا يشعُرون أنهم على الخطأ في التقاطِه أو في طمعِ النفعِ منه والتبنّي له، أو من أحدِ ضميرَيْ نتَّخِذَهُ على أنَّ الضميرَ للناسِ أي وهم لا يشعرونَ أنه لغيرِنا وقد تبنَّيناه.

(١٠) ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًا﴾ صِفراً من العقلِ لما دَهَمَهَا من الخوفِ والحَيْرةِ حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ كقوله تعالى ﴿وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾[2] أي خَلاءٌ لا عقولَ فيها، ويؤيدُه أنه قرىءَ فرغاً مِنْ قولهم دماؤُهم بينَهم فرغٌ أي هدَرٌ، أو مِنَ الهمِّ لفرْطِ وثوقِها بوعدِ اللهِ تعالى أو سماعِها أنَّ فرعونَ عطَفَ عليه وتبنَّاه ﴿إِن كَادَتْ لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ أنها كادت لَتُظهر بموسى أي بأمره وقِصَّته من فرْط الضجَر أوِ الفرحِ لتبنّيه. ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ بالصبر والثبات. ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من المصدِّقين بوعْدِ الله، أو مِنَ الواثقِين بحفظِه لا بتبنِّي فرعونَ وعطفِه. وقرىء موسى إجراءً للضمة في جوارِ الواوِ مَجرى ضمَّتها في استدعاء همزِها همزَ واوِ وجوهٍ وهو عِلَّةُ الرَّبطِ، وجوابُ لولا محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(١١) ﴿وَقَالَتْ لِأُخْتِهِۦ﴾ مريمَ. ﴿قُصِّيهِ﴾ اتَّبعي أثَرَهُ وَتتبَّعي خبَرَهُ. ﴿فَبَصُرَتْ بِهِۦ عَن جُنُبٍ﴾ عن بُعْدٍ، وقُرِىءَ عن جانبٍ وعن جَنْبٍ وهو بمعناهُ. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أنها تقصُّ أو أنَّها أختُه.

---

(١) أخرجه النسائي في التفسير كما في «تحفة الأشراف» (٤/٤٣٨).
(٢) إبراهيم: «٤٣».

۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾
فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ
ٱلْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ ۖ فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن
شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ ۞ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَرَاضِعَ﴾ ومنعْناه أنْ يرتضعَ من المرضعات، جمعُ مرضِع أو مرضَع وهو الرَّضاعُ، أو موضِعُه يعني الثديَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ قصِّها أثَرَهُ. ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ لأجلِكم. ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ لا يقصِّرون في إرضاعِه وتربيتِه، رويَ[1] أنَّ هامانَ لما سمعهُ قال: إنها لتعرفُه وأهلَه فخذوها حتى تُخْبِرَ بحاله، فقالتْ: إنما أردتُ وَهُمْ لِلْمَلِكِ ناصحون، فأمرَها فرعونُ أنْ تأتيَ بِمَنْ يكفُله فأتتْ بأمِّها وموسى على يدِ فرعونَ يبكي وهو يعلِّلُه، فلما وجدَ ريحها استأنسَ والتقم ثَدْيَهَا فقال لها: مَنْ أنتِ منه فقد أبى كلَّ ثديٍ إلا ثديَك؟ فقالتْ: إني امرأةٌ طيبةُ الريحِ طيبةُ اللبنِ لا أُوْتَى بصبيٍّ إلا قَبِلَني فدفعَه إليها وأجرى عليها، فرجعتْ به إلى بيتها من يومِها، وهو قولُه تعالى:

(١٣) ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ بولدِها. ﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ بفراقِه. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ عِلْمَ مشاهدةٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ وعْدَه حقٌّ فيرتابون فيه، أو أنَّ الغرضَ الأصليَّ من الردِّ عِلْمُها بذلك وما سواه تَبَعٌ، وفيه تعريضٌ بما فَرَطَ منها حين سمعتْ بوقوعِه في يدِ فرعونَ.

(١٤) ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ مبلغَه الذي لا يزيدُ عليه نشوُه وذلك من ثلاثينَ إلى أربعينَ سنةً فإنَّ العقلَ يكمُلُ حينئذٍ. ورُوِيَ أنه لم يُبْعَثْ نبيٌّ إلا على رأسِ الأربعينَ سنةً[2]. ﴿وَٱسْتَوَىٰٓ﴾ قدُّه أو عقلُه. ﴿ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا﴾ أي نبوَّةً. ﴿وَعِلْمًا﴾ بالدين، أو عِلْمَ الحكماءِ والعلماءِ وسِمَتَهُم قبلَ استنبائِه، فلا يقولُ ولا يفعلُ ما يُسْتَجْهَلُ فيه، وهو أوفقُ لنظمِ القصةِ لأنَّ الاستنباءَ بعدَ الهجرةِ في المراجعةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الذي فعلْنا بموسى وأمِّه. ﴿نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على إحسانِهم.

(١٥) ﴿وَدَخَلَ ٱلْمَدِينَةَ﴾ ودخلَ مصرَ آتياً من قصرِ فرعونَ وقيل منفٌ أو حائينُ، أو عينُ شمسٍ من نواحيها. ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ في وقْتٍ لا يُعْتَادُ دخولُها ولا يتوقَّعونه فيه، قيل كان وقْتَ القيلولةِ

---

(١) وهي من الإسرائيليات. ولكنه ليس ببعيد عن الطغات.
(٢) لم أجده. قاله ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٦ رقم ١٣١).

وقيل بينَ العشاءين. ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِن شِيعَتِهِۦ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ أحدُهما ممن شايعَه على دينه وهم بنو إسرائيلَ، والآخرُ مِنْ مخالفيه وهمُ القِبْطُ، والإشارةُ على الحكايةِ. ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى﴾ هو ﴿مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ فسأله أنْ يغيثَهُ بالإعانةِ ولذلك عُدِّيَ بعلى وقُرِىءَ بعلى وقُرِىءَ استعانَه. ﴿فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ﴾ فضربَ القبطيَّ بجُمْعِ كفِّه، وقرىءَ فلكَزَهُ أي فضربَ به صدْرَهُ. ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ فقتلَه وأصْلُه فأَنْهَى حياتَه من قوله ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ﴾[1]. ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ لأنه لم يُؤمَرْ بقتلِ الكفارِ أو لأنه كان مأموناً فيهم فلم يكنْ له اغتيالُهم، ولا يقدحُ ذلك في عصمتِه لكونه خطأً، وإنما عدَّه من عملِ الشيطانِ وسمَّاه ظلماً واستغفرَ منه على عادتِهم في استعظامِ محقَّراتٍ فَرَطَتْ منهم. ﴿إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ العداوةِ.

قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ
فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾ فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ ۚ
قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى
كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ ۖ إِن تُرِيدُ إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى﴾ بقتلِه. ﴿فَٱغْفِرْ لِى﴾ ذنبي. ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ لاستغفارِه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لذنوبِ عبادِه. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بهم.

(١٧) ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ﴾ قسمٌ محذوفُ الجوابِ أي أُقْسِمُ بإنعامِك عليَّ بالمغفرة وغيرها لأتُوبَنَّ. ﴿فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ﴾ أوِ استعطافٌ أي بحقِّ إنعامِك عليَّ اعصمْني فلنْ أكونَ مُعِيناً لمن أدَّتْ معاونتُه إلى جُرْمٍ. وعن ابنِ عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنه لم يستثنِ فأُبْتُلِيَ به مرةً أخرى[2]، وقيل معناه بما أنعمتَ عليَّ من القوةِ أُعِيْنُ أولياءَك فلنْ أستعمِلَها في مظاهرةِ أعدائِك.

(١٨) ﴿فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ يترقَّبُ الاستفادةَ. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِى ٱسْتَنصَرَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾ يستغيثُه مشتقٌّ من الصُّراخِ. ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰٓ إِنَّكَ لَغَوِىٌّ مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الغوايةِ لأنك تَسَبَّبْتَ لقتلِ رجلٍ وتقاتِلُ آخرَ.

(١٩) ﴿فَلَمَّآ أَنْ أَرَادَ أَن يَبْطِشَ بِٱلَّذِى هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا﴾ لموسى والإسرائيليِّ لأنه لم يكنْ على دينهما ولأنَّ القُبْطَ كانوا أعداءً لبني إسرائيلَ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِى كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًۢا بِٱلْأَمْسِ﴾ قاله الإسرائيليُّ لأنه لما سمَّاه غوياً ظنَّ أنه يبطشُ عليه، أو القبطيُّ وكأنه توهَّم مِنْ قوله أنه الذي قتلَ القبطيَّ بالأمسِ لهذا الإسرائيليِّ. ﴿إِن تُرِيدُ﴾ ما تريدُ. ﴿إِلَّآ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ تطاولُ على الناس ولا تنظُر في العواقبِ. ﴿وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِينَ﴾ بَيْنَ الناسِ فتدفعُ التخاصُمَ بالتي هي أحسنُ، ولما قال هذا انتشرَ الحديثُ وارتقى إلى فرعونَ ومَلَئِهِ وهمُّوا بقتلِه فخرجَ مؤمنُ آلِ فرعونَ وهو ابنُ عمِّه لِيُخْبِرَهُ كما قال تعالى:

---

(١) الحجر: «٦٦».
(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ١٩٨).

وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ
ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ قَالَ
عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ يَسْقُونَ
وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ
كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ يسرعُ صفةُ رجلٍ، أو حالٌ منه إذا جُعِلَ من أقصى المدينةِ صفةٌ له لا صلةٌ لجاءَ لأنَّ تخصيصَه بها يُلحِقُه بالمعارِفِ. ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ يتشاورون بِسَبَبِكَ، وإنما سُمِّيَ التشاورُ ائتماراً لأنَّ كلاًّ من المتشاوِرَيْنِ يأمرُ الآخرَ ويأتمِرُ. ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ اللامُ للبيانِ وليس صلةً للناصحين لأنَّ معمولَ الصلةِ لا يتقدَّمُ الموصولَ.

(٢١) ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا﴾ من المدينة. ﴿خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ لحوقَ طالِبٍ. ﴿قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ خلِّصْني منهم واحفظْني من لحوقِهِم.

(٢٢) ﴿وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَآءَ مَدْيَنَ﴾ قُبالَةَ مدْيَنَ قريةَ شعيبٍ، سُمِّيَتْ باسمِ مدينَ بن إبراهيمَ عليهم الصلاةُ والسلام ولم تكنْ في سلطانِ فرعونَ وكان بينَها وبينَ مِصرَ مسيرةُ ثمانٍ. ﴿قَالَ عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ توكلاً على اللهِ وحسنَ ظنٍّ به، وكان لا يعرفُ الطريقَ فعنَّ له ثلاثَ طرقٍ فأخذَ في أوسطِها وجاء الطُّلابُ عقيبَهُ فأخذوا في الآخرينَ.

(٢٣) ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ وصلَ إليه وهو بئرٌ كانوا يسقُون منها. ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ﴾ وجد فوقَ شفيرِها. ﴿أُمَّةً مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ جماعةً كثيرة مختلِفينَ. ﴿يَسْقُونَ﴾ مواشِيَهُم. ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ﴾ في مكان أسفلَ من مكانِهم. ﴿ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ تمنعانِ أغنامَهُما عن الماءِ لئلا تختلِطَ بأغنامِهم. ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُمَا﴾ ما شأنُكما تذودانِ. ﴿قَالَتَا لَا نَسْقِى حَتَّىٰ يُصْدِرَ ٱلرِّعَآءُ﴾ تصرِفَ الرعاةُ مواشِيَهُم عن الماءِ حذراً عن مزاحمةِ الرجالِ، وحُذِفَ المفعولُ لأنَّ الغرضَ هو بيانُ ما يدلُّ على عِفَّتِهما ويدعوه إلى السقيِ لهما ثمَّ دونَه. وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر يَصدُرَ أي ينصرِفَ. وقُرِىءَ الرُّعاءُ بالضمِّ وهو اسمُ جمعٍ كالرُّخالِ. ﴿وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ﴾ كبيرُ السِّنِّ لا يستطيعُ أنْ يخرجَ للسقيِ فيرسِلنا اضطراراً.

(٢٤) ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا﴾ مواشِيَهُما رحمةً عليهما. قيل[1] كانتِ الرعاةُ يضعون على رأسِ البئرِ حجراً لا يُقِلُّه إلا سبعةُ رجالٍ أو أكثرُ فأقلَّه وحدَه مع ما كان به من الوصَبِ والجوعِ وجراحةِ القدمِ، وقيل كانتْ بئراً أخرى عليها صخرةٌ فرفعَها واستقى منها. ﴿ثُمَّ تَوَلَّىٰٓ إِلَى ٱلظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّى لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَىَّ﴾ لأيِّ

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٠٤ ـ ٤٠٥).

شيءٍ أَنْزَلْتَ إليَّ. ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ قليلٍ أو كثيرٍ وحمله الأكثرونَ على الطعام. ﴿فَقِيرٌ﴾ محتاجٌ سائلٌ ولذلك عُدِّيَ باللامِ، وقيل معناه إني لما أنزلْتَ إليَّ من خيرِ الدينِ صرتُ فقيراً في الدنيا، لأنه كان في سَعَةٍ عند فرعونَ، والغرضُ منه إظهارُ التبجُّحِ والشكرِ على ذلك.

﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا ۚ فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾

(٢٥) ﴿فَجَآءَتْهُ إِحْدَىٰهُمَا تَمْشِى عَلَى ٱسْتِحْيَآءٍ﴾ أي مستحيةً متخفِّرةً. قيل كانتِ الصُّغرى منهما وقيل الكُبرى، واسمُها صفوراءُ أو صفراءُ وهي التي تزوَّجها موسى عليه السلام. ﴿قَالَتْ إِنَّ أَبِى يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ﴾ ليكافِئَك. ﴿أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ جزاءَ سقْيِكَ لنا، ولعلَّ موسى عليه الصلاة والسلام إنما أجابَها ليتبرَّك برؤيةِ الشيخِ ويستظهرَ بمعرفتِه لا طمعاً في الأجْرِ، بل رُوِيَ[1] أنه لما جاءه قدَّم إليه طعاماً فامتنعَ عنه وقال: إنا أهلُ بيتٍ لا نبيعُ ديننا بالدنيا حتى قال له شعيبٌ عليه الصلاة والسلام: هذه عادتُنا مع كلِّ مَنْ ينزلُ بنا. هذا وأنَّ كلَّ مَنْ فعل معروفاً فأُهْدِيَ بشيء لم يحرمْ أخذُه. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُۥ وَقَصَّ عَلَيْهِ ٱلْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ ۖ نَجَوْتَ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ يريدُ فرعونَ وقومَه.

(٢٦) ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا﴾ يعني التي استدعتْه. ﴿يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ﴾ لرعي الغنَم. ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ تعليلٌ شائعٌ يجري مجرى الدليلِ على أنه حقيقٌ بالاستئجارِ وللمبالغةِ فيه، جعلَ خيرَ اسماً وذكرَ الفعلَ بلفظِ الماضي للدلالة على أنه امرؤٌ مجرَّبٌ معروفٌ. رُوِيَ[2] أنَّ شعيباً قال لها وما أَعْلَمَكِ بقوَّتِه فذكرتْ إقلالَ الحجرِ وأنه صوَّبَ رأسَه حتى بلغتْه رسالتُه وأَمَرَهَا بالمشيِ خلْفَهُ.

---

(١) عزاه السيوطي في «الدر المنثور» (٦/٤٠٧) لابن عساكر عن أبي حازم. وما انفرد به ابن عساكر من الرواية فهو ضعيف. انظر مقدمة زوائد الجامع الصغير للسيوطي.

(٢) قال سيد قطب في «الظلال» (٥/٢٦٨٧):

«ولا حاجة لكل ما رواه المفسرون من دلائل قوة موسى، كرفع الحجر الذي يغطي البئر وكان لا يرفعه ـ فيما قالوا ـ إلا عشرون أو أربعون أو أكثر أو أقل. فالبئر لم يكن مغطى، إنما كان الرعاء يسقون فنحاهم وسقى للمرأتين، أو سقى لهما مع الرعاء» هـ.

وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/٢٦٨٨) أيضاً:

«ولا حاجة كذلك لما رووه عن دلائل أمانته من قوله للفتاة: امشِ خلفي ودلني على الطريق خوف أن يراها أو أنه قال لها هذا بعد أن مشى خلفها فرفع الهواء ثوبها عن كعبها فهذا كله تكلف لا داعي له. ودفع لريبة لا وجود لها.

وموسى ـ عليه الصلاة والسلام ـ عفيف النظر، نظيف الحسن، وهي كذلك، والعفة والأمانة لا تحتاجان لكل هذا التكلف عند لقاء رجل وامرأة، فالعفة تنفح في التصرف العادي البسيط بلا تكلف ولا اصطناع» هـ.

● أما ما يذكره القاضي من أن الشيخ الكبير هو «شعيب» فقد تقدم الرد عليه في سورة طه.

قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ قَضَيۡتُ فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٞ ﴿٢٨﴾ ۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ أَوۡ جَذۡوَةٖ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ ﴿٢٩﴾

(٢٧) ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي﴾ أي تأْجُرَ نفسَك منّي أو تكونَ لي أجيراً، أو تثيبَني من أجْرِك اللهَ. ﴿ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ﴾ ظرفٌ على الأوّلينِ ومفعولٌ به على الثالثِ بإضمارِ مضافٍ أي رعيةَ ثماني حِجَجٍ. ﴿فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا﴾ عملْتَ عشْرَ حِجَجٍ. ﴿فَمِنۡ عِندِكَۖ﴾ فإتمامُه من عندِك تفضُّلاً لا مِنْ عندي إلزاماً عليك. وهذا استدعاءُ العقدِ لا نفسُه، فلعلَّه جَرَى على أُجْرَةٍ معيَّنةٍ وبمهرٍ آخرَ أو برعيةِ الأجلِ الأوَّلِ وَوَعَدَ له أنْ يوفِّيَ الأخيرُ إنْ تيسَّر له قبلَ العقدِ، وكانتِ الأغنامُ للمزوَّجةِ مع أنه يمكنُ اختلافُ الشرائعِ في ذلك. ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ﴾ بإلزامِ إتمامِ العشرِ أو المناقشةِ في مراعاةِ الأوقاتِ واستيفاءِ الأعمالِ، واشتقاقِ المشقَّةِ من الشقِّ فإنَّ ما يصعبُ عليك يشقُّ عليك اعتقادُك في إطاقتِه ورأيك في مزاولتِه. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في حُسْنِ المعاملةِ ولينِ الجانبِ والوفاءِ بالمعاهدةِ.

(٢٨) ﴿قَالَ ذَٰلِكَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَۖ﴾ أي ذلك الذي عاهدْتَني فيه قائمٌ بينَنا لا نخرجُ عنه. ﴿أَيَّمَا ٱلۡأَجَلَيۡنِ﴾ أطولُهما أو أقصرُهما. ﴿قَضَيۡتُ﴾ وفَّيتك إياهُ. ﴿فَلَا عُدۡوَٰنَ عَلَيَّۖ﴾ لا تعتدي عليَّ بطلبِ الزيادةِ فكما لا أطالِبُ بالزيادةِ على العشرِ لا أطالبُ بالزيادةِ على الثَّمانِ، أو فلا أكونُ متعدياً بِتَرْكِ الزيادةِ عليه كقولِكَ لا إثْمَ عليَّ، وهو أبلغُ في إثباتِ الخيرةِ وتساوي الأَجَلَيْنِ في القضاءِ مِنْ أنْ يُقالَ إنْ قضيْتَ الأقصرَ فلا عدوانَ عليَّ. وقُرِىءَ أيْما كقولِهِ:

تنَظَّـرْت نَصْـراً وَالسمـاكيـن أيْمَـا ... علـيَّ مِـنَ الغَيْـثِ اسْتَهَلَّـتْ مَـوَاطِـرُه[1]

وأيُّ الأجلينِ ما قضيتَ فتكونُ ما مزيدةً لتأكيدِ الفعلِ أي: أيَّ الأجلينِ جرَّدتَ عزمي لقضائِه، وعِدوانَ بالكسرِ. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ﴾ من المشارطةِ. ﴿وَكِيلٞ﴾ شاهدٌ حفيظٌ.

(٢٩) ﴿۞ فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلۡأَجَلَ وَسَارَ بِأَهۡلِهِۦٓ﴾ بامرأتِه. رُوِيَ أنه قضَى أقْصَى الأجلينِ ومكثَ بعدَ ذلك عندَه عشراً أخرى ثم عزمَ على الرجوعِ[2]. ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗاۖ﴾ أبصرَ من الجهةِ التي تلي

---

(١) من الطويل.

(٢) أخرج البخاري (٥/٢٨٩ ـ ٢٩٠ رقم ٢٦٨٤) عن سعيد بن جبير قال: سألني يهودي من أهل الحيرة: أي الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أدري حتى أقدم على حَبر العرب فأسأله. فقدمت فسألتُ ابن عباس فقال: قضى=

الطور. ﴿قَالَ لِأَهۡلِهِ ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِخَبَرٍ﴾ بخبرِ الطريقِ. ﴿أَوۡ جَذۡوَةٖ﴾ عودٍ غليظٍ سواءٌ كان في رأسِه نارٌ أو لم يكنْ.

قال:

بَـاتَـتْ حَـوَاطِـبُ لَيْلَـى يَلْتَمِسْـنَ لَهَـا جـزلَ الجـذى غَيْـرَ خـوارٍ وَلاَ دَعِـرِ[1]

وقال آخر:

وأَلْقَـى عَلـى قَبـس مِـنَ النَّـارِ جَـذْوَة شَـدِيـداً عَلَيْـهِ حَـرُّهَـا وَالتِهَـابُهَـا[2]

ولذلك بيَّنه بقوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ وقرأ عاصمٌ بالفتحِ، وحمزةُ بالضمِّ وكلُّها لغاتٌ. ﴿لَعَلَّكُمۡ تَصۡطَلُونَ﴾ تستدْفِئُون بها.

فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ أَن يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ ﴿٣١﴾ ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهۡبِۖ فَذَٰنِكَ بُرۡهَٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾

(٣٠) ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ مِن شَٰطِيِٕ ٱلۡوَادِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾ أتاه النداءُ من الشاطىءِ الأيمنِ لموسى. ﴿فِي ٱلۡبُقۡعَةِ ٱلۡمُبَٰرَكَةِ﴾ متصل بالشاطىء أو صلةٌ لِنُودِيَ. ﴿مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ بدلٌ من شاطىءِ بدلَ الاشتمالِ لأنَّها كانتْ ثابتةً على الشاطىءِ. ﴿أَن يَٰمُوسَىٰٓ﴾ أي يا موسى. ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ هذا وإنْ خالفَ ما في طه والنملِ لفظاً فهو طِبْقُهُ في المقصودِ.

(٣١) ﴿وَأَنۡ أَلۡقِ عَصَاكَۖ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ﴾ أي فألقاها فصارتْ ثعباناً واهتزَّتْ فلما رآها تهتزُّ. ﴿كَأَنَّهَا جَآنّٞ﴾ في الهيئةِ والجثةِ أو في السرعةِ. ﴿وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا﴾ منهزماً من الخوفِ. ﴿وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ﴾ ولم يرجِعْ. ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾ نودي يا موسى. ﴿أَقۡبِلۡ وَلَا تَخَفۡۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلۡأٓمِنِينَ﴾ من المخاوِفِ، فإنه لا يخافُ لديَّ المرسلون.

(٣٢) ﴿ٱسۡلُكۡ يَدَكَ فِي جَيۡبِكَ﴾ أدخِلْها. ﴿تَخۡرُجۡ بَيۡضَآءَ مِنۡ غَيۡرِ سُوٓءٖ﴾ عيبٍ. ﴿وَٱضۡمُمۡ إِلَيۡكَ جَنَاحَكَ﴾ يديْكَ المبسوطتينِ تتقي بهما الحيةَ كالخائفِ الفزعِ بإدخالِ اليمنى تحتَ عضُدِ اليسرى وبالعكسِ، أو

= أكثرهما وأطيبهما، إنّ رسول الله ﷺ إذا قال فعل».

● المقصود بقوله: رسول الله ﷺ: من اتصف بذلك ولم يرد شخصاً بعينه.

(١) من البسيط.

(٢) من الطويل.

بإدخالهما في الجيبِ فيكونُ تكريراً لغرضٍ آخرَ وهو أنْ يكونَ ذلك في وجهِ العدوِّ إظهارَ جراءةٍ ومبدأً لظهورِ معجزةٍ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالضمِّ التجلُّدُ والثباتُ عندَ انقلابِ العصَا حيةً استعارةً من حالِ الطائرِ فإنه إذا خافَ نشرَ جناحيهِ وإذا أَمِنَ واطمأنَّ ضمَّهما إليه. ﴿مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ من أجلِ الرَّهْبِ أي إذا عراكَ الخوفُ فافعلْ ذلك تجلُّداً وضبطاً لنفسِك. وقرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر بضمِّ الراءِ وسكونِ الهاءِ، وقُرِىءَ بضمِّهما، وقرأ حفصٌ بالفتحِ والسكونِ والكلُّ لغاتٌ. ﴿فَذَٰنِكَ﴾ إشارةً إلى العصا واليدِ، وشدَّده ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورويسٌ. ﴿بُرْهَـٰنَانِ﴾ حجّتانِ وبُرْهانُ فُعْلانُ لقولهم أَبْرَهَ الرجلُ إذا جاءَ بالبرهانِ من قولِهم بَرِهَ الرجلُ إذا ابيضَّ، ويُقَالُ برهاءُ وَبَرَهْرَهَةٌ للمرأةِ البيضاءِ وقيل فُعْلالُ لقولِهم بَرْهَنَ. ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ مُرْسَلاً بهما. ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِي۟هِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ﴾ فكانوا أحِقَّاء بأنْ يُرْسَلَ إليهم.

قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾

(٣٣) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾ بها.

(٣٤) ﴿وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا﴾ معيناً وهو في الأصل اسمُ ما يُعَانُ به كالدفءِ، وقرأ نافعٌ رِداً بالتخفيف. ﴿يُصَدِّقُنِىٓ﴾ بتخليصِ الحقِّ وتقريرِ الحجَّةِ وتزييفِ الشبهةِ. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ﴾ ولساني لا يطاوِعُني عند المحاجَّةِ، وقيل المرادُ تصديقُ القوم لتقريرِهِ وتوضيحِه لكنَّه أُسْنِدَ إليه إسنادَ الفعلِ إلى السببِ. وقرأ عاصمٌ وحمزةُ يصدقُني بالرفع على أنه صفةٌ والجوابُ محذوفٌ.

(٣٥) ﴿قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ سنقوِّيك به فإنَّ قوَّةَ الشخص بشدةِ اليدِ على مزاولةِ الأمورِ، ولذلك يُعَبَّرُ عنه باليد وشدَّتِها بشدةِ العضُدِ. ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا﴾ غلبةً أو حَجَّةً. ﴿فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ باستيلاءٍ أو حِجَاجٍ. ﴿بِـَٔايَـٰتِنَآ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي اذهبا بآياتِنا، أو بنجعلَ أيْ نسلِّطُكُما بها، أو بمعنى لا يصِلُون أي تَمْتَنِعُون منهم، أو قسمٌ جوابُه لا يَصِلُون، أو بيانٌ للغالبونَ في قوله: ﴿أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ بمعنى أنه صلةٌ لما بينَه أو صلةٌ له على أنَّ اللامَ فيه للتعريفِ لا بمعنى الذي.

(٣٦) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ سحرٌ تختلِقُه لم يُفْعَلْ قبلُ مثلُه، أو سحرٌ تعملُه ثم تفتريه على اللهِ؛ أو سحرٌ موصوفٌ بالافتراءِ كسائرِ أنواعِ السحرِ. ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَـٰذَا﴾ يعنُونَ السحرَ أو ادِّعاءَ النبوةِ. ﴿فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كائناً في أيامِهم.

وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ
ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى
ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ
وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ
فِي ٱلۡيَمِّۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيٓ أَعۡلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلۡهُدَىٰ مِنۡ عِندِهِۦ﴾ فيعلمُ أني محقٌّ وأنتم مبطلونَ. وقرأ ابنُ كثير قال بغيرِ واوٍ. لأنه قال ما قاله جواباً لمقالِهم، ووجهُ العطفِ أنَّ المرادَ حكايةُ القولَيْنِ ليوازِنَ الناظِرُ بينَهما فيميِّز صحيحَهما من الفاسدِ. ﴿وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِۚ﴾ العاقبةُ المحمودةُ فإنَّ المرادَ بالدارِ الدنيا وعاقبتُها الأصليةُ هي الجنةُ لأنها خُلِقَتْ مجازاً إلى الآخرةِ، والمقصودُ منها بالذاتِ هو الثوابُ والعقابُ إنما قُصِدَ بالعرضِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ يكون بالياءِ. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ لا يفوزون بالهدى في الدنيا وحسنِ العاقبةِ في العُقْبَى.

(٣٨) ﴿وَقَالَ فِرۡعَوۡنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمَلَأُ مَا عَلِمۡتُ لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرِي﴾ نَفَى عِلْمَه بإلهٍ غيرِه دونَ وجودِه إذ لم يكنْ عندَه ما يقتضي الجزمَ بعدمِه، ولذلك أَمَرَ ببناءِ الصرحِ ليصعدَ إليه ويتطلَّعَ على الحالِ بقوله: ﴿فَأَوۡقِدۡ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ فَٱجۡعَل لِّي صَرۡحٗا لَّعَلِّيٓ أَطَّلِعُ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ﴾ كأنه توهَّم أنه لو كان لكان جِسْماً في السماءِ يمكنُ الترقِّي إليه ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلۡكَٰذِبِينَ﴾ أو أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً يترصَّدُ منه أوضاعَ الكواكبِ فيرى هل فيها ما يدلُّ على بعْثَةِ رسولٍ وتبدُّلِ دولةٍ، وقيل المرادُ بنفي العلمِ نفيُ المعلومِ كقوله تعالى ﴿أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾(١) فإنَّ معناه بما ليس فيهنَّ، ، وهذا من خواصِّ العلومِ الفعليةِ فإنها لازمةٌ لتحقُّقِ معلوماتِها فيلزمُ من انتفائِها لك انتفاؤُها، ولا كذلك العلومُ الانفعاليةُ، قيل أولُ من اتخذَ الآجُرَّ فرعونُ ولذلك أمرَ باتخاذه على وجْهٍ يتضمَّن تعليمَ الصنعةِ مع ما فيه من تعظُّمٍ؛ ولذلك نادى هامانَ باسمِه بيا في وسطِ الكلامِ.

(٣٩) ﴿وَٱسۡتَكۡبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُۥ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ بغير استحقاقٍ. ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ إِلَيۡنَا لَا يُرۡجَعُونَ﴾ بالنشور. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي بفتحِ الياءِ وكسرِ الجيمِ.

(٤٠) ﴿فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّۖ﴾ كما مر بيانُه، وفيه فخامةٌ وتعظيمٌ لشأنِ الآخذِ واستحقارٌ للمأخوذينَ كأنه أخذَهم مع كثْرتِهم في كفٍّ وطرحَهم في اليمِّ، ونظيرُه قولُه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾(٢) ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾(٣) ﴿فَٱنظُرۡ﴾

---

(١) يونس: «١٨».
(٢) الأنعام: «٩١».
(٣) الزمر: «٦٧».

يا محمدُ. ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ وحذِّرْ قومَك عن مثلِها.

﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾﴾

(٤١) ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً﴾ قدوةً للضلالِ بالحمْلِ على الإضلالِ، وقيل بالتسميةِ كقوله تعالى ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾[1]، أو بمنعِ الألطافِ الصارفةِ عنه. ﴿يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ إلى موجباتِها من الكفرِ والمعاصي. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

(٤٢) ﴿وَأَتْبَعْنَٰهُمْ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ طرداً عن الرحمةِ، أو لعنَ اللاعنينَ يلعنُهم الملائكةُ والمؤمنون. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ هُم مِّنَ ٱلْمَقْبُوحِينَ﴾ من المطرودين، أو ممن قُبِّحَ وجوهُهم.

(٤٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ ٱلْأُولَىٰ﴾ أقوامَ نوحٍ وهودٍ وصالحٍ ولوطٍ. ﴿بَصَآئِرَ لِلنَّاسِ﴾ أنواراً لقلوبهم تتبصَّر بها الحقائقَ وتميزُ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿وَهُدًى﴾ إلى الشرائعِ التي هي سُبُلُ اللهِ تعالى. ﴿وَرَحْمَةً﴾ لأنهم لو عمِلوا بها نالوا رحمةَ الله سبحانه وتعالى. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ ليكونوا على حالٍ يُرْجَى منهم التذكُّرُ، وقد فسِّر بالإرادةِ وفيه ما عرفْتَ.

(٤٤) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ﴾ يريدُ الواديَ، أوِ الطورَ فإنه كان في شقِّ الغربِ من مقامِ موسى، أو الجانبِ الغربيِّ منه والخطابُ لرسولِ الله ﷺ أي ما كنتَ حاضِراً. ﴿إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ﴾ إذ أوحينا إليه الأمرَ الذي أردْنَا تعريفَه. ﴿وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ للوحْيِ إليه أو على الوحْيِ إليه، وهم السبعونَ المختارونَ للميقاتَ، والمراد الدلالةُ على أنَّ إخبارَه عن ذلك من قبيلِ الإخبارِ عن المغيَّباتِ التي لا تُعْرَفُ إلا بالوحْيِ ولذلك استدرك عنه بقوله:

(٤٥) ﴿وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ﴾ أي ولكنَّا أوحينا إليك لأنا أنشأْنا قروناً مختلفةً بعد موسى فتطاولتْ عليهم المددُ، فحُرِّفَتِ الأخبارُ وتغيَّرتِ الشرائعُ واندرستِ العلومُ، فحذفَ المستدرِكَ وأقامَ سببَهُ مُقَامَهُ. ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا﴾ مقيماً. ﴿فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ شعيبٍ والمؤمنين به. ﴿تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ تقرأُ عليهم تعلُّماً منهم. ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ التي فيها قِصَّتُهم. ﴿وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ إياك ومخبرينَ لك بها.

---

(١) الزخرف: «١٩».

وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن
قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ
أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ
لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ قَالُواْ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓاْ إِنَّا
بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٩﴾

(٤٦) ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا﴾ لعلَّ المرادَ به وقتُ ما أعطاهُ التوراةَ وبالأولِ حينَ ما استنبأَه لأنهما المذكورانِ في القصدِ. ﴿وَلَٰكِن﴾ علَّمناك. ﴿رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ وقُرِئَتْ بالرفعِ على هذه رحمةٌ من ربِّك. ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بالفعلِ المحذوفِ. ﴿مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ لوقوعِهم في فترةٍ بينَك وبينَ عيسى، وهي خمسُمِائةٍ وخمسونَ سنةً، أو بينَك وبينَ إسماعيلَ، على أنَّ دعوةَ موسى وعيسى عليهما الصلاةُ والسلام كانتْ مختصَّةً ببني إسرائيلَ وما حَوَالَيْهم. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظُون.

(٤٧) ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ لولا الأُولى امتناعيةٌ والثانية تحضيضيةٌ واقعةٌ في سياقِها، لأنها إنما أُجِيبَتْ بالفاءِ تشبيهاً لها بالأمرِ مفعولُ يقولوا المعطوفُ على تصيبُهم بالفاءِ المعطِيَةِ معنَى السببيَّةِ المنبهةِ على أنَّ القولَ هو المقصودُ بأنْ يكونَ سبباً لانتفاءِ ما يُجابُ به، وأنه لا يصدُر عنهم حتى تلجئَهم العقوبةُ والجوابُ محذوفٌ والمعنى: لولا قولُهم إذا أصابتْهم عقوبةٌ بسبب كفرهم ومعاصِيهم ربَّنا هلاَّ أرسلْت إلينا رسولاً يبلِّغنا آياتِك فنتَّبِعَها ونكونَ من المصدِّقينَ، ما أرسلناك أي إنما أرسلناك قَطْعاً لِعُذْرِهم وإلزاماً للحجَّةِ عليهم. ﴿فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ يعني الرسولَ المصدَّقَ بنوعٍ من المعجزات. ﴿وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(٤٨) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُواْ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ من الكتابِ جملةً واليدِ والعصا وغيرِها اقتراحاً وتعنُّتاً. ﴿أَوَلَمْ يَكْفُرُواْ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ﴾ يعني أبناءَ جِنسِهم في الرأيِ والمذهبِ وهم كفرةُ زمانِ موسى، أو كان فرعونُ عربياً من أولادِ عادٍ. ﴿قَالُواْ سِحْرَانِ﴾ يعني موسى وهارونَ، أو موسى ومحمداً عليهما الصلاة والسلام. ﴿تَظَٰهَرَا﴾ تعاونا بإظهارِ تلك الخوارقِ أو بتوافُقِ الكتابين. وقرأ الكوفيونَ سِحْرانِ بتقديرِ مضافٍ أو جعلَهما سِحْرَيْنِ مبالغةً، أو إسنادُ تظاهُرِهما إلى فعلِهما دلالةً على سببِ الإعجازِ. وقُرِىءَ اظَّاهرا على الإدغامِ. ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ﴾ أي بكلٍّ منهما أو بكلِّ الأنبياءِ.

(٤٩) ﴿قُلْ فَأْتُواْ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ﴾ مما أُنْزِلَ على موسى وعلى محمدٍ، وإضمارُهما لدلالةِ المعنى، وهو يؤيدُ أنَّ المرادَ بالساحرينِ موسى ومحمدٌ عليهما الصلاة والسلام. ﴿أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إنا ساحرانِ مختلفانِ، وهذا من الشروط التي يُرادُ بها الإلزامُ والتبكيتُ، ولعلَّ مجيءَ حرفِ الشكِ للتهكُّم بهم.

﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ ۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾﴾

(٥٠) ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ دعاءَك إلى الإتيانِ بالكتابِ الأَهْدَى فحَذَفَ المفعولَ للعلمِ به، ولأنَّ فعلَ الاستجابةِ يُعَدَّى بنفسه إلى الدعاءِ وباللامِ إلى الداعي، فإذا عُدِّيَ إليه حُذِفَ الدعاءُ غالباً كقوله:

وداعٍ دَعـا يـا مَـنْ يُجيبُ إلَـى النَّـدَا فلَـمْ يَسْتَجِبْـهُ عِنْـدَ ذَاكَ مُجِيـبُ

﴿فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ﴾ إذ لو اتَّبعوا حجَّةً لأَتَوْا بها. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ﴾ استفهامٌ بمعنى النفي. ﴿بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ في موضعِ الحالِ للتأكيدِ أو التقييدِ، فإنَّ هوى النَّفْسِ قد يوافقُ الحقَّ. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ الذين ظلموا أنفسَهم بالانهماكِ في اتباعِ الهوى.

(٥١) ﴿۞ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ﴾ أتبعْنا بعضَه بعضاً في الإنزالِ ليتصلَ التذكيرُ، أو في النظمِ لتتقررَ الدعوةُ بالحجَّةِ والمواعظِ بالمواعيد والنصائحِ بِالعِبَرِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ فيؤمنون ويطيعون.

(٥٢) ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ نزلتْ في مؤمني أهلِ الكتابِ[1]، وقيل في أربعينَ مِنْ أهلِ الإنجيلِ اثنانِ وثلاثونَ جاءوا مع جعفرٍ من الحبشةِ وثمانيةٌ من الشام[2]، والضميرُ في مِنْ قبلِه للقرآنِ كالمستكِنِّ في:

(٥٣) ﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ﴾ أي بأنه كلامُ الله تعالى. ﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا﴾ استئنافٌ لبيانِ ما أوجبَ إيمانَهم به. ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ استئنافٌ آخرُ للدلالةِ على أنَّ إيمانَهم به ليس مما أحدثوه حينئذٍ، وإنما هو أمرٌ تقادَم عهدُه لما رأوا ذِكْرَهُ في الكتُبِ المتقدِّمةِ وكونُهم على دين الإسلام قبلَ نزولِ القرآنِ، أو تلاوتِه عليهم باعتقادِهم صِحَّته في الجملةِ.

(٥٤) ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ﴾ مرةً على إيمانهم بكتابِهم ومرةً على إيمانهم بالقرآنِ. ﴿بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبْرِهم وثباتِهم على الإيمانَيْنِ، أو على الإيمان بالقرآنِ قبلَ النزولِ وبعدَه، أو على أذى المشركينَ

(١) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٠٢٩) و«الدر المنثور» (٦/ ٤٢٦).

(٢) انظر «زاد المسير» (٦/ ٢٢٩).

وقال سيد قطب في «الظلال» (٥/ ٢٧٠٠ ـ ٢٧٠١):

وأياً من كان الذين نزلت في أمرهم هذه الآيات، فالقرآن يرد المشركين إلى حادث وقع، يعلمونه ولا ينكرونه كي يقفهم وجهاً لوجه أمام نموذج من النفوس الخالصة كيف تتلقى هذا القرآن، وتطمئن إليه، وترى فيه الحق وتعلم مطابقته لما بين أيديها من الكتاب. ولا يصدها عنه صاد من هوى، ولا من كبر، وتحتمل في سبيل الحق الذي آمنت به ما يصيبها من أذى وتطاول من الجهلاء، وتصبر على الحق في وجه الأهواء ووجه الإيذاء» هـ.

ومَنْ هاجَرَهُم من أهل دينهم. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ ويدفعون بالطاعةِ المعصيةَ لقوله ﷺ: «أتبعِ السيئةَ الحسنةَ تمحُها»[1]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الخير.

وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ ۚ أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾

(٥٥) ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ تكرُّماً. ﴿وَقَالُوا۟﴾ للاَّغينَ. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ متاركةً لهم وتوديعاً، أو دعاءً لهم بالسلامةِ عمَّا هم فيه. ﴿لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ لا نطلبُ صُحْبَتَهم ولا نريدُها.

(٥٦) ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ لا تقدِرُ على أنْ تُدْخِلَهم في الإسلامِ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ فيدخلُه في الإسلام. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ بالمستعِدِّين لذلك. والجمهورُ على أنها نزلتْ في أبي طالبٍ فإنه لما احتضرَ جاءه رسولُ الله ﷺ وقال: «يا عمِّ قلْ لا إله إلا الله، كلمةً أحاجُّ لك بها عندَ الله» قال: يا ابنَ أخي قد علمتُ إنك لصادقٌ ولكنْ أكرهُ أنْ يُقالَ خُدِعَ عندَ الموتِ[2].

(٥٧) ﴿وَقَالُوٓا۟ إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَآ﴾ نُخْرَجْ منها. نزلتْ في الحرثِ بنِ عثمانَ بنِ نوفلِ بنِ عبدِ منافٍ، أتى النبيَّ ﷺ فقال: نحن نعلمُ أنك على الحقِّ ولكنَّا نخافُ إنِ اتبعناك وخالفْنا العربَ ـ وإنما نحن أَكَلَةُ رأسٍ ـ أنْ يتخطَّفونا من أرضنا[3] فردَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أوَلَمْ نجعلْ مكانَهم حَرَمَاً ذا أَمْنٍ بحُرمةِ البيتِ الذي فيه يتناحرُ العربُ حولَه وهم آمِنُون فيه. ﴿يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ﴾ يُحْمَلُ إليه ويُجْمَعُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ في روايةٍ بالتاءِ. ﴿ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من كلِّ أوْبٍ. ﴿رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ فإذا كانَ هذا حالُهم وهم عَبَدَةُ الأصنامِ فكيف نعرِّضُهم للتخوُّفِ والتخطُّفِ إذا ضمُّوا إلى حرمةِ البيتِ حُرْمَةَ التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ جَهَلَةٌ لا يتفطَّنون له ولا يتفكَّرون

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٣، ١٥٨، ١٧٧) والترمذي (٤/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦ رقم ١٩٨٧).
وقال حديث حسن صحيح. وأخرجه الحاكم (١/ ٥٤) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي وأخرجه الدارمي (٢/ ٣٢٣) من حديث أبي ذر.

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٥ رقم ٤١ و٤٢/ ٢٥) من حديث أبي هريرة.
وأخرجه البخاري مطولاً بلفظ آخر (٨/ ٥٠٦ رقم ٤٧٧٢) من حديث المسيِّب.

(٣) أخرجه النسائي في «التفسير» (رقم: ٤٠٥) عن ابن عباس بسند منقطع.
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ ج٢٠/ ٩٤) بسند ضعيف.
والخلاصة أن الحديث ضعيف.

ليعلموه، وقيل إنه متعلِّقٌ بقوله من لدنَّا أي قليلٌ منهم يتدبَّرون فيعلمونَ أنَّ ذلك رزقٌ من عند اللهِ، وأكثرُهم لا يعلمون إذ لو علِمُوا لما خافوا غَيْرَهُ، وانتصابُ رزقاً على المصدرِ من معنى يُجْبَى، أو حالٌ من الثمراتِ لتخصُّصِها بالإضافةِ، ثم بيَّنَ أنَّ الأمرَ بالعكسِ فإنهم أحِقَّاءُ بأنْ يخافوا من بأسِ اللهِ على ما هم عليه بقوله:

وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا﴾ أي وكم من أهلِ قريةٍ كانت حالُهم كحالهم في الأمنِ وخفضِ العيشِ حتى أَشِرُوا فدمَّر اللهُ عليهم وخرَّبَ ديارَهم. ﴿فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ﴾ خاويةٌ. ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ من السُّكْنى إذ لا يسكُنها إلا المارَّةُ يوماً أو بعضَ يوم، أو لا يبقَى مَنْ يسكُنها من شؤمِ معاصِيهم. ﴿وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ﴾ منهم إذ لم يخلُفْهم أحدٌ يتصرَّفُ تصرُّفَهم في ديارهم وسائرِ متصرَّفاتِهم، وانتصابُ معيشتها بنزعِ الخافضِ أو بجعْلِها ظرفاً بنفسِها كقولك: زيد ظَنِّي مقيمٌ، أو بإضمارِ زمانٍ مضافٍ إليها أو مفعولاً على تضمينِ بَطِرتْ معنى كَفَرَتْ.

(٥٩) ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾ وما كانت عادتُه. ﴿مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا﴾ في أصلِها التي هي أعمالُها، لأنَّ أهلَها تكون أفطنَ وأنبلَ. ﴿رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ لإلزامِ الحجَّةِ وقطْعِ المعذِرةِ. ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ بتكذيبِ الرسلِ والعتوِّ في الكفرِ.

(٦٠) ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَىْءٍ﴾ من أسباب الدنيا. ﴿فَمَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا﴾ تتمتَّعون وتتزيَّنون به مُدَّةَ حياتِكم المنقضيةِ. ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وهو ثوابُه. ﴿خَيْرٌ﴾ في نفسِه من ذلك لأنه لذَّةٌ خاصَّةٌ وبهجةٌ كاملةٌ. ﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾ لأنه أبديٌّ. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ فتستبدلونَ الذي هو أدنى بالذي هو خيرٌ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ وهو أبلغُ في الموعظةِ.

(٦١) ﴿أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ وعداً بالجنة فإنَّ حُسْنَ الوعدِ بحسنِ الموعودِ. ﴿فَهُوَ لَٰقِيهِ﴾ مدركُه لا محالةَ، لامتناعِ الخلْفِ في وعدِه، ولذلك عطَفَه بالفاءِ المعطيةِ معنَى السببيةِ. ﴿كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ الذي هو مشوبٌ بالآلام مكدَّرٌ بالمتاعبِ مستعْقَبٌ بالتحسُّر على الانقطاع. ﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ﴾ للحساب أو العذابِ، وثم للتراخي في الزمان أوِ الرتبةِ. وقرأ نافعٌ وابنُ عامر في روايةٍ والكسائيُّ ثمَّ هْو بسكونِ الهاءِ تشبيهاً للمنفصِلِ بالمتصلِ، وهذه الآيةُ كالنتيجةِ للتي قبلَها ولذلك رُتِّبَتْ عليها بالفاءِ.

وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا ۖ تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾

(٦٢) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ عطفٌ على يومِ القيامة أو منصوبٌ باذكُرْ. ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي الذين كنتم تزعمونهم شركائي، فحُذِفَ المفعولانِ لدلالةِ الكلامِ عليهما.

(٦٣) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بثبوتِ مقتضاهُ وحصولِ مؤدَّاهُ وهو قوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[1] وغيرُه من آيات الوعيد. ﴿رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ﴾ أي هؤلاءِ الذين أغويْنَاهم فحُذِفَ الراجعُ إلى الموصولِ. ﴿أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أغويناهم فَغَوَوْا غيًّا مثلَ ما غويْنَا، وهو استئنافٌ للدلالةِ على أنهم غَوَوْا باختيارِهم وأنهم لم يفعلُوا بهم إلا وسوسةً وتسويلاً، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين صفةً وأغويناهم الخبرَ لأجلِ ما اتصلَ به فإفادةُ زيادةٍ على الصفةِ، وهو إنْ كانَ فضْلَةً لكنّه صارَ من اللوازمِ. ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ منهم ومما اختاره من الكفرِ هَوَى منهم، وهو تقريرٌ للجملةِ المتقدمةِ ولذلك خلتْ عن العاطِفِ وكذا. ﴿مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ أي ما كانوا يعبدونَنا، وإنما كانوا يعبدُون أهواءَهم. وقيل ما مصدريةٌ متصلةٌ بتبرأْنا أي تبرأنا من عبادتِهم إيَّانا.

(٦٤) ﴿وَقِيلَ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ﴾ من فَرْطِ الحيرةِ. ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ﴾ لعجزِهم عن الإجابة والنُّصْرةِ. ﴿وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ لازماً بهم. ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَهْتَدُونَ﴾ لوجْهٍ من الحيلِ يدفعونَ به العذابَ، أو إلى الحقِّ لما رَأَوا العذابَ لو للتَّمنِّي أي تمنَّوا أنهم كانوا مهتدينَ.

(٦٥) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ عطفٌ على الأولِ فإنه تعالى يسألُ أولاً عن إشراكِهم به ثم عن تكذيبهم الأنبياءَ.

(٦٦) ﴿فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ﴾ فصارتِ الأنباءُ كالعمي عليهم لا تهتدي إليهم، وأصلُه فعمُوا عن الأنباءِ لكنه عكسَ مبالغةً ودلالةً على أنَّ ما يحضرُ الذهنَ إنما يُفْبَضُ ويُرَدُّ عليه من خارجٍ فإذا أخطأه لم يكنْ له حيلةٌ إلى استحضارِه، والمرادُ بالأنباءِ ما أجابوا به الرسلَ أو ما يعمُّها وغيرَها، فإذا كانتِ الرسل يتتعتَعُونَ في الجوابِ عن مثلِ ذلك من الهولِ ويفوِّضُون إلى علمِ اللهِ تعالى فما ظنُّك بالضُّلَّالِ من أُمَمِهم، وتعديةُ الفعلِ بِعَلَى لتضمُّنه معنى الخفاءِ. ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ لا يسألُ بعضُهم بعضاً عن الجوابِ لفرطِ الدهشةِ والعلمِ بأنه مثلُه في العجزِ.

---

(١) هود: «١١٩».

فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ
مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا
يُعْلِنُونَ ﴿٦٩﴾ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ
أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ أَفَلَا
تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

(٦٧) ﴿ فَأَمَّا مَن تَابَ﴾ من الشركِ. ﴿ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ وجمع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ. ﴿ فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ﴾ عندَ الله وعسى تحقيقٌ على عادةِ الكرامِ، أو ترجٍّ من التائبِ بمعنى فلْيتوقعْ أنْ يفلحَ.

(٦٨) ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ۗ﴾ لا موجبَ عليه ولا مانعَ له. ﴿مَا كَانَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ ۚ﴾ أي التخيُّر كالطِّيَرَةِ بمعنَى التطيُّرِ، وظاهرهُ نفيُ الاختيارِ عنهم رأساً والأمرُ كذلك عندَ التحقيقِ، فإنَّ اختيارَ العبادِ مخلوقٌ باختيارِ اللهِ منوطٌ بدواعٍ لا اختيارَ لهم فيها، وقيل المرادُ أنه ليس لأحدٍ من خلْقه أنْ يختارَ عليه ولذلك خلا عن العاطفِ، ويؤيده ما رُوِيَ أنه نزلَ في قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾(١). وقيل ما موصولةٌ مفعولٌ ليختارَ والراجعُ إليه محذوفٌ والمعنَى: ويختارُ الذي كان لهم فيه الخِيَرَةُ أي الخيرُ والصلاحُ. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ تنزيهٌ له أنْ ينازعَه أحدٌ أو يزاحِمَ اختيارَه اختيارٌ. ﴿ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم أو مشاركةِ ما يشركونَه.

(٦٩) ﴿ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ كعداوةِ الرسولِ وحِقْدِهِ. ﴿ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ كالطعنِ فيه.

(٧٠) ﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ﴾ المستحقُّ للعبادةِ. ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ لا أحدَ يستحِقُّها إلا هو. ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ لأنه المولي للنِّعَمِ كلِّها عاجلِها وآجلِها يحمدُه المؤمنونَ في الآخرةِ كما حمدُوه في الدنيا بقولِهم ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ﴾(٢) ـ ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾(٣) ابتهاجاً بفضلِه والتذاذاً بحمْدِه. ﴿ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافذُ في كلِّ شيءٍ. ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالنشورِ.

(٧١) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا﴾ دائماً من السَّرْدِ وهو المتابعةُ والميمُ مزيدةٌ كميمِ دلامِصٍ. ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسكانِ الشمسِ تحتَ الأرضِ أو تحريكِها حولَ الأُفُقِ الغائرِ. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۖ﴾ كان حقُّه هل إلهٌ فذُكِرَ بِمَنْ على زعْمِهم أنَّ غيرَهُ آلهةٌ. وعن ابنِ كثيرٍ بضئاءٍ بهمزتينِ. ﴿ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبُّرٍ واستبصارٍ.

---

(١) الزخرف: «٣١» وانظر أسباب النزول للسيوطي ص١٥٣.
(٢) فاطر: «٣٤».
(٣) الزمر: «٧٤».

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن
فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾
وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟
يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾ ۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ
بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(٧٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ بإسْكَانِها في وَسَطِ السماءِ أو تحريكِها على مدارٍ فوقَ الأفقِ. ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةٌ عن متاعبِ الأشغالِ، ولعلَّه لم يصفِ الضياءَ بما يقابلُه لأنَّ الضوءَ نعمةٌ في ذاتِه مقصودٌ بنفسِه ولا كذلك الليلُ، ولأنَّ منافعَ الضوءِ أكثرُ مما يقابلُه ولذلك قَرَنَ أفلا تسمعونَ وبالليلِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ لأنَّ استفادةَ العقلِ من السمعِ أكثرُ مِن استفادتِه من البصرِ.

(٧٣) ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ في الليلِ ﴿وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ في النهار بأنواعِ المكاسبِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولكي تعرِفُوا نعمةَ الله في ذلك فتشكروه عليها.

(٧٤) ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تقريعٌ بعدَ تقريعٍ للإشعارِ بأنه لا شيءَ أجلبُ لغضبِ اللهِ منَ الإشراكِ به، أوِ الأولُ لتقريرِ فسادِ رأيِهم والثاني لبيانِ أنه لم يكنْ عن سندٍ وإنما كان محضَ تَشَهٍّ وهَوًى.

(٧٥)﴿وَنَزَعْنَا﴾ وأخرجنا. ﴿مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ وهو نبيُّهم يشهدُ عليهم بما كانوا عليه. ﴿فَقُلْنَا﴾ للأُمم. ﴿هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ﴾ على صحةِ ما كنتم تَدِينُونَ به. ﴿فَعَلِمُوٓا۟﴾ حينئذ. ﴿أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ﴾ في الألوهية لا يشارِكُه فيها أحدٌ. ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾ وغابَ عنهم غيبةَ الضائعِ. ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الباطلِ.

(٧٦) ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ كان ابنَ عمِّه يصهرُ بنُ قاهثِ بنِ لاوى وكان ممن آمنَ به. ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فطلبَ الفضلَ عليهم وأن يكونوا تحتَ أمرِه، أو تكبَّر عليهم أو ظَلَمَهُم. قيل وذلك حين ملَّكَهُ فرعونُ على بني إسرائيلَ، أو حسدَهم لما رُوِيَ أنه قال لموسى عليه السلام: لك الرسالةُ ولهارونَ الحبورةُ وأنا في غيرِ شيءٍ إلى متى أصبرُ؟ قال موسى هذا صنعُ اللهِ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ﴾ من الأموالِ المدَّخرةِ. ﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ﴾ مفاتيحَ صناديقِه جمعُ مِفْتَحٍ بالكسر وهو ما يُفْتَحُ به، وقيل خزائنُه وقياسُ واحدِها المفتحُ. ﴿لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ﴾ خبرُ إنَّ، والجملةُ صلةٌ وهو ثاني مفعولي آتى، وناء به الحِملُ إذا أثقلَه حتى أمالَه، والعُصْبَةُ والعِصَابةُ الجماعةُ الكثيرةُ واعْصَوْصَبُوا اجتمعُوا. وقرىء

لَيَنوءُ بالياءِ على إعطاء المضافِ حكْمَ المضافِ إليه. ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ﴾ منصوبٌ بتنوءُ. ﴿لَا تَفْرَحْ﴾ لا تبطرْ والفرحُ بالدنيا مذمومٌ مطلقاً لأنه نتيجةُ حبِّها والرِّضَا بها والذهولُ عن ذهابِها، فإنَّ العلمَ بأنَّ ما فيها مِنَ اللذَّةِ مفارَقَةٌ لا محالةَ يوجبُ التَّرحَ كما قيلَ:

أشدّ الغَمِّ عِنْدي فِي سُرُورٍ تيَقَّن عَنْهُ صَاحِبُهُ انْتِقَالاً

ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾[1]، وعلَّل النهيَ ها هنا بكونه مانِعاً من محبةِ اللهِ تعالى فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾ أي بزخارفِ الدنيا.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾

(٧٧) ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ﴾ من الغِنَى. ﴿ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ بصرفِه فيما يوجِبُها لك فإنَّ المقصودَ منه أنْ يكونَ وصْلةً إليها. ﴿وَلَا تَنسَ﴾ ولا تتركْ تركَ المنسيِّ. ﴿نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ وهو أنْ تحصلَ بها آخرتَك وتأخذَ منها ما يكفيك. ﴿وَأَحْسِن﴾ إلى عبادِ الله. ﴿كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ فيما أنعمَ الله عليك. وقيل أحسنْ بالشكرِ والطاعةِ كما أحسنَ إليك بالإنعام. ﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأمرٍ يكون عِلَّةً للظُّلم والبغي، نهيٌ له عما كان عليه من الظلمِ والبغي. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ لسوءِ أفعالهم.

(٧٨) ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ فُضِّلْتُ به على الناس واستوجبتُ به التفوُّقَ عليهم بالجاهِ والمالِ، وعلى علمٍ في موضعِ الحالِ وهو علمُ التوراةِ وكان أعْلَمَهُم بها، وقيل هو الكيمياءُ، وقيل علمُ التجارةِ والدهْقَنَةِ وسائرُ المكاسب، وقيل العلمُ بكنوز يوسفَ، وعندي صفةٌ له أو متعلِّقٌ بأوتيتُه كقولك: جاز هذا عندي أي في ظنِّي واعتقادي. ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ تعجُبٌ وتوبيخٌ على اغترارِه بِقوَّته وكثرةِ مالِه، مع علمِه بذلك لأنه قرأهُ في التوراةِ وسمعَه من حفَّاظِ التواريخِ، أو ردٌّ لادِّعائِه للعلمِ وتعظُّمِه به بنفي هذا العلم عنه أي أعِنْدَهُ مِثْلُ ذلك العلمِ الذي ادَّعى. ولم يعلمْ هذا حتَّى يقيَ به نفسَه مصارعَ الهَالِكينَ. ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ سؤالُ استعلامٍ فإنه تعالى مطَّلِعٌ عليها، أو معاتبةٍ فإنهم يُعَذَّبونَ بها بغتةً، كأنه لما هُدِّدَ قارونُ بذكرِ إهلاكِ مَنْ قبلَه ممَّنْ كانوا أقوى منه وأغنى أكَّدَ ذلك بأنْ بيَّنَ أنه لم يكنْ مطَّلِعاً على ما يخصُّهم بلِ اللهُ مطَّلِعٌ على ذنوبِ المجرمينَ كلِّهم معاقِبُهم عليها لا محالةَ.

---

(١) الحديد: «٢٣».

فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو
حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا
يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا
كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾

(٧٩) ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ﴾ كما قيل إنه خرجَ على بغلةٍ شهباءَ عليه الأُرجوانُ وعليها سَرْجٌ من ذهبٍ ومعه أربعةُ آلافٍ على زِيِّه. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ على ما هو عادةُ الناسِ من الرغبةِ. ﴿يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ﴾ تمنوا مثلَه لا عينَه حذَراً عن الحسدِ. ﴿إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ من الدنيا.

(٨٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ بأحوالِ الآخرة للمتمنِّيْنَ. ﴿وَيْلَكُمْ﴾ دعاءٌ بالهلاكِ استُعْمِلَ للزَّجْرِ عما لا يُرْتَضى. ﴿ثَوَابُ ٱللَّهِ﴾ في الآخرة. ﴿خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما أوتي قارونُ بل من الدنيا وما فيها. ﴿وَلَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ الضميرُ فيه للكلمةِ التي تكلَّم بها العلماءُ أو للثواب، فإنه بمعنَى المثوبةِ أو الجنةِ أو للإيمانِ والعملِ الصالحِ فإنهما في معنى السيرةِ والطريقةِ. ﴿إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي.

(٨١) ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ رُوِيَ[1] أنه كان يؤذي موسَى عليه السلام كلَّ وقتٍ وهو يداريه لقرابتِه حتى نزلتِ الزكاةُ، فصالحه عن كلِّ ألفٍ على واحدٍ فَحَسَبَهُ فاستكثرهُ، فعمدَ إلى أنْ يفضحَ موسى بينَ بني إسرائيلَ ليرفُضُوهُ، فَبَرْطَلَ بَغِيَّةً لترميهِ بنفسِها فلما كان يومُ العيد قام موسى خطيباً فقال: مَنْ سرقَ قطعْناه، ومن زَنَى غيرَ محصَنٍ جلدْناه، ومن زنى محصَناً رجمناه، فقال قارون ولو كنتَ قال: ولو كنتُ، قال إنَّ بني إسرائيلَ يزعمونَ أنك فَجَرْتَ بفلانةَ فأُحْضِرَتْ، فناشدَها موسى عليه السلام باللهِ أنْ تصدقَ فقالتْ: جعلَ لي قارونُ جُعَلاً على أنْ أرمِيَكَ بنفسي، فخرَّ موسى شاكياً منه إلى ربِّه فأوحَى إليه أنْ مُرِ الأرضَ بما شِئْتَ فقال: يا أرضُ خذيهِ فأخذتْه إلى ركبتيهِ، ثم قال خذيهِ إلى وسطِه، ثم قال خذيهِ فأخذتْه إلى عُنُقِهِ، ثم قال خذيهِ فخُسِفَتْ به وكان قارونُ يتضرَّع إليه في هذه الأحوالِ فلم يرحمْه، فأوحَى الله إليه ما أفظَّك استرحمكَ مراراً فلم ترحَمْهُ، وعزَّتي وجلالي لو دعاني مرةً لأجبتُه، ثم قال بنو إسرائيلَ: إنما فعلَه ليرثَه، فدعا اللهَ تعالى حتى خَسَفَ بدارِهِ وأموالِه. ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ أعوانٍ مشتقةً من فَأَوْتُ رأسَه إذا ميَّلْتَه. ﴿يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فيدفعونَ عنه عذابَه. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾ الممتنعِين منه مِنْ قولهم نصرهُ من عدوِّه فانتصرَ إذا منعَه منه فامتنعَ.

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٢٤) عن ابن عباس.

وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ
لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ
عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى
ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ۚ قُل
رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾

(٨٢) ﴿وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ﴾ منزلتَهُ. ﴿بِٱلْأَمْسِ﴾ منذُ زمانٍ قريبٍ. ﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ﴾ يبسطُ ويقدرُ بمقتضَى مشيئتِهِ لا لكرامةٍ تقتضي البسْطَ ولا لهوانٍ يوجِبُ القبضَ، وويكأنَّ عندَ البصريينَ مركبٌ من ويْ للتعجبِ وكأنّ للتشبهِ والمعنى: ما أشبهَ الأمرَ أنَّ اللهَ يبسطُ الرزقَ. وقيل مِنْ ويْكَ بمعنى ويْلَكَ وأنَّ تقديره ويْكَ اعلمْ أنَّ اللهَ. ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعْطِنا ما تمنَّيْنا. ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ لتوليدِه فينا ما ولَّدَهُ فيه، فخسفَ بنا لأجلِه. وقرأ حفصٌ بفتحِ الخاءِ والسينِ. ﴿وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ لنعمةِ الله أو المكذِّبونَ بِرُسُلِهِ وبما وعدوا لهم من ثوابِ الآخرة.

(٨٣) ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ﴾ إشارةُ تعظيمٍ كأنه قال: تلك التي سمعت خبرها وبلغك وصفها، والدار صفة والخبر: ﴿نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ غلبة وقهراً. ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ ظلماً على الناس كما أراد فرعون وقارون. ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ﴾ المحمودة. ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ ما لا يرضاه الله.

(٨٤) ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ذاتاً وقدراً ووصفاً. ﴿وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضعَ الضمير تهجيناً لحالِهم بتكريرِ إسنادِ السيئةِ إليهم. ﴿إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي إلا مثلَ ما كانوا يعملون فحُذِفَ المِثْلُ وأُقِيمَ ما كانوا يعملون مقامَهُ مبالغةً في المماثَلَةِ.

(٨٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أوجبَ عليك تلاوتَه وتبليغَه والعملَ بما فيه. ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ أيَّ معادٍ، وهو المقامُ المحمودُ الذي وعدَكَ أنْ يبعثَك فيه، أو مكةَ[1] التي اعْتَدْتَ بها على أنه من العادةِ ردُّه إليها يومَ الفتحِ، كأنه لما حكمَ بأنَّ العاقبةَ للمتقين وأكَّدَ ذلك بوعدِ المحسنينَ ووعيدِ المسيئينَ وَعَدَهُ بالعاقبةِ الحسنى في الدارين. روي أنه لما بلغَ جحفةَ في مهاجَرِهِ اشتاقَ إلى مولدِهِ ومولدِ آبائه فنزلتْ[2]. ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ﴾ وما يستحقُّه من الثوابِ والنصرِ ومَنْ منتصِبٌ بفعلٍ يفسِّره أعلمُ. ﴿وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما استحقَّه من العذابِ والإذلالِ يعني به نفسَه والمشركين، وهو تقريرٌ للوعد السابقِ وكذا قولُه:

---

(١) أخرجه البخاري (٨/٥٠٩ ـ ٥١٠ رقم ٤٧٧٣) عن ابن عباس.
(٢) قال ابن كثير في تفسيره (٣/٤١٤): «وهذا من كلام الضحاك يقتضي أن هذه الآية مدنية، وإن كان مجموع السورة مكياً، والله أعلم» هـ.

وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۖ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا
يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ ۖ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ
مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ ۚ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾

(٨٦) ﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي سيردُّك إلى معادِك كما ألقى إليك الكتابَ وما كنتَ ترجوه. ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ ولكنْ ألقاه رحمةً منه، ويجوزُ أنْ يكونَ استثناءً محمولاً على المعنى كأنه قال: وما ألقي إليك الكتابَ إلا رحمةً. ﴿فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ بمداراتِهم والتحمُّلِ عنهم والإجابةِ إلى طِلْبَتِهم.

(٨٧) ﴿وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ عن قراءتها والعملِ بها. ﴿بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ﴾ وقرىء يُصِدنَّكَ من أَصَدَ. ﴿وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى عبادته وتوحيدِهِ. ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بمساعدتِهم.

(٨٨) ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ هذا وما قبلَه للتهييج وقطعِ أطماعِ المشركينَ عن مساعدته لهم. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ إلا ذاتَه فإنَّ ما عداهُ ممكنٌ هالِكٌ في حدِّ ذاته معدومٌ. ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ﴾ القضاءُ النافِذُ في الخلْقِ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ بالحقِّ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ طسمَ القصصَ كان له من الأجر بعددِ مَنْ صدَّقَ موسى وكذَّبَ ولم يبقَ مَلَكٌ في السموات والأرضِ إلا شهدَ له يومَ القيامة أنه كان صادِقاً»[1].



(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٣) وهو حديث موضوع تقدم الكلام في آخر آل عمران.

سُورَةُ العَنكَبُوت

ترتيبها ٢٩ — آياتها ٦٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ
ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَاۚ سَآءَ مَا
يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ لَءَاتٍۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٥﴾

سورة العنكبوت مكية وآيها تسع وستون آية(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ سبق القولُ فيه، ووقوعُ الاستفهامِ بعدَه دليلُ استقلالِه بنفسِه أو بما يُضْمَرُ معهُ.

(٢) ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ﴾ الحسبانُ مما يتعلَّق بمضامينِ الجملِ للدلالةِ على جهةِ ثبوتها ولذلك اقتضَى مفعولينِ متلازمين أو ما يسدُّ مسدَّهما كقوله: ﴿أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ فإنَّ معناه أحسبوا تركَهم غيرَ مفتونِينَ لقولهم آمنَّا، فالتركُ أولُ مفعولَيْه وغيرَ مفتونينَ من تمامِه ولقولهم آمنا هو الثاني كقولك: حسبتُ ضربَه للتأديبِ، أو أنفسَهم متروكينَ غيرَ مفتونينَ لقولهم آمنا بل يمتحنُهم الله بمشاقِّ التكاليفِ، كالمهَاجَرةِ والمجاهَدَةِ ورفضِ الشهواتِ ووظائفِ الطاعاتِ وأنواعِ المصائبِ في الأنفس

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٤٤٩) و«زاد المسير» (٦/ ٢٥٣) والبحر المحيط (٧/ ١٣٩) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٢٣) وفي ظلال القرآن (٥/ ٢٧١٨).

والأموالِ ليتميَّزَ المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ في الدين من المضْطَرِب فيه، ولينالوا بالصبر عليها عواليَ الدرجاتِ، فإنَّ مجرَّدَ الإيمانِ وإنْ كان عن خلوصٍ لا يقتضي غيرَ الخلاصِ من الخلودِ في العذابِ. رُوِيَ أنها نزلتْ في ناسٍ من الصحابة جزِعُوا من أذى المشركين[١]، وقيل في عمَّارٍ وقد عُذِّبَ في الله تعالى[٢]، وقيل في مهجعٍ مولى عمرَ بنِ الخطاب رماه عامر بنُ الحضرمي بسهمٍ يومَ بدرٍ فقتلَه فجزِعَ عليه أبواهُ وامرأتُه[٣].

(٣) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ متصلٌ بِأَحَسِبَ أو بلا يفتنونَ، والمعنى أنَّ ذلك سنةٌ قديمة جاريةٌ في الأمم كلِّها فلا ينبغي أنْ يُتَوَقَّعَ خلافُه. ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ فليتعلَّقنَّ علمُه بالامتحان تعلُّقاً حالياً يتميَّزُ به الذين صدقوا في الإيمان والذين كذَّبوا فيه، وينوطُ به ثوابَهم وعقابَهم ولذلك قيل المعنى ولَيُمَيِّزَنَّ أو ليجازينَّ، وقرىء ولَيُعْلِمَنَّ من الإعلامِ أي وليعرفنَّهم اللهُ الناسَ أو لَيِسِمَنَّهُمْ بِسِمَةٍ يُعْرَفُونَ بها يومَ القيامة كبياضِ الوجوهِ وسوادِها.

(٤) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ الكفرَ والمعاصيَ فإنَّ العملَ يعمُّ أفعالَ القلوب والجوارح. ﴿أَن يَسْبِقُونَاْ﴾ أنْ يفوتُونا فلا نقدِرُ أنْ نجازِيَهُم على مساويهم وهو سادٌّ مسدَّ مفعولي حسِبَ لاشتمالِه على مسندٍ ومسندٍ إليه، ويجوزُ أنْ يضمَّنَ حسبَ معنى قَدَرَ أو أمْ منقطعةٌ والإضرابُ فيها لأنَّ هذا الحسبانَ أبطلُ من الأولِ ولهذا عقَّبه بقولِه: ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ أي بئسَ الذي يحكمونَه، أو حكماً يحكمونَه حكمَهم هذا فحذفَ المخصوصَ بالذمِّ.

(٥) ﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ ٱللَّهِ﴾ في الجنة، وقيل المرادُ بلقاء الله الوصولُ إلى ثوابه، أو إلى العاقبةِ من الموت والبعثِ والحساب والجزاءِ، على تمثيلِ حاله بحالِ عبدٍ قَدِمَ على سيِّده بعد زمانٍ مديدٍ وقد اطَّلعَ السيدُ على أحواله، فإما أنْ يلقاهُ ببِشْرٍ لما رضيَ من أفعاله أو بسخطٍ لما سخِطَ منها. ﴿فَإِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ الوقْتَ المضروبَ لِلِقَائِه. ﴿لَأَتٍ﴾ لجاءٍ وإذا كان وقتُ اللقاء آتياً كان اللقاءُ كائناً لا محالةَ، فلْيبادرْ ما يحققُ أملَه ويصدِّقُ رجاءَه أو ما يستوجِبُ به القربةَ والرضا. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لأقوالِ العباد. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بعقائدِهم وأفعالِهم.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١١/ج٢٠/١٢٩) عن الشعبي، وذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠).

(٢) أخرجه ابن سعد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن عساكر عن عبدالله بن عبيد بن عمير ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٤٥٠) ـ.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٢٧ رقم ١٤٤) «ذكره الثعلبي عن مقاتل...».
ثم قال: «وسنده إلى مقاتل في أول كتابه، وفي «الدلائل» لابن أبي شيبة من طريق القاسم بن عبدالرحمٰن بن عبدالله بن مسعود قال: «أول من استشهد يوم بدر مهجع مولى عمر» هـ.
وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٤٠).

● قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٢/ ١٩٩ ـ ٢٠٠): «وهذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب وفي هذه الجماعة فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها، بقية الدهر وذلك أن الفتنة من الله تعالى، والاختبار باق في ثغور المسلمين بالأسر ونكاية العدو وغير ذلك وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن ولكن التي تشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه من أمر العدو في كل ثغر» هـ.

وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ
سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا
لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآ ۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٩﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ
وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ۚ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿وَمَن جَٰهَدَ﴾ نفسه بالصبر على مضضِ الطاعة والكفِّ عن الشهوات. ﴿فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ لأنَّ منفعتَهُ لها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فلا حاجةَ به إلى طاعتِهم، وإنما كلَّف عبادَه رحمةً عليهم ومراعاةً لصلاحهم.

(٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ الكفرَ بالإيمانِ والمعاصي بما يتبعُها من الطاعاتِ. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي أحسنَ جزاءِ أعمالِهم.

(٨) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا﴾ بإيتائهما فعلاً ذا حُسْنٍ، أو كأنه في ذاتِه حَسَنٌ لفرْطِ حُسْنِه ووصَّى يجري مجرى أَمَرَ معنًى وتصرُّفاً. وقيل هو بمعنى قالَ أي وقلنا له أحسنْ بوالديك حسناً. وقيل حسناً منتصبٌ بفعلٍ مُضْمَرٍ على تقدير قولٍ مفسِّر للتوصيةِ أي قلنا، أَوْلِهما، أوِ افعلْ بهما حسناً، وهو أوفقُ لما بعدَه وعليه يحسنُ الوقفُ على بوالديه. وقرىء حَسَناً وإحساناً. ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ بإلهيته، عبَّر عن نفيها بنفي العلم بها إشعاراً بأنَّ ما لا يُعْلَمُ صحتُه لا يجوزُ اتباعُه وإن لم يعلمْ بطلانَه فضلاً عما علم بطلانَه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَآ﴾ في ذلك فإنه لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصية الخالق، ولا بدَّ من إضمار القولِ إنْ لم يُضْمَرْ قبلُ. ﴿إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعُ مَنْ آمنَ منكم ومَنْ أشرك ومن برَّ بوالديه ومن عقَّ. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالجزاءِ عليه، والآية نزلتْ(١) في سعد بنِ أبي وقاص وأمِّه حمنةَ، فإنها لما سمعتْ بإسلامه حلفتْ أنها لا تنتقلُ من الضَّحِّ ولا تطعمُ ولا تشربُ حتى يرتدَّ ولبثتْ ثلاثةَ أيام كذلك، وكذا التي في لقمانَ(٢) والأحقافِ(٣).

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ في جملتهم، والكمالُ في الصلاح منتهى درجاتِ المؤمنينَ ومتمنَّى أنبياءِ الله المرسلينَ، أو في مُدْخَلِهم وهو الجنةُ.

(١٠) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ بأنْ عذَّبهم الكفرةُ على الإيمان. ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ ما يصيبه من أذيَّتهم في الصرفِ عن الإيمان. ﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ في الصرفِ عن الكفرِ. ﴿وَلَئِن

(١) ذكره الواحدي في الأسباب (ص٣٤٠ ـ ٣٤١) والثعلبي والواقدي هكذا بغير سند، والقصة في صحيح مسلم من حديث سعد بن أبي وقاص (٤/ ١٨٧٧ رقم ١٧٤٨) بغير هذا السياق ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٧ رقم ١٤٦) ـ.

(٢) الآية: «١٥».

(٣) الآية: «١٥».

جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ فتحٌ وغنيمةٌ. ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدِّين فأشرِكُونا فيه، والمراد المنافقونَ أو قومٌ ضَعُفَ إيمانُهم فارتدوا من أذى المشركين ويؤيدُ الأولَ. ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ من الإخلاصِ والنفاقِ.

وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟
سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾
وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ ۖ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَٰهُ
وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلْنَٰهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بقلوبهم. ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيجازي الفريقينِ.

(١٢) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا﴾ الَّذِي نسلُكه في ديننا. ﴿وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ﴾ إنْ كان ذلك خطيئةً أو إن كان بعثٌ ومؤاخذةٌ، وإنما أَمَرُوا أنفسَهم بالحمْلِ عاطفينَ على أمرِهم بالاتباعِ مبالغةً في تعليقِ الحمْلِ بالاتباعِ والوعْدِ بتخفيفِ الأوزارِ عنهم إنْ كانتْ تشجيعاً لهم عليه، وبهذا الاعتبار ردَّ عليهم وكذَّبهم بقوله: ﴿وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ ۖ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ مِنَ الأُولَى للتبيينِ والثانيةُ مزيدةٌ والتقدير: وما هم بحاملينَ شيئاً من خطاياهُم.

(١٣) ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ﴾ أثقالَ ما اقترفتْه أنفسُهم. ﴿وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ وأثقالاً أُخَرَ معَها لما تسبَّبوا له بالإضلالِ والحمْلِ على المعاصي من غير أنْ ينقصَ من أثقالِ مَنْ تبعَهم شيءٌ[1]. ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ سؤالُ تقريعٍ وتبكيتٍ. ﴿عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من الأباطيلِ التي أضلُّوا بها.

(١٤) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ بعدَ المبعثِ، إذ رُوِيَ أنه بُعِثَ على رأسِ الأربعينَ ودعا قومه تسعَمائةٍ وخمسينَ وعاشَ بعد الطوفانِ ستينَ، ولعل اختيارَ هذه العبارةِ للدلالة على كمالِ العددِ فإن تسعَمائةٍ وخمسينَ قد يطلق على ما يقربُ منه ولما في ذِكرِ الألفِ من تخييلِ طولِ المدةِ إلى السامع، فإنَّ المقصودَ من القصةِ تسليةُ رسولِ الله ﷺ وتثبيتُه على ما يكابدُه من الكَفَرَةِ، واختلاف المميِّزَيْنِ لَما في التكريرِ من البشاعةِ. ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ﴾ طوفانُ الماءِ وهو لِمَا طافَ بكثرةٍ من سيلٍ أو ظلامٍ أو نحوِهما. ﴿وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ بالكفر.

(١٥) ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ﴾ أي نوحاً عليه الصلاة والسلام. ﴿وَأَصْحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ﴾ ومَنْ أَرْكَبَ معه من أولادِه وأتباعِه وكانوا ثمانينَ، وقيل ثمانيةً وسبعينَ، وقيل عشرةً نصفُهم ذكورٌ ونصفُهم إناثٌ. ﴿وَجَعَلْنَٰهَآ﴾ أي السفينةَ أو الحادِثةَ. ﴿ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ يتَّعِظون ويستدلُّون بها.

---

(١) التعبير عن الخطايا بالأثقال للإيذان بغاية ثقلها وكونها فادحة (س٧/ ٣٣).

وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ
مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ
اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ۖ وَمَا عَلَى
الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ عطفٌ على نوحاً أو نُصِبَ بإضمار اذْكُرْ، وقرىء بالرفع على تقدير ومِنَ المرسلين إبراهيمُ. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ظرفٌ لأرسلْنا أي أرسلْناه حينَ كَمُلَ عقلُه وتمَّ نظرهُ بحيثُ عرفَ الحقَّ وأمرَ الناسَ به، أو بدلٌ منه بدلَ اشتمالٍ إنْ قدِّر باذْكُرْ. ﴿وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما أنتم عليه. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشرَّ وتميِّزونَ ما هو خيرٌ مما هو شرٌّ، أو كنتم تنظرونَ في الأمورِ بنظرِ العلمِ دون نظرِ الجهلِ.

(١٧) ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ وتكذِبون كذباً في تسميتِها آلهةً وادِّعاءِ شفاعتِها عندَ الله تعالى، أو تعملونَها وتنحِتُونها للإفكِ، وهو استدلالٌ على شرارةِ ما هم عليه من حيثُ إنه زورٌ وباطلٌ. وقرىء تُخَلِّقون من خَلَّقَ للتكثير وتَخَلَّقون من تَخَلق للتكلُّفِ. وإفكاً على أنه مصدرٌ كالكذبِ أو نعتٌ بمعنى خلقاً ذا إفكٍ. ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ دليلٌ ثانٍ على شرارةِ ذلك من حيثُ إنه لا يجدي بطائلٍ، ورزقاً يحتملُ المصدرَ بمعنى لا يستطيعون أنْ يرزقُوكم وأن يُرَادَ المرزوقُ وتنكيره للتعميم. ﴿فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ كلَّه فإنه المالِكُ له. ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ متوسِّلينَ إلى مطالِبِكُم بعبادته مقيّدِينَ لما حفَّكم من النِّعم بشكرِهِ، أو مستعدِّين للقائِه بهما، فإنه: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وقرىء بفتحِ التاءِ.

(١٨) ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا﴾ وإنْ تكذِّبوني. ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ من قبلِي مِنَ الرسلِ فلم يضرَّهم تكذيبُهُم وإنما ضرَّ أنفسَهم حيثُ تسبَّبَ لما حلَّ بهم من العذابِ فكذا تكذيبُكم. ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ الذي يُزَالُ معه الشكُّ وما عليه أنْ يُصَدَّقَ ولا يكذَّبَ، فالآية وما بعدَها من جملة قصةِ إبراهيمَ إلى قوله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾[1] ويحتملُ أنْ تكونَ اعتراضاً بذكرِ شأنِ النبيِّ ﷺ وقريشٍ وهدْمِ مذهبِهم والوعيد على سوءِ صنيعهم، توسَّطَ بينَ طَرَفَيْ قصَّته من حيثُ إنَّ مساقَها لتسليةِ رسولِ الله ﷺ والتنفيسِ عنه، بأنَّ أباه خليلَ اللهِ صلواتُ اللهِ عليهما كان ممنوّاً بنحو ما مُنِيَ به من شركِ القومِ وتكذيبهم وتشبيهِ حالِه فيهم بحالِ إبراهيمَ في قومِه.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ﴾ من مادةٍ ومن غيرها. وقرأ حمزة والكسائيُّ وأبو بكر بالتاء على تقدير القولِ، وقرىء يبدأ. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ إخبارٌ بالإعادة بعدَ الموت معطوفٌ على أو لم يروا لا على يبدىءُ، فإنَّ الرؤيةَ غيرُ واقعةٍ عليه، ويجوز أنْ تؤوَّلَ الإعادةُ بأنْ ينشىءَ في كلِّ سنةٍ مثلُ

---

(١) العنكبوت: «٢٤».

ما كان في السنةِ السابقةِ من النباتِ والثمار ونحوهما وتُعْطَفُ على يبدىءُ. ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ ﴾ الإشارةُ إلى الإعادةِ أو إلى ما ذُكِرَ من الأمرينِ. ﴿ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ إذ لا يفتقرُ في فعلِه إلى شيءٍ.

قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ۖ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى
ٱلسَّمَآءِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَلِقَآئِهِۦٓ
أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ
حَرِّقُوهُ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ حكايةُ كلامِ الله لإبراهيمَ أو محمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ﴾ على اختلافِ الأجناسِ والأحوالِ. ﴿ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴾ بعدَ النشأةِ الأولى التي هي الإبداءُ، فإنه والإعادةُ نشأتانِ من حيثُ أنَّ كلاً اختراعٌ وإخراجٌ من العدمِ، والإفصاحُ باسمِ اللهِ مع إيقاعِه مبتدأً بعدَ إضمارِه في بَدَأَ والقياسُ الاقتصارُ عليه للدلالةِ على أنَّ المقصودَ بيانُ الإعادةِ، وأنَّ مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ ينبغي أنْ يُحْكَمَ له بالقدرة على الإعادةِ لأنها أهونُ والكلامُ في العطفِ ما مرَّ، وقرىء النشاءَةَ كالرآفةِ. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ لأنَّ قدرتَه لذاتِه ونسبةُ ذاتِه إلى كلِّ الممكِناتِ على سواءٍ فيقدرُ على النشأةِ الأخرى كما قَدَرَ على النشأةِ الأولى.

(٢١) ﴿ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ﴾ تعذيبَهُ. ﴿ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ ﴾ رحمَتَهُ. ﴿ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴾ تُرَدُّونَ.

(٢٢) ﴿ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ ربَّكم عن إدراكِكُم. ﴿ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ إنْ فَرَرْتُم من قضائِه بالتواري في الأرضِ أو الهبوطِ في مهاويها، والتحصُّنِ في السماء أو القِلاعِ الذاهبةِ فيها وقيل ولا مَنْ في السماء كقولِ حسانَ:

أَمَـنْ يَهْجُـو رَسُـولَ الله مِنْكُـمْ ... وَيَمْـدَحُـهُ وَيَنْصُـرُهُ سَـوَاءُ

﴿ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾ يحرُسكم عن بلاءٍ يظهرُ من الأرضِ أو ينزِلُ من السماء ويدفعُه عنكم.

(٢٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بدلائلِ وحدانيتِه أو بكُتبِه. ﴿ وَلِقَآئِهِۦٓ ﴾ بالبعثِ. ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يَئِسُوا۟ مِن رَّحْمَتِى ﴾ أي ييأسُونَ منها يومَ القيامة، فعبَّر عنه بالماضي للتحقُّقِ والمبالغةِ، أو أَيِسُوا في الدنيا لإنكارِ البعثِ والجزاءِ. ﴿ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بكفرِهم.

(٢٤) ﴿ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ ﴾ قوم إبراهيمَ له، وقرىء بالرفع على أنه الاسمُ والخبرُ ﴿ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ ﴾ وكان ذلك قولَ بعضِهم لكنْ لما قيل فيهم ورضيَ به الباقونَ أُسْنِدَ إلى كلِّهم. ﴿ فَأَنجَىٰهُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾ أي فقذفوه في النار فأنجاهُ الله منها بأنْ جعلَها عليه برداً وسلاماً. ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ ﴾ في إنجائه منها. ﴿ لَـَٔايَٰتٍ ﴾ هي حفظُه من أذى النارِ، وإخمادُها مع عِظَمِها في زمانٍ يسرٍ وإنشاءِ روضٍ مكانَها. ﴿ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ لأنهم المنتفعونَ بالتفحُّصِ عنها والتأملِ فيها.

وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٥﴾ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿وَقَالَ إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي لتتوادُّوا بينكم وتتواصلُوا لاجتماعِكم على عبادتها، وثاني مفعولي اتخذتُم محذوفٌ، ويجوز أنْ تكونَ مودةُ المفعولَ الثاني بتقدير مضافٍ أي اتخذتم أوثانَ سببِ المودةِ بينِكم أو بتأويلها بالمودودةِ. وقرأها نافعٌ وابن عامر وأبو بكر منونةً ناصبةً بينَكم والوجهُ ما سبقَ، وابنُ كثير وأبو عمرو والكسائي ورويسٌ مرفوعةً مضافةً على أنها خبرُ مبتدإٍ محذوفٍ أي هي مودودةٌ أو سببُ مودَّةٍ بينَكم. والجملةُ صفةُ أوثاناً أو خبرُ إنَّ على أنَّ ما مصدريةٌ أو موصولةٌ والعائدُ محذوفٌ وهو المفعولُ الأولُ. وقُرِئَتْ مرفوعةً منونةً ومضافةً بفتحِ بينَكم كما قرىء ﴿لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ﴾[1] وقرىءَ إنما مودةُ بينِكم. ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ أي يقومُ التناكرُ والتلاعُنُ بينكم، أو بينَكُم وبينَ الأوثانِ على تغليبِ المخاطَبينَ كقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾[2]. ﴿وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونكُم منها.

(٢٦) ﴿۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ﴾ هو ابنُ أخيهِ وأولُ مَنْ آمن به، وقيل إنه آمنَ به حينَ رأى النارَ لم تحرقْه. ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ من قومي. ﴿إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ إلى حيثُ أمرني. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي يمنعني من أعدائي. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يأمرني إلا بما فيه صلاحي. رُوِيَ[3] أنه هاجرَ من كُوثَى من سوادِ الكوفةِ مع لوطٍ وامرأتَه سارةُ ابنةُ عمِّه إلى حرَّانَ، ثم منها إلى الشامِ فنزلَ فلسطينَ، ونزلَ لوطٌ سدومَ.

(٢٧) ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ ولداً ونافلةً حين أَيِسَ من الولادةِ من عجوزٍ عاقرٍ، ولذلك لم يذكرْ إسماعيلَ. ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ﴾ فكثُر منهم الأنبياءُ. ﴿وَٱلْكِتَٰبَ﴾ يريدُ به الجنسَ ليتناولَ الكتبَ الأربعةَ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ﴾ على هجرتِه إلينا. ﴿فِي ٱلدُّنْيَا﴾ بإعطاءِ الولدِ في غير أوانه، والذريةِ الطيبةِ واستمرارِ النبوةِ فيهم وإنماءِ أهلِ المللِ إليه والثناءِ والصلاةِ عليه إلى آخرِ الدهرِ. ﴿وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ لفي عِدَادِ الكامِلينَ في الصلاحِ.

(٢٨) ﴿وَلُوطًا﴾ عطفٌ على إبراهيمَ أو على ما عُطِفَ عليه. ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ﴾ الفِعْلةَ البالغةَ في القُبحِ. وقرأ الحرميانِ وابن عامر وحفص بهمزةٍ مكسورةٍ على

---

(١) الأنعام: «٩٤».

(٢) مريم: «٨٢».

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٣٨).

الخبر[1] والباقونَ على الاستفهامِ وأجمعوا على الاستفهامِ في الثاني. ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لفاحِشَتِها من حيثُ إنها مما اشمأزَّتْ منه الطباعُ وتحاشَتْ عنه النفوسُ حتى أقدموا عليها لخبثِ طينتِهم.

أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ ۖ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ۖ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾

(٢٩) ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ﴾ وتتعرَّضون للسابلةِ بالقتلِ وأخذِ المالِ أو بالفاحشةِ حتى انقطعتِ الطرقُ، أو تقطعونَ سبيلَ النسلِ بالإعراضِ عن الحرثِ وإتيانِ ما ليسَ بحرثٍ. ﴿وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ﴾ في مجالسِكم الغاصَّةِ بأهلِها ولا يُقالُ للنادي إلا لما فيه أهلُه. ﴿ٱلْمُنكَرَ﴾ كالجماع والضراطِ وحلِّ الإزارِ وغيرها من القبائح عدمَ مبالاةٍ بها. وقيل الخَذفُ ورميُ البنادِقِ. ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في استقباحِ ذلك أو في دعوى النبوةِ المفهومةِ من التوبيخِ.

(٣٠) ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى﴾ بإنزالِ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ باتباعِ الفاحشةِ وسنِّها فيمنْ بعدَهم، وصفَهم بذلك مبالغةً في استنزالِ العذابِ وإشعاراً بأنهم أحِقَّاءُ بأنْ يُعَجَّلَ لهم العذابُ.

(٣١) ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالبشارة بالولدِ والنافلةِ. ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ قريةِ سدوم، والإضافةُ لفظيةٌ لأن المعنى على الاستقبالِ. ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ﴾ تعليلٌ لإهلاكِهم لهم بإصرارِهم وتماديهم في ظلمهم الذي هو الكفر وأنواعُ المعاصي.

(٣٢) ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ اعتراضٌ عليهم بأنَّ فيها مَنْ لم يَظلِمْ، أو معارضةٌ للموجبِ بالمانعِ وهو كونُ النبيِّ بين أظهُرِهم. ﴿قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ۖ لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ﴾ تسلمٌ لقوله مع ادِّعاءِ مزيد العلم به وأنهم ما كانوا غافلينَ عنه وجوابٌ عنه بتخصيصِ الأهل بِمَنْ عداهُ وأهله، أو تأقيتُ الإهلاكِ بإخراجِهم منها، وفيه تأخيرٌ للبيانِ عن الخطابِ. ﴿إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ الباقينَ في العذابِ أو القريةِ.

(٣٣) ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ﴾ جاءته المساءةُ والغمُّ بِسَبَبِهِم مخافةَ أنْ يقصِدَهم قومُه بسوءٍ، وأنْ صلةٌ لتأكيد الفعلينِ واتصالِهما. ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ وضاقَ بشأنِهم وتدبيرِ أمرِهم ذرعُه أي

---

(١) أي قرؤوا «إذ قال لقومه إنكم» بهمزة واحدة، بينما قرأ الباقون «أئنكم»، وأجمعوا على الاستفهام في الثاني أي في قوله «أئنكم لتأتون الرجال. . .».

طاقتُه كقولهم ضاقتْ يدُه وبإزائه رَحُبَ ذرْعُه بكذا إذا كان مطيقاً له، وذلك لأنَّ طويلَ الذراعِ ينالُ ما لا ينالُه قصيرُ الذراعِ. ﴿وَقَالُوا﴾ لما رأوا فيه أثرَ الضجرةِ. ﴿لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ﴾ على تمكُّنِهم منَّا. ﴿إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعقوبُ لَنُنْجِيَنَّه ومُنْجُوك بالتخفيف، ووافقَهم أبو بكر وابنُ كثير في الثاني. وموضعُ الكافِ الجرُّ على المختارِ، ونَصْب أَهْلَكَ بإضمارِ فعلٍ، أو بالعطفِ على محلِّها باعتبارِ الأصلِ.

إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ ۖ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ عذاباً منها، سُمِّيَ بذلك لأنه يُقْلِقُ المعذَّبَ مِنْ قولهم ارتجزَ إذا ارتجسَ أي اضطربَ. وقرأ ابن عامر مُنَزِّلُونَ بالتشديدِ. ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ بسببِ فِسْقِهم.

(٣٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً﴾ هي حكايتُها الشائعةُ أو آثارُ الديارِ الخرِبةِ، وقيل الحجارةُ الممطَرةُ فإنها كانتْ باقيةً بعدُ، وقيل بقيةُ أنهارِها المسودَّةِ. ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملونَ عقولَهم في الاستبصارِ والاعتبارِ، وهو متعلِّق بتركْنا أو آية.

(٣٦) ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ﴾ وافعلوا ما ترجُون به ثوابه فأُقِيمَ المسبَّبُ مقامَ السببِ، وقيل إنه من الرجاءِ بمعنى الخوفِ. ﴿وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾.

(٣٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ﴾ الزلزلةُ الشديدةُ وقيل صيحةُ جبريلَ عليه السلام لأنَّ القلوبَ ترجُفُ لها. ﴿فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ﴾ في بلدِهم أو دورِهم، ولم يُجمَعْ لأَمْنِ اللَّبْسِ. ﴿جَٰثِمِينَ﴾ باركينَ على الرُّكبِ ميِّتِينَ.

(٣٨) ﴿وَعَادًا وَثَمُودَا۟﴾ منصوبانِ بإضمارِ اذكرْ أو فعلٍ دلَّ عليه ما قبلَه مثلُ أهلكْنا. وقرأ حمزةُ وحفص ويعقوبُ وثمودَ غيرَ منصرفٍ على تأويلِ القبيلةِ. ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ﴾ أي تبيَّن لهم بعضُ مساكِنهم، أو إهلاكِهم من جهةِ مساكِنهم إذا نظرتُم إليها عندَ مرورِكم بها. ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ من الكفر والمعاصي. ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ السويِّ الذي بيَّنه الرسلُ لهم. ﴿وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾ متمكِّنينَ من النظرِ والاستبصارِ ولكنَّهم لم يفعلوا، أو متبينينَ أنَّ العذابَ لاحِقٌ بهم بإخبارِ الرسلِ لهم ولكنَّهم لجُّوا حتى هلكُوا.

(٣٩) ﴿وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ﴾ معطوف على عاداً، وتقديمُ قارونَ لشرفِ نسبِه. ﴿وَلَقَدْ

جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ﴾ فائتين بل أدركَهم أمرُ الله مِنْ سبقَ طالِبَه إذا فاتَه.

فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿فَكُلًّا﴾ من المذكورين. ﴿أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ عاقبناه بذنبه. ﴿فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحاً عاصفاً فيها حصباءُ، أو مَلَكاً رماهُم بها كقوم لوطٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾ كمدينَ وثمودَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ كقارونَ. ﴿وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ كقومِ نوحٍ وفرعونَ وقومه. ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليعامِلَهم معاملةَ الظالمِ فيعاقِبَهُم بغير جُرْمٍ إذ ليس ذلك من عادته عزَّ وجلَّ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ بالتعرُّضِ للعذابِ.

(٤١) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ فيما اتخذوه مُعْتَمَداً ومتَّكلاً. ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ فيما نسجتْه في الوهْنِ والخورِ بل ذاك أوهنُ فإن لهذا حقيقةً وانتفاعاً ما، أو مثلُهم بالإضافة إلى الموحد كمثلِها بالإضافة إلى رجلٍ بَنى بيتاً من حجرٍ وجصٍّ، والعنكبوتُ يقعُ على الواحدِ والجمعِ والمذكرِ والمؤنثِ، والتاءُ فيه كتاء طاغوتٍ ويجمعُ على عناكيبَ وعناكبَ وعكاب وعكبةٍ وأعكُبٍ. ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ﴾ لا بيتَ أوهنُ وأقلُّ وقايةً للحرِّ والبردِ منه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ يرجعونَ إلى علمٍ لعلِموا أنَّ هذا مثلُهم وأنَّ دينَهم أوهنُ من ذلك، ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ ببيتِ العنكبوتِ دينُهم سمَّاه به تحقيقاً للتمثيلِ فيكون المعنَى: وإنَّ أوهنَ ما يعتمدُ به في الدينِ دينُهم.

(٤٢) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَىْءٍ﴾ على إضمارِ القولِ أي قلْ للكفرة إنَّ الله يعلم، وقرأ البصريانِ بالياءِ حملاً على ما قبلَه وما استفهاميةٌ منصوبةٌ بتدعُونَ ويعلمُ معلَّقَةٌ عنها ومِنْ للتبيينِ أو نافيةٌ ومِنْ مزيدةٌ وشيءٌ مفعولُ تدعون أو مصدريةٌ وشيءٌ مصدرٌ أو موصولةٌ مفعولٌ ليعلمَ ومفعولُ تدعون عائِدُهَا المحذوفُ، والكلامُ على الأوَّلينِ تجهيلٌ لهم وتوكيدٌ للمَثَلِ وعلى الأخيرينِ وعيدٌ لهم. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تعليلٌ على المعنيينِ فإنَّ مِنْ فَرْطِ الغباوةِ إشراكُ ما لا يُعَدُّ شيئاً بِمَنْ هذا شأنُه، وأنَّ الجمادَ بالإضافةِ إلى القادرِ القاهرِ على كلِّ شيءٍ البالغِ في العلمِ وإتقانِ الفعلِ الغايةَ كالمعدومِ، وأنَّ مَنْ هذا وصْفُه قادرٌ على مجازاتِهم.

(٤٣) ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ﴾ يعني هذا المثلَ ونظائِرَه. ﴿نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ﴾ تقريباً لما بَعُدَ مِنْ أفهامِهم. ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ﴾ ولا يعقلُ حُسْنَها وفائدتَها. ﴿إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ الذين يتدبَّرون الأشياءَ على ما ينبغي. وعنه ﷺ أنه تلا هذهِ الآيةَ فقال: «العالِمُ مَنْ عقلَ عن اللهِ فعمِلَ بطاعتِه واجتنبَ سُخْطَه»[1].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٧ رقم ١٤٩): «ـ أخرجه ـ داود بن المحبر في كتاب «العقل» =

خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ مُحِقّاً غيرَ قاصِدٍ به باطلاً، فإنَّ المقصودَ بالذاتِ مَنْ خلقَها إفادةُ الخيرِ والدلالةُ على ذاتِه وصفاتِه كما أشارَ إليه بقوله: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ لأنهم المنتفِعونَ به.

(٤٥) ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ تقرباً إلى الله تعالى بقراءته وتحفُّظاً لألفاظِه واستكشافاً لمعانيه، فإنَّ القارئَ المتأمِّلَ قد ينكشفُ له بالتكرارِ ما لم ينكشفْ له أولَ ما قَرَعَ سمعَه. ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ بأنْ تكونَ سبباً للانتهاءِ عن المعاصي حالَ الاشتغالِ بها وغيرِها منْ حيثُ إنها تذكِّرُ اللهَ وتورِّثُ النفسَ خشيةً منه. رُوِيَ أنَّ فتًى من الأنصارِ كان يصلِّي مع رسولِ الله ﷺ الصلواتِ ولا يدعُ شيئاً من الفواحشِ إلا ارتكبَه، فوُصِفَ له عليه السلام فقال: «إنَّ صلاته ستنهاهُ» فلم يلبثْ أنْ تابَ[1]. ﴿وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ وللصلاة أكبرُ مِنْ سائرِ الطاعاتِ، وإنما عبَّر عنها به للتعليل بأنَّ اشتمالَها على ذكرِه هو العمدةُ في كونِها مفضَّلةً على الحسناتِ ناهيةً عن السيئاتِ، أو لَذِكْرُ اللهِ إيَّاكم برحمته أكبرُ مِنْ ذكرِكم إياه بطاعَتِه. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ منه ومن سائرِ الطاعاتِ فيجازيكم به أحسنَ المجازاةِ.

والحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ـ (بقية الباحث رقم ١٠٣٠) ـ عنه من حديث جابر. وأخرجه من طريق الحارث الثعلبي والواحدي، والبغوي ـ في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٤٣) ـ وذكره ابن الجوزي في الموضوعات» هـ.

وذكر ابن حجر في «المطالب العالية» (٣/ ٢١٥ ـ ٢١٦) أحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر. ثم قال: «وهذه الأحاديث من كتاب العقل لداود بن المحبر، وكلها موضوعة ذكرها الحارث في مسنده عنه».

قلت: وأورد ابن عراق الحديث في «تنزيه الشريعة» (١/ ٢١٤).

وقال الخطيب في «تاريخ بغداد» (٨/ ٣٦٠) في ترجمة (داود بن المحبر).

«حدثنا الصُّوريُّ قال: سمعتُ الحافظ عبدالغني بن سعيد يقول: قال الدارقطني: إن كتاب «العقل» وضَعَه أربعة: أولهم مَيْسَرَة بن عبدربِّه، ثم سَرَقه منه داود بن المحبر، فركَّبَه بأسانيد غير أسانيد ميسرة، وسرقه عبدالعزيز بن أبي رجاء، فركَّبه بأسانيد أُخَر، ثم سَرَقه سليمان بن عيسى السِّجْزي فأتى بأسانيد أخر» هـ.

والخلاصة أنه لا يصح في العقل حديث. انظر «المنار المنيف» لابن قيم الجوزية ص٦٦ ـ ٦٧.

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٢٨ رقم ١٥٢): «ولم أجده».

وقد قال الشيخ عبدالفتاح أبو غدة في مقدمة كتاب «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» للقاري (ص٢٥): «قولهم في الحديث: لا أعرفه، أو: لم أعرفه، أو: لم أقف عليه، أو: لا أعرف له أصلاً، أو: لم أجد له أصلاً، أو: لم أقف له على أصل، أو: لا أعرفه بهذا اللفظ، أو: لم أره بهذا اللفظ. أو: لم أجده، أو: لم أجده هكذا، أو: لم يَرِد فيه شيء، أو: لا يُعلَمَ من أخرجه ولا إسنادُهُ، ونحوَ هذه العبارات إذا صَدَر من أحَدِ الحفاظ المعروفين، ولم يتعقَّبه أحد كفى للحكم على ذلك الحديث بالوضع» هـ.

۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ
إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ
فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٧﴾
وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ﴿٤٨﴾

(٤٦) ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ إلا بالخصلةِ التي هي أحسنُ كمعارضةِ الخشونةِ باللينِ والغضبِ بالكظْم والمشاغبةِ بالنُّصح، وقيل هو منسوخٌ بآيةِ السيفِ إذْ لا مجادلةَ أشدُّ منه وجوابُه أنه آخِرُ الدواءِ، وقيل المرادُ به ذو العهدِ منهم. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ﴾ بالإفراطِ في الاعتداءِ والعنادِ أو بإثباتِ الولدِ وقولهم ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌ﴾[1] أو بنبذِ العهدِ ومنعِ الجزيةِ. ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ﴾ هو من المجادلةِ بالتي هي أحسنُ. وعن النبيِّ ﷺ «لا تصدِّقوا أهلَ الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولُوا آمنا بالله وبكتبِه ورسلِه فإنْ قالوا باطلاً لم تصدِّقوهم وإنْ قالوا حقاً لم تكذِّبوهم»[2]. ﴿وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ مطيعونَ له خاصَّةً وفيه تعريضٌ باتخاذِهم أحبارَهم ورهبانَهم أرباباً من دون الله.

(٤٧) ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإنزالِ. ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ﴾ وحياً مصدِّقاً لسائرِ الكتبِ الإلهيةِ وهو تحقيقٌ لقوله ﴿فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ﴾ هم عبدُالله بنُ سلام وأضرابُه، أو مَنْ تقدَّم عهدَ الرسول ﷺ من أهل الكتاب. ﴿وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ ومن العرب أو أهلِ مكةَ أو مِمَّنْ في عهدِ الرسول من أهل الكتابَيْنِ. ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ﴾ بالقرآنِ. ﴿وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ مع ظهورِها وقيامِ الحجةِ عليها. ﴿إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ إلا المتوغِّلونَ في الكفرِ فإنَّ جزمَهُم به يمنعُهم عن التأمُّلِ فيما يفيدُ لهم صدقَها لكونها معجزةً بالإضافةِ إلى الرسولِ ﷺ كما أشارَ إليه بقوله:

(٤٨) ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ﴾ فإنَّ ظهورَ هذا الكتابِ الجامعِ لأنواعِ العلومِ الشريفةِ أميٌّ لم يُعْرَفْ بالقراءةِ والتعلُّم خارقٌ للعادةِ، وذِكْرُ اليمينِ زيادةُ تصويرٍ للمنفي، ونُفِيَ للتجوُّزِ في الإسنادِ. ﴿إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ أي لو كنتَ ممنْ يخطُّ ويقرأُ لقالوا لعلَّه تعلَّمه أو التقطه من كتبِ الأولينَ الأقدمينَ، وإنما سمَّاهم مبطلينَ لكفرِهم أو لارتيابِهم بانتفاءِ وجْهٍ واحدٍ من وجوهِ الإعجازِ المكاثرةِ، وقيل لارتابَ أهلُ الكتابِ لوجدانِهم نعتَك على خلافِ ما في كتُبِهم فيكونُ إبطالُهم باعتبارِ الواقعِ دونَ المقدَّرِ.

---

(١) المائدة: «٦٤».

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٥٩ رقم ٣٦٤٤) وابن حبان (ص٥٨ رقم ١١٠ ـ موارد) وأحمد في المسند (٤/ ١٣٦) والطبراني في الكبير (٢٢/ ٣٤٩ ـ ٣٥١ رقم ٨٧٤ ـ ٨٧٩) وعبدالرزاق في المصنف (١١/ ١١٠) والبيهقي في السنن الكبرى (٢/ ١٠) كلهم من طريق الزهري عن ابن أبي نملة الأنصاري عن أبيه في سياق أطول من ذلك.
وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٠٧ رقم ١٤٨): «نملة بن أبي نملة» مقبول.
فالحديث بهذا الإسناد فيه ضعف يسير يجبره حديث أبي هريرة الذي أخرجه البخاري (٨/ ١٧٠ رقم ٤٤٨٥) و(١٣/ ٣٣٣ رقم ٧٣٦٢) و(١٣/ ٥١٦ رقم ٧٥٤٢).

﴿بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا ۖ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ ۚ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾

(٤٩) ﴿بَلْ هُوَ﴾ بل القرآنُ. ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ يحفظونَه لا يقدِرُ أحدٌ على تحريفِه. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ المتوغِّلونَ في الظُّلمْ بالمكابرةِ بعدَ وضوحِ دلائلِ إعجازِها حتى لم يعتدُّوا بها.

(٥٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ مثلُ ناقةِ صالح وعصا موسى ومائدةِ عيسى، وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريانِ وحفصٌ آياتٌ. ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ينزِّلُها كما يشاءُ لستُ أملِكُها فآتيكم بما تقترِحونه. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ ليس من شأني إلاَّ الإنذارُ وإبانتُه بما أُعطِيْتُ من الآياتِ.

(٥١) ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ آيةٌ مغنيةٌ عما اقترحوه. ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ تدومُ تلاوتُه عليهم متحدِّين به فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تضمحلُّ بخلافِ سائرِ الآياتِ، أو يُتْلَى عليهم يعني اليهودَ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعْتِكَ ونعتِ دينك. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكتابِ الذي هو آيةٌ مستمرةٌ وحجةٌ مبيِّنةٌ. ﴿لَرَحْمَةً﴾ لنعمةً عظيمةً. ﴿وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتذكرةٌ لمن همُّه الإيمانُ دونَ التعنُّتِ. وقيل إنَّ أُناساً من المسلمينَ أَتوْا رسولَ الله ﷺ بكتبٍ كُتِبَ فيها بعضُ ما يقول اليهودُ، فقال: «كَفَى بها ضلالةَ قومٍ أنْ يرغَبوا عما جاءهم به نبيُّهم إلى ما جاء به غيرُ نبيهم» فنزلتْ[١].

(٥٢) ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ بصدقي وقدْ صدَّقني بالمعجزاتِ، أو بتبليغي ما أُرسِلْتُ به إليكم ونُصْحي ومقابلتِكم إيايَ بالتكذيب والتعنُّتِ. ﴿يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فلا يَخْفَى عليه حالي وحالُكم. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ وهو ما يُعْبَدُ من دونِ الله. ﴿وَكَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ منكم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ في صفقتِهم حيثُ اشتروا الكفرَ بالإيمان.

(٥٣) ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ﴾ بقولهم: أمطِرْ علينا حجارةً من السماء. ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ لكلِّ عذابٍ أو قومٍ. ﴿لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ عاجلاً. ﴿وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فجأةً في الدنيا كوقعةِ بدرٍ أو الآخرةِ عندَ نزولِ الموتِ بهم. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ بإتيانه.

(٥٤) ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ ستحيطُ بهم يومَ يأتيهم العذابُ، أو هي كالمحيطةِ بهم الآنَ لإحاطةِ الكفرِ والمعاصي التي توجبُها بهم. واللامُ للعهدِ على وضعِ الظاهرِ موضعَ

(١) أخرجه الدارمي (١/١٢٤) وأبو داود في «المراسيل» (ص٣٢٠ رقم ٤٥٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٧) من حديث ابن جعدة مرسلاً ـ وإسناد الدرامي صحيح وهو مرسل ـ.

المضمَرِ للدلالةِ على موجبِ الإحاطةِ، أو للجنسِ فيكونُ استدلالاً بحكمِ الجنسِ على حُكْمِهم.

يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ
أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟
ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟
وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

(٥٥) ﴿يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾ ظرفٌ لمحيطةٌ أو مقدرةٌ مثلَ كانَ كيتَ وكيتَ. ﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ من جميع جوانبهم. ﴿وَيَقُولُ﴾ اللهُ أو بعضُ ملائكتِه بأمرِه لقراءةِ ابنِ كثير وابنِ عامر والبصريينَ بالنونِ. ﴿ذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي جزاءَه.

(٥٦) ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ أي إذا لم يتسهَّلْ لكم العبادةُ في بلدةٍ ولم يتيسَّرْ لكم إظهارُ دينِكم فهاجِروا إلى حيثُ يتمشَّى لكم ذلك، وعنه عليه الصلاة والسلام: «من فرَّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو كان شبراً استوجبَ الجنةَ وكانَ رفيقَ إبراهيمَ ومحمدٍ عليهما السلام»[1]. والفاءُ جوابُ شرطٍ محذوفٍ إذِ المعنى إنَّ أرضِي واسعةٌ إن لم تخلِصُوا العبادة لي في إرضٍ فأخلِصُوها في غيرِها.

(٥٧) ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ تنالُه لا محالةَ. ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ ومَنْ هذا عاقبتُه ينبغي أنْ يجتهدَ في الاستعدادِ له. وقرأ أبو بكر بالياءِ.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ لننزلَنَّهم. ﴿مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا﴾ علاليَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ لنثوينَّهم أي لنقيمَنَّهم من الثَّواءِ فيكون انتصابُ غرفاً لإجرائِه مجرى لننزلَنَّهم، أو بنزعِ الخافضِ، أو بتشبيهِ الظرفِ المؤقَّتِ بالمبهَمِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ وقرىء فَنِعْمَ والمخصوصُ بالمدحِ محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه.

(٥٩) ﴿ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على أذيَّةِ المشركينَ والهجرةِ للدين إلى غيرِ ذلك من المِحَنِ والمشاقِّ. ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ولا يتوكلون إلا على اللهِ.

(٦٠) ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تطيقُ حملَه لضعفِها أو لا تدَّخره، وإنما تصبحُ ولا معيشةَ عندَها. ﴿ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ ثم إنها مع ضعفِها وتوكُّلِها وإياكم مع قوَّتِكم واجتهادِكم سواءٌ في أنه لا يرزقُها وإيَّاكم إلا اللهُ، لأنَّ رزقَ الكلِّ بأسبابٍ هو المسبِّبُ لها وحدَه فلا تخافوا على معاشِكم بالهجرةِ، فإنَّهم لما أُمِرُوا بالهجرةِ قال بعضُهم كيفَ نقدمُ بلدةً ليس لنا فيها معيشةٌ فنزلتْ[2]. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لقولِكم هذا. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بضميرِكم.

---

(١) التصريح بذكرهم، وإنما عدل عنه إلى الغائب فذكر صفتهم.

(٢) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٦/ ٢٨٢) والقرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٣/ ٣٦٠) والبغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٢٥٢).

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ
ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً
فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ
ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ
دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾

(٦١) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ﴾ المسؤولُ عنهم أهلُ مكَّةَ. ﴿ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ لما تقرَّر في العقولِ من وجوبِ انتهاءِ الممكِناتِ إلى واحدٍ واجبِ الوجودِ. ﴿ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ يُصْرَفُونَ عن توحيدِهِ بعد إقرارِهم بذلك.

(٦٢) ﴿ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ﴾ يحتملُ أنْ يكونَ الموسَّعُ له والمضيَّقُ عليه واحداً على أنَّ البسطَ والقبضَ على التعاقُبِ وألا يكونَ على وضعِ الضميرِ موضِعَ مَنْ يشاءُ وإبهامُه لأنَّ مَنْ يشاء مُبْهَمٌ. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ يعلمُ مصالِحَهُم ومفاسِدَهم.

(٦٣) ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ معترفِين بأنه الموجِدُ للممكناتِ بأسْرِها أصولِها وفروعِها، ثم إنَّهم يشركونَ به بعضَ مخلوقاتِه الذي لا يقدرُ على شيءٍ من ذلك. ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ على ما عَصَمَكَ من مِثْلِ هذه الضلالةِ، أو على تصديقِك وإظهارِ حجَّتِك. ﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ فيتناقضونَ حيثُ يقرّون بأنه المبدئُ لكلِّ ما عداه ثم إنهم يشركونَ به الصَّنَمَ، وقيل لا يعقلونَ ما تريدُ بتحميدِك عندَ مقالِهم.

(٦٤) ﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ ﴾ إشارة تحقيرٍ وكيفَ لا وهي لا تزنُ عند الله جناحَ بعوضةٍ. ﴿ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ﴾ إلا كما يلْهى ويلعبُ به الصبيانُ يجتمعونَ عليه ويبتهِجُون به ساعةً ثم يتفرَّقون متعبينَ. ﴿ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ﴾ لهي دارُ الحياة الحقيقيةِ لامتناعِ طريانِ الموتِ عليها، أو هي في ذاتها حياةٌ للمبالغةِ، والحيوانُ مصدرُ حيٍّ سُمِّيَ به ذو الحياةِ وأصلُه حَيَيَانٌ فقلبتِ الياءُ الثانيةُ واواً وهو أبلغُ من الحياةِ لما في بناء فعلانَ من الحركةِ والاضطرابِ اللازمِ للحياةِ، ولذلك اختِيْرَ عليها ههنا. ﴿ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾ لم يؤثِروا عليها الدنيا التي أصلُها عدمُ الحياةِ، والحياةُ فيها عارضةٌ سريعةُ الزوالِ.

(٦٥) ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ ﴾ متصلٌ بما دلَّ عليه شرحُ حالِهم أي هم على ما وُصِفُوا به من الشركِ فإذا ركبوا البحرَ. ﴿ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ كائنينَ في سورةِ مَنْ أخلصَ دينَه من المؤمنينَ حيثُ لا يذكرون إلا اللهَ ولا يدعُونَ سواهُ لِعِلْمِهم بأنه لا يكشفُ الشدائدَ إلا هو. ﴿ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجؤُوا المعاودةَ إلى الشركِ.

(٦٦) ﴿ لِيَكْفُرُوا۟ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه لامُ كي أي يشركون ليكونوا كافرينَ بشركِهم نعمةَ النجاةِ. ﴿ وَلِيَتَمَتَّعُوا۟ ﴾ باجتماعِهم على عبادةِ الأصنام وتوادِّهم عليها، أو لامُ الأمرِ على التهديدِ ويؤيدُه قراءةُ ابنِ كثير وحمزةَ والكسائيِّ وقالونَ عن نافعٍ ولْيتمتعوا بالسكونِ. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ ذلك حين يُعَاقَبُوْنَ.

أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾
وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾
وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾

(٦٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ يعني أهلَ مكَّةَ. ﴿أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا﴾ أي جعلْنا بلدَهم مصوناً عن النَّهبِ والتعدِّي آمناً أهلُه عن القتلِ والسبي. ﴿وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْۚ﴾ يُختَلَسُونَ قتلاً وسبياً إذ كانتِ العربُ حولَه في تغاورٍ وتناهُبٍ. ﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ أبعدَ هذه النعمةِ المكشوفةِ وغيرِها مما لا يقدرُ عليه إلا اللهُ يؤمنون بالصنمِ أو الشيطانِ. ﴿وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ حيثُ أشركوا به غيرَهُ وتقديمُ الصِّلتينِ للاهتمامِ أوِ الاختصاصِ على طريقِ المبالغةِ.

(٦٨) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأنْ زعمَ أنَّ له شريكاً. ﴿أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓۚ﴾ يعني الرسولَ أو الكتابَ، وفي لمَّا تسفيهٌ لهم بأنْ لم يتواقفُوا ولم يتأملوا قطُّ حينَ جاءَهم بل سارعُوا إلى التكذيبِ أولَ ما سمعُوه. ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ تقريرٌ لثوائِهم كقوله: أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ المَطَايَا أي ألا يستوجبونَ الثواءَ فيها وقدِ افتروا مثلَ هذا الكذبِ على اللهِ وكذَّبوا بالحقِّ مثلَ هذا التكذيبِ، أو لاجترائِهم أي ألم يعلَموا أنَّ في جهنَّمَ مثوًى للكافرين حتى اجترؤوا مثلَ هذه الجراءةِ.

(٦٩) ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا﴾ في حقِّنا، وإطلاقُ المجاهدةِ ليعمَّ جهادَ الأعادي الظاهرةِ والباطنةِ بأنواعِه. ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَاۚ﴾ سبلَ السيرِ إلينا والوصولِ إلى جَنَابِنَا، أو لنزيدنَّهم هدايةً إلى سبيلِ الخيرِ وتوفيقاً لسلوكِها كقوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾[١] وفي الحديثِ: «من عملَ بما علِمَ ورَّثهُ اللهُ عِلْمَ ما لم يعلمْ»[٢]. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بالنصرِ والإعانةِ. قال رسولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ قرأ سورةَ العنكبوتِ كان له من الأجر عشرُ حسناتٍ بعدد كلِّ المؤمنينَ والمنافقينَ»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) محمد: «١٧».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠/ ١٤ ـ ١٥) من حديث أنس بن مالك.
وقال أبو نعيم رحمه الله «ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي ﷺ فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل» هـ.
وأورده الألباني في «الضعيفة» رقم (٤٢٢) وحكم عليه بالوضع، وقال: وفي الطريق إليه جماعة لم أعرفهم فلا أدري من وضعه منهم.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٢٨ رقم ١٥٨) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرُّومِ

ترتيبها ٣٠ آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورة الروم مكية

إلا قولَه «فسبحانَ اللهِ» الآيةَ

وآيُها ستونَ أو تسعٌ وخمسونَ آيةً[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾.

(٣) ﴿فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ العرب منهم لأنها الأرضُ المعهودةُ عندَهم، أو في أدنى أرضِهم منَ العربِ، واللامُ بدلٌ من الإضافةِ. ﴿وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ﴾ من إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِئَ غَلْبِهم وهو لغةٌ كالجَلَب والجَلْبِ. ﴿سَيَغْلِبُونَ﴾.

---

(١) مكية بالإجماع دون خلاف. انظر «الدر المنثور» (٦/٤٧٨) و«زاد المسير» (٦/٢٨٦) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٤/١) و«المحرر الوجيز» (١٢/٢٤١).

(٤) ﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ رُوِيَ[١] أنَّ فارسَ غزوا الرومَ فوافُوهم بأذرعاتٍ وبُصْرى، وقيل بالجزيرةِ وهي أدنى أرضِ الرومِ من الفرسِ فغَلَبوا عليهم وبلَغَ الخبرُ مكَّةَ ففرحَ المشركونَ وشمِتُوا بالمسلمينَ وقالوا: أنتم والنصارى أهلُ كتابٍ ونحنُ وفارسُ أميونَ وقد ظهرَ إخوانُنا على إخوانِكم ولَنَظْهَرَنَّ عليكم فنزلتْ، فقال لهم أبو بكر: لا يقرَّنَّ اللهُ أعينَكم فوالله لتظهرنَّ الرومُ على فارسَ بعدَ بضعِ سنينَ، فقال له أبيُّ بنُ خلفٍ: كذبْتَ اجعلْ بينَنا أجلاً أُناحِبُك عليه، فناحَبَه[٢] على عشرِ قلائصَ[٣] من كلِّ واحدٍ منهما وجعلا الأجلَ ثلاثَ سنينَ، فأَخبَرَ أبو بكر رضيَ الله عنه رسولَ اللهِ ﷺ فقال البِضْعُ ما بينَ الثلاثِ إلى التسعِ فزايدَه في الخطرِ وماذَّه في الأجلِ، فجعلاهُ مائةَ قلوصٍ إلى تسعِ سنينَ وماتَ أبيُّ من جرحِ رسولِ اللهِ ﷺ بعدَ قفولِه من أُحُدٍ وظهرتِ الرومُ على فارسَ يومَ الحديبيةِ فأخَذ أبو بكر الخطرَ من ورثةِ أبيِّ، وجاءَ به إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقال: «تصدَّقْ به»[٤] واستدلَّتْ به الحنفيةُ على جوازِ العقودِ الفاسدةِ في دارِ الحربِ، وأُجِيبَ بأنه كان قبلَ تحريمِ القمارِ، والآيةُ من دلائلِ النبوةِ لأنها إخبارٌ عن الغيبِ. وقرىء غَلَبَتْ بالفتحِ وسيُغْلَبونَ بالضمِّ ومعناهُ أنَّ الرومَ غَلَبوا على ريفِ الشامِ والمسلمونَ سيغلبونَهم، وفي السنةِ التاسعةِ من نزولِه غزاهم المسلمونَ وفتحُوا بعضَ بلادِهم وعلى هذا تكونُ إضافةُ الغَلْبِ إلى الفاعلِ. ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ منْ قبلِ كونِهم غالبينَ وهو وقتُ كونِهم مغلوبينَ، ومن بعدِ كونِهم مغلوبينَ وهو وقتُ كونِهم غالبينَ أي له الأمرُ حين غَلَبوا وحين يُغْلَبُونَ ليس شيءٌ منهما إلا بقضائِه، وقُرِىءَ من قبلٍ ومن بعدٍ من غير تقديرِ مضافٍ إليه كأنه قيلَ قبلاً وبعداً أي أولاً وآخراً. ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ ويومَ تَغْلِبُ الرومُ. ﴿يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾..

(٥) ﴿بِنَصْرِ ٱللَّهِ﴾ مَنْ له كتابٌ على من لا كتابَ له لما فيه من انقلابِ التفاؤلِ وظهورِ صدقِهم فيما أخبرا به المشركينَ وغلبتِهم في رهانِهم وازديادِ يقينهم وثباتِهم في دينهم، وقيلَ بنصرِ اللهِ المؤمنينَ بإظهارِ صدقِهم أو بأنْ وليَ بعضُ أعدائهم بعضاً حتى تفانَوا. ﴿يَنصُرُ مَن يَشَآءُ﴾ فينصرُ هؤلاءِ تارةً وهؤلاءِ أخرى. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ ينتقمُ من عباده بالنصرِ عليهم تارةً ويتفضَّلُ عليهم بنصرِهم أخرى[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٤ رقم ٣١٩٤) من حديث نيار بن مُكْرَم الأسلمي.
قال الترمذي: هذا حديث صحيح حسن غريب.
وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٧٦، ٣٠٤) والترمذي (٥/٣٤٣ ـ ٣٤٤ رقم ٣١٩٣) وابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/١٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٩ رقم ١٢٣٧٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠).
وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين. ووافقه الذهبي وصححه أيضاً أحمد شاكر في المسند (رقم: ٢٤٩٥).
(٢) المناحبة: المخاطرة والمراهنة.
(٣) القلُوص من الإبل بمنزلة الجارية من النساء وهي الشابة (المصباح المنير ـ مادة قلص).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم كما عزاه ابن كثير في تفسيره (٣/ ٤٣٣) إليه. من حديث البراء.
(٥) وتقديم «العزيز» على «الرحيم» لتقدمه في الاعتبار (س٧/ ٥٠).

وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا
وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ
إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟
كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا
عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدرٌ مؤكِّد لنفسه لأنَّ ما قبلَه في معنى الوعدِ. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ لامتناعِ الكذبِ عليه تعالى. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ وعْدَه ولا صِحَّةَ وعْدِه لجهلِهم وعدمِ تفكُّرِهم.

(٧) ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ ما يشاهدونه منها والتمتُّع بزخارفها. ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ التي هي غايتُها والمقصودُ منها. ﴿هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ لا تخطرُ ببالهم، وهم الثانيةُ تكريرٌ للأُولى أو مبتدأٌ وغافلونَ خبرُه، والجملةُ خبرُ الأولى، وهو على الوجهينِ منادٍ على تمكُّنِ غفلتِهم عن الآخرةِ المحقَّقةِ لمقتضى الجملةِ المتقدِّمة المبدلَةِ من قولِه: لا يعلمون تقريراً لجهالَتِهم وتشبيهاً لهم بالحيواناتِ المقصورِ إدراكُها من الدنيا ببعضِ ظاهرِها، فإنَّ مِنَ العلم بظاهرِها معرفةَ حقائقِها وصفاتِها وخصائِصِها وأفعالِها وأسبابِها وكيفيةِ صدورِها منها وكيفيةِ التصرُّفِ فيها ولذلك نُكِّرَ ظاهراً، وأما باطنُها فإنَّها مجازٌ إلى الآخرة ووصلةٌ إلى نيلِها وأنموذجٌ لأحوالِها، وإشعاراً بأنه لا فرقَ بينَ عدمِ العلمِ والعلمِ الذي يختصُّ بظاهرِ الدنيا.

(٨) ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم﴾ أولم يحدثُوا التفكُّرَ فيها، أو أَوَلَمْ يَتَفكروا في أمر أنفسِهم فإنها أقربُ إليهم من غيرها، ومرآةٌ يُجتَلَى فيها للمستبصِر ما يُجْتَلَى له في الممكناتِ بأسْرِها ليتحقَّقَ لهم قدرةُ مبدِعها على إعادتِها مثلَ قدرته على إبدائِها. ﴿مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بقولٍ أو علمٍ محذوفٍ يدلُّ عليه الكلامُ. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تنتهي عندَه ولا تبقى بعدَه. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ﴾ بلقاءِ جزائِه عند انقضاءِ الأجلِ المسمَّى أو قيامِ الساعةِ. ﴿لَكَٰفِرُونَ﴾ جاحدونَ يحسبونَ أنَّ الدنيا أَبَدِيةٌ وأنَّ الآخرةَ لا تكون.

(٩) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تقريرٌ لِسَيْرِهم في أقطارِ الأرضِ ونظرِهم في آثارِ المدمَّرين قبلَهم. ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ كعادٍ وثمودَ. ﴿وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ﴾ وقلَبوا وجْهَهَا لاستنباطِ المياهِ واستخراجِ المعادنِ وزرعِ البذورِ وغيرِها. ﴿وَعَمَرُوهَآ﴾ وعَمَرُوا الأرضَ. ﴿أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ من عمارةِ أهلِ مكَّةَ إياها فإنَّهم أهلُ وادٍ غيرِ ذي زرعٍ لا تُبْسَطُ لهم في غيرها، وفيه تهكُّمٌ بهم من حيثُ إنهم مغترُّون بالدنيا مفتخِرون بها، وهم أضعفُ حالاً فيها، إذْ مدارُ أمرِها على التبسُّطِ في البلاد والتسلُّطِ على العبادِ والتصرُّفِ في أقطارِ الأرض بأنواعِ العمارةِ وهم ضعفاءُ ملْجَئُونَ إلى دارٍ لا نفعَ لها. ﴿وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أو الآياتِ الواضحاتِ. ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾ ليفعلَ بهم ما تفعلُ الظَّلمةُ فيدمِّرُهم من غيرِ جرمٍ ولا تذكيرٍ. ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ حيثُ عملوا ما أدى إلى تدميرِهم.

ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ
ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ
شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ
ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ ٱلسُّوٓأَىٰٓ﴾ أي ثم كان عاقبتُهم العاقبةَ السَّوءى أو الخصلةَ السَّوءى، فوضعَ الظاهِرَ موضعَ الضميرِ للدلالةِ على ما اقتضَى أنْ تكون تلك عاقبتَهم وأنّهم جاؤوا بمثلِ أفعالِهم، والسوءى تأنيثُ الأسوأِ كالحسنَى أو مصدرٌ كالبشرى نَعتَ به. ﴿أَن كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُوا۟ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ علةٌ أو بدلٌ أو عطفُ بيانٍ للسَّوءى، أو خبرُ كان والسوءى مصدرُ أساؤوا أو مفعولُه بمعنى، ثم كانَ عاقبةَ الذين اقترفوا الخطيئةَ أنْ طبعَ اللهُ على قلوبهم حتى كذَّبوا بآياتِ الله واستهزؤوا بها، ويجوزُ أنْ تكونَ السوءى صلةَ الفعلِ وأنْ كذَّبوا تابِعَها والخبرُ محذوفٌ للإبهامِ والتهويلِ، وأنْ تكونَ أنْ مفسِّرةً لأنَّ الإساءةَ إذا كانتْ مفسَّرةً بالتكذيبِ والاستهزاءِ كانت متضمِّنةً معنى القولِ، وقرأ ابنُ عامرٍ والكوفيونَ عاقبةَ بالنصبِ على أنَّ الاسمَ السوءى وأنْ كذَّبوا على الوجوهِ المذكورةِ[1].

(١١) ﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ﴾ ينشئُهم. ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ يبعثُهم. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاءِ، والعدول إلى الخطابِ للمبالغةِ في المقصودِ، وقرأ أبو بكر وأبو عمرو وروْحٌ بالياءِ على الأصلِ.

(١٢) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ يسكتُون متحرِّين آيسينَ يقالُ ناظرتُه فأبلسَ إذا سكتَ وآيَسَ من أنْ يحتجَّ ومنه الناقةُ المبلاسُ التي لا ترغُو، وقرىء بفتحِ اللامِ من أبلَسَه إذا أسكَتَهُ.

(١٣) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾ ممن أشركوهم باللهِ. ﴿شُفَعَٰٓؤُا۟﴾ يجيرونَهم من عذابِ الله، ومجيئُه بلفظِ الماضي لتحقُّقه. ﴿وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يكفرونَ بآلهتِهم حينَ يَئِسوا منهم، وقيل كانوا في الدنيا كافرينَ بسَببِهم، وكُتِبَ في المصحفِ شفعؤا وعلمؤا بني إسرائيلَ بالواوِ وكذا السَّوْأَى بالألفِ إثباتاً للهمزةِ على صورةِ الحرفِ الذي منه حركتُها.

(١٤) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾ أي المؤمنونَ والكافرونَ لقوله تعالى:

(١٥) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ﴾ أرضٍ ذاتِ أزهارٍ وأنهارٍ. ﴿يُحْبَرُونَ﴾ يُسَرُّونَ سروراً تهللُ له وجوهُهم.

(١٦) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْـَٔاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ مُدْخَلُون لا يغيبونَ عنه.

(١٧) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾.

---

(١) وإيراد الاستهزاء بصيغة المضارع «يستهزئون» للدلالة على استمراره وتجدده (س/٧/ ٥٣).

وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾

(١٨) ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ إخبارٌ في معنى الأمرِ بتنزيه اللهِ تعالى والثناء عليه في هذه الأوقاتِ التي تظهرُ فيها قدرتُه وتتجدَّدُ فيها نعمتُه، أو دلالةٌ على أنَّ ما يحدثُ فيها من الشواهدِ الناطقةِ بتنزُّهِه واستحقاقِه الحمدَ ممن له تمييزٌ من أهلِ السمواتِ والأرضِ. وتخصيصُ التسبيحِ بالمساءِ والصباحِ لأنَّ آثار القدرةِ والعظمةِ فيهما أظهرُ، وتخصيصُ الحمدِ بالعشيِّ ـ الذي هو آخِرُ النهار من عَشَى العينُ إذا نقصَ نورُها ـ والظهيرةِ التي هي وسطُه لأنَّ تجدُّدَ النِّعمِ فيهما أكثرُ. ويجوزُ أنْ يكونَ عشياً معطوفاً على حينَ تمسون وقولُه ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ اعتراضاً. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أنَّ الآيةَ جامعةٌ للصلواتِ الخمس تمسونَ صلاتا المغرب والعشاءِ وتصبحون صلاةُ الفجرِ. وعشياً صلاةُ العصرِ وتظهرون صلاةَ الظهرِ[(١)]، ولذلك زعم الحسن[(٢)] أنها مدنيةٌ لأنه كان يقولُ كان الواجبُ بمكَّةَ ركعتينِ في أيِّ وقتٍ اتفقتا وإنما فرضُه الخمسَ بالمدينة، والأكثرُ على أنها فُرِضَتْ بمكَّةَ. وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «من سرَّه أن يُكَالَ له بالقفيزِ الأوفَى فلْيقلْ فسبحانَ اللهِ حين تمسونَ الآيَةَ»[(٣)]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «من قال حينَ يصبح فسبحانَ الله حين تمسونَ إلى قوله وكذلك تُخرَجونَ أدركَ ما فاته في ليلته، ومن قاله حين يمسي أدركَ ما فاته في يومه»[(٤)]. وقرىء حيناً تمسونَ وحيناً تصبحون، أي تمسونَ فيه وتصبحونَ فيه.

(١٩) ﴿يُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ﴾ كالإنسانِ من النطفةِ والطائرِ من البيضةِ. ﴿وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ﴾ كالنطفةِ والبيضةِ، أو يعقبُ الحياةُ الموتَ وبالعكس. ﴿وَيُحْيِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنباتِ. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يُبْسِها. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومثلُ ذلك الإخراجُ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم فإنه أيضاً تعقيبُ الحياةِ الموتَ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بفتحِ التاء.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٢٩) والطبراني في الكبير (١٠/ ٣٠٤ رقم ١٠٥٩٦) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١) عنه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/ ١٦) ثم قال وهو خلاف مذهب الجمهور.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٦٣) «أخرجه الثعلبي من حديث أنس وفي إسناده بشر بن الحسين وهو ساقط» هـ.
قلت: انظر ترجمة بشر هذا في «الجرح والتعديل» (٢/ ٣٥٥) والميزان (١/ ٣١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٥/ ٣١٦ رقم ٥٠٧٦) والطبراني في الكبير (١٢/ ٢٣٩ رقم ١٢٩٩١) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٢٢٦) والعقيلي في «الضعفاء» (٢/ ١٠٠) من حديث ابن عباس.
قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٦٤) «وإسناده ضعيف» وقال البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ٤٦٠): لا يصح. وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (٥/ ٢٢٧).

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾
وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ
يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ
بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

(٢٠) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ أي في أصلِ الإنشاءِ لأنه خلقَ أصلَهم منه. ﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ ثم فاجأتم وقتَ كونِكم بشراً منتشرين في الأرض.

(٢١) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ لأنَّ حوَّاءَ خُلِقَتْ من ضِلَعِ آدمَ وسائرُ النساءِ خلقنَ من نطفِ الرجالِ، أو لأنهنَّ من جِنْسِهِم لا من جنسٍ آخرَ. ﴿لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ لتميلُوا إليها وتألفوا بها فإن الجنسيةَ علةٌ للضمِّ، والاختلافُ سببٌ للتنافُرِ. ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أي بينَ الرجال والنساءِ، أو بينَ أفراد الجنس. ﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ بواسطةِ الزواجِ حالَ الشبقِ وغيرِها بخلافِ سائرِ الحيواناتِ نظماً لأمرِ المعاشِ، أو بأنَّ تعيُّشَ الإنسانِ متوقِّفٌ على التعارُفِ والتعاونِ المحْوجِ إلى التوادِّ والتراحُمِ، وقيل المودة كناية عن الجماع والرحمةُ عن الولد كقوله تعالى: ﴿رَحْمَةً مِّنَّا﴾[1]. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيعلمون ما في ذلك من الحِكَمِ.

(٢٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾ لغاتِكم بأنْ علَّم كلَّ صِنْفٍ لغتَه أو ألهمَه وضْعَها وأقدره عليها، أو أجناس نطقكم وأشكاله فإنك لا تكاد تسمع منطقين متساويين في الكيفية. ﴿وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ بياض الجلْدَ وسوادَه، أو تخطيطاتِ الأعضاءِ وهيئاتِها وألوانَها، وحلاَّها بحيثُ وقعَ التمايُزُ والتعارُفُ حتى أنَّ التوأمين مع توافُقِ موادِّهما وأسبابِهما والأمورِ الملاقيةِ لهما في التخليقِ يختلفانِ في شيءٍ من ذلك لا محالَة. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ لا تكادُ تَخفَى على عاقلٍ من مَلَكٍ أو إنسٍ أو جنٍّ. وقرأ حفصٌ بكسرِ اللامِ ويؤيده قولُه ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾[2].

(٢٣) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ منامُكم في الزمانينِ لاستراحةِ القِوَى النفسانيةِ وتقوِّي القوى الطبيعيةِ وطلبِ معاشِكم فيهما، أو منامُكم بالليلِ وابتغاؤُكم بالنهار فلفَّ وضمَّ بين الزمانينِ والفعلينِ بعاطفينِ إشعاراً بأنَّ كلاًّ من الزمانين وإنِ اختصَّ بأحدِهما فهو صالحٌ للآخرِ عندَ الحاجةِ، ويؤيده سائرُ الآياتِ الواردةِ فيه. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تفهُّمٍ واستبصارٍ فإنَّ الحكمةَ فيه ظاهرةٌ.

(٢٤) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ مقدَّرٌ بأنْ المصدريةِ كقولِه:

---

(١) صٓ: «٤٣».
(٢) العنكبوت: «٤٣».

أَلاَ أَيُّهَـذَا الـزَّاجِـرِي أَحْضُـرَ الـوَغَـى وَأن أَشْهَـد اللَّـذَّاتِ، هَـلْ أَنْـتَ مُخلـدِي

أوِ الفعلُ فيه منزلةَ المصدرِ كقولِهم: تسمعُ بالمعيديِّ خيرٌ من أنْ تراهُ، أو صفةٌ لمحذوفٍ تقديره آيةٌ يريكم بها البرقَ كقوله:

فَمَـا الـدَّهْـرُ إِلاَّ تَـارَتَـانِ فَمِنْهُمَـا أَمُـوتُ وَأُخْـرَى أَبْتَغِـي العَيْـشَ أَكْـدَحُ

﴿خَوْفًا﴾ من الصاعقةِ للمسافرِ. ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيثِ للمقيمِ، ونَصْبُهُما على العلةِ لفعلٍ يلزمُ المذكورَ فإنَّ إراءَتَهُم تستلزمُ رؤيتَهم أولَه على تقدير مضافٍ نحو إرادةِ خوفٍ وطمع، أو تأويلُ الخوفِ والطمع بالإخافةِ والإطماع، كقولك فعلْته رغماً للشيطان، أو على الحال مثل كَلَّمْتُهُ شِفَاهاً. ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ وقرىء بالتشديد. ﴿فَيُحْيِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالنبات. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يُبْسِها. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في استنباطِ أسبابها وكيفيةِ تكوُّنها ليظهرَ لهم كمالُ قدرةِ الصانعِ وحِكْمتُه.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦۚ﴾ قيامُهما بإقامَتِه لهما وإرادتِه لقيامِهما في حيِّزَيْهما المعينينِ من غير مقيمٍ محسوسٍ، والتعبيرُ بالأمرِ للمبالغةِ في كمالِ القدرةِ والغِنَى عن الآلة. ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطفٌ على أنْ تقومَ على تأويلِ مفرد كأنه قيل: ومن آياتِه قيامُ السمواتِ والأرض بأمرِهِ ثم خروجُكم من القبور إذا دعاكم دعوةً واحدةً فيقولُ أيُّها الموتَى اخرجُوا، والمرادُ تشبيهُ سرعةِ ترتُّبِ حصولِ ذلك على تعلُّقِ إرادتِه بلا توقُّفٍ واحتياجٍ إلى تجشُّمِ عملٍ بسرعة ترتُّبِ إجابةِ الداعي المطاع على دعائِه، وثُمَّ إما لتراخي زمانِه أو لعظمِ ما فيه ومن الأرضِ متعلِّقٌ بدعا كقولك: دعوتُه من أسفلِ الوادي فطلعَ إلي لا بتخرجونَ لأنَّ ما بعدَ إذاً لا يعملُ فيما قَبلَها، وإذا الثانيةُ للمفاجأةِ ولذلك نابتْ منابَ الفاءِ في جوابِ الأولى.

(٢٦) ﴿وَلَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ منقادون لفعلِه فيهم لا يمتنعونَ عنه.

(٢٧) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ بعدَ هلاكِهم. ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِۚ﴾ والإعادةُ أسهلُ عليه من الأصلِ بالإضافةِ إلى قدرِكم والقياسِ على أصولِكم وإلا فهما عليه سواءٌ ولذلك قيل الهاءُ للخلقِ، وقيل أهونُ بمعنَى هيِّنٍ وتذكيرُ هو لأهونُ أو لأنَّ الإعادةَ بمعنى أنْ يعيدَ. ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ﴾ الوصْفُ العجيبُ الشأنِ كالقدرةِ العامةِ والحكمةِ التامةِ ومَنْ فسَّره بقول لا إله إلا الله أرادَ به الوصْفَ بالوحدانية. ﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الذي ليس لغيرِه ما يساويه أو يدانيه. ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ يصفُه به ما فيها دلالةً ونطقاً. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادرُ الذي لا يعجزُ عن إبداءِ ممكنٍ وإعادتِه. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي يجري الأفعالَ على مقتضَى حِكْمَتِه.

ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ منتزَعاً من أحوالِها التي هي أقربُ الأمور إليكم. ﴿هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم﴾ من مماليكِكم. ﴿مِّن شُرَكَآءَ فِى مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ من الأموالِ وغيرِها.. ﴿فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَآءٌ﴾ فتكونون أنتمْ وهم فيه شرعاً يتصرَّفون فيه كتصرُّفِكم مع أنَّهم بشرٌ مثلُكم وأنها معارةٌ لكم، ومِنَ الأولى للابتداءِ والثانيةُ للتبعيضِ والثالثةُ مزيدةٌ لِتأكيدِ الاستفهام الجاري مجرى النفي. ﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ أنْ يستبدُّوا بتصرُّفٍ فيه. ﴿كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ كما يخافُ الأحرارُ بعضُهم من بعضٍ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك التفصيلِ. ﴿نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾[1] نبيِّنُها فإنَّ التفصيلَ مما يكشفُ المعاني ويوضِّحُها. ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولَهم في تدبُّرِ الأمثال.

(٢٩) ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾ بالإشراكِ. ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ جاهلينَ لا يكفُّهم شيءٌ فإنَّ العالِمَ إذا اتَّبعَ هواهُ ربَّما ردعه علمُه. ﴿فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ﴾ فمَنْ يقدرُ على هدايته. ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ يخلِّصونَهم من الضلالةِ ويحفظونَهم عن آفاتِها.

(٣٠) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ فقوِّمه له غيرَ ملتفِتٍ أو ملْتَفَتٍ عنه، وهو تمثيلٌ للإقبال والاستقامةِ عليه والاهتمام به. ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ﴾ خِلْقَتَه نُصِبَ على الإغراءِ أو المصدرِ لما دلَّ عليه ما بعدَها. ﴿ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ خلقَهم عليها وهي قبولُهم للحقِّ وتمكُّنهم من إدراكه، أو ملَّةَ الإسلامِ فإنَّهم لو خُلُّوا وما خُلِقُوا عليه أدَّى بهم إليها، وقيل العهدُ المأخوذُ من آدمَ وذرِّيتِه. ﴿لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ﴾ لا يقدرُ أحدٌ يغيِّرهُ أو ما ينبغي أنْ يُغيَّرَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الدين المأمورِ بإقامةِ الوجْهِ له، أو الفطرةِ إنْ فُسِّرتْ بالمِلَّة. ﴿ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ﴾ المستقيمُ الذي لا عِوَجَ فيه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ استقامتَه لعدمِ تدبُّرِهم.

(٣١) ﴿۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعينَ إليه مِنْ أنابَ إذا رجعَ مرةً بعدَ أخرى، وقيل منقطعينَ إليه من النابِ وهو حالٌ منَ الضميرِ في الناصبِ المقدَّرِ لفطرةِ اللهِ أو في أقِمْ لأنَّ الآيةَ خطابٌ للرسول ﷺ والأُمَّةِ لقوله: ﴿وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ غيرَ أنَّها صُدِّرَتْ بخطابِ الرسولِ ﷺ تعظيماً له.

(٣٢) ﴿مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ﴾ بدلٌ من المشركينَ وتفريقِهم اختلافَهم فيما يعبدونَه على اختلافِ أهوائهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُ فارقُوا بمعنى تركُوا دينَهم الذي أُمِرُوا به. ﴿وَكَانُوا۟ شِيَعًا﴾ فِرَقاً تشايعُ

---

(١) وتخصيصهم بالذكر مع عموم تفصيل الآيات للكل لأنهم المنتفعون بها (س٧/ ٥٩).

كلٌّ إمامَها الذي أضلَّ دينَها. ﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ مسرورونَ ظناً بأنه الحقُّ، ويجوزُ أنْ يُجْعَلَ فرحونَ صفةَ كلٍّ على أنَّ الخبرَ من الذين فرَّقوا.

وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾
لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ
يُشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ
يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ
وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ
أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾

(٣٣) ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ ﴾ شِدَّةٌ. ﴿ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ﴾ راجعينَ من دعاءِ غيرِه. ﴿ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً ﴾ خلاصاً من تلك الشدةِ. ﴿ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ فاجأَ فريقٌ منهم بالإشراكِ بربِّهم الذي عافاهم.

(٣٤) ﴿ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ ﴾ اللامُ فيه للعاقبةِ وقيل للأمرِ بمعنى التهديدِ لقوله: ﴿ فَتَمَتَّعُواْ ﴾ غير أنه التفتَ فيه مبالغةً، وقرىء وليتمتَّعوا. ﴿ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ عاقبةَ تمتُّعِكم، وقرىء بالياء التحتيةِ على أنَّ تمتَّعوا ماضٍ.

(٣٥) ﴿ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا ﴾ حجَّةً وقيل ذا سلطانٍ أي مَلَكاً معه برهانٌ. ﴿ فَهُوَ يَتَكَلَّمُ ﴾ تكلُّمَ دلالةٍ كقوله ﴿ كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ﴾[1] أو نطقَ. ﴿ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ﴾ بإشراكِهم وصحَّته، أو بالأمرِ الذي بسببه يشركونَ به في ألوهيتِه.

(٣٦) ﴿ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً ﴾ نعمةً من صِحَّةٍ وَسَعةٍ. ﴿ فَرِحُواْ بِهَا ﴾ بَطِرُوا بسببها. ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾ شدَّةٌ. ﴿ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ﴾ بشؤمِ معاصيهم. ﴿ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴾ فاجؤُوا القنوطَ من رحمته. وقرأ الكسائيُّ وأبو عمرو بكسرِ النون.

(٣٧) ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ﴾ فما لهم لم يشكُروا ولم يحتسِبوا في السَّرَّاءِ والضرَّاءِ كالمؤمنين. ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ فيستدلون بها على كمالِ القدرةِ والحكمة.

(٣٨) ﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ كصلةِ الرحمِ، واحتجَّ به الحنفيةُ على وجوبِ النفقةِ للمحارمِ وهو غيرُ مشعرٍ به. ﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ ما وظِّفَ لهما من الزكاة، والخطابُ لرسولِ اللهِ ﷺ أو لمن بُسِطَ له ولذلك رُتِّبَ على ما قبلَه بالفاءِ. ﴿ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ﴾ ذاتَه أو جِهَتَه أي يقصدُون بمعروفهم إياهُ خالصاً، أو جهةَ التقرُّبِ إليه لا جهةً أخرى. ﴿ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ حيثُ حصلوا بما بُسِطَ لهم النعيمُ المقيمُ.

(٣٩) ﴿ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا ﴾ زيادةً محرمةً في المعاملة أو عطيةً يتوقع بها مزيدَ مكافأةٍ، وقرأ ابن كثير بالقصرِ بمعنى ما جئتُم به من إعطاءِ ربا. ﴿ لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ ﴾ ليزيدَ ويزكُوَ في أموالِهم. ﴿ فَلَا يَرْبُواْ

---

(١) سورة الجاثية: ٢٩.

عِندَ ٱللَّهِ﴾ فلا يزكُو عندَه ولا يباركُ فيه، وقرأ نافع ويعقوبُ لتربُوا أي لتزيدوا أو لتصيروا ذوي ربا. ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ﴾ تبتغون به وجْهَهُ خالِصاً ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ ذوو الأضعافِ من الثواب ونظيرُ المضعِفِ المقويّ والموسِرِ لذي القوةِ واليسارِ، أو الذين ضعَّفُوا ثوابَهم وأموالهم ببركةِ الزكاةِ. وقرىء بفتح العينِ. وتغييرُهُ عن سَنَنِ المقابلة عبارةً ونظماً للمبالغةِ، والالتفاتُ فيه للتعظيم كأنه خاطبَ به الملائكةَ وخواصَّ الخلْقِ تعريفاً لحالِهم، أو للتعميم كأنه قال: فمن فعلَ ذلك فأولئك هم المضعِفُون، والراجعُ منه محذوفٌ إنْ جُعِلَتْ ما موصولةً تقديره المضعفونَ به، أو فَمُؤْتُوه أولئكَ هم المضعِفونَ.

ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ أثبتَ له لوازمَ الألوهيةِ ونفاها رأساً عما اتخذوه شركاءَ له من الأصنامِ وغيرِها مؤكَّداً بالإنكار على ما دلَّ عليه البرهانُ والعيانُ ووقعَ عليه الوفاقُ، ثم استنتجَ من ذلك تقدُّسَه عن أنْ يكونَ له شركاءُ فقال: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ ويجوزُ أنْ تكونَ الكلمةُ الموصولةُ صفةً والخبرُ هل مِنْ شركائكم والرابطُ من ذلكم لأنه بمعنَى من أفعالِه، ومِنْ الأولى والثانيةُ تفيدُ أنَّ شيوعَ الحكمِ في جنسِ الشركاءِ والأفعالِ والثالثةُ مزيدةٌ لتعميمِ المنفي وكلٌّ منها مستقلةٌ بتأكيدٍ لتعجيزِ الشركاءِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بالتاء.

(٤١) ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ كالجدْبِ والموتانِ وكثرةِ الحرقِ والغرقِ وإخفاقِ الغاصةِ ومحقِ البركاتِ وكثرةِ المضارِّ، أو الضلالةِ والظلمِ. وقيل المرادُ بالبحرِ قُرَى السواحلِ. وقرىء والبحورِ. ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ بشؤْمِ معاصيهم أو بكسْبِهم إياه، وقيل ظهرَ الفسادُ في البرِّ بقتلِ قابيلَ أخاهُ وفي البحر بأنَّ جلندا ملِكَ عمانَ كان يأخذُ كلَّ سفينةٍ غصباً. ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ بعضَ جزائِه فإنَّ تمامه في الآخرةِ. واللامُ للعلَّةِ أو للعاقبةِ. وعن ابنِ كثيرٍ ويعقوبَ لِنذيقَهم بالنونِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عما هم عليه.

(٤٢) ﴿قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ﴾ لتشاهدوا مصداقَ ذلك وتحقَّقُوا صدقَه. ﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾ استئنافٌ للدلالةِ على أنَّ سوءَ عاقبَتِهم كان لِفُشُوِّ الشركِ وغلبتِهِ فيهم، أو كانَ الشركُ في أكثرهم وما دونه من المعاصي في قليلٍ منهم.

(٤٣) ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ﴾ البليغِ الاستقامةِ. ﴿مِن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ لا يقدرُ أنْ يردَّه أحدٌ، وقوله: ﴿مِنَ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بيأتي، ويجوزُ أنْ يتعلَّقَ بمردَّ لأنه مصدرٌ على معنى لا يردُّه اللهُ لتعلُّقِ إرادتِه القديمةِ بمجيئِه. ﴿يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ﴾ يتصدعون أي يتفرقون فريق في الجنة وفريق في السعير كما قال:

مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ أي وبالُه وهو النارُ المؤبّدةُ. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ يُسَوُّونَ منزلاً في الجنة، وتقديمُ الظرفِ في الموضعينِ للدلالة على الاختصاصِ.

(٤٥) ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ عِلَّةٌ ليمهدون أو ليصدعونَ، والاقتصارُ على جزاءِ المؤمنين للإشعارِ بأنه المقصودُ بالذاتِ والاكتفاءِ على فحوى قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فإنَّ فيه إثباتَ البُغْضِ لهم والمحبةِ للمؤمنين، وتأكيدُ اختصاصِ الصلاحِ المفهوم من تركِ ضميرِهم إلى التصريحِ بهم تعليلٌ له ومن فضلِه دالٌّ على أنَّ الإثابةَ تفضُّلٌ محضٌ، وتأويلُه بالعطاءِ أو الزيادةِ على الثوابِ عدولٌ عن الظاهرِ.

(٤٦) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ﴾ الشمالَ والصَّبا والجنوبَ فإنَّها رياحُ الرحمة وأما الدَّبُورُ فريحُ العذابِ، ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام: «اللهمَّ اجعلْها رياحاً ولا تجعلْها ريحاً»[1] وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ على إرادة الجنسِ. ﴿مُبَشِّرَٰتٍ﴾ بالمطرِ. ﴿وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ يعني المنافعَ التابعةَ لها، وقيل الخِصْبُ التابعُ لنزولِ المطرِ المسبَّبِ عنها أو الروحُ الذي هو معَ هبوبها والعطفُ على عِلَّةٍ محذوفة دلَّ عليها مبشراتٍ أو عليها باعتبارِ المعنى، أو على يرسل بإضمارِ فعلٍ معلَّلٍ دلَّ عليه. ﴿وَلِتَجْرِيَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ يعني تجارةَ البحرِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ولتشكروا نعمةَ اللهِ تعالى فيها.

(٤٧) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ بالتدمير. ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إشعارٌ بأنَّ الانتقامَ لهم وإظهارٌ لكرامتهم حيثُ جعلَهم مستحقِّينَ على اللهِ أنْ ينصرَهم،

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٦٨): «ـ أخرجه الشافعي في ترتيب المسند (١/ ١٧٥ رقم ٥٠٢) ـ أخبرني من لا أتهم عن العلاء بن راشد عن عكرمة عن ابن عباس مرفوعاً نحوه. ومن طريقه أخرجه ـ البيهقي ـ في المعرفة وفي الدعوات. وهذا المبهم. هو إبراهيم بن أبي يحيى وهو ضعيف.
وله طرق أخرى عن أبي يعلى ـ في المسند (٤/ ٣٤١ رقم ١٢٩/ ٢٤٥٦) ـ والطبراني في الكبير (١١/ ٢١٣ ـ ٢١٤ رقم ١١٥٣٢) ـ وابن عدي ـ في الكامل (٢/ ٧٦٣) من رواية حسين بن قيس عن عكرمة به. وحسين ضعيف أيضاً» هـ.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦) وقال «رواه الطبراني وفيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك وقد وثقه حصين بن نمير، وبقية رجاله رجال الصحيح» هـ.
قلت: وقال الحافظ في التقريب (١/ ١٧٨ رقم ٣٨٣) «متروك» وقال الهيثمي فيه حسين بن قيس الملقب بحنش وهو متروك. وقد وثقه الحصين بن نمير وبقية رجاله رجال الصحيح [المجمع ١٠/ ١٣٥ ـ ١٣٦].

وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما من امرىء مسلم يردُّعن عرضِ أخيه إلا كان حقاً على الله أنْ يردَّ عنه نارَ جهنَّم» ثمَّ تلا ذلك[١]. وقد يُوقَفُ على حقاً على أنه متعلِّقٌ بالانتقام.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾﴾

(٤٨) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ﴾ متصلاً تارةً. ﴿فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في سَمْتِها. ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ سائراً أو واقفاً مطبقاً وغيرَ مطبق من جانبٍ دون جانب إلى غيرِ ذلك. ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ قطعاً تارةً أخرى، وقرأ ابنُ عامر بالسكونِ على أنه مخففٌ أو جمعُ كسفةٍ أو مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ﴾ المطرَ. ﴿يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ في التارتين. ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ يعني بلادَهم وأراضيَهم. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لمجيء الخِصْبِ.

(٤٩) ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم﴾ المطرُ. ﴿مِّن قَبْلِهِۦ﴾ تكريرٌ للتأكيدِ والدلالةِ على تطاولِ عهدِهم بالمطرِ واستحكامِ يأسِهم، وقيل الضميرُ للمطرِ أو السحابِ أو الإرسالِ. ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ لآيسينَ.

(٥٠) ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ﴾ أثرِ الغيثِ من النباتِ والأشجارِ وأنواعِ الثمار ولذلك جمعَهُ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ. ﴿كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ وقرىء بالتاءِ على إسنادِه إلى ضمير الرحمةِ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ يعني إنَّ الذي قدرَ على إحياءِ الأرضِ بعدَ موتِها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لقادرٌ على إحيائِهم فإنه إحداثٌ لِمِثْلِ ما كان في موادِّ أبدانِهم من القِوى الحيوانيةِ، كما أنَّ إحياءَ الأرضِ إحداثٌ لمثلِ ما كان فيها من القِوى النباتيةِ، هذا ومن المحتملِ أنْ يكونَ من الكائناتِ الراهنةِ ما يكون من موادِّ ما تفتتتْ وتبدَّدتْ من جنسِها في بعض الأعوامِ السالفةِ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأن نسبةَ قدرته إلى جميعِ الممكناتِ على سواءٍ.

(٥١) ﴿وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا﴾ فرأوا الأثرَ أو الزرعَ فإنه مدلولٌ عليه بما تقدَّم، وقيل السحابُ لأنه إذا كانَ مصفراً لم يمطرْ، واللامُ موطِّئةٌ للقسمِ دخلتْ على حرفِ الشرطِ، وقوله: ﴿لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ﴾ جوابٌ سدَّ مسدَّ الجزاءِ ولذلك فُسِّرَ بالاستقبالِ. وهذه الآيةُ ناعيةٌ على الكفار بقلةِ تثبُّتِهم وعدمِ تدبُّرِهم وسرعةِ تزلزُلِهم لعدمِ تفكُّرِهم وسوءِ رأيِهم، فإنَّ النظرَ السويَّ يقتضي أنْ يتوكَّلوا على اللهِ ويلتجئُوا إليه بالاستغفارِ إذا احتبسَ القطرُ عنهم، ولا ييأَسُوا من رحمته، وأنْ يبادروا إلى الشكرِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٤/ ٣٢٧ رقم ١٩٣١) وأحمد (٦/ ٤٥٠) عن أبي الدرداء.
وقال الترمذي هذا حديث حسن.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٧٥ ـ ١٧٦ رقم ٤٤٢) وابن عدي في الكامل (٤/ ١٦٣٥) وأحمد (٦/ ٤٦١) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ٦٧) عن أسماء بنت يزيد مرفوعاً نحوه والخلاصة أن الحديث حسن والله أعلم.

والاستدامةِ بالطاعةِ إذا أصابهم برحمتهِ ولم يفرِّطوا في الاستبشارِ، وأنْ يصبروا على بلائه إذا ضربَ زرْعَهم بالاصفرارِ ولا يكفروا نِعَمَهُ.

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟ غَيْرَ سَاعَةٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٢) ﴿فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ وهم مثلُهم لما سدُّوا عن الحقِّ مشاعِرَهم. ﴿وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ﴾ قيدَ الحكمَ به ليكون أشدَّ استحالةً، فإنَّ الأصمَّ المقبِلَ وإنْ لم يسمعِ الكلامَ يفطنُ منه بواسطةِ الحركاتِ شيئاً، وقرأ ابنُ كثير بالياء مفتوحةً ورفعِ الصمِّ.

(٥٣) ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ﴾ سمَّاهم عمياً لفقْدِهم المقصودَ الحقيقيَّ من الأبصار أو لِعَمَى قلوبِهم، وقرأ حمزةُ وحدَه تهدي العميَ. ﴿إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ فإنَّ إيمانَهم يدعوهم إلى تلقِّي اللفظِ وتدبُّرِ المعنى، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالمؤمنِ المشارِفُ للإيمان. ﴿فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾ لما تأمرهُم به.

(٥٤) ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ﴾ أي ابتدأكم ضعفاءَ وجعلَ الضَّعْفَ أساسَ أمرِكم كقوله ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[١] أو خلقكم من أصلٍ ضعيفٍ وهو النطفةُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وذلك إذا بلغتُمُ الحلُمَ أو تعلَّقَ بأبدانِكم الروحُ. ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ إذا أخذَ منكم السنُّ، وفتحَ عاصمٌ وحمزةُ الضادَ في جميعِها والضمُّ أقوى لقولِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما: قرأتُها على رسولِ الله ﷺ من ضَعْفٍ فأقرأني من ضُعفٍ[٢]. وهما لغتانِ كالفَقْر والفُقر. والتنكيرُ مع التكريرِ لأنَّ المتأخِّرَ ليس عينَ المتقدِّم. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ من ضعفٍ وقوةٍ وشبيبةٍ وشيبةٍ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ﴾ فإنَّ الترديدَ في الأحوالِ المختلفةِ مع إمكانِ غيرِه دليلُ العلمِ والقدرةِ.

(٥٥) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ القيامةُ سُمِّيَتْ بها لأنَّها تقومُ في آخرِ ساعةٍ من ساعاتِ الدنيا، أو لأنها تقعُ بغتةً وصارتْ عَلماً لها بالغلبةِ كالكوكبِ للزهرةِ. ﴿يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا۟﴾ في الدنيا أو في القبورِ أو فيما بين فناءِ الدنيا والبعثِ وانقطاعِ عذابِهم، وفي الحديث: «ما بين فناءِ الدنيا والبعثِ أربعونَ»[٣]

---

(١) النساء: «٢٨».

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٨٣ رقم ٣٩٧٨) والترمذي (٥/ ١٨٩ رقم ٢٩٣٦) وأحمد في المسند (٢/ ٥٨ ـ ٥٩) عنه.
وفيه عطية بن سعد العوفي: ضعيف.
وحسن الألباني الحديث في صحيح أبي داود.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٢٩ رقم ١٧٢) «لم أجده هكذا. وفي الصحيحين ـ البخاري (٨/ ٥٥١ رقم ٤٨١٤) و(٨/ ٦٨٩ رقم ٥٩٣٥) ومسلم (٤/ ٢٢٧١ رقم ١٤١) ـ عن أبي هريرة ـ مرفوعاً «ما بين النفختين أربعون» قالوا: يا أبا هريرة أربعون سنة؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون شهراً؟ قال: أبيت، قالوا: أربعون يوماً، قال: أبيت».

وهو محتملٌ الساعاتِ والأيامَ والأعوامَ. ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ استقلوا مدَّةَ لُبثِهم إضافةً إلى مدةِ عذابهم في الآخرة أو نسياناً. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل ذلك الصَّرْفِ عن الصدقِ والتحقيقِ. ﴿كَانُوا۟ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرَفُون في الدنيا.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ ۖ فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَٱلْإِيمَـٰنَ﴾ من الملائكة والإنس. ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِى كِتَـٰبِ ٱللَّهِ﴾ في علمه أو قضائِه، أو ما كتبه لكم أي أوجبه أو اللوحُ أو القرآنُ وهو قوله ﴿وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ﴾[1]. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْبَعْثِ﴾ ردُّوا بذلك ما قالوه وحلفُوا عليه. ﴿فَهَـٰذَا يَوْمُ ٱلْبَعْثِ﴾ الذي أنكرتُموه. ﴿وَلَـٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ أنه حقٌّ لتفريطِكم في النظرِ، والفاءُ لجوابِ شرطٍ محذوفٍ تقديره: إنْ كنتم منكرينَ البعثَ فهذا يومُه، أي فقد تبيَّنَ بُطْلانُ إنكارِكم.

(٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ وقرأ الكوفيونَ بالياءِ لأنَّ المعذرةَ بمعنى العذْرِ، أو لأنَّ تأنيثَها غيرُ حقيقي وقد فصل بينهما. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُدعَون إلى ما يقتضي إعتابَهم، أي إزالةَ عَتَبِهم من التوبة والطاعة كما دُعوا إليه في الدنيا، من قولهم استعتبني فلانٌ فأعتبته أي استرضاني فأرضيته.

(٥٨) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ ولقد وصفناهم فيه بأنواع الصفات التي هي في الغرابة كالأمثال، مثْلُ صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون وما يقال لهم وما لا يكون من الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بيّنا لهم من كل مثَل ينبههم على التوحيد والبعثِ وصدقِ الرسول. ﴿وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ﴾ من آيات القرآن. ﴿لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ من فَرْطِ عِنادهم وقساوة قلوبهم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يعنون الرسول والمؤمنين. ﴿إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ مزوّرون.

(٥٩) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الطبعِ. ﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبُون العلم ويُصِرون على خُرافات اعتقدوها، فإن الجهل المركبَ يمنع إدراكَ الحق ويوجب تكذيب المُحق.

(٦٠) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذاهم. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بنُصرتك وإظهار دينك على الدين كلِّه. ﴿حَقٌّ﴾ لا بد من إنجازه. ﴿وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ﴾ ولا يحملنَّك على الخِفّة والقلق. ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ بتكذيبهم وإيذائهم، فإنهم شاكون ضالون لا يستبدع منهم ذلك. وعن يعقوبَ بتخفيف النون، وقرىء

---

(١) المؤمنون: ١٠٠.

ولا يَستَخِفّنّك أي لا يُزيغَنك فيكونوا أحقَّ بك مع المؤمنين. عن رسول الله ﷺ «من قرأ سورة الروم كان له من الأجر عشرُ حسنات بعدد كل مَلَك سبح الله بين السماء والأرض، وأدرك ما ضيَّع في يومه وليلته»[١].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٢٩ رقم ١٧٣) وهو حديث موضوع.

سورة لقمان

ترتيبها ٣١ — آياتها ٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الٓمٓ ﴿١﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾

سورة لقمان مكية

إلا آية وهي ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[1] فإن وجوبهما بالمدينة، وهو ضعيفٌ لأنه لا ينافي شرعيتهما بمكة. وقيل إلا ثلاثاً من قوله ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾[2]. وهي أربع وثلاثون آية، وقيل ثلاث وثلاثون.

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾.

(٢) ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ سبق بيانه في يونس.

(٣) ﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حالان من الآيات والعاملُ فيهما معنى الإشارة. وَرَفَعَهما حمزةُ على الخبر بعد الخبر، أو الخبرِ لمحذوف.

(٤) ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بيانٌ لإحسانهم، أو تخصيص لهذه الثلاثةِ

(١) لقمان: «٤».
(٢) لقمان: «٢٧».

من شُعَبه لفضل اعتدادٍ بها. وتكرير الضمير للتوكيد ولمَا حيل بينه وبين خبره.

(٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ لاستجماعهم العقيدةَ الحقّةَ والعملَ الصالح.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ ما يُلهي عما يعني كالأحاديث التي لا أصل لها والأساطيرِ التي لا اعتبارَ بها والمَضاحكِ وفضولِ الكلام. والإضافة بمعنى مِنْ، وهي تبيينية إن أراد بالحديث المنكرَ، وتبعيضيةٌ إن أراد به الأعمَّ منه. وقيل نزلت في النضْر بنِ الحارث اشترى كتب الأعاجم، وكان يحدث بها قريشاً ويقول: إن كان محمد يحدثكم بحديث عادٍ وثمودَ فأنا أحدثكم بحديث رُسْتم وإسفَنْديار والأكاسرة[١]. وقيل كان يشتري القِيَان ويحمِلُهن على معاشرة من أراد الإسلام ومنْعِه عنه[٢]. ﴿لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دينِه أو قراءة كتابه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو بفتح الياء، بمعنى ليَثْبُتَ على ضلاله ويزيدَ فيه. ﴿بِغَيۡرِ عِلۡمٖ﴾ بحال ما يشتريه أو بالتجارة حيث استبدل اللهو بقراءة القرآن. ﴿وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ﴾ ويتخذُ السبيلَ سُخرية. وقد نصبه[٣] حمزة والكسائي ويعقوبُ وحفصٌ عطفاً على ليُضِلَّ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ لإهانتهم الحقَّ باستئثار الباطلِ عليه.

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا وَلَّىٰ مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ متكبراً لا يَعبأ بها. ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَا﴾ مُشَابِهاً حالُه حال من لم يسمعها. ﴿كَأَنَّ فِيٓ أُذُنَيۡهِ وَقۡرٗاۖ﴾ مشابهاً مَنْ في أذنيه ثِقَلٌ لا يقدر أن يسمع، والأُولى حال من المستكنّ في ولّىٰ أو في مستكبراً، والثانية بدل منها أو حال من المستكن في لم يسمعها، ويجوز أن يكونا استئنافين.. وقرأ نافع في أُذْنَيْه. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أَعْلِمْهُ بأن العذاب يحيق به لا محالة. وذِكْر البشارة على التهكم.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلنَّعِيمِ﴾ أي لهم نعيمُ الجنات، فعكس للمبالغة.

(٩) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ حال من الضمير في لهم أو من جنات النعيم، والعامل ما تعلق به اللام. ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٗاۚ﴾ مصدران مؤكدان، الأول لنفسه والثاني لغيره، لأن قوله لهم جنات وعد وليس كلُّ وعد حقاً. ﴿وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾. الذي لا يغلبه شيء فيمنَعه عن إنجاز وعدِه ووعيدِه. ﴿ٱلۡحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعل إلا ما تستدعيه حكمتُه.

---

(١) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) من قول الكلبي ومقاتل، وأخرج البيهقي في الشعب نحوه عن ابن عباس (فتح القدير ٤/ ٢٣٦).

(٢) أورده الواحدي في أسباب النزول (ص٣٥٦) عن مجاهد. قال: نزلت في شراء القينات والمغنيات.

(٣) أي نصب «يتخذها».

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾

(١٠) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ قد سبق في الرعد[(١)]. ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً شوامخَ. ﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ كراهةَ أن تميد بكم، فإنّ تشابُهَ أجزائها يقتضي تبدلَ أحيازها وأوضاعِها لامتناع اختصاص كلٍّ منها لذاته أو لشيء من لوازمه بحيّز ووضع معينين. ﴿وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ من كل صنف كثير المنفعة[(٢)]. وكأنه استَدل بذلك على عزته التي هي كمالُ القدرة، وحكمتِه التي هي كمالُ العلم، ومهّد به قاعدة التوحيد وقررها بقوله:

(١١) ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ هذا الذي ذُكِرَ مخلوقُه فماذا خلق آلهتُكم حتى استحقوا مشاركته؟. وماذا نُصِبَ بخَلَقَ، أو ما مرتفعٌ بالابتداء وخبره ذا بصلته فأروني معلَّقٌ عنه. ﴿بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ إضرابٌ عن تبكيتهم إلى التسجيل عليهم بالضلال الذي لا يخفىٰ على ناظر، ووضعُ الظاهر موضع المضمر للدلالة على أنهم ظالمون بإشراكهم.

(١٢) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ﴾ يعني لقمانَ بنَ باعوراءَ من أولاد آزرَ ابنِ أخت أيوب[(٣)] أو خالتِه، وعاش حتى أدرك داودَ عليه الصلاة والسلام وأخذ منه العلم وكان يُفتي قبل مبعثه، والجمهورُ على أنه كان حكيماً[(٤)] ولم يكن نبياً. والحكمةُ في عرف العلماء: استكمالُ النفس الإنسانية باقتباس العلوم النظرية، واكتسابُ الملكة التامة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها. ومن حكمته أنه صحِب داود شهوراً وكان يَسْرُد الدرع فلم يسأله عنها فلما أتمها لبسها وقال: نِعْمَ لَبُوسُ الحرب أنتِ، فقال: الصمتُ حُكْمٌ وقليلٌ فاعلُه[(٥)]، وأن داود عليه السلام قال له يوماً كيف أصبحتَ؟ فقال أصبحتُ في

---

(١) الرعد: «٢».
(٢) والالتفات إلى نون العظمة في أنزلنا وأنبتنا لإبراز مزيد الاعتناء بأمرها (س٧/ ٧٠).
(٣) انظر البحر المحيط (٧/ ١٨٦).
(٤) انظر تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥٢ ـ ٤٥٣).
(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٢٢ ـ ٤٢٣) والبيهقي في شعب الإيمان (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٦) وابن حبان في «روضة العقلاء» (ص٧٠) كلهم من طريق ثابت عن أنس به.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.
● قلت: وأخرجه القضاعي في «مسند الشهاب» (١/ ١٦٨ رقم ٢٤٠) عن أنس مرفوعاً.
وفي إسناده (زكريا بن يحيى المنقري ـ أو المقري ـ) ضعفه ابن يونس كما في الميزان (٢/ ٧٩) واللسان (٢/ ٤٨٨).
وفيه أيضاً (علي بن مسعدة) وهو صدوق له أوهام [التقريب (٢/ ٤٤)]. وقال العراقي في «تخريج الإحياء» (٣/ ١٠٨ رقم التعليقة ٢) «أخرجه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس ـ (٢/ ٤١٧ رقم ٣٨٥١) ـ من حديث =

يدَي غيري، فتفكر داودُ فيه فصعِق صعقة، وأنه أمره بأن يذبح شاة ويأتيَ بأطيبِ مُضْغتين منها فأتىٰ باللسان والقلب ثم بعد أيام أمره بأن يأتي بأخبث مضغتين منها فأتىٰ بهما أيضاً فسأله عن ذلك فقال: هما أطيبُ شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبُثا. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ﴾ لأنِ اشْكُر، أو أي أشكر فإن إيتاء الحكمة في معنى القول. ﴿وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ﴾ لأن نفعه عائدٌ إليها وهو دوامُ النعمة واستحقاقُ مزيدها. ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ لا يحتاج إلى الشكر. ﴿حَمِيدٌ﴾ حقيقٌ بالحمد وإن لم يُحْمَد، أو محمود ينطِق بحمده جميعُ مخلوقاته بلسان الحال.

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ﴾ أنْعَمَ أو أَشْكَمَ أو ما ثانَ. ﴿وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ﴾ تصغيرُ إشفاقٍ، وقرأ ابن كثير هنا وفي يا بني أقم الصلاة بإسكان الياء، وحفصٌ فيهما وفي يا بني إنها إن تَكُ بفتح الياء، ومثله البَزّيُّ في الأخير، وقرأ الباقون في الثلاثة بكسر الياء. ﴿لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ﴾ قيل كان كافراً فلم يزل به حتى أسلم، ومَنْ وَقَفَ على لا تشرك جعل بالله قَسَماً. ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لأنه تسويةٌ بين من لا نعمةَ إلا منه ومن لا نعمة منه.

(١٤) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا﴾ ذاتَ وهْنٍ، أو تَهِنُ وَهْناً ﴿عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ أي تضعُف ضعفاً فوق ضعف فإنها لا تزال يتضاعف ضَعْفُها. والجملة في موضع الحال. وقرىء بالتحريك[1]، يقال: وَهَنَ يَهِنُ وَهْناً ووَهِن يَوْهُنُ وَهَناً. ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ وفِطامه في انقضاء عامين وكانت تُرضعه في تلك المدة. وقرىء وفَصْلُه في عامين. وفيه دليل على أن أقصى مدة الرضاع حَولان. ﴿أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ﴾ تفسير لوصينا، أو علة له، أو بدلٌ من والديه بَدَلَ الاشتمال. وذكر الحمل والفصال في البين اعتراض مؤكد للتوصية في حقها خصوصاً، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام لمن قال مَنْ أَبَرُّ؟ أُمَّك ثم أمك ثم أمك، ثم قال بعد ذلك ثم أباك[2]. ﴿إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحاسبك على شكرك وكفرك.

= ابن عمر بسند ضعيف، والبيهقي في «الشعب» (٤/ ٢٦٤ رقم ٥٠٢٧) من حديث أنس بلفظ (حكم) بدل (حكمة) وقال غلط فيه عثمان بن سعد والصحيح رواية ثابت قال: والصحيح عن أنس أن لقمان قال ورواه كذلك هو وابن حبان في كتاب روضة العقلاء ـ ص٧٠ ـ بسند صحيح إلى أنس» هـ.

(١) أي بتحريك الهاء في وهناً ووهن.

(٢) وهو حديث حسن.

أخرجه أبو داود (٥/ ٣٥١ رقم ٥١٣٩) والترمذي (٤/ ٣٠٩ رقم ١٨٩٧) وعبد الرزاق في «المصنف» (١١/ ١٣٢) وأحمد في «المسند» (٥/ ٢، ٣، ٤، ٥) والحاكم في «المستدرك» (٤/ ١٥٠) والطبراني في الكبير (١٩/ ٤٠٤ ـ ٤٠٦) وهناد (رقم ٩٦٥) من حديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جده.

وقال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال.

وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وحسنه الألباني في الإرواء (رقم ٨٣٠٧).

وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ
سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ
ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ
خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾ باستحقاقه الإشراك تقليداً لهما، وقيل أراد بنفي العلم به نفيه. ﴿فَلَا تُطِعْهُمَا﴾ في ذلك. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ صَحَاباً معروفاً يرتضيه الشرع ويقتضيه الكرم. ﴿وَٱتَّبِعْ﴾ في الدين ﴿سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ﴾ بالتوحيد والإخلاص في الطاعة. ﴿ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ مرجعُكَ ومرجعُهما. ﴿فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأن أجازِيَك على إيمانك وأجازِيَهما على كفرهما. والآيتان معترِضتان في تضاعيف وصية لقمانَ تأكيداً لما فيها من النهي عن الشرك، كأنه قال: وقد وصينا بمثل ما وصى به، وذِكْر الوالدين للمبالغة في ذلك فإنهما مع أنهما تِلْوَ البارى في استحقاق التعظيم والطاعة لا يجوز أن يستحقاه في الإشراك فما ظنك بغيرهما؟! روي نزولهما في سعد بن أبي وقاص وأمِّه، مكثت لإسلامه ثلاثاً لم تَطْعَم فيها شيئاً[١]، ولذلك قيل من أناب إليه أبو بكر رضي الله عنه فإنه أسلم بدعوته.

(١٦) ﴿يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ﴾ أي أن الخَصلة من الإحسان أو الإساءة إن تكُ مَثَلاً في الصِغَر كحبة الخردل. ورفع نافعٌ «مثقال» على أن الهاء ضمير القصة، وكان تامّةٌ، وتأنيثُها لإضافة المثقال إلى الحبة كقول الشاعر:

كما شرِقَتْ صدرُ القناة من الدم

أو لأن المراد به الحسنة أو السيئة. ﴿فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أخفىٰ مكان وأحرزه كجوف صخرة، أو أعلاه كمَحْدَب السموات[٢]، أو أسفله كمَقْعَر الأرض. وقرىء بكسر الكاف، مِنْ وَكَنَ الطائرُ إذا استقر في وُكْنَتِهِ. ﴿يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ﴾ يُحضرها فيحاسب عليها. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ﴾ يَصِل علمه إلى كل خفي. ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(١٧) ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ تكميلاً لنفسك. ﴿وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ تكميلاً لغيرك. ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد، سِيّما في ذلك. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الصبر، أو إلى كل ما أُمِر به. ﴿مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ مما عزمه الله من الأمور أي قطعه قَطْعَ إيجاب، مصدر أطلق للمفعول، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل من قوله «فإذا عزم الأَمْرُ» أي جَدّ.

(١٨) ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تُمِلْه عنهم ولا تولِّهم صفحةَ وجهك كما يفعله المتكبرون، مِنَ

---

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول بدون سند ص٣٤٦.

(٢) مَحْدَب السموات أي ما ارتفع منها، والحَدَبُ هو ما ارتفع من الأرض (مختار الصحاح مادة حدب).

الصَّعَر وهو ـ أو الصَّيَد[1] ـ داءٌ يعتري البعيرَ فيلوي عنقه. وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي ولا تُصَاعِرْ، وقرىء ولا تُصْعِرْ، والكل واحد مثل عَلاه وأعلاه وعالاه. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا﴾ أي فرَحاً، مصدر وقع موقع الحال أي تمرح مرحاً. أو لأجل المرح وهو البطر. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ علة للنهي. وتأخيرُ الفخور وهو مقابل للمصَعِّر خدَّه والمختال للماشي مرحاً لتوافق رؤوس الآي.

وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

(١٩) ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ توسطْ فيه بين الدبيب والإسراع. وعنه عليه الصلاة والسلام، «سرعةُ المشي تُذهِب بهاء المؤمن»[2] وقول عائشة في عمر رضي الله عنهما: كان إذا مشى أسرع[3] فالمراد ما فوق دبيب المتماوت. وقرىء بقطع الهمزة من أَقْصَد الرامي إذا سدد سهمه نحو الرمية. ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾ وانقُص منه وأقصر. ﴿إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ﴾ أوحشها. ﴿لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ والحمار مَثَلٌ في الذمّ سيما نهاقُه، ولذلك يكنى عنه فيقال طويل الأذنين. وفي تمثيل الصوت المرتفع بصوته ثم إخراجُه مخرج الاستعارة مبالغةٌ شديدة، وتوحيدُ الصوت لأن المراد تفضيل الجنس في النكير دون الآحاد أو لأنه مصدر في الأصل.

(٢٠) ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بأن جعله أسباباً محصِّلة لمنافعكم. ﴿وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بأن مكنكم من الانتفاع به بوَسَط أو غير وسط ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ محسوسة ومعقولة ما تعرفونه وما لا تعرفونه، وقد مر شرح النعمة وتفصيلها في الفاتحة. وقرىء وأصبغ بالإبدال، وهو جارٍ في كل

---

(١) أي هو من الصعَر بمعنى الصيد وهو داء يعتري البعير... (روح المعاني ٢١/ ٩٠).

(٢) وهو حديث منكر جداً.

● أخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٧٢٧) من حديث أبي هريرة، وفيه عمار بن مطر العنبري، أحاديثه بواطيل. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٧/ ٢٥٤٠) من حديث أبي سعيد الخدري، وفيه الوليد بن سلمة عامة أحاديثه غير محفوظ. قاله ابن عدي.

● وأخرجه ابن عدي في «الكامل» (٥/ ١٦٧٣) من حديث عبدالله بن عمر، وفيه عمر بن محمد بن صهبان الأسلمي وعامة أحاديثه ما لا يتابعه الثقات عليه والغلبة على حديثه المناكير. قاله ابن عدي.

● وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/ ٢٩٠) من طريق أبي معشر عن سعيد عن أبي هريرة، وإسناده ضعيف جداً. قاله الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨١).

وقال الألباني في «الضعيفة» (١/ ٧٤) «ويكفي في رد هذا الحديث أنه مخالف لهدي النبي ﷺ في مشيه».

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣٠ رقم ١٨٢): «ذكره ابن الأثير في «النهاية» (٤/ ٣٧٠).

قلت: لعله أخذه من الفائق. وفي الطبقات لابن سعد (٣/ ٢٩٠) من رواية سليمان بن أبي حثمة.

قال: قالت الشفاء بنت عبدالله، وهي أم سليمان: كان عمر إذا مشى. فذكره» هـ.

سين اجتمع مع الغين أو الخاء أو القاف كصَلَخ وصقر. وقرأ نافع وأبو عمرو وحفص نِعَمَهُ بالجمع والإضافة. ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ﴾ في توحيده وصفاته. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مستفاد من دليل. ﴿وَلَا هُدًى﴾ راجع إلى رسول. ﴿وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ﴾ أنزله الله، بل بالتقليد كما قال:

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ
عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ
ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ
كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾

(٢١) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ﴾ وهو منعٌ صريح من التقليد في الأصول. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ﴾ يحتمل أن يكون الضمير لهم ولآبائهم. ﴿إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ إلى ما يؤول إليه من التقليد أو الإشراك وجواب لو محذوف مثلُ لاتّبعوه، والاستفهام للإنكار والتعجب.

(٢٢) ﴿۞ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ فوض أمره إليه وأقبل بشَرَاشِره عليه، مِنْ أسلمت المتاع إلى الزبون، ويؤيده القراءة بالتشديد، وحيث عدّي باللام فلتضمُّن معنى الإخلاص. ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في عمله. ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ تعلق بأوثق ما يُتعلق به، وهو تمثيل للمتوكل المشتغل بالطاعة بمن أراد أن يترقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق عُرَى الحبل المتدلي منه. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ﴾ إذ الكلُّ صائر إليه.

(٢٣) ﴿وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ﴾ فإنه لا يضرك في الدنيا والآخرة. وقرىء فلا يُحْزِنْكَ مِنْ أَحْزَن وليس بمستفيض. ﴿إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ﴾ في الدارين. ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟﴾ بالإهلاك والتعذيب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فمُجازٍ عليه فضلاً عما في الظاهر.

(٢٤) ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا﴾ تمتيعاً أو زماناً قليلاً، فإن ما يزول بالنسبة إلى ما يدوم قليل. ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يَثْقُل عليهم ثِقلَ الأجرام الغِلاظ، أو يَضُمّ إلى الإحراق الضغطَ.

(٢٥) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح الدليل المانع من إسناد الخلق إلى غيره بحيث اضطروا إلى إذاعته. ﴿قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على إلزامهم وإلجائهم إلى الاعتراف بما يوجب بطلان معتقدهم. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن ذلك يلزمهم.

(٢٦) ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يستحق العبادةَ فيهما غيرُه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عن حمد الحامدين. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحق للحمد وإن لم يُحْمَد.

(٢٧) ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ﴾ ولو ثبت كونُ الأشجار أقلاماً. وتوحيدُ شجرة لأن المراد

تفصيل الآحاد. ﴿وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ والبحرُ المحيط بسَعَته مِدَاداً ممدوداً بسبعة أبحر، فأغنى عن ذكر المِداد بمدّه لأنه مِنْ مَدَّ الدواةَ وأمدها[١]. ورفْعُهُ للعطف على محل أنّ ومعمولَيها ويمده حال، أو للابتداء على أنه مستأنف أو الواو للحال. ونَصَبَه البصريان بالعطف على اسم أنّ أو إضمارِ فعل يفسره يمدُّه. وقرىء تَمُدُّه ويُمِدُّه بالياء والتاء. ﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ﴾ بكَتْبها بتلك الأقلامِ بذلك المداد. وإيثارُ جمع القلة للإشعار بأن ذلك لا يفي بالقليل فكيف بالكثير؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه شيء. ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته أمر. والآية جواب لليهود سألوا رسول الله ﷺ أو أمروا وفد قريش أن يسألوه عن قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٢] وقد أَنْزَلَ التوراة وفيها علمُ كل شيء.

﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾﴾

(٢٨) ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ إلا كخلقها وبعثها إذ لا يشغَله شأن عن شأن لأنه يكفي لوجود الكل تعلقُ إرادته الواجبةِ مع قدرته الذاتية كما قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[٣] ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ يسمع كلَّ مسموع ﴿بَصِيرٌ﴾ يبصر كل مُبصَر لا يشغله إدراكُ بعضها عن بعض فكذلك الحق.

(٢٩) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِىٓ﴾ كلٌّ من النَّيِّرَيْنِ يجري في فَلَكه. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ إلى منتهًى معلوم، الشمسُ إلى آخر السنة والقمر إلى آخر الشهر، وقيل إلى يوم القيامة. والفرق بينه وبين قوله: ﴿لأجل مسمى﴾ أن الأجل ههنا منتهى الجري وثمةَ غرضُه حقيقةً أو مجازاً، وكلا المعنيين حاصل في الغايات. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالم بكنهه.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الذي ذكر من سعة العلم وشمولِ القدرة وعجائبِ الصنع واختصاص الباري بها. ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بسبب أنه الثابتُ في ذاته الواجب من جميع جهاته، أو الثابتُ إلهيّتُه. ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ المعدوم في حد ذاته لأنه لا يوجد ولا يتصف إلا بجعله، أو الباطلُ إلهيتُه[٤]، وقرأ البصريان والكوفيون غيرَ أبي بكر بالياء. ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ مترفع على كل شيء ومتسلط عليه.

---

(١) إسناد المد إلى الأبحر السبعة دون البحر المحيط ـ مع كونه أعظم منها ـ لأنها هي المجاورة للجبال ومنابع المياهِ الجارية، وإليها تنصب الأنهار العظام أولاً ومنها ينصبّ إلى البحر المحيط ثانياً (س٧/ ٧٥).

(٢) الإسراء: «٨٥».

(٣) النحل: «٤٠».

(٤) والتصريح ببطلان ما يدعون من دونه ـ مع أنه يشير إليه قوله «هو الحق» ـ وذلك لإبراز كمال الاعتناء بأمر التوحيد، وللإيذان بأن الدلالة على بطلان ما ذكر ليست بطريق الاستتباع فقط بل بطريق الاستقلال أيضاً (س٧/ ٧٦).

أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ بإحسانه في تهيئة أسبابه، وهو استشهاد آخرُ على باهر قدرته وكمالِ حُكمه وشمول إنعامه. والباء للصلة أو الحال. وقرىء الفُلُك بالتثقيل، وبنِعْمات الله بسكون العين، وقد جوز في مثله الكسر والفتح والسكون. ﴿لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ دلائله. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المشاق فيتعب نفسه بالتفكر في الآفاق والأنفس. ﴿شَكُورٍ﴾ يعرِف النعم ويتعرّف مانحَها، أو للمؤمنين فإن الإيمان نصفان: نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

(٣٢) ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ علاهم وغطاهم. ﴿مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ﴾ كما يُظِلّ من جبل أو سحاب أو غيرهما. وقرىء كالظِلال، جمع ظُلّة كقُلّة وقلال. ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لزوالِ ما ينازع الفطرةَ من الهوى والتقليد بما دهاهم من الخوف الشديد. ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ مقيم على الطريق القصْد الذي هو التوحيدُ، أو متوسط في الكفر لانزجاره بعضَ الانزجار. ﴿وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ﴾ غدّار فإنه نقْضٌ للعهد الفطري، أو لِما كان في البحر. والخَتْرُ أشدُّ الغدر. ﴿كَفُورٍ﴾ للنعم.

(٣٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ لا يقضي عنه. وقرىء لا يُجزىء مِنْ أجزأ إذا أغنى، والراجع إلى الموصوف محذوف أي لا يجزي فيه. ﴿وَلَا مَوْلُودٌ﴾ عطف على والدٌ، أو مبتدأ خبرُه: ﴿هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ شَيْـًٔا﴾ وتغييرُ النظم للدلالة على أن المولود أولى بأن لا يَجزيَ، وقطْع طمع من توقع من المؤمنين أن ينفع أباه الكافرَ في الآخرة. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالثواب والعقاب. ﴿حَقٌّ﴾ لا يمكن خُلْفَه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطان بأن يُرَجِّيَكم التوبةَ والمغفرة فيُجْسِرَكم على المعاصي.

(٣٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ علمُ وقت قيامها. لما روي أن الحرثَ بنَ عمرو أتى رسول الله ﷺ فقال: متى قيامُ الساعة؟ وإني قد ألقيْتُ حبّاتي في الأرض فمتى السماءُ تمطر؟ وحَملُ امرأتي أذكر أم أنثى؟ وما أعمل غداً وأين أموت؟ فنزلت[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «مفاتح الغيب خمسٌ» وتلا

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٨٥): «هكذا ذكره الواحدي ـ في الأسباب (ص٣٤٧) ـ والثعلبي بغير سند، وأخرجه الطبري ـ في «جامع البيان» (١١/ج٢١/٨٧ ـ ٨٨) ـ وابن أبي حاتم ـ كما في «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٠) ـ من طريق ابن أبي نجيح عن مجاهد، قال: جاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد إن امرأتي حبلى فأخبرني متى تلد؟ فذكره» هـ.

هذه الآية[١]. ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ في إبّانه المقدَّر له والمحلِّ المعين له في علمه. وقرأ نافع وابن عامر وعاصم بالتشديد. ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ﴾ أذكر أم أنثى أتام أم ناقص. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ من خير أو شر، وربما تعزم على شيء وتفعل خلافه. ﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ كما لا تدري في أي وقت تموت. روي أن ملك الموت مر على سليمانَ فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه، فقال الرجل مَنْ هذا؟ قال: ملك الموت، فقال كأنه يريدني فمُرِ الريحَ أن تحملني وتُلقِيَني بالهند، ففعل، فقال الملَك: كان دوام نظري إليه تعجباً منه إذْ أُمرتُ أن أقبِضَ روحه بالهند وهو عندك[٢]. وإنما جعل العلمَ لله تعالى والدرايةَ للعبد لأن فيها معنى الحيلة فيشعر بالفرق بين العِلْمين، ويدل على أنه إن أعمل حيلة وأنفذ فيها وُسعه لم يعرف ما هو الحق به من كسبه وعاقبته فكيف بغيره مما لم يُنصَب له دليلٌ عليه. وقرىء بأية أرض، وشبّه سيبويهِ تأنيثها بتأنيث كل في كلهنَّ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ يعلم الأشياء كلها. ﴿خَبِيرٌ﴾ يعلم بواطنها كما يعلم ظواهرها. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة لقمانَ كان له لقمانُ رفيقاً يوم القيامة، وأعطِيَ من الحسنات عشراً عشراً بعدد من عمِل بالمعروف ونهى عن المنكر»[٣].



(١) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٣ ـ ٥١٤ رقم ٤٧٧٨) من حديث ابن عمر.
(٢) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٧١ رقم ٢٢٢) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ٢٠٥) وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ١١٨) عن شهر بن حوشب. وشهر هذا صدوق كثير الأوهام والإرسال ـ كما في التقريب (١/ ٣٥٥) ـ.
(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب، وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة السجدة

ترتيبها ٣٢ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الٓمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۚ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا
بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

سورة السجدة مكية، وآيُها ثلاثون آيةً، وقيل تسعٌ وعشرون آية[١]

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿الٓمٓ﴾ إن جُعل اسماً للسورة أو القرآن فمبتدأٌ خبرُه:

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على أن التنزيل بمعنى المُنزَل، وإن جُعل تعديداً للحروف كان تنزيلُ خبرَ مبتدإٍ محذوف أو مبتدأً خبرُه: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾، فيكونُ ﴿مِن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حالاً من الضمير في فيه، لأن المصدرَ لا يعمل فيما بعد الخبر، ويجوز أن يكون خبراً ثانياً، ولا ريب فيه حالٌ من الكتاب، أو اعتراض والضميرُ فيه لمضمون الجملة ويؤيده قوله:

(٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ فإنه إنكار لكونه من رب العالمين، وقوله: ﴿بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ﴾ فإنه تقريرٌ له. ونظمُ الكلام على هذا أنه أشار أولاً إلى إعجازه، ثم رتب عليه أن تنزيلَه من رب العالمين؛ وقرر ذلك بنفي الريب عنه، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك إنكاراً له وتعجيباً منه؛ فإنّ أمْ منقطعةٌ، ثم أضرب عنه إلى إثبات أنه الحق المنزّل من الله وبيّن المقصودَ من تنزيله فقال: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ إذا كانوا أهل الفترة ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ بإنذارك إياهم.

(٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ مر بيانه في

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٦/ ٥٣٤) و«زاد المسير» (٦/ ٣٣٢).

الأعراف[١]. ﴿مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ ما لكم إذا جاوزتم رضا الله أحدٌ ينصركم ويشفع لكم. أو ما لكم سواه وليٌّ ولا شفيع، بل هو الذي يتولى مصالحكم وينصركم في مواطنِ نصركم، على أن الشفيع متجوَّز به للناصر، فإذا خذلكم لم يبقَ لكم وليٌّ ولا ناصر. ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ بمواعظ الله تعالى.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

(٥) ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ يدبر أمرَ الدنيا بأسباب سماوية كالملائكة وغيرها نازلةٍ آثارُها إلى الأرض. ﴿ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ﴾ ثم يصعَد إليه ويثبت في علمه موجوداً. ﴿فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ في برهة من الزمان متطاولةٍ يعني بذلك استطالةَ ما بين التدبير والوقوع، وقيل يدبر الأمر بإظهاره في اللوح فينزل به الملكُ ثم يعرُج إليه في زمان هو كألف سنة لأن مسافة نزوله وعروجه مسيرةُ ألف سنة فإن ما بين السماء والأرض مسيرةُ خمسِمائة سنة، وقيل يقضي قضاءَ ألف سنةٍ فينزل به الملك ثم يعرُج بعد الألف لألف آخرَ، وقيل يدبر الأمر إلى قيام الساعة ثم يعرج إليه الأمرُ كلُّه يوم القيامة، وقيل يدبر المأمورَ به من الطاعات منزلاً من السماء إلى الأرض بالوحي. ثم لا يعرج إليه خالصاً كما يرتضيه إلا في مدة متطاولة لقلة المخلِصين والأعمال الخُلّص. وقرىء يُعْرَج ويَعُدُّون.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ فيدبر أمرهما على وَفق الحكمة. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب على أمره. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ على العباد في تدبيره، وفيه إيماءٌ بأنه سبحانه يراعى المصالحَ تفضلاً وإحساناً.

(٧) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ خلقه موفَّراً عليه ما يستعد له ويليق به على وَفق الحكمة والمصلحة، وخلقه بدلٌ من كلِّ بدلَ الاشتمال، وقل علِمَ كيف يخلقه من قولهم قيمةُ المرء ما يحسنه أي يحسن معرفته، وخلْقه مفعول ثان. وقرأ نافع والكوفيون بفتح اللام على الوصف، فالشيء على الأول مخصوص بمنفصل وعلى الثاني بمتصل. ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ﴾ يعني آدم. ﴿مِن طِينٍ﴾.

(٨) ﴿ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ﴾ ذريته، سميت بذلك لأنها تنسُل منه أي تنفصل. ﴿مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ ممتَهن.

(٩) ﴿ثُمَّ سَوَّىٰهُ﴾ قوّمه بتصوير أعضائه على ما ينبغي. ﴿وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ أضافه إلى نفسه تشريفاً له وإشعاراً بأنه خلق عجيب وأن له شأناً له مناسبة مَا إلى الحضرة الربوبية، ولأجله قيل من عرف نفسه فقد عرف ربه. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ خصوصاً لتسمعوا وتبصروا وتعقلوا[٢]. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ تشكرون شكراً قليلاً.

---

(١) الأعراف: «٥٤».

(٢) وتقديم «لكم» على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق للمؤخر (س٧/ ٨٠).

وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ ۚ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٠﴾ ۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ
ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ
رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ
هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ
لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ إِنَّا نَسِينَٰكُمْ ۖ وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي صرنا تراباً مخلوطاً بتراب الأرض لا نتميز منه، أو غبنا فيها. وقرىء ضَلِلْنا بالكسر من ضلِ يضل، وصَلَلْنا من صلّ اللحم إذا أنتن، وقرأ ابن عامر إذا على الخبر؛ والعاملُ فيه ما دل عليه: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۭ﴾ وهو: نُبعثُ أو يُجَدّد خلقُنا. وقرأ نافع والكسائي ويعقوب أنّا على الخبر. والقائل أبيّ بن خلف، وإسناده إلى جميعهم لرضاهم به. ﴿بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعث أو بتلقي ملك الموت وما بعده. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ جاحدون.

(١١) ﴿۞ قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم﴾ يستوفي نفوسكم لا يترك منها شيئاً ولا يُبقي منكم أحداً. والتفعّل والاستفعال يلتقيان كثيراً كتقصيتُه واستقصيتُه وتعجلته واستعجلتُه. ﴿مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ بقبْض أرواحكم وإحصاء آجالكم. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ للحساب والجزاء.

(١٢) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ من الحياء والخِزي. ﴿رَبَّنَآ﴾ قائلين ربنا. ﴿أَبْصَرْنَا﴾ ما وعدتّنا. ﴿وَسَمِعْنَا﴾ منك تصديق رسلك. ﴿فَٱرْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا. ﴿نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ إذْ لم يبقَ لنا شك بما شاهدنا، وجواب لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ويجوز أن تكون للتمني، والمضيُّ فيها وفي إذ لأن الثابت في علم الله بمنزلة الواقع. ولا يُقَدّر لترى مفعول، لأن المعنى لو يكون منك رؤيةٌ في هذا الوقت، أو يُقدّر ما دل عليه صلةُ إذ. والخطابُ للرسول ﷺ، أو لكل أحد[1].

(١٣) ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعملِ الصالح بالتوفيق له. ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ ثبت قضائي وسبق وعيدي وهو: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وذلك تصريحٌ بعدم إيمانهم ـ لعدم المشيئة ـ المسبَّب عن سبق الحكم بأنهم من أهل النار، ولا يدفعه جعْلُ ذوْق العذاب مسبَّباً عن نسيانهم العاقبةَ وعدمِ تفكرهم فيها بقوله:

(١٤) ﴿فَذُوقُواْ بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَآ﴾ فإنه من الوسائط والأسباب المقتضية له. ﴿إِنَّا نَسِينَٰكُمْ﴾ تركناكم من الرحمة، أو في العذاب تَرْكِ المنسيّ. وفي استئنافه وبناءِ الفعل على إنّ واسمَها تشديدٌ في الانتقام منهم. ﴿وَذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كَرّر الأمر للتأكيد ولما نيط به من التصريح بمفعوله، وتعليلُه بأفعالهم السيئة من التكذيب والمعاصي ـ كما علله بتركهم تدبُّرَ أمرِ العاقبة والتفكيرَ فيها ـ دلالةٌ على أن كلاًّ منهما يقتضي ذلك.

---

(١) عدلوا للجملة الاسمية «إنّا موقنون» وذلك لإظهار ثباتهم على الإيقان وكمال رغبتهم فيه (س٧/ ٨٢).

إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَسَبَّحُوا۟ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩ ﴿١٥﴾
تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ
أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَـٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِهَا﴾ وُعظوا بها. ﴿خَرُّوا۟ سُجَّدًا﴾ خوفاً من عذاب الله. ﴿وَسَبَّحُوا۟﴾ نزهوه عما لا يليق به كالعجز عن البعث. ﴿بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ حامدين له شُكْراً على ما وفقهم للإسلام وآتاهم الهدى[١]. ﴿وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۩﴾ عن الإيمان والطاعة كما يفعل مَنْ يُصِرّ مستكبراً.

(١٦) ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ ترتفع وتتنحىٰ. ﴿عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ الفُرُش ومواضع النوم. ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ داعين إياه. ﴿خَوْفًا﴾ من سخطه. ﴿وَطَمَعًا﴾ في رحمته. وعن النبي ﷺ في تفسيرها: «قيام العبد من الليل»[٢]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا جمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد جاء منادٍ ينادي بصوت يُسمعُ الخلائقَ كلهم: سيعلم أهل الجمع اليومَ مَنْ أوْلىٰ بالكرم، ثم يرجع فينادي: لِيَقُم الذين كانت تتجافىٰ جنوبهم عن المضاجع فيقومون وهم قليل، ثم يَرجع فينادي: لِيقُم الذين كانوا يحمدون الله في السراء والضراء فيقومون وهم قليل، فيسرحون جميعاً إلى الجنة، ثم يحاسب سائرَ الناس»[٣] وقيل كان أناس من الصحابة يُصلّون من المغرب إلى العشاء فنزلت فيهم[٤]. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في وجوه الخير.

(١٧) ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾ لا ملَك مقرب ولا نبيّ مرسل. ﴿مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ مما تَقَرُّ به عيونُهم. وعنه عليه الصلاة والسلام: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عينٌ رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بلْه ما أطلعتهم عليه، أقرؤوا إن شئتم «فلا تعلم نفس ما أُخفِيَ لهم»[٥]. وقرأ حمزة ويعقوب أُخفِي لهم على أنه مضارعُ أَخفيْتُ، وقرىء نُخْفي وأُخفي

(١) والتعرض لعنوان الربوبية بطريق الالتفات مع الإضافة إلى ضميرهم للإشعار بعلة التسبيح والتحميد، وبأنهم يفعلونها بملاحظة ربوبيته تعالى لهم (س/٧/ ٨٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤١٢ ـ ٤١٣) من حديث معاذ بن جبل مرفوعاً به.
والترمذي (٥/ ١١ ـ ١٢ رقم ٢٦١٦) وابن ماجة (٢/ ١٣١٤ رقم ٣٩٧٣) وعبد بن حميد رقم (١١٢) وأحمد في المسند (٥/ ٢٣١) والطبراني في الكبير (٢٠/ ١٣٠ رقم ٢٦٦) عن معاذ في أثناء حديث مرفوع نحوه. وهو حديث صحيح. انظر إرواء الغليل (رقم: ٤١٣).

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٣١ رقم ١٩١) «ـ أخرجه ـ إسحاق وأبو يعلى من رواية شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد مطولاً وهو عند الحاكم ـ (٢/ ٣٩٨ ـ ٣٩٩) ـ» هـ.
قلت: صححه الحاكم ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود (٧٩/ ١٣٢١، ١٣٢٣) من حديث أنس. ويشهد له ما أخرجه الترمذي (٥/ ٣٤٦ رقم ٣١٩٦) أيضاً من حديث أنس وقوى إسناده الشيخ عبدالقادر الأرنؤوط في تخريج جامع الأصول (٢/ ٣٠٣).

(٥) أخرجه البخاري (٨/ ٥١٥، ٥١٦ رقم ٤٧٧٩ و٤٧٨٠) ومسلم (٤/ ٢١٧٤ ـ ٢١٧٥ رقم ٢، ٣، ٤/ ٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة.

والفاعل للكل هو الله، وَقُرّاتِ أَعْيُن لاختلاف أنواعها. والعلمُ بمعنىٰ المعرفة، وما موصولةٌ أو استفهامية معلق عنها الفعل. ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي جُزُوا جزاء، أو أُخْفِيَ للجزاء فإن إخفاءه لعلوّ شأنه. وقيل هذا لقومٍ أخفَوْا أعمالهم فأخفى الله ثوابهم.

أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ
ٱلۡمَأۡوَىٰ نُزُلَۢا بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا
وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ دُونَ
ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ إِنَّا مِنَ
ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾

(١٨) ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ﴾ خارجاً عن الإيمان ﴿لَّا يَسۡتَوُۥنَ﴾ في الشرف والمثوبة، تأكيدٌ وتصريحٌ، والجمْعُ للحمل على المعنىٰ.

(١٩) ﴿أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمۡ جَنَّٰتُ ٱلۡمَأۡوَىٰ﴾ فإنها المأوىٰ الحقيقي والدنيا منزل مرتحلٌ عنها لا محالةَ. وقيل المأوى جنةٌ من الجِنان. ﴿نُزُلَۢا﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران[1]. ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ بسبب أعمالهم أو على أعمالهم.

(٢٠) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأۡوَىٰهُمُ ٱلنَّارُۖ﴾ مكانَ جنة المأوى للمؤمنين. ﴿كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخۡرُجُواْ مِنۡهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا﴾ عبارةٌ عن خلودهم فيها. ﴿وَقِيلَ لَهُمۡ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ إهانة لهم وزيادة في غيظهم.

(٢١) ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَدۡنَىٰ﴾ عذابَ الدنيا، يريد ما مُحِنوا به من السَّنَةِ سبعَ سنين والقتلِ والأسر. ﴿دُونَ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡأَكۡبَرِ﴾ عذابِ الآخرة. ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ لعل مَنْ بقي منهم. ﴿يَرۡجِعُونَ﴾ يتوبون عن الكفر. روي أن الوليد بن عقبة فاخَرَ علياً رضي الله عنه يوم بدر فنزلت هذه الآيات[2].

(٢٢) ﴿وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ فلم يتفكرْ فيها. وثُمّ لاستبعاد الإعراض عنها - مع فرض وضوحها - وإرشادِها إلى أسباب السعادة بعد التذكير بها عقلاً كما في بيت الحماسة.

وَلاَ يَكْشِفُ الغُمَّاءَ إِلاَّ ابْنُ حُرَّةٍ يَرَى غَمَرَاتِ المَوْتِ ثُمَّ يَزُورُها[3]

﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ فكيف ممن كان أظلمَ من كل ظالم؟!.

---

(١) آل عمران: «١٩٨».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣١ رقم ١٩٤): «- أخرجه - ابن مردويه، والواحدي ص٣٤٩ - ٣٥٠ من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال الوليد بن عقبة بن أبي معيط لعلي: أنا أحد منك سناناً وأبسط منك لساناً وأملأ منك لكتيبة. فقال علي: اسكت يا فاسق، فإنما أنت فاسق. فنزلت».
وله طريق أخرى عند ابن مردويه من رواية الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس رضي الله عنهما.
«تنبيه»: «قوله إن ذلك شجر بينهما يوم بدر غلط فاحش. فما كان الوليد حينئذٍ رجلاً».

(٣) من الطويل.

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِۦ ۖ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ
أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا
كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۚ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ
مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ﴾ كما آتيناك. ﴿فَلَا تَكُن فِى مِرْيَةٍ﴾ في شك. ﴿مِّن لِّقَآئِهِۦ﴾ من لقائك الكتاب كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ﴾[1] فإنّا آتيناك من الكتاب مثلَ ما آتيناه منه فليس ذلك ببدْع لم يكن قطّ حتى ترتاب فيه، أو من لقاء موسىٰ للكتاب، أو من لقائك موسىٰ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «رأيت ليلةَ أُسْريَ بي موسى عليه السلام رجلاً آدم طوالاً جَعْداً كأنه من رجال شنوأة»[2]. ﴿وَجَعَلْنَٰهُ﴾ أي المنزَلَ على موسى. ﴿هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾.

(٢٤) ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ﴾ الناس إلى ما فيه من الحِكَم والأحكام. ﴿بِأَمْرِنَا﴾ إياهم به أو بتوفيقنا له. ﴿لَمَّا صَبَرُوا۟﴾ وقرأ حمزة والكسائي ورويس لِمَا صبروا أي لصبرهم على الطاعة أو عن الدنيا. ﴿وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ لإمعانهم فيها النظر.

(٢٥) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ يقضي فيميز الحق من الباطل بتمييز المُحِقّ من المبطل. ﴿فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدين.

(٢٦) ﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ الواو للعطف على مَنْويٍّ من جنس المعطوف. والفاعلُ ضميرُ ما دلّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾ أي كَثْرةُ مَنْ أهلكناهم من القرون الماضية، أو ضميرُ الله بدليل القراءة بالنون. ﴿يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ﴾ يعني أهلَ مكة يمرون في متاجرهم على ديارهم. وقرىء يَمَشُّون بالتشديد. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ ۖ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ سماعَ تدبرٍ واتعاظ.

(٢٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ﴾ التي جُرِزَ نباتُها أي قُطع وأزيل، لا التي لا تُنبت لقوله: ﴿فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا﴾ وقيل اسمُ موضعٍ باليمن. ﴿تَأْكُلُ مِنْهُ﴾ من الزرع. ﴿أَنْعَٰمُهُمْ﴾ كالتين والورق. ﴿وَأَنفُسُهُمْ﴾ كالحب والثمر. ﴿أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾ فيستدلون به على كمال قدرته وفضله.

(٢٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْفَتْحُ﴾ النصرَ أو الفصل بالحكومة من قوله: ﴿رَبَّنَا ٱفْتَحْ بَيْنَنَا﴾[3] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في الوعد به.

---

(١) النحل: «٦».
(٢) أخرجه البخاري (٦/٣١٤ رقم ٣٢٣٩) و(٦/٤٢٨ رقم ٣٣٩٤) ومسلم (١/١٥١ رقم ٢٢٦) من حديث ابن عباس.
(٣) الأعراف: «٨٩».

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

(٢٩) ﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾ وهو يومُ القيامة فإنه يومُ نَصْرِ المؤمنين على الكفرة والفَصْلِ بينهم، وقيل يوم بدر أو يوم فتح مكة. والمرادُ بالذين كفروا المقتولون منهم فيه فإنهم لا ينفعهم إيمانُهم حالَ القتل ولا يُمْهَلون، وانطباقُه جواباً على سؤالهم من حيث المعنى باعتبار ما عُرِف من غرضهم؛ فإنهم لما أرادوا به الاستعجال تكذيباً واستهزاء أُجيبوا بما يَمْنَع الاستعجال.

(٣٠) ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ ولا تبالِ بتكذيبهم، وقيل هو منسوخ بآية السيف. ﴿وَانتَظِرْ﴾ النصرةَ عليهم. ﴿إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ﴾ الغلبةَ عليك. وقرىء بالفتح، على معنى أنهم أحقاءُ بأن يُنْتَظَرَ هلاكُهم، أو أن الملائكة ينتظرونه. عن النبي ﷺ: «من قرأ ألم تنزيلُ وتبارك الذي بيده الملك أُعطي من الأجر كأنما أحيا ليلة القدر»[١] وعنه: «من قرأ ألم تنزيلُ في بيته لم يدخل الشيطان بيته ثلاثة أيام»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب، وله طريق أخرى عند الثعلبي من رواية أبي عصمة عن زيد العمي عن أبي بصرة عن ابن عباس عن أبي، وعند ابن مردويه من وجه آخر عن نافع عن ابن عمر. وفي إسناده داود بن معاذ وهو ساقط. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣١ رقم ١٩٥).

(٢) قال ابن حجر في «المرجع السابق» (ص١٣١ ـ ١٣٢ رقم ١٩٦): لم أجده.

سُورَةُ الأحزاب

ترتيبها ٣٣ — آياتها ٧٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾

سورة الأحزاب مدنية وآيها ثلاثٌ وسبعون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ناداهُ بالنبيِّ وأَمَرَهُ بالتقوى تعظيماً له وتفخيماً لشأن التقوى، والمرادُ به الأمرُ بالثبات عليه ليكونَ مانعاً له عما نُهِيَ عنه بقوله: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يعودُ بوهْن في الدين[1]. رويَ أنَّ أبا سفيانَ وعِكْرِمةَ بنَ أبي جهل وأبا الأعور السلميَّ قدِموا عليه في الموادَعةِ التي كانت بينَه وبينهم وقام معهم ابنُ أبيّ ومعتبُ بنُ قشير والجدُّ بنُ قيس فقالوا له: ارفضْ ذِكْرَ آلهتنا وقلْ إن لها شفاعةً وندعُك وربَّك فنزلت. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالمصالح والمفاسد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يحكُم إلا بما تقتضيه الحِكْمةُ.

(٢) ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ كالنهي عن طاعَتِهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فمُوح إليك ما تصلُح به أعمالُكَ ويغني عن الاستماع إلى الكفرةِ، وقرأ أبو عمرو بالياء على أنَّ الواوَ ضميرُ الكفرةِ والمنافقين أي أنَّ اللهَ خبيرٌ بمكايدهم فيدفعُها عنك.

(٣) ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وكِلْ أمْرَك إلى تدبيره. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكُولاً إليه الأمورُ كلُّها.

---

(١) ذكره الثعلبي والواحدي في الأسباب ص٣٥١ بغير إسناد كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣٢ رقم ٢٠٠).

(٤) ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦ ﴾ أي ما جمعَ قلبينِ في جوفٍ لأنَّ القلبَ معدِنُ الروح الحيواني المتعلِّقُ بالنفس الإنساني أولاً ومنعُ القوى بأسْرِها وذلك يمنعُ التعددَ. ﴿ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ﴾ وما جمع الزوجيةَ والأمومةَ في امرأةٍ ولا الدعوةَ والبنوةَ في رجلٍ، والمرادُ بذلك ردُّ ما كانتِ العربُ تزعم مِنْ أنَّ اللبيبَ الأريبَ له قلبانِ ولذلك قيل لأبي معمر أو جميلِ بنِ أسد الفِهري ذو القلبينِ، والزوجةُ المظاهَرُ عنها كالأمِّ ودعيُّ الرجلِ ابنُه ولذلك كانوا يقولون لزيد بنِ حارثةَ الكلبي عتيقِ رسولِ الله ﷺ ابنَ محمد، أو المرادُ نفيُ الأمومةِ والبنوّةِ عن المظاهَرِ عنها والمتبنَّى ونفيُ القلبينِ لتمهيدِ أصلٍ يُحْمَلانِ عليه. والمعنى كما لم يجعلِ اللهُ قلبينِ في جوفٍ لأدائِه إلى التناقُضِ، وهو أنْ يكونَ كلٌّ منهما أصلاً لكلِّ القوى، وغيرَ أصلٍ لم يجعلِ الزوجةَ والدعيَّ اللذينِ لا وِلادةَ بينَهما وبينَه أمَّه وابنَه اللذين بينَهما وبينه ولادةٌ، وقرأ أبو عمرٍو اللاي بالياءِ وحْدَه على أنَّ أصله اللاءُ بهمزةٍ فَخُفِّفَتْ، وعن الحجازيينَ مِثْلُه، وعنهما وعن يعقوبَ بالهمزِ وحْدَه، وأصلُ تظاهِرون تتظاهرونَ فأُدغِمَتِ التاءُ الثانية في الظاء. وقرأ ابنُ عامر تظَّاهرون بالإدغام وحمزةُ والكسائي بالحذفِ وعاصمٌ تُظَاهِرون مِنْ ظاهَرَ، وقُرِىءَ تَظْهَرُوْنَ مِنْ ظهرَ بمعنى ظاهَرَ كعقدَ بمعنى عاقَدَ وتَظْهَرُوْنَ من الظُّهور. ومعنى الظِّهارِ: أنْ يقولَ للزوجةِ أنتِ عليَّ كظَهْرِ أمِّيّ، مأخوذٌ من الظَّهْرِ باعتبارِ اللفظِ كالتلبيةِ من لبَّيْكَ وتعديتُه بِمنْ لتضمُّنِه معنى التجنُّبِ لأنه كان طَلَاقاً في الجاهلية وهو في الإسلام يقتضي الطلاقَ أوِ الحرمةَ إلى أداءِ الكفَّارة كما عدَّى آلى بها، وهو بمعنى حلفَ وذَكَرَ الظَّهْرَ للكنايةِ عن البطنِ الذي هو عمودُه فإنَّ ذِكْرَهُ يقارب ذِكْرَ الفرْجِ، أو للتغليظ في التحريم، فإنَّهم كانوا يحرِّمون إتيانَ المرأةِ وَظَهْرُها إلى السماء، وأدعياءُ جمعُ دعيٍّ على الشذوذِ وكأنه شُبِّهَ بفعيل بمعنى فاعِلٍ فَجُمِعَ جمعَه. ﴿ ذَٰلِكُمْ ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ أو إلى الأخير. ﴿ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ﴾ لا حقيقةَ له في الأعيانِ كقول الهاذي. ﴿ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ ﴾ ماله حقيقةٌ عينيةٌ مطابِقةٌ له. ﴿ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ سبيلَ الحقِّ.

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

(٥) ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ ﴾ أنْسُبوهم إليهم، وهو إفرادٌ للمقصودِ من أقواله الحقَّةِ وقوله: ﴿ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ تعليلٌ له، والضمير لمصدرِ ادْعُوهم وأقسطُ أفعلُ تفضيلٍ قَصَدَ به الزيادةَ مطلقاً من القِسْطِ بمعنى العدْلِ، ومعناه البالغُ في الصدقِ. ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ ﴾ فتنسِبُوهم إليهم. ﴿ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ ﴾ أي فَهُمْ إخوانُكم في الدين. ﴿ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ وأولياؤُكم فيه فقولوا هذا أخي ومولاي بهذا التأويلِ. ﴿ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ ﴾ ولا إثمٌ عليكم فيما فعلتموه من ذلك مخطِئينَ قبلَ النهي أو بعدَه على النسيانِ أو سَبْقِ اللسان. ﴿ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ﴾ ولكنَّ الجُناحَ فيما تعمَّدتْ قلوبُكم أو ولكنْ ما تعمَّدتْ قلوبكم فيه الجناحَ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ لِعَفْوِهِ عن المخطىءِ. واعلم أنَّ التبنيَ لا عبرةَ به عندنا وعندَ أبي حنيفة يوجِبُ عِتْقَ مملوكِه ويثبتُ النَّسب لمجهولِه الذي يمكن إلحاقُه به.

﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

(٦) ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ في الأمور كلِّها فإنه لا يأمرُهم ولا يرضَى منهم إلا بما فيه صلاحُهم ونجاحُهم بخلافِ النفسِ، فلذلك أُطلِقَ، فيجب عليهم أنْ يكونَ أحبَّ إليهم من أنفسِهم وأمرُه أنفذَ عليهم من أمرِها وشفقتُهم عليه أتمَّ من شفقتهم عليها. رُوِيَ: أنه عليه الصلاةُ والسلام أراد غزوةَ تبوكَ فأمر الناسَ بالخروج فقال ناسٌ نستأذِنُ آباءَنا وأمهاتِنا فنزلت[1]. وقُرِئَ وهو أبٌ لهم أي في الدين فإنَّ كلَّ نبيٍّ أبٌ لأمَّتِه من حيثُ أنه أصلٌ فيما به الحياةُ الأبديةُ ولذلك صارَ المؤمنون أُخوةً. ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ منزَّلاتٌ منزلتَهُنَّ في التحريم واستحقاقِ التعظيم وفيما عدا ذلك فكما الأجنبياتِ، ولذلك قالتْ عائشةُ رضي الله عنها: لسنا أمهاتِ النساءِ[2]. ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ﴾ وذوو القراباتِ. ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في التوارُثِ وهو نسخٌ لما كان في صدرِ الإسلام من التوارُثِ بالهجرةِ والموالاةِ في الدين. ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ في اللوح أو فيما أُنزِلَ، وهو هذه الآيةُ أو آيةُ المواريثِ أو فيمَ فرضَ الله. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بيانٌ لأولي الأرحامِ، أو صِلةٌ لأولي أي أولو الأرحام بحقِّ القرابة أَوْلَى بالميراثِ من المؤمنينَ بحقِّ الدين ومن المهاجرين بحقِّ الهجرة. ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ استثناءٌ من أعمِّ ما يقدر الأولوية فيه من النفع! والمراد بفعل المعروفِ التوصيةُ، ومنقطعٌ ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ كان ما ذَكَرَ في الآيتين ثابتاً في اللوح أو القرآن. وقيل في التوراة.

(٧) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ﴾ مقدَّرٌ باذْكُرْ وميثاقُهم عهودُهم بتبليغِ الرسالة والدعاءِ إلى الدين القيِّم. ﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ خصَّهم بالذِّكْرِ لأنهم مشاهيرُ أربابِ الشرائعِ وقدَّمَ نبيَّنا عليه الصلاةُ والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنِه. ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ عظيمَ الشأن أو مؤكداً باليمين، والتكريرُ لبيانِ هذا الوصف تعظيماً له.

(٨) ﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ﴾ أي فعلنا ذلك ليسألَ اللهُ يومَ القيامة الأنبياءَ الذين صدقوا عهدَهم عما قالوه لقومهم، أو تصديقِهم إيَّاهم تبكيتاً لهم أو المصدِّقين لهم عن تصديقهم فإنَّ مصدِّقَ الصادقِ صادقٌ، أو المؤمنينَ الذين صدقوا عهدَهم حينَ أشْهَدَهُم على أنفسِهم عن صدْقِهم عهدَهم. ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ عطفٌ على أخذْنا من جهة أنَّ بعثةَ الرسل وأخْذَ الميثاق منهم لإثابةِ المؤمنينَ، أو على ما دلَّ عليه لِيَسْأَلَ كأنه قال فأثابَ المؤمنينَ وأعدَّ للكافرين.

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٤/ ٣٧٣) عن النقاش.

(٢) أخرج الدارقطني في «المؤتلف والمختلف» (٢/ ٩٣٦) من طريق مطر الأعنق عن خرقاء، قالت: قلتُ لعائشة: يا أُمَه، قالت «لستُ أمَّ نسائِكم، إنما أنا أمُّ الرجال». وأخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ٦٤) من طريق مسروق أنَّ امرأة قالت لعائشة: يا أُمَه. فقالت: لست بأمك، أنا أمَ رجالكم».

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ يعني الأحزابَ وهم قريشٌ وغطفانُ ويهودُ قريظةَ والنضيرِ وكانوا زهاءَ اثني عَشَرَ ألفاً. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا﴾ ريحَ الصَّبا. ﴿وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ الملائكةَ. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام لما سمعَ بإقبالهم ضربَ الخندقَ على المدينة ثم خرجَ إليهم في ثلاثةِ آلافٍ والخندقُ بينَه وبينَهم، ومضَى على الفريقين قريبٌ من شهر لا حربَ بينهم إلا الترامي بالنبلِ والحجارةِ حتى بعثَ الله عليهم ريحاً باردة في ليلة شاتيةٍ، فأخصرتْهم وسفَّتِ الترابَ في وجوههم وأطفأتْ نيرانَهم وقلعتْ خيامَهم وماجتِ الخيلُ بعضُها في بعض وكبَّرتِ الملائكةُ في جوانب العسكر، فقال طليحة بنُ خويلد الأسدي أما محمدٌ فقد بدأكم بالسِّحرِ فالنجاءَ النجاءَ فانهزموا من غير قتالٍ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من حفرِ الخندق، وقرأ البصريانِ بالياء أي بما يعملُ المشركون من التحزُّبِ والمحاربةِ. ﴿بَصِيرًا﴾ رائياً.

(١٠) ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ بدلٌ من إذا جاءتكم. ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي من قِبَلِ المشرق بنو غطفانَ. ﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من أسفلِ الوادي من قِبَلِ المغربِ قريشٌ. ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ مالتْ عن مستوى نظرِها حيرةً وشخوصاً. ﴿وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ رُعْباً فإنَّ الرئةَ تنتفخُ من شدَّةِ الرَّوْعِ فيرتفعُ القلبُ بارتفاعها إلى رأس الحنجُرةِ، وهي منتهَى الحلقوم مَدْخَلُ الطعام والشراب. ﴿وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ الأنواعَ من الظنِّ فظنَّ المخلصونَ الثُّبتُ القلوبِ أنَّ الله منجِزُ وعْدِهِ في إعلاء دينه، أو ممتحِنُهم فخافوا الزَّلَلَ وضَعْفَ الاحتمالِ والضِّعافُ القلوبِ والمنافقون ما حُكِيَ عنهم[1]، والألفُ مزيدةٌ في أمثاله تشبيهاً للفواصِلِ بالقوافي وقد أَجْرَى نافعٌ وابن عامرٍ وأبو بكر فيها الوصْلَ مجرى الوقْفِ، ولم يزِدْها أبو عمرو وحمزةُ ويعقوب مطلقاً وهو القياسُ.

(١١) ﴿هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ اختُبِروا فظهر المخلِصُ من المنافقِ والثابتُ من المتزلْزِل. ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ من شدَّةِ الفزعِ وقرىء زلزالاً بالفتح.

(١٢) ﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ اعتقادٍ. ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من الظَّفَرِ وإعلاء الدين. ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وعْداً باطلاً. قيل قائلُه معتِبُ بنُ قشير قال يعِدُنا محمدٌ بفتحِ فارسَ والرومِ وأحدُنا لا يقدرُ أنْ يتبرَّزَ فَرَقاً ما هذا إلا وعْدُ غرور.

(١٣) ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ يعني أوسُ بنُ قيظي وأتباعُه. ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أهلَ المدينةِ، وقيل هو

(١) وصيغة المضارع في «تظنون» لاستحضار الصورة والدلالة على الاستمرار (س٧/ ٩٤).

اسمُ أرضٍ وقعتِ المدينة في ناحية منها ﴿لَا مُقَامَ﴾ لا موضِعَ قيامٍ. ﴿لَكُمْ﴾ ها هُنا، وقرأ حفصٌ بالضمِّ على أنه مكانٌ أو مصدرٌ من أقامَ. ﴿فَارْجِعُوا﴾ إلى منازلكم هاربينَ، وقيل المعنى لا مقامَ لكم على دين محمد فارجِعُوا إلى الشركِ وأسْلِمُوه لتسلموا، أو لا مقامَ لكم بيثربَ فارجعوا كفاراً ليمكِنَكُمُ المقامُ بها. ﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِىَّ﴾ للرجوع[1]. ﴿يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ غيرُ حصينة وأصلُها الخللُ، ويجوزُ أنْ يكونَ تخفيفُ العورة من عَوِرَتِ الدارُ إذا اختَلَّتْ وقد قرىء بها. ﴿وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ﴾ بل هي حصينةٌ. ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي وما يريدون بذلك إلا الفرارَ من القتال.

وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا
عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ
الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ ۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ
هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾

(١٤) ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ دُخِلَتِ المدينةُ أو بيوتُهم. ﴿مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها وحَذَفَ الفاعلَ للإيماءِ بأنَّ دخولَ هؤلاءِ المتحزبين عليهم ودخولَ غيرهم من العساكر سيَّانِ في اقتضاءِ الحكْمِ المرتَّبِ عليه. ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ الرِّدَّةَ ومقاتلةَ المسلمينَ. ﴿لَآتَوْهَا﴾ لأعْطَوْهَا، وقرأ الحجازيانِ بالقصْرِ بمعنى لجاءُوها وفعلُوها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ بالفتنة أو بإعطائها. ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾ ريثما يكونُ السؤالُ والجوابُ، وقيل ما لبثوا بالمدينة بعدَ تمام الارتداد إلا يسيراً.

(١٥) ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ﴾ يعني بني حارثةَ عاهدوا رسولَ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حين فَشِلُوا ثمَّ تابوا أنْ لا يعودوا لمثلِه. ﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ عن الوفاءِ به مجازى عليه.

(١٦) ﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ فإنه لا بدَّ لكلِّ شخصٍ من حَتْفِ أنفٍ، أو قَتْلٍ في وقتٍ معين سبقَ به القضاءُ وجرى عليه القلمُ. ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي وإنْ نفعكمُ الفرارُ مثلاً فمنعتُم بالتأخير لم يكنْ ذلك التمتيعُ إلا تمتيعاً، أو زماناً قليلاً.

(١٧) ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ أي أو يصيبُكم بسوءٍ إنْ أرادَ بكم رحمةً فاختَصَرَ الكلامَ كما في قوله:

متقلِّداً سيفاً ورُمحاً

أو حملَ الثاني على الأول لما في العصمةِ من معنى المنْعِ. ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفع الضُّرَّ عنهم.

(١٨) ﴿۞ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾ المثبِّطين عن رسولِ الله ﷺ وهم المنافقون. ﴿وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾

---

(١) صيغة المضارع في «يستأذن» لاستحضار الصورة (س٧/ ٩٤٠).

من ساكني المدينةِ. ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ قرِّبوا أنفسَكم إلينا وقد ذَكَرَ أصْلَه في الإنعام. ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا إتياناً أو زماناً أو بأساً قليلاً، فإنهم يعتذرونَ ويتثبَّطون ما أمكن لهم، أو يخرُجُون مع المؤمنين ولكنْ لا يقاتلونَ إلا قليلاً كقوله ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾[1] وقيل إنه من تتمةِ كلامهم ومعناه لا يأتي أصحابُ محمدٍ حربَ الأحزابِ ولا يقاومونَهم إلا قليلاً.

أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبَائِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُم مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

(١٩) ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾ بخلاءَ عليكم بالمعاونةِ أو النفقة في سبيل الله أو الظَّفرِ أو الغنيمة، جمعُ شحيحٍ ونَصْبُها على الحال من فاعل يأتونَ أو المعوِّقينَ أو على الذمِّ. ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ في أحداقهم. ﴿كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ﴾ كنظر المغشيِّ عليه أو كدَوَرَانِ عينيةِ، أو مشبَّهينَ به أو مشبَّهةً بعينه. ﴿مِنَ الْمَوْتِ﴾ من معالجة سكراتِ الموت خوفاً ولِوَاذاً بك. ﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ﴾ وحِيزَتِ الغنائم. ﴿سَلَقُوكُم﴾ ضربوكم. ﴿بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ﴾ ذَرِبَةٍ يطلبون الغنيمةَ، والسَّلْقُ البسْطُ بقهرٍ باليدِ أو اللسان. ﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ نُصِبَ على الحال أو الذمِّ، ويؤيده قراءةُ الرفع وليس بتكرير لأنَّ كلاً منهما مقيَّدٌ من وجه. ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا﴾ إخلاصاً. ﴿فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ﴾ فأظهر بُطْلانَها إذ لم تَثْبُتْ لهم أعمالٌ فتبطُلُ أو أبطلَ تصنُّعَهم ونفاقَهم. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباطُ. ﴿عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيناً لتعلُّقِ الإرادة به وعدمِ ما يمنعه عنه.

(٢٠) ﴿يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا﴾ أي هؤلاءِ لجُبْنِهم يظنون أنَّ الأحزاب لم ينهزِمُوا، وقدِ انهزموا ففرُّوا إلى داخل المدينة. ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ﴾ كرَّةً ثانيةً. ﴿يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾ تمنَّوا أنهم خارِجون إلى البدْوِ حاصلون بينَ الأعراب. ﴿يَسْأَلُونَ﴾ كلَّ قادم من جانبِ المدينة. ﴿عَنْ أَنبَائِكُمْ﴾ عما جَرَى عليكم. ﴿وَلَوْ كَانُوا فِيكُم﴾ هذهِ الكرَّةَ ولم يرجِعوا إلى المدينة وكان قتالٌ. ﴿مَّا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا﴾ رياءً وخوفاً من التعيير.

(٢١) ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ خَصْلَةٌ حسنةٌ من حقِّها أنْ يُؤْتَسَى بها كالثباتِ في الحربِ ومقاساةِ الشدائدِ، أو هو في نفسِه قدوةٌ يحسنُ التأسي به كقولك في البيضةِ عشرونَ منًّا حديداً أي هي في نفسِها هذا القدْرُ من الحديد، وقرأ عاصمٌ بضمِّ الهمزة وهو لغةٌ فيه. ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ أي ثوابَ اللهِ أو لقاءَه ونعيمَ الآخرةِ، أو أيامَ الله واليومَ الآخر خصوصاً. وقيل هو كقولك أرجو زيداً وفَضْلَه، فإنَّ اليومَ الآخِرَ داخلٌ فيها بِحَسَبِ الحكْمِ والرجاءُ يحتملُ الأملَ والخوفَ

---

(١) الأحزاب: «٢٠».

ولمن كان صلةً لحسنةٍ أو صفةً لها. وقيل بدلٌ من لكم والأكثرُ على أنَّ ضميرَ المخاطبِ لا يُبْدَلُ منه. ﴿وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ وقَرَنَ بالرجاءِ كثرةَ الذِّكرِ المؤديةَ إلى ملازمةِ الطاعة، فإنَّ المؤتسي بالرسولِ مَنْ كان كذلك.

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾

(٢٢) ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ بقوله تعالى ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم﴾[1] الآيةَ، وقولِه عليه الصلاةُ والسلام «سيشتدُّ الأمرُ باجتماعِ الأحزابِ عليكم والعاقبةُ لكم عليهم»[2]. وقوله عليه الصلاةُ والسلام: «إنهم سائرون إليكم بعد تِسْعٍ أو عشرٍ»[3] وقرأ حمزة وأبو بكر بكسرِ الراء وفتحِ الهمزة[4]. ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ ظهرَ صِدْقُ خبرِ الله ورسولِه، أو صدقاً في النُّصْرةِ والثواب كما صَدَقَا في البلاءِ، وإظهارُ الاسمِ للتعظيم. ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ فيه ضميرٌ لما رأوا، أو الخطبُ أوِ البلاءُ. ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ومواعيده. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لأوامره ومقاديرِه.

(٢٣) ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ من الثباتِ مع الرسول ﷺ والمقاتلةِ لإعلاء الدينِ من صَدَقَني إذا قال لك الصِّدقَ، فإنَّ المعاهِدَ إذا وفَّى بعهده فقد صدقَ فيه. ﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ نَذْرَهُ بأنْ قاتل حتى استُشْهِدَ كحمزةَ ومصعبِ بنِ عميرٍ وأنسِ بنِ النضرِ، والنَّحْبُ النذرُ واسْتُعِيْرَ للموتِ لأنه كنذرٍ لازمٍ في رقبةِ كلِّ حيوانٍ. ﴿وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ﴾ الشهادة كعثمانَ وطلحةَ رضي الله عنهما. ﴿وَمَا بَدَّلُوا۟﴾ العهدَ ولا غيَّروهُ. ﴿تَبْدِيلًا﴾ شيئاً من التبديل. رُوِيَ أنَّ طلحةَ ثَبَتَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ أُحُدٍ حتى أُصِيبَتْ يدُه فقال عليه الصلاة والسلام: «أَوْجَبَ طلحةُ»[5] وفيه تعريضٌ لأهل النفاق ومرضِ القلبِ بالتبديلِ، وقوله:

---

(١) البقرة: «٢١٤».

(٢) لم أقف عليه.

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٣٣ رقم ٢٠٨): «لم أجده».
وذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢١/١٦٩) عن ابن عباس نقلاً عن البحر المحيط.

(٤) من (رأى) أي بكسر الراء وفتح همزة (رأى).

(٥) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٣ رقم ٢١٠) «ـ أخرجه ـ الثعلبي من رواية جرير بن حازم عن عروة في قوله تعالى: ﴿من المؤمنين رجال صدقوا﴾ ـ الآية ـ منهم طلحة بن عبيدالله فذكره.
وقد روى مفرقاً من غير هذا الوجه، فقضيته أن يده أصيبت، أخرجها البخاري (٧/ ٨٢ رقم ٣٧٢٤) و(٧/٣٥٩ رقم ٤٠٦٣) من رواية قيس بن أبي حازم «رأيت يد طلحة شلاء، وقى بها رسول الله ﷺ يوم أحد» والنسائي من طريق عمارة بن غزية عن أبي الزبير عن جابر قال «لما كان يوم أحد كان رسول الله ﷺ في ناحية في اثنى عشر رجلاً من الأنصار. فذكر القصة مطولة».
قوله «أوجب طلحة» أخرجها الترمذي (٤/٢٠١ رقم ١٦٩٢) و(٥/٦٤٣ ـ ٦٤٤ رقم ٣٧٣٨) وابن حبان (ص٥٤٦ رقم ٢٢١٢ ـ موارد) والحاكم (٣/٢٥) وابن أبي شيبة وإسحاق وأبو يعلى والبزار من طريق محمد بن إسحاق عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه به» هـ.

﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿لِّيَجْزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّـٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ تعليلٌ للمنطوقِ والمعرَّضِ به، فكأنَّ المنافقين قصدُوا بالتبديل عاقبةَ السوءِ كما قصدَ المخلصون بالثباتِ والوفاءِ العاقبةَ الحسنى، والتوبةُ عليهم مشروطةٌ بتوبتهم أو المرادُ بها التوفيقُ للتوبة. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب.

(٢٥) ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يعني الأحزابَ. ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ متغيِّظين. ﴿لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا﴾ غيرَ ظافرِيْنَ وهما حالانِ بتداخلٍ أو تعاقُبٍ. ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ﴾ بالريحِ والملائكةِ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا﴾ على إحداثِ ما يريدُه. ﴿عَزِيزًا﴾ غالباً على كلِّ شيء.

(٢٦) ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَـٰهَرُوهُم﴾ ظاهروا الأحزابَ. ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ يعني قريظةَ. ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم جمعُ صَيْصِيَةٍ وهي ما يُتَحَصَّنُ به ولذلك يُقَالُ لِقَرْنِ الثورِ والظبي وشوكةِ الديك. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ الخوفَ وقُرِىءَ بالضمِّ. ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا﴾ وقرىء بضمِّ السين روي: أنَّ جبريلَ أتى رسولَ الله ﷺ صبيحةَ الليلةِ التي انهزمَ فيها الأحزابُ، فقال: أتنزعُ لأمَتَكَ والملائكةُ لم يضعوا السلاحَ؟ إنَّ اللهَ يأمركَ بالسيرِ إلى بني قريظةَ وأنا عامِدٌ إليهم فأَذِّنَ في الناس أنْ لا يصلُّوا العصرَ إلا في بني قريظةَ، فحاصَرَهم إحدى وعشرين أو خمساً وعشرينَ حتى جَهِدَهم الحصارُ فقال لهم: تنزلون على حُكْمي فأَبَوْا فقال: على حكْمِ سعد بنِ معاذ فرضُوا به، فحكمَ سعدٌ بقتلِ مقاتليهم وسَبْيِ ذراريْهم ونسائِهم، فكبَّر النبيُّ عليه الصلاة والسلام فقال: «لقد حكمْتَ بحكمِ الله من فوقِ سبعةِ أرقعةٍ» فَقَتَلَ منهم سِتَّمائةٍ أو أكثرَ وأسرَ منهم سبعَمِائة[1].

---

(١) هذه الرواية تشمل أحاديث عدة:
أ) حديث (أوقد وضعت السلاح): أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٧) وأحمد (٢١/ ٨٢ ـ الفتح الرباني) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٥) عن عائشة رضي الله عنها.
ب) حديث (لا يصلين أحدكم العصر إلا في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٧/ ٤٠٧ رقم ٤١١٩) ـ ومسلم (٣/ ١٣٩١ رقم ٦٩/ ١٧٧٠) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ٦ ـ ٧) عن ابن عمر رضي الله عنهما.
جـ) حديث (حكم سعد بن معاذ في بني قريظة): ـ أخرجه البخاري (٦/ ١٦٥ رقم ٣٠٤٣) و(٧/ ١٢٣ رقم ٣٨٠٤) و(٧/ ٤١١ رقم ٤١٢١) و(١١/ ٤٩ رقم ٦٢٦٢) ومسلم (٣/ ١٣٨٨ ـ ١٣٨٩ رقم ٦٤/ ١٧٦٨) والبيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٨) عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل
لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن
كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَـٰنِسَآءَ
ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾

(٢٧) ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ مزارِعَهم. ﴿وَدِيَٰرَهُمْ﴾ حصونَهم. ﴿وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ نقودَهم ومواشِيَهم وأثاثَهم. روي أنه عليه الصلاةُ والسلام جعلَ عَقَارَهُم للمهاجرينَ فتكلَّم فيه الأنصارُ فقال: «إنكم في منازلكم» وقال عمرُ رضي الله عنه: أمَا تُخَمِّسُ كما خَمَّسْتَ يومَ بدْرٍ فقال: «لا إنما جُعِلَتْ هذه لي طُعْمَةً»[1]. ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَاۚ﴾ كفارسَ والروم، وقيل خيبرُ وقيل كلُّ أرض تُفْتَحُ إلى يوم القيامة. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ فيقدِرُ على ذلك.

(٢٨) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ السَّعةَ والتنعُّمَ فيها. ﴿وَزِينَتَهَا﴾ زخارِفَها. ﴿فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ﴾ أعطِكُنَّ المتعةَ. ﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ طلاقاً من غير ضِرَارٍ وبِدْعَةٍ. روي أنهم سألْنَهُ ثيابَ الزينة وزيادةَ النفقةِ فنزلتْ[2]. فبدأ بعائشةَ رضي الله عنها فخيَّرها فاختارتِ اللهَ ورسولَه، ثم اختارتِ الباقياتِ اختيارَها فشكرَ اللهُ لهنَّ ذلك فأنزلَ ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ﴾[3] وتعليقُ التسريح بإرادتهنَّ الدنيا وجَعْلِها قسيماً لإرادتهنَّ الرسولَ يدلُّ على أنَّ المخيَّرَةَ إذا اختارتْ زَوْجَها لم تُطَلَّقْ خلافاً لزيدٍ والحسن ومالكٍ وإحدى الروايتين عن عليٍّ، ويؤيدُه قولُ عائشةَ رضيَ الله عنها «خيَّرنا رسولُ الله ﷺ فاخترْناه»[4]. ولم يعدَّه طلاقاً، وتقديمُ للتمتُّع على التسريح المسبَّبِ عنه من الكرمِ وحُسْنِ الخلقِ. قيلَ لأنَّ الفرقةَ كانتْ بإرادتهنَّ كاختيارِ المخيَّرةِ نفسَها فإنه طَلْقَةٌ رجعيةٌ عندنا وبائنةٌ عند الحنفيةِ، واخْتُلِفَ في وجوبه للمدخولِ بها وليس فيه ما يدلُّ عليه. وقُرِىءَ أُمَتِّعُكُنَّ وأسرِّحُكُنَّ بالرفعِ على الاستئنافِ.

(٢٩) ﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ يُسْتَحْقَرُ دونه الدنيا وزينتُها ومِنْ للتبيينِ لأنهنَّ كلَّهنَّ كنَّ محسناتٍ.

(٣٠) ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَـٰحِشَةٍ﴾ بكبيرةٍ. ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرٍ قُبْحُها على قراءةِ ابن كثير وأبي بكر والباقونَ بكسْرِ الياء. ﴿يُضَـٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِۚ﴾ ضعفيْ عذابِ غيرهِنَّ أي مِثْلَيْه، لأنَّ الذَّنْبَ منهنَّ أقبحُ فإنَّ زيادةَ قُبْحِه تتبعُ زيادةَ فَضْلِ المذْنبِ، والنعمةَ عليه ولذلك جعلَ حدَّ الحرِّ ضعفي

---

(١) أخرجه الواقدي باب غزوة بني النضير (١/٣٧٨ ـ ٣٧٩) عن أم العلاء وأخرجه الواقدي أيضاً (١/٣٧٧) من طريق المسور بن رفاعة.

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١١/ج٢١/١٥٧) من حديث الحسن مرسلاً بنحوه، بإسناد صحيح إلى الحسن.

(٣) الأحزاب: «٥٢».

(٤) أخرجه البخاري (٩/٣٦٧ رقم ٥٢٦٢) ومسلم (٢/١١٠٣ رقم ١٤٧٧).

حدُّ العبدِ، وعُوتِبَ الأنبياءُ بما لا يعاتَبُ به غيرُهم وقرأ البصريانِ يُضَعَّفْ على البناء للمفعول ورَفْع العذابِ، وابنُ كثير وابنُ عامر نُضَعِّفْ بالنونِ وبناءِ الفاعلِ ونَصْبِ العذابِ. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعهُ عن التضعيفِ كونُهُنَّ نساءَ النبيِّ وكيفَ وهو سببُهُ.

۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

(٣١) ﴿۞ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ﴾ ومَنْ يدمْ على الطاعةِ. ﴿لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ ولعلَّ ذِكْرَ الله للتعظيمِ أو لقوله: ﴿وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ مرةً على الطاعةِ ومرةً على طلبِهنَّ رضا النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام بالقناعةِ وحُسْنِ المعاشرةِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ويعملْ بالياءِ حملاً على لفظِ مَنْ ويؤتِها على أنَّ فيه ضميرَ اسمِ اللهِ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ في الجنة زيادةً على أَجْرِها.

(٣٢) ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أَصْلُ أحدٍ وَحَدٍ بمعنَى الواحدِ، ثم وُضِعَ في النفي العامِّ مستوياً فيه المذكَّرُ والمؤنَّث والواحدُ والكثيرُ، والمعنى لَسْتُنَّ كجماعةٍ واحدة من جماعاتِ النساء في الفضلِ. ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ مخالفةَ حُكْمَ الله ورضا رسولِه. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ فَلا تَجِئْنَ بقولِكُنَّ خاضعاً ليِّناً مِثْلَ قولِ المريباتِ. ﴿فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ فُجُورٌ. وقرىءَ بالجزم[1] عطفاً على محلِّ فِعْلِ النهي على أنه نَهْيُ مريضِ القلبِ عن الطمعِ عقيبَ نهيِهِنَّ عن الخضوعِ بالقول. ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ حسناً بعيداً عن الريبةِ.

(٣٣) ﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ مِنْ وَقَرَ يقِرُ وقاراً أو من قرَّ يقرُّ حُذِفَتِ الأولى من راءِي اقْرُرْنَ ونُقِلَتْ كسرتُها إلى القافِ، فاستُغْنِيَ عن همزةِ الوصْلِ ويؤيدُه قراءةُ نافعٍ وعاصمٍ بالفتح من قَرِرْتُ أقَرُّ وهو لغةٌ فيه، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من قارَ يقارُ إذا اجتمعَ. ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ﴾ ولا تتبختَرْنَ في مَشْيِكُنَّ. ﴿تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ تبرُّجاً مِثْلَ تبرُّجِ النساءِ في أيامِ الجاهلية القديمةِ، وقيل هي ما بينَ آدمَ ونوحٍ، وقيل الزمانُ الذي وُلِدَ فيه إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام كانتِ المرأةُ تلبسُ درعاً من اللُّؤْلؤِ فتمشي وَسَطَ الطريقِ تعرِضُ نفسَها على الرجالِ والجاهليةُ الأخرى ما بَيْنَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام، وقيل الجاهلية الأولى جاهليةُ الكفرِ قبلَ الإسلام، والجاهليةُ الأخرى جاهليةُ الفسوق في الإسلام، ويعضِّدُه قولُه عليه الصلاة والسلام لأبي الدرداءِ رضي الله عنه: «إنَّ فيك جاهليةً، قال جاهليةُ كُفْرٍ أو إسلام قَال بل جاهليةُ كفرٍ»[2]. ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في سائر ما أمَرَكُنَّ

---

(١) قوله وقرىء بالجزم أي بجزم الفعل (فيطمعْ).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢١٧): «لم أجده عن أبي الدرداء. وإنما هو في الصحيحين ـ البخاري (١/ ٨٤ رقم ٣٠) و(٥/ ١٧٣ ـ ١٧٤ رقم ٢٥٤٥) و(١٠/ ٤٦٥ رقم ٦٠٥٠) ـ ومسلم (٣/ ١٢٨٢ ـ=

به ونهاكنَّ عنه. ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ الذَّنبَ المدنِّسَ لِعِرْضِكم وهو تعليلٌ لأمرهنَّ ونَهْيِهِنَّ على الاستئنافِ ولذلك عمَّمَ الحكْمَ. ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ نُصِبَ على النداءِ أوِ المدحِ. ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ﴾ عن المعاصي. ﴿تَطْهِيرًا﴾ واستعارةُ الرِّجْسِ للمعصية والترشيح بالتطهير للتنفير عنها. وتخصيصُ الشيعةِ أهلَ البيتِ بفاطمةَ وعلي وابنيهما رضي الله عنهم لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام خرجَ ذاتَ غُدْوَةٍ وعليه مِرْطٌ مرجَّلٌ من شعرٍ أسودَ فجلسَ فأتتْ فاطمةُ رضي الله عنها فأدخلَها فيه، ثم جاءَ عليٌّ فأدخله فيه ثم جاء الحسنُ والحسينُ رضي الله عنهما فأدخلَهما فيه ثم قال: إنما يريدُ الله ليذهبَ عنكم الرجسَ أهلَ البيت»[1]، والاحتجاجُ بذلك على عِصْمَتِهم وكونِ إجماعِهم حُجَّةً ضعيفٌ لأنَّ التخصيصَ بهم لا يناسِبُ ما قبلَ الآية وما بعدَها، والحديثُ يقتضي أنهم من أهلِ البيت لا أنه ليسَ غيرُهم.

وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾

(٣٤) ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ من الكتاب الجامع بينَ الأمرينِ وهو تذكيرٌ بما أنعمَ اللهُ عليهم من حيثُ جَعَلَهنَّ أهلَ بيتِ النبوَّةِ ومهبطَ الوحي وما شاهدْنَ من بُرَحاءِ الوحي مما يوجِبُ قوةَ الإيمان والحرصَ على الطاعة حثاً على الانتهاءِ والائتمارِ فيما كُلِّفْنَ به. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ يعلم ويدبِّر ما يصلُح في الدين ولذلك خيَّرَكُنَّ ووعَظَكُنَّ، أو يعلمُ مَنْ يصلحُ لنبوَّته ومَنْ يصلُحُ أنْ يكونَ أهلَ بيتِه.

(٣٥) ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾ الداخلين في السِّلمِ المنقادِيْنَ لحكْمِ الله. ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ المصدِّقين بما يجبُ أنْ يُصَدَّقَ به. ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾ المداومينَ على الطاعةِ. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾ في القول والعمل. ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾ على الطاعاتِ وعن المعاصي. ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾ المتواضعينَ لله بقلوبهم وجوارِحهم. ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾ بما وَجَبَ في مالِهم. ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾ الصومَ المفروضَ. ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾ عن الحرام. ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾ بقلوبهم وألسنَتِهم. ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ لما اقْتَرَفُوا من الصغائرِ لأنهم مكفراتٌ. ﴿وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ على طاعتِهم، والآيةُ وعْدٌ لهنَّ ولأمثالِهم على الطاعةِ

= ١٢٨٣ رقم ٣٨ ـ ٤٠) من حديث أبي ذر أنه ﷺ قال له: «إنك امرؤ فيك جاهلية».

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٨٨٣ رقم ٦١/ ٢٤٢٤) من حديث عائشة.

● المرط: هو كساء، جمعه مروط.

● المرجَّل: هو الموشى المنقوش عليه صور رحال الإبل.

والتدرُّع بهذه الخصالِ. روي أنَّ أزواجَ النبيِّ ﷺ قلْنَ: يا رسولَ الله ذَكَرَ الله الرجالَ في القرآنِ بخير فما فينا خيرٌ نُذْكَرُ به فنزلتْ[١]. وقيل: لما نزل فيهنَّ ما نزل قال نساءُ المسلمينَ فما نَزَلَ فينا شيءٌ فنزلت[٢] وعَطْفُ الإناثِ على الذكور لاختلاف الجِنْسَيْنِ وهو ضروريٌّ، وعطْفُ الزوجينِ على الزوجين لتغايُرِ الوصْفينِ فليس بضروريٍّ ولذلك تُرِكَ في قوله ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾[٣] وفائدتُه الدلالةُ على أنَّ إعدادَ المعدِّ لهم للجمْعِ بين هذه الصفاتِ.

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾

(٣٦) ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ﴾ ما صحَّ له. ﴿إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا﴾ أي قضى رسولُ الله، وذُكِرَ اللهُ لتعظيم أمره والإشعارِ بأنَّ قضاءَه قضاءُ الله، لأنه نزلَ في زينبَ بنتِ جحشٍ بنتِ عمَّته أميمةَ بنتِ عبدالمطلب خطبها رسولُ الله ﷺ لزيدِ بنِ حارثةَ فأبتْ هي وأخوها عبدُالله[٤]. وقيل في أمِّ كلثوم بنتِ عقبةَ وهَبَتْ نفسَها للنبيِّ ﷺ فزوَّجها من زيدٍ[٥]. ﴿أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ أنْ يختاروا من أمرهم شيئاً بل يجبُ عليهم أنْ يجعلُوا اختيارَهم تِبْعاً لاختيارِ اللهِ ورسوله، والخِيَرَةُ ما يُتَخَيَّرُ وجُمعَ الضميرُ الأولُ لعموم مؤمنٍ ومؤمنة من حيثُ إنهما في سياقِ النفي، وجُمعَ الثاني للتعظيم. وقرأ الكوفيون وهشامٌ «يكون» بالياءِ. ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ بَيِّنَ الانحرافَ عن الصوابِ.

(٣٧) ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بتوفيقه للإسلام وتوفيقِك لِعتْقِه واختصاصه. ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بما وفَّقك اللهُ فيه وهو زيد بنُ حارثةَ. ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ زينبَ. وذلك: أنه عليه الصلاة والسلام

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/١٠) والطبراني في الكبير (١٢/١٠٨ رقم ١٢٦١٤).
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/٩١): «رواه الطبراني وفيه قابوس وهو ضعيف، وقد وثق، وبقية رجاله ثقات» هـ.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٣٥٤ رقم ٣٢١١) والطبراني في الكبير (٢٥/٣١ ـ ٣٢ رقم ٥١، ٥٢، ٥٣).
مرسلاً وموصولاً من حديث عكرمة عن أم عمارة الأنصارية.
وخلاصة القول أن الحديث صحيح لغيره والله أعلم.

(٣) التحريم: «٥».

(٤) أخرجه الدارقطني في «السنن» (٣/٣٠١ رقم ٢٠٦) من حديث زينب بنت جحش.
في سياق أطول من هذا، وإسناده ضعيف. انظر «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢٢٢).

(٥) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/١٢) من حديث ابن زيد. فالحديث معضل لأن عبدالرحمن بن زيد بن أسلم من أتباع التابعين.

أبصَرها بعدَ ما أنكحَها إياهُ فوقعتْ في نفسِه فقال سبحانَ اللهِ مقلِّبِ القلوبِ، وسمعتْ زينبُ بالتسبيحةِ فذكرتْ لزيدٍ ففطِنَ لذلك، ووقعَ في نفسِه كراهةُ صُحْبَتِها، فأتى النبيَّ عليه الصلاة والسلام وقال: أريدُ أنْ أفارِقَ صاحِبَتي، فقال: «مالَكَ؟ أرابَكَ منها شيءٌ» فقال: لا واللهِ ما رأيتُ منها إلا خيراً ولكنَّها لشرفِها تتعظَّمُ عليَّ، فقال له: «أمسِكْ عليك زوجَك»[١] ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أمْرِها فلا تطلِّقْهَا ضِراراً وتعلُّلاً بتكبُّرِها. ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وهو نكاحُها إنْ طلَّقها أو إرادةَ طلاقِها. ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ تعييرَهم إيَّاك. به. ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ إنْ كان فيه ما يَخْشَى، والواو للحالِ، وليستِ المعاتبةُ على الإخفاءِ وحْدَه فإنه حَسَنٌ بل على الإخفاءِ مخافةَ قَالَةِ الناس وإظهارِ ما ينافي إضمارَه، فإن الأَوْلَى في أمثال ذلك أنْ يصمُتَ أو يفوِّضَ الأمرَ إلى ربِّه. ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجةً بحيثُ ملَّها ولم يبقَ له فيها حاجةٌ وطلَّقها وانقضتْ عدَّتُها. ﴿زَوَّجْنَٰكَهَا﴾ وقيل قضاءُ الوطرِ كنايةٌ عن الطلاقِ مثْلَ لا حاجةَ لي فيك. وقرىء زَوَّجْتُكَها، والمعنى أنه أُمِرَ بتزويجها منه أو جعلَها زوجَتَهُ بلا واسطةِ عقدٍ. ويؤيدُه أنها كانت تقولُ لسائر نساءِ النبيِّ ﷺ: إنَّ اللهَ تعالى تولَّى إنكاحي وأنتنَّ زوَّجكُنَّ أولياؤُكن[٢]. وقيل كان زيدٌ السفيرَ في خُطْبَتِها وذلك ابتلاءٌ عظيم وشاهِدٌ بيِّنٌ على قوةِ إيمانه. ﴿لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ علَّةٌ للتزويج، وهو دليلٌ على أنَّ حكمه وحَكْمَ الأمَةِ واحدةٌ إلا ما خصَّه الدليلُ ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ أمرهُ الذي يريدُه ﴿مَفْعُولًا﴾ مكوناً لا محالةَ كما كانَ تزويجُ زينبَ.

(٣٨) ﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ﴾ قَسَمَ له وقدَّر من قولهم فرضَ له في الديوان، ومنه فروضُ العسكرِ لأرزاقِهم. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾ سنَّ ذلك سُنَّةً. ﴿فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ من الأنبياء، وهو نفيُ الحرجِ عنهم فيما أباحَ لهم. ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ قضاء مقضياً وحكماً مبتوتاً.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٤ رقم ٢٢٤) «ذكره الثعلبي بغير سند، وأخرج الطبري ـ في «جامع البيان» (١٠٢/ ج١٣/٢٢) ـ معناه من رواية عبدالرحمٰن بن زيد بن أسلم» هـ.
وهو حديث معضل لأن ابن زيد من أتباع التابعين. بالإضافة أن ابن زيد ضعيف.
● وأخرج ابن سعد في «الطبقات» (٨/ ١٠١ ـ ١٠٢) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٣ ـ ٢٤) من رواية الواقدي عن عبدالله بن عامر الأسلمي، عن محمد بن يحيى بن حبان نحوه.
وهو حديث مرسل لأن محمد بن يحيى من صغار التابعين، بالإضافة إلى ضعف الواقدي.
والخلاصة أن الحديث باطل سنداً ومتناً.
فكيف يجوز أن يستند إلى مثل هذين الإسنادين الهالكين في إثبات خبر فيه نيل من عصمة المعصوم ﷺ.
● وقال الأستاذ سيد قطب بعدما فسر الآية على تأويلها الصحيح: «وفي هذا ما يهدينا إلى كل الروايات التي رويت عن هذا الحادث، والتي تشبث بها أعداء الإسلام قديماً وحديثاً، وصاغوا حولها الأساطير والمفتريات» هـ. «في ظلال القرآن» (٥/ ٢٨٦٩).
وانظر كلام الأستاذ محمد الغزالي في فقه السيرة ص٤٣٩ ـ ٤٤١، فقد أجاد وأفاد ولولا ملال الطول لنقلته لك.
وانظر كلام ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٢٤) عن الآثار التي لا ينبغي التشاغل بها.
(٢) أخرجه البخاري (١٣/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ رقم ٧٤٢٠) من حديث أنس.

ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ
مِّن رِّجَالِكُمۡ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا ﴿٤٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ
ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخۡرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ
إِلَى ٱلنُّورِۚ وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾

(٣٩) ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صفةٌ للذين خَلَوْا أو مدحٌ لهم منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرىء رسالة الله. ﴿وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ﴾ تعريضٌ بعد تصريح. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا﴾ كافياً للمخاوفِ أو محاسباً فينبغي أن لا يُخْشَى إلا منه.

(٤٠) ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٖ مِّن رِّجَالِكُمۡ﴾ على الحقيقة فيثبتُ بينَه وبينَه ما بَيْنَ الوالدِ وولدِه من حُرْمَةِ المصاهرةِ وغيرِها، ولا ينتقضُ عمومُه بكونه أباً للطاهرِ والقاسمِ وإبراهيمَ لأنهم لم يبلُغوا مَبْلَغَ الرجالِ ولو بلغوا كانوا رجالَه لا رجالَهم. ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ وكلُّ رسولٍ أبو أُمَّته لا مطلقاً بل منْ حيثُ إنه شفيقٌ ناصحٌ لهم، واجبُ التوقيرِ والطاعة عليهم وزيدٌ منهم ليس بينه وبينه ولادةٌ. وقرىء رسولُ اللهِ بالرفع على أنه خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، ولكنَّ بالتشديد على حذفِ الخبر أي ولكنَّ رسولَ الله مَنْ عرفتُم أنه لم يعِشْ له ولدٌ ذكرٌ. ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ﴾ وآخِرَهم الذي ختمَهُم أو خُتِمُوا به على قراءةِ عاصم بالفتح، ولو كان له ابنٌ بالغ لاقَ بمنصِبه أنْ يكونَ نبياً كما قال عليه الصلاة والسلام في إبراهيمَ حين تُوُفِّيَ: «لو عاشَ لكان نبياً»[1] ولا يقدحُ فيه نزولُ عيسى بعدَه لأنه إذا نزل كان على دينه، مع أنَّ المرادَ منه أنه آخِرُ مَنْ نُبِّيءَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾ فيعلمُ مَنْ يليق بأنْ يَخْتِمَ به النبوَّةَ وكيفَ ينبغي شأنُه.

(٤١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكۡرٗا كَثِيرٗا﴾ يغلبُ الأوقاتَ ويعمُّ الأنواعَ بما هو أهلُه من التقديسِ والتحميدِ والتهليل والتمجيد.

(٤٢) ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلًا﴾ أولَ النهارِ وآخِرَهُ خصوصاً، وتخصيصُهما بالذِّكْرِ للدلالة على فَضْلِهما على سائرِ الأوقاتِ لكونهما مشهودَيْنِ كإفرادِ التسبيح من جملة الأذكار لأنه العمدةُ فيها. وقيل الفعلانِ موجَّهانِ إليهما. وقيل المراد بالتسبيح الصلاةُ.

(٤٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيۡكُمۡ﴾ بالرحمة. ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ بالاستغفارِ لكم والاهتمام بما يُصْلِحُكم، والمراد بالصلاة المشتركُ وهو العناية بصلاحِ أمرِكم وظهورِ شرفِكم مستعارٌ من الصَّلْوِ. وقيل الترحُّم والانعطافُ المعنوي مأخوذٌ من الصلاةِ المشتمِلَةِ على الانعطافِ الصُّوري الذي هو الركوعُ والسجود،

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١١) من حديث ابن عباس.
وقال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٢٦٩ رقم ٥٤٥) «هذا إسناد ضعيف لضعف إبراهيم بن عثمان أبي شيبة» هـ.
● وأخرج البخاري (١٠/ ٥٧٧ رقم ٦١٩٤) وابن ماجة (١/ ٤٨٤ رقم ١٥١٠) من حديث ابن أبي أوفى.
ولو قضَى أن يكونَ بعدَ محمد ﷺ نبيٌّ عاشَ ابنهُ ولكن لا نبيَّ بعدَه».

واستغفارُ الملائكة ودعاؤُهم للمؤمنين ترحُّمٌ عليهم سيَّما وهو السببُ للرحمة من حيثُ إنهم مجابو الدعوةِ. ﴿لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من ظلماتِ الكفر والمعصيةِ إلى نورِ الإيمان والطاعةِ. ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ حيثُ اعتنى بصلاحِ أمرِهم وإنافةِ قَدْرِهم واستعملَ في ذلك ملائكتَهُ المقرَّبينَ.

تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾
وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ
ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا
نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ
وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

(٤٤) ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ من إضافة المصدرِ إلى المفعول أو يحيُّونَ. ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ يومَ لقائِه عند الموت أو الخروجِ من القبور، أو دخولِ الجنة. ﴿سَلَٰمٌ﴾ إخبارٌ بالسلامة عن كلِّ مكروه وآفةٍ. ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا﴾ هيَ الجنة، ولعلَّ اختلافَ النَّظْمِ لمحافظة الفواصلِ والمبالغة فيما هو أهمُّ.

(٤٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على مَنْ بُعِثْتَ إليهم بتصديقهم وتكذيبهم ونجاتِهم وضلالهم، وهو حال مقدَّرةٌ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

(٤٦) ﴿وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى الإقرار به وبتوحيدِه وما يجبُ الإيمانُ به من صفاته. ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ بتيسيرِهِ وأُطْلِقَ له من حيثُ أنه من أسبابه وقيِّد به الدعوةَ إيذاناً بأنه أمرٌ صعبٌ لا يتأتَّى إلا بمعونةٍ من جَنابِ قُدْسِه. ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ يُسْتَضَاءُ به عن ظلماتِ الجهالاتِ ويُقْتَبَسُ من نوره أنوارُ البصائرِ.

(٤٧) ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ على سائر الأُمَمِ أو على جزاءِ أعمالهم، ولعله معطوفٌ على محذوفٍ مثلُ فراقِبْ أحوالَ أُمَّتِكَ.

(٤٨) ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ تهييجٌ له على ما هو عليه من مخالفتِهم. ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ إيذاءَهم إياكَ ولا تحتفلْ به، أو إيذاءَكَ إيَّاهم مجازاةً أو مؤاخذةً على كُفرِهم، ولذلك قيل إنه منسوخٌ. ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإنه يكفيكَهُمْ. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ موكولاً إليه الأمرُ في الأحوالِ كلِّها، ولعلَّه سبحانه وتعالى لما وَصَفَهُ بخمسِ صفاتٍ قابلَ كلاً منها بخطابٍ يناسِبُهُ، فحذفَ مقابلَ الشاهدِ وهو الأمرُ بالمراقبةِ لأن ما بعدَه كالتفصيلِ له، وقابلَ المبشِّرَ بالأمر ببشارةِ المؤمنينَ والنذيرِ بالنهي عن مراقبةِ الكفار، والمبالاةِ بأذاهم، والداعي إلى الله بتيسيره بالأمرِ بالتوكُّلِ عليه، والسراجِ المنيرِ بالاكتفاء به فإنَّ مَنْ أناره اللهُ برهاناً على جميع خلقِه كان حقيقاً بأنْ يُكْتَفَى به عن غيرِهِ.

(٤٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ تجامِعُوهنَّ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بألفٍ وضمِّ التاءِ. ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ﴾ أيام يتربَّصْنَ فيها بأنفسِهنَّ. ﴿تَعْتَدُّونَهَا﴾ تَسْتَوْفُونَ عَدَدَهَا من عَدَدْتُ الدراهمَ فاعتدَّها كقولك: كِلْتُهُ فاكْتَالَهُ، أو تعدُّونَها. والإسنادُ إلى الرجالِ للدلالة

على أنَّ العدَّة حقُّ الأزواجِ كما أشعرَ به فما لكم، وعن ابن كثير تعتدُّونها مجففاً على إبدالِ إحدى الدالين بالياءِ أو على أنه مِنَ الاعتداءِ بمعنى تعتدُّون فيها، وظاهره يقتضي عدمَ وجوبِ العدَّةِ بمجرَّدِ الخلْوةِ وتخصيصِ المؤمناتِ. والحكْمُ عامٌّ للتنبيه على أنَّ من شأنِ المؤمن أنْ لا ينكِحَ إلا مؤمنةً تخييراً لنطفتِه، وفائدةُ ثمَّ إزاحةُ ما عَسَى أنْ يُتَوَهَّمَ تراخي الطلاقِ ريثَما تمكنُ الإصابةُ كما يؤثر في النسبِ يؤثر في العدَّةِ. ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أي إنْ لم يكن مفروضاً لها فإن الواجبَ للمفروضِ لها نصفُ المفروضِ دون المتعةِ ويجوز أنْ يُؤَوَّلَ التمتيعُ بما يعمُّهما، أو الأمرُ بالمشتركِ بين الوجوب والندبِ فإنَّ المتعةَ سُنَّةٌ للمفروض لها. ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازلِكم إذ ليس لكم عليهنَّ عدَّةٌ. ﴿سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ من غير ضِرارٍ ولا منعِ حقٍّ، ولا يجوزُ تفسيرهُ بالطلاقِ السُّني لأنه مرتَّبٌ على الطلاقِ، والضمير لغيرِ المدخول بهنَّ.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

(٥٠) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّـٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مهورَهنَّ لأنَّ المهرَ أَجْرٌ على البِضعِ، وتقييدُ الإحلال له بإعطائها معجَّلةً لا لتوقُّفِ الحِلِّ عليه بل لإيثارِ الأفضلِ له كتقييدِ إحلال المملوكةِ بكونها مسبيةً بقوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ فإنَّ المشتراةَ لا يتحققُ بَدْءُ أمرها وما جَرَى عليها، وتقييدُ القرائبِ بكونها مهاجراتٍ معه في قوله: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّـٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَـٰلَـٰتِكَ ٱلَّـٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ ويُحْتَمَلُ تقييدُ الحِلِّ بذلك في حقِّه خاصَّة ويعضِّدُه قولُ أمِّ هانىءٍ بنتِ أبي طالب: خطَبني رسولُ الله ﷺ فاعتذرْتُ إليه فعذَرني، ثم أنزلَ الله هذه الآيةَ فلم أُحَلَّ له لأني لم أهاجِرْ معه، كنتُ من الطُّلَقاءِ[1]. ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ نُصِبَ بفعلٍ يفسِّره ما قبلَه أو عطفٌ على ما سبقَ، ولا يدفعُه التقييدُ بأنَّ التي للاستقبالِ فإنَّ المعنى بالإحلالِ والإعلام بالحِلِّ أي: أعلمْنَاك حِلَّ امرأةٍ مؤمنةٍ تهبُ لك نفسَها ولا تطلُبُ مهراً إنِ اتفقَ ولذلك نكَّرها. واخْتُلِفَ في اتفاق

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٥٥ رقم ٣٢١٤) والحاكم (٢/ ٤٢٠ و٤/ ٥٣) والطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٠٥ ـ ٤١٦ رقم ٩٨٥) و(٢٤/ ٤١٣ رقم ١٠٠٧) وابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٢٠ ـ ٢١). كلهم من رواية السدي عن أبي صالح عن أم هانىء. قال الترمذي: حسن صحيح لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث السدي. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ١٤٣ رقم ١٠٠٥) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن أبي صالح عن أم هانىء.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (٢٤/ ٤٣٦ رقم ١٠٦٧) من طريق إسماعيل بن أبي خالد عن الشعبي عن أم هانىء. وقال الهيثمي في «المجمع» (٤/ ٢٧١): «رجاله ثقات».

ذلك، والقائلُ به ذَكَرَ أربعاً: ميمونةَ بنتَ الحارث، وزينبَ بنتَ خزيمةَ الأنصاريةَ، وأمَّ شريك بنتَ جابر، وخولةَ بنتَ حكيم. وقُرِىءَ أنْ بالفتح أي لأَنْ وهبتْ أو مدَّةَ أن وهبت كقولك: اجلسْ ما دامَ زيدٌ جالساً. ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ شرطٌ للشرطِ الأول في استيجابِ الحِلِّ فإن هِبَتَهَا نفسَها منه لا توجِبُ له حِلَّها إلا بإرادتِهِ نِكاحَها، فإنها جاريةٌ مجرى القبولِ. والعدولُ عن الخطابِ إلى الغيبةِ بلفظ النبيِّ ﷺ مكرَّراً، ثم الرجوعُ إليه في قوله: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إيذانٌ بأنه مما خُصَّ به لشرفِ نبوَّته وتقريرٌ لاستحقاقِ الكرامة لأَجْلِهِ. واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ النكاحَ لا ينعقدُ بلفظِ الهِبَةِ لأنَّ اللفظَ تابعٌ للمعنى وقد خُصَّ عليه الصلاةُ والسلام بالمعنَى فيختصُّ باللفظِ، والاستنكاحُ طلبُ النكاحِ والرغبةُ فيه، وخالِصةً مصدرٌ مؤكِّدٌ أي خَلَصَ إحلالُها أو إحلالُ ما أحْلَلْنا لك على القيود المذكورةِ خُلُوصاً لك، أو حالٌ من الضمير في وَهَبَتْ أو صفةٌ لمصدر محذوفٍ أي هبةً خالصةً. ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ من شرائطِ العقدِ ووجوبِ القَسْم والمهرِ بالوطءِ حيثُ لم يُسَمَّ. ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ من توسيع الأمر فيها أنه كيف ينبغي أنْ يفرضَ عليهم، والجملةُ اعتراضٌ بين قوله: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ ومتعلِّقَةٌ وهو خالصةٌ للدلالة على أنَّ الفرقَ بينه وبين المؤمنينَ في نحو ذلك لا لمجرَّدِ قَصْدِ التوسيع عليه، بل لمعانٍ تقتضي التوسيعَ عليه والتضييقَ عليهم تارةً وبالعكسِ أُخرَى. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما يعسُرُ التحرزُ عنه. ﴿رَّحِيمًا﴾ بالتوسِعَةِ في مظانِّ الحَرَجِ.

۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾

(٥١) ﴿۞ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ تؤخِّرها وتتركُ مضاجَعَتَها. ﴿وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ وتضمُّ إليك مَنْ تشاءُ وتضاجِعُها، أو تطلِّقُ مَنْ تشاء وتمسِكُ مَنْ تشاء. وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي وحفصٌ ترجي بالياءِ والمعنى واحدٌ. ﴿وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ طلبْتَ. ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ طلَّقْتَ بالرَّجْعَةِ. ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ﴾ في شيء مِنْ ذلك. ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ ذلك التفويضُ إلى مشيئتِكَ أقربُ إلى قرَّةِ عيونهنَّ وقِلَّةِ حُزْنِهِنَّ ورضاهنَّ جميعاً، لأنَّ حكْمَ كلِّهنَّ فيه سواءٌ، ثمَّ إنْ سوَّيْتَ بينهنَّ وجدْنَ ذلك تفضُّلاً منك وإنْ رجَّحْتَ بعضَهنَّ عَلِمْنَ أنه بحكم الله تعالى فتطمئنُّ به نفوسُهم. وقرىء تُقِرَّ بضمِّ التاء وأعينَهُنَّ بالنصبِ، وتُقَرَّ بالبناء للمفعول، وكلُّهنَّ تأكيدُ نونِ يرضَيْنَ، وقرىء بالنصب تأكيداً لهنَّ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فاجتهدوا في إحسَانه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذاتِ الصدور. ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة فهو حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى.

(٥٢) ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ﴾ بالياء لأنَّ تأنيثَ الجمع غيرُ حقيقيٍّ، وقرأ البصريانِ بالتاء. ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ من بعدِ التسعِ وهو في حقِّه كالأربعِ في حقِّنا، أو من بعدِ اليوم حتى لو ماتتْ واحدةٌ لم يحلَّ له نكاحُ أُخرى. ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ فتطلِّقُ واحدةً وتنكِحُ مكانَها أُخرى ومِنْ مزيدةٌ لتأكيدِ الاستغراقِ. ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ حسنُ الأزواجِ المستبدَلَةِ، وهو حالٌ من فاعلِ تَبَدَّلَ دونَ مفعوله وهو من

أزواجٍ لتوغُّلِه في التنكير، وتقديرُه مفروضاً إعجابَك بهنَّ. واختُلِفَ في أنَّ الآيةَ محكَمةٌ أو منسوخةٌ بقوله ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾(١) على المعنى الثاني فإنه وإنْ تقدَّمها قراءةً فهو مسبوقٌ بها نزولاً. وقيل المعنى لا يحلُّ لك النساءُ من بعدِ الأجناس الأربعةِ اللاتي نصَّ على إحلالهنَّ لك ولا أنْ تَبدَّلَ بهنَّ أزواجاً من أجناس أُخَرَ. ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ﴾ استثناءٌ من النساءِ لأنه يتناولُ الأزواجَ والإماءَ، وقيل منقطعٌ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ فتحفَّظوا أمْرَكم ولا تتخطَّوْا ما حدَّ لكم.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

(٥٣) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ﴾ إلا وقْتَ أنْ يُؤْذَنَ لكم، أو إلاَّ مأذوناً لكم. ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ متعلِّقٌ بيؤْذَنَ لأنه متضمِّنٌ معنى يُدْعَى للإشعار بأنه لا يحسنُ الدخولُ على الطعام من غير دعوةٍ وإنْ أَذِنَ كما أشْعَرَ به قولُه: ﴿غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ غيرَ منتظرين وقْتَهُ، أو إدراكَه حالٌ من فاعلِ لا تدخلُوا أو المجرورِ في لكم. وقُرِىءَ بالجرِّ صفةٌ لطعام فيكون جارياً على غيرِ مَنْ هولَهُ بلا إبرازِ الضمير، وهو غيرُ جائزٍ عند البصريينَ وقد أمالَ حمزةُ والكسائيُّ إناهُ لأنه مصدرُ أَنَىٰ الطعامُ إذا أدْرَكَ. ﴿وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ تفرَّقوا ولا تمكُثُوا، ولأنه خطابٌ لقوم كانوا يتحيَّنونَ طعامَ رسولِ الله ﷺ فيدخلُونَ ويقعدُونَ منتظرِينَ لإدراكِه، مخصوصةٌ بهم وبأمثالِهم وإلا لما جازَ لأحدٍ أنْ يدخل بيوتَه بالإذْنِ لغيرِ الطعام ولا اللُّبْثِ بعدَ الطعامِ لهم. ﴿وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ﴾ لحديثِ بعضِكم بعضاً، أو لحديثِ أهلِ البيتِ بالتسمُّع له، عطفٌ على ناظرِينَ أو مقدَّرٌ بفعلٍ أي: ولا تدخلوا أو ولا تمكثُوا مستأنِسينَ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ اللُّبْثَ. ﴿كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ﴾ لتضييقِ المنزلِ عليه وعلى أهلِه وإشغالِه بما لا يَعْنيه. ﴿فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ﴾ من إخراجِكم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ يعني أنَّ إخراجَكم حقٌّ فينبغي أنْ لا يُتْرَكَ حياءً كما لم يتركْه اللهُ تركَ الحييِّ فأَمَرَكُم بالخروج، وقرىء لا يستحِي بحذفِ الياءِ الأُولَى وإلقاءِ حركتِها على الحاءِ. ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا﴾ شيئاً يُنْتَفَعُ به. ﴿فَسْـَٔلُوهُنَّ﴾ المتاعَ. ﴿مِن وَرَآءِ حِجَابٍ﴾ سِتْرٍ. روي أن عمرَ رضيَ الله عنه قال: «يا رسولَ الله يدخلُ عليك البَرُّ والفاجرُ فلو أمرتَ أمهاتِ المؤمنينَ بالحجابِ؟ فنزلتْ»(٢). وقيل نه عليه الصلاة والسلام كان يُطْعَمُ ومعه بعضُ أصحابه، فأصابتْ يدُ رجلٍ يدَ عائشةَ رضيَ الله عنها فكرِهَ النبيُّ ﷺ ذلك

(١) الأحزاب: «٥١».

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٨) من رواية أنس عن عمر رضي الله عنه: وقد أخرجه البخاري في سياق (وافقت ربي في ثلاث) انظر (١/ ٥٠٤ رقم ٤٠٢) و(٨/ ١٦٨ رقم ٤٤٨٣) و(٨/ ٥٢٧ رقم ٤٧٩٠).

فنزلت[١]. ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ من الخواطر النفسانيةِ الشيطانيةِ. ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ﴾ وما صحَّ لكم. ﴿أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ أنْ تفعلُوا ما يكرَهُهُ. ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ من بعدِ وفاته أو فراقِه، وخصَّ التي لم يدخلْ بها، لما روي أنَّ أشعثَ بنَ قيسٍ تزوجَ المستعيذةَ في أيام عمرَ رضيَ الله عنه فهمَّ برجْمِها، فأُخبِرَ بأنه عليه الصلاة والسلام فارَقَها قبلَ أنْ يمسَّها فتركَها من غير نكيرٍ، ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ﴾ يعني إيذاءَه ونكاحَ نسائه. ﴿كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ ذنباً عظيماً، وفيه تعظيمٌ من اللهِ لرسوله وإيجابٌ لحرمتِه حيّاً وميّتاً ولذلك بالغَ في الوعيدِ عليه فقال:

إِن تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ۗ وَاتَّقِينَ اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾

(٥٤) ﴿إِن تُبْدُوا شَيْئًا﴾ كنكاحِهنَّ على ألسِنَتِكُم. ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلمُ ذلك فيجازيْكُم به، وفي هذا التعميمِ مع البرهانِ على المقصود مزيدُ تهويل ومبالغةٌ في الوعيد.

(٥٥) ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ﴾ استثناءٌ لمن لا يجبُ الاحتجابُ عنهم. روي أنه لما نزلتْ آيةُ الحجابِ قال الآباءُ والأبناءُ والأقاربُ: يا رسولَ الله أَوَ نكلِّمُهنَّ أيضاً مِنْ وراء حجاب؟ فنزلتْ[٢]. وإنما لم يُذْكَرِ العمُّ والخال لأنهما بمنزلةِ الوالدين ولذلك سُمِّيَ العمُّ أباً في قوله ﴿وإله ابائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق﴾[٣] أو لأنه كرهَ تركَ الاحتجابِ عنهما مخافةَ أنْ يصِفَا لأبنائهما. ﴿وَلَا نِسَائِهِنَّ﴾ يعني نساءَ المؤمناتِ. ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ﴾ من العبيد والإماءِ، وقيل من الإماءِ خاصَّةً، وقد مرَّ في سورة النور. ﴿وَاتَّقِينَ اللَّهَ﴾ فيما أُمِرْتُنَّ به. ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا﴾ لا يخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٦) ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ يعتنونَ بإظهارِ شرفه وتعظيمِ شأنه. ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ﴾ اعتَنُوا أنتم أيضاً فإنكم أَوْلَى بذلك وقولُوا: اللهمَّ صلِّ على محمدٍ. ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (رقم: ١٠٥٣) والنسائي في تفسيره (رقم: ٤٣٩) والطبراني في «المعجم الصغير» (١/ ٨٣ ـ ٨٤) عن عائشة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٣) وقال: «رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح، غير موسى بن أبي كثير وهو ثقة».
وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ ج٢٢/ ٣٩) من طريق ليث بن أبي سليم عن مجاهد مرسلاً وليث ضعيف.

(٢) انظر «جامع البيان» للطبري (١٢/ ج٢٢/ ٤١ ـ ٤٢).

(٣) الأحزاب: «٥١».

وقولوا السلامُ عليك أيُّها النبيُّ وقيل وانقادوا لأوامره، والآيةُ تدلُّ على وجوبِ الصلاةِ والسلام عليه في الجملةِ، وقيل تجبُ الصلاةُ كلَّما جَرَى ذِكْرهُ لقوله عليه الصلاةُ والسلام: «رَغِمَ أنفُ رجلٍ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ»[1] وقوله «مَنْ ذُكِرْتُ عندَه فلم يُصَلِّ عليَّ فدخلَ النارَ فأبعده اللهُ»[2]، وتجوزُ الصلاةُ على غيرِهِ تبعاً، وتُكْرَهُ استقلالاً لأنه في العُرْفِ صارَ شِعاراً لِذِكْرِ الرسول ﷺ، ولذلك كُرِهَ أنْ يُقَالَ محمدٌ عزَّ وجلَّ وإنْ كان عزيزاً وجليلاً.

إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ
ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل
لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ
غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾

(٥٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ يرتكبونَ ما يكرهانِه من الكُفْرِ والمعاصي، أو يؤذونَ رسولَ اللهِ بكسْرِ رُبَاعِيَّتِه. وقولُهم شاعرٌ مجنونٌ ونحوُ ذلك، وذِكْرُ اللهِ للتعظيم له. ومَنْ جوَّزَ إطلاقَ اللفظِ على معنيينِ فسَّره بالمعنيينِ باعتبار المعمولَيْنِ. ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ أبعدَهم من رحمته. ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ يهينُهم مع الإيلام.

(٥٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ بغير جناية استحقُّوا بها الإيذاءَ. ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ ظاهراً. قيل إنها نزلتْ في منافقين كانوا يؤذونَ علياً رضيَ الله عنه[3]، وقيل في أهلِ الإفك[4]، وقيل في زُناةٍ كانوا يتَّبعونَ النساءَ وهُنَّ كارهاتٌ[5].

(٥٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ﴾ يغطِّيْنَ وجوهَهُنَّ وأبدانَهُنَّ بملاحِفهنَّ إذا برزْنَ لحاجةٍ، ومِنْ للتبعيضِ فإنَّ المرأةَ ترخي بعضَ جِلْبَابِها وتتلفَّعُ ببعضٍ و﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ﴾ يُمَيَّزْنَ من الإماءِ والقَيْنَاتِ. ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ فلا يؤذِيهِنَّ أهلُ الريبةِ بالتعرُّضِ لهنَّ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لما سلفَ. ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده حيثُ يراعي مصالِحَهُم حتى الجزئياتِ منها.

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٥٥٠ رقم ٣٥٤٥) وأحمد في المسند (٢/ ٢٥٤) وابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨) من حديث أبي هريرة. قال الترمذي: هذا حديث حسن وهو كما قال. وله شاهد من حديث مالك بن الحويرث. أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٢) وهو جزء من حديث أبي هريرة الذي أخرجه ابن حبان في «الموارد» (ص٤٩٧ رقم ٢٠٢٨).
وكذلك من حديث مالك بن حويرث الذي أخرجه ابن حبان كما في «الموارد» (ص٥٩٣ رقم ٢٣٨٦).

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عن مقاتل بدون سند.

(٤) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٦/ ٣٧٦).

(٥) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٢) عنهما بدون سند.

۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾

(٦٠) ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ عن نفاقهم. ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ ضعفُ إيمانٍ وقِلَّةُ ثباتٍ عليه، أو فجورٍ عن تَزَلْزُلِهم في الدين أو فجورِهم. ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ يرجفونَ أخبارَ السوءِ عن سرايا المسلمينَ ونحوِها من إرجافِهم، وأصلُه التحريكُ من الرجفةِ وهي الزلزلةُ سُمِّيَ به الإخبارُ الكاذبُ لكونه متزلْزلاً غيرَ ثابتٍ. ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ لنأمرنَّك بقتالهم وإجلائِهم، أو ما يَضْطَرُّهم إلى طلبِ الجلاءِ. ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ﴾ عطفٌ على لنغرينَّكَ، وثمَّ للدلالةِ على أنَّ الجلاءَ ومفارقةَ جِوارِ الرسولِ أعظمُ ما يصيبُهم. ﴿فِيهَآ﴾ في المدينة. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ زماناً أو جواراً قليلاً.

(٦١) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ نُصِبَ على الشَّتْم أو الحالِ، والاستثناءُ شاملٌ له أيضاً أي: لا يجاوِرُونك إلا ملعونينَ، ولا يجوزُ أنْ يُنْصَبَ عن قوله: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا﴾ لأنَّ ما بعدَ كلمةِ الشرطِ لا يعملُ فيما قبلَها.

(٦٢) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ﴾ مصدرٌ مؤكَّد أي سنَّ الله ذلك في الأمم الماضيةِ، وهو أنْ يَقْتُلَ الذين نافقوا الأنبياءَ وسَعَوْا في وَهْنِهم بالإرجافِ ونحوِه أينما ثُقِفُوا. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ لأنه لا يبدِّلها ولا يقدرُ أحدٌ أنْ يبدِّلَها.

(٦٣) ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ﴾ عن وقْتِ قيامِها استهزاءً وتعنُّتاً أو امتحاناً. ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ لم يُطْلِعْ عليه مَلَكاً ولا نبياً. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ شيئاً قريباً أو تكونُ الساعةُ عن قريبٍ، وانتصابُه على الظرفِ، ويجوزُ أنْ يكونَ التذكيرُ لأنَّ الساعةَ في معنى اليوم، وفيه تهديدٌ للمستعجِلينَ وإسكاتٌ للمتعنِّتينَ.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ ناراً شديدةَ الاتِّقادِ.

(٦٥) ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يحفظُهم. ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٦٦) ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ تُصْرَفُ من جهة إلى جهةٍ كاللحم يُشْوَى بالنار، أو من حالٍ إلى حال، وقرِئَ تَقَلَّبُ بمعنى تتقلَّب، وتُقلِّبُ. ومتعلقُ الظرفِ[1]. ﴿يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ فلن نُبْتَلى بهذا العذاب.

(١) وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أعظم الأعضاء، ففيه مزيد تفظيع للأمر وتهويل للخطب (س٧/ ١١٦).

وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا
كَبِيرٗا ﴿٦٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا ﴿٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ
ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا
وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا جَهُولٗا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ
وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ﴿٧٣﴾

(٦٧) ﴿ وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعۡنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا ﴾ يعنون قادتَهم الذين لقَّنوهم الكُفْرَ، وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ ساداتِنا على جمعِ الجمعِ للدلالة على الكثْرةِ. ﴿فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾ بما زيَّنوا لنا.

(٦٨) ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِهِمۡ ضِعۡفَيۡنِ مِنَ ٱلۡعَذَابِ﴾ مِثْلَيْ ما آتيتنا منه لأنَّهم ضلُّوا وأضلُّوا. ﴿وَٱلۡعَنۡهُمۡ لَعۡنٗا كَبِيرٗا﴾ كثيرَ العددِ، وقرأ عاصمٌ بالباء أي لعناً هو أشدُّ اللَّعنِ وأعظمُهُ.

(٦٩) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوۡاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْۚ ﴾ فأظهر براءَتَهُ من مقُولهم يعني مؤدَّاهُ ومضمونَه، وذلك أنَّ قارونَ حرَّضَ امرأةً على قذْفِه بنفسِها فعصمَه الله كما مرَّ في القصصِ، أو اتَّهمه ناسٌ بِقَتْلِ هُرونَ لما خرجَ معه إلى الطور فماتَ هناك، فحملتْه الملائكةُ ومرُّوا به حتَّى رأَوْهُ غيرَ مقتولٍ. وقيل أحياه اللهُ فأخبَرَهُم ببراءتِه، أو قذفوه بعيبٍ في بدنِه من بَرَصٍ أو أَدَرَةٍ لفرْطِ تستُّره حياءً فأطْلَعَهُم الله على أنه بريءٌ منه. ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهٗا﴾ ذا قُربةٍ وَوَجَاهةٍ، وقُرِيءَ وكان عبدُ الله وجيهاً.

(٧٠) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في ارتكاب ما يكرهُه فضلاً عما يؤذي رسولَه. ﴿ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ قاصداً إلى الحقِّ من سدَّ يسدُّ سَدَاداً، والمرادُ النهيُ عن ضِدِّه كحديث زينبَ من غير قصْدٍ.

(٧١) ﴿ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ ﴾ يوفِّقكُم للأعمال الصالحة، أو يصلِحُها بالقبولِ والإثابةِ عليها. ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ﴾ ويجعلُها مكفَّرةً باستقامتكم في القولِ والعملِ. ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأوامرِ والنواهي. ﴿فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ يعيش في الدنيا حميداً وفي الآخرة سعيداً.

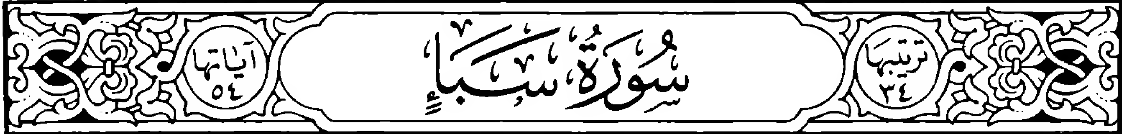
(٧٢) ﴿ إِنَّا عَرَضۡنَا ٱلۡأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱلۡجِبَالِ فَأَبَيۡنَ أَن يَحۡمِلۡنَهَا وَأَشۡفَقۡنَ مِنۡهَا وَحَمَلَهَا ٱلۡإِنسَٰنُۖ ﴾ تقريرٌ للوعدِ السابقِ بتعظيمِ الطاعةِ، وسمَّاها أمانةً من حيثُ إنها واجبةُ الأداءِ، والمعنى أنها لعظمةِ شأنِها بحيثُ لو عُرِضَتْ على هذه الأجرام العِظامِ وكانتْ ذاتَ شعورٍ وإدراكٍ لأَبَيْنَ أنْ يحملْنَها، وأشفقْنَ منها وحملها الإنسانُ مع ضعْفِ بُنْيَتِهِ ورخاوةِ قوتِه، لا جَرمَ فإنَّ الراعيَ لها والقائمَ بحقوقها بخيرِ الدارين. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومٗا﴾ حيثُ لم يفِ بها ولم يراعِ حقَّها. ﴿جَهُولٗا﴾ بِكُنْهِ عاقِبتها، وهذا وصفٌ للجنسِ باعتبار الأغلبِ. وقيل المرادُ بالأمانةِ الطاعةُ التي تعمُّ الطبيعيةَ والاختياريةَ، وبعرضِها استدعاؤُها الذي يعمُّ طلبَ الفعلِ من المختارِ وإرادةَ صدوره من غيره، وبِحَمْلِها الخيانةَ فيها والامتناعَ عن أدائِها، ومنه قولُهم حاملُ الأمانة ومحتمِلُها لمن لا يؤدِّيها فتبرأُ ذمَّتُهُ، فيكونُ الإباءُ عنه إتياناً بما يمكنُ أنْ يتأتَّى منه، والظلمُ والجهالةُ الخيانةُ والتقصير. وقيل إنه تعالى لما خلقَ هذه الأجرامَ خلقَ فيها فهماً وقال

لها: إني فرضتُ فريضةً وخلقتُ جنةً لمن أطاعني فيها، وناراً لمن عصاني، فقلْنَ نحنُ مسخَّراتٌ على ما خلقْتَنا لا نحتملُ فريضةً ولا نبتغي ثواباً ولا عقاباً، ولما خلقَ آدمَ عرضَ عليه مثلَ ذلك فحملَه، وكان ظلوماً لنفسِه بتحمُّله ما يشقُّ عليها جهولاً بوخامةِ عاقبتِه، ولعلَّ المرادَ بالأمانةِ العقلُ أوِ التكليفُ، وبعرضِها عليهنَّ اعتبارُها بالإضافة إلى استعدادهنَّ، وبإبائهنَّ الإباءَ الطبيعيَّ الذي هو عدمُ اللياقةِ والاستعدادِ، وبحمْلِ الإنسانِ قابليَّته واستعداده لها وكونَه ظلوماً جهولاً لما غُلِبَ عليه من القوةِ الغضبية والشَّهويَّةِ، وعلى هذا يحسنُ أنْ يكونَ علةً للحمْلِ عليه فإنَّ من فوائدِ العقلِ أنْ يكونَ مهيمناً على القوتينِ حافظاً لهما عن التعدِّي ومجاوزةِ الحدِّ، ومعظمُ مقصودِ التكليفِ تعديلُهما وكسْرُ سَوْرَتِهما.

(٧٣) ﴿ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ تعليلٌ للحمْلِ من حيثُ إنه نتيجتُه كالتأديبِ للضربِ في ضربته تأديباً، وذِكْرُ التوبةِ في الوعْدِ إشعارٌ بأنهم كونُهم ظلوماً جهولاً في جِبِلَّتِهم لا يخلِّيهم عن فرطاتٍ. ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ حيثُ تابَ عن فرطاتِهم وأثابَ بالفوزِ على طاعاتِهم. قال عليه الصلاةُ والسلام «مَنْ قرأ سورةَ الأحزابِ وعلَّمها أهله أو ما ملكتْ يمينُه أُعْطِيَ الأمانَ من عذابِ القبرِ»[١].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
وانظر آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾

سورةُ سبأ مكيةٌ

وقيلَ إلا قولَه: «ويرى الذين أوتو العلم» الآيةَ، وآيُها أربعُ وخمسونَ آيةً(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً ونعمةً، فله الحمدُ في الدنيا لكمالِ قدرته وعلى تمام نعمتِه. ﴿وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ لأنَّ ما في الآخرة أيضاً كذلك، وليس هذا من عطفِ المقيَّدِ على المطلقِ فإنَّ الوصْفَ بما يدلُّ على أنه المنعِمُ بالنِّعمِ الدنيوية قيَّد الحمدَ بها، وتقديمُ الصلةِ للاختصاصِ فإنَّ النِّعمَ الدنيويةَ قد تكون بواسطةِ مَنْ يستحقُّ الحمدَ لأجلِها ولا كذلك نعمُ الآخرةِ. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي أحْكَم أمورَ الدارَيْنِ. ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ ببواطنِ الأشياءِ.

(٢) ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالغيثِ ينفذُ في موضِعٍ وينبعُ في آخرَ، وكالكُنوزِ والدفائنِ والأمواتِ.

---

(١) قال الضحاك وابن السائب، ومقاتل: فيها آية مدنية. وهي قوله «ويرى الذين أوتوا العلم» [سبأ: ٦] ـ كما في «زاد المسير» (٦/ ٤٣١) ـ.
وقال السيوطي في «الدر المنثور» (٦/ ٦٧٣): «أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة سبأ بمكة.
وأخرج ابن المنذر عن قتادة رضي الله عنه قال: سورة سبأ مكية.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالحيوان والنبات والفِلِزّاتِ وماءِ العيون. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالملائكة والكتب والمقاديرِ والأرزاقِ والأنداءِ والصواعقِ. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالملائكة وأعمالِ العباد والأبْخِرَةِ والأدخنةِ. ﴿وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ﴾ للمفرِّطينَ في شكر نعمتِه مع كَثْرَتِها، أو في الآخرة مع مالَهُ من سوابقِ هذه النِّعمِ الفائتة للحصْر.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ إنكارٌ لمجيئها أو استبطاءٌ استهزاءً بالوعد به. ﴿قُلْ بَلَىٰ﴾ ردٌّ لكلامهم وإثباتٌ لما نَفَوْهُ. ﴿وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ تكريرٌ لإيجابه مؤكَّداً بالقسَم مقرَّراً لوصْفِ المقسَم به بصفاتٍ تقرِّرُ إمكانَه وتنفي استبعادَه على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ علَّام الغيبِ للمبالغةِ، ونافعٌ وابن عمر ورويسٌ عالمُ الغيبِ بالرفع على أنه خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وقرأ الكسائيُّ لا يعزِبُ بالكسْر. ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ جملةٌ مؤكِّدةٌ لنفي العزوب، ورفعُهما بالابتداءِ، ويؤيدُه القراءةُ بالفتح على نفي الجنسِ، ولا يجوز عطفُ المرفوع على مثقال والمفتوح على ذَرةٍ بأنه فتحَ في موضعِ الجرِّ لامتناع الصرفِ لأنَّ الاستثناءَ بمنعه، اللَّهمَّ إلا إذا جُعِلَ الضميرُ في عنهُ للغيبِ وجُعِلَ المثْبَتُ في اللوحِ خارجاً عنه لظهورهِ على المطالِعينَ له فيكونُ المعنَى لا ينفصلُ عن الغيبِ شيءٌ إلا مسطوراً في اللوحِ.

لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾

(٤) ﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ عِلَّةٌ لقوله لتأتينَّكم وبيانٌ لما يقتضي إتيانَها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لا تعبٌ فيه ولا منٌّ عليه.

(٥) ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بإبطال وتزهيدِ الناس فيها. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ كي يفوتُونا. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو معجزينَ أي مثبِّطين عن الإيمان مَنْ أرادَهُ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ من سَيِّءِ العذابِ. ﴿أَلِيمٌ﴾ مؤلمٌ، ورفعَهُ ابن كثير ويعقوبُ وحفصٌ.

(٦) ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ ويعلمُ أولو العلم من الصحابةِ ومَنْ شايَعَهُم من الأُمَّةِ، أو من مسلمي أهلِ الكتاب. ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ القرآنُ. ﴿هُوَ ٱلْحَقَّ﴾ ومَنْ رَفَعَ الحقَّ جعلَ هو مبتدأً والحقُّ خبرَهُ، والجملةُ ثاني مفعولي يَرَى، وهو مرفوع مستأنَفٌ للاستشهادِ بأولي العلم على الجهَلَةِ الساعينَ في الآياتِ. وقيل منصوبٌ معطوفٌ على ليجزيَ أي وليعْلَمَ أولو العلم عند مجيءِ الساعة أنه الحقُّ عياناً كما علموه الآنَ برهاناً ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ الذي هو التوحيدُ والتدرُّع بلباسِ التقوى.

(٧) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يحدِّثُكُم بأعجبِ الأعاجيبِ. ﴿إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ إنكم

تَنْشَؤُوْنَ خلقاً جديداً بعدَ أنْ تُمَزَّقَ أجسادُكم كلَّ تمزيقٍ وتفريقٍ بحيث تصيرُ تراباً[١]. وتقديمُ الظرف للدلالة على البعدِ والمبالغة فيه، وعاملُه محذوفٌ دلَّ عليه ما بعدَه فإنَّ ما قبلَه لم يقارِنْهُ وما بعدَه مضافٌ إليه، أو محجوبٌ بينه وبينَه بإنَّ، وممزَّقٌ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ مكاناً بمعنى إذا مُزِّقْتُم وذهبتْ بكم السيولُ كلَّ مذهبٍ وطُرِحْتُم كلَّ مطرحٍ، وجديدٌ بمعنى فاعلٍ من جدَّ كحديدٍ من حدَّ؛ وقيل بمعنى مفعولٍ من جدَّ النساجُ الثوبَ إذا قطعهُ.

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾﴾

(٨) ﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةُۢ﴾ جنونٌ يوهمه ذلك ويلقيه على لسانِه، واستُدِلَّ بجَعْلِهِم إياه قسيمَ الافتراءِ غيرَ معتقدِينَ صِدْقَهُ على أنَّ بينَ الصدقِ والكذبِ واسطةً، وهو كلُّ خبرٍ لا يكون عن بصيرةٍ بالمخْبَرِ عنه، وضعفُه بَيِّنٌ لأنَّ الافتراءَ أخصُّ من الكذبِ. ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَـٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ ردٌّ من الله تعالى عليهم ترديدَهم، وإثباتٌ لهم ما هو أفظعُ من القِسْمَيْنِ، وهو الضلالُ البعيدُ عن الصوابِ بحيث لا يُرْجَى الخلاصُ منه وما هو مؤدَّاه من العذابِ، وجَعَلَه رسيلاً له في الوقوعِ ومقدَّماً عليه في اللفظِ للمبالغةِ في استحقاقِهم له، والبعدُ في الأصل صفةُ الضالِّ، ووصفَ الضَّلاَلَ به على الإسناد المجازي.

(٩) ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تذكيرٌ بما يعاينُونه مما يدلُّ على كمالِ قدرة الله، وما يُحْتَمَلُ فيه إزاحةٌ لاستحالَتِهم الإحياءَ حتى جعلوهُ افتراءً وهُزُؤاً، وتهديداً عليها. والمعنى أعمُوا فلم ينظروا إلى ما أحاطَ بجوانبهم من السماءِ والأرضِ ولم يتفكَّروا أهمْ أشدُّ خلْقاً أم السماءُ، وإنا إنْ نشأْ نخسفْ بهم الأرضَ أو نُسْقِطْ عليهم كِسَفاً، لتكذيبهم بالآياتِ بعدَ ظهور البيناتِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ يشأ ويخسفْ ويسقطْ بالياءِ لقوله أَفْتَرى على اللهِ، والكسائيُّ وحْدَه بإدغامِ الفاءِ في الباءِ، وحفصٌ كِسَفاً بالتحريكِ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ النظرِ والتفكُّرِ فيهما وما يدلانِ عليه. ﴿لَءَايَةً﴾ لدلالةٍ. ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى ربه فإنه يكون كثيرَ التأمُّل في أمرِه.

(١٠) ﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا﴾ أي على سائرِ الأنبياءِ وهو ما ذُكِرَ بعدُ، أو على سائرِ الناسِ فيندرجُ فيه النبوَّةُ والكتابُ والملك والصوتُ الحسنُ[٢]. ﴿يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ رجِّعي معه التسبيحَ أو

---

(١) أتىٰ بالجملة الاسمية حيثُ عدل عن الفعلية الدالة على الحدوث مثل تبعثون أو تخلقون خلقاً جديداً وذلك للإشباع في الاستبعاد والتعجب (س٧/ ١٢٣).

(٢) تنكير كلمة «فضلاً» للتفخيم.

وقوله «منّا» لتأكيد فخامته الذاتية بفخامته الإضافية، وتقديمه على المفعول الصريح وهو «فضلاً» وذلك للاهتمام =

النوحةَ على الذَّنْبِ، وذلك إما بخلقِ صوتٍ مِثْلَ صوتِه فيها أو بحملِها إياه على التسبيحِ إذا تأمَّلَ ما فيها أو سيري معه حيثُ سارَ. وقرىء أُوبي من الأَوْب أي ارجِعي في التسبيحِ كلما رجعَ فيه، وهو بدلٌ من فضلاً أو من آتينا بإضمارِ قولنا أو قلْنا. ﴿وَٱلطَّيْرَ﴾ عطفٌ على محلِّ الجبال ويؤيدُه القراءةُ بالرفع عطفاً على لفظِها تشبيهاً للحركةِ البنائيةِ العارضةِ بالحركةِ الإعرابيةِ أو على فضلاً، أو مفعولٌ معه لأَوِّبي، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ الرفعُ بالعطفِ على ضميره وكان الأصلُ ولقد آتينا داودَ منا فضلاً تأويبَ الجبال والطير، فبدَّل بهذا النظم لما فيه من الفخامةِ والدلالة على عِظَمِ شأنه وكبرياءِ سلطانه، حيث جعلَ الجبالَ والطيورَ كالعقلاءِ المناقدينَ لأمرِه في نفاذِ مشيئته فيها. ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جعلْناه في يده كالشمعِ يُصَرِّفه كيف يشاءُ من غيرِ إحماءٍ وطَرْقٍ بإلانَتِه أو بقوتِه.

﴿أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

(١١) ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ أمرناه أنِ اعملْ فأنْ مفسِّرةٌ أو مصدريةٌ. ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ دروعاً واسعاتٍ، وقرىء صابغاتٍ. وهو أولُ منِ اتَّخذها. ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ وقدِّرْ في نسجِها بحيثُ يتناسبُ حِلَقُها، أو قدِّرْ مساميرَها فلا تجعلْها دقاقاً فتقلقُ ولا غلاظاً فتنخرقُ. وَرُدَّ بأنَّ دروعَهُ لم تكن مسمَّرةً ويؤيدُه قولُه ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾. ﴿وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا﴾ الضميرُ فيه لداودَ وأهلِه. ﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه.

(١٢) ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ﴾ أي وسخَّرنا له الريحَ. وقرىء الريحُ بالرفع أي ولسليمانَ الريحُ مسخَّرةٌ، وقرىء الرياحُ. ﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ جريُها بالغداةِ مسيرةَ شهرٍ وبالعشي كذلك، وقرىء غُدْوَتُها ورَوْحَتُها. ﴿وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ النحاسَ المذابَ أساله له من معدنِه فنبعَ منه نبوعَ الماء من الينبوعِ، ولذلك سمَّاه عيناً، وكان ذلك باليمن. ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عطفٌ على الريح ومنَ الجنِّ حالٌ مقدَّمةٌ، أو جملةٌ من مبتدأٍ وخبرٍ. ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بأمره. ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ﴾ ومَنْ يعدلْ منهم. ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ عما أمرناه من طاعة سليمانَ. وقرىء يُزِغْ من أزاغه. ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ عذاب الآخرة.

(١٣) ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ﴾ قصورٌ حصينةٌ ومساكنُ شريفةٌ، سمِّيتْ بها لأنها يُذَبُّ عنها ويُحارَبُ عليها. ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ وصوراً هي تماثيلُ للملائكةِ والأنبياءِ على ما اعتادوا من العبادات ليراها الناسُ فيعبدوا نحوَ عبادتِهم. وحرمةُ التصاوير شرعٌ مجدَّدٌ. روي[١] أنهم عملُوا له أسدينِ في أسفلِ كرسيِّه ونَسْرَيْنِ فوقَه، فإذا أراد أن يصعدَ بسطَ الأسدانِ له ذراعيهما وإذا قعدَ أظلَّه النَّسْرانِ بأجنحَتِهما.

= بالمقدم والتشويق إلى المؤخر.

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٢/١١٩) ثم قال معقباً: «فأمر غير مستبعد فإن ذلك يكون بآلات تتحرك عند الصعود وعند القعود فتحرك الذراعين والأجنحة وقد انتهت صنائع البشر إلى مثل ذلك في الغرابة» هـ.

﴿وَجِفَانٍ﴾ وصحافٍ. ﴿كَالْجَوَابِ﴾ كالحياضِ الكبارِ جمعُ جابيةٍ من الجبايةِ وهي من الصفاتِ الغالبة كالدابّةِ. ﴿وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ ثابتاتٍ على الأثافي لا تنزلُ عنها لِعِظَمِها. ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ حكايةٌ عما قيل لهم، وشكراً نُصِبَ على العِلّةِ أي اعملوا له واعبدُوه شكراً، أو المصدرِ لأنَّ العملَ له شكر، أو الوصفِ له أو الحالِ أو المفعولِ به. ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ المتوفرُ على أداءِ الشكر بقلبِه ولسانه وجوارحِه أكثرَ أوقاتِه ومع ذلك لا يوفِّي حقَّه، لأنَّ توفيقَه الشكرَ نعمةٌ تستدعي شكراً آخرَ لا إلى نهايته، ولذلك قيلَ الشَّكُور مَنْ يرى عَجْزَهُ عن الشكرِ.

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي على سليمانَ. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ ما دل الجنَّ وقيل آلَهُ. ﴿إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾ أي الأَرَضَةُ أضيفتْ إلى فِعْلِها، وقرىء بفتح الراء وهو تأثُّر الخشبة من فِعْلِها يُقَالُ: أَرَضَتِ الأَرَضَةُ الخشبةَ أَرَضاً فأُرِضَتْ[1] أَرَضاً مثلَ أكلتِ القوادحُ الأسنانَ أكلاً فأُكِلَتْ أكلاً. ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ﴾ عصاهُ من نسأْتُ البعيرَ إذا طردْتَهُ لأنها يُطْرَدُ بها. وقُرِىءَ بفتح الميم وتخفيفِ الهمزةِ قلباً وحذفاً على غير قياسٍ إذِ القياسُ إخراجُها بَيْنَ بَيْنَ، ومَنْساءَته على مفعَالةٍ كميضاءةٍ في مَيْضأةٍ، ومن سأته أي طرفُ عصاهُ مستعارٌ من سَأةِ القوس وفيه لغتانِ كما في قُحَةٍ وقَحَةٍ، وقرأ نافع وأبو عمرو مِنْسَاته بألِفٍ بدلاً من الهمزةِ، وابنُ ذكوانَ بهمزةٍ ساكنة، وحمزةُ إذا وقفَ جعلَها بينَ بينَ. ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾ علمتِ الجنُّ بعد التباسِ الأمرِ عليهم. ﴿أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أنهم لو كانوا يعلمون الغيبَ كما يزعمون لعلموا موتَه حينَما وقع فلم يلْبَثُوا حولاً في تسخيرِه إلى أنْ خرَّ، أو ظهرتِ الجنُّ، وأنَّ بما في حيِّزه بدلٌ منه أي ظهرَ أنَّ الجنَّ لو كانوا يعلمونَ الغيبَ ما لبثوا في العذاب. وذلك[2] أنَّ داودَ أَسَّسَ بيتَ المقدس في موضعِ فسطاطِ موسى عليهما الصلاة والسلام فماتَ قبل تمامه، فوصَّى به إلى سليمانَ عليه السلام فاستعملَ الجنَّ فيه فلم يتمَّ بعدُ إذ دنا أجَلُه وأُعْلِمَ به، فأراد أنْ يعمِّيَ عليهم موتَه ليتِمُّوه فدعاهم فَبَنَوْا عليه صرحاً من قواريرَ ليس له بابٌ، فقام يصلِّي متكئاً على عصاهُ فَقُبِضَ روحُه وهو متكىءٌ عليها، فبقيَ كذلك حتى أَكَلَتْهَا الأَرَضَةُ فخرَّ ثم فتحُوا عنه وأرادوا أنْ يعرفوا وقْتَ موتِه، فوضعوا الأَرَضَةَ على العصَا فأكلتْ يوماً وليلةً مقداراً فَحَسَبُوا على ذلك فوجدُوه قد ماتَ منذ سنةٍ، وكان عمرُه ثلاثاً وخمسينَ سنةً، ومُلِّكَ وهو ابنُ ثلاثةَ عَشْرَةَ سنةً، وابتدأ عمارةَ بيتِ المقدس لأربعِ مَضَيْنَ من مُلْكِه.

(١٥) ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ﴾ لأولادِ سبأ بنِ يشجبَ بنِ يعربَ بنِ قحطانَ، ومنعَ الصرفَ عنه ابنُ كثير

---

(١) أرضت أرضاً، على ما لم يسمّ فاعله.

(٢) انظر «روح المعاني» للألوسي (٢٢/١٢٣ ـ ١٢٤).

وأبو عمرو لأنه صارَ اسمَ القبيلة، وعن ابنِ كثير قلبُ همزتِه ألفاً ولعله أخرجَه بينَ بينَ فلم يؤدِّه الراوي كما وجبَ. ﴿فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ في مواضعِ سُكْناهم، وهي باليمنِ يقال لها مأربُ بينها وبينَ صنعاءَ مسيرةُ ثلاثةِ أيام. وقرأ حمزة وحفصٌ بالإفرادِ والفتحِ، والكسائي بالكسرِ حملاً على ما شذَّ من القياس كالمسجِد والمطلِع. ﴿ءَايَةٌ﴾ علامةٌ دالةٌ على وجودِ الصانعِ المختارِ، وأنه قادرٌ على ما يشاءُ من الأمور العجيبةِ مُجازٍ للمحسنِ والمسيءِ معاضدةٌ للبرهانِ السابقِ كما في قصَّتَيْ داودَ وسليمانَ عليهما الصلاة والسلام. ﴿جَنَّتَانِ﴾ بدلٌ من آيةٍ أو خبرٌ محذوف تقديره الآيةُ جنتانِ. وقرىء بالنصبِ على المدحِ، والمرادُ جماعتانِ من البساتينِ. ﴿عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ جماعةٌ عن يمينِ بلدِهم وجماعةٌ عن شمالِه، كلُّ واحدةٍ منهما في تقاربِها وتضامُنها كأنَّها جنةٌ واحدةٌ، أو بستاناً كُلِّ رجلٍ منهم عن يمينِ مسكنِه وعن شمالِه. ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ حكايةٌ لما قال لهم نبيُّهم، أو لسانُ الحالِ أو دلالةٌ بأنهم كانوا أحِقَّاءَ بأنْ يُقَالَ لهم ذلك. ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ استئنافٌ للدلالة على موجبِ الشكرِ، أي هذه البلدةُ التي فيها رِزْقكمْ بلدةٌ طيبة وربُّكم الذي رزقكم وطلبَ شكْرَكُم ربٌّ غفور فرطات مَنْ يشكرهُ. وقرىء الكلُّ بالنصبِ على المدحِ[1]. قيل كانت أخصبَ البلادِ وأَطْيَبَهَا لم يكن فيها عاهةٌ ولا هامَةٌ.

فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾

(١٦) ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الشكرِ. ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ سيلَ الأمرِ العرِمِ أي الصعبِ من عرِمَ الرجلُ فهو عارمٌ وعرِمٌ إذا شرِسَ خلُقه وصَعُبَ، أو المطرِ الشديدِ، أو الجرُذِ أضافَ إليه السيلَ لأنه نقبَ عليهم سكراً ضربتْه لهم بلقيسُ فحقنتْ به ماءَ الشحرِ وتركتْ فيه ثقباً على مقدارِ ما يحتاجون إليه، أو المسناةِ التي عقدتْ سكراً على أنه جمعُ عرِمةٍ وهي الحجارةُ المركومةُ. وقيل اسمُ وادٍ جاء السيلُ من قِبَلِه وكان ذلك بينَ عيسى ومحمدٍ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ﴾ ثمرٍ بشعٍ فإنَّ الخمطَ كلُّ نَبْتٍ أَخَذَ طعماً من مرارةٍ، وقيل الأراكُ أو كلُّ شجرٍ لا شوكَ له، والتقدير أُكُلٍ أُكُلِ خمطٍ فحُذِفَ المضافُ وأُقِيمَ المضافُ إليه مقامهُ في كونه بدلاً أو عطفَ بيانٍ. ﴿وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ معطوفانِ على أكلٍ لا على خمطٍ، فإنَّ الأثْلَ هو الطرفاءُ ولا ثمرَ له، وقرئا بالنصبِ عطفاً على جنتينِ، ووصَفَ السدرَ بالقلَّةِ فإنَّ جَناهُ وهو النَّبقُ مما يطيبُ أَكْلُه ولذلك يغرسُ في البساتينِ، وتسميةُ البدلِ جنتينِ للمشاكلةِ والتهكُّم. وقرأ أبو عمرو وذواتيْ أُكَلٍ بغير تنوينِ الكلام، وقرأ الحرميانِ بتخفيفِ أكلٍ.

(١٧) ﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا﴾ بكفرانِهم النعمةَ أو بكفرهم بالرسلِ، إذ رُوِيَ أنه بعثَ إليهم ثلاثةَ

---

(١) أي قرىء بلدةً طيبةً ورباً غفوراً، وذلك على تقدير اسكنوا بلدة طيبة واعبدوا رباً غفوراً. انظر روح المعاني (١٢٦/٢٢).

عشرَ نبياً فكذَّبوهم، وتقديمُ المفعولِ للتعظيمِ لا للتخصيصِ. ﴿وَهَلْ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾ وهل يجازَى بمثلِ ما فعلْنا بهم إلا البليغُ في الكفرانِ أو الكفرِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفصٌ نُجَازِي بالنونِ والكفورَ بالنصبِ.

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾

(١٨) ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ بالتوسعةِ على أهلها وهي قُرَى الشامِ. ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ متواصلةً يظهرُ بعضُها لبعض، أو راكبةً مَتْنَ الطريق ظاهرةً لأبناءِ السبيل. ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ بحيثُ يقيلُ الغادي في قريةٍ، ويبيتُ الرائحُ في قرية إلى أنْ يبلغَ الشامَ. ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ على إرادةِ القولِ بلسانِ الحالِ أو الميالِ. ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا﴾ متى شِئْتُم من ليلٍ أو نهار. ﴿ءَامِنِينَ﴾ لا يختلفُ الأمنُ فيها باختلافِ الأوقاتِ، أو سيروا آمنينَ وإنْ طالتْ مدةُ سفرِكم فيها، أو سيروا فيها لياليَ أعمارِكم وأيامَها لا تَلْقَوْنَ فيها إلا الأمنَ.

(١٩) ﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ أشِروا النعمةَ وملُّوا العافيةَ كبني إسرائيلَ فسألوا اللهَ أنْ يجعلَ بينَهم وبينَ الشامِ مفاوزَ ليتطاولُوا فيها على الفقراءِ بركوبِ الرواحلِ وتزوُّدِ الأزوادِ، فأجابهم الله بتخريبِ القُرى المتوسِّطَةِ. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو وهشام بَعِّدْ، ويعقوبُ رَبُّنا باعَدَ بلفظِ الخبرِ على أنه شكْوى منهم لِبُعْدِ سفرهم إفراطاً في الترفُّه وعدمِ الاعتدادِ بما أنعمَ الله عليهم فيه، ومثلُه قراءةُ مَنْ قرأ ربَّنا بَعَّدَ، أو بَعُدَ على النداءِ وإسنادِ الفعل إلى بينَ. ﴿وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ حيثُ بطِروا النعمةَ ولم يعتدُّوا بها. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ﴾ يتحدَّثُ الناسُ بهم تعجُّباً، وضَرْبَ مَثَلٍ فيقولون: تفرَّقوا أيدي سبأ. ﴿وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ ففرَّقْناهم غايةَ التفريقِ حتى لحقَ غسَّانُ منهم بالشأمِ، وأنمارُ بيثربَ، وجذامُ بتهامةَ، والأزدُ بعُمَانَ. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ. ﴿لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ عن المعاصي. ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم.

(٢٠) ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي صدقَ في ظنِّه أو صدقَ بظنِّ ظنِّه مِثْلُ فعلْته جُهْدَك، ويجوزُ أنْ يُعَدَّى الفعلُ إليه بنفسه كما في ﴿صَدَقَ وعدَه﴾. لأنه نوعٌ من القولِ، وشدَّدهُ الكوفيونَ بمعنى حقَّقَ ظنَّه أو وجدَه صادقاً. وقرىء بنصبِ إبليسَ ورفْعِ الظنِّ مع التشديدِ بمعنى وجدَ ظنَّه صادقاً، والتخفيفُ بمعنى قال له ظنُّه الصدقَ حين خيَّله إغواءَهم، وبرفْعِهما والتخفيفِ على الأبدانِ وذلك إما ظنُّه بسبأ حين رأَى انهِمَاكَهُم في الشهوات أو ببني آدمَ حين رأى أباهم النبيَّ ضعيفَ العزْمِ، أو ما ركَّبَ فيهم من الشهوةِ والغضبِ، أو سمعَ من الملائكة قولَهم ﴿قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ﴾[١] فقال: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ﴾[٢] و﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ﴾[٣]. ﴿فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إلا فريقاً هم المؤمنونَ لم

(١) البقرة: «٣٠».
(٢) النساء: «١١٩».
(٣) الحجر: «٣٩».

يتَّبعوه، وتقليلُهم بالإضافة إلى الكفارِ، أو إلا فريقاً من فِرَقِ المؤمنين لم يتبعوهُ في العِصيان وهم المخلصونَ.

وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ﴾ تسلطٌ واستيلاءٌ بالوسوسة والاستغواءِ. ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ﴾ إلا ليتعلق عِلْمُنا بذلك تعلقاً يترتبُ عليه الجزاءُ، أو ليتميَّزَ المؤمنُ من الشاكِّ، أو ليؤمنَ مَنْ قدَّرَ إيمانُه ويشكَّ من قدِّر ضلالُه، والمرادُ من حصول العلم حصولُ متعلَّقة مبالغةً وفي نظم الصِّلتَيْنِ نكتةٌ لا تَخْفى. ﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ﴾ محافظٌ والزِّنتان متآخيتانِ.

(٢٢) ﴿قُلِ﴾ للمشركين. ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتُموهم آلهةً، وهما مفعولا زعمَ حُذِفَ الأولُ لطولِ الموصولِ بصلتِه والثاني لقيام صفته مُقامَهُ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ هو مفعولَه الثاني لأنه لا يلتئِمُ مع الضمير كلاماً ولا لا يملكونَ لأنَّهم لا يزعُمونه. ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ والمعنى ادعوهم فيما يهمُّكم من جَلْبِ نفعٍ أو دَفْعِ ضُرٍّ لعلَّهم يستجيبونَ لكم إنْ صحَّ دعواكُم، ثم أجابَ عنهم إشعاراً بتعيُّنِ الجوابِ وأنه لا يقبلُ المكابرةَ فقال: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ في أمرٍ ما، وذِكْرُهُما للعموم العُرْفيِّ، أو لأنَّ آلِهتَهم بعضُها سماويةٌ كالملائكة والكواكب وبعضُها أرضيةٌ كالأصنام، أو لأنَّ الأسبابَ القريبةَ للشرِّ والخير سماويةٌ وأرضيةٌ والجملة استئنافٌ لبيانِ حالهم. ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ من شركةٍ لا خلقاً ولا مُلْكاً. ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه على تدبيرِ أمرِهما.

(٢٣) ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ فلا ينفعُهم شفاعةٌ أيضاً كما يزعمون إذ لا تنفعُ الشفاعةُ عندَ الله. ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ أَذِنْ له أنْ يشفعَ، أو أذنَ أنْ يشفعَ له لعلوِّ شأنه ولم يثبتْ ذلك، واللامُ على الأولِ كاللام في قولك: الكرمُ لزيدٍ وعلى الثاني كاللام في قولك: جئتكَ لزيدٍ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ بضمِّ الهمزةِ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ غايةٌ لمفهوم الكلام مِنْ أنَّ ثَمَّ توقفاً وانتظاراً للإِذْنِ أي يتربَّصون فَزِعينَ حتى إذا كُشِفَ الفزعُ عن قلوب الشافعينَ والمشفوعِ لهم بالإِذْنِ، وقيل الضميرُ للملائكةِ وقد تقدَّم ذِكْرُهم ضِمْناً. وقرأ ابنُ عامر ويعقوبُ فَزَّعَ على البناءِ للفاعل. وقرىء فُرِّغَ أي نُفِيَ الوجَلُ من فَرَغَ الزادُ إذا فنيَ. ﴿قَالُوا۟﴾ قال بعضُهم لبعض. ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة. ﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾ قالوا قال القولَ الحقَّ وهو الإذنُ بالشفاعةِ لمنِ ارْتَضى وهم المؤمنون، وقرىء بالرفع أي مقولُه الحقُّ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ ذو العلوِّ والكبرياءِ ليس لِمَلِكٍ ولا نبيٍّ من الأنبياء أنْ يتكلَّمَ ذلك اليومَ إلا بإذنه.

(٢٤) ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يريد به تقريرَ قوله ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ إذ لا جوابَ سواهُ، وفيه إشعارٌ بأنهم إنْ سكتُوا أو تلعثَموا في الجواب مخافةَ الإلزام فهم مُقِرُّوْنَ به

بقلوبهم. ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ أي وإنَّ أحدَ الفريقينِ من الموحِّدينَ المتوحِّدُ بالرزقِ والقدرةِ الذاتيةِ بالعبادة، والمشركينَ به الجمادَ النازلَ في أدنى المراتبِ الإمكانيةِ لَعَلى أحدِ الأمرَيْنِ من الهدى والضلالِ المبيَّنَيْنِ، وهو بعدَ ما تقدَّم من التقرير البليغِ الدال على مَنْ هو على الهدى ومَنْ هو في الضلال أبلغُ من التصريحِ لأنه في صورةِ الإنصاف المُسْكِتِ للخصْم المشاغبِ، ونظيره قولُ حسانَ:

أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بكفْءٍ ... فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكمَا الفِدَاءُ

وقيل إنه على اللَّفِّ والنَّشرِ وفيه نظرٌ واختلافُ الحرفينِ لأنَّ الهاديَ كَمَنْ صعِدَ مناراً ينظر الأشياءَ ويتطلَّعُ عليها أو ركبَ جواداً يركضُه حيثُ يشاء، والضالُّ كأنه منغمِسٌ في ظلامٍ مرتبِك لا يرى شيئاً أو محبوسٌ في مطمورةٍ لا يستطيعُ أنْ يتفصَّى منها.

قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ ۖ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٥) ﴿قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ هذا أَدْخَلُ في الإنصافِ وأبلغُ في الإخباتِ حيث أَسْنَدَ الإجرامَ إلى أنفسِهم والعملَ إلى المخاطَبِيْنَ.

(٢٦) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ﴾ يحكُم ويفصِلُ بأنْ يُدْخِلَ المحقِّيْنَ الجنةَ والمبطلينَ النارَ. ﴿وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ﴾ الحاكم الفاصِلُ في القضايا المتغلقةِ. ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بما ينبغي أنْ يُقْضَى به.

(٢٧) ﴿قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ﴾ لأَرى بأيِّ صفةٍ ألحقتموهم بِالله في استحقاقِ العبادةِ، وهو استفسارٌ عن شُبْهَتِهم بعدَ إلزام الحجَّةِ عليهم زيادةً في تبكيتِهم. ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن المشاركة بعد إبطال المقايَسَةِ. ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الموصوفُ بالغلَبَةِ وكمالِ القدرةِ والحكمةِ، وهؤلاءِ الملْحَقُونَ به متَّسِمُونَ بالذلَّةِ متأبيةٌ عن قبولِ العلم والقدرةِ رأساً، والضميرُ لله أو للشأنِ.

(٢٨) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ﴾ إلا إرسالةً عامةً لهم من الكفِّ فإنَّها إذا عمَّتهم قد كَفَّتْهُم أنْ يخرجَ منها أحدٌ منهم، أو إلا جامعاً لهم في الإبلاغ فهي حال منَ الكافِ والتاءُ للمبالغةِ، ولا يجوزُ جَعْلُها حالاً من الناس على المختارِ. ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيحملُهم جهلُهم على مخالفتِكَ.

(٢٩) ﴿وَيَقُولُونَ﴾ من فَرْطِ جَهْلِهم. ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ يعنونَ المبشَّر به والمنذَرَ عنه أو الموعودَ بقوله تعالى: ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾[1] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يخاطِبُونَ به رسولَ الله ﷺ والمؤمنينَ.

---

(١) سبأ: «٢٦».

قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ
ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟
لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ
ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟
ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَـٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾

(٣٠) ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ وغدُ يوم أو زمانُ وعدٍ، وإضافتُه إلى اليوم للتبيينِ ويؤيدُه أنه قرىء يومَ على البدلِ، وقرىء يومَ بإضمار أعني. ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ إذا فاجَأكم وهو جوابُ تهديدٍ جاء مطابِقاً لما قصدُوه بسؤالِهم منَ التعنُّتِ والإنكارِ.

(٣١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ ولا بما تقدَّمه من الكتُبِ الدالَّةِ على النعتِ. قيل إنَّ كفَّارَ مكَّةَ سألوا أهلَ الكتابِ عن الرسولِ ﷺ فأخبروهم أنَّهم يجدُون نَعْتَهُ في كُتُبهم فغضِبُوا وقالوا ذلك، وقيل الذي بينَ يديه يومَ القيامة. ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّـٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في موضعِ المحاسَبَةِ. ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يتحاورونَ ويتراجعونَ القولَ. ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ يقولُ الأتباعُ. ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ للرؤساءِ. ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ لولا إضلالُكم وصدُّكم إيَّانا عن الإيمان. ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ باتباعِ الرسولِ ﷺ.

(٣٢) ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَـٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ۖ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ﴾ أنكروا أنهم كانوا صادِّينَ لهم عن الإيمانِ وأثبتُوا أنهم هم الذينَ صدُّوا أنفسَهم حيثُ أعرضُوا عن الهدى وآثروا التقليدَ عليه، ولذلك بنوا الإنكارَ على الاسمِ.

(٣٣) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ إضرابٌ عن إضرابِهم أي: لم يكنْ إجرامُنا الصادَّ بل مكرُكم لنا دائباً ليلاً ونهاراً حتى أغْورْتُم علينا رأيَنا. ﴿إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ والعاطفُ يعطفُه على كلامِهم الأولِ، وإضافةُ المكرِ إلى الظرفِ على الاتساعِ. وقرىء مكرَ الليلِ بالنصبِ على المصدر، ومكرٌ الليلَ بالتنوينِ ونَصْبِ الظرفِ، ومَكَرُّ الليلِ من الكُرورِ. ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ وأضمرَ الفريقانِ الندامةَ على الضلالِ والإضلال وأخفاها كلٌّ عن صاحبه مخافةَ التعيير، أو أظهرُوها فإنه منَ الأضدادِ إذِ الهمزةُ تصلحُ للإثبات والسلبِ كما في أشكَيْتُهُ. ﴿وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَـٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي في أعناقِهم فجاءَ بالظاهرِ تنويهاً بذمِّهم وإشعاراً بموجِبِ أغلالِهم. ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يفعلُ بهم ما يفعلُ إلا جزاءً على أعمالهم، وتعديةُ يجزى إما لتضمينِ معنى يقضي أو بنزعِ الخافِضِ.

(٣٤) ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ تسليةٌ لرسولِ الله ﷺ مما مُنِيَ به من قومه،

وتخصيصُ المتنعِّمِينَ بالتكذيبِ لأنَّ الداعيَ المعظَّمَ إليه التكبرُ والمفاخرةُ بزخارفِ الدنيا والانهماكُ في الشهواتِ والاستهانةُ بِمَنْ لم يحظَ منها، ولذلك ضمُّوا التهكُّمَ والمفاخرةَ إلى التكذيب فقالوا: ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ على مقابلةِ الجمعِ بالجمعِ.

وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا﴾ فنحنُ أولَى بما تدعونه إنْ أمكنَ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ إما لأنَّ العذابَ لا يكون، أو لأنه أكرمَنا بذلك فلا يهينُنا بالعذاب.

(٣٦) ﴿قُلْ﴾ رداً لِحُسْبانهم. ﴿إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ ولذلك يختلفُ فيه الأشخاصُ المتماثلةُ في الخصائصِ والصفاتِ، ولو كان ذلك لكرامةٍ وهوانٍ يوجبانِه لم يكنْ بمشيئتِه. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيظنُّونَ أنَّ كثْرَةَ الأموالِ والأولادِ للشرفِ والكرامةِ وكثيراً ما يكونُ للاستدراجِ كما قال:

(٣٧) ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ قربةً والتي إما لأنَّ المرادَ وما جماعةُ أموالكم وأولادِكم، أو لأنَّها صفةُ محذوفٍ كالتقوى والخصْلَةِ. وقرىء بالذي أي بالشيء الذي يقرِّبكم. ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ استثناءٌ من مفعولِ تقرِّبُكم، أي الأموالُ والأولادُ لا تقرِّبُ أحداً إلا المؤمنَ الصالحَ الذي ينفقُ مالَهُ في سبيلِ الله ويعلِّمُ ولدَه الخيرَ ويربِّيه على الصَّلاح، أو مِنْ أموالِكم وأولادِكم على حذْفِ المضافِ. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أنْ يُجَازَوْا الضِّعْفَ إلى عشرٍ فما فوقَه، والإضافةُ إضافةُ المصدرِ إلى المفعولِ. وقُرِىءَ بالإعمالِ على الأصْلِ، وعن يعقوبَ رفعُهما على إبدالِ الضعفِ ونَصْبِ الجزاءِ على التمييزِ أو المصدرِ لفعلِه الذي دلَّ عليه لهم. ﴿بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾ من المكارهِ. وقرىء بفتحِ الراءِ وسكونِها، وقرأ حمزةُ في الغرفةِ على إرادة الجنسِ.

(٣٨) ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالرد والطعنِ فيها. ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ مسابقينَ لأنبيائِنا أو ظانِّينَ أنهم يفوتُونَنا. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾.

(٣٩) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ يوسِّع عليه تارةً ويضيِّقُ عليه أُخرَى، فهذا في شخص واحدٍ باعتبار وقتينِ وما سبقَ في شخصينِ فلا تكريرَ. ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ عِوضاً إما عاجِلاً أو آجِلاً. ﴿وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فإنَّ غيرَهُ وَسَطٌ في إيصالِ رِزْقه لا حقيقةَ لرازقيَّتِه.

(٤٠) ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا﴾ المستكبرينَ والمستَضْعَفِينَ. ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ تقريعاً للمشركينَ وتبكيتاً لهم وإقناطاً لهم عما يتوقَّعون من شفاعَتِهم، وتخصيصُ الملائكة لأنهم أشرفُ شركائِهم والصالحونَ للخطابِ منهم، ولأنَّ عبادَتَهُم مبدأُ الشركِ وأصْلُه. وقرأ حفصٌ ويعقوبُ بالياءِ فيهما.

قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ
لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ
قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًىۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ
لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن
نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ۞ قُلْ إِنَّمَآ
أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ
يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾

(٤١) ﴿قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمۖ﴾ أنتَ الذي نواليه من دونهم لا موالاةَ بينَنا وبينَهم، كأنهم بيَّنوا بذلك براءَتَهم مِن الرِّضَا بعبادتِهم ثم أَضْرَبُوا عن ذلك ونَفَوْا أنهم عَبَدُوْهُم على الحقيقة بقولهم: ﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي الشياطينَ حيثُ أطاعوهم في عبادةِ غير الله. وقيل كانوا يتمثَّلُونَ لهم ويخيِّلُون إليهم أنهم الملائكةُ فيعبدُونهم. ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ الضميرُ الأول للإنسِ أو للمشركينَ، والأكثرُ بمعنى الكلِّ والثاني للجنِّ.

(٤٢) ﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ إذِ الأمرُ فيه كلُّه له لأنَّ الدارَ دارُ جزاءٍ وهو المجازي وحْدَه. ﴿وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ عطفٌ على لا يملكُ مبيِّنٌ للمقصودِ من تمهيدِه.

(٤٣) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فيستتْبِعُكم بما يستبدعُه. ﴿وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ﴾ يعنونَ القرآنَ. ﴿إِلَّآ إِفْكٌ﴾ لعدم مطابقةِ ما فيه الواقعَ. ﴿مُّفْتَرًىۚ﴾ بإضافتِه إلى الله سبحانه وتعالى. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ لأمرِ النبوة أو للإسلام أو للقرآنِ، والأول باعتبارِ معناهُ وهذا باعتبارِ لفظِه وإعجازِه. ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ سحريَّتُهُ، وفي تكرير الفعلِ والتصريح بذكْرِ الكفرةِ وما في اللاَّمَيْنِ من الإشارةِ إلى القائلين والمقولِ فيه، وما في لما مِنَ المبادَهَةِ إلى البتِّ بهذا القولِ إنكارٌ عظيم له وتعجيبٌ بليغٌ منه.

(٤٤) ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَاۖ﴾ فيها دليلٌ على صِحَّة الإشراكِ. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إليه وينذرُهم على ترْكِه، وقد بانَ من قبلُ أنْ لا وجْهَ له فَمِنْ أينَ وقعَ لهم هذه الشبهةُ، وهذا في غاية التجهيلِ لهم والتسفيه لرأيهم ثمَّ هدَّدَهُم فقال:

(٤٥) ﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ كما كذَّبوا. ﴿وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ وما بلغَ هؤلاء عُشْرَ ما آتينا أولئكَ من القوةِ وطولِ العمُرِ وكثرةِ المال، أو ما بلغَ أولئك عُشْرَ ما آتينا هؤلاءِ من البيِّناتِ والهدى. ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فحينَ كذَّبوا رُسُلي جاءهم إنكاري بالتدمير فكيفَ كان نكيري لهم فلْيحذرْ هؤلاءِ من مِثْلِه، ولا تكريرَ في كذَّبَ لأن الأولَ للتكثير والثاني للتكذيبِ، أوِ الأولُ مطلقٌ والثاني مقيَّدٌ ولذلك عُطِفَ عليه بالفاءِ.

(٤٦) ﴿۞ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍۖ﴾ أرشِدُكم وأنصحُ لكم بخصلةٍ واحدةٍ هي ما دلَّ عليه: ﴿أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ﴾ وهو القيامُ من مجلسِ رسولِ الله ﷺ، أو الانتصابُ في الأمر خالصاً لوجْهِ الله معرِضاً عن

المراء والتقليدِ. ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾ متفرِّقينَ اثنينِ اثنينِ وواحداً واحداً، فإنَّ الازدحامَ يشوشُ الخاطِرَ ويخلُطُ القولَ. ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في أمرِ محمدٍ ﷺ وما جاء به لتعلموا حقيقتَهُ، ومحلُّه الجرُّ على البدلِ أو البيانِ أو الرفعُ أو النصبُ بإضمارِ هو أعني. ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ فتعلَمُوا ما به من جنونٍ يحمِلُه على ذلك، أو استئنافٌ مُنَبِّهٌ لهم على أنَّ ما عرفوا من رجاحةِ عقلِه كافٍ في ترجيح صدقه، فإنه لا يدعُه أنْ يتصدَّى لادعاءِ أمرٍ خطيرٍ وخطْبٍ عظيم من غيرِ تحقُّقٍ ووثوقٍ ببرهانٍ، فيفتضحُ على رؤوسِ الأشهادِ ويلقي نفسَه إلى الهلاكِ، فكيفَ وقد انضمَّ إليه معجزاتٌ كثيرة. وقيل: ما استفهاميةٌ والمعنى: ثم تتفكروا أيُّ شيء به من آثارِ الجنون: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قُدَّامَهُ لأنه مبعوثٌ في نسيم الساعة.

قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾

(٤٧) ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ أيُّ شيءٍ سألتكم من أجرٍ على الرسالةِ. ﴿فَهُوَ لَكُمْ﴾ والمراد نفيُ السؤال عنه، كأنْ جعلَ التنبيَ مستلزماً لأحدِ الأمرينِ إما الجنونُ وإما توقُّعُ نفعٍ دنيوي عليه، لأنه إما أنْ يكونَ لغرضٍ أو لغيرهِ وأياً ما كان يلزم أحدَهما ثمَّ نَفَى كلاً منهما. وقيلَ ما موصولةٌ مرادٌ بها ما سألهم بقوله ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾[١] وقوله ﴿لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾[٢] واتخاذُ السبيلِ ينفعُهم وقُرْبَاهُ قُرْبَاهُم. ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ مطَّلِعٌ يعلمُ صدقي وخلوصَ نيتي، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر وحمزةُ والكسائيُّ بإسكان الياء.

(٤٨) ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ﴾ يلْقيه وينزلُه على مَنْ يجتبيه من عبادِه، أو يرمي به الباطلَ فيدمغُه أو يرمي به إلى أقطارِ الآفاقِ، فيكونُ وعْداً بإظهار الإسلام وإفشائِه. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو بفتح الياءِ. ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ صفةٌ محمولةٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو بدلٌ من المستكِنِّ في يقذفُ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ. وقرىء بالنصبِ صفةً لربي أو مقدراً بأعني. وقرأ حمزةُ وأبو بكر الغِيوبَ بالكسرِ كالبِيوتِ، وبالضمِّ كالعُشورِ[٣]، وقرىء بالفتحِ كالصَّبورِ على أنه مبالغةٌ غائبٌ.

(٤٩) ﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ أي الإسلامُ. ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ وزهقَ الباطلُ أي الشركُ بحيثُ لم يبقَ له أثرٌ مأخوذ من هلاكِ الحيِّ، فإنه إذا هَلَكَ لم يبقَ له إبداءٌ ولا إعادةٌ قال:

أَقْفَرَ مِنْ أَهْلِهِ عبيد فَالْيَوْمَ لاَ يُبْدِي وَلاَ يُعِيد[٤]

وقيل الباطلُ إبليسُ أو الصنمُ، والمعنى لا ينشىءُ خلْقاً ولا يعيدُه، أو لا يبدىءُ خيراً لأهله

(١) الفرقان: «٥٧».
(٢) الشورى: «٢٣».
(٣) قرأ ابن ذكوان وأبو بكر وحمزة والكسائي (الغِيوب) بكسر الغين، وقرأ الباقون بالضم (الغُيوب).
(٤) من مخلع البسيط.

ولا يعيدُه. وقيل ما استفهاميةٌ منتصِبَةٌ بما بعدَها.

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ۝٥٠ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣﴾

(٥٠) ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ﴾ عن الحقِّ. ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى﴾ فإنَّ وبالَ ضلالي عليها، لأنه بسببها إذ هي الجاهلةُ بالذاتِ والأمَّارةُ بالسوء، وبهذا الاعتبارِ قابلَ الشرطيةَ بقوله: ﴿وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ﴾ فإنَّ الاهتداءَ بهدايته وتوفيقه. ﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ يدركُ قولَ كلِّ ضالٍّ ومهتدٍ وفعلَه وإنْ أخفاهُ.

(٥١) ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟﴾ عند الموت أو البعثِ أو يومَ بدْرٍ، وجوابُ لو محذوفٌ تقديره لرأيتَ أمراً فظيعاً. ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ فلا يفوتون اللهَ بهربٍ أو تحصُّنٍ. ﴿وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من ظهْرِ الأرض إلى باطِنها، أو مِنَ الموقفِ إلى النارِ أو من صحراء بدْرٍ إلى القليبِ، والعطفُ على فزعوا، أو لا فوتَ، ويؤيدُه أنه قرىء وأُخِذَ عطفاً على محلِّه أي: فلا فوتَ هناك وهناك أُخِذَ.

(٥٢) ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ بمحمد عليه الصلاة والسلام، وقد مرَّ ذِكْرُه في قوله ﴿مَا بِصَاحِبِكُم﴾[١]. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ ومن أينَ لهم أنْ يتناولوا الإيمانَ تناولاً سهلاً. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ فإنه في حيِّزِ التكليف وقد بَعُدَ عنهم، وهو تمثيلٌ لحالهم في الاستخلاصِ بالإيمانِ بعدَما فاتَ عنهم أوانُه وبَعُدَ عنهم بحالِ مَنْ يريد أنْ يتناولَ الشيءَ من غلْوةٍ تناولَه من ذراعٍ في الاستحالة. وقرأ أبو عمرو والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالهمزِ على قلبِ الواوِ لضمَّتِها.

أو أنه من نأشْتُ الشيءَ إذا طلبتُه قال رؤبةُ:

أَقْحَمَنــي جَــارُ أَبــي الجَــامُــوش إلَيْـــكَ نَـــأْشَ القَـــدَرِ التَّـــؤوشَ

أو من نأشْتُ إذا تأخرتُ ومنه قولُه:

تَمَنَّــى نَئِيْشــاً أَنْ يَكُــونَ أَطَــاعَنــي وقَــدْ حَــدَثَــتْ بَعْــدَ الأمُــورِ أُمُــورُ[٢]

فيكون بمعنى التناوُلِ من بُعْدٍ.

(٥٣) ﴿وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام أو بالعذاب. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ذلك أوانَ التكليف. ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ ويرجمونَ بالظنِّ ويتكلَّمون بما لم يُظْهِرْ لهم الرسولُ عليه الصلاة والسلام من المطاعِنِ؛ أو في العذاب من البتِّ على نفيه. ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ من جانبٍ بعيد من أمرِهِ، وهو الشُّبه التي تمحَّلُوها في أمر الرسولِ ﷺ، أو حالَ الآخرة كما حكاهُ من قبلُ. ولعلَّه تمثيلٌ لحالهم في ذلك بحالِ مَنْ يرمي شيئاً لا يراهُ مِنْ مكانٍ بعيد لا مجالَ للظنِّ في لحوقِهِ. وقُرِىءَ ويُقْذَفُونَ على

(١) سبأ: «٤٦».
(٢) من الطويل.

أنَّ الشيطانَ يلقي إليهم ويلقِّنهم ذلك، والعطفُ على وقد كفروا على حكايةِ الحال الماضيةِ أو على قالوا فيكونُ تمثيلاً لحالهم بحالِ القاذِفِ في تحصيلِ ما ضيَّعوه من الإيمان في الدنيا.

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ۝٥٤﴾

(٥٤) ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من نفعِ الإيمان والنجاةِ به من النار. وقرأ ابنُ عمرَ والكسائيُّ بإشمام الضمِّ للحاءِ. ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ بأشباهِهم من كَفَرَةِ الأمم الدارِجةِ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقِعٍ في الريبةِ، أو ذي ريبةٍ منقولٍ منَ المشكِّكِ، أوِ الشكُّ نُعِتُ به الشكُّ للمبالغةِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ سبأ لم يبقَ رسولٌ ولا نبي إلا كان له يومَ القيامة رفيقاً ومصافحاً»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٣٨ رقم ٢٥٤) ـ وهو حديث موضوع.
وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة فاطر

ترتيبها ٣٥ — آياتها ٤٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾

سورة الملائكة مكية[1]، وآيها خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مبدعُهما من الفَطْر بمعنى الشقِّ كأنه شقَّ العدمَ بإخراجهما منه، والإضافةُ محضةٌ لأنه بمعنَى الماضي. ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ وسائطَ بينَ الله وبينَ أنبيائه والصالحِينَ من عباده، يبلِّغونَ إليهم رسالاتِه بالوحيِ والإلهامِ والرؤيا الصادقةِ، أو بَيْنَهُ وبينَ خلْقه يوصِلُون إليهم آثارَ صُنْعِه. ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ ذوي أجنحةٍ متعددةٍ متفاوتةٍ بتفاوتِ ما لهم من المراتبِ ينزلونَ بها ويعرجونَ، أو يسرعونَ بها نحوَ ما وكَّلَهم اللهُ عليه فيتصرَّفُون فيه على أمرِهم به، ولعلَّه لم يُرِدْ به خصوصيةَ الإعدادِ ونفيَ ما زال عليها، لما روي أنه عليه الصلاةُ والسلام رأى جبريلَ ليلةَ المعراج وله سِتُّمائةِ جَناحٍ[2] ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ استئنافٌ للدلالة على أنَّ تفاوتَهم في ذلك

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٣).

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٣١٣ رقم ٣٢٣٢) و(٨/ ٦١٠ رقم ٤٨٥٧) ومسلم (١/ ١٥٨ رقم ٢٨٠ ـ ٢٨٢) من حديث ابن مسعود، لكنه ليس فيه «ليلة المعراج».

ولفظ ابن حبان في صحيحه (٨/ ١١٤ ـ الإحسان): «رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح ينشر في ريشه الدر والياقوت».

بمقتضى مشيئتِه ومؤدَّى حكمتِه لا أمرٌ تستدعيه ذواتُهم، لأنَّ اختلافَ الأصنافِ، والأنواعِ بالخواصِ والفصولِ إنْ كان لذواتهم المشتركةِ لزمَ تنافي لوازمِ الأمورِ المتفقةِ وهو محالٌ، والآيةُ متناولةٌ زياداتِ الصورِ والمعاني كملاحةِ الوجْهِ وحُسْنِ الصوت وحصافةِ العقلِ وسماحةِ النفس. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وتخصيصُ بعضِ الأشياء بالتحصيلِ دون بعضٍ، إنما هو من جهةِ الإرادة.

(٢) ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ ما يُطْلِقُ لهم ويرسلُ وهو من تجوُّزِ السببِ للمسبِّب. ﴿مِن رَّحْمَةٍ﴾ كنعمةٍ وأَمْنٍ وصحَّةٍ وعلم ونبوَّةٍ[١]. ﴿فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ يحبسُها. ﴿وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ﴾ يُطْلِقُهُ، واختلاف الضميريْنِ لأنَّ الموصولَ الأولَ مفسَّر بالرحمةِ والثاني مطلَقٌ بتناولها والغضب، وفي ذلك إشعارٌ بأنَّ رحمتَه سبقتْ غَضَبَهُ. ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ من بعدِ إمساكِه. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ على ما يشاء ليس لأحدٍ أنْ ينازِعَه فيه. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ لا يفعلُ إلا بعلمٍ وإتقانٍ. ثم لما بيَّنَ أنه الموجِدُ للملْكِ والملكوتِ والمتصرِّفُ فيهما على الإطلاق أمرَ الناسَ بشكرِ إنعامه فقال:

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾

(٣) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ احفظُوها بمعرفةِ حقِّها والاعترافِ بها وطاعةِ مُوْلِيْهَا، ثم أنكرَ أنْ يكونَ لغيره في ذلك مدخلٌ فيستحقُّ أنْ يشركَ به بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فمن أي وجْه تُصْرَفون عن التوحيدِ إلى إشراك غيره به، ورَفَعَ «غيرَ» للحمْل على محلٍ من خالقٍ بأنه وصفٌ أو بدلٌ، فإنَّ الاستفهام بمعنى النفي، أو لأنه فاعلُ خالقٍ، وجرَّه حمزةُ والكسائيُّ حملاً على لفظِه، وقد نُصِبَ على الاستثناء، ويرزقكم صفةٌ لخالقٍ أو استئنافٌ مفسِّرٌ له أو كلامٌ مبتدأٌ، وعلى الأخير يكون إطلاقُ هل من خالقٍ مانعاً من إطلاقِه على غيرِ الله.

(٤) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ﴾ أي فتأسَّ بهم في الصبر على تكذيبهم، فَوَضَعَ فقد كُذِّبَتْ موضِعَه استغناءً بالسببِ عن المسبِّب، وتنكيرُ رسلٍ للتعظيمِ المقتضي زيادةَ التسليةِ والحثُّ على المصابرةِ. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ فيجازيك وإيَّاهم على الصبر والتكذيبِ.

(٥) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالحشرِ والجزاء. ﴿حَقٌّ﴾ لا خُلْفَ فيه. ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ فيذهِلُكُم التمتعُ بها عن طلب الآخرةِ والسعي لها. ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ الشيطانُ بأنْ يمنِّيَكُم المغفرةَ مع الإصرارِ على المعصية، فإنها وإنْ أمكنتْ لكنَّ الذَّنْبَ بهذا التوقُّعِ كتناولِ السُّمِّ اعتماداً على دفعِ الطبيعة. وقرىء بالضمِّ وهو مصدرٌ أو جمعٌ كقُعودٍ[٢].

---

(١) عبر عن إرسالها بالفتح إيذاناً بأنها أنفس الخزائن التي يتنافس فيها المتنافسون وأعزها منالاً. وتنكير (رحمة) للإشاعة والإبهام (س٧/ ١٤٢).

(٢) وتكرير فعل النهي «لا تغرنكم، لا يغرنكم» للمبالغة فيه، ولاختلاف الغرورين في الكيفية (س٧/ ١٤٣).

إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ
ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَٱللَّهُ
ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾

(٦) ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ عداوةٌ عامة قديمةٌ. ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ في عقائدكم وأفعالِكم وكونوا على حَذَرٍ منه في مجامعِ أحوالكم. ﴿إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ تقريرٌ لِعَداوتِهِ وبيانٌ لِغَرَضِهِ في دعوةِ شيعتِهِ إلى اتباعِ الهوى والركونِ إلى الدنيا.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعيدٌ لمن أجاب دعاءَه ووعْدٌ لمن خالفَه وقطعٌ للأماني الفارغةِ، وبناءٌ للأمرِ كلِّه على الإيمان والعملِ الصالحِ وقولُه.

(٨) ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ﴾ تقريرٌ له أي أفمنْ زُيِّنَ له سوءُ عمله بأنْ غلَبَ وهْمُهُ وهواهُ على عقلِه حتى انتكسَ رأيُه فرأى الباطلَ حقاً والقبيحَ حَسَناً، كَمَنْ لم يُزَيَّنْ له بل وُفِّقَ حتى عرفَ الحقَّ واستحسنَ الأعمالَ واستقبحَها على ما هي عليه، فحذفَ الجوابَ لدلالةِ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ﴾ وقيل تقديرُه أفمن زُيِّنَ له سوءُ عمله ذهبتْ نفسُك عليهم حسرةً، فحذفَ الجوابَ لدلالة: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ﴾ عليه ومعناهُ فلا تُهلِكْ نفسَك عليهم للحسراتِ على غِيِّهم وإصرارِهم على التكذيبِ، والفاآتُ الثلاثُ للسببيةِ غيرَ أنَّ الأُوْلَيَيْنِ دَخلَتا على السببِ والثالثةَ دخلتْ على المسبَّبِ، وجَمَعَ الحسراتِ للدلالة على تضاعُفِ اغتمامِه على أحوالهم أو كثرةِ مساوي أفعالهم المقتضية للتأسُّفِ، وعليهم ليسَ صلةً لها لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمُه بل صِلةُ تذهبُ أو بيانٌ للمتحسَّرِ عليه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيجازيهم عليه.

(٩) ﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ﴾ وقرأ ابنُ كثير وحمزةُ والكسائي الريحَ. ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ عل حكاية الحالِ الماضية استحضاراً لتلك الصورةِ البديعةِ الدالَّةِ على كمال الحِكْمَةِ، ولأن المرادَ بيانُ أحداثِها بهذه الخاصِّيَّةِ ولذلك أسندَه إليها، ويجوزُ أنْ يكونَ اختلافُ الأفعال للدلالةِ على استمرارِ الأمر. ﴿فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ وقرأ نافع وحمزةُ والكسائيُ وحفصٌ بالتشديدِ. ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ بالمطرِ النازلِ منه وذِكْرُ السحابِ كذِكْرِهِ، أو بالسحابِ فإنه سببُ السَّببِ أو الصائرُ مطراً. ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ بعدَ يُبْسِها، والعدولِ فيهما من الغيبة إلى ما هو أدخلُ في الاختصاصِ لما فيهما من مزيدِ الصُّنع. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ﴾ أي مثلُ إحياءِ المواتِ نشورُ الأمواتِ في صحَّة المقدوريةِ، إذ ليس بينهما إلا احتمالُ اختلافِ المادة في المقيسِ عليه وذلك لا مدخلَ له فيها. وقيل في كيفية الإحياءِ فإنه تعالى يرسلُ ماءً من تحتِ العرشِ تنبُتُ منه أجسادُ الخلْقِ.

مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ﴾ الشرفَ والْمَنَعَةَ. ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًاۚ﴾ أي فلْيطْلُبْهَا من عنده فإنَّ له كلَّها، فاستغْنَى بالدليل عن المدلولِ. ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥۚ﴾ بيانٌ لما يُطْلَبُ به العزةُ وهو التوحيدُ والعملُ الصالح، وصعودُهما إليه مجازٌ عن قبوله إيَّاهُما، أو صعودُ الْكَتَبَةِ بصحيفتِهما. والمستَكِنُّ في يرفعُهُ للكَلِمِ فإنَّ العملَ لا يُقْبَلُ إلا بالتوحيدِ ويؤيدُه أنه نصبَ العملَ، أو للعملِ فإنه يحققُ الإيمانَ ويقوِّيه، أو لله وتخصيصُ العملِ بهذا الشرفِ لما فيه من الكُلْفَةِ. وقرىء يُصْعَدُ على البناءِ والمُصْعِدُ هو الله تعالى أو المتكلِّم به أو المَلَكُ. وقيل الكلِمُ الطيبُ يتناولُ الذِّكْرَ والدعاءَ وقراءةَ القرآن. وعنه عليه الصلاة والسلام «هو سبحانَ اللهِ والحمدُ لله ولا إلهَ إلا اللهُ والله أكبر، فإذا قالها العبدُ عَرَجَ بها الملكُ إلى السماءِ فحيَّا بها وجْهَ الرحمن، فإذا لم يكنْ عملٌ صالح لم تُقْبَلْ»[(1)].
﴿وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ المكَرَاتُ السيئاتُ يعني مكراتِ قريشٍ للنبي عليه الصلاة والسلام في دارِ الندوةِ وتداورُهم الرأيَ في إحدى ثلاثِ حَبْسِه وقتلِه وإجلائِه. ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۖ﴾ لا يُؤْبَهُ دونه بما يمكرونَ به. ﴿وَمَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ يفسدُ ولا ينفذُ لأنَّ الأمورَ مقدَّرةٌ لا تتغيَّرُ به كما دلَّ عليه بقوله:

(١١) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ بخلْقِ آدمَ عليه السلام منه. ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ بخلْق ذرِّيته منها. ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًاۚ﴾ ذُكْرَاناً وإناثاً. ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦۚ﴾ إلاَّ معلومةً له. ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ وما يُمَدُّ في عُمُرِ مَنْ مصيره إلى الكِبَرِ. ﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ من عُمُرِ المعمَّرِ لغيرِه بأنْ يُعْطَى له عُمْرٌ ناقصٌ من عُمُرِه، أو لا يَنْقُصُ من عُمُرِ المنقوصِ عُمُرُهُ بجعْلِه ناقصاً، والضميرُ له وإنْ لم يُذَكَّرْ لدلالةِ مقابِلِه عليه أو للعُمُرِ على التسامح فيه ثقةً بفهْمِ السامع كقولهم: لا يثيبُ اللهُ عبداً ولا يعاقِبُهُ إلا بحقٍّ. وقيلَ الزيادةُ والنقصانُ في عُمْرٍ واحد باعتبارِ أسبابٍ مختلِفةٍ أُثْبِتَتْ في اللوح مِثْلُ: أنْ يكون فيه إنْ حجَّ عمرٌو فعُمْرهُ ستونَ سنةً وإلا فأربعونَ. وقيل المراد بالنقصانِ ما يمرُّ من عُمُرِهِ وينقضي فإنه يُكْتَبُ في صحيفةِ عُمُرِهِ يوماً فيوماً، وعن يعقوبَ ولا يَنْقُصُ على البناءِ للفاعلِ. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍۚ﴾ هو عِلْمُ الله تعالى أوِ اللوحُ المحفوظ أوِ الصحيفةُ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ إشارةٌ إلى الحفظِ أو الزيادةِ أو النقصِ.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٨ رقم ٢٦٠): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه من رواية علي بن عاصم عن سهيل عن أبيه عن أبي هريرة مرفوعاً.
ورواه الحاكم ـ (٢/ ٤٢٥) ـ والبيهقي في الأسماء، والطبري ـ في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٢٠) ـ مرفوعاً عن ابن مسعود رضي الله عنه» هـ.

وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾
يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا
يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾
۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ ضُرِبَ مثلٌ للمؤمنِ والكافرِ، والفراتُ الذي يكسِرُ العطشَ والسائغُ الذي يسهُلُ انحدارُه، والأجاجُ الذي يحرقُ بملوحَتِهِ. وقرىء سَيِّغٌ بالتشديدِ، وسَيْغٌ بالتخفيف، ومَلِحٌ على فَعِلٍ. ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ استطرادٌ في صفةِ البحرينِ وما فيهما من النِّعمِ، أو تمامُ التمثيلِ والمعنى: كما أنَّهما وإنِ اشتركا في بعضِ الفوائد لا يتساويانِ من حيثُ إنهما لا يتساويانِ فيما هو المقصودُ بالذاتِ من الماءِ، فإنه خالطَ أحدُهما ما أفسدَه وغيّره عن كمالِ فطرته، لا يتساوى المؤمنُ والكافرُ وإنِ اتفقَ اشتراكُهما في بعض الصفاتِ كالشجاعةِ والسخاوةِ لاختلافِهما فيما هو الخاصيةُ العظمَى وهي بقاءُ أحدِهما على الفطرةِ الأصليةِ دونَ الآخرِ، أو تفضيلٌ للأجاج على الكافرِ بما يشاركُ فيه العذْبَ من المنافعِ. والمرادُ بالحليةِ اللآلىءُ واليواقيتُ. ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ﴾ في كلٍّ. ﴿مَوَاخِرَ﴾ تشقُّ الماءَ بِجَرْيِهَا. ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ من فضلِ اللهِ بالنقلةِ فيها، واللامُ متعلِّقةٌ بمواخِرَ، ويجوزُ أنْ تتعلَّقَ بما دلَّ عليه الأفعالُ المذكورةُ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ذلك، وحرفُ الترجي باعتبارِ ما يقتضيه ظاهِرُ الحالِ.

(١٣) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هي مدةُ دورِهِ أو منتهاهُ أو يومَ القيامة. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ الإشارةُ إلى الفاعلِ لهذه الأشياءِ. وفيها إشعارٌ بأنَّ فاعليَّتَهُ لها موجِبةٌ لثبوتِ الأخبارِ المترادفةِ، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ له الملكُ كلاماً مبتدأً في قرآنٍ. ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ للدلالةِ على تفرُّده بالألوهيةِ والربوبيةِ، والقِطْميرُ لفافةُ النَواةِ.

(١٤) ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنهم جمادٌ ﴿وَلَوْ سَمِعُوا۟﴾ على سبيل الفرضِ. ﴿مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ لعدمِ قُدْرَتِهم على الإنفاع، أو لتبرُّئِهم منكم مما تدعون لهم. ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ بإشراككم لهم يقرّونَ ببُطْلانه أو يقولون ما كنتم إيانا تعبدون. ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ ولا يخبرُك بالأمرِ مخبرٌ مثلُ خبيرٍ به أخْبَرَك وهو اللهُ سبحانه وتعالى، فإنه الخبيرُ به على الحقيقةِ دون سائرِ المخبرينَ. والمراد تحقيقُ ما أَخْبَرَ به من حالِ آلهتهم ونفي ما يدَّعونَ لهم.

(١٥) ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ في أنفسِكم وما يعنُّ لكم، وتعريفُ الفقراءِ للمبالغةِ في فقْرِهم كأنهم لشدَّةِ افتقارِهم وكثرةِ احتياجهم هم الفقراءُ، وأنَّ افتقارَ سائرِ الخلائقِ بالإضافة إلى فقرِهم

غيرُ معتدٍّ به ولذلك قال ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾[1]. ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ المستغني على الإطلاقِ المنعِم على سائرِ الموجوداتِ حتى استحقَّ عليهم الحمدَ.

إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٢٢﴾

(١٦) ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقومٍ آخرينَ أطوعَ منكم، أو بعالَمٍ آخرَ غيرَ ما تعرفونه.

(١٧) ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ بمتعذِّرٍ أو متعسِّر.

(١٨) ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ ولا تحملُ نفسٌ آثمةٌ إثْمَ نفسٍ أخرى، وأما قوله ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾[2] ففي الضالِّين المضلِّينَ فإنَّهم يحملونَ أثقالَ إضلالِهم مع أثقالِ ضلالِهم، وكلُّ ذلك أوزارُهم ليس فيها شيءٌ من أوزارِ غيرِهم. ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفسٌ أثقلَها الأوزارُ. ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ تحملُ بعضَ أوزارِها. ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لم تُجِبْ لحملِ شيءٍ منه نَفَى أنْ يُحْمَلَ عنها ذنبُهَا كما نَفَى أنْ يُحْمَلَ عليها ذنبُ غيرِها. ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ ولو كان المدعُو ذا قرابتِها، فأضمرَ المدعوَّ لدلالة إنْ تدعُ عليه. وقرىء ذو قربى على حذفِ الخبرِ وهو أَوْلَى من جعْلِ كانَ التامةِ فإنها لا تلائِمُ نَظْمَ الكلام. ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ غائبينَ عن عذابِه، أو عن الناس في خَلَواتِهم، أو غائباً عنهم عذابُه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ فإنهم المنتفِعُونَ بالإنذارِ لا غيرَ، واختلافُ الفعلينِ لما مرَّ من الاستمرارِ. ﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ ومن تطهَّر من دَنَسِ المعاصي. ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعُه لها، وقُرِىءَ ومن ازكَى فإنما يَزّكى وهو اعتراضٌ مؤكِّدٌ لخشيتِهم وإقامتِهم الصلاةَ لأنَّهما من جملةِ التزكي. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازِيهم على تزكِّيهم.

(١٩) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الكافرُ والمؤمنُ، وقيل هما مَثَلانِ للصنمِ ولله عزَّ وجلَّ.

(٢٠) ﴿وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ﴾ ولا الباطلُ ولا الحقُّ.

(٢١) ﴿وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ﴾ ولا الثوابُ ولا العقابُ، ولا لتأكيدِ نفي الاستواءِ، وتكريرُها على الشقينِ لمزيدِ التأكيدِ. والحرورُ فعولٌ من الحرِّ غَلَبَ على السَّموم. وقيل السمومُ ما يَهُبُّ نهاراً والحرورُ ما تهبُّ ليلاً.

(٢٢) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ تمثيلٌ آخرُ للمؤمنينَ والكافرينَ أبلغُ من الأولِ ولذلك كرَّر

---

(١) النساء: «٢٨».
(٢) العنكبوت: «١٣».

الفعلَ. وقيل للعلماءِ والجهلاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ﴾ هدايتَه فيوفِّقُه لِفَهْمِ آياتِه والاتعاظِ بِعظَاتِه. ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ ترشيحٌ لتمثيلِ المصرِّيْنَ على الكفرِ بالأمواتِ ومبالغةٌ في إقناطِه عنهم.

إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ
كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ
جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾

(٢٣) ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فما عليك إلا الإنذارُ وأما الإسماعُ فلا إليك ولا حيلةَ لك إليه في المطبوعِ على قلوبهم.

(٢٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ محقِّينَ أو محقًّا، أو إرسالاً مصحوباً بالحقِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ صلةً لقوله: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بشيراً بالوعْدِ الحقِّ ونذيراً بالوعيدِ الحقِّ. ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ﴾ أهلُ عصرٍ. ﴿إِلَّا خَلَا﴾ مضى. ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ من نبيٍّ أو عالمٍ يُنْذِرُ عنه، والاكتفاءُ بذكرِه للعلمِ بأنَّ النذارةَ قرينةُ البشارةِ سِيَّما وقد قُرِنَ به من قبلُ، أو لأنَّ الإنذارَ هو الأهمُّ المقصودُ من البعْثَةِ.

(٢٥) ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ الشاهدةِ على نبوَّتِهم. ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصُحُفِ إبراهيمَ عليه السلام. ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ كالتوراةِ والإنجيلِ على إرادةِ التفصيلِ دونَ الجمْعِ، ويجوزُ أنْ يُرَادَ بهما واحدٌ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ.

(٢٦) ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكارٌ بالعقوبةِ.

(٢٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ أجناسُها وأصنافُها على أنَّ كلاًّ منها ذو أصنافٍ مختلفةٍ، أو هيئاتُها من الصُّفرةِ والخضرةِ ونحوهما. ﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌ﴾ أي ذو جددٍ أي خُططٍ وطرائقَ يُقالُ جِدَةُ الحمارِ للخطَّةِ السوداءِ على ظهْرِه. وقرىء جُدُدٌ بالضمِّ جمعُ جديدةٍ بمعنَى الجدَّةِ، وجَدَدٌ بفتحتينِ وهو الطريقُ الواضحُ. ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ بالشدَّةِ والضعفِ. ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ عطفٌ على بيضٍ أو على جُدَدٍ كأنه قيل: ومن الجبالِ ذو جددٍ مختلفةِ اللونِ ومنها غرابيبُ متَّحدةُ اللونِ، وهو تأكيدٌ مضمرٌ يفسِّره ما بعدَه فإنَّ الغربيبَ تأكيدٌ للأسودِ ومن حقِّ التأكيدِ أنْ يَتْبَعَ المؤكَّد، ونظيرُ ذلك في الصفةِ قولُ النابغةِ:

وَالمُؤْمِنُ العَائِذَاتُ الطَّيْرُ يَمْسَحُهَا (١)

وفي مثلِه مزيدُ تأكيدٍ لما فيه من التكريرِ باعتبارِ الإضمارِ والإظهارِ.

---

(١) البسيط.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ
عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً
يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ
شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ
بَصِيرٌ ﴿٣١﴾ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ
سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ﴾ كاختلافِ الثمارِ والجبالِ. ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ إذ شَرْطُ الخشيةِ معرفةُ المخشيِّ والعلمُ بصفاته وأفعالِه، فَمَنْ كان أعلمَ به كان أخشَى منه ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «إني أخشاكُم لله وأتقاكُم له»[١] ولذلك أتْبَعَهُ بذكرِ أفعاله الدالّةِ على كمالِ قدرته، وتقديمُ المفعولِ لأنَّ المقصودَ حصرُ الفاعليةِ ولو أُخِّرَ انعكسَ الأمرُ. وقرىء برفعِ اسمِ اللهِ ونَصْبِ العلماءِ على أنَّ الخشيةَ مُسْتَعَارَةٌ للتعظيم، فإنَّ المعظَّمَ يكون مَهِيْبَاً. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ تعليلٌ لوجوبِ الخشيةِ لدلالتهِ على أنه معاقِبٌ للمصرِّ على طُغيانِه غفورٌ للتائبِ عن عِصْيَانِه.

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ يداومونَ على قراءتِه أو متابعةِ ما فيه حتى صارتْ سِمَةً لهم وعنواناً، والمرادُ بكتاب الله القرآنُ أو جنسُ كُتُبِ الله فيكون ثناءً على المصدِّقين من الأممِ بعدَ اقتصاصِ حالِ المكذِّبينَ. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ كيف اتفقَ من غير قَصْدٍ إليهما. وقيلَ السرُّ في المسنونةِ والعلانيةُ في المفروضةِ. ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً﴾ تحصيلَ ثوابِ الطاعةِ وهو خبرُ إنَّ. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ لن تَكْسُدَ ولن تَهْلِكَ بالخسرانِ صفةٌ للتجارة وقولُه:

(٣٠) ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ﴾ عِلَّةٌ لمدلوله أي ينتفي عنها الكسادُ وتنفُقُ عندَ الله ليوفِّيهم بنفاقِها أجورَ أعمالِهم، أو لمدلولِ ما عدَّ من امتثالِهم نحوُ فعلوا ذلك ليوفِّيهم أو عاقبةٌ ليرجُونَ. ﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ﴾ على ما يقابلُ أعمالَهم. ﴿إِنَّهُۥ غَفُورٌ﴾ لِفَرَطَاتِهم. ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعاتِهم أي مجازيهم عليها، وهو عِلَّةٌ للتوفيةِ والزيادةِ أو خبرُ إنَّ ويرجون حالٌ مِنْ واو وأنفقوا.

(٣١) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني القرآنَ ومِنْ للتبيينِ أو الجِنْسِ ومِنْ للتبعيضِ. ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أُحِقه مصدِّقاً لما تقدَّمه من الكتُبِ السماوية حالٌ مؤكِّدة لأنَّ حقِّيَّتَهُ تستلزم موافقَتَهُ إيَّاه في العقائدِ وأصولِ الأحكام. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ عالمٌ بالبواطنِ والظواهرِ فلو كان في أحوالِك ما ينافي النبوةَ لم يوح إليك مثلُ هذا الكتابِ المعجز الذي هو عيَّارٌ على سائرِ الكتبِ، وتقديمُ الخبيرِ للدلالةِ على أنَّ العُمْدَةَ في ذلك الأمورُ الروحانيةُ.

(٣٢) ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ﴾ حَكَمْنَا بتوريثِه منك أو نورِّثه فعبَّر عنه بالماضي لتحقُّقِه، أو أورثناه من

---

(١) وهو جزء من حديث أخرجه البخاري (٩/١٠٤ رقم ٥٠٦٣) ومسلم (٤/١٢٩ ـ الآفاق الجديدة). من حديث أنس.

الأمم السالفة، والعطفُ على إنَّ الذين يتلُون والذي أوحَيْنا إليك اعتراضٌ لبيانِ كيفيةِ التوريثِ. ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ يعني علماءَ الأمةِ من الصحابةِ ومَنْ بعدَهم، أو الأمةَ بأسْرِهم فإنَّ اللهَ اصْطَفَاهم على سائرِ الأمم ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالتقصير في العمل به. ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ يعملُ به في غالبِ الأوقاتِ. ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ بضمِّ التعليم، والإرشادِ إلى العمل، وقيل الظالِمُ الجاهلُ والمقتصِدُ المتعلِّمُ والسابقُ العالِمُ. وقيل الظالِمُ المجرِمُ والمقتَصِدُ للذي خلطَ الصالحَ بالسيءِ، والسابقُ الذي ترجَّحتْ حسناتُه بحيثُ صارتْ سيئاتُه مكفَّرةً، وهو معنى قوله عليه الصلاةُ والسلامُ: «أما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنةَ يرزقون فيها بغير حسابٍ، وأما الذين اقتصدُوا فأولئك يحاسَبُونَ حساباً يسيراً، وأما الذين ظلمُوا أنفسَهم فأولئك يُحْبَسُونَ في طولِ المحشرِ ثم يتلقاهم اللهُ برحمته»[1] وقيلَ الظالمُ الكافرُ على أنَّ الضميرَ للعبادِ، وتقديْمُهُ لكثرةِ الظالمينَ ولأنَّ الظُّلمَ بمعنى الجهلِ والركونِ إلى الهوى مقتضى الجِبلَّةِ. والاقتصادُ والسبقُ عارضانِ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إشارةٌ إلى التوريثِ أوِ الاصطفاءِ أو السبقِ.

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

(٣٣) ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ مبتدأٌ وخبرٌ والضميرُ للثلاثةِ أو للذين أو للمقتصِد والسابقِ، فإنَّ المرادَ بهما الجنسُ، وقرىء جنةُ عدْنٍ، وجناتِ عدنٍ منصوبٌ بفعل يفسِّره الظاهرُ، وقرأ أبو عمرو يُدْخَلونَها على البناءِ للمفعولِ. ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ مقدَّرةٌ، وقرىء يَحْلونَ من حَلِيَتِ المرأةُ فهيَ حاليةٌ. ﴿مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ مِنْ الأولى للتبعيضِ، والثانيةُ للتبيينِ. ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ عطفٌ على ذهبٍ أي من ذهبٍ مرصَّعٍ باللؤلؤ، أو من ذهبٍ في صفاءِ اللؤلؤِ ونَصَبَهُ نافع وعاصمٌ رحمهما الله تعالى عطفاً على محلِّ مِنْ أساوِرَ. ﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾.

(٣٤)﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ هُمهم من خوفِ العاقبة، أو همُّهم من أجلِ المعاشِ وآفاتِه، أو من وسوسةِ إبليسَ وغيرها، وقرىء الحُزْنَ. ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للمذنبينَ. ﴿شَكُورٌ﴾ للمطيعينَ.

(٣٥) ﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ﴾ دارَ الإقامةِ. ﴿مِن فَضْلِهِۦ﴾ من إنعامِه وتفضُّلِه أذ لا واجبَ عليه. ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعبٌ. ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كلا إذ لا تكليفَ فيها ولا كدَّ، أَتْبَعَ نفيَ النَّصَبِ نفيَ ما يتبعُه مبالغةً.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (٥/ ١٩٤، ١٩٨) و(٦/ ٤٤٤) من حديث أبي الدرداء، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٥) وقال: «رواه أحمد بأسانيد رجال أحدها رجال الصحيح وهي هذه إن كان علي بن عبدالله الأزدي سمع من أبي الدرداء فإنه تابعي» هـ.
وله شاهد من حديث عوف بن مالك، أخرجه الطبراني في الكبير (١٨/ ٧٩ ـ ٨٠) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ٩٦) وقال: وفيه سلامة بن روح وثقة ابن حبان وضعفه جماعة وبقية رجاله ثقات».

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾

(٣٦) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُحْكَمُ عليهم بموتٍ ثانٍ. ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ فيستريحوا، ونَصْبُهُ بإضمار أنْ، وقرىء فيموتُون عطفاً على يُقْضَى كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[1]. ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ بل كلما خبتْ زِيْدَ إسعارُها. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثْلَ ذلك الجزاءِ. ﴿نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغٍ في الكفر أو الكفرانِ. وقرأ أبو عمرو يُجْزَىٰ على بناء المفعول وإسنادُه إلى كلٌّ، وقرىء يجازى.

(٣٧) ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ يستغيثون يفتعِلُون من الصُّراخ وهو الصياحُ استُعْمِل في الاستغاثةِ لجهرِ المستغيثِ صوتَه. ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ بإضمار القولِ. وتقييدُ العملِ الصالح بالوصْفِ المذكور للتحسُّر على ما عملوه من غير الصالح والاعترافِ به، والإشعارِ بأنّ استخراجَهم لتلافيه، وأنهم كانوا يحسبون أنه صالحٌ والآن تحقَّقَ لهم خلافُه. ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ جوابٌ من الله وتوبيخٌ لهم وما يتذكَّرُ فيه متناولٌ كلَّ عُمُرٍ يمكِّنُ المكلَّفُ فيه من التفكُّر والتذكُّرِ، وقيل ما بين العشرينَ إلى الستينَ. وعنه عليه الصلاة والسلام «العمرُ الذي أعذرَ الله فيه إلى ابنِ آدمَ ستونَ سنةً»[2]. والعطفُ على معنى أولم نعمِّرْكُم فإنه للتقرير كأنه قال: عمَّرناكم وجاءكم النذيرُ وهو النبيُّ ﷺ أوِ الكتابُ، وقيل العقلُ أوِ الشيبُ أو موتُ الأقاربِ. ﴿فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يدفعُ العذابَ عنهم.

(٣٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ فلا يَخْفَى عليه أحوالُهم. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليلٌ له لأنه إذا عَلِمَ مضمراتِ الصدورِ وهي أخْفَى ما يكونُ كان أعْلَمَ بغيرها.

(٣٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ مُلقي إليكم مقاليدَ التصرُّف فيها، وقيل خلفاً بعدَ خَلَفٍ جمعُ خليفةٍ والخلفاءُ جمعُ خليفٍ. ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾ جزاءُ كفرِه. ﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ بيانٌ له، والتكريرُ للدلالة على عن اقتضاءِ الكفر لكلِّ واحد من الأمرينِ مستقلٌ باقتضاءِ قُبْحِه ووجوبِ التجنُّبِ عنه، والمرادُ بالمقْتِ وهو أشدُّ البغضِ مقتُ الله وبالخسارِ خسارُ الآخرة.

---

(١) المرسلات: «٣٦».

(٢) أخرجه البخاري (١١/٢٣٨ رقم ٦٤١٩) من حديث أبي هريرة.

قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ
كِتَٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ
أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا
فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ
لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾

(٤٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يعني آلهتَهُم والإضافةُ إليهم لأنَّهم جعلُوهم شركاءَ اللهِ أو لأنفسِهم فيما يملكُونه. ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من أرأيتُم بدلُ الاشتمالِ لأنه بمعنى أخبروني كأنه قال: أخبروني عن هؤلاءِ الشركاءِ أروني أيَّ جُزْءٍ منَ الأرضِ استبدُّوا بخلْقِه. ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أم لهم شركةٌ مع اللهِ في خلْقِ السمواتِ فاستحقُّوا بذلك شركةً في الألوهيةِ ذاتيةً. ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا﴾ ينطقُ على أنا اتَّخذْناهم شركاءَ. ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ على حجَّةٍ من ذلك الكتابِ بأنَّ لهم شركةً جعليةً، ويجوزُ أنْ يكونَ هم للمشركينَ كقوله تعالى: ﴿أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا﴾(١) وقرأ نافعٌ وابن عامر ويعقوبُ وأبو بكر والكسائيُّ «على بيِّناتٍ» فيكون إيماءً إلى أنَّ الشركَ خطيرٌ لابدَّ فيه من تعاضُدِ الدلائلِ. ﴿بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ لما نَفَى أنواعَ الحججِ في ذلك أضربَ عنه بِذِكْرِ ما حَمَلَهُم عليه وهو تغريرُ الأسلافِ الأخلافَ، أو الرؤساءُ الأتباعَ بأنهم شفعاءُ عند الله يشفعون لهم بالتقرُّب إليه.

(٤١) ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾ كراهةَ أنْ تزولا فإنَّ الممكِنَ حالَ بقائِه لابدَّ له من حافظٍ، أو يمنعُهما أنْ تزولا لأنَّ الإمساكَ منعٌ. ﴿وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ ما أمسكَهُما. ﴿مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ﴾ من بعدِ الله أو من بعدِ الزوال، والجملةُ سادَّةٌ مسدَّ الجوابَيْنِ ومِنْ الأولى زائدةٌ والثانيةُ للابتداءِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ حيثُ أمسكَهُما وكانتا جديرتَيْنِ بأنْ تُهَدّا هَدّاً كما قال تعالى ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ﴾(٢).

(٤٢) ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ وذلك أنَّ قريشاً لما بلَغَهُم أنَّ أهلَ الكتابِ كذَّبوا رُسُلَهُم قالوا: لعنَ اللهُ اليهودَ والنَّصارى لو أتانا رسولٌ لنكوننَّ أَهْدَى من إحدى الأُمَمِ، أي من واحدةٍ منَ الأُممِ اليهودُ والنصارى وغيرُهم، أو مِنَ الأمةِ التي يُقَالُ فيها هي إحدى الأُمَمِ تفضيلاً لها على غَيرِها في الهدى والاستقامةِ. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام. ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ أي النذيرُ أو مجيئُه على التسُّببِ. ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ تباعُداً عن الحقِّ.

(٤٣) ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بدلٌ من نفوراً أو مفعولٌ له. ﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ أصلُه وإنْ مكروا المكرَ

---

(١) الروم: «٣٥».
(٢) مريم: «٩٠».

السيءَ فحذفَ الموصوفَ استغناءً بوصْفِه ثم بدلَ أنْ مع الفعل بالمصدر ثم أُضِيفَ. وقرأ حمزةُ وحدَه بسكونِ الهمزةِ في الوصل[١]. ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ ولا يحيطُ. ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وهو الماكرُ وقد حاقَ بهم يومَ بدْرٍ. وقرئ ولا يُحيقُ المكرَ أي ولا يحيقُ اللهُ. ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ﴾ ينتظرون. ﴿إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ سنةَ اللهِ فيهم بتعذيبِ مكذِّبيهم. ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ إذ لا يبدِّلُها بجعْلِه غيرَ التعذيبِ تعذيباً ولا يَحوِّلُها بأنْ ينقلَه من المكذبينَ إلى غيرِهم، وقوله:

أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾

(٤٤) ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ استشهادَ عِلْمٍ بما يشاهدونه في مسايرهم إلى الشامِ واليمنِ والعراقِ من آثار الماضِينَ. ﴿وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ﴾ ليسْبِقَه ويفوتَهُ. ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا﴾ بالأشياء كلِّها. ﴿قَدِيرًا﴾ عليها.

(٤٥) ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي. ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ ظهرِ الأرضِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من نَسَمَةٍ تدبُّ عليها بشؤْمِ معاصيهم، وقيل المرادُ بالدابَّةِ الإنسُ وحْدَه لقوله: ﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ فيجازيهم على أعمالِهم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الملائكةِ دعتْه ثمانيةُ أبوابِ الجنةِ أنِ ادخُلْ مِنْ أيِّ بابٍ شِئْتَ»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) أي قرأ حمزة بسكون همزة «السيء».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص٣٩ رقم ٢٧٤) ـ.

سورة يس
ترتيبها ٣٦ — آياتها ٨٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ
أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا
فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾

سورة يس مكيةٌ(١)
وعنه عليه الصلاةُ والسلام: «يس تُدْعَى المعِمَّةَ تعمُّ صاحِبَها خيرَ الداريْن
والدافعةَ والقاضيةَ تدفعُ عنه كلَّ سوءٍ وتقضي له كلَّ حاجةٍ»(٢) وآيُها ثلاثٌ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يسٓ﴾ كألٓم في المعنى والإعرابِ. وقيل معناه يا إنسانُ بلغةِ طيءٍ على أنَّ أصْلَه يا أُنَيْسِينُ فاقْتُصِر على شطرِهِ لكثرةِ النداء به كما قيل مُنِ الله في أيمنَ. وقرىء بالكسرِ كجيرِ، وبالفتحِ على البناءِ

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس قال: نزلت سورة يسٓ بمكة. وأخرج ابن مردويه عن عائشة قالت: نزلت سورة يسٓ بمكة. [الدر المنثور (٧/٣٧)].

(٢) أخرجه ابن الضريس في «فضائل القرآن» (ص١٠٠ رقم ٢١٦) من حديث أبي بكر، وكذلك أخرجه البيهقي في «الشعب» (٢/٤٨٠ رقم ٢٤٦٥) وقال البيهقي: «تفرد به محمد بن عبدالرحمٰن هذا عن سليمان وهو منكر. وأخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/٢٤٧) وقال: قال النسائي: محمد بن الرحمٰن الجدعاني متروك الحديث.
وقال ابن عراق في «تنزيه الشريعة» (١/٢٨٩): «الجدعاني لم يتهم بكذب بل وثق فقال فيه أحمد وأبو زرعة لا بأس به فغاية حديثه أن يكون ضعيفاً».
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

كَأَيْنَ. أو الإعرابُ على اتلُ يس أو بإضمارِ حرفِ القسم، والفتحةُ لمنعِ الصرفِ، وبالضمِّ[١] بناءً كحيثُ أو إعراباً على هذه يس. وأمالَ الياءَ حمزةُ والكسائيُّ وروحٌ وأبو بكر، وأَدْغَمَ النونَ في واوِ.

(٢) ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ ابنُ عامر والكسائي وأبو بكر وورشٌ ويعقوبُ، وهي واوُ القسَمِ أو العطفِ إنْ جُعِلَ يس مُقْسَماً به.

(٣) ﴿إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ لَمِنَ الذين أُرْسِلُوا.

(٤) ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو التوحيدُ والاستقامةُ في الأمور، ويجوزُ أنْ يكونَ على صراطٍ خبراً ثانياً أو حالاً من المستكِنِّ في الجارِّ والمجرور، وفائدتُه وصفُ الشرعِ صريحاً بالاستقامةِ وإنْ دلَّ عليه لمن المرسلينَ التزاماً.

(٥) ﴿تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ خبرٌ محذوفٌ والمصدرُ بمعنى المفعولِ. وقرأ ابنُ عامر وحمزة والكسائيُّ وحفصٌ بالنصبِ بإضمارِ أعني أو فِعْلُه على أنه على أَصْلِه، وقرىء بالجرِّ على البدلِ منَ القرآنِ[٢].

(٦) ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ متعلِّقٌ بتنزيلَ أو بمعنى لمن المرسلين. ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ قوماً غيرَ مُنْذَرٍ آباؤُهم يعني آباءَهم الأقربينَ لتطاوُلِ مدَّةِ الفترةِ، فيكونُ صفةً مبيِّنةً لشدَّةِ حاجتهم إلى إرساله، أو الذي أُنْذِرَ به أو شيئاً أُنْذِرَ به آباؤُهم الأبعدونَ، فيكونُ مفعولاً ثانياً لِتُنْذرَ، أو إنذارُ آبائِهم على المصدر. ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ متعلِّقٌ بالنفي على الأولِ أي لم يُنْذَرُوا فَبَقُوْا غافلينَ، أو بقوله إنك لمن المرسلين على الوجوهِ الأُخرى أي أرسلناك إليهم لتنذرَهم فإنَّهم غافلون.

(٧) ﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ﴾ يعني قولَه تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾[٣]. ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّهم ممَّنْ علِمَ الله أنَّهم لا يؤمنون.

(٨) ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ تقريرٌ لِتَصْميمِهم على الكفْرِ، والطبعُ على قلوبهم بحيثُ لا تغني عنهم الآياتُ والنُّذُر، بتمثيلهم بالذين غُلَّتْ أعناقُهم. ﴿فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ فالأغلالُ واصلةٌ إلى أذقانِهم فلا تخلِّيهم يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له. ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ رافعونَ رؤوسَهم غاضُّون أبصارَهم في أنَّهم لا يلتفتونَ لَفْتَ الحقِّ ولا يعطِفُون أعناقَهم نَحْوَهُ ولا يُطَأْطِئُونَ رؤوسَهم له.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ وبمن أحاطَ بهم سدَّانِ فغطَّى أبصارَهم بحيثُ لا يبصِرونَ قدَّامهم ووراءَهم في أنهم محبوسُونَ في مطمورةِ الجهالةِ ممنوعُون عن النظرِ في الآياتِ والدلائلِ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ سَداً بالفتح وهو لغةٌ فيه، وقيل ما كانَ بفعلِ الناس فبالفتح وما كان بخلْقِ اللهِ فبالضمِّ. وقُرِىءَ فأَعْشَيْنَاهم من العَشَاءِ. وقيل الآيتانِ في بني مخزوم، حَلَفَ أبو جهلٍ أنْ يرضخَ رأسَ النبيِّ ﷺ فأتاه وهو يصلِّي ومعه حجرٌ ليدمغَه، فلما رفعَ يده انثنتْ إلى عُنُقِه ولزقَ الحجرُ بيدِه حتى فكُّوه عنها بِجُهْدٍ، فرجَع إلى قومه فأخْبَرَهُم، فقال مخزوميٌّ آخرُ: أنا أقتلُه

---

(١) أي وقرىء بالضم.

(٢) وفي تخصيص الاسمين الكريمين المعربين عن الغلبة التامة والرأفة العامة حثٌّ على الإيمان به ترهيباً وترغيباً، وإشعارٌ بأن تنزيله ناشىء عن غاية الرحمة (س/٧/ ١٥٩).

(٣) هود: «١١٩».

بهذا الحجرِ فذهبَ فأعمَى اللهُ بَصَرَهُ[١].

﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ
فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟ وَءَاثَٰرَهُمْ ۚ وَكُلَّ شَىْءٍ
أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ
فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

(١٠) ﴿وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ سبقَ في سورة البقرةِ تفسيرُه.

(١١) ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ إنذاراً يترتَّبُ عليه البغيةُ المرومةُ. ﴿مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ﴾ أي القرآنَ بالتأمُّلِ فيه والعملِ به. ﴿وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ وخافَ عقابَه قبلَ حلولِه ومعاينةِ أهوالِه، أو في سريرتِه ولا يغترُّ برحمتِه فإنه كما هو رحمٰنٌ منتقمٌ قهارٌ. ﴿فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ﴾.

(١٢) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الأمواتَ بالبعثِ أو الْجُهَّالَ بالهدايةِ. ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا۟﴾ ما أسلَفُوا من الأعمالِ الصالحة والطالحةِ. ﴿وَءَاثَٰرَهُمْ﴾ الحسنةَ كَعِلْمٍ علموهُ وحبيسٍ وقفُوه، والسيئةُ كإشاعةِ باطلٍ وتأسيسِ ظلْمٍ. ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ يعني اللوحَ المحفوظَ.

(١٣) ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ ومثل لهم من قولهم هذه الأشياءَ على ضربٍ واحد أي مثالٍ واحدٍ، وهو يتعدَّى إلى مفعولَيْنِ لتضمُّنه معنى الجعْلِ وهما: ﴿مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ على حذفِ مضافٍ أي اجعلْ لهم مِثْلَ أصحاب القرية مَثَلاً، ويجوزُ أنْ يُقْتَصَرَ على واحد ويُجْعَلَ المقدَّرُ بدلاً من الملفوظِ أو بياناً له، والقريةُ أنطاكيةُ. ﴿إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ بدلٌ من أصحاب القرية، والمرسلونَ رسلُ عيسى عليه الصلاةُ والسلام إلى أهلِها وإضافتُه إلى نفسِه في قوله:

(١٤) ﴿إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ﴾ لأنه فعلُ رسولِه وخليفَتِه وهما يحيى ويونسُ، وقيل غيرهُما. ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا﴾ فقوَّيْنَا، وقرأ أبو بكر مخفَّفاً من عزَّه إذا غَلَبَهُ. وحَذْفُ المفعولِ لدلالةِ ما قبلَه عليه، ولأنَّ المقصودَ ذِكْرُ المعزَّزِ به. ﴿بِثَالِثٍ﴾ وهو شمعونُ. ﴿فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾ وذلِكَ أنهم كانوا عَبَدَةَ أصنامٍ فأرسلَ إليهم عيسى عليه السلام اثنينِ، فلما قَرُبَا من المدينة رأيا حَبِيْباً النجارَ يرعَى غَنَماً فسألَهما فأَخْبَرَاهُ فقال: أَمَعَكُما آيةٌ فقالا: نشفِي المريضَ ونبرىءُ الأَكْمَهَ والأبرصَ، وكان له ولدٌ مريضٌ فمسحَاه فبرأَ فآمنَ حبيبٌ وفشا الخبرُ، فَشُفِيَ على أيدِيهما خلقٌ كثير وبلغَ حديثُهما إلى الملِكِ وقال لهما: ألنا إلهٌ سوى آلِهَتِنَا؟ قالا: نعمْ مَنْ أوجدَك وآلِهَتَكَ، قال: حتَّى أنظرَ في أَمْرِكُما

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٢/ ١٥٢) عن عكرمة.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٣٩ ـ ١٤٠ رقم ٢٧٥) «أخرجه ابن إسحاق في السيرة في كلام طويل، ورواه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق حدثني محمد بن محمد بن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس ﭭأن أبا جهل، قال: إني أعاهد الله لأجلس غداً لمحمد بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه. فذكر نحوه إلى قوله قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر بين يديه. وأصله في البخاري ـ (٨/ ٧٢٤ رقم ٤٩٥٨) ـ من طريق عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنه».

فَحَبَسَهُما، ثم بعثَ عيسى شمعونَ فدخلَ متنكِّراً وعاشرَ أصحابَ الملِكِ حتى استأنَسُوا به وأوصلُوه إلى الملِكِ فأَنِسَ به، فقال له يوماً: سمعتُ أنك حَبَسْتَ رجلين فهل سمعْتَ ما يقولانِه، قال فَدَعَاهُما فقال شمعونُ مَنْ أرسَلَكُما قالا: اللهُ الذي خَلَقَ كلَّ شيءٍ وليسَ له شريكٌ، فقال صِفَاهُ وأوجِزا، قالا: يفعلُ ما يشاء ويحكُم ما يريدُ، قال وما آيتُكما، قالا: ما يتمنَّى الملِكُ، فدعا بغلام مطموسِ العينينِ فَدَعُوا اللهَ حتى انشقَّ له بَصَرُهُ، وأخذا بُنْدُقَتَيْنِ فوضَعَاهُما في حَدَقَتَيْهِ فصارتَا مُقْلَتَيْنِ ينظرُ بهما، فقال شمعونُ أرأيتَ لو سألْتَ آلهتكَ حتى تصنعَ مِثْلَ هذا حتَّى يكونَ لك ولها الشرفُ، قال ليس لي عنك سرٌّ آلهتُنا لا تسمعُ ولا تبصرُ ولا تضرُّ ولا تنفعُ، ثمَّ قال إنْ قَدَرَ إلهكُما على إحياءِ مَيْتٍ آمَنَّا به، فَأَتَوْا بغلامٍ ماتَ منذ سبعةِ أيامٍ فدعوا اللهَ فقام وقال: إني أُدْخِلْتُ في سبعةِ أوديةٍ منَ النارِ وأنا أحذِّرُكم ما أنتمْ فيه فآمِنُوا، وقال فُتِحَتْ أبوابُ السماءِ فرأيتُ شاباً حَسَناً يشفعُ لهؤلاءِ الثلاثةِ فقال الملِكُ مَنْ هم قال شمعونُ وهذانِ فلما رأى شمعونُ أنَّ قولَه قد أثَّر فيه نصحَه فآمنَ في جَمْعٍ، ومَنْ لم يؤمنْ صاحَ عليهم جبريلُ عليه الصلاة والسلام فهلكُوا.

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١٥) ﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ لا مزيةَ لكم علينا تقتضي اختصاصَكُم بما تدَّعُونَ، ورَفْعُ بَشَرٍ لانتقاضِ النفيِ المقتضي إعمالَ ما بإلاَّ. ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَيْءٍ﴾ وحيٍ ورسالةٍ. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ﴾ في دَعوى الرسالة.

(١٦) ﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ﴾ استشهدوا بعلمِ اللهِ وهو يجري مَجْرَى القَسَمِ، وزادوا اللامَ المؤكِّدةَ لأنه جوابٌ عن إنكارِهم.

(١٧) ﴿وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ البيِّنُ بالآيات الشاهدةِ لصحَّته، وهو المحسنُ للاستشهادِ فإنه لا يحسنُ إلا ببيِّنةٍ.

(١٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ تشاءَمْنَا بكم، وذلك لاستغرابِهم ما ادَّعَوْهُ واستقباحِهم له وتنفُّرِهم عنه. ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ﴾ عن مقالتكم هذهِ. ﴿لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

(١٩) ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ سببُ شؤْمِكم معكُم وهو سوءُ عقيدتِكم وأعمالِكم، وقُرِىءَ طيرُكم معكُم. ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ وُعِظْتُم، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ مثلُ تطيَّرتُم أو توعدتُم بالرَّجْمِ والتعذيبِ. وقد قرىء بألفٍ بينَ الهمزتينِ، وبفتح أنْ بمعنى أتطيرتُم لأنْ ذُكِّرتُم، وأنْ بغيرِ الاستفهامِ وأينَ ذُكِرتُم بمعنَى طائرُكم معكم حيثُ جَرَى ذِكْرُكُم وهو أبلغُ. ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ قومٌ عادتُكم الإسرافُ في العصيانِ فَمِنْ ثَمَّ جاءكم الشؤمُ، أو في الضلالِ ولذلك توعَّدْتُم وتشاءَمْتُم بمن يجبُ أنْ يُكْرَمَ ويُتَبَرَّكَ به.

وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم
مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾ ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ
بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ
فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

(٢٠) ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ هو حبيبُ النجارُ وكان ينحتُ أصنامَهُم وهو ممَّنْ آمنَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وبينَهما سِتُّمائة سنةٍ، وقيل كان في غارٍ يعبدُ اللهَ فلمَّا بلغهُ خبرُ الرسلِ أتاهُم وأظْهَرَ دينَهُ. ﴿قَالَ يَـٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(٢١) ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ على النُّصح وتبليغِ الرسالة. ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ إلى خير الدارَيْنِ.

(٢٢) ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ على قراءة غيرِ حمزةَ فإنه يسكِّنُ الياءَ في الوصْلِ، تلطُّفٌ في الإرشاد بإيراده في معرِضِ المناصحةِ لنفسه وإمحاضِ النصحِ، حيثُ أرادَ لهم ما أرادَ لها والمرادُ تقريعُهم على تركِهم عبادةَ خالقِهم إلى عبادة غيرِهِ ولذلك قال: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ مبالغةً في التهديد، ثمَّ عاد إلى المساقِ الأولِ فقال:

(٢٣) ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَـٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَـٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ لا تنفعني شفاعتُهم. ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ بالنُّصرةِ والمظاهرةِ.

(٢٤) ﴿إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ فإنَّ إيثارَ ما لا ينفعُ ولا يدفعُ ضُرّاً بوجْهٍ ما على الخالقِ المقتدِرِ على النَّفْعِ والضُّرِّ، وإشراكُه به ضلالٌ بيِّنٌ لا يَخْفَى على عاقلٍ، وقرأ نافع ويعقوبُ وأبو عمرو بفتحِ الياءِ.

(٢٥) ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ الذي خلقكُم، وقرأ نافع وابنُ كثير وأبو عمرو بفتحِ الياء. ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ فاسمعوا إيماني، وقيل الخطابُ للرُّسلِ فإنه لما نصحَ قومَه أخذوا يرجمونَه فأسرعَ نحوَهم قبلَ أنْ يقتلُوه.

(٢٦) ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ قيل له ذلك لما قتلُوه بُشْرَى له بأنه من أهلِ الجنة، أو إكراماً وإذْناً في دخولها كسائرِ الشهداءِ، أو لما همُّوا بقتله رَفَعَهُ الله إلى الجنةِ على ما قاله الحسنُ، وإنما لم يُقَلْ له لأنَّ الغرضَ بيانُ المقولِ دونَ المقولِ له؛ فإنه معلومٌ، والكلامُ استئنافٌ في حيِّزِ الجوابِ عن السؤالِ عن حالِه عندَ لقاءِ ربِّه بعدَ تصلُّبه في نَصْرِ دينه وكذلك: ﴿قَالَ يَـٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾.

(٢٧) ﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ فإنه جوابٌ عن السؤالِ عن قوله عندَ ذلك القولِ، وإنما تمنَّى عِلْمَ قومِهِ بحالِه ليحمِلَهم على اكتسابِ مِثْلِها بالتوبة عن الكفْرِ والدخولِ في الإيمان والطاعةِ على دَأْبِ الأولياءِ في كظْمِ الغيظِ والترحُّمِ على الأعداءِ، أو ليعلموا أنهم كانوا على خطإٍ عظيم في أمرِهِ وأنه كان على حقٍّ. وقرىء المكرَّمينَ. وما خبريةٌ أو مصدرية والباءُ صلةُ يعلمونَ، أو استفهاميةٌ جاءت على الأصْلِ والباءُ صلةُ غَفَرَ أيْ بأي شيءٍ غَفَرَ لي، يريدُ به المهاجرةَ عن دينهم والمصابرةَ على أذيَّتهم.

﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ٢٨ إِن كَانَتۡ إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ ٢٩ يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ ٣٠ أَلَمۡ يَرَوۡاْ كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ٣١ وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ ٣٢ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ أَحۡيَيۡنَٰهَا وَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهَا حَبّٗا فَمِنۡهُ يَأۡكُلُونَ ٣٣﴾

(٢٨) ﴿۞ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَىٰ قَوۡمِهِۦ مِنۢ بَعۡدِهِۦ﴾ من بعد هلاكِه أو رفعِه. ﴿مِن جُندٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكِهم كما أرسلْنا يومَ بدْرٍ والخندقِ بل كُفِينَا أمْرَهُم بصيحةِ مَلَكٍ، وفيه استحقارٌ لإهلاكهم وإيماءٌ بتعظيم الرسولِ عليه السلام. ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ وما صحَّ في حِكْمَتِنا أنْ ننزلَ جُنداً لإهلاكِ قومِه إذ قدَّرْنا لكلِّ شيءٍ سبباً وجعلْنا ذلك سبباً لانتصارِك من قومِك، وقيل ما موصولةٌ معطوفةٌ على جندٍ أي ومما كنَّا منزلينَ على مَنْ قبلَهم من حجارةٍ وريحٍ وأمطارٍ شديدة.

(٢٩) ﴿إِن كَانَتۡ﴾ ما كانتِ الأخْذَةُ أوِ العقوبةُ. ﴿إِلَّا صَيۡحَةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ صاحَ بها جبريلُ عليه السلام، وقُرِئَتْ بالرفع على كان التامةِ. ﴿فَإِذَا هُمۡ خَٰمِدُونَ﴾ ميِّتونَ، شُبِّهُوا بالنارِ رمزاً إلى أنَّ الحيَّ كالنارِ الساطعةِ والميِّتَ كرمادِها، كما قال لبيدٌ:

وَمَـا المَـرْءُ إلاَّ كَـالشِّهَـابِ وَضَـوْئِـه يحُـورُ رَمَـاداً بَعْـدَ إِذْ هُـوَ سَـاطِـعُ[1]

(٣٠) ﴿يَٰحَسۡرَةً عَلَى ٱلۡعِبَادِۚ﴾ تعالي فهذهِ من الأحوال التي من حقِّها أنْ تحضري فيها، وهي ما دلَّ عليها: ﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ فإنَّ المستهزئِينَ بالناصحينَ المخلِصين المنوطَ بِنُصْحِهم خيرُ الدارين أحقَّاءُ بأنْ يتحسَّروا ويُتَحسَّرَ عليهم، وقد تلهَّفَ على حالهم الملائكةُ والمؤمنون من الثَّقلَيْنِ، ويجوزُ أنْ يكونَ تحسُّراً من الله عليهم على سبيلِ الاستعارةِ لتعظيم ما جَنَوْهُ على أنفسِهم ويؤيدُه قراءةُ يا حسرتا، ونَصْبُهَا لطولها بالجارِّ المتعلِّقِ بها، وقيل بإضمارِ فِعْلِها والمنادى محذوفٌ، وقرىء يا حسرةَ العبادِ بالإضافةِ إلى الفاعلِ أو المفعولِ، ويا حَسْرَهْ بالهاءِ على العبادِ بإجراءِ الوصلِ مَجْرَى الوقْفِ.

(٣١) ﴿أَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ ألم يعلموا وهو معلَّقٌ عن قوله: ﴿كَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّنَ ٱلۡقُرُونِ﴾ لأنَّ «كمْ» لا يعملُ فيها ما قبلَها وإنْ كانتْ خبريةً لأنَّ أصْلَها الاستفهامُ. ﴿أَنَّهُمۡ إِلَيۡهِمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ بدلٌ من كمْ على المعنَى أي ألم يروا كثرةَ إهلاكِنا مَنْ قبلَهم كونَهم غيرَ راجِعينَ إليهم. وقرىء بالكسرِ على الاستئنافِ.

(٣٢) ﴿وَإِن كُلّٞ لَّمَّا جَمِيعٞ لَّدَيۡنَا مُحۡضَرُونَ﴾ يومَ القيامة للجزاءِ، وإنْ مخفَّفةٌ من الثقيلة، واللامُ هي الفارقةُ وما مزيدةٌ للتأكيد. وقرأ ابنُ عامر وعاصم وحمزةُ لمَّا بالتشديدِ بمعنَى إلاَّ فتكونُ إنْ نافيةً، وجميعٌ فعيلٌ بمعنَى مفعولٍ، ولدينا ظرفٌ له، أو لمحضرونَ.

(٣٣) ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلۡأَرۡضُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ وقرأ نافعٌ بالتشديدِ. ﴿أَحۡيَيۡنَٰهَا﴾ خبرٌ للأرضِ، والجملةُ خبرُ آيةٍ،

(١) من الطويل.

أو صفةٌ لها إذ لم يردْ بها معيَّنةً وهي الخبرُ أو المبتدأُ والآيةُ خبرُهَا، أو استئنافٌ لبيانِ كونها آيةً. ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا﴾ جنسَ الحبِّ. ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ قدّم الصلةَ للدلالة على أنَّ الحبَّ معظمُ ما يُؤْكَلُ ويُعَاشُ به.

وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾ سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾

(٣٤) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ من أنواع النخلِ والعنبِ، ولذلك جمعَهُما دونَ الحبِّ فإنَّ الدالَّ على الجنسِ مشعِرٌ بالاختلافِ ولا كذلك الدالُّ على الأنواع، وذِكْرُ النخيلِ دونَ التمورِ ليطابقَ الحبَّ والأعنابَ لاختصاصِ شجرِها بمزيد النفع وآثارِ الصُّنع. ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا﴾ وقرىء بالتخفيفِ، والفَجْرُ والتفجير كالفتح والتفتيح لفظاً ومعنى. ﴿مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ أي شيئاً من العيونِ، فحُذِفَ الموصوفُ وأُقيمَتِ الصفةُ مقامَهُ، أو العيونِ ومِنْ مزيدةٌ عند الأخفشِ.

(٣٥) ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾ ثمرِ ما ذُكِرَ وهو الجناتُ. وقيل الضميرُ لله تعالى على طريقةِ الالتفاتِ، والإضافةُ إليه لأنَّ الثمرَ بخلقِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضمتين وهو لغةٌ فيه أو جمعُ ثمارٍ، وقرىء بضمةٍ وسكونٍ. ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ عطفٌ على الثمر والمرادُ ما يُتَّخَذُ منه كالعصير والدِّبْسِ ونحوِهما، وقيل ما نافيةٌ والمراد أنَّ الثمرَ بخلْقِ اللهِ لا بِفِعْلِهم، ويؤيدُ الأولَ قراءةُ الكوفيينَ غيرَ حفصٍ بلا هاءٍ فإنَّ حذْفَهُ من الصلةِ أحسنُ من غيرِها. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ أَمَرَ بالشكرِ من حيثُ إنه إنكارٌ لِتَرْكِهِ.

(٣٦) ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا﴾ الأنواعَ والأصنافَ. ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من النبات والشجرِ. ﴿وَمِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ الذَّكَرَ والأنثى. ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ وأزواجاً مما لم يُطْلِعْهم اللهُ تعالى عليه ولم يجعلْ لهم طريقاً إلى معرفته.

(٣٧) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾ نزيلُه ونكشِفُهُ عن مكانه مستعارٌ من سَلْخِ الجلدِ، والكلامُ في إعرابه ما سبقَ. ﴿فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ﴾ داخلونَ في الظلامِ.

(٣٨) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ لحدٍّ معيَّنٍ ينتهي إليه دورُها فَشُبِّهَ بِمُسْتَقَرِّ المسافر إذا قطعَ مسيرَهُ، أو لكبدِ السماءِ فإنَّ حَرَكَتَهَا فيه يوجدُ فيها بطءٌ بحيثُ يُظَنُّ أنَّ لها هناك وقْفَةً قال:

وَالشَّمْسُ حَيْرَى لَهَا بِالجَوِّ تَدْوِيمُ[1]

أو لاستقرار لها على نهجٍ مخصوص، أو لمنتهى مقدَّرٍ لكلِّ يومٍ من المشارق والمغاربِ فإنَّ لها في دورها ثَلَثَمِائَةٍ وستينَ مشرقاً ومغرباً تطلُع كلَّ يوم من مطلِعٍ وتغربُ من مغرِبٍ ثم لا تعودُ إليهما

(١) من البسيط.

إلى العام القابلِ، أو لمنقطِعٍ جزيها عند خرابِ العالم. وقرىء لا مستقرَّ لها أي لا سكونَ فإنَّها متحركةٌ دائماً، ولا مستقرٌّ على أنَّ لا بمعنى ليسَ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجريُ على هذا التقديرِ المتضمِّن لِلْحِكَم التي تُكِلُّ الفطِنَ عن إحصائها. ﴿تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ﴾ الغالبِ بقدرته على كلِّ مقدورٍ. ﴿ٱلْعَلِيمِ﴾ المحيطِ علمُه بكلِّ معلومٍ.

وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ
سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾ وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقْنَا لَهُم
مِّن مِّثْلِهِۦ مَا يَرْكَبُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٩) ﴿وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ﴾ قدَّرنا مسيرَهُ. ﴿مَنَازِلَ﴾ أو سَيْرَهُ في منازلَ وهي ثمانيةٌ وعشرونَ: الشرطانُ، البطينُ، الثريَّا، الدبرانُ، الهقعةُ، الهنعةُ، الذراع، النثرة، الطرف، الجبهةُ، الزبرة، الصرفة، العواء، السماكُ، الغفر، الزبانا، الإكليلُ، القلب، الشولة، النعائم، البلدةُ، سعدُ الذابح، سعدُ بلعٍ، سعدُ السعود، سعد الأخبيةِ، فرغ الدلو المقدَّم، فرغ الدلو المؤخَّر، الرشا، وهو بطنُ الحوت ينزل كلَّ ليلة في واحدٍ منها لا يتخطَّاه ولا يتقاصَرُ عنه، فإذا كان في آخرِ منازله وهو الذي يكونُ فيه قُبَيْلَ الاجتماعِ دقَّ واستقوسَ. وقرأ الكوفيونَ وابنُ عامرٍ والقمرَ بنصبِ الراء. ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ﴾ كالشمراخِ المعوجِ، فُعْلَونُ من الانعراجِ وهو الاعوجاجُ. وقرىء كالعِرْجَوْنِ وهما لغتانِ كالبِزْيَوْنِ والبُزْيُونِ(١). ﴿ٱلْقَدِيمِ﴾ العتيقِ وقيل ما مرَّ عليه حولٌ فصاعِداً.

(٤٠) ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ﴾ يصحُّ لها ويتسهلُ. ﴿أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ﴾ في سرعةِ سيرِهِ فإنَّ ذلك يخلُّ بتكوُّنِ النباتِ، وتعيُّشِ الحيوان، أو في آثارِه ومنافعِه أو مكانه بالنزولِ إلى محلِّه، أو سلطانه فتطمِسُ نورَه، وإيلاءُ حرفِ النفي الشمسَ للدلالةِ على أنها مسخرةٌ لا يتيسَّرُ لها إلا ما أُرِيدَ بها. ﴿وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ يسبقُه فيفوتُه ولكنْ يعاقبُه، وقيل المرادُ بهما آيتاهُما وهما النيرانُ وبالسبق سبقُ القمرِ إلى سلطانِ الشمسِ فيكون عكْساً للأول. وتبديلُ الإدراكِ بالسبقِ لأنه الملائِمُ لسرعةِ سيرِهِ. ﴿وَكُلٌّ﴾ وكلُّهم، والتنوينُ عوضٌ عن المضافِ إليه، والضميرُ للشموسِ والأقمارِ فإنَّ اختلافَ الأحوالِ يوجبُ تعدُّداً ما في الذاتِ، أو للكواكبِ فإنَّ ذِكْرَهُما مشعِرٌ بهما. ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ يسيرون فيه بانبساطٍ.

(٤١) ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أولادَهم الذين يبعثُونَهم إلى تجاراتِهم، أو صبيانَهم ونساءَهم الذين يستصْحِبونَهم، فإنَّ الذريةَ تقعُ عليهنَّ لأنهنَّ مزارِعُها. وتخصيصُهم لأنَّ استقرارَهم في السُّفنِ أشقُّ وتماسُكُهم فيها أعجبُ. وقرأ نافعٌ وابن عامر ذرياتِهم. ﴿فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ، وقيل المرادُ فُلْكُ نوحٍ عليه الصلاةُ والسلام، وحَمْلُ اللهُ ذرياتِهم فيها أنه حملَ فيها آباءَهم الأقدمينَ وفي أصلابِهم هم وذرياتُهم، وتخصيصُ الذريةِ لأنه أبلغُ في الامتنانِ وأدْخَلُ في التعجُّبِ مع الإيجازِ.

(٤٢) ﴿وَخَلَقْنَا لَهُم مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ من مثلِ الفُلْكِ. ﴿مَا يَرْكَبُونَ﴾ من الإبلِ فإنها سفائنُ البرِّ، أو من السفنِ والزوارقِ.

---

(١) هو السندس، غير أن الفيروز في المحيط أورده بضم الباء وبكسرها مع فتح الياء.

﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٨﴾ مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

(٤٣) ﴿وَإِن نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ﴾ فلا مغيثَ لهم يحرسُهم عن الغرقِ، أو فلا إغاثةَ كقولهم أتاهم الصريخُ. ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ ينجُون من الموتِ به.

(٤٤) ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا وَمَتَاعًا﴾ إلا لرحمةٍ ولتمتيعٍ بالحياة. ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ زمانٍ قُدِّر لآجالِهم.

(٤٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ﴾ الوقائعُ التي خلتْ، أو العذابُ المعدُّ في الآخرة، أو نوازلُ السماء ونوائبُ الأرض كقوله ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾[1] أو عذابُ الدنيا وعذابُ الآخرة أو عكسُه، أو ما تقدَّم من الذنوبِ وما تأخَّر. ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ لتكونوا راجينَ رحمةَ اللهِ، وجوابُ إذا محذوفٌ دلَّ عليه قولُه:

(٤٦) ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ آيَةٍ مِّنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ كأنه قال وإذا قيل لهم اتقوا العذابَ أعرضُوا لأنَّهم اعتادُوه وتمرَّنوا عليه[2].

(٤٧) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ على محاويجكُم. ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالصانعِ يعني معطِّلةً كانوا بمكَّةَ. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ تهكُّماً بهم من إقرارهم به وتعليقهم الأمورَ بمشيئته. ﴿أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾ على زعْمِكُم، وقيل قاله مشركو قريشٍ حين استطْعَمَهُم فقراءُ المؤمنينَ إيهاماً بأنَّ اللهَ تعالى لما كان قادراً أنْ يطعِمَهم ولم يطعِمْهم فنحنُ أحقُّ بذلك، وهذا من فَرْطِ جهالَتِهم فإنَّ اللهَ يطعمُ بأسبابٍ منها حثُّ الأغنياءِ على إطعام الفقراءِ وتوفيقُهم له. ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أمرتُمونا ما يخالِفُ مشيئةَ اللهِ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً منَ اللهِ لهم، أو حكايةً لجواب المؤمنينَ لهم.

(٤٨) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يعنُونَ وعْدَ البعثِ.

(٤٩) ﴿مَا يَنظُرُونَ﴾ ما ينتظرونَ. ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأُولَى. ﴿تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾ يتخاصمونَ في متاجرِهم ومعاملاتِهم لا يخطُر ببالِهم أمرُها كقوله ﴿أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾[3] وأصلُه يختصمونَ فسُكِّنَتِ التاء وأُدْغِمَتْ ثم كُسِرَتِ الخاءُ لالتقاءِ الساكنينِ. وقرأ أبو بكر بكسْرِ الياءِ للاتباع، وقرأ ابنُ كثير وورشٌ وهشام بفتح الخاء على إلقاءِ حركةِ التاء إليه، وأبو عمرو وقالونُ به مع الاختلاسِ، وعن نافع الفتحُ فيه والإسكانُ والتشديدُ وكأنه جوَّزَ الجمعَ بينَ

(١) سبأ: «٩».
(٢) وصيغة المضارع في تأتيهم للدلالة على الاستمرار التجددي (س٧/ ١٧٠).
(٣) يوسف: «١٠٧».

الساكنينِ إذا كان الثاني مدغماً، وقرأ حمزةُ يَخْصِمُونَ من خَصَمَه إذا جادلَه.

فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٠) ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً ﴾ في شيءٍ من أمورِهم. ﴿ وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴾ فيَرَوْا حالَهم بل يموتون حيثُ تَبْغَتُهُم.

(٥١) ﴿ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ﴾ أي مرةً ثانية وقد سبق تفسيرهُ في سورة المؤمنينَ[١]. ﴿ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ ﴾ من القبورِ، جمعُ جَدَثٍ وقرىء بالفاءِ. ﴿ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴾ يُسْرِعُون وقرىء بالضمِّ.

(٥٢) ﴿ قَالُوا۟ يَـٰوَيْلَنَا ﴾ وقرىء يا ويلتَنا. ﴿ مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ ﴾ وقرىءَ من أَهَبَّنا من هَبَّ من نومه إذا انْتَبَهَ ومن هَبَنَا بمعنى أَهَبَنَا، وفيه ترشيحٌ ورمزٌ وإشعارٌ بأنهم لاختلاطِ عقولهم يظنُّون أنهم كانوا نياماً، ومَنْ بَعَثَنَا ومن هَبَنَا على الجارّة والمصدرِ، وسكتَ حفصٌ وحدَه عليها سكتةً لطيفةً، والوقفُ عليها في سائرِ القراءاتِ حسنٌ. ﴿ هَـٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ وما مصدريةٌ، أو موصولةٌ محذوفةُ الراجعِ، أو هذا صفةٌ لمرقدنا وما وعد خبرٌ محذوفٌ، أو مبتدأٌ خبرُه محذوفٌ أي هذا ما وعدَ الرحمنُ وصدَقَ المرسلونَ، أو ما وعد الرحمنُ وصدق المرسلونَ حقٌّ، وهو من كلامِهم، وقيل جوابٌ للملائكة أو المؤمنينَ عن سؤالهم، معدولٌ عن سُنَنِه تذكيراً لكفرِهم وتقريعاً لهم عليه وتنبيهاً بأن الذي يهمُّهم هو السؤالُ عن البعْثِ دونَ الباعِثِ كأنهم قالوا: بعثكُم الرحمنُ الذي وعدَكُم البعثَ وأرسلَ إليكم الرسلَ فصدَّقوكم وليسَ الأمرُ كما تظنُّون، فإنه ليس يُبْعَثُ النائِمُ فيهمُّكم السؤالُ عن الباعثِ وإنما هو البعثُ الأكبرُ ذو الأهوالِ.

(٥٣) ﴿ إِن كَانَتْ ﴾ ما كانتِ الفعلةُ. ﴿ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً ﴾ هي النفخةُ الأخيرةُ، وقرئت بالرفع على كانَ التامةِ. ﴿ فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴾ بمجرَّد تلك الصيحةِ وفي كلٍّ ذلك تهوينُ أمرِ البعثِ والحشرِ واستغناؤُهما عن الأسبابِ التي ينوطانِ بها فيما يشاهدونَه.

(٥٤) ﴿ فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ حكايةٌ لما يُقَالُ لهم حينئذ تصويراً للموعودِ وتمكيناً له في النفوس وكذا قولُه:

(٥٥) ﴿ إِنَّ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَـٰكِهُونَ ﴾ متلذِّذُونَ في النِّعمةِ منَ الفكاهةِ، وفي تنكيرِ شُغُلٍ وإبهامِه تعظيمٌ لما هم فيه من البهجةِ والتلذذِ، وتنبيهٌ على أنه أعلى ما يحيطُ به الأفهامُ ويعربُ عن كُنْهِه ....

(١) والتعبير بصيغة الماضي «نُفِخَ» للدلالة على تحقق الوقوع (س٧/ ١٧١).

الكلامُ[١]. وقرأ ابن كثير ونافعٌ وأبو عمرو في شغْلٍ بالسكونِ، ويعقوبُ في روايةٍ فكِهُونَ للمبالغةِ، وهما خبرانِ لإنَّ، ويجوزُ أنْ يكونَ في شُغُلٍ صلةً لفاكهونَ. وقرىء فكُهونَ بالضمِّ وهو لغة كنُطُسٍ ونَطُسٍ، وفاكهين وفكِهينَ على الحالِ من المستكِنِّ في الظرفِ، وشَغَلٍ بفتحتين وفتحة وسكونٍ والكلُّ لغاتٌ.

﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾ ۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾

(٥٦) ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ﴾ جمعُ ظلٍّ كشعابٍ أو ظُلَّةٍ كقبابٍ ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ في ظُلَلٍ. ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على السررِ المزيَّنةِ. ﴿مُتَّكِـُٔونَ﴾ وهم مبتدأٌ خبرهُ في ظلالٍ، وعلى الأرائكِ جملةٌ مستأنَفَةٌ أو خبرٌ ثانٍ أو متكئونَ والجارَّانِ صِلتَانِ له، أو تأكيدٌ للضميرِ في شُغُلٍ أو في فاكهون، وعلى الأرائك متكئونَ خبرٌ آخرُ لإنَّ، وأزواجُهم عطفٌ على هم للمشاركةِ في الأحكامِ الثلاثةِ، وفي ظلالٍ حالٌ من المعطوفِ والمعطوفِ عليه.

(٥٧) ﴿لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ ما يدَّعون به لأنفسِهم يفتعلونَ من الدعاءِ كاشتوى واجْتَمَل إذا شَوَى وجَمَلَ لنفسِه، أو ما يتداعَوْنه كقولك ارْتَمَوْهُ بمعنى ترامَوْهُ، أو يَتَمَنَّوْنَ من قولهم ادعُ عليَّ ما شئتَ بمعنى تمنَّهْ عليَّ، أو ما يدَّعونه في الدنيا من الجنةِ ودرجاتِها، وما موصولةٌ أو موصوفةٌ مرتفعةٌ بالابتداءِ، ولهم خبرُها وقولُه:

(٥٨) ﴿سَلَٰمٌ﴾ بدلٌ منها أو صفةٌ أخرى، ويجوزُ أنْ يكونَ خبرَها أو خبرَ محذوفٍ أو مبتدأً محذوفَ الخبرِ أي ولهم سلامٌ، وقرىء بالنصبِ على المصدرِ أو الحالِ أي لهم مرادُهم خالِصاً. ﴿قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ﴾ أي يقولُ اللهُ أو يُقَالُ لهم قولاً كائناً من جهتِـهِ، والمعنى أنَّ اللهَ يسلِّمُ عليهم بواسطةِ الملائكةِ أو بغيرِ واسطةٍ تعظيماً لهم وذلك مطلوبُهم ومُتَمَنَّاهم، ويُحْتَمَلُ نصبُه على الاختصاصِ.

(٥٩) ﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وانفرِدُوا عن المؤمنينَ وذلك حينَ يُسَارُ بهم إلى الجنةِ كقوله ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ﴾[٢]. وقيل اعتزِلوا منْ كلِّ خيرٍ أو تفرَّقوا في النارِ فإنَّ لكلِّ كافرٍ بيتاً ينفردُ به لا يَرَى ولا يُرَى.

(٦٠) ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ من جملةِ ما يُقَالُ لهم تقريعاً وإلزاماً للحجَّةِ، وعهدُه إليهم ما نَصَبَ لهم من الحُجَجِ العقليةِ والسمعيةِ الآمِرةِ بعبادتهِ الزاجرةِ عن عبادةِ غيرِهِ، وجعلَها عبادةَ الشيطانِ، لأنه الآمِرُ بها والمزيِّنُ لها. وقرىء إعْهَدُ بكسْرِ حرفِ المضارَعَةِ، وأَحْهَدُ وأَحَّدْ على لغةِ بني تميمٍ. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ تعليلٌ للمنعِ عن عبادته بالطاعةِ فيما يحملُهم عليه.

---

(١) والتعبير عن حالهم هذه بالجملة الاسمية قبل تحققها بتنزيل المترقَّب المتوقَّع منزلة الواقع للإيذان بغاية سرعة تحققها ووقوعها، ولزيادة مساءة المخاطبين بذلك (س٧/ ١٧٣).

(٢) الروم: «١٤».

وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَٰذِهِۦ
جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ
وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُواْ
ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا وَلَا
يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾

(٦١) ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِيۚ﴾ عطفٌ على أنْ لا تعبُدوا[١]. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ إشارةٌ إلى ما عَهِدَ إليهم أو إلى عبادتِه، فالجملةُ استئنافٌ لبيانِ المقتضي للعهدِ بِشِقَّيْه أو بالشقِّ الآخَرِ، والتنكيرُ للمبالغةِ والتعظيمِ، أو للتبعيضِ فإنَّ التوحيدَ سلوكُ بعضِ الطريقِ المستقيم.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًاۖ أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾ رجوعٌ إلى بيانِ معاداةِ الشيطانِ مع ظهورِ عداوتِه ووضوحِ إضلالِه لمن له أدنى عقلٍ ورأيٍ، والجِبلُّ الخلْقُ. وقرأ يعقوبُ بضمتينِ، وابنُ كثير وحمزةُ والكسائي بهما مع تخفيفِ اللامِ، وابنُ عامر وأبو عمرو بضمةٍ وسكونٍ مع التخفيفِ، والكلُّ لغاتٌ، وقرىء جِبَلاً جمعُ جِبْلةٍ كخِلْقةٍ وخُلُقٍ، وجيلاً واحدُ الأجيال.

(٦٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾.

(٦٤) ﴿ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ ذوقوا حرَّها اليومَ بكفْرِكم في الدنيا.

(٦٥) ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ نمنعُها عن الكلام. ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ بظهورِ آثارِ المعاصي عليها ودلالتها على أفعالِها، أو إنطاقُ الله إيَّاها وفي الحديثِ «إنهم يجحدُون ويخاصِمون فيُختَمُ على أفواهِهم وتتكلَّم أيديهم وأرجلُهم»[٢].

(٦٦) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ لمسخنا أعينَهم حتى تصيرَ ممسوحةً. ﴿فَٱسْتَبَقُواْ ٱلصِّرَٰطَ﴾ فاستبقوا إلى الطريقِ الذي اعتادوا سلوكَه. وانتصابُه بنزعِ الخافضِ، أو بتضمينِ الاستباقِ معنى الابتدارِ، أو جعْلِ المسبوقِ إليه مسبوقاً على الاتساعِ، أو بالظرفِ. ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ الطريقَ وجهةَ السلوكِ فضلاً عن غيرِه.

(٦٧) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بتغيير صُوَرِهم وإبطالِ قُواهُم. ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ مكانَهم بحيثُ يجمدُون فيه، وقرأ أبو بكر مكاناتِهم. ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مُضِيًّا﴾ ذهاباً. ﴿وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ ولا رجوعاً، فوُضِعَ الفعلُ موضِعَه للفواصلِ، وقيل لا يرجعون عن تكذيبهم، وقرىء مِضِياً بإتباعِ الميمِ الضادَ المكسورةَ لقلبِ الواوِ ياءً كالعُتِيِّ والعِتِيِّ، ومَضِيّاً كصبيٍّ. والمعنى أنَّهم بكفرهم ونقضِهم ما عُهِدَ إليهم أحقاءَ بأنْ يُفْعَلَ بهم ذلك، لكنَّا لم نفعلْ لشمولِ الرحمةِ لهم واقتضاءِ الحكمةِ إمهالَهم.

---

(١) وتقديم النهي عن عبادة الشيطان على الأمر بعبادة الله لأن التخلية مقدمة على التحلية، كما في كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) (س/٧/ ١٧٥).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٤/ ٢٢٨٠ رقم ١٧/ ٢٩٦٩) من رواية الشعبي عن أنس.

﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾﴾

(٦٨) ﴿وَمَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ومن نُطِلْ عُمُرَهُ. ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ نقلِّبْهُ فيه فلا يزالُ يتزايدُ ضعفُه وانتقاضُ بُنْيَتِهِ وقُوَاهُ عكسَ ما كان عليه بَدْءُ أمرِهِ، وابنُ كثير على هذه يشبعُ ضمةَ الهاءِ على أصْلِهِ، وقرأ عاصم وحمزةُ نُنَكِّسْهُ من التنكيسِ وهو أبلغُ والنَّكسُ أشهرُ. ﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ أنَّ مَنْ قَدَرَ على ذلك قَدَرَ على الطمسِ والمسخِ فإنه مشتملٌ عليهما وزيادة، غير أنه على تدرُّجٍ. وقرأ نافع بروايةِ ابنِ عامر وابنِ ذكوانَ ويعقوبَ بالتاءِ لجري الخطابِ قبلَه.

(٦٩) ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ ردٌّ لقولهم إنَّ محمداً شاعرٌ أي ما علَّمناه الشعرَ بتعليم القرآنِ، فإنه لا يماثِلُه لفظاً ولا معنًى، لأنه غيرُ مقفًّى ولا موزونٍ، وليس معناه ما يتوخَّاه الشعراءُ من التخيلاتِ المرغِّبةِ والمنفِّرةِ ونحوِها. ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ﴾ وما يصحُّ له الشعرُ ولا يتأتَّى له إنْ أرادَ قَرْضَهُ على ما خبرتُم طَبْعَهُ نحواً من أربعينَ سنةً، وقوله عليه الصلاةُ والسلام:

«أنا النبي لا كذبْ أنا ابن عبدالمطلبْ»[١].

وقوله عليه الصلاة والسلام: «هل أنت إلا إصبعٌ دميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ»[٢].

اتفاقيٌّ من غير تكلُّفٍ وقصدٍ منه إلى ذلك، وقد يقعُ مثلُه كثيراً في تضاعيفِ المنثوراتِ، على أنَّ الخليلَ ما عدَّ المشطورَ من الرجزِ شعراً، هذا وقد روي أنه حرَّكَ الباءينِ وكسرَ التاءَ الأولى بلا إشباعٍ وسكَّنَ الثانيةَ، وقيل الضميرُ للقرآنِ أي وما يصحُّ للقرآنِ أنْ يكون شعراً. ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ وإرشادٌ من الله تعالى. ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ وكتابٌ سماويٌّ يتلى في المعابدِ، ظاهرٌ أنه ليس من كلام البشرِ لما فيه من الإعجازِ.

(٧٠) ﴿لِّيُنذِرَ﴾ القرآنُ، أو الرسولُ ﷺ. ويؤيدُه قراءةُ نافع وابنِ عامر ويعقوبَ بالتاء. ﴿مَن كَانَ حَيًّا﴾ عاقلاً فِهماً فإنَّ الغافل كالميتِ، أو مؤمناً في علمِ الله تعالى فإنَّ الحياةَ الأبديةَ بالإيمان، وتخصيصُ الإنذارِ به لأنه المنْتَفَعُ به. ﴿وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتجبُ كلمةُ العذابِ. ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المصرِّينَ على الكفر، وجَعْلُهم في مقابلةِ مَنْ كان حياً إشعاراً بأنهم لكفرِهم وسقوطِ حجَّتهم وعدمِ تأمُّلِهم أمواتٌ في الحقيقةِ.

(٧١) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ مما تولَّينا إحداثَه ولم يقدرْ على إحداثِه غيرُنا، وذِكْرُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٦٩ رقم ٢٨٦٤) و(٦/٧٥ رقم ٢٨٧٤) و(٦/١٠٥ رقم ٢٩٤٠) و(٦/١٦٤ رقم ٣٠٤٢) و(٨/٢٧ ـ ٢٨ رقم ٤٣١٥، ٤٣١٦، ٤٣١٧).
ومسلم (٣/١٤٠٠ ـ ١٤٠١ رقم ٧٨، ٧٩، ٨٠/١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب.

(٢) أخرجه البخاري (٦/١٩ رقم ٢٨٠٢) و(١٠/٥٣٧ رقم ٦١٤٦) ومسلم (٣/١٤٢١ رقم ١١٢/١٧٩٦) من حديث جندب بن سفيان.

الأيدي وإسنادُ العملِ إليها استعارةٌ تفيد مبالغةً في الاختصاصِ والتفردِ بالإحداثِ. ﴿أَنْعَٰمًا﴾ خصَّها بالذِّكْرِ لما فيها من بدائعِ الفطرةِ وكثرةِ المنافعِ. ﴿فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ﴾ متملِّكونَ لها بتمليكِنا إيَّاها، أو متمكِّنون من ضَبْطِها والتصرُّفِ فيها بتسخيرنا إيَّاها لهم قال:

أَصْبَحْـــتُ لاَ أَحْمِـــلُ السِّـــلاَحَ وَلاَ أَمْلِـــكُ رَأْسَ البَعِيـــرِ إنْ نَفَـــرَا[1]

وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾

(٧٢) ﴿وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ﴾ وصيَّرناها منقادةً لهم. ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ﴾ مركوبُهم. وقرىء ركوبتُهم، وهي بمعناهُ كالحلوبِ والحلوبةِ، وقيل جمعُه وركوبُهم أي ذو ركوبِهم أو فَمِنْ منافِعِها ركوبُهم. ﴿وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ أي ما يأكلون لحمَهُ.

(٧٣) ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ من الجلود والأصوافِ والأوبار. ﴿وَمَشَارِبُ﴾ من اللَّبنِ جمعُ مشربٍ بمعنى الموضعِ، أو المصدرِ، وأمالَ الشينَ ابنُ عامر وحدَه بروايةِ هشام. ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ نِعَمَ الله في ذلك إذ لولا خلقُه لها وتذليلُه إيَّاها كيف أمكنَ التوسُّلُ إلى تحصيلِ هذه المنافعِ المهمَّةِ.

(٧٤) ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً﴾ أشركُوها به في العبادة بعدَ ما رأوا منه تلك القدرةِ الباهرةَ والنِّعمَ المتظاهرةَ، وعلموا أنه المتفردُ بها. ﴿لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ﴾ رجاءَ أن ينصُروهم فيما حَزَبَهُم من الأمورِ، والأمرُ بالعكسِ لأنهم.

(٧٥) ﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ﴾ لآلهتِهم. ﴿جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ مُعَدُّونَ لحفظِهم والذبِّ عنهم، أو محضَرونَ أَثَرَهُمْ في النار.

(٧٦) ﴿فَلَا يَحْزُنكَ﴾ فلا يهمَّنَّكَ، وقرىء بضمِّ الياء من أَحْزَنَ. ﴿قَوْلُهُمْ﴾ في الله بالإلحادِ والشركِ، أو فيك بالتكذيب والتهجينِ. ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فنجازيهم عليه وكفَى ذلك أنْ تسلَّى به، وهو تعليل للنهي على الاستئنافِ ولذلك لو قرىءَ أنَّا بالفتحِ على حذفِ لامِ التعليل جازَ.

(٧٧) ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ تسليةٌ ثانيةٌ بتهوين ما يقولونَه بالنسبةِ إلى إنكارِهم الحشرَ، وفيه تقبيحٌ بليغٌ لإنكاره حيثُ عجَبَ منه وجعلَه إفراطاً في الخصومةِ بيِّناً، ومنافاةٌ لجحودِ القدرةِ على ما هو أهونُ مما عملَه في بَدْءِ خلْقه، ومقابلةُ النعمةِ التي لا مزيدَ عليها ـ وهي خلقُه من أخسِّ شيءٍ وأمهنِه شريفاً مكرماً ـ بالعقوقِ والتكذيب. روي أنَّ أبيَّ بنَ خلفٍ أتى النبيَّ ﷺ بعظْمٍ بالٍ يفتِّتُهُ بيدِهِ وقال: أترى اللهَ يحيي هذا بعدَ ما رُمَّ، فقال عليه الصلاة والسلام: «نعمْ ويبعثُك

(١) من المنسرح.

ويدخلُك النارَ» فنزلتْ[١]. وقيل معنى فإذا هو خصيمٌ مبين فإذا هو بعدَ ما كان ماءً مهيناً مميِّزٌ مِنْطِيْقٌ قادر على الخصامِ معرِبٌ عما في نفسِه.

وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ
وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾
أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ
أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ أمراً عجيباً وهو نفيُ القدرة على إحياءِ الموتى، أو تشبيهُه بخلْقه بوصْفِه بالعجزِ عما عجزُوا عنه. ﴿وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ﴾ خلْقَنا إياه. ﴿قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ منكراً إياه مستبعِداً له، والرميمُ ما بليَ من العظام، ولعلَّه فعيلٌ بمعنى فاعلٍ من رمَّ الشيءُ صار اسماً بالغلَبةِ ولذلك لم يؤنَّثْ، أو بمعنى مفعولٍ من رَمَمْتُهُ. وفيه دليلٌ على أنَّ العظْمَ ذو حياةٍ فيؤثِّرُ فيه الموتُ كسائرِ الأعضاءِ.

(٧٩) ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ فإنَّ قدرتَه كما كانتْ لامتناع التغيُّرِ فيه، والمادةُ على حالها في القابليةِ اللازمةِ لذاتها. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ يعلمُ تفاصيلَ المخلوقاتِ بعلمه وكيفيةَ خلْقِها، فيعلمُ أجزاءَ الأشخاص المتفتتةَ المتبددةَ أصولَها وفصولَها ومواقعَها وطريقَ تمييزها وضمَّ بعضَها إلى بعضٍ على النمطِ السابق وإعادةَ الأعراضِ والقُوى التي كانتْ فيها أو إحداثَ مِثْلِها.

(٨٠) ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ﴾ كالمرخ والعَفارِ[٢]. ﴿نَارًا﴾ بأنْ يُسْحَقَ المرخُ على العفارِ وهما خضراوانِ يقطرُ منهما الماءُ فتنقدحُ النارُ. ﴿فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ لا تشكُّونَ فإنها نارٌ تخرج منه، ومَنْ قدرَ على إحداثِ النارِ من الشجر الأخضرِ مع ما فيه من المائيةِ المضادَّةِ لها بكيفيَّتها كان أقدرَ على إعادةِ الغضاضةِ فيما كان غضّاً فيبِسَ وبَلِيَ، وقرىء من الشجر الخضراءِ على المعنى كقوله ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾[٣].

(٨١) ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ معَ كبرِ جُرْمِهما وعِظَمِ شأنِهما. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ في الصغرِ والحقارةِ بالإضافة إليهما، أو مِثْلَهم في أصولِ الذاتِ وصفاتِها وهو المعادُ، وعن يعقوبَ يقدرُ. ﴿بَلَىٰ﴾ جوابٌ من الله تعالى لتقريرِ ما بعدَ النفي مشعِرٌ بأنه لا جوابَ سواهُ. ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كثيرُ المخلوقاتِ والمعلوماتِ.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/٣٠) عن مجاهد، وأخرجه الحاكم (٤٢٩/٢) من حديث ابن عباس. قال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.
وأخرجه ابن جرير (١٢/ج٢٣/٣٠) عن سعيد بن جبير.

(٢) المَرَخ والعَفَار نوعان من الشجر تُقْدح منه النار (مختار الصحاح مادة عفر).

(٣) **الواقعة: «٥٢».**

(٨٢) ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ﴾ إنّما شأنه. ﴿إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن﴾ أي تكونُ. ﴿فَيَكُونُ﴾ فهو يكونُ أي يحدثُ، وهو تمثيلٌ لتأثير قدرتِهِ في مرادِه بأمرِ المطاعِ للمطيعِ في حصولِ المأمورِ من غيرِ امتناعٍ وتوقُّفٍ وافتقارٍ إلى مزاولةِ عملٍ واستعمالِ آلةٍ قطعاً لمادةِ الشُّبْهةِ، وهو قياسُ قدرةِ الله تعالى على قدرةِ الخلْقِ، ونَصَبَهُ ابنُ عامر والكسائيُّ عطفاً على يقولُ.

(٨٣) ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ تنزيهٌ له عما ضربوا له، وتعجيبٌ عما قالوا فيه معلّلاً بكونِهِ مالِكاً للأمرِ كلِّه قادراً على كلِّ شيءٍ. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ وعْدٌ ووعيدٌ للمقرِّينَ والمنكرينَ، وقرأ يعقوبُ بفتحِ التاءِ. وعن ابن عباس رضي الله عنه: كنتُ لا أعلمُ ما رويَ في فضْلِ يسٓ كيفَ خصَّتْ به فإذا أنه بهذهِ الآيةِ[1]. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إنَّ لكلِّ شيءٍ قلباً وقلبُ القرآنِ يسٓ، وأيُّما مسلمٍ قرأها يريدُ بها وجْهَ الله غَفَرَ الله له وأُعْطِيَ من الأجْرِ كأنَّما قرأ القرآنَ اثنتين وعشرنَ مرَّةً، وأيُّما مسلمٍ قُرِىءَ عنده إذا نزلَ به ملكُ الموتِ سورةَ يسٓ نزلَ بكلِّ حرفٍ منها عشرةُ أملاك يقومونَ بينَ يديه صفوفاً يصلُّون عليه ويستغفرونَ له، ويشهدونَ غُسْلَهُ ويشيِّعونَ جنازتَه ويصلُّون عليه، ويشهدون دَفْنَهُ، وأيُّما مسلمٍ قرأ يسٓ وهو في سكراتِ الموتِ لم يقبضْ ملكُ الموتِ روحَه حتى يجيئَه رضوانُ بِشُرْبَةٍ منَ الجنةِ فيشربَها وهو على فراشِه فيقبضُ روحَه وهو ريَّانُ، ويمكثُ في قبرِهِ وهو ريَّانُ، ولا يحتاجُ إلى حوضٍ من حياضِ الأنبياءِ حتى يدخلَ الجنةَ وهو ريَّانُ»[2].



---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٤٠ رقم ٢٨٥): «لم أجده».

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٤٠ رقم ٢٨٦): «أخرجه ابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب.
وأوله في الترمذي ـ (٥/ ١٦٢ رقم ٢٨٨٧) ـ من رواية هارون أبي محمد عن مقاتل بن حيان عن قتادة عن أنس.
وقال: غريب وهارون مجهول. وفي الباب عن أبي بكر وأبي هريرة.
فأما حديث أبي هريرة فأخرجه البزار وفيه حميد المكي مولى آل علقمة وهو ضعيف، وحديث أبي بكر أخرجه الحكيم الترمذي» هـ.
وقال الترمذي في السنن (٥/ ١٦٣) «وفي الباب عن أبي بكر الصديق، ولا يصح من قبل إسناده إسنادُهُ ضعيف» هـ.
وحكم الألباني في «الضعيفة» على حديث أنس بالوضع (رقم: ١٦٩).

سُورَةُ الصَّافَّاتِ ترتيبها ٣٧ آياتها ١٨٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا ﴿١﴾ فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا ﴿٢﴾ فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٣﴾ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ ﴿٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ ﴿٥﴾ إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ﴿٦﴾ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ ﴿٧﴾ لَّا يَسَّمَّعُونَ
إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ﴿٨﴾

سورةُ الصافاتِ مكيةٌ(١) وآيُها مائةٌ واثنتانِ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفًّا﴾.

(٢) ﴿فَٱلزَّٰجِرَٰتِ زَجْرًا﴾.

(٣) ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ أقسم بالملائكةِ الصافِّين في مقامِ العبوديةِ، على مراتبَ باعتبارها تفيضُ عليهم الأنوارُ الإلهيةُ، منتظرينَ لأمرِ الله الزاجرينَ الأجرامَ العلويةَ والسفليةَ بالتدبير المأمورِ به فيها، أوِ الناسَ عن المعاصي بإلهامِ الخير، أو الشياطينَ عن التعرُّضِ لهم التالينَ آياتِ الله وجلايا قُدْسِه على أنبيائِه وأوليائِه، أو بطوائفِ الأجرامِ المرتَّبةِ كالصفوفِ المرصوصةِ والأرواحِ المدبِّرة لها والجواهرِ القدسيةِ المستغرقةِ في بحارِ القدس ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾(٢) أو بنفوسِ العلماءِ الصافِّينَ في العباداتِ الزاجرينَ عن الكفرِ والفسوقِ بالحجَجِ والنصائحِ التالينَ آياتِ اللهِ وشرائعَه، أو بنفوسِ الغزاةِ الصافِّين

(١) قال ابن الجوزي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية كلها بإجماعهم» وقال الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ٦٤): «مكية ولم يحكوا في ذلك خلافاً وهي مائة وإحدى وثمانون آية عند البصريين، ومائة واثنتان وثمانون عند غيرهم. . .» هـ.

(٢) الأنبياء: «٢٠».

في الجهادِ الزاجرينَ الخيلَ أو العدوَّ التالينَ ذِكْرَ الله لا يشغلُهم عنه مباراةُ العدوِّ. والعطفُ لاختلاف الذواتِ أو الصفاتِ، والفاءُ لترتيبِ الوجودِ كقوله:

يا لهفَ زيابةَ للحارثِ الصـ ـابحِ فالغانمِ فالآيبِ

فإنَّ الصفَّ كمالٌ والزَّجْرَ تكميلٌ بالمنعِ عن الشرِّ، أو الإشاقة إلى قبولِ الخير والتلاوة إفاضته، أو الرتبةَ كقوله عليه الصلاة والسلام «رحمَ اللهُ المحلِّقين فالمقصرينَ»[١] غيرَ أنه لفضلِ المتقدِّم على المتأخِّرِ وهذا للعكسِ. وأَدْغَمَ أبو عمرو وحمزةُ التاءاتِ فيما يليها لتقارُبِها فإنَّها من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا.

(٤) ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ جوابٌ للقسم، والفائدةُ فيه تعظيمُ المقْسَمِ به وتأكيدُ المقسَمِ عليه على ما هو المألوفُ في كلامهم، وأما تحقيقُه فبقوله تعالى.

(٥) ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ ٱلْمَشَٰرِقِ﴾ فإنَّ وجودَها وانتظامَها على الوجْهِ الأكملِ مع إمكانِ غيرِهِ دليلٌ على وجودِ الصانعِ الحكيم، ووحْدَتِهِ على ما مرَّ غيرَ مرَّةٍ، وربُّ بدلٌ من واحدٍ أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ محذوفٌ وما بينَهما يتناولُ أفعالَ العبادِ فيدلَّ على أنَّها من خَلْقِه، والمشارِقُ مشارقُ الكواكبِ أو مشارقُ الشمسِ في السَّنَةِ وهي ثلاثُمِائةٍ وستونَ مشرِقاً، تشرقُ كلَّ يومٍ في واحد وبِحَسَبِها تختلفُ المغارِبُ، ولذلك اكْتَفَى بذكْرِها مع أنَّ الشروقَ أدلُّ على القدرةِ وأبلغُ في النعمةِ، وما قيل إنها مائةٌ وثمانون إنما يصحُّ لو لم تختلفْ أوقاتُ الانتقالِ.

(٦) ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ القُرْبَى منكم. ﴿بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ﴾ بزينةٍ هي الكواكبُ والإضافةُ للبيان، ويعضِّدُهُ قراءةُ حمزةَ ويعقوبَ وحفصٍ بتنوين زينةٍ وجرِّ الكواكبِ على إبدالها منه، أو بزينةٍ هي لها كأضوائِها وأوضاعِها، أو بأنْ زيَّنا الكواكبَ فيها على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ فإنها كما جاءتِ اسماً كاللِّيقةِ جاءتْ مصدراً كالنسبةِ ويؤيدُه قراءةُ أبي بكر بالتنوينِ، والنصبُ على الأصلِ أو بأنَّ زِيْنَتَهَا الكواكبُ على إضافته إلى الفاعلِ، وركوزُ الثوابتِ في الكرةِ الثامنةِ وما عدا القمرَ من السياراتِ في الستِّ المتوسطةِ بينَها وبينَ السماء الدنيا أنْ تحقَّق لم يقدحْ في ذلك، فإنَّ أهلَ الأرض يرونَها بأسْرِها كجواهرَ مشرقةٍ متلألئةٍ على سطْحِها الأزرقِ بأشكالٍ مختلفة.

(٧) ﴿وَحِفْظًا﴾ منصوبٌ بإضمارِ فعله، أوِ العطفُ على زينةٍ باعتبار المعنى، كأنه قال إنا خلقنا الكواكبَ زينةً للسماء الدنيا وحفظاً. ﴿مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ خارجٍ من الطاعة برمي الشُّهبِ.

(٨) ﴿لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ كلامٌ مبتدأٌ لبيان حالهم بعدَ ما حفظَ السماءَ عنهم، ولا يجوزُ جعلُه صفةً لكلِّ شيطان، فإنه يقتضي أنْ يكونَ الحفظُ من شياطينَ لا يسمعونَ، ولا علَّة للحفظِ على حذْفِ اللامِ كما في جئتُك أنْ تكرِمَني، ثم حذفَ أنْ وأهدَرَها كقوله:

ألا أيُّهذا الزاجري أحضرَ الوغى[٢]

---

(١) لم أجده بهذا اللفظ. ولكن أخرج البخاري (٣/ ٥٦١ رقم ١٧٢٧) ومسلم (٢/ ٩٤٥ رقم ١٣٠١) بنحوه من حديث عبدالله بن عمر.

(٢) شطر من الطويل.

فإنَّ اجتماعَ ذلك منكرٌ والضمير لكلٍّ باعتبار المعنى، وتعديةُ السماع بإلى لتضمُّنِه معنى الإصغاءِ مبالغةً لنفيه، وتهويلاً لما يمنُعهم عنه، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وحفصٍ بالتشديدِ من التسمُّع، وهو طلبُ السماعِ، والملأُ الأعلى الملائكةُ وأشرافُهم. ﴿وَيُقْذَفُونَ﴾ ويُرْمَوْنَ. ﴿مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾ من جوانبِ السماءِ إذا قصدوا صعودَهُ.

دُحُورًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿٩﴾ إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴿١٠﴾ فَٱسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآۚ إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ﴿١١﴾

(٩) ﴿دُحُورًاۖ﴾ علةٌ أي للدحورِ وهو الطردُ!، أو مصدرٌ لأنه والقذفَ متقاربانِ، أو حالٌ بمعنى مدحورينَ أو منزوعٌ عنه الباءُ جمعُ دُخرٍ، وهو ما يُطْرَدُ به ويقوِّيه القراءةُ بالفتح، وهو يحتمِلُ أيضاً أنْ يكونَ مصدراً كالقبولِ أو صفةً له أي قذفاً دحوراً. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ﴾ أي عذابٌ آخَرُ. ﴿وَاصِبٌ﴾ دائمٌ أو شديدٌ وهو عذابُ الآخرة.

(١٠) ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ﴾ استثناءٌ من واوِ يسمعونَ ومَنْ بدلٌ منه، والخطْفُ الاختلاسُ، والمرادُ اختلاسُ كلام الملائكةِ مسارقةً ولذلك عرفَ الخطْفةَ. وقرىء خِطِّف بالتشديدِ مفتوحَ الخاءِ ومكسورَها، وأصلُها اختَطَفَ. ﴿فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ﴾ أتبعَ بمعنى تَبِعَ، والشهابُ ما يُرَى كأنَّ كوكباً انقضَّ، وما قيلَ إنه بخارٌ يصعدُ إلى الأثيرِ فيشتعلُ فتخمينٌ إنْ صحَّ لم ينافِ ذلك، إذ ليس فيه ما يدلُّ على أنه ينقضُّ من الفُلْكِ ولا في قوله ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾[1] فإنَّ كلَّ نيِّرٍ يحصلُ في الجوِّ العالي فهو مصباحٌ لأهلِ الأرضِ، وزينةٌ للسماء من حيثُ إنه يُرَى كأنه على سطْحِه، ولا يبعدُ أنْ يصيرَ الحادثُ كما ذُكِرَ في بعض الأوقاتِ رجْماً لشياطينَ تتصعَّدُ إلى قُرْبِ الفلكِ للتسمُّع، وما رُوِيَ أنَّ ذلك حَدَثَ بميلادِ النبيِّ عليه الصلاةُ والسلام إنْ صحَّ فلعلَّ المرادَ كثرةُ وقوعِه أو مصيرُه دحوراً. واخْتُلِفَ في أنَّ المرجومَ يتأذَّى به فيرجعُ أو يحترقُ به، لكنْ قد يصيبُ الصاعدَ مرَّةً وقد لا يصيبُ كالموجِ لراكبِ السفينةِ ولذلك لا يرتدعِون عنه رأساً، ولا يُقَالُ إنَّ الشيطانَ من النارِ فلا يحترقُ، لأنه ليس من النارِ الصِّرْفِ كما أنَّ الإنسانَ ليس مِنَ الترابِ الخالصِ مع أنَّ النارَ القويةَ إذا استولتْ على الضعيفةِ استهلكتْها. ﴿ثَاقِبٌ﴾ مضيءٌ كأنه يثقبُ الجوَّ بضوئِه.

(١١) ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ﴾ فاستخبِرهم، والضميرُ لمشركي مكَّةَ أو لبني آدمَ. ﴿أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآۚ﴾ يعني ما ذُكِرَ من الملائكةِ والسماءِ والأرضِ وما بينهما، والمشارقُ والكواكبُ والشُّهبُ الثواقبُ، ومَنْ لتغليبِ العقلاءِ ويدلُّ عليه إطلاقُه ومجيئُه بعدَ ذلك، وقراءةُ مَنْ قرأَ أمْ مَنْ عَدَدْنا، وقوله: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ فإنه الفارقُ بينَهم وبينَها لا بينَهم وبينَ مَنْ قبلَهم وكعادٍ وثمودَ، وإنَّ المرادَ إثباتُ المعادِ وردُّ استحالتِه، والأمرُ فيه بالإضافةِ إليهم وإلى مَنْ قبلَهم سواءٌ، وتقريرهُ أنَّ استحالةَ ذلك إما لعدمِ قابليةِ المادةِ، ومادَّتُهم الأصليةُ هي الطينُ اللازبُ الحاصلُ مِنْ ضمِّ الجزءِ المائي إلى الجزءِ الأرضي،

---

(١) الملك: «٥».

وهما باقيانِ قابلانِ للانضمام بعدُ، وقد علموا أنَّ الإنسانَ الأولَ إنما تولَّد منه إما لاعترافِهم بحدوثِ العالَم أو بقصةِ آدمَ، وشاهدوا تولُّدَ كثيرٍ منَ الحيواناتِ منه بلا توسُّطِ مواقعةٍ، فلزِمَهم أنْ يجوِّزوا إعادتَهم كذلك، وإما لعدمِ قدرةِ الفاعلِ، ومَنْ قَدَرَ على خلْقِ هذه الأشياءِ قدرَ على ما لا يُعْتَدُّ به بالإضافةِ إليها سِيَّما ومِنْ ذلك بَدْؤُهم أولاً، وقدرته ذاتيةٌ لا تتغيرُ.

﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ ﴿١٤﴾ وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿١٦﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿١٧﴾ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ ﴿١٨﴾ فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١٢) ﴿بَلْ عَجِبْتَ﴾ من قدرةِ الله تعالى وإنكارِهم للبعْثِ. ﴿وَيَسْخَرُونَ﴾ من تعجُّبِكَ وتقريرِك للبعثِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بضمِّ التاءِ أي بلغَ كمالَ قدرتي وكثرةَ خلائقي أنْ تعجَّبْتُ منها، وهؤلاءِ لجهْلِهم يسخرونَ منها. أو عجِبْتُ من أنْ ينكِرَ البعثَ ممن هذه أفعالُه وهم يسخرونَ ممن يجوزُه. والعجبُ منَ اللهِ تعالى إما على الفرضِ والتخييلِ أو على معنَى الاستعظامِ اللازمِ له فإنه روعةٌ تعتري الإنسانَ عند استعظامِه الشيءَ، وقيل إنه مقدَّرٌ بالقولِ أي: قال يا محمدُ بل عجبتَ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ﴾ وإذا وُعِظُوا بشيءٍ لا يتَّعِظُون به، أو إذا ذُكِرَ لهم ما يدلُّ على صِحَّةِ الحشْرِ لا ينتفعون به لبلادَتِهم وقلَّةِ فِكْرِهم.

(١٤) ﴿وَإِذَا رَأَوْا آيَةً﴾ معجزةً تدلُّ على صِدْقِ القائلِ به. ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يبالغون في السخريةِ ويقولون إنه سحرٌ، أو يستدعي بعضُهم من بعضٍ أنْ يسخرَ منها.

(١٥) ﴿وَقَالُوا إِنْ هَٰذَا﴾ يعنُونَ ما يَرَوْنَهُ. ﴿إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ سِحْرِيَّتُهُ.

(١٦) ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أصلُه انبعثَ إذا مِتْنا فبدَّلوا الفعليةَ بالاسميةِ وقدَّموا الظرفَ وكرَّرُوا الهمزةَ مبالغةً في الإنكارِ، وإشعاراً بأنَّ البعثَ مستنكَرٌ في نفسِه وفي هذه الحالةِ أشدُّ استنكاراً، فهوَ أبلغُ من قراءةِ ابنِ عامرٍ بطرحِ الهمزةِ الأُولى، وقراءةُ نافعٍ والكسائيِّ ويعقوبَ بطرحِ الثانية.

(١٧) ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ عطفٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، أو على الضمير في مبعوثونَ فإنه مفصولٌ منه بهمزةِ الاستفهامِ لزيادةِ الاستبعادِ لبعدِ زمانهم، وسكَّنَ نافعٌ بروايةِ قالونَ بنِ عامرٍ والواوُ على معنَى الترديدِ.

(١٨) ﴿قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ﴾ صاغرون، وإنما اكْتُفِيَ به في الجوابِ لِسَبْقِ ما يدلُّ على جوازِه وقيامِ المعجزِ على صِدْقِ المخبرِ عن وقوعِه، وقُرِىءَ قال أي اللهُ أو الرسولُ، وقرأ الكسائيُّ وحدَه نَعِمْ بالكسرِ وهو لغةٌ فيه.

(١٩) ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ جوابُ شرطٍ مقدَّرٍ أي إذا كان ذلك فإنما البعثةُ زجرةٌ أي صيحةٌ واحدةٌ، وهي النفخةُ الثانية من زَجَرَ الراعي غَنَمَهُ إذا صاحَ عليها وأَمَرَها في الإعادةِ كأمْرِ كُنْ في الإبداءِ، ولذلك رُتِّبَ عليها. ﴿فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ﴾ فإذا هم قيامٌ من مراقِدِهم أحياءٌ يبصرون، أو ينتظرون ما يُفْعَلُ بهم.

وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ﴿٢٠﴾ هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢١﴾ ۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمۡۖ إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ ﴿٢٤﴾ مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾ بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ ﴿٢٦﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٧﴾ قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٨﴾ قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ يَٰوَيۡلَنَا هَٰذَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ﴾ اليومُ الذي نُجَازَى بأعمالِنا وقد تمَّ به كلامُهم وقولُه:

(٢١) ﴿هَٰذَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ جوابُ الملائكةِ، وقيل هو أيضاً من كلامِ بعضِهم لبعضٍ، والفصلُ القضاءُ، أوِ الفرقُ بينَ المحسنِ والمسيءِ.

(٢٢) ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ أمْرُ اللهِ للملائكةِ، أو أمْرُ بعضِهم لبعضٍ بحشْرِ الظَّلَمةِ من مقامِهم إلى الموقفِ. وقيل منه إلى الجحيم. ﴿وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ وأشباهَهم عابدَ الصنمِ مع عبدةِ الصَّنم وعابدَ الكوكبِ مع عبدَتِه كقوله تعالى: ﴿وَكُنتُمۡ أَزۡوَٰجٗا ثَلَٰثَةٗ﴾[1] أو نساءَهم اللاتي على دينهم أو قُرناءَهم من الشياطين. ﴿وَمَا كَانُواْ يَعۡبُدُونَ﴾.

(٢٣) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنامِ وغيرِها زيادةً في تحسيرِهم وتخجيلِهم، وهو عامٌّ مخصوصٌ بقولِه تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾[2] الآيةَ، وفيه دليلٌ على أنَّ الذينَ ظلموا هم المشركونَ. ﴿فَٱهۡدُوهُمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ فعرِّفوهم طريقاً ليسلُكُوها.

(٢٤) ﴿وَقِفُوهُمۡۖ﴾ احْبِسُوهم في الموقفِ. ﴿إِنَّهُم مَّسۡـُٔولُونَ﴾ عن عقائدِهم وأعمالِهم، والواوُ لا توجِبُ الترتيبَ مع جوازِ أنْ يكونَ موقفُهم متعدِّداً.

(٢٥) ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ﴾ لا ينصُرُ بعضُكم بعضاً بالتخليصِ، وهو توبيخٌ وتقريعٌ.

(٢٦) ﴿بَلۡ هُمُ ٱلۡيَوۡمَ مُسۡتَسۡلِمُونَ﴾ منقادُونَ لعجْزِهم وانسدادِ الحِيَلِ عليهم، وأصلُ الاستسلامِ طلبُ السلامةِ أو متسالمون كأنه يسلِّمُ بعضُهم بعضاً ويخذُله.

(٢٧) ﴿وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ يعني الرؤساءَ والأتباعَ أو الكفرةَ والقُرَناءَ. ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ يسألُ بعضُهم بعضاً للتوبيخ ولذلك فُسِّرَ بيتخاصمون.

(٢٨) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَأۡتُونَنَا عَنِ ٱلۡيَمِينِ﴾ عن أقوى الوجوهِ وأيمنِها، أو عن الدينِ، أو عن الخيرِ كأنكم تنفعونَنا نفعَ السانحِ فتبعْناكم وهلكْنا، مستعارٌ من يمينِ الإنسانِ الذي هو أقوى الجانبينِ وأشرفُهما وأنفعُهما، ولذلك سُمِّيَ يميناً وتَيَمَّنَ بالسانحِ، أو عن القوةِ والقهرِ فتقسُروننا على الضلالِ، أو عن الحلِفِ فإنهم كانوا يحلِفونَ لهم إنهم على الحقِّ.

(٢٩) ﴿قَالُواْ بَل لَّمۡ تَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾.

---

(١) الواقعة: «٧».
(٢) الأنبياء: «١٠١».

وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ ﴿٣٠﴾ فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ ﴿٣١﴾ فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا
غَٰوِينَ ﴿٣٢﴾ فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ
إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ ﴿٣٦﴾ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ
ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ
ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾

(٣٠) ﴿وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍۭ بَلْ كُنتُمْ قَوْمًا طَٰغِينَ﴾ أجابهم الرؤساءُ أولاً بمنعِ إضلالِهم بأنَّهم ضالِّينَ في أنفسِهم، وثانياً بأنَّهم ما أجبروهم على الكفرِ إذ لم يكنْ لهم عليهم تسلُّطٌ وإنما جنحُوا إليه لأنَّهم كانوا قوماً مختارينَ الطغيانَ.

(٣١) ﴿فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَآ إِنَّا لَذَآئِقُونَ﴾.

(٣٢) ﴿فَأَغْوَيْنَٰكُمْ إِنَّا كُنَّا غَٰوِينَ﴾ ثم بيَّنوا أنَّ ضلالَ الفريقينِ ووقوعَهم في العذاب كان أمراً مقضيّاً لا محيصَ لهم عنه، وإنَّ غايةَ ما فعلوا بهم أنَّهم دَعَوْهُم إلى الغيِّ لأنهم كانوا على الغيِّ فأحبُّوا أنْ يكونوا مِثْلَهم، وفيه إيماءٌ بأنَّ غوايتَهم في الحقيقة ليستْ من قِبَلِهم إذ لو كان كلُّ غوايةٍ لإغواءِ غاوٍ فَمَنْ أغواهُم.

(٣٣) ﴿فَإِنَّهُمْ﴾ فإنَّ الأتباعَ والمتبوعينَ. ﴿يَوْمَئِذٍ فِى ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾ كما كانوا مشتركينَ في الغوايةِ.

(٣٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الفعلِ. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بالمشركينَ لقوله تعالى:

(٣٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ أي عن كلمةِ التوحيد، أو على مَنْ يدعوهم إليه.

(٣٦) ﴿وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ يعنُونَ محمداً عليه الصلاة والسلام.

(٣٧) ﴿بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ردٌّ عليهم بأنَّ ما جاءَ به من التوحيد حقٌّ قام به البرهانُ وتَطَابَقَ عليه المرسلون.

(٣٨) ﴿إِنَّكُمْ لَذَآئِقُوا۟ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ﴾ بالإشراكِ وتكذيبِ الرسلِ[1]، وقرىء بنصبِ العذابِ، على تقدير النونِ كقوله:

وَلاَ ذَاكِرُ الله إلاَّ قَلِيلاً

وهو ضعيفٌ في غير المحلَّى باللامِ وعلى الأصلِ.

(٣٩) ﴿وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ إلا مثل ما عملتم.

(٤٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ منقطعٌ إلا أنْ يكونَ الضميرُ في تُجْزَوْنَ لجميعِ المكلَّفينَ فيكونُ استثناؤُهم عنه باعتبارِ المماثلةِ، فإنَّ ثوابَهم مضاعَفٌ، والمنقطعُ أيضاً بهذا الاعتبارِ.

---

(١) الالتفات لإظهار كمال الغضب عليهم (س٧/ ١٩٠).

أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ فَوَٰكِهُ وَهُم مُّكْرَمُونَ ﴿٤٢﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٤٣﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٤﴾ يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿٤٥﴾ بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ ﴿٤٧﴾ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ﴿٤٨﴾ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴿٤٩﴾

(٤١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ﴾ خصائصُه من الدوام، أو تمحُّضُ اللَّذَّةَ ولذلك فسَّره بقوله:

(٤٢) ﴿فَوَٰكِهُ﴾ فإنَّ الفاكهةَ ما يقصدُ للتلذُّذِ دون التغذي والقوتُ بالعكس، وأهلُ الجنةِ لما أُعِيْدُوا على خِلْقَةٍ مُحْكَمَةٍ محفوظةٍ عن التحلُّلِ كانتْ أرزاقُهم فواكهَ خالصةً. ﴿وَهُم مُّكْرَمُونَ﴾ في نيلِه يصلُ إليهم من غير تعبٍ وسؤالٍ كما عليه رزقُ الدنيا.

(٤٣) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في جناتٍ ليس فيها إلا النعيمُ، وهو ظرفٌ أو حالٌ من المستكِنِّ في مكرمونَ، أو خبرٌ ثانٍ لأولئك وكذلك:

(٤٤) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ يَحْتَمِلُ الحالَ أوِ الخبرَ فيكونُ: ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ حالاً من المسْتَكِنِّ فيه أو في مكرمونَ، وأنْ يتعلَّقَ بمتقابلين فيكونُ حالاً من ضمير مكرمون.

(٤٥) ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ بإناءٍ فيه خمرٌ أو خمرٌ كقوله: وَكَأْسٌ شُرِبَتْ عَلَى لَذَّةٍ. ﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ من شراب مَعِيْنٍ، أو نهرٍ معينٍ أي ظاهرٍ للعيونِ، أو خارجٍ من العيون، وهو صفةٌ للماءِ من عانَ الماءُ إذا نَبَعَ. وَصَف به خمرَ الجنةِ لأنها تجري كالماءِ، أو للإشعارِ بأنَّ ما يكون لهم بمنزلةِ الشرابِ جامعٌ لما يُطْلَبُ من أنواعِ الأشربةِ لكمالِ اللذةِ، وكذلك قولُه:

(٤٦) ﴿بَيْضَآءَ لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ وهما أيضاً صفتانِ لكأسٍ، ووصْفُها بلذَّةٍ إما للمبالغةِ أو لأنَّها تأنيثُ لذٌّ بمعنى لذيذٍ كَطِبٍّ ووزنه فَعْلٌ قال:

وَلَــذٌّ كَطَعْــمِ الصَــرخَــديِّ تَــرَكْتُــهُ بــأَرْضِ العِــدَا مِــنْ خَشْيَــةِ الحَــدَثَــانِ[1]

(٤٧) ﴿لَا فِيهَا غَوْلٌ﴾ غائلةٌ كما في خمرِ الدنيا كالخمارِ من غالَه يغولُه إذا أفسدَه ومنه الغولُ. ﴿وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ يسكَرون من نَزَفَ الشاربُ فهو نزيفٌ ومنزوفٌ إذا ذهبَ عقلُه، أفرده بالنفي وعطَفَهُ على ما يعمُّه لأنه من عِظَمِ فسادِه كأنه جنسٌ برأسِه. وقرأ حمزة والكسائيُّ بكسرِ الزاي وتابعَهُما عاصمٌ في الواقعةِ من أنزفَ الشاربُ إذا نَفَدَ عقلُه أو شرابُه، وأصله للنفادِ يُقَالُ نزفَ المطعونُ إذا خرجَ دمُه كلُّه ونزحتِ الركِيَّةُ حتى نزفتها.

(٤٨) ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ قَصَرْنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿عِينٌ﴾ نُجَلُ العيونِ[2] جمعُ عيناءَ.

(٤٩) ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ شبَّههُنَّ بِبَيْضِ النَّعامِ المصونِ عن الغبارِ ونحوِه في الصفاءِ والبياضِ المخلوطِ بأدنى صُفْرةٍ؛ فإنه أحسنُ ألوانِ الأبدانِ.

---

(١) من الطويل.
(٢) نُجَلُ العيون أي واسعات العيون (المصباح المنير مادة نجل).

فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٥٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥١﴾ يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ ﴿٥٢﴾
أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ ﴿٥٣﴾ قَالَ هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَاطَّلَعَ فَرَآهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٥٥﴾ قَالَ
تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٥٧﴾ أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ
وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٥٩﴾

(٥٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ معطوفٌ على يُطَافُ عليهم أي يشربون فيتحادثُون على الشراب قال:

وَمَا بَقِيَتْ مِنَ اللَّذَّاتِ إِلاَّ أَحَادِيثُ الكِرَامِ عَلَى المُدَامِ[1]

والتعبيرُ عنه بالماضي للتأكيدِ فيه فإنه ألذُّ تلك اللذاتِ إلى العقلِ، وتساؤُلهم عن المعارفِ والفضائلِ وما جَرى لهم وعليهم في الدنيا.

(٥١) ﴿قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ﴾ في مكالَمَتِهم. ﴿إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ﴾ جليسٌ في الدنيا.

(٥٢) ﴿يَقُولُ أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ﴾ يوبِّخني على التصديقِ بالبعثِ، وقرىء بتشديد الصادِ من التصدُّقِ.

(٥٣) ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ﴾ لمجزِيُّون من الدينِ بمعنى الجزاءِ.

(٥٤) ﴿قَالَ﴾ أي ذلك القائلُ. ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ إلى أهلِ النار لأُرِيَكُم ذلك القرينَ، وقيل القائلُ هو اللهُ أو بعضُ الملائكةِ يقول لهم: هل تحبونَ أنْ تطَّلِعوا على أهلِ النار لأريكم ذلك القرينَ فتعلَموا أينَ منزلَتُكم من منزلَتِهم؟ وعن أبي عمرو مطْلِعونِ فأُطْلِعَ بالتخفيفِ وكسْرِ النون وضمِّ الألفِ على أنه جعلَ اطلاعَهم سببَ اطلاعِه من حيثُ أنَّ أدبَ المجالسةِ يمنعُ الاستبدادَ به، أو خاطبَ الملائكةَ على وضعِ المتصلِ موضِعَ المنفصِلِ كقوله:

هُم الآمِرُونَ الخَيْرَ وَالفَاعِلُونَهُ

أو شبَّه اسمَ الفاعلِ بالمضارعِ.

(٥٥) ﴿فَاطَّلَعَ﴾ عليهم. ﴿فَرَآهُ﴾ أي قرينَهُ. ﴿فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ﴾ وسَطَهُ.

(٥٦) ﴿قَالَ تَاللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرْدِينِ﴾ لتهلِكَني بالإغواءِ، وقرىء لَتُغْوِيْنِ وإنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ.

(٥٧) ﴿وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي﴾ بالهدايةِ والعصمةِ. ﴿لَكُنتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معك فيها.

(٥٨) ﴿أَفَمَا نَحْنُ بِمَيِّتِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ أي أنحنُ مخلَّدون منعَّمون فما نحن بميِّتينَ، أي بِمَنْ شأنُه الموتُ، وقرىءَ بمائِتينَ.

(٥٩) ﴿إِلَّا مَوْتَتَنَا الْأُولَىٰ﴾ التي كانتْ في الدنيا وهي متناوِلةٌ لما في القبرِ بعدَ الإحياءِ للسؤالِ، ونَصَبَهَا على المصدرِ من اسمِ الفاعل. وقيل على الاستثناءِ المنقطعِ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ كالكفارِ، وذلك تمامُ كلامِه لقرينهِ تقريعاً له أو معاودةٌ إلى مكالمةِ جلسائه تحدُّثاً بنعمةِ الله، أو تبجُّحاً بها وتعجُّباً

(١) من الوافر.

منها وتعريضاً للقرينِ بالتوبيخِ.

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٦٠﴾ لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ ﴿٦١﴾ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا
فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ
مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾

(٦٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يُحتمَلُ أنْ يكونَ من كلامِهم، وأنْ يكونَ كلامُ اللهِ لتقرير قولِه والإشارة إلى ما هم عليه من النعمةِ والخلودِ والأمْنِ من العذاب.

(٦١) ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ ٱلْعَٰمِلُونَ﴾ أي لنيلِ مثلِ هذا يجبُ أنْ يعملَ العاملونَ لا للحظوظِ الدنيويةِ المشوبةِ بالآلامِ السريعة الانصرام، وهو أيضاً يَحْتَمِلُ الأمرَيْنِ.

(٦٢) ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ﴾ شجرةٌ ثمرُها نُزُلُ أهلِ النار، وانتصابُ نزلاً على التمييزِ أو الحالِ، وفي ذكرِه دلالةٌ على أنَّ ما ذَكَرَ منَ النعيمِ لأهلِ الجنةِ بمنزلةِ ما يُقَامُ للنازلِ، ولهم وراءَ ذلك ما تقصُر عنه الأفهامُ، وكذلك الزقومُ لأهلِ النار، وهو اسمُ شجرةٍ صغيرةِ الورقِ ذفرٍ مرَّةٍ تكون بتهامةَ سُمِّيَتْ به الشجرةُ الموصوفةُ.

(٦٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ﴾ محنةً وعذاباً لهم في الآخرة، أو ابتلاءُ في الدنيا فإنَّهم لما سمعُوا أنَّها في النارِ قالوا كيفَ ذلك والنارُ تحرقُ الشجرَ، ولم يعلمُوا أنَّ مَنْ قدرَ على خلْقِ حيوانٍ يعيشُ في النارِ ويلتذُّ بها فهو أقدرُ على خلْقِ الشجرِ في النار وحفظِه من الإحراقِ.

(٦٤) ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ﴾ منبتُها في قعْرِ جهنَّمَ وأغصانُها ترتفعُ إلى دَرَكَاتِها.

(٦٥) ﴿طَلْعُهَا﴾ حملُها مستعارٌ من طلْعِ التمرِ لمشاركته إياه في الشكلِ، أو الطلوعِ من الشجرِ. ﴿كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ في تناهي القُبْحِ والهولِ، وهو تشبيهٌ بالمتخيَّلِ كتشبيهِ الفائقِ الحُسْنِ بالْمَلَكِ. وقيل الشياطينُ حياتٌ هائلةٌ قبيحةُ المنظرِ لها أعرافٌ، ولعلها سُمِّيَتْ بها لذلك.

(٦٦) ﴿فَإِنَّهُمْ لَءَاكِلُونَ مِنْهَا﴾ من الشجرةِ أو من طَلْعِها. ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ لغلبةِ الجوعِ أو الجبرِ على أكْلِها.

(٦٧) ﴿ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا﴾ أي بعدَ ما شبعوا منها وغلَبَهُمُ العطشُ وطالَ استسقاؤُهم، ويجوزُ أنْ يكونَ ثمَّ لما في شرابِهم من مزيدِ الكراهةِ والبشاعةِ. ﴿لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ﴾ لشراباً من غسَّاقٍ، أو صديداً مشوباً بماءٍ حميمٍ يقطِّعُ أمعاءَهم، وقرىء بالضمِّ وهو اسمُ ما يُشَابُ به، والأولُ مصدرٌ سُمِّيَ به.

(٦٨) ﴿ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾ مصيرَهُم. ﴿لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ﴾ إلى دركاتِها أو إلى نفسِها، فإنَّ الزَّقومَ والحميمَ نُزُلٌ يُقدَّمُ إليهم قبلَ دخولِهم، وقيل الحميمُ خارجٌ عنها لقوله تعالى ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾[1] يوردون إليه كما تُوْرَدُ الإبلُ إلى الماءِ ثم يُرَدُّوْنَ إلى الجحيمِ، ويؤيدُه أنه

(١) الرحمن: «٤٤».

قُرِىءَ ثمَّ إنَّ منقلَبَهُم.

إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ ﴿٦٩﴾ فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٧١﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٧٤﴾
وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ ﴿٧٥﴾ وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ
ٱلْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿٧٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٠﴾

(٦٩) ﴿إِنَّهُمْ أَلْفَوْا۟ ءَابَآءَهُمْ ضَآلِّينَ﴾.

(٧٠) ﴿فَهُمْ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم تلك الشدائدِ بتقليدِ الآباءِ في الضلالِ، والإهراعُ: الإسراعُ الشديدُ كأنهم يُزعَجُونَ على الإسراعِ على آثارِهم، وفيه إشعارٌ بأنهم بادروا إلى ذلك من غيرِ توقُّفٍ على نظرٍ وبحثٍ.

(٧١) ﴿وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ﴾ قبلَ قومِك. ﴿أَكْثَرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧٢) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ﴾ أنبياءَ أنذورهم من العواقبِ[١].

(٧٣) ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ من الشدةِ والفظاعةِ.

(٧٤) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ إلا الذين تنبَّهوا بإنذارِهم فاخلَصُوا دينَهم لله، وقرىء بالفتح[٢] أي الذين أخلَصَهُم اللهُ لدينه، والخطابُ مع الرسولِ ﷺ، والمقصودُ خطابُ قومِه فإنَّهم أيضاً سمِعُوا أخبارَهم ورأوا آثارَهم.

(٧٥) ﴿وَلَقَدْ نَادَىٰنَا نُوحٌ﴾ شروعٌ في تفصيلِ القصصِ بعدَ إجمالها، أي ولقدْ دعانا حينَ أَيِسَ من قومِه. ﴿فَلَنِعْمَ ٱلْمُجِيبُونَ﴾ أي فأجبناه أحسنَ الإجابةِ فواللهِ لنعمَ المجيبونَ نحنُ، فَحُذِفَ منها ما حُذِفَ لقيامِ ما يدلُّ عليه.

(٧٦) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من الغرقِ أو أذى قومه.

(٧٧) ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُۥ هُمُ ٱلْبَاقِينَ﴾ إذْ هلك مَنْ عَدَاهُم وبقوا متناسِلينَ إلى يومِ القيامة، إذ روي أنه ماتَ كلُّ مَنْ كانَ معه في السفينةِ غيرُ بنيهِ وأزواجِهم.

(٧٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْـَٔاخِرِينَ﴾ من الأُمَمِ.

(٧٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ﴾ هذا الكلامُ جيءَ به على الحكايةِ والمعنَى يسلِّمون عليه تسليماً. وقيل هو سلامٌ من اللهِ عليه ومفعولُ تركْنا محذوفٌ مثلُ الثناءِ. ﴿فِى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ متعلِّقٌ بالجارِّ والمجرورِ ومعناهُ الدعاءُ بثبوتِ هذه التحيةِ في الملائكةِ والثَّقلينِ جميعاً.

---

(١) تكرير القسم لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمون كل من الجملتين (س٧/ ١٩٥).
(٢) قوله: وقرىء بالفتح، أي بفتح اللام من قوله «المخلَصين».

(٨٠) ﴿ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لما فَعَلَ بنوح من التكْرِمة بأنه مجازاةٌ له على إحسانه.

إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨١﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ ﴿٨٢﴾ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ ﴿٨٩﴾ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴿٩٠﴾

(٨١) ﴿ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ تعليلٌ لإحسانه بالإيمان إظهاراً لجلالةِ قدره وأصالةِ أمرِه.

(٨٢) ﴿ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْـَٔاخَرِينَ﴾ يعني كفارَ قومه.

(٨٣) ﴿ ۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ﴾ ممن شايَعَهُ في الإيمانِ وأصولِ الشريعة. ﴿ لَإِبْرَٰهِيمَ﴾ ولا يبعدُ اتفاقُ شرعِهما في الفروعِ أو غالباً، وكان بينَهما ألفانِ وسِتُّمائةٍ وأربعونَ سنةً، وكان بينَهما نبيَّانِ هودٌ وصالحٌ.

(٨٤) ﴿ إِذْ جَآءَ رَبَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بما في الشيعةِ من معنى المشايعةِ أو بمحذوفٍ هو اذكر. ﴿ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ من آفاتِ القلوب أو منَ العلائقِ خالصٍ لله أو مخلِصٍ له، وقيل حزينٍ من السليمِ بمعنى اللديغ. ومعنى المجيءِ به ربَّه: إخلاصُه له كأنه جاء به متحِفاً إيَّاهُ.

(٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لجاءَ أو سليمٍ.

(٨٦) ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ﴾ أي تريدون آلهةً دونَ اللهِ إفكاً مقدَّمَ المفعولِ للعنايةِ ثم المفعولِ له لأنَّ الأهمَّ أنْ يقرِّر أنَّهم على الباطلِ ومبنَى أمرِهم على الإفكِ، ويجوزُ أنْ يكونَ إفكاً مفعولاً به، وآلهةً بدلٌ منه على أنها إفكٌ في نفسِها للمبالغة، أوِ المرادُ بها عبادتُها بحذفِ المضافِ أو حالاً بمعنى إفكَيْنِ.

(٨٧) ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بمن هو حقيقٌ بالعبادةِ لكونه ربّاً للعالمينَ حتى تركتُم عبادَتَه، أو أشركتُم به غَيْرَهُ أو أمِنْتُم من عذابِه، والمعنى إنكارُ ما يوجِبُ ظناً فضلاً عن قطعٍ يصدُّ عن عبادتِه، أو يجوزُ الإشراكُ به أو يقتضي الأَمْنَ من عقابِه على طريقةِ الإلزامِ وهو كالحجَّةِ على ما قبلَه.

(٨٨) ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِى ٱلنُّجُومِ﴾ فرأى مواقِعَها واتِّصالاتِها، أو في عِلْمِها أو في كتابِها، ولا مَنْعَ منه مع أنَّ قَصْدَهُ إيهامُهم وذلك حين سألوه أنْ يعبدَ معهم.

(٨٩) ﴿فَقَالَ إِنِّى سَقِيمٌ﴾ أراهُم أنه استدلَّ بها لأنَّهم كانوا منجِّمينَ على أنه مشارِفٌ للسَّقم لئلا يُخرِجُوه إلى مَعْبَدِهم، فإنه كان أغلبَ أسقامِهم الطاعونُ وكانوا يخافون العدْوَى، أو أرادَ إني سقيمُ القلبِ لكفرِكم، أو خارجُ المزاجِ عن الاعتدالِ خروجاً قلَّ مَنْ يخلُو منه أو بصددِ الموتِ ومنه المثلُ: كفى بالسلامةِ داءً، وقول لبيدٍ:

فَدَعَوْتُ رَبِّي بالسَّلامةِ جَاهِداً ليُصحَّني فإِذَا السَّلامَةُ دَاءُ

(٩٠) ﴿ فَتَوَلَّوْا۟ عَنْهُ مُدْبِرِينَ﴾ هاربينَ مخافةَ العدْوى.

فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٩١﴾ مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ ﴿٩٢﴾ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ ﴿٩٣﴾ فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ
يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴿٩٧﴾
فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٩٨﴾ وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٩٩﴾

(٩١) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ ءَالِهَتِهِمْ﴾ فذهبَ إليها في خُفْيَةٍ من روغةِ الثعلبِ وأصلُه الميلُ بحيلةٍ. ﴿فَقَالَ﴾ أي للأصنامِ استهزاءً. ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ يعني الطعامَ الذي كان عندَهم.

(٩٢) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنطِقُونَ﴾ بجوابي.

(٩٣) ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ فمالَ عليهم مستخفياً، والتعديةُ بعلَى للاستعلاءِ وإنَّ الميلَ لمكروهٌ. ﴿ضَرْبًۢا بِٱلْيَمِينِ﴾ مصدرٌ لراغَ عليهم لأنه في معنى ضَرَبَهُم، أو لمضمرٍ تقديرهُ فراغَ عليهم يضربُهم وتقييدُه باليمينِ للدلالة على قوتِه فإنَّ قوةَ الآلةِ تستدعي قوةَ الفعلِ، وقيلَ باليمين بسببِ الحلِفِ وهو قوله ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم﴾[1].

(٩٤) ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ إلى إبراهيمَ عليه الصلاة والسلام بعدما رجعُوا فرأَوْا أصنامَهم مكسَّرةً وبحثُوا عن كاسرِها فظنُّوا أنه هو كما شرحَه في قوله ﴿مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ﴾[2] الآيةَ. ﴿يَزِفُّونَ﴾ يسرِعُون، من زفيفِ النعامِ. وقرأ حمزة على بناءِ المفعولِ من أَزِفَهُ أي يحملونَ على الزفيفِ. وقرىء يَزُفُّونَ أي يزفُّ بعضُهم بعضاً، ويَزِفُون من وزفَ يزِف إذا أسرعَ، ويَزْفُونَ من زفاهُ إذا حدَاه كأن بعضَهم يزفُو بعضاً لتسارُعِهم إليه.

(٩٥) ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ ما تنحتونه من الأصنام.

(٩٦) ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ أي وما تعملونه فإنَّ جوهَرها بخلْقه وشكْلَها وإن كان بفعلِهم، ولذلك جُعِلَ من أعمالِهم، فبإقدارِه إياهم عليه وخلْقه ما يتوقفُ عليه فِعْلُهم من الدواعي والعدد، أو عملَكم بمعنى معمولِكم ليطابِقَ ما تنحتونَ، أو إنه بمعنى الحدثِ فإنَّ فعلَهم إذا كان بخلقِ الله تعالى فيهم كان مفعولُهم المتوقِّفُ على فعلِهم أَوْلَى بذلك، وبهذا المعنى تمسَّك أصحابُنا على خلْقِ الأعمال، ولهم أنْ يرجِّحوه على الأوَّلَيْنِ لما فيهما من حذفٍ أو مجازٍ.

(٩٧) ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ في النار الشديدةِ من الجحمةِ وهي شدةُ التأجُّجِ، واللامُ بدلُ الإضافةِ، أي جحيمِ ذلك البنيانِ.

(٩٨) ﴿فَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا﴾ فإنه لما قَهَرَهُم بالحجَّةِ قصدُوا تعذيبَهُ بذلك لِئَلاَّ يظهرَ للعامَّةِ عجْزُهم. ﴿فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ الأذلِّينَ بإبطالِ كيدِهم وجعْلِه برهاناً نيِّراً على علوِّ شأنه، حيثُ جعلَ النارَ عليه برداً وسلاماً.

(٩٩) ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ إلى حيثُ أمرني ربي وهو الشامُ، أو حيثُ أتجردُ فيه لعبادته. ﴿سَيَهْدِينِ﴾ إلى ما فيه صلاحُ ديني أو إلى مقصدي، وإنما بتَّ القولَ لسبْقِ وعدِه أو لفرطِ توكُّله، أو

---

(١) الأنبياء: «٥٧».

(٢) الأنبياء: «٥٩».

البناءِ على عادتِه معه ولم يكنْ كذلك حالُ موسى عليه الصلاة والسلام حينَ ﴿ قَالَ عَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يَهْدِيَنِي سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾(١) فلذلك ذُكِرَ بصيغة التوقُّع.

رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ۚ قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّآ أَسْلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾

(١٠٠) ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بعضَ الصالحين يعينني على الدعوةِ والطاعة ويؤنِسُني في الغربة، يعني الولدَ لأن لفظَ الهبة غالبٌ فيه ولقوله:

(١٠١) ﴿فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾ بشَّره بالولدِ وبأنه ذَكَرٌ يبلغُ أوانَ الْحُلُم، فإنَّ الصبيَّ لا يوصَفُ بالحلمِ ويكونُ حليماً وأي حلمٍ مثلُ حلمِه حين عَرَضَ عليه أبوه الذبحَ وهو مراهِقٌ فقال ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾(٢). وقيل ما نَعَتَ الله نبياً بالحلمِ لعزةِ وجودِه غيرَ إبراهيمَ وابنه عليهما الصلاة والسلام، وحالُهما المذكورةُ بعد تشهَّدِ عليه.

(١٠٢) ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾ أي فلما جدَّ وبلغَ أنْ يسعَى معه في أعماله، ومعه متعلِّقٌ بمحذوفٍ دل عليه السعيُ لا به لأنَّ صلةَ المصدرِ لا تتقدَّمه ولا يبلغُ فإنَّ بلوغَهما لم يكنْ معاً كأنه قال: فلما بلغَ السَّعْيَ فقيل مع مَنْ فقيلَ معه. وتخصيصُه لأنَّ الأبَ أكملُ في الرفقِ والاستصلاح له فلا يستسعيه قبلَ أوانه، أو لأنه استوهَبَهُ لذلك وكان له يومئذٍ ثلاثَ عشْرةَ سنةً. ﴿قَالَ يَٰبُنَيَّ﴾ وقرأ حفصٌ بفتح الياء. ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾ يُحْتَمَلُ أنه رأى ذلك وأنه رأَى ما هو تعبيرهُ وقيل إنه رأى ليلةَ التَرْويةِ أن قائلاً يقولُ له: إنَّ الله يأمرك بذبحِ ابنِك، فلما أصبحَ روى(٣) أنه منَ الله أو من الشيطانِ، فلما أمْسَى رأى مثلَ ذلك فعرِفَ أنه من اللهِ، ثم رأى مثلَه في الليلةِ الثالثةِ فهمَّ بنحرِهِ وقال له ذلك، ولهذا سُمِّيَتِ الأيامُ الثلاثةُ بالترويةِ وعرفةَ والنحرِ، والأظهرُ أنَّ المخاطَبَ إسمْعيلُ عليه السلام لأنه الذي وهبَ له أثَرهُ الهجرةَ ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ بعدُ معطوفةٌ على البشارةِ بهذا الغلام، ولقوله عليه الصلاة والسلام «أنا ابنُ الذبيحين»(٤). فأحدُهما جدُّه إسمْعيلُ والآخرُ أبوه عبدُالله، فإنَّ جدَّه عبدَالمطلبِ نذرَ أنْ يذبحَ

---

(١) القصص: «٢٢».
(٢) الصافات: «١٠٢».
(٣) روىٰ أي تفكّر في الأمر ونظر فيه من الرّوِيّة وهو التفكر.
(٤) قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣١) «لا أصل له بهذا اللفظ» هـ.
قلت: أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/٨٥) والحاكم في المستدرك (٢/٥٥٤) من رواية الصنابحي قال: حضرنا مجلس معاوية بن أبي سفيان فتذاكر القوم إسماعيل وإسحاق ابني إبراهيم، فقال بعضهم: الذبيح إسماعيل وقال بعضهم: إسحاق الذبيح، فقال معاوية: سقطتم على الخبير، كنا عند رسول الله ﷺ فأتاه الأعرابي فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة والماء يابساً، هلك المال، وضاع العيال فعد علي بما أفاء الله عليك يا ابن الذبيحين، فتبسم رسول الله ﷺ ولم ينكر عليه، فقلنا: يا أمير المؤمنين وما الذبيحان؟ قال إن عبدالمطلب لما أمر بحفر زمزم نذر، فذكره. . .» هـ.
=

ولداً إنْ سهَّل الله له حفرَ زمزمَ أو بلغَ بنوهُ عشرةً، فلما سهَّلَ أقرعَ فخرجَ السهمُ على عبدِالله ففداه بمائةٍ من الإبلِ، ولذلك سُنَّتِ الديةُ مائةً، ولأنَّ ذلك كان بمكَّةَ وكان قرْنا الكبشِ معلَّقينِ بالكعبةِ حتى احترقا معَها في أيام ابنِ الزبير، ولم يكن إسحاقُ ثمَّةَ، ولأنَّ البشارةَ بإسحاقَ كانت مقرونةً بولادةِ يعقوبَ منه فلا يناسِبُها الأمرُ بذبحِه مراهِقاً، وما روي أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ أيُّ النسبِ أشرفُ فقال: «يوسفُ صِدِّيقُ الله بنُ يعقوبَ إسرائيلُ اللهِ بنُ إسحٰقَ ذبيحُ اللهِ بنَ إبراهيمَ خليلُ اللهِ»[1] فالصحيحُ أنه قال: يوسف بنُ يعقوبَ بنِ إسحاقَ بنِ إبراهيمَ والزوائدُ من الراوي. وما روي أنَّ يعقوبَ كتبَ إلى يوسفَ مثلَ ذلك لم يثبتْ. و قرأ ابنُ كثير ونافع وأبو عمرو بفتح اليَاءِ فيهما. ﴿فَٱنظُرۡ مَاذَا تَرَىٰۚ﴾ من الرأي، وإنما شاورَهُ فيه وهو حتْم ليعلَم ما عندَه فيما نزلَ من بَلاءِ اللهِ فَيُثَبِّتَ قدمَه إن جَزِعَ، ويأمنَ عليه إنْ سلَّمَ وليوطِّنَ نفسَه عليه فيهونُ ويكتسبُ المثوبةَ بالانقيادِ له قبلَ نزولِه. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ماذا تُرِي بضمِّ التاءِ وكسْرِ الراءِ خالصةً، والباقونَ بفتحِها، وأبو عمرو يميلُ فتحةَ الراءِ، وورشٌ بينَ بينَ، والباقونَ بإخلاصِ فتحِها. ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ﴾ وقرأ ابن عامر بفتح التاءِ. ﴿ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾ أي ما تؤمرُ به فحُذِفا دفعةً، أو على الترتيبِ كما عرفْتَ أو أمْرَكَ على إرادةِ المأمورِ به والإضافةِ إلى المأمور، أو لعلَّه فهِمَ من كلامه أنه رأى أنه يذبحُه مأموراً به، أو علِمَ أنَّ رؤيا الأنبياءِ حقٌّ وأنَّ مِثْلَ ذلك لا يقدِمُون عليه إلا بأمرٍ، ولعلَّ الأمرَ في المنامِ دونَ اليقظةِ لتكونَ مبادرتُهما إلى الامتثالِ أدلَّ على كمالِ الانقيادِ والإخلاصِ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارعِ لتكرُّرِ الرؤيا. ﴿سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ على الذبحِ أو على قضاءِ الله، وقرأ نافع بفتحِ الياءِ.

(١٠٣) ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا﴾ استَسْلما لأمرِ الله أو سلَّما الذبيحُ نفسَه وإبراهيمُ ابنَه، وقد قرىء بهما وأصلُها سلَّم هذا لفلانٍ إذا خلصَ له فإنه سلِم من أنْ ينازَع فيه. ﴿وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾ صرعَه على شِقِّه فوقع جبينه

= وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي: إسناده واهٍ.

(١) أخرج الطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٤) رقم ١٠٢٧٨) من حديث ابن مسعود، أن النبي ﷺ سئل من أكرم الناس؟ قال: «يوسف بن يعقوب بن إسحاق ذبيح الله»، وأورده الهيثمي في «المجمع» (٨/ ٢٠٢). وقال «رواه الطبراني، وبقية مدلس، وأبو عبيدة لم يسمع من أبيه» هـ.

قال الألباني في «الضعيفة» (رقم: ٣٣٤): «ولكن بقية قد توبع عليه، فقد رواه ابن المظفر في «غرائب شعبة» (١٣٨/ ١) عن معاوية بن حفص وبقية معاً عن شعبة عن أبي إسحاق عن أبي عبيدة عن ابن مسعود به.

ورواه شعبة عن أبي إسحاق عن أبي الأحوص عن ابن مسعود موقوفاً عليه، وهو الصواب أخرجه الطبراني في الكبير (٩/ ٢٠٨ رقم ٨٩١٦). قال الحافظ ابن كثير بعد أن ساقه في تفسيره (٤/ ١٩): «وهذا صحيح عن ابن مسعود».

قال الألباني: والحديث صحيح مرفوعاً دون قوله «إن إسحاق ذبيح الله» فإن هذه الزيادة منكرة. فقد أخرج البخاري (٦/ ٤١٤٣ رقم ٣٣٧٤) و(٦/ ٤١٧ رقم ٣٣٨٣) و(٨/ ٣٦٢ رقم ٤٦٨٩) و(٦/ ٣٨٩ رقم ٣٣٥٣). ومسلم (٤/ ١٨٤٦ رقم ١٦٨/ ٢٣٧٨) من حديث أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم. قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادنِ العرب تسألوني؟ خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقُهُوا». فالحديث ليس فيه «ذبيح الله» فدل على نكارتها.

وقد جاءت أحاديث في أن إسحاق هو الذبيح ولكنها كلها ضعيفة...» هـ.

على الأرضِ وهو أحدُ جانبي الجبهةِ. وقيل كبَّه على وجْهه بإشارته لئلا يرى فيه تغيُّراً يرقُّ له فلا يذبحُه، وكان ذلك عند الصخرةِ بِمنًى، أو في الموضعِ المشرِف على مسجدِه، أو المنحَرِ الذي يُنْحَرُ فيه اليومَ.

وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾

(١٠٤) ﴿وَنَٰدَيْنَٰهُ أَن يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾.

(١٠٥) ﴿قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ﴾ بالعزمِ والإتيانِ بالمقدماتِ. وقد روي أنه أمرَّ السكينَ بقوَّتِه على حلْقِهِ مراراً فلم تقْطَعْ، وجوابُ لما محذوفٌ تقديره كان ما كان مما ينطلِقُ به الحالُ ولا يحيط به المقالُ، من استبشارِهما وشكرِهما لله تعالى على ما أنعمَ عليهما من دفْعِ البلاء بعد حلوله والتوفيقِ بما لم يوفِّقْ غيرُهما لمثلِه، وإظهارُ فضلِهما به على العالمين مع إحرازِ الثواب العظيم إلى غيرِ ذلك. ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ تعليلٌ لإفراجِ تلك الشدةِ عنهما بإحسانهما، واحتجَّ به من جوَّزَ النسخَ قبل وقوعه فإنه عليه الصلاة والسلام كان مأموراً بالذبحِ لقوله ﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾[1] ولم يحصلْ.

(١٠٦) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ﴾ الابتلاءُ البيِّنُ الذي يتميَّزُ فيه المخلِصُ من غيرِه، أو المحْنَةُ البيِّنةُ الصعوبةِ فإنه لا أصعبَ منها.

(١٠٧) ﴿وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ﴾ بما يُذْبَحُ بدلَه فيتمُّ به الفعلُ. ﴿عَظِيمٍ﴾ عظيمِ الجثةِ سمينٍ، أو عظيمِ القدْرِ لأنه يفدي به الله نبياً ابنَ نبي، وأيُّ نبيٍّ من نسْلِه سيدُ المرسلين. قيل كان كبشاً من الجنةِ. وقيل وعْلاً أُهْبِطَ عليه من ثبيرٍ. وروي أنه هرب منه عند الجمرةِ فرماه بسبْعِ حصيَّاتٍ حتى أخذَه فصارتْ سُنَّةً، والفادي على الحقيقة إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام وإنما قال وفديناه لأنَّ الله المعطي له والآمِرُ به على التجوُّزِ في الفداءِ أو الإسنادِ، واستدلَّ به الحنفيةُ على أنَّ من نَذَرَ ذَبْحَ ولده لزمَهُ ذبحُ شاةٍ وليس فيه ما يدلُّ عليه.

(١٠٨) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٠٩) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ سبق بيانه في قصةِ نوحٍ عليه السلام.

(١١٠) ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ لعلَّه طرح عنه إنَّا اكتفاءً بذكره مرةً في هذه القصةِ.

(١١١) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

(١١٢) ﴿وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ مقضياً نبوتُه مقدراً كونُه من الصالحينَ وبهذا الاعتبارِ وقعا حالينِ ولا حاجةَ إلى وجودِ المبشَّرِ به وقت البشارة، فإنَّ وجودَ ذي الحال غيرُ شرطٍ بل الشرطُ مقارنةُ

(١) الصافات: «١٠٢».

تعلُّقِ الفعل به لاعتبارِ المعنى بالحال، فلا حاجةَ إلى تقديرِ مضافٍ يُجْعَلُ عاملاً فيهما مثلاً وبشَّرناه بوجودِ إسحٰقَ أي بأنْ يوجدَ إسحٰقُ نبياً من الصالحين، ومع ذلك لا يصيرُ نظيرُ قوله ﴿فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1] فإن الداخلينَ مقدِّرونَ خلودَهم وقْتَ الدخول، وإسحٰقُ لم يكن مقدِّراً نبوةَ نفسِه وصلاحَها حينما يوجدُ، ومَنْ فسَّر الذبيحَ بإسحٰق جعلَ المقصودَ من البشارة نبوَّتَه، وفي ذكر الصلاحِ بعدَ النبوة تعظيمٌ لشأنه وإيماءٌ بأنه الغايةُ لها لتضمنها معنى الكمالِ والتكميلِ بالفعل على الإطلاق.

وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ ۚ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ مُبِينٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١١٤﴾ وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَٰهُمْ فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ ﴿١١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾

(١١٣) ﴿وَبَٰرَكْنَا عَلَيْهِ﴾ على إبراهيمَ في أولاده. ﴿وَعَلَىٰٓ إِسْحَٰقَ﴾ بأن أخرجنا من صُلْبه أنبياءَ بني إسرائيلَ وغيرَهُم كأيوبَ وشعيبٍ، أو أفضنا عليهما بركاتِ الدينِ والدنيا، وقرىء وبركْنا. ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ﴾ في عمله أو إلى نفسِه بالإيمان والطاعة. ﴿وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بالكفرِ والمعاصي. ﴿مُبِينٌ﴾ ظاهرٌ ظلمُه، وفي ذلك تنبيهٌ على أن النسبَ لا أثرَ له في الهدى والضلال وأنَّ الظلمَ في أعقابِها لا يعودُ عليهما بنقيصَةٍ وعيبٍ.

(١١٤) ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ أنعمنا عليهما بالنبوةِ وغيرِها من المنافع الدينية والدنيويةِ.

(١١٥) ﴿وَنَجَّيْنَٰهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ﴾ من تغلُّب فرعونَ أو الغرقِ.

(١١٦) ﴿وَنَصَرْنَٰهُمْ﴾ ثم الضميرُ لهما مع القوم. ﴿فَكَانُوا۟ هُمُ ٱلْغَٰلِبِينَ﴾ على فرعونَ وقومِه.

(١١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ﴾ البليغَ في بيانِه وهو التوراةُ.

(١١٨) ﴿وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ الطريقَ الموصِلَ إلى الحقِّ والصواب.

(١١٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٢٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾.

(١٢١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٢٢) ﴿إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ سبق مثلُ ذلك.

(١٢٣) ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ هو إلياسُ بنُ ياسينَ سِبْطُ هٰرونَ أخي موسى بُعِثَ بعدَه. وقيل إدريسُ لأنه قرىء إدريسُ وإدراسُ مكانه، وفي حرف أُبيّ رضي الله عنه وإنَّ إيليسَ. وقرأ ابنُ ذكوانَ مع خلافٍ عنه بحذفِ همزةِ الياسَ.

---

(١) الزمر: «٧٢».

إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٢٥﴾ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٢٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٢٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ ﴿١٢٩﴾ سَلَٰمٌ
عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴿١٣٠﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣١﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣٢﴾ وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٣﴾ إِذْ
نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿١٣٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿١٣٥﴾

(١٢٤) ﴿إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عذابَ الله.

(١٢٥) ﴿أَتَدْعُونَ بَعْلًا﴾ أتعبدونه أو أتطلُبون الخيرَ منه، وهو اسمُ صنمٍ كان لأهل بَكَّ من الشامِ وهو البلدُ الذي يُقَالُ له الآنَ بعلبكّ. وقيل البعلُ الربُّ بلغةِ اليمنِ، والمعنى أتدعون بعضَ البعولِ. ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وتتركون عبادتَه، وقد أشار فيه إلى المقتضي للإنكار المعني بالهمزة ثم صرَّح به بقوله:

(١٢٦) ﴿ٱللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب وحفص بالنصبِ على البدلِ[١].

(١٢٧) ﴿فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ أي في العذابِ، وإنما أطلقه اكتفاءً منه بالقرينة، أو لأن الإحضارَ المطلقَ مخصوصٌ بالشرِّ عُرْفاً.

(١٢٨) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ مستثنى من الواوِ لا من المحضَرين لفسادِ المعنى.

(١٢٩) ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾.

(١٣٠) ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ﴾ لغة في الياسَ كسيناءَ وسينينَ، وقيل جمعٌ له مرادٌ به هو وأتباعه كالمهلبينَ، لكن فيه أن العَلَمَ إذا جُمِعَ يجبُ تعريفه باللام أو للمنسوبِ إليه بحذفِ ياء النسبِ كالأعجبينَ وهو قليل ملبسٌ، وقرأ نافع وابنُ عامر ويعقوبُ على إضافةِ آلِ إلى ياسينَ لأنهما في المصحفِ مفصولانِ فيكون ياسينُ أبا إلياسَ، وقيل محمدٌ عليه الصلاة والسلام أو القرآنُ أو غيره من كتبِ الله، والكلُّ لا يناسِبُ نظْمَ سائرِ القصصِ ولا قوله:

(١٣١) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

(١٣٢) ﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ إذِ الظاهرُ أنَّ الضمير لالياسَ.

(١٣٣) ﴿وَإِنَّ لُوطًا لَّمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾.

(١٣٤) ﴿إِذْ نَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ أَجْمَعِينَ﴾.

(١٣٥) ﴿إِلَّا عَجُوزًا فِى ٱلْغَٰبِرِينَ﴾.

---

(١) والتعرض لذكر ربوبيته تعالى لآبائهم لتأكيد إنكار تركهم عبادته تعالى، والإشعار ببطلان آراء آبائهم أيضاً (س٧/ ٢٠٤).

ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ ﴿١٣٦﴾ وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٣٨﴾ وَإِنَّ يُونُسَ
لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ
مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ۞ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ
سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾

(١٣٦) ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا ٱلْآخَرِينَ﴾ سبق بيانَه.

(١٣٧) ﴿وَإِنَّكُمْ﴾ يا أهلَ مكّة. ﴿لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم﴾ على منازِلهم في متاجرِكم إلى الشامِ، فإنَّ سدومَ في طريقهِ. ﴿مُّصْبِحِينَ﴾ داخلينَ في الصباح.

(١٣٨) ﴿وَبِٱلَّيْلِ﴾ أي ومساءً أو نهاراً وليلاً، ولعلَّها وقعتْ قريبَ منزلٍ يمرُّ بها المرتحلُ عنه صباحاً والقاصِدُ لها مساءً. ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أفليس فيكم عقلٌ تعتبرون به.

(١٣٩) ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ وقرىء بكسْرِ النون.

(١٤٠) ﴿إِذْ أَبَقَ﴾ هربَ، وأصله الهربُ من السيِّد لكنْ لما كان هربُه من قومِه بغيرِ إذْنِ ربِّه حسُنَ إطلاقُه عليه. ﴿إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ﴾ المملوءِ.

(١٤١) ﴿فَسَاهَمَ﴾ فقارَعَ أهلَه. ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ﴾ فصار من المغلوبينَ بالقُرْعَةِ، وأصله المزلقُ عن مقام الظَّفرِ. روي[1] أنه لما وعدَ قومَه بالعذاب خرجَ من بينِهم قبل أنْ يأمُرَهُ الله، فركب السفينةَ فوقفتْ فقالوا: ها هنا عبدٌ آبِقٌ فاقترعُوا فخرجتِ القرعةُ عليه، فقال أنا الآبقُ ورَمَى بنفسِه في الماءِ.

(١٤٢) ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ﴾ فابتلعه من اللقمةِ. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ داخلٌ في الملامةِ، أو آتٍ بما يُلامُ عليه أو مليمٌ نفسَه، وقرىء بالفتح مبنياً من لِيْمَ كمشيبٍ في مشوبٍ.

(١٤٣) ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ﴾ الذاكرين اللهَ كثيراً بالتسبيح مدَّةَ عمرِه، أو في بطنِ الحوتِ وهو قولُه ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2] وقيل من المصلِّينَ.

(١٤٤) ﴿لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ حياً وقيلَ ميتاً، وفيه حثٌّ على إكثارِ الذكرِ وتعظيمِ لشأنه، ومَنْ أقبلَ عليه في السراء أخذَ بيده عندَ الضراءِ.

(١٤٥) ﴿۞ فَنَبَذْنَٰهُ﴾ بأنْ حملْنا الحوتَ على لفظِه. ﴿بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالمكانِ الخالي عما يغطيه من شجرٍ أو نبتٍ. روي[3] أنَّ الحوتَ سار مع السفينةِ رافعاً رأسَه يتنفسُ فيه يونسُ ويسبِّحُ حتى انتهوا إلى البرِّ فلفظَه، واختُلِفَ في مدةِ لُبْثِه فقيل بعضَ يومٍ وقيل ثلاثةَ أيام وقيل سبعةً، وقيل عشرونَ وقيل أربعونَ. ﴿وَهُوَ سَقِيمٌ﴾ مما نالَه، قيل صارَ بدنُه كبدنِ الطفلِ حين يولَدُ.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٣) بصيغة التمريض.
(٢) الأنبياء: «٨٧».
(٣) ذكر ذلك الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/ ١٤٥) بصيغة التمريض.

وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ ﴿١٤٦﴾ وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ أَوۡ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُواْ فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ
حِينٖ ﴿١٤٨﴾ فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ
شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾

(١٤٦) ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ أي فوقَه مظلَّة عليه. ﴿شَجَرَةٗ مِّن يَقۡطِينٖ﴾ من شجرٍ ينبسطُ على وجْه الأرض ولا يقومُ على ساقِه، يفعيلٌ من قَطَنَ بالمكان إذا أقامَ به، والأكثرُ على أنها كانتِ الدُّباءُ غطَّتْهُ بأوراقِها عن الذبابِ فإنه لا يقعُ عليه، ويدلُّ عليه أنه قيلَ لرسولِ الله ﷺ: «إنك لتحبُّ القرعَ، قال: «أجلْ هي شجرةُ أخي يونسَ»[1]. وقيل التينُ وقيل الموزُ تغطَّى بورقة واستظلَّ بأغصانِه وأفطرَ على ثمارِه.

(١٤٧) ﴿وَأَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلۡفٍ﴾ هم قومُه الذين هربَ عنهم وهم أهلُ نينوى، والمرادُ به ما سبقَ من إرساله أو إرسالٍ ثانٍ إليهم أو إلى غيرِهم. ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ في مرأى الناظرِ أي إذا نظرَ إليهم، قال هم مائةُ ألفٍ أو يزيدونَ والمرادُ الوصفُ بالكثرةِ وقرىء بالواوِ.

(١٤٨) ﴿فَـَٔامَنُواْ﴾ فصدَّقوه أو فجدَّدُوا الإيمانَ به بمحضَرِه. ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ إلى أجلِهم المسمَّى، ولعلَّه إنما لم يختِمْ قِصَّته وقصَّةَ لوطٍ بما ختمَ به سائرَ القصصِ تفرقةً بينَهما وبينَ أربابِ الشرائعِ الكبر وأولي العزمِ من الرسلِ، أو اكتفاءً بالتسليم الشاملِ لكلِّ الرسلِ المذكورينَ في آخرِ السورةِ.

(١٤٩) ﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ﴾ معطوفٌ على مثلِه، في أول السورةِ أمرَ رسولَه أولاً باستفتاءِ قريشٍ عن وجه إنكارِهم البعثَ، وساقَ الكلامَ في تقريرِه جارّاً لما يلائمه من القصصِ، موصولاً بعضُها ببعضٍ، ثم أمرَ باستفتائِهم عن وجْهِ القسْمةِ حيثُ جعلوا للهِ البناتِ ولأنفسِهم البنينَ في قولهم: الملائكةُ بناتُ الله، وهؤلاءِ زادوا على الشركِ ضلالاتٍ أُخَرَ، التجسيمُ وتجويز الفناءِ على اللهِ تعالى، فإنَّ الولادةَ مخصوصةٌ بالأجسامِ الكائنةِ الفاسدةِ، وتفضيلُ أنفسِهم عليه حيثُ جعلوا أوضَعَ الجنسينِ له وأرفعَهما لهم، واستهانتُهم بالملائكةِ حيثُ أنَّثوهم ولذلك كرَّرَ الله تعالى إنكارَ ذلك وإبطالَه في كتابه مراراً، وجعلَه مما تكادُ السمواتَ يتفطَّرْنَ منه وتنشقُّ الأرض وتخرُّ الجبال هدّاً، والإنكارُ ها هنا مقصورٌ على الأخيريْنِ لاختصاصِ هذه الطائفةِ بهما، أو لأنَّ فسادَهما مما تدركُه العامةُ بمقتضى طباعِهم حيثُ جعلَ المعادِلَ للاستفهام عن التقسيم.

(١٥٠) ﴿أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ﴾ وإنما خصَّ عِلْمَ المشاهدة لأنَّ أمثالَ ذلك لا تُعْلَمُ إلا بها، فإنَّ الأُنوثةَ ليستْ من لوازمِ ذاتِهم لتمكُّنِ معرفَتِه بالعقلِ الصِّرفِ مع ما فيه من الاستهزاءِ، والإشعارُ بأنهم لِفَرْطِ جهلِهم يبتُّون به كأنهم قد شاهدوا خلْقَهُم.

(١٥١) ﴿أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ﴾.

(١٥٢) ﴿وَلَدَ ٱللَّهُ﴾ لعدمِ ما يقتضيه وقيامِ ما ينفيه. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ﴾ فيما يتديَّنون به، وقرىء وَلَدُ اللهِ أي الملائكةُ ولدُه، فَعَلَ بمعنى مفعولٍ يستوي فيه الواحدُ والجمعُ والمذكَّرُ والمؤنَّثُ.

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤١ رقم ٢٩٨): لم أجده.

أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ ﴿١٥٦﴾ فَأْتُوا۟
بِكِتَٰبِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا ۚ وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ
عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٠﴾ فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴿١٦١﴾ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ بِفَٰتِنِينَ ﴿١٦٢﴾ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ
ٱلْجَحِيمِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾

(١٥٣) ﴿أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ﴾ استفهامُ إنكارٍ واستبعاد، والاصطفاءُ أخذُ صفوةِ الشيءِ. وعن نافعٍ كسرُ الهمزةِ على حذفِ حرفِ الاستفهام لدلالة أمْ بعدَها عليها، أو على الإثباتِ بإضمارِ القولِ أي لكاذبونَ في قولهم اصْطَفَى، أو إبدالُه من وَلَدَ اللهُ.

(١٥٤) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ بما لا يرتضيه عقلٌ.

(١٥٥) ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنه منزَّهٌ عن ذلك.

(١٥٦) ﴿أَمْ لَكُمْ سُلْطَٰنٌ مُّبِينٌ﴾ حجةٌ واضحةٌ نزلتْ عليكم من السماءِ بأنَّ الملائكةَ بناتُه.

(١٥٧) ﴿فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبِكُمْ﴾ الذي أُنْزِلَ عليكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعْواكُم.

(١٥٨) ﴿وَجَعَلُوا۟ بَيْنَهُۥ وَبَيْنَ ٱلْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ يعني الملائكةَ ذَكَرَهُم باسمِ جِنْسِهِم وضْعاً منهم أنْ يبلُغوا هذه المرتبةَ، وقيلَ قالوا إنَّ الله تعالى صاهرَ الجنَّ فخرجتِ الملائكةُ، وقيل قالوا اللهُ والشياطينُ إخوانٌ[1]. ﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ ٱلْجِنَّةُ إِنَّهُمْ﴾ إنَّ الكفرةَ أو الإنسَ والجنَّ إنْ فسِّرتْ بغير الملائكةِ ﴿لَمُحْضَرُونَ﴾ في العذابِ.

(١٥٩) ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ من الولدِ والنسبِ.

(١٦٠) ﴿إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ استثناءٌ من المحضَرين منقطعٌ، أو متصلٌ إنْ فسِّر الضميرُ بما يعمُّهم وما بينَهما اعتراضٌ، أو مِنْ يصفون.

(١٦١) ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ عودٌ إلى خطابِهم.

(١٦٢) ﴿مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾ على الله. ﴿بِفَٰتِنِينَ﴾ مفسدينَ الناسَ بالإغواءِ.

(١٦٣) ﴿إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ ٱلْجَحِيمِ﴾ إلاَّ من سبقَ في علمِه أنه من أهلِ النار، ويصلاها لا محالةَ، وأنتم ضميرٌ لهم، ولآلهتهم غلبَ فيه المخاطبُ على الغائبِ، ويجوزُ أنْ يكونَ وما تعبدون لما فيه من معنى المقارنةِ ساداً مسدَّ الخبر أي إنكم وآلهتَكم قرناءُ لا تزالون تعبدونَها، ما أنتم على ما تعبدُونه بفاتنين بباعثينَ على طريق الفتنةِ إلا ضالاً مستوجِباً للنارِ مثلَكم، وقرىء صالُ بالضمِّ على أنه جمعٌ محمولٌ على معنى مَنْ ساقطٌ واوهِ لالتقاءِ الساكنينِ، أو تخفيفُ صائلٌ على القلبِ كشاكٍ في شائكٍ، أو المحذوفُ منه كالمنسي كما في قولهم: ما باليتُ به بالةً، فإن أصلَها باليةٌ كعافيةٍ.

(١٦٤) ﴿وَمَا مِنَّآ إِلَّا لَهُۥ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ حكايةُ اعترافِ الملائكة بالعبودية للردِّ على عَبَدَتِهم والمعنى:

---

(١) وفي جملة «وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً» التفات إلى الغيبة للإيذان بانقطاعهم عن الجواب وسقوطهم عن درجة الخطاب واقتضاء حالهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ جنايتهم لآخرين (س٧/٢٠٨).

وما منّا أحدٌ إلا له مقامٌ معلومٌ في المعرفة والعبادة والانتهاءِ إلى أمر الله في تدبير العالَم، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ هذا وما قبلَه من قوله سبحان الله مِنْ كلامِهم ليتصلَ بقوله ﴿ولقد علمت الجنة﴾[1] كأنه قال ولقد علمتِ الملائكةُ أنَّ المشركينَ معذَّبون بذلك وقالوا سبحان الله تنزيهاً له عنه، ثم استثْنوا المخلصينَ تبرئةً لهم منه، ثم خاطبوا المشركينَ بأنَّ الافتتانَ بذلك للشقاوة المقدَّرةِ، ثم اعترفوا بالعبوديةِ وتفاوتِ مراتِبِهم فيه لا يتجاوزُونها فحذفَ الموصوفَ وأُقِيمَتِ الصفةُ مقامَهُ.

وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ ﴿١٦٥﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ ﴿١٦٦﴾ وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ ﴿١٦٧﴾ لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦٨﴾ لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿١٦٩﴾ فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٤﴾ وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٥﴾

(١٦٥) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلصَّآفُّونَ﴾ في أداء الطاعة ومنازلِ الخدمةِ.

(١٦٦) ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ ٱلْمُسَبِّحُونَ﴾ المنزِّهونَ اللهَ عما لا يليقُ به، ولعلَّ الأولَ إشارةٌ إلى درجاتهم في الطاعةِ، وهذا في المعارفِ، وما في إنَّ واللامَ وتوسيطَ الفصلِ من التأكيد والاختصاصِ لأنهم المواظبونَ على ذلك دائماً من غير فترةٍ دونَ غيرِهم. وقيل هو مِنْ كلام النبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ والمعنى: وما مِنَّا إلا له مقامٌ معلوم في الجنة أو بينَ يدي اللهِ يومَ القيامة، وإنا لنحنُ الصافُّون له في الصلاة والمنزِّهون له عن السوءِ.

(١٦٧) ﴿وَإِن كَانُوا۟ لَيَقُولُونَ﴾ أي مشركو قريشٍ.

(١٦٨) ﴿لَوْ أَنَّ عِندَنَا ذِكْرًا مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كتاباً من الكتب التي نزلتْ عليهم.

(١٦٩) ﴿لَكُنَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ لأخلصْنا العبادةَ له ولم تخالفْ مثلَهم.

(١٧٠) ﴿فَكَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي لما جاءهم الذِّكرُ الذي هو أشرفُ الأذكارِ والمهيمنُ عليها. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ عاقبةَ كفرِهم.

(١٧١) ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ أي وعدْنا لهم النَّصرَ والغلبةَ وهو قوله:

(١٧٢) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾.

(١٧٣) ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ وهو باعتبارِ الغالبِ والمقضى بالذاتِ، وإنما سمَّاه كلمةً وهي كلماتٌ لانتظامهم في معنى واحدٍ.

(١٧٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرِضْ عنهم. ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ هو الموعدُ لنصرِك عليهم وهو يومُ بدْرٍ، وقيل يومُ الفتح.

(١٧٥) ﴿وَأَبْصِرْهُمْ﴾ على ما ينالُهم حينئذ، والمرادُ بالأمر الدلالةُ على أن ذلك كائنٌ قريبٌ كأنه

(١) الصافات: «١٠٨».

قدامَهُ. ﴿فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ ما قَضَيْنَا لك من التأييد والنُّصرةِ والثوابِ في الآخرة، وسوفَ للوعيدِ لا للتبعيدِ.

﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٧٦﴾ فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿١٧٧﴾ وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿١٧٨﴾ وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٧٩﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾

(١٧٦) ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ روي[(١)] أنه لما نزلَ فسوفَ يبصرونَ قالوا متى هذا فنزلتْ.

(١٧٧) ﴿فَإِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ﴾ فإذا نزلَ العذابُ بفنائِهم، شبَّههُ بجيشٍ هَجَمَهُم فأناخَ بفنائِهم بغتةً، وقيل الرسولُ. وقرىء نزل على إسنادِه إلى الجارِّ والمجرور ونزلَ أي العذابُ. ﴿فَسَآءَ صَبَاحُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ فبئسَ صباحُ المنذَرِينَ صباحُهم، واللامُ للجنسِ والصباحُ مستعارٌ من صباحِ الجيشِ المبيَّتِ لوقتِ نزولِ العذابِ، ولما كثُرَ فيهم الهجومُ والغارةُ في الصباحِ سمُّوا الغارةَ صباحاً وإنْ وقعتْ في وقتٍ آخرَ.

(١٧٨) ﴿وَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾.

(١٧٩) ﴿وَأَبْصِرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ﴾ تأكيدٌ إلى تأكيدٍ، وإطلاقٌ بعدَ تقييدٍ للإشعار بأنه يبصرُ وأنَّهم يبصرونَ ما لا يحيطُ به الذِّكْرُ من أصنافِ المسرةِ وأنواعِ المساءةِ، أو الأولُ لعذابِ الدنيا والثاني لعذابِ الآخرة.

(١٨٠) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عما قاله المشركونَ فيه على ما حُكِيَ في السورة، وإضافةُ الربِّ إلى العزَّةِ لاختصاصِها به إذ لا عزَّةَ إلا له أو لمن أعزَّه، وقد أدرجَ فيه جملةَ صفاتِه السلبيةِ والثبوتيةِ مع الإشعارِ بالتوحيد.

(١٨١) ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ تعميمٌ للرسل بالتسليم بعد تخصيصِ بعضِهم.

(١٨٢) ﴿وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ على ما أفاضَ عليهم وعلى منِ اتَّبعَهم من النعم وحسنِ العاقبةِ ولذلك أخَّره عن التسليم، والمرادُ تعليمُ المؤمنينَ كيفَ يحمدُونه ويسلِّمون على رسلِه. وعن عليٍّ[(٢)] رضي الله عنه: مَنْ أحبَّ أنْ يكتالَ بالمكيالِ الأَوْفَى من الأجْرِ يومَ القيامة فليكنْ آخرَ كلامِه من مجلسِه: سبحان ربِّك إلى آخرِ السورةِ. وعن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ والصافاتِ أُعْطِيَ من الأجرِ عشْرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ جنيٍّ وشيطانٍ، وتباعدتْ عنه مَرَدَةُ الجنِّ والشياطينُ، وبُرِّيءَ من الشركِ وشهدَ له حافِظاهُ يومَ القيامة أنه كان مؤمناً بالمرسلينَ»[(٣)].

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٣/١٥٦).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٤١ رقم ٣٠٠): «ـ أخرجه ـ عبدالرزاق ـ في المصنف (٢/٢٣٦ رقم ٣١٩٦) ـ والثعلبي من رواية الأصبغ بن نباته ـ الحنظلي التميمي لين الحديث، ليس بشيء (الجرح والتعديل: (٢/٣١٩ ـ ٣٢٠)) ـ عن علي موقوفاً. ورواه ابن أبي حاتم من رواية الشعبي عن النبي ﷺ مرسلاً» هـ.

(٣) أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب رضي الله عنه، وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران. وانظر «الكافي الشاف» (ص١٤١ رقم ٣٠١).

سورة صٓ
آياتها ٨٨ ترتيبها ٣٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ ﴿١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ﴿٢﴾ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾

سورة صٓ مكيةٌ[١]، وآيها ستٌّ أو ثمانٍ وثمانونَ آيةً

بسم الله الرحمٰن الرحيم

(١) ﴿صٓ﴾ وقرىءَ بالكسرِ لالتقاء الساكنين، وقيل إنه أَمْرٌ من المصاداةِ بمعنى المعارضةِ، ومنه الصَّدى فإنه يعارِضُ الصوتَ الأولَ، أي عارِضِ القرآنَ بعملِكَ، وبالفتح[٢] لذلك أو لحذفِ حرفِ القسمِ وإيصالِ فعله إليه أو إضمارِه، والفتحُ في موضعِ الجرِّ فإنَّها غيرُ مصروفةٍ لأنها عَلَمُ السورةِ، وبالجرِّ[٢] والتنوينِ على تأويل الكتابِ. ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ الواو للقسمِ إنْ جُعِلَ ص اسماً للحرفِ، أو مذكورٌ للتحدِّي، أو للرمزِ بكلامٍ مثل صدَقَ محمدٌ عليه الصلاة والسلام، أو للسورةِ خبرُ المحذوفِ أو لفظُ الأمرِ. وللعطفِ[٣] إنْ جُعِلَ مُقْسَماً به كقولهم: اللهِ لأفعلنَّ ـ بالجرِّ ـ والجوابُ محذوفٌ دلَّ عليه ما في ص من الدلالةِ على التحدي أو الأمرِ بالمعادلةِ ـ أي إنه لمعجزٌ أو لواجبُ العملِ به ـ أو إنَّ محمداً لصادقٌ أو قوله:

(٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي ما كفرَ به مَنْ كفرَ لخللٍ وجدَه فيه بل الذين كفروا به. ﴿فِى عِزَّةٍ﴾ أي استكبارٍ عن الحقِّ. ﴿وَشِقَاقٍ﴾ خلافٍ لله ولرسوله ولذلك كفروا به، وعلى الأَوَّلَيْنِ الإضرابُ أيضاً من

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢).
(٢) قوله (وبالفتح) أي وقرىء بالفتح، وكذا قوله (وبالجر).
(٣) قوله وللعطف معطوف على قوله (للقسم) أي والواو للعطف.

الجوابِ المقدَّر، ولكنْ مِنْ حيثُ إشعارُه بذلك، والمرادُ بالذِّكْرِ العِظَةُ أوِ الشرفُ والشهرةُ، أو ذِكْرُ ما يحتاج إليه في الدينِ من العقائدِ والشرائعِ والمواعيدِ، والتنكيرُ في عزَّةٍ وشقاق للدلالة على شدَّتِهما. وقُرِىءَ في غِرَّةٍ أي غفلةٍ عما يجبُ عليهم النظرُ فيه.

(٣) ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ﴾ وعيدٌ لهم على كفرِهم به استكباراً وشقاقاً. ﴿فَنَادَوا﴾ استغاثةً أو توبةً أو استغفاراً. ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ أي ليسَ الحينُ حينَ مناصٍ. ولا هي المشبَّهةُ بليسَ زِيْدَتْ عليها تاءُ التأنيثِ للتأكيدِ كما زيدتْ على رُبَّ وثَمَّ خُصَّتْ بلزوم الأحيانِ وحَذْفِ أحدِ المعمولينِ، وقيل هي النافيةُ للجنسِ أي ولا حينَ مناصٍ لهم وقيل للفعلِ، والنصبُ بإضمارِه أي ولا أرى حينَ مناصٍ، وقرىء بالرفعِ على أنه اسمُ لا أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي ليسَ حين مناصٍ حاصلاً لهم أو لا حينَ مناصٍ كائنٌ لهم، وبالكسْرِ كقوله:

طَلَبُوا صُلْحَنَا وَلاَتَ أَوَانِ　　فَأَجَبْنَا أَنَّ لاَتَ حِينَ بَقَاءِ[1]

إما لأنَّ لاتَ تجرُّ الأحيانَ كما أنَّ لولا تجرُّ الضمائرَ في قوله: لَوْلاَكَ هذا العَامُ لَمْ أَحْجُجِ، أو لأنَّ أوانَ شُبِّهَ بإذْ لأنه مقطوعٌ عن الإضافة إذ أصلُه أوانُ صُلْحٍ، ثم حُمِلَ عليه مناصُ تنزيلاً لما أُضِيفَ إليه الظرفُ منزلته لما بينَهما من الاتحادِ إذ أصلُه يَحِنْ مناصُهم، ثم بنى الحينَ لإضافته إلى غيرِ متمكِّنٍ. ولاتِ بالكسرِ كجَيْرِ، وتقفُ الكوفيةُ عليها بالهاءِ كالأسماءِ، والبصريةُ بالتاء كالأفعالِ. وقيل إنَّ التاءَ مزيدةٌ على حينَ لاتصالِها به في الإمامِ[2] ولا يُرَدُّ عليه أنَّ خطَّ المصحفِ خارجٌ عن القياسِ إذ مثلُه لم يُعْهَدْ فيه، والأصلُ اعتبارُه إلا فيما خصَّه الدليلُ ولقوله:

العَاطِفُونَ تَحِينَ لاَ مِنْ عَاطِفٍ　　وَالمُطْعِمُونَ زَمَانَ مَا مِنْ مُطْعِمِ

والمناصُ المنجا من ناصَهُ بنوصُه إذا فاتَهُ.

(٤) ﴿وَعَجِبُوٓا أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ بشرٌ مثلُهم أو أميٌّ من عِدادِهم. ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ وضعَ فيه الظاهرَ موضِعَ الضميرِ غضَباً عليهم وذمًّا لهم، وإشعاراً بأنَّ كُفْرَهم جسَّرهم على هذا القولِ. ﴿هَٰذَا سَٰحِرٌ﴾ فيمَا يظهره معجزةً. ﴿كَذَّابٌ﴾ فيما يقوله على اللهِ تعالى.

(٥) ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ بأنْ جعلَ الألوهيةَ التي كانتْ لهم لواحدٍ. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ بليغٌ في العُجْب فإنه خلافُ ما أطبقَ عليه آباؤُنا، وما نشاهدُه من أنَّ الواحدَ لا يفي عِلْمُهُ وقدرتُه بالأشياءِ الكثيرةِ. وقُرِىءَ مشدَّداً وهو أبلغُ ككرَّام وكرام. ورُوي أنه لما أسْلَمَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه شقَّ ذلك على قريشٍ، فأتوا أبا طالبٍ وقالوا أنت شيخُنا وكبيرُنا، وقد علمْتَ ما فعلَ هؤلاءِ السفهاءُ وإنا جئناك لتقضيَ بيننا وبينَ ابنِ أخيك، فاستحضرَ رسولَ الله ﷺ وقال: هؤلاءِ قومُك يسألونَك السواءَ فلا تملْ كلَّ الميلِ عليهم، فقال عليه الصلاةُ والسلام: «ماذا يسألونَنِي»، فقالوا: ارفُضْنا وارفضْ ذِكْرَ آلهتِنا وندعُكَ وإلٰهَكَ، فقال: «أرأيتُم إن أعطيتُكم ما سألتم، أمعطيَّ أنتم كلمةً واحدةً تملكون بها العربَ

---

(١) من الخفيف.

(٢) قوله في الإمام أي في المصحف الإمام وهو المصحف العثماني.

وتدينُ لكم بها العجمُ؟» فقالوا: نعَمْ وعَشراً، فقال: «قولوا لا إلٰهَ إلا اللهُ»، فقاموا وقالوا ذلك[1].

﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ أَنِ ٱمۡشُواْ وَٱصۡبِرُواْ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ ۝٧﴾

(٦) ﴿وَٱنطَلَقَ ٱلۡمَلَأُ مِنۡهُمۡ﴾ وانطلقَ أشرافُ قريش من مجلسِ أبي طالبٍ بعدَما بَكَتَهُمْ رسولُ اللهِ ﷺ. ﴿أَنِ ٱمۡشُواْ﴾ قائلينَ بعضُهم لبعضٍ امشُوا. ﴿وَٱصۡبِرُواْ﴾ واثْبُتوا. ﴿عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمۡۖ﴾ على عبادتِها فلا ينفعُكم مكالمتُه، وأنْ هي المفسِّرة لأنَّ الانطلاقَ عن مجلسِ التقاولِ يشْعِرُ بالقولِ. وقيل المرادُ بالانطلاقِ الاندفاعُ في القولِ، وامشوا من مشتِ المرأةُ إذا كثرتْ أولادُها، ومنه الماشيةُ أي اجتمعوا. وقرىء بغيرِ أنْ، وقرىء يمشونَ أنِ اصْبِروا. ﴿إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٞ يُرَادُ﴾ إن هذا الأمرَ لشيءٌ من ريبِ الزمان يُرادُ بنا فلا مردَّ له، أو إن هذا الذي يدَّعيه من التوحيد أو يقصدُه من الرئاسة والترفُّعِ على العرب والعجمِ لشيء يُتَمَنَّى أو يريدُه كلُّ أحدٍ، أو إنَّ دينكم لشيء يُطْلَبُ ليؤْخَذَ منكم.

(٧) ﴿مَا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا﴾ بالذي يقوله. ﴿فِي ٱلۡمِلَّةِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾ في الملة التي أدركْنا عليها آباءَنا، أو في ملَّة عيسى عليه الصلاةُ والسلام التي هي آخر المِلَلِ فإنَّ النصارى يثلِّثون. ويجوز أنْ يكون حالاً من هذا

---

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٦٥ رقم ٣٢٣٢) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٦) وقال الترمذي: حديث حسن ورجاله ـ سوى يحيى بن عمارة ـ ثقات، شيخ المصنف هو التيمي، يحيى هو ابن سعيد القطان، ويحيى بن عمارة هذا لا يدري ما حاله، وقد ذكره ابن حبان في الثقات (٧/ ٦٠٥) وقد تفرد عنه الأعمش، وسماه أبو أسامة: عباد ـ غير منسوب ـ، ووقع في رواية أحمد (٢/ ٣٦٢): عباد بن جعفر، وقال عنه الحافظ في «التقريب» (٢/ ٣٥٤ رقم ١٣٩) «مقبول». وقيل في اسمه (يحيى بن عباد) كذا وقع في بعض الروايات.
وقد أخرجه أحمد (١/ ٢٢٧)، والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) وأبو يعلى (٤/ ٤٥٥ رقم ٢٥٦/ ٢٥٨٣) وابن حبان في الموارد (ص٤٣٥ رقم ١٧٥٧). والحاكم (٢/ ٤٣٢) والبيهقي في السنن الكبرى (٩/ ١٨٨) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٦) كلهم من حديث الأعمش عن يحيى بن عمارة عن سعيد ـ به ـ.
وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وكذا قال أبو الأشبال في تعليقه على المسند (٣/ ٣١٤ رقم ٢٠٠٨). قلت: في إسناده يحيى بن عمارة هذا.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ١٤٢) نسبته لابن أبي شيبه، وعبد بن حميد، وابن المنذر وابن أبي حاتم، وابن مردويه عن ابن عباس ـ به ـ. وأخرجه أحمد (٢/ ٣٦٢) والطبري في «جامع البيان» (١٢/ج٢٣/ ١٢٥) والنسائي في التفسير (رقم: ٤٥٧) كلهم من حديث الأعمش بن عباد، عن سعيد ـ به ـ.
وسماه في رواية أحمد: عباد بن جعفر، وفيها التصريح بسماع الأعمش، وقد ذكر ابن حبان، عباد بن جعفر في الثقات، ولكنه غير هذا، فالذي ذكره يروى عن أشعب بن عبدالملك.
وروى عنه عثمان بن أبي شيبة فهو متأخر عن هذا.
وأخرجه ابن إسحاق ـ كما في السيرة النبوية لابن هشام (٢/ ٦٧ ـ ٦٨) ـ قال: حدثني العباس بن عبدالله بن معبد بن عباس، عن بعض أهله، عن ابن عباس ـ فذكره بنحوه ـ، وليس فيه ذكر الآيات.
ومن طريق ابن إسحاق أخرجه الحاكم (٢/ ٤٣٢) وقال: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي وقال: العباس ثقة. قلت: وإسناده حسن، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع من العباس. والخلاصة أن الحديث حسن.

أي ما سمعنا من أهلِ الكتاب ولا الكهانِ بالتوحيد كائناً في الملة المترقَّبةِ. ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا ٱخۡتِلَٰقٌ﴾ كذبٌ اختلقَهُ.

أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ ﴿٨﴾ أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ ﴿٩﴾ أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ ﴿١٠﴾ جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ ﴿١٢﴾

(٨) ﴿أَءُنزِلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ مِنۢ بَيۡنِنَاۚ﴾ إنكارٌ لاختصاصِه بالوحي وهو مثلُهم أو أدْوَنُ منهم في الشرفِ والرئاسة كقولهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ﴾[1] وأمثالُ ذلك دليلٌ على أنَّ مَبْدَأَ تكذيبِهم لم يكنْ إلا الحسد وقصورُ النظرِ على الحطامِ الدنيويِّ. ﴿بَلۡ هُمۡ فِي شَكّٖ مِّن ذِكۡرِيۚ﴾ من القرآن أو الوحي لميلهم إلى التقليد وإعراضِهم عن الدليل، وليس في عقيدتهم ما يبتُّون به من قولهم هذا ساحرٌ كذابٌ إن هذا إلا اختلاقٌ. ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُواْ عَذَابِ﴾ بل لم يذوقُوا عذابي بعدُ فإذا ذاقوه زالَ شكُّهم، والمعنى أنهم لا يصدِّقون به حتى يمسَّهم العذابُ فيلْجِئَهم إلى تصديقِه.

(٩) ﴿أَمۡ عِندَهُمۡ خَزَآئِنُ رَحۡمَةِ رَبِّكَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡوَهَّابِ﴾ بل أعِندَهم خزائنُ رحمته، وفي تصرُّفهم حتى يصيبوا بها من شاؤوا ويصْرِفوها عمَّن شاؤوا، فيتخيَّرُ للنبوة بعضَ صناديدِهم، والمعنى أن النبوَّةَ عطيَّةٌ من الله يتفضَّل بها على مَنْ يشاءُ من عباده لا مانعَ له فإنه العزيزُ أي الغالِبُ الذي لا يُغْلَبُ، الوهابُ الذي له أنْ يَهَبَ كلَّ ما يشاء لِمَنْ يشاء، ثم رشَّحَ ذلك فقال:

(١٠) ﴿أَمۡ لَهُم مُّلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۖ﴾ كأنه لما أنكر عليهم التصرُّفَ في نبوَّته بأنْ ليس عندَهم خزائنُ رحمته التي لا نهايةَ لها، أردفَ ذلك بأنه ليس لهم مدخلٌ في أمرِ هذا العالَمِ الجسمانيِّ الذي هو جزءٌ يسيرٌ من خزائنه فَمِنْ أين لهم أنْ يتصرَّفوا فيها. ﴿فَلۡيَرۡتَقُواْ فِي ٱلۡأَسۡبَٰبِ﴾ جوابُ شرطٍ محذوف أي إنْ كان لهم ذلك فلْيصعدوا في المعارجِ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى العرش حتى يَسْتَوُوا عليه ويدبِّروا أمرَ العالَم، فَيُنْزِلُوا الوحيَ إلى مَنْ يستصوبونَ. وهو غايةُ التهكُّمِ بهم، والسببُ في الأصلِ هو الوصلةُ، وقيل المرادُ بالأسبابِ السمواتُ لأنها أسباب الحوادثِ السُّفليةِ.

(١١) ﴿جُندٞ مَّا هُنَالِكَ مَهۡزُومٞ مِّنَ ٱلۡأَحۡزَابِ﴾ أي هم جندٌ ما من الكفار المتحزِّبينَ على الرسل، مهزومٌ مكسور عما قريب فَمِنْ أين لهم التدابيرُ الإلهية والتصرُّفِ في الأمور الربانية، أو فلا تكترثْ بما يقولون، وما مزيدةٌ للتقليل كقولك: أكلتُ شيئاً ما، وقيل للتعظيمِ على الهزءِ وهو لا يلائمُ ما بعدَه، وهنالك إشارةٌ إلى حيثُ وضعوا فيه أنفسَهم من الانتدابِ لمثلِ هذا القولِ.

(١٢) ﴿كَذَّبَتۡ قَبۡلَهُمۡ قَوۡمُ نُوحٖ وَعَادٞ وَفِرۡعَوۡنُ ذُو ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ ذو الملْكِ الثابت بالأوتاد كقوله:

وَلَقَدْ غَنُوا فِيْهَا بِأَنْعَمِ عِيْشَةٍ ... فِي ظِلِّ ملكٍ ثَابِتِ الأَوْتَادِ[2]

---

(١) الزخرف: «٣١».

(٢) من الكامل.

مأخوذٌ من ثبات البيتِ المطنبِ بأوتادِه، أو ذو الجموعِ الكثيرة سُمُّوا بذلك لأن بعضَهم يشدُّ بعضاً كالوتد يشدُّ البناءَ. وقيل نَصَبَ أربعَ سوارٍ وكان يمد يدي المعذَّبِ ورجليهِ إليها ويضربُ عليها أوتاداً ويتركُه حتى يموتَ.

وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ ﴿١٤﴾ وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ ﴿١٥﴾ وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿١٦﴾ ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ ذَا ٱلْأَيْدِۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٧﴾ إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ لْـَٔيْكَةِۚ﴾ وأصحابُ الغيضةِ وهم قومُ شعيبٍ، وقرأ ابنُ كثير ونافع وابنُ عامر لَيْكةِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ يعني المتحزبينَ على الرسل الذين جعلَ الجندَ المهزومَ منهم.

(١٤) ﴿إِن كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ بيانٌ لما أُسْنِدَ إليهم من التكذيب على الإبهام مشتمِلٌ على أنواعٍ من التأكيد ليكونَ تسجيلاً على استحقاقهم للعذاب، ولذلك رتَّبَ عليه: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ وهو إما مقابلةُ الجمعِ بالجمعِ، أو جَعْلُ تكذيبِ الواحدِ منهم تكذيبُ جميعِهم.

(١٥) ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ وما ينتظرُ قومُك أو الأحزابُ فإنهم كالحضور لاستحضَارهم بالذِّكْرِ، أو حضورُهم في علمِ الله تعالى ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ هي النفخةُ الأولى. ﴿مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ من توقُّفٍ مقدارِ فُوَاقَ، وهو ما بين الحلَبَتَيْنِ، أو رجوعٌ وتردادٌ فإنه فيه يرجعُ اللبنُ إلى الضِّرعِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالضمِّ وهما لغتانِ.

(١٦) ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ قِسْطَنا من العذاب الذي توعِدُنا به، أو الجنةَ التي تعدُّها للمؤمنين وهو من قطَّه إذا قطعهُ، وقيل صحيفةِ الجائزةِ قِطٌّ لأنها قطعةٌ من القرطاسِ، وقد فُسِّر بها أي: عجِّلْ لنا صحيفةَ أعمالِنا للنظرِ فيها. ﴿قَبْلَ يَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ استعجَلُوا ذلك استهزاءً.

(١٧) ﴿ٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ واذكر لهم قِصَّتَه تعظيماً للمعصية في أعينهم، فإنه مع علوِّ شأنه واختصاصِه بعظائمِ النعمِ والمكرُماتِ لما أتى صغيرةً نزلَ عن منزلته ووبَّخه الملائكةُ بالتمثيلِ والتعريضِ حتى تفطَّنَ فاستغفرَ ربه وأنابَ فما الظَّنُّ بالكفرةِ وأهلِ الطغيان، أو تذكَّرْ قِصَّتَهُ وصُنْ نفسَك أنْ تزلَّ فيلقاكَ ما لقيهُ من المعاتبة على إهمال عنانِ نفسِه أدنى إهمالٍ. ﴿ذَا ٱلْأَيْدِ﴾ ذا القوة يُقَالُ فلان أيدٍ وذو أيدٍ وآدٍ وأيادٍ بمعنى. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجَّاعٌ إلى مرضاةِ الله تعالى، وهو تعليلٌ للأيدِ ودليلٌ على أنَّ المرادَ به القوةُ في الدين، وكان يصومُ يوماً ويفطرُ يوماً ويقومُ نصفَ الليل.

(١٨) ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ﴾ قد مرَّ تفسيرهُ، ويسبِّحْنَ حالٌ وُضِعَ موضِعَ مسبحات لاستحضار الحال الماضيةِ والدلالةِ على تجدُّدِ التسبيحِ حالاً بعد حال[1]. ﴿بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِشْرَاقِ﴾ ووقْتِ الإشراقِ وهو

(١) قوله «سخرنا الجبال معه...» ولم يقل له لأن تسخير الجبال له عليه السلام لم يكن بطريق تفويض التصرف الكلي فيها إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ كتسخير الريح وغيرها لسليمان ـ عليه السلام ـ بل بطريق التبعية له ـ عليه =

حينَ تشرقُ الشمسُ أي تضيءُ ويصفو شعاعُها وهو وقتُ الضحى، وأما شروقُها فطلوعُها يقال شرقتِ الشمسُ ولما تشرِقْ. وعن أمِّ هانىء رضي الله تعالى عنها أنه عليه الصلاة والسلام صلى صلاةَ الضحى وقال «هذه صلاةُ الإشراقِ»(١). وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ما عرفْتُ صلاةَ الضحى إلا بهذه الآيةِ(٢).

﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾﴾

(١٩) ﴿وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً﴾ إليه من كل جانب، وإنما لم يراعِ المطابقةَ بين الحالينِ لأنَّ الحشرَ جملةً أدلُّ على القدرةِ منه مدرجاً، وقرىء والطيرُ محشورةٌ بالمبتدأِ والخبرِ. ﴿كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾ كلُّ واحد من الجبالِ والطيرِ لأجلِ تسبيحه رجَّاعٌ إلى التسبيحِ، والفرقُ بينه وبينَ ما قبلَه أنه يدلُّ على الموافقةِ في التسبيحِ وهذا على المداومةِ عليها، أو كلٌّ منهما ومِنْ داودَ عليه الصلاة والسلام مرجِّعٌ لله التسبيحَ.

(٢٠) ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ وقوّيناه بالهيبة والنصرةِ وكثرةِ الجنودِ، وقرىء بالتشديد للمبالغةِ. قيل: إنَّ رجلاً ادعى بقرةً على آخرَ وعجزَ عن البيانِ، فأوحى إليه أنِ اقتلِ المدَّعىٰ عليه فأعْلَمَهُ فقال: صدقْتَ إني قتلتُ أباه وأخذتُ البقرةَ فعظمتْ بذلك هيبتُه. ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ النبوةَ أو كمالَ العلم وإتقانَ العمل. ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ وفصلَ الخصامِ بتمييز الحقِّ عن الباطل، أو الكلامَ المخلصَ الذي ينبه المخاطبُ على المقصودِ من غير التباسٍ يراعي فيه مظانَّ الفصلِ والوصلِ والعطفِ والاستئنافِ والإضمارِ والإظهارِ والحذفِ والتكرارِ ونحوِها، وإنما سُمِّيَ به أما بعدُ لأنه يفصلُ المقصودَ عما سبقَ مقدمةً له من الحمدِ والصلاةِ، وقيل هو الخطابُ القصْدُ الذي ليس فيه اختصارٌ مخلٌّ ولا إشباعٌ مملٌّ كما جاء في وصفِ كلام الرسولِ عليه الصلاة والسلام فصلٌ لا نزرٌ ولا هذرٌ.

(٢١) ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ﴾ استفهامٌ معناه التعجيبُ والتشويقُ إلى استماعه، والخصْمُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك أُطْلِقَ على الجمعِ. ﴿إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ﴾ إذ تصعدوا سورَ الغرفةِ، تفعَّلٌ من السورِ كتسنُّمٍ من السَّنامِ، وإذ متعلِّقٌ بمحذوفٍ أي نبأ تحاكِم الخصْم إذ تسوَّروا، أو بالنبأ على أنَّ المرادَ به

= الصلاة والسلام ـ والاقتداء به في عبادة الله تعالى (س٧/ ٢١٩).

(١، ٢) أخرج الطبراني في الأوسط ـ كما في «المجمع» (٧/ ٩٩).
عن ابن عباس قال: كنت أمر بهذه الآية ـ يُسبحنَ بالعشي والإشراق ـ فما أدري ما هي العشي والإشراق حتى حدثتني أم هانىء بنت أبي طالب أن رسول الله ﷺ دخل عليها فدعا بوضوء بحفنة كأني أنظر إلى أثر العجين فيها فتوضأ ثم قام فصلى الضحى فقال: يا أم هانىء هي صلاة الإشراق. وقال الهيثمي: فيه أبو بكر الهذلي وهو ضعيف وأخرج الحاكم (٤/ ٥٣) من وجه آخر عن عبدالله بن الحارث عن ابن عباس «كان يصلي الضحى حتى أدخلناه على أم هانىء فقلت لها: أخبري ابن عباس. قالت: دخل رسول الله ﷺ في بيتي فصلى صلاة الضحى ثمان ركعات. قال فخرج ابن عباس وهو يقول: هذه صلاة الإشراق» وسكت عليه الحاكم والذهبي. وقال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٢ رقم ٣٠٤) «هذا موقوف وهو أصح».

الواقعُ في عهدِ داودَ عليه الصلاة والسلام، وأن إسنادَ أتى إليه على حذفِ مضافٍ أي قصةَ نبأِ الخصمِ لما فيه من معنَى الفعلِ لا بأَتَى لأنَّ إتيانَه الرسولَ عليه الصلاة والسلام لم يكنْ حينئذ وإذْ الثانيةُ في:

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَٰذَآ أَخِى لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾

(٢٢) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَىٰ دَاوُۥدَ﴾ بدلٌ من الأولى أو ظرفٌ لتسوروا. ﴿فَفَزِعَ مِنْهُمْ﴾ نزلُوا عليه من فوق في يوم الاحتجابِ والحرسُ على الباب لا يتركونَ مَنْ يدخلُ عليه، فإنه عليه الصلاة والسلام كان جزَّأَ زمانَه: يوماً للعبادة ويوماً للقضاء ويوماً للوعْظِ ويوماً للاشتغالِ بخاصَّته، فتسوَّر عليه ملائكةٌ على صورة الإنسان في يوم الخلوةِ. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ نحن فوجانِ متخاصِمان على تسميةِ مصابِ الخصمِ خصْماً. ﴿بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وهو على الفرضِ وقصْدِ التعريضِ إن كانوا ملائكةً وهو المشهورُ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ﴾ ولا تُجِرْ في الحكومة، وقرىء ولا تَشْطُطْ أي ولا تبعدْ عن الحقِّ ولا تشططْ ولا تُشاطِّ، والكلُّ من معنى الشططِ وهو من مجاوزةِ الحدِّ. ﴿وَٱهْدِنَآ إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلصِّرَٰطِ﴾ أي إلى وسَطِه وهو العدلُ.

(٢٣) ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ بالدينِ أو بالصُّحبةِ. ﴿لَهُۥ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِىَ نَعْجَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ هي الأُنْثَى من الضأنِ، وقد يكنَّى بها عن المرأةِ، والكنايةُ والتمثيلُ فيما يُسَاقُ للتعريض أبلغُ في المقصودِ، وقرىء تَسعُ وتَسعُونَ بفتحِ التاء ونِعْجةً بكسرِ النونِ، وقرأ حفص بفتح ياءِ ليَ نعجةٌ. ﴿فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا﴾ ملِّكْنيهَا وحقيقتُه اجعلْني أكفلُها كما أكفلُ ما تحتَ يدي، وقيل اجعلْها كِفْلي أي نصيبي. ﴿وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ وغَلَبَني في مخاطبتِه إيايَ محاجَّةً بأنْ جاء بحجاجٍ لم أقدرْ على ردِّه، أو في مغالبتِه إيايَ في الخطبةِ يُقَالُ: خطبتُ المرأةَ وخَطَبَها هو فخاطبني خطاباً حيثُ زوَّجها دوني. وقرىء وعازَّني أي غالبني، وعَزَني على تخفيفٍ غريب.

(٢٤) ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف قصدَ به المبالغةَ في إنكار فعلِ خليطِه وتهجينِ طمعِه ولعلَّه قال ذلك بعدَ اعترافِه، أو على تقدير صدقِ المدَّعي، والسؤالُ مصدرٌ مضاف إلى مفعوله، وتعديتُه إلى مفعولٍ آخرَ بإلى لتضمُّنه معنى الإضافةِ. ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ﴾ الشركاءِ الذين خلطُوا أموالَهم جمعُ خليطٍ ﴿لَيَبْغِى﴾ ليتعدي. ﴿بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ وقرىء بفتحِ الياءِ على تقدير النونِ الخفيفةِ وحذفِها كقوله: اضْرِبْ عَنْكَ الهُمُومِ طَارِقَهَا، وبحذفِ الياء اكتفاءً بالكسرةِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ أي وهمْ قليلٌ، وما مزيدةٌ للإبهام والتعجُّبِ من قلَّتهم. ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ ابتليناه بالذَّنْبِ أو امتحناه بتلك الحكومةِ هل يتنبَّهُ بها. ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ﴾ لذنبه. ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا﴾ ساجداً على تسميةِ السجودِ ركوعاً لأنه مبدؤُه، أو خرَّ للسجود راكعاً أي مصلياً كأنه أحرمَ بركعتي

الاستغفارِ. ﴿وَأَنَابَ﴾ ورجعَ إلى الله بالتوبة، وأقصَى ما في هذه القضيةِ الإشعارُ بأنه عليه الصلاةُ والسلام ودَّ أن يكونَ له ما لغيره، وكان له أمثالُه فنبَّهَهُ الله بهذهِ القصةِ فاستغفرَ وأناب عنه. وما روي أنَّ بصرَهُ وقعَ على امرأةٍ فعشِقَها وسعَى حتى تزوَّجها وَلَدَتْ منه سليمانَ، إنْ صحَّ فلعلَّه خطبَ مخطوبَتَهُ أو استنزلَه عن زوجَتِهِ، وكان ذلك معتاداً فيما بينَهم، وقد واسى الأنصارُ المهاجرينَ بهذا المعنى. وما قيل إنه أرسلَ أوريا إلى الجهاد مراراً وأمر أنْ يقدَّمَ حتى قُتِلَ فتزوَّجها هزءٌ وافتراءٌ، ولذلك قال عليٌّ رضي الله عنه: من حدَّثَ بحديث داودَ عليه السلام على ما يرويه القُصّاصُ جلدتُه مائةً وستينَ[1]. وقيل إنَّ قوماً قصدُوا أنْ يقتلوه فتسوَّروا المحرابَ ودخلوا عليه فوجدُوا عنده أقواماً فتصنَّعوا بهذا التحاكُمِ فعلِمَ غرضَهم وأراد أنْ ينتقِمَ منهم، فظنَّ أن ذلك ابتلاءٌ منَ الله له فاستغفرَ ربَّه مما همَّ به وأنابَ.

فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ أي ما استغفرَ عنه. ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ﴾ لقربةً بعدَ المغفرة. ﴿وَحُسْنَ مَـَٔابٍ﴾ مرجعٌ في الجنة.

(٢٦) ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ﴾ استخلفْناك على الملْكِ فيها، أو جعلْناك خليفةً ممن قبلَك من الأنبياءِ القائمين بالحقِّ. ﴿فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ بحكْم الله. ﴿وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ﴾ ما تهوى النفسُ، وهو يؤيدُ ما قيل إنَّ ذَنْبَهُ المبادرةُ إلى تصديقِ المدَّعي وتظليمِ الآخَرِ قبل مسألَتِه. ﴿فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ دلائلِه التي نَصَبَها على الحقِّ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ﴾ بسببِ نسيانِهم وهو ضلالُهم عن السبيلِ، فإنَّ تذكُّرهُ يقتضي ملازمةَ الحقِّ ومخالفةَ الهوى[2].

(٢٧) ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا﴾ لا حكمةَ فيه، أو ذوي باطلٍ بمعنى مبطلينَ عابثينَ كقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ﴾[3] أو للباطلِ الذي هو متابعةُ الهوى، بل للحقِّ الذي هو مقتضَى الدليلِ من التوحيدِ والتدرُّع بالشرع كقوله تعالى ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾[4] على وضْعه موضِعَ المصدرِ مثل هَنِيئاً ﴿ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الإشارةُ إلى خلْقِها باطلاً، والظنُّ بمعنى المظنونِ. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ بسبب هذا الظنِّ[5].

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٢ رقم ٣٠٦):«لم أجده». أهـ.
(٢) وإظهار «سبيل الله» في موقع الإضمار لزيادة التقرير والإيذان بكمال شناعة الضلال عنه (س٧/ ٢٢٣).
(٣) الأنبياء: «١٦».
(٤) الذاريات: «٥٦».
(٥) وَضَع الموصول «للذين كفروا» موضع ضميرهم للإشعار بما في حيِّز الصلة بعِلِّيَّة كفرهم له (س٧/ ٢٢٤).

أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ
إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٣٠﴾ إِذْ
عُرِضَ عَلَيْهِ بِٱلْعَشِىِّ ٱلصَّٰفِنَٰتُ ٱلْجِيَادُ ﴿٣١﴾ فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴿٣٢﴾

(٢٨) ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أم منقطعةٌ والاستفهامُ فيها لإنكارِ التسويةِ بينَ الحزبينِ التي هي من لوازمِ خلْقِها باطلاً ليدلَّ على نَفْيِه وكذا التي في قوله: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ كأنه أنكرَ التسويةَ أولاً بينَ المؤمنينَ والكافرينَ ثمَّ بيَّنَ المتقينَ من المؤمنينَ والمجرمينَ منهم، ويجوزُ أنْ يكونَ تكريراً للإنكارِ الأولِ باعتبار وصْفَيْنِ آخرَيْنِ يمنعانِ التسوية من الحكيمِ الرحيمِ، والآية تدلُّ على صِحَّةِ القولِ بالحشْرِ، فإنَّ التفاضُلَ بينَهما إما أنْ يكون في الدنيا والغالبُ فيها عكسُ ما يقتضي الحكمةَ فيه، أو في غيرها وذلك يستدعي أنْ يكون لهم حالةٌ أخرى يُجازَوْنَ بها.

(٢٩) ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ﴾ نفّاعٌ، وقرىء بالنصبِ على الحالِ. ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ﴾ ليتفكَّروا فيها فيعرفُوا ما يدبِّر ظاهرَها من التأويلاتِ الصحيحةِ والمعاني المستَنْبَطَةِ. وقرىء ليتدبروا على الأصلِ ولِتَدَبَّروا أي أنتَ وعلماءُ أمَّتِكَ. ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وليتعظَ به ذوو العقولِ السليمة، أو ليستحْضِروا ما هو كالمركوزِ في عقولِهم من فَرْطِ تمكُّنِهم من معرفته بما نصبَ عليه من الدلائلِ، فإنَّ الكتبَ الإلهيةَ بيانٌ لما لا يُعْرَفُ إلا من الشرعِ، وإرشادٌ إلى ما يستقلُّ به العقلُ، ولعل التدبُّرَ للمعلومِ الأولِ والتذكُّرَ للثاني.

(٣٠) ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ أي نعمَ العبدُ سليمانُ إذ ما بعدَه تعليلٌ للمدحِ وهو في حاله. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ رجّاعٌ إلى الله بالتوبة، أو إلى التسبيحِ مرجعٌ له.

(٣١) ﴿إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ لأوَّابٍ أو لِنِعْمَ، والضميرُ لسليمانَ عندَ الجمهور ﴿بِٱلْعَشِىِّ﴾ بعدَ الظهرِ ﴿ٱلصَّٰفِنَٰتُ﴾ الصافِنُ من الخيلِ الذي يقومُ على طرفِ سُنْبُكِ يدٍ أو رِجْلٍ، وهو من الصفاتِ المحمودةِ في الخيلِ الذي لا يكادُ يكون إلا في العرابِ الخلَّصِ. ﴿ٱلْجِيَادُ﴾ جمع جواد أو جودٍ، وهو الذي يسرعُ في جَرْيِهِ وقيل الذي يجود في الركضِ، وقيل جمعُ جيدٍ. روي أنه عليه الصلاة والسلام غزا دمشقَ ونصيبينَ وأصاب ألفَ فرسٍ، وقيل أصابها أبوه من العمالقةِ فورثَها منه فاستعرضَها فلم تزلْ تُعْرَضُ عليه حتى غربتِ الشمسُ وغفلَ عن العصْرِ، أو عن وِرْدٍ كان له فاغتمَّ لما فاته فاستردَّها فعقَرها تقرُّباً لله.

(٣٢) ﴿فَقَالَ إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ أصلُ أحببتُ أنْ يُعَدَّى بعلى لأنه بمعنى آثرتُ لكنْ لما أُنِيْبَ منابَ أنبتُ عُدِّيَ تعديتَه، وقيل هو بمعنى تَقاعدْتُ من قوله:

مِثْلُ بَعِيرِ السُّوءِ إِذَا أَحَبَّا

أي بركَ، وحبُّ الخير مفعولٌ له، والخيرُ المالُ الكثيرُ، والمرادُ به الخيلُ التي شغلتْه ويُحْتَمَلُ أنه سمَّاها خيراً لتعلُّقِ الخير بها. قال عليه الصلاة والسلام: «الخيل معقودٌ بنواصيها الخيرُ إلى يومِ

القيامة»[١]. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو بفتح الياء. ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ أي غربتِ الشمسُ، شبَّه غروبَها بتواري المخبَّأةِ بحجابِها، وإضمارُها من غير ذِكْرٍ لدلالة العشيِّ عليها.

رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحًا بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ﴿٣٤﴾

(٣٣) ﴿رُدُّوهَا عَلَيَّ﴾ الضمير للصافنات. ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا﴾ فأخذَ بمسح السيفِ مسْحاً[٢]. ﴿بِٱلسُّوقِ وَٱلْأَعْنَاقِ﴾ أي بِسُوقِها وأعناقِها يقطعُها من قولِهم مسحَ علاوتَه[٣] إذا ضَربَ عُنُقَهُ، وقيل جعلَ يمسحُ بيده أعناقَها وسُوقَها حبّاً لها. وعن ابن كثير بالسُؤْقِ على همزِ الواوِ لضمةِ ما قبلها كمؤْقِنٍ، وعن أبي عمرو بالسؤوقِ، وقرىء بالساقِ اكتفاءً بالواحد عن الجمعِ لأمْنِ الإلباسِ.

(٣٤) ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ﴾ وأظهرُ ما قيلَ فيه ما روى مرفوعاً أنه قال: لأطوفنَّ الليلةَ على سبعينَ امرأةً تأتي كلُّ واحدة بفارسٍ يجاهد في سبيل الله ولم يقلْ إنْ شاء الله، فطافَ عليهن فلم تحملْ إلا امرأةٌ جاءت بشقِّ رجلٍ، فوالذي نفس محمدٍ بيده لو قال إنْ شاءَ الله لجاهدوا فرساناً»[٤]. وقيل وُلِدَ له ابنٌ فاجتمعتِ الشياطينُ على قتله فعلِمَ ذلك، فكان يغذُوه في السحاب فما شعرَ به إلا أنْ أُلْقِيَ على كرسِّيه ميتاً فتنبَّه على خطئِه بأنْ لم يتوكلْ على الله. وقيل إنه غزا صيدونَ من الجزائرِ فقتلَ مِلِكَها وأصابَ ابنتَه جرادةَ، فأحبَّها وكان لا يرقأ دمعُها جزعاً على أبيها، فأمرَ الشياطينَ فمثَّلُوا لها صورتَه فكانتْ تغدو إليها وتروحُ مع ولائِدها يسجدْنَ لها كعادتهنَّ في مُلْكِهِ، فأخبره آصِفُ فكسرَ الصورةَ وضربَ المرأةَ وخرجَ إلى الفلاةِ باكياً متضرِّعاً، وكانتْ له أمُّ ولدٍ اسمُها أمينةُ إذا دخل للطهارةِ أعطاها خاتَمَهُ وكان ملْكُه فيه، فأعطاها يوماً فتمثَّل لها بصورتِه شيطانٌ اسمه صخْرٌ وأخذَ الخاتَمَ وتختَّم به وجلسَ على كرسيِّه، فاجتمعَ عليه الخلْقُ ونفذَ حكمُه في كلِّ شيءٍ إلا في نسائِه وغيَّرَ سليمانَ عن هيئتِه، فأتاها لطلبِ الخاتَمِ فطردْته فعرفَ أنَّ الخطيئةَ قد أدركتْه، فكان يدور على البيوتِ يتكففُ حتى مضَى أربعونَ يوماً عددَ ما عُبِدَتِ الصورةُ في بيته، فطارَ الشيطانُ وقذفَ الخاتمَ في البحرِ فابتلعتْه سمكةٌ فوقعتْ في يدِهِ فبقرَ بطنَها فوجدَ الخاتَمَ فتختَّمَ به وخرَّ ساجداً، وعاد إليه الملْكُ، فعلى هذا الجسدِ صخرٌ سمِّي به وهو جسمٌ لا روحَ فيه لأنه كان متمثلاً بما لم يكنْ كذلك، والخطيئةُ تغافُلُه عن حالِ أهلِه لأنَّ اتخاذَ التماثيل كان جائزاً حينئذٍ، وسجودُ الصورةِ بغير علمِه لا يضرُّ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣٣ رقم ٣٦٤٤) ومسلم (٣/ ١٤٩٢ رقم ٩٦) من حديث ابن عمر. وفي الباب من حديث عروة البارقي، وجرير، وأبي هريرة.

(٢) والفاء فصيحة أفصحت عن جملة حذفت ثقة بدلالة الحال عليها، وإيذاناً بغاية سرعة الامتثال بالأمر (س٧/ ٢٢٦).

(٣) العلاوة بالكسر أعلى الرأس أو العنق.

(٤) أخرجه البخاري (١١/ ٥٢٤ رقم ٦٦٣٩) ومسلم (٣/ ١٢٧٦ رقم ١٦٥٤) والبغوي في شرح السنة (١/ ١٤٧ رقم ٧٩) من حديث أبي هريرة.

قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٣٥﴾ فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً حَيۡثُ
أَصَابَ ﴿٣٦﴾ وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ ﴿٣٧﴾ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ ﴿٣٨﴾ هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ
حِسَابٖ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٠﴾ وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾

(٣٥) ﴿قَالَ رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ﴾ لا يتسهلُ له ولا يكونُ ليكونَ معجزةً لي مناسبةً لحالي، أو لا ينبغي لأحدٍ أنْ يسلُبَهُ مِنِّي بعد هذه السلبةِ، أو لا يصحُّ لأحدٍ من بعدي لعظمتِه كقولك: لفلانٍ ما ليس لأحدٍ من الفضْلِ والمالِ، على إرادةِ وصْفِ المِلْكِ بالعظمةِ لا أنْ لا يُعْطَى أحدٌ مثلَه فيكونُ منافسةً، وتقديمُ الاستغفارِ على الاستيهابِ لمزيدِ اهتمامِه بأمرِ الدين ووجوبِ تقديمِ ما يُجْعَلُ للدعاء بصددِ الإجابةِ. وقرأ نافع وأبو عمرو بفتحِ الياءِ. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ المعطي ما تشاءُ لمن تشاءُ.

(٣٦) ﴿فَسَخَّرۡنَا لَهُ ٱلرِّيحَ﴾ فذلَّلْناها لطاعتِه إجابةً لدعوتِه، وقرىء الرياحَ. ﴿تَجۡرِي بِأَمۡرِهِۦ رُخَآءً﴾ لينةً من الرخاوةِ لا تزعزعُ، أو لا تخالِفُ إرادتَه كالمأمورِ المنقادِ. ﴿حَيۡثُ أَصَابَ﴾ أرادَ من قولهم أصابَ الصوابَ فاخطأَ الجوابَ.

(٣٧) ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ﴾ عطفٌ على الريحِ. ﴿كُلَّ بَنَّآءٖ وَغَوَّاصٖ﴾ بدلٌ منه.

(٣٨) ﴿وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي ٱلۡأَصۡفَادِ﴾ عطفٌ على كل كأنه فصلَ الشياطينَ إلى عَمَلَةٍ استعملَهم في الأعمال الشاقَّةِ كالبناء والغوْصِ، ومَرَدَةٍ قرنَ بعضَهم مع بعضٍ في السلاسلِ ليكفُّوا عن الشرِّ، ولعلَّ أجسامَهم شفافةٌ صلْبةٌ فلا تُرَى ويمكنُ تقييدُها، هذا والأقربُ أنَّ المرادَ تميلُ كفُّهم عن الشرورِ بالإقرانِ في الصَّفْدِ وهو القيدُ، وسمِّيَ به العطاءُ لأنه يرتبط به المنعَمُ عليه. وفرَّقوا بينَ فعليهما فقالوا صَفَدَه قيَّدَه وأصفدَه أعطاهُ عكسَ وَعَدَ وأَوْعَدَ وفي ذلك نكتةٌ.

(٣٩) ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا﴾ أي هذا الذي أعطيناك من الملْكِ والبسْطَة والتسلُّطِ على ما لم يُسَلَّطْ به غيرُك عطاؤُنا. ﴿فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ﴾ فأعْطِ مَنْ شئْتَ وامنعْ مَنْ شئت. ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ حالٌ من المستَكِنِّ في الأمرِ، أي غيرَ محاسبٍ على منِّه وإمساكِه لتفويض التصرف فيه إليك أو من العطاء وصَلة له وما بينهما اعتراض. والمعنى أنه عطاء جم لا يكاد يمكن حصره، وقيل الإشارةُ إلى تسخيرِ الشياطينِ، والمراد بالمنِّ والإمساكِ إطلاقُهم وإبقاؤُهم في القيدِ.

(٤٠) ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ﴾ في الآخرة مع ماله من الملْكِ العظيم في الدنيا. ﴿وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ هو الجنةُ.

(٤١) ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ هو ابنُ عيصَ بن إسحاقَ وامرأتُه ليَّا بنتُ يعقوبَ صلواتُ الله عليه. ﴿إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ﴾ بدلٌ من عبدِنا، وأيوبُ عطفُ بيانٍ له. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ﴾ بأنْ مسَّني، وقرأ حمزةُ بإسكانِ الياءِ وإسقاطها في الوصْل. ﴿ٱلشَّيۡطَٰنُ بِنُصۡبٖ﴾ بتعبٍ. ﴿وَعَذَابٍ﴾ ألَمٍ وهيَ حكايةٌ لكلامِه الذي ناداه به ولولا هي لقالَ إنه مسَّه، والإسنادُ إلى الشيطانِ إما لأنَّ اللهَ مسَّه بذلك لما فَعَلَ بوسوستِه كما قيل إنه أُعْجِبَ بكثرةِ ماله أو استغاثةِ مظلومٍ فلم يُغِثْهُ، أو كانتْ مواشيه في ناحيةِ مَلِك كافرٍ فداهَنَهُ ولم يغْزُهُ، أو لسؤالِه امتحاناً لصبرِه فيكونُ اعترافاً بالذَّنبِ أو مراعاةً للأدب، أو لأنه وسوسَ إلى أتباعه حتى رفضُوه

وأخرجوه من ديارهم، أو لأنَّ المرادَ بالنَّصَبِ والعذابِ ما كان يُوَسْوِسُ إليه في مرضِه من عِظَمِ البلاء والقنوطِ من الرحمة، ويغريه على الجزعِ. وقرأ يعقوبُ بفتحِ النون على المصدرِ، وقرئ بفتحتينِ وهو لغةٌ كالرُّشْدِ والرَّشَدِ، وبضمتينِ للتثقيلِ.

﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢ وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ۝٤٣ وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ ۝٤٤ وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ ذِكۡرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦ وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ۝٤٧﴾

(٤٢) ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ﴾ حكايةٌ لما أُجيبَ به أي اضربْ برجلِك الأرضَ. ﴿هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ﴾ أي فضربَها فنبعتْ عينٌ فقيل هذا مُغْتَسَلٌ أي ماء تغتسلُ به وتشربُ منه فيبرأ باطنُك وظاهرُك، وقيل نبعتْ عينانِ حارَّةٌ وباردةٌ فاغتسلَ من الحارةِ وشرب من الأخرى.

(٤٣) ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ بأنْ جمعْناهم عليه بعدَ تفرُّقهم أو أحييناهم بعدَ موتِهم، وقيل وهبنا له مثلَهم. ﴿وَمِثۡلَهُم مَّعَهُمۡ﴾ حتى كان له ضعفُ ما كان. ﴿رَحۡمَةٗ مِّنَّا﴾ لرحمتنا عليه ﴿وَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ وتذكيراً لهم لينتظروا الفرجَ بالصبر واللجأ إلى الله فيما يحيقُ بهم.

(٤٤) ﴿وَخُذۡ بِيَدِكَ ضِغۡثٗا﴾ عطفٌ على اركضْ والضِّغثُ الحزمةُ الصغيرةُ من الحشيش ونحوه. ﴿فَٱضۡرِب بِّهِۦ وَلَا تَحۡنَثۡۗ﴾ روي أن زوجتَه ليَّا بنتَ يعقوبَ وقيل رحمةُ بنتُ إفرائيمَ بنِ يوسفَ ذهبتْ لحاجة فابطأَتْ فحلفَ إنْ برئ ضربَها مائةَ ضربةٍ، فحلَّلَ الله يمينَه بذلك، وهي رخصةٌ باقيةٌ في الحدود. ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗاۚ﴾ فيما أصابه في النفسِ والأهلِ والمالِ، ولا يخلُّ به شكواهُ إلى الله من الشيطان فإنه لا يسمَّى جزعاً كتمنِّي العافية وطلبِ الشفاءِ مع أنه قال ذلك خيفةَ أنْ يفتِنَه أو قومَه في الدين. ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُۖ﴾ أيوبُ. ﴿إِنَّهُۥٓ أَوَّابٞ﴾ مقبلٌ بشراشرِه على الله تعالى.

(٤٥) ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ﴾ وقرأ ابنُ كثير عبدَنا وضَعَ الجنسَ موضعَ الجمع، أو على أنَّ إبراهيمَ وحدَه لمزيدِ شرفِه عطفُ بيانٍ له، وإسحاقُ ويعقوب عطفٌ عليه. ﴿أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ أولي القوة في الطاعةِ والبصيرة في الدين، أو أولي الأعمال الجليلة والعلوم الشريفةِ، فعبَّر بالأيدي عن الأعمال لأنَّ أكثرَها بمباشرتِها، وبالأبصار عن المعارفِ لأنها أقوى مبادئها، وفيه تعريضٌ بالبطَلَةِ الجهَّالِ أنهم كالزُّمْنَى والعُمَاةِ.

(٤٦) ﴿إِنَّآ أَخۡلَصۡنَٰهُم بِخَالِصَةٖ﴾ جعلناهم خالصينَ لنا بخصْلةٍ خالصةٍ لا شَوْبَ فيها هي: ﴿ذِكۡرَى ٱلدَّارِ﴾ تذكُّرهم الدارَ الآخرةَ دائماً فإنَّ خلوصَهم في الطاعة بسببِها، وذلك لأن مطمحَ نظرِهم فيما يأتون ويذرونَ جوارَ الله والفوزَ بلقائه، وذلك في الآخرة، وإطلاقُ الدار للإشعارِ بأنها الدارُ الحقيقة والدنيا مَعْبَرٌ، وأضافَ نافع وهشامٌ بخالصةٍ إلى ذكرى للبيانِ أو لأنه مصدرٌ بمعنى الخلوصِ فأضيفَ إلى فاعِله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّهُمۡ عِندَنَا لَمِنَ ٱلۡمُصۡطَفَيۡنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾ لَمِنَ المختارين من أمثالِهم المصْطَفِيْنَ عليهم في الخير جمعُ خيرٍ كشرٍّ وأشرارٍ. وقيل جمعُ خيرٍ أو خيرٍ على تخفيفِه كأمواتٍ في جمع ميتٍ أو ميِّتٍ.

وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ وَكُلّٞ مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ ﴿٤٨﴾ هَٰذَا ذِكۡرٞۚ وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ﴿٤٩﴾ جَنَّٰتِ عَدۡنٖ
مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ ﴿٥٠﴾ مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ ﴿٥١﴾ ۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ
أَتۡرَابٌ ﴿٥٢﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ ﴿٥٤﴾ هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ
مَـَٔابٖ ﴿٥٥﴾ جَهَنَّمَ يَصۡلَوۡنَهَا فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿٥٦﴾

(٤٨) ﴿وَٱذۡكُرۡ إِسۡمَٰعِيلَ وَٱلۡيَسَعَ﴾ هو ابنُ أخطوبَ استخلفَه إلياسُ على بني إسرائيلَ ثم استُنْبِىءَ، واللامُ فيه كما في قوله: رَأَيْتُ الْوَلِيدَ بنَ الْيَزِيدَ مُبَارَكاً. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ واللَّيْسَع تشبيهاً بالمنقولِ من لَيْسعَ من اللسْعِ. ﴿وَذَا ٱلۡكِفۡلِۖ﴾ ابنَ عمِّ يسعَ أو بشرَ بنَ أيوبَ. واختُلِفَ في نبوته ولَقَبِه فقيل فرَّ إليه مائةِ نبيٍّ من بني إسرائيلَ من القتْلِ فآواهم وكَفِلَهم، وقيل كَفِلَ بعمل رجلٍ صالح كان يصلي كلَّ يوم مائةَ صلاةٍ ﴿وَكُلّٞ﴾ أي وكلُّهم. ﴿مِّنَ ٱلۡأَخۡيَارِ﴾.

(٤٩) ﴿هَٰذَا﴾ إشارةٌ إلى ما تقدَّم من أمورهم. ﴿ذِكۡرٞۚ﴾ شرفٌ لهم، أو نوعٌ من الذكرِ وهو القرآنُ. ثم شرعَ في بيانِ ما أعدَّ لهم ولأمثالِهم فقال: ﴿وَإِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ لَحُسۡنَ مَـَٔابٖ﴾ مرجعٌ.

(٥٠) ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٖ﴾ عطف بيانٍ لحسنِ مآب وهو من الأعلام الغالبةِ لقوله ﴿جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[١] وانتصبَ عنها. ﴿مُّفَتَّحَةٗ لَّهُمُ ٱلۡأَبۡوَٰبُ﴾ على الحالِ والعاملُ فيها ما في المتقينَ من معنى الفعلِ، وقُرِئَتَا مرفوعتينِ على الابتداءِ والخبرِ، أو أنَّهما خبرانِ لمحذوفٍ.

(٥١) ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ حالانِ متعاقبانِ أو متداخلانِ من الضمير في لهم لا من المتقينَ للفصلِ، والأظهرُ أنَّ يدعونَ استئنافٌ لبيانِ حالهم فيها، ومتكئينَ حالٌ من ضميرِه، والاقتصارُ على الفاكهةِ للإشعار بأنَّ مطاعِمَهم لمحضِ التلذُّذِ، فإنَّ التغذي للتحللِ ولا تحلُّلَ ثَمَّةَ.

(٥٢) ﴿۞وَعِندَهُمۡ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرۡفِ﴾ لا ينظرون إلى غيرِ أزواجِهنَّ. ﴿أَتۡرَابٌ﴾ لِدَاتٌ لهم فإنَّ التحابَّ بين الأقرانِ أثبتُ، أو بعضُهن لبعضٍ لا عجوزَ فيهنَّ ولا صبيةَ، واشتقاقه من الترابِ فإنه يمسُّهن في وقتٍ واحدٍ.

(٥٣) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوۡمِ ٱلۡحِسَابِ﴾ لآجالِه فإنَّ الحسابَ علةُ الوصولِ إلى الجزاء، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو بالياءِ ليوافقَ ما قبلَه.

(٥٤) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزۡقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ انقطاعٌ.

(٥٥) ﴿هَٰذَاۚ﴾ أي الأمرُ هذا أو هذا كما ذُكِرَ أوخُذْ هذا. ﴿وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾.

(٥٦) ﴿جَهَنَّمَ﴾ إعرابُه ما سبقَ. ﴿يَصۡلَوۡنَهَا﴾ حالٌ من جهنَّم. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ﴾ الممهدُ والمفترَشُ، مستعارٌ من فراشِ النائم، والمخصوصُ بالذمِّ محذوفٌ وهو جهنَّمُ لقوله ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ﴾[٢].

---

(١) مريم: «٦١».
(٢) الأعراف: «٤١».

هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ ﴿٥٧﴾ وَءَاخَرُ مِن شَكْلِهِۦٓ أَزْوَٰجٌ ﴿٥٨﴾ هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ إِنَّهُمْ
صَالُوا۟ ٱلنَّارِ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ
عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ ﴿٦١﴾ وَقَالُوا۟ مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ ﴿٦٢﴾ أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمُ
ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٦٣﴾

(٥٧) ﴿هَٰذَا فَلْيَذُوقُوهُ﴾ أي ليذوقُوا هذا فليذُوقوه، أوِ العذابُ هذا فليذوقوه، ويجوزُ أنْ يكونَ مبتدأً وخبرُه: ﴿حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ﴾ وهو على الأوَّلَيْنِ خبرٌ محذوفٌ أي هو حميمٌ، والغَسَاقُ ما يغسقُ من صديدِ أهلِ النار من غَسَقَتِ العينُ إذا سالَ دمعُها، وقرأ حفصٌ وحمزةُ والكسائيُّ غسَّاق بتشديدِ السينِ.

(٥٨) ﴿وَءَاخَرُ﴾ أي مذوقٌ أو عذابٌ آخرُ، وقرأ البصريانِ وأخرى أي ومذوقاتٌ أو أنواعُ عذابٍ أُخَرُ. ﴿مِن شَكْلِهِۦٓ﴾ من مِثْلِ هذا المذوقِ أو العذابِ في الشدةِ. وتوحيدُ الضمير على أنه لما ذُكِرَ، أو للشراب الشاملِ للحميم والغسَّاقِ، أو للغساقِ. وقرىء بالكسْرِ وهو لغةٌ. ﴿أَزْوَٰجٌ﴾ أجناسٌ خبرٌ لآخرَ أو صفةٌ له أو للثلاثةِ. أو مرتفِعٌ بالجارِّ والخبرُ محذوفٌ مثلُ لهم.

(٥٩) ﴿هَٰذَا فَوْجٌ مُّقْتَحِمٌ مَّعَكُمْ﴾ حكايةُ ما يُقَالُ للرؤساءِ الطاغينَ إذا دخلوا النارَ واقْتَحَمَهَا معهم فوجٌ تبِعهم في الضلالِ، والاقتحامُ ركوبُ الشدةِ والدخولُ فيها. ﴿لَا مَرْحَبًۢا بِهِمْ﴾ دعاءٌ من المتبوعينَ على أتباعِهم أو صفة لفوجٍ، أو حالٌ أي مقولاً فيهم لا مرحباً أي ما أتوا بهم رحْباً وسَعَةً. ﴿إِنَّهُمْ صَالُوا۟ ٱلنَّارِ﴾ داخلونَ النارَ بأعمالِهم مثلُنا.

(٦٠) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباعُ للرؤساء. ﴿بَلْ أَنتُمْ لَا مَرْحَبًۢا بِكُمْ﴾ بل أنتم أحقُّ بما قلتُم، أو قيل لنا لضلالِكم وإضلالِكم كما قالوا: ﴿أَنتُمْ قَدَّمْتُمُوهُ لَنَا﴾ قدَّمْتُم العذابَ أو الصِّلْيَ لنا بإغوائِنا وإغرائِنا على ما قدَّمتموه من العقائدِ الزائغةِ والأعمالِ القبيحةِ. ﴿فَبِئْسَ ٱلْقَرَارُ﴾ فبئسَ المقرُّ جهنَّمُ.

(٦١) ﴿قَالُوا۟﴾ أي الأتباعُ أيضاً. ﴿رَبَّنَا مَن قَدَّمَ لَنَا هَٰذَا فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِى ٱلنَّارِ﴾ مضاعَفاً أي ذا ضعفٍ وذلك أنْ يزيدَ على عذابِه مِثْلَه فيصيرَ ضعفينِ كقوله ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾[1].

(٦٢) ﴿وَقَالُوا۟﴾ أي الطاغوتُ. ﴿مَا لَنَا لَا نَرَىٰ رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُم مِّنَ ٱلْأَشْرَارِ﴾ يعنُون فقراءَ المسلمينَ الذين يَستَرْذِلُون ويسخرونَ بهم.

(٦٣) ﴿أَتَّخَذْنَٰهُمْ سِخْرِيًّا﴾ صفةٌ أخرى لرجالاً، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وعاصمٌ بهمزة الاستفهام على أنه إنكارٌ على أنفسهم وتأنيبٌ لها في الاستسخار منهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي سُخرياً بالضمِّ، وقد سبقَ مثلُه في المؤمنين. ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ مالتْ. ﴿عَنْهُمُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ فلا نراهم أم معادِلةٌ لما لنا لا نَرَى على أنَّ المرادَ نفيُ رؤْيَتِهم لغيبتِهم كأنهم قالوا: أليسُوا ها هنا أم زاغتْ عنهم أبصارُنا، أو لاتخذْناهم على القراءةِ الثانيةِ بمعنى أيُّ الأمرينِ فعلْنا بهم الاستسخارُ منهم أم تحقيرُهم، فإنَّ زيغَ

---

(١) الأحزاب: ٦٨.

الأبصارِ كنايةٌ عنه على معنى إنكارِهما على أنفسِهم، أو منقطعةٌ والمرادُ الدلالةُ على أنَّ استرذَالَهم والاستسخارَ منهم كان لزيغِ أبصارِهم وقصورِ أنظارِهم على رثاثةِ حالِهم.

إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ ﴿٦٤﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٦٥﴾ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٦٦﴾ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ ﴿٦٨﴾ مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٦٩﴾ إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٧٠﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾

(٦٤) ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ الذي حكيناه عنهم. ﴿لَحَقٌّ﴾ لا بدَّ أنْ يتكلَّموا به ثمَّ بيَّنَ ما هو فقال: ﴿تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ وهو بدلٌ من لحقٌّ أو خبرٌ محذوفٌ، وقرىء بالنصبِ على البدلِ من ذلك.

(٦٥) ﴿قُلْ﴾ يا محمدُ للمشركين. ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾ أنذِرُكم عذابَ الله. ﴿وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ﴾ الذي لا يقبلُ الشركةَ والكثرةَ في ذاتِه. ﴿ٱلْقَهَّارُ﴾ لكلِّ شيءٍ يريدُ قهرَهُ.

(٦٦) ﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ منه خلقَها وإليه أمرُها. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يغلبُ إذا عاقبَ. ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ الذي يغفرُ ما يشاءُ من الذنوب لمن يشاءُ، وفي هذه الأوصافِ تقريرٌ للتوحيد ووعْدٌ ووعيدٌ للموحِّدينَ والمشركينَ، وتثنية ما يشعرُ بالوعيد، وتقديمُه لأن المدعوَّ به هو الإنذارُ.

(٦٧) ﴿قُلْ هُوَ﴾ أي ما أنبأتُكم به من أني نذيرٌ من عقوبةِ مَنْ هذه صفتُه وأنه واحدٌ في ألوهيته، وقيل ما بعدَه من نبأِ آدمَ. ﴿نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ﴾.

(٦٨) ﴿أَنتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾ لتمادي غَفْلَتِكم، فإنَّ العاقلَ لا يعرضُ عن مثلِه كيفَ وقد قامتْ عليه الحججُ الواضحةُ، أما على التوحيد فما مرَّ وأما على النبوةِ فقوله:

(٦٩) ﴿مَا كَانَ لِىَ مِنْ عِلْمٍۭ بِٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰٓ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ فإنَّ إخباره عن تقاولِ الملائكة وما جرى بينَهم على ما وردَ في الكتبِ المتقدِّمةِ من غير سماعٍ، ومطالعةِ كتابٍ لا يُتَصَوَّر إلا بالوحي، وإذ متعلِّقٌ بعِلْمٍ أو بمحذوفٍ إذِ التقديرُ مَنْ عَلِمَ بكلامِ الملأ الأعلى.

(٧٠) ﴿إِن يُوحَىٰٓ إِلَىَّ إِلَّآ أَنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي لأنَّما كأنه لما جوَّز أنَّ الوحْيَ يأتيه بيَّنَ بذلك ما هو المقصودُ به تحقيقاً لقوله ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ مُنذِرٌ﴾[1] ويجوزُ أنْ يرتفعَ بإسنادِ يُوحَى إليه، وقرىء إنما بالكسْر على الحكايةِ.

(٧١) ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ بدلٌ من إذ يختصمونَ مبيِّنٌ له فإن القصَّة التي دخلتْ إذ عليها مشتملةٌ على تقاولِ الملائكةِ وإبليسَ في خلْقِ آدمَ عليه السلام، واستحقاقُه للخلافةِ والسجودِ على ما مرَّ في البقرة، غيرَ أنها اختُصِرَتِ اكتفاءً بذلك واقتصاراً على ما هو المقصودُ منها، وهو إنذارُ المشركينَ على استكبارِهم على النبيِّ عليه الصلاة والسلام بمثلِ ما حاقَ بإبليسَ على استكبارِهِ على آدمَ عليه السلام، هذا ومن الجائزِ أنْ يكونَ مقاولةُ الله تعالى إياهم بواسطةِ مَلَكٍ، وأنْ يفسَّرَ الملأُ الأعلى

(١) ص: «٦٥».

بما يعمُّ اللهَ تعالى والملائكةَ.

فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ
ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ
ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ
لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ
ٱلْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾

(٧٢) ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾ عدَّلْتُ خِلْقَتَهُ. ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ وأحييتُه بنفخِ الروحِ فيه، وإضافته إلى نفسِه لشرفِهِ وطهارتِه. ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ﴾ فخِرُّوا له. ﴿سَٰجِدِينَ﴾ تكرمةً وتبجيلاً له وقد مرَّ من الكلام فيه في البقرةِ.

(٧٣) ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾.

(٧٤) ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ تعظَّم. ﴿وَكَانَ﴾ وصارَ. ﴿مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ باستنكارِه أمرَ الله تعالى واستكبارِه عن المطاوعة، أو كان منهم في علم الله تعالى.

(٧٥) ﴿قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾ خلقتُه بنفسي من غير توسُّطٍ كأبٍ وأمٍّ، والتثنيةُ لما في خلْقِه من مزيدِ القدرةِ واختلاف الفعل، وقرىء على التوحيد، وترتيبُ الإنكار عليه للإشعارِ بأنه المستدعي للتعظيم، أو بأنه الذي تشبَّثَ به في ترْكِه وهو لا يصلُح مانعاً إذ للسيدِ أن يستخدمَ بعضَ عبيدِه لبعضٍ سِيَّما وله مزيدُ اختصاصٍ. ﴿أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ﴾ تكبَّرتَ من غير استحقاقٍ أو كنتَ ممن علا واستحقَّ التفوقَ، وقيل استكبرتَ الآنَ أم لم تزلْ منذ كنتَ من المستكبرين، وقرىء استكبرتَ بحذفِ الهمزةِ لدلالةِ أمْ عليها أو بمعنَى الإخبار.

(٧٦) ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ إبداءٌ للمانع وقوله: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ دليلٌ عليه وقد سبقَ الكلامُ فيه.

(٧٧) ﴿قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا﴾ من الجنة أو من السماءِ، أو من الصورةِ الملَكيةِ. ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ مطرودٌ من الرحمةِ ومحلِّ الكرامة.

(٧٨) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾

(٧٩) ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾.

(٨٠) ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾

(٨١) ﴿إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْوَقْتِ ٱلْمَعْلُومِ﴾ مرَّ بيانه في الحِجْرِ.

(٨٢) ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ﴾ فَبِسُلطانك وقهرِك. ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ ﴿٨٤﴾ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٥﴾
قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ بَعْدَ حِينٍۭ ﴿٨٨﴾

(٨٣) ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ الذين أخلَصَهُم الله لطاعته وعصَمَهم من الضلالة، أو أخلصوا قلوبَهم لله على اختلافِ القراءتين.

(٨٤) ﴿قَالَ فَٱلْحَقُّ وَٱلْحَقَّ أَقُولُ﴾ أي فأحقُّ الحقَّ وأقولُه، وقيل الحقُّ الأول اسمُ الله نَصَبَه بحذفِ حرفِ القسم كقوله: إنَّ عَلَيْكَ اللهِ أَنْ تُبَايِعَا.

(٨٥) وجوابه ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ وهو على الأول جوابٌ محذوفٌ والجملة تفسيرٌ للحق المقولِ، وقرأ عاصمٌ وحمزة برفعِ الأول على الابتداءِ أي الحقُّ يميني أو قسمي، أو الخبرُ أي أنا الحقُّ، وقُرِئَا مرفوعين على حذفِ الضميرِ من أقولُ كقوله: كلُّه لم أصنعْ. ومجرورَيْنِ على إضمارِ حرفِ القسم في الأول، وحكايةُ لفظِ المقسَمِ به في الثاني للتأكيدِ، وهو سائغٌ فيه إذا شارك الأولَ وبرفْعِ الأول وجرِّه ونصبِ الثاني وتخريجِه على ما ذكرناه، والضميرُ في منهم للناسِ إذِ الكلامُ فيهم، والمَرادُ بمنك من جنسِك ليتناولَ الشياطينَ وقيل للثَّقلينِ، وأجمعينَ تأكيدٌ له أو للضميرين.

(٨٦) ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ أي على القرآنِ أو تبليغ الوحي. ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ المتَّصِفِيْنَ بما ليسُوا من أهله على ما عرفتُم من حالي فأنتحلُ النبوَّةَ، وأتقَوَّلُ القرآنَ.

(٨٧) ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ عظةٌ. ﴿لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ للثَّقَلَيْنِ.

(٨٨) ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُۥ﴾ وهو ما فيه من الوعْدِ والوعيدِ، أو صدَّقهُ بإتيانِ ذلك. ﴿بَعْدَ حِينٍۭ﴾ بعدَ الموتِ أو يومَ القيامة أو عندَ ظهورِ الإسلام وفيه تهديدٌ. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورة (ص) كان له بوزْنِ كلِّ جبلٍ سخَّره الله لداودَ عشرُ حسناتٍ، وعصمهُ الله أنْ يُصِرَّ على ذَنْبٍ صغيرٍ أو كبير»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٢ رقم ٣١٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّمَر

ترتيبها ٣٩ — آياتها ٧٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿٢﴾ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾

سورة الزُّمَرِ مكيةٌ[1]

إلا قولَه: «قل يا عبادي» الآيةَ، وآيُها خمسٌ وسبعونَ أو اثنتانِ وسبعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ خبرٌ محذوفٌ مثلُ هذا أو مبتدأٌ خبرُهُ. ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ وهو على الأولِ صلةٌ لتنزيل، أو خبرٌ ثانٍ أو حالٌ عَمِلَ فيها معنى الإشارة أو التنزيلِ، والظاهرُ أنَّ الكتابَ على الأولِ السورةُ وعلى الثاني القرآنُ، وقرىء تنزيلَ بالنصبِ على إضمارِ فعلٍ نحو اقرأ أوِ الزم[2].

(٢) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحقِّ أو بسببِ إثباتِ الحقِّ وإظهارِهِ وتفصيله. ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ممحِّصاً له الدينَ من الشركِ والرياءِ. وقرىء برفعِ الدين عن الاستئنافِ لتعليلِ الأمرِ. وتقديمُ الخبرِ لتأكيدِ الاختصاصِ المستَفَادِ من اللامِ كما صرَّح به مؤكداً، وإجراؤُه مَجْرَى المعلومِ المقرَّرِ لكثرةِ حُجَجِه وظهورِ براهينِه فقال:

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٢٣٢) و«روح المعاني» (٢٣/ ٢٣٢) و«زاد المسير» (٧/ ١٦٠).

(٢) والتعرض لوصفي العزة والحكمة للإيذان بظهور أثريهما في الكتاب بجريان أحكامه ونفاذ أوامره ونواهيه من غير مدافع ولا ممانع، وبابتناء جميع ما فيه على أساس الحكم الباهرة (س٧/ ٢٤٠).

(٣) ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾ أي ألا هو الذي وجَبَ اختصاصُه بأنْ يُخْلَصَ له الطاعةُ، فإنه المتفرِّد بصفاتِ الألوهيةِ والاطلاعِ على الأسرارِ والضمائرِ. ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يحتمل المتَّخِذِينَ من الكفرةِ والمتخذينَ من الملائكةِ وعيسى والأصنام على حذفِ الراجعِ وإضمارِ المشركينَ من غيرِ ذكر لدلالةِ المساقِ عليهم، وهو مبتدأٌ خبرهُ على الأولِ. ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ بإضمارِ القول. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ وهو متعيِّنٌ على الثاني، وعلى هذا يكونُ القولُ المضْمَرُ بما في حيِّزِهِ حالاً أو بدلاً من الصلةِ، وزلفى مصدرٌ أو حالٌ، وقرىء قالوا ما نعبدُهم وما نعبدُكم إلا لتقرِّبونا إلى الله حكايةً لما خاطبوا به آلهتَهم ونُعبدُهم بضمِّ النونِ اتباعاً. ﴿فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من الدين بإدخالِ المحقِّ الجنةَ والمبطِلِ النارَ، والضميرُ للكفرةِ ومقابليهم، وقيلَ لهم ولمعبوديهم فإنهم يرجُون شفاعتَهم وهم يلعنونَهم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى﴾ لا يوفِّقُ للاهتداءِ إلى الحقِّ. ﴿مَنْ هُوَ كَـٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ فإنهما فاقِدا البصيرةِ.

لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ ۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٤﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّـٰرُ ﴿٥﴾ خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۚ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴿٦﴾

(٤) ﴿لَّوْ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ كما زعمُوا. ﴿لَّٱصْطَفَىٰ مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ إذ لا موجودَ سواهُ إلا هو مخلوقُه لقيامِ الدلالةِ على امتناعِ وجودِ واجبينِ ووجوبِ استنادِ ما عدا الواجبِ إليه، ومن البيِّنِ أنَّ المخلوقَ لا يماثِلُ الخالِقَ فيقومُ مقامَ الوالدِ له ثم قرَّر ذلك بقوله: ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ فإنَّ الألوهيةَ الحقيقيةَ تتبعُ الوجوبَ المستلزِمَ للواحدةِ الذاتية، وهي تنافي المماثَلَةِ فضلاً عن التوالُدِ، لأنَّ كلَّ واحدٍ من المِثْلَيْنِ مركَّبٌ من الحقيقةِ المشتركةِ، والتعيُّنِ المخصوصِ، والقهاريةُ المطلقةُ تنافي قبولَ الزوالِ المحوجِ إلى الولدِ، ثم استدلَّ على ذلك بقوله:

(٥) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ﴾ يغشى كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ، كأنه يلفُّه عليه لفَّ اللباسِ باللابسِ، أو يغيِّبه به كما يغيَّبُ الملفوفُ باللُّفافةِ، أو يجعلُه كاراً عليه كروراً متتابعاً تتابعَ أكوارِ العمامةِ. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو مُنْتَهَى دورِه أو منقطعُ حركتِه. ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القادِرُ على كلِّ ممكنٍ الغالبُ على كلِّ شيءٍ. ﴿ٱلْغَفَّـٰرُ﴾ حيثُ لم يعاجِلْ بالعقوبةِ وسلْبِ ما في هذه الصنائعِ من الرحمة وعمومِ المنفعةِ.

(٦) ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ استدلالٌ آخرُ بما أوجدَه في العالَمِ السُّفْليِّ مبدوءٌ به من خلْقِ الإنسانِ لأنه أقربُ وأكثرُ دلالةً وأعجبُ، وفيه على ما ذكرهُ ثلاثُ دلالاتٍ: خلْقُ آدمَ أولاً من غير أبٍ وأم، ثم خلْقُ حوَّاءَ من قصيراهُ، ثم تشعيبُ الخلْقِ الفائتِ للحصْرِ منهما. وثُمَّ للعطف على

محذوفٍ هو صفةُ نفسٍ مثلُ خلْقِها أو على معنى واحدةٍ أي من نفسٍ وُحِّدَتْ ثم جُعِلَ منها زوجُها فشفَعَها بها، أو على خلْقِكم لتفاوتِ ما بين الآيتينِ، فإنَّ الأولى عادةٌ مستمرَّةٌ دونَ الثانية. وقيل أخرجَ من ظهْره ذرِّيتهُ كالذرِّ ثمَّ خلقَ منها حواءَ. ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾ وقضى أو قسَمَ لكم، فإنَّ قضاياهُ وقسمَهُ توصفُ بالنزول من السماءِ حيثُ كُتِبَتْ في اللوح المحفوظ، أو أحْدَثَ لكم بأسبابٍ نازلة كأشعةِ الكواكب والأمطارِ. ﴿مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ﴾ ذكرٍ وأنثى من الإبلِ والبقرِ والضأنِ والمعزِ. ﴿يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ بيانٌ لكيفية خلْقِ ما ذَكَرَ من الأناسيِّ والأنعام إظهاراً لما فيها من عجائبِ القدرةِ، غيرَ أنه غلَّبَ أولي العقلِ أو خصَّهم بالخطابِ لأنهم المقصودونَ[1] ﴿خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ حيواناً سوياً من بعد عظامٍ مكسُوَّةٍ لحماً من بعد عظامٍ عاريةٍ من بعدِ مضغٍ من بعدِ علقٍ من بعد نطفٍ. ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾ ظلمةِ البطنِ والرَّحمِ والمشيمةِ، أو الصلبِ والرحمِ والبطنِ. ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي هذه أفعالُه. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ هو المستحِقُّ لعبادتكم والمالِكُ. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا يشارِكُه في الخلْقِ غيرهُ. ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ يُعْدَلَ بكم عن عبادتِه إلى الإشراكِ.

إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٧﴾ ۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعْمَةً مِّنْهُ نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ مِن قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا ۖ إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ﴿٨﴾

(٧) ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ﴾ عن إيمانكم. ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ لاستضرارِهم به رحمةً عليهم. ﴿وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ لأنه سببٌ فلا حُكْمَ، وقرأ ابن كثير ونافعٌ في رواية وأبو عمرو والكسائيُّ بإشباعِ ضمَّةِ الهاءِ لأنها صارتْ بحذفِ الألف موصولةً بمتحرِّكٍ، وعن أبي عمرو ويعقوبَ إسكانُها وهو لغةٌ فيها. ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بالمحاسبة والمجازاة. ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا تخفى عليه خافيةٌ من أعمالِكم.

(٨) ﴿۞ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ لزوالِ ما ينازعُ العقلَ في الدلالة على أنَّ مبدأَ الكلِّ منه. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾ أعطاه من الخولِ وهو التعهُّدُ، أو الخولُ وهو الافتخارُ. ﴿نِعْمَةً مِّنْهُ﴾ من الله. ﴿نَسِىَ مَا كَانَ يَدْعُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ أي الضرَّ الذي كان يدعو اللهَ إلى كشْفِه، أو ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه وما مثلُ الذي في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾[2]. ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ النعمة. ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرٍو ورويسٌ بفتح الياءِ، والضلالُ والإضلالُ لما كانا نتيجةَ جعْلِه صحَّ تعليلُه بهما وإنْ لم يكونا غرضَيْنِ. ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾ أمرُ تهديدٍ فيه إشعارٌ بأنَّ الكفرَ نوعُ تَشَهٍ لا سندَ له، وإقناطٌ للكافرين من التمتُّعِ في الآخرةِ ولذلك علَّلَهُ بقوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ على سبيل الاستئنافِ للمبالغة.

---

(١) وصيغة المضارع للدلالة على التدرج والتجدد (س٧/ ٢٤٣).
(٢) الليل: «٣».

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾﴾

(٩) ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائفِ الطاعات. ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ ساعاتِه، وأمْ متصلةٌ بمحذوفٍ تقديره: الكافرُ خيرٌ أم مَنْ هو قانتٌ، أو منقطعةٌ والمعنى بل أَمَّنْ هو قانتٌ كَمَنْ هو بضدِّه، وقرأ الحجازيانِ وحمزةُ بتخفيفِ الميم بمعنى أَمَنْ هو قانتٌ لله كَمَنْ جعلَ له أنداداً. ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ حالانِ من ضميرِ قانتٍ، وقُرئا بالرفعِ على الخبرِ بعدَ الخبرِ، والواوُ للجمعِ بينَ الصفتينِ[1] ﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ في موضعِ الحالِ أو الاستئنافِ للتعليلِ. ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ نفيٌ لاستواءِ الفريقين باعتبار القوةِ العلمية بعدَ نفيه باعتبارِ القوةِالعملية على وجهٍ أبلغَ لمزيدِ فضْلِ العلم. وقيل تقريرٌ للأولِ على سبيلِ التشبيهِ أي كما لا يستوي العالِمُونَ والجاهلون لا يستوي القانتونَ والعاصُون. ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بأمثالِ هذه البياناتِ، وقرىء يذَّكرُ بالإدغام.

(١٠) ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ بلزوم طاعتِه. ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ﴾ أي للذين أحسنوا بالطاعاتِ في الدنيا مثوبةٌ حسنةٌ في الآخرة. وقيل معناه للذين أحسنوا حسنةٌ في الدنيا هي الصِّحةُ والعافيةُ، وفي هذه بيانٌ لمكانِ حسنةٍ. ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ فمن تعسَّر عليه التوفُّر على الإحسانِ في وطنِه فلْيهاجرْ إلى حيثُ يتمكَّنُ منه. ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على مشاقِّ الطاعاتِ من احتمالِ البلاءِ ومهاجرةِ الأوطان لها. ﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أجراً لا يهتدي إليه حسابُ الحسَّاب، وفي الحديث إنه «يُنصَبُ الموازينُ يومَ القيامة لأهلِ الصلاةِ والصدقةِ والحجِّ فيوفُّون بها أجورَهم، ولا يُنصَبُ لأهلِ البلاءِ بل يُصَبُّ عليهم الأجرُ صبّاً حتى يتمنَّى أهلُ العافيةِ في الدنيا أنَّ أجسادَهم تقرضُ بالمقاريضِ مما يذهبُ به أهلُ البلاءِ من الفضْلِ»[2].

(١١) ﴿قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ موحِّداً له.

(١٢) ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ وأُمِرْتُ بذلك لأجلِ أنْ أكونَ مقدَّمهم في الدنيا والآخرة، لأن

---

(١) وتقديم السجود على القيام لكونه أدخل في معنى العبادة (س٧/ ٢٤٥).

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٣ رقم ٣١٩): «أخرجه الثعلبي وابن مردويه، من حديث أنس رضي الله عنه. وإسناده ضعيف جداً.

وأورده أبو نعيم في «الحلية» ـ (٣/ ٩١) ـ في ترجمة جابر بن زيد عن الطبراني، وهو في معجمه الكبير (١٢/ ١٨٤ رقم ١٢٨٢٩) ـ بإسناده إلى قتادة عن جابر بن زيد عن ابن عباس رضي الله عنهما مختصراً» هـ.

قلت: جابر بن زيد ثقة فقيه كما في «التقريب» (١/ ١٢٢). وفي سند الطبراني (مجاعة بن الزبير) وهو ممن يحتمل ويكتب حديثه كما في «الكامل» لابن عدي (٤/ ٢٤٢٠).

والخلاصة أن الحديث قابل للتحسين لتعاضد الطريقين.

قَصَبَ السبقِ في الدين بالإخلاصِ أو لأنه أولُ مَنْ أسلمَ وجْهَهُ لله من قريشٍ ومَنْ دانَ بدينهم. والعطفُ لمغايرةِ الثاني الأولَ بتقييده بالعلةِ، والإشعارِ بأنَّ العبادةَ المقرونةَ بالإخلاصِ وإنِ اقتضتْ لذاتِها أنْ يؤمَرَ بها فهي أيضاً تقتضيه لما يلزمُها من السبق في الدين، ويجوزُ أنْ تُجْعَلَ اللامُ مزيدةً كما في أردتُ لأنْ أفعلَ فيكونُ أمرٌ بالتقدُّمِ في الإخلاصِ والبدءُ بنفسه في الدعاء إليه بعدَ الأمرِ به.

قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ ۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٨﴾

(١٣) ﴿قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى﴾ بتركِ الإخلاصِ والميلِ إلى ما أنتُم عليه من الشركِ والرياءِ. ﴿عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ لعظمةِ ما فيه.

(١٤) ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى﴾ أمرٌ بالإخبار عن إخلاصِه وأنْ يكونَ مخلصاً له دينَه بعدَ الأمرِ بالإخبارِ عن كونه مأموراً بالعبادة والإخلاصِ خائفاً عن المخالفةِ من العقابِ قطْعاً لأطماعِهم، ولذلك رتَّب عليه قولَه:

(١٥) ﴿فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ﴾ تهديداً وخذلاناً لهم. ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ الكاملين في الخسْرانِ. ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بالضلال. ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالإضلال. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ حين يدخلون النارَ بدلَ الجنةِ لأنهم جمعوا وجوهَ الخسرانِ. وقيل وخسِروا أهليهم لأنهم إنْ كانوا من أهلِ النار فقد خسِرُوهم كما خسِرُوا أنفسَهم، وإنْ كانوا من أهل الجنةِ فقد ذهبوا عنهم ذهاباً لا رجوعَ بعدَه. ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ مبالغةٌ في خسرانِهم لما فيه من الاستئنافِ والتصديرِ بألا وتوسيطِ الفصلِ وتعريفِ الخسرانِ ووصفِه بالمبينِ.

(١٦) ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ شرحٌ لخسرانِهم. ﴿وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ﴾ أطباقٌ من النار هي ظللٌ للآخرينَ. ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ ذلك العذابُ هو الذي يخوِّفُهم به ليجتنبُوا ما يوقِعُهم فيه. ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ ولا تتعرَّضُوا لما يوجِبُ سَخَطي.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ البالغَ غايةَ الطغيانِ فَعْلُوتٌ منه بتقديمِ اللامِ على العين بُنيَ للمبالغةِ في المصدر كالرحموتِ، ثم وُصِفَ به للمبالغةِ في النعتِ ولذلك اختصَّ بالشيطانِ. ﴿أَن يَعْبُدُوهَا﴾ بدلُ اشتمالٍ منه. ﴿وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ وأقبلوا إليه بشراشِرِهم عما سواهُ. ﴿لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ﴾ بالثوابِ على ألسنةِ الرسلِ، أو الملائكةِ عند حضور الموت. ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وضَعَ فيه الظاهِرَ موضعَ ضميرِ الذين اجتنبوا للدلالة على مبدأ اجتنابِهم وأنهم نقادٌ في الدين يميزونَ بينَ الحقِّ والباطل ويؤثرون الأفضلَ فالأفضلَ.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ لدينه. ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ العقولِ السليمةِ عن منازعةِ الوهْمِ والعادةِ، وفي ذلك دلالةٌ على أنَّ الهدايةَ تحصلُ بفعلِ اللهِ وقبولِ النفسِ لها.

أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ ﴿١٩﴾ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾

(١٩) ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾ جملةٌ شرطيةٌ معطوفةٌ على محذوفٍ دلَّ عليه الكلامُ؛ تقديرهُ أأنتَ مالكُ أمرِهم فَمَنْ حقَّ عليه العذابُ فأنتَ تنقذُه، فكُرِّرَتِ الهمزةُ في الجزاءِ لتأكيدِ الإنكارِ والاستبعادِ، ووضَعَ مَنْ في النارِ موضِعَ الضميرِ لذلك وللدلالةِ على أنَّ مَنْ حُكِمَ عليه بالعذابِ كالواقعِ فيه لامتناعِ الخلفِ فيه، وأن اجتهادَ الرسلِ في دعائِهم إلى الإيمان سعيٌ في إنقاذِهم من النار، ويجوزُ أنْ يكونَ أفأنتَ تنقذُ جملةً مستأنفةً للدلالةِ على ذلك، والإشعارِ بالجزاءِ المحذوفِ.

(٢٠) ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ علالي بعضُها فوق بعض. ﴿مَّبْنِيَّةٌ﴾ بُنِيَتْ بناءَ النازلِ على الأرضِ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أي من تحت تلك الغرف. ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ مصدر مؤكد لأن قوله لهم غرف في معنى الوعد. ﴿لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ ٱلْمِيعَادَ﴾ ولأنَّ الخلْفَ نقصٌ وهو على اللهِ محالٌ.

(٢١) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ هو المطرُ. ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾ فأدخلَه. ﴿يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هي عيونٌ ومجاري كائنةٌ فيها، أو مياهٌ نابعاتٌ فيها إذِ الينبوعُ جاء للمنبعِ وللنابعِ فنصبَها على الظرفِ أو الحالِ. ﴿ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ﴾ أصنافُه من بُرٍّ وشعيرٍ وغيرِهما، أو كيفياتُه من خضرةٍ وحمرةٍ وغيرهما. ﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ يتمُّ جفافُه لأنه إذا تمَّ جفافُه حانَ له أنْ يثورَ عن منبتِه. ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ من يُبْسِه. ﴿ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا﴾ فتاتاً. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ لتذكيراً بأنه لا بدَّ من صانعٍ حكيمٍ دبَّره وسوَّاه، أو بأنه مثلُ الحياةِ الدنيا فلا تغترَّ بها. ﴿لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إذْ لا يَتَذَكَّرُ به غيرُهم.

(٢٢) ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ حتى تمكَّن فيه بِيُسْرٍ، عبَّر به عمَّنْ خلقَ نفسَه شديدةَ الاستعدادِ لقبوله غيرَ متأبيةٍ عنه من حيثُ أنَّ الصَّدْرَ محلُّ القلبِ المنبعِ للروحِ المتعلقِ للنفسِ القابلةِ للإسلام. ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني المعرفةَ والاهتداءَ إلى الحقِّ. وعنه عليه الصلاة والسلام: «إذا دخلَ النورُ القلبَ انشرحَ وانفسحَ» فقيل: فما علامةُ ذلك؟ قال: «الإنابةُ إلى دارِ الخلود والتجافي عن دارِ الغرور والتأهبُ للموتِ قبل نزولِه»[١] وخبرَ مَنْ محذوفٌ دلَّ عليه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ من أجلِ ذكرِه وهو أبلغُ من أنْ يكونَ عن مكانِ مَنْ، لأنَّ القاسي من أجلِ الشيءِ أشدُّ تأبياً عن قبوله من القاسي

---

(١) وهو حديث ضعيف تقدم تخريجه في سورة الأنعام الآية (١٢٥).

عنه لسببٍ آخرَ، وللمبالغة في وصْفِ أولئك بالقَبُولِ وهؤلاءِ بامتناعِ ذكرِ شرحِ الصدرِ، وأسندَه إلى الله وقابلَه بقساوةِ القلبِ وأسنده إليه. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ يظهرُ للناظرِ بأدنى نظرٍ، والآيةُ نزلتْ في حمزةَ وعليٍّ وأبي لهبٍ وولدِه[١].

ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾

(٢٣) ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ يعني القرآنَ، روي أنَّ أصحابَ رسولِ الله ﷺ ملُّوا ملَّة فقالوا له حدِّثْنا فنزلتْ[٢]. وفي الابتداءِ باسم الله وبناءِ نزلَ عليه تأكيدٌ للإسناد إليه وتفخيمٌ للمنزل واستشهادٌ على حسنِه. ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا﴾ بدلٌ من أحسنَ أو حالٌ منه، وتشابُهُهُ تشابُه أبعاضِه في الإعجازِ وتجاوبُ النظمِ وصِحَّةُ المعنى، والدلالةُ على المنافعِ العامةِ. ﴿مَّثَانِيَ﴾ جمعُ مَثْنى أو مَثَنى أو مثنٍ على ما مرَّ في الحِجْر، وصفَ به كتاباً باعتبارِ تفاصيلِه كقولكَ: القرآنُ سورٌ وآياتٌ، والإنسانُ: عظامٌ وعروقٌ وأعصابٌ، أو جُعِلَ تمييزاً من متشابِهاً كقولك: رأيتُ رجلاً حسناً شمائلَه. ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ تشمئزُّ خوفاً مما فيه من الوعيدِ، وهو مَثَلٌ في شدَّةِ الخوفِ واقشعرارُ الجلدِ تقبُّضه وتركيبُه من حروفِ القشعِ وهو الأديمُ اليابسُ بزيادةِ الراءِ ليصيرَ رباعياً كتركيبِ اقْمَطَرَّ من القمطِ وهو الشدُّ. ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ بالرحمةِ وعمومِ المغفرة، والإطلاقُ للإشعار بأنَّ أصْلَ أمرِه الرحمةُ وأنَّ رحمتَه سبقتْ غضبَه، والتعديةُ بإلى لتضمينِ معنى السكونِ والاطمئنانِ، وذِكْرُ القلوبَ لتقدُّمِ الخشيةِ التي هي من عوارضِها. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الكتابُ أو الكائنُ من الخشية والرجاء. ﴿هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ هدايتَه. ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ ومن يخذلْه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ يخرجُهم من الضلال.

(٢٤) ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ﴾ يجعلُه درقةً يقي به نفسَه لأنه يكون يداهُ مغلولةً إلى عنقِه فلا يقدرُ أنْ يتقيَ إلا بوجهِه. ﴿سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ كمن هو آمنٌ منه، فحذفَ الخبرَ كما حُذِفَ في نظائرِه.

﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ أي لهم فوضَعَ الظاهرَ موضِعَه تسجيلاً عليهم بالظلمِ وإشعاراً بالموجبِ لما يُقَالُ لهم وهو: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ أي وبالَه، والواو للحالِ وقد مقدَّرةٌ.

(٢٥) ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ من الجهة التي لا يخطرُ ببالهم أن الشرَّ يأتيهم منها.

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٦٩) بدون سند.
وانظر «زاد المسير» (٧/ ١٧٤).

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٢١١) بسند منقطع.

فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا
ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا
رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٩﴾
إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾

(٢٦) ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلْخِزْىَ﴾ الذلَّ. ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ كالمسخِ والخسفِ والقتلِ والسبيِ والإجلاءِ. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ﴾ المعدُّ لهم. ﴿أَكْبَرُ﴾ لشدتِه ودوامِه. ﴿لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ لو كانوا من أهلِ العلم والنظرِ لعلموا ذلك واعتبروا به.

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ يحتاجُ إليه الناظرُ في أمر دينه. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ يتَّعِظون به.

(٢٨) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من هذا والاعتمادُ فيها على الصفةِ كقولك: جاءني زيدٌ رجلاً صالحاً، أو مدحٌ له. ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ لا اختلالَ فيه بوجْهٍ ما هو أبلغُ من المستقيمِ وأخصُّ بالمعاني. وقيل بالشكِّ استشهاداً بقوله:

وَقَـدْ أَتَـاكَ يَقِيـنٌ غَيْـرُ ذِي عِـوَجٍ   مِـنَ الإلَـهِ وَقَـوْلٌ غَيْـرُ مَكْـذُوبِ

وهو تخصيصٌ له ببعضِ مدلوله. ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ عِلَّةٌ أخرى مرتبةٌ على الأُولَى.

(٢٩) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ للمشركِ والموحِّد. ﴿رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ مثلُ المشركِ على ما يقتضيه مذهبُه من أنْ يدعيَ كلُّ واحد من معبوديه عبوديَّتَه، ويتنازعُوا فيه بعبدٍ يتشارك فيه، جمعَ يتجاذبونه ويتعاورونه في مهمَّاتِهم المختلفةِ في تحيُّرِهِ وتوزُّعِ قلبه، والموحِّدِ بمنْ خلصَ لواحدٍ ليس لغيرِهِ عليه سبيلٌ، ورجلاً بدلٌ من مَثَلٍ وفيه صلةُ شركاءَ، والتشاكسُ والتشاخصُ الاختلافُ. وقرأ نافع وابنُ عامر والكوفيونَ سَلَماً بفتحتينِ، وقرىء بفتحِ السينِ وكسْرِها مع سكونِ اللامِ وثلاثتُها مصادرُ سَلِمَ نُعِتَ بها، أو حُذِفَ منها ذا ورجلٌ سالمٌ أي وهناك رجلٌ سالم، وتخصيصُ الرجلِ لأنه أفطنُ للضرِّ والنفعِ. ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ صفةً وحالاً ونَصَبَهُ على التمييزِ ولذلك وحَّدَه، وقرىء مثلينِ للإشعارِ باختلافِ النوعِ، أو لأنَّ المرادَ على يستويانِ في الوصْفَيْنِ على أنَّ الضميرَ للمثلينِ فإنَّ التقديرَ مِثْلُ رجلٍ ومثلُ رجلٍ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ كلَّ الحمدِ له لا يشاركُه فيه على الحقيقةِ سواهُ، لأنه المنعِمُ بالذاتِ والمالكُ على الإطلاقِ. ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيشركونَ به غَيْرَهُ من فَرْطِ جَهْلِهم.

(٣٠) ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ فإنَّ الكلَّ بصددِ الموتِ وفي عدادِ الموتى، وقرىء مائِتٌ ومائتونَ لأنه مما سيحدُثُ.

(٣١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ على تغليبِ المخاطَبِ على الغيبِ. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فتحتجُ عليهم بأنك كنتَ على الحقِّ في التوحيدِ وكانوا على الباطلِ في التشريك، واجتهدت في الإرشادِ والتبليغِ ولجُّوا في التكذيبِ والعنادِ، ويعتذرونَ بالأباطيلِ مِثْلُ أطعنا سادتَنا ووجدْنا آباءَنا. وقيل المراد به الاختصام العام يخاصم الناس بعضهم بعضاً فيما دار بينهم في الدنيا.

۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾
وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ
ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟
يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ
هَادٍ ﴿٣٦﴾ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴿٣٧﴾

(٣٢) ﴿ ۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ بإضافة الولدِ والشريك إليه. ﴿ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ ﴾ وهو ما جاءَ به محمدٌ ﷺ. ﴿ إِذْ جَآءَهُۥٓ ﴾ من غير توقُّفٍ وتفكُّرٍ في أمرِه. ﴿ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ وذلك يكفيهم مجازاةً لأعمالِهم، واللامُ تحتملُ العهدَ والجِنْسَ، واسْتُدِلَّ به على تكفيرِ المبتدِعَةِ فإنهم يكذِّبون بما عُلِمَ صدقُه وهو ضعيفٌ لأنه مخصوصٌ بِمَنْ فاجأَ ما علمَ مجيءَ الرسولِ به بالتكذيبِ.

(٣٣) ﴿ وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾ اللامُ للجنسِ ليتناولَ الرسلَ والمؤمنينَ لقوله: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ وقيل هو النبيُّ ﷺ، والمرادُ هو ومَنْ تبعَه كما في قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[1]. وقيل الجائي هو الرسولُ والمصدِّقُ أبو بكر رضي الله تعالى عنه، وذلك يقتضي إضمارَ الذي وهو غيرُ جائزٍ. وقرىء وصَدَقَ به بالتخفيفِ أي صدَقَ به الناسَ فأدَّاه إليهم كما نزلَ من غيرِ تحريفٍ أو صارَ صادقاً بسببِه لأنه معجزٌ يدلُّ على صدقِه، وصُدِقَ به على البناء للمفعول.

(٣٤) ﴿ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ في الجنة. ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ على إحسانهم.

(٣٥) ﴿ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ ﴾ خصَّ الأسوأَ للمبالغة فإنه إذا كفِّر كان غيرُه أَوْلَى بذلك، أو للإشعارِ بأنهم لاستعظامِهم الذنوبَ يحسبون أنهم مقصِّرون مذنِبُونَ وأنَّ ما يفرطُ منهم من الصغائرِ أسوأُ ذنوبهم، ويجوزُ أنْ يكونَ بمعنى السيءِ كقولهم: الناقصُ والأشجُّ أعدلا بني مروانَ، وقرىء أسواءَ جمع سوءٍ. ﴿ وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم ﴾ ويعطيهم ثوابهم. ﴿ بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ فتعدُّ لهم محاسنُ أعمالهم بأحسنِها في زيادة الأجرِ وعِظَمِه لفرْطِ إخلاصِهم فيها.

(٣٦) ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ﴾ استفهامُ إنكارٍ للنفي مبالغةً في الإثبات، والعبدُ رسولُ الله ﷺ ويُحتَمَلُ الجنسُ، ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائي عبادَه، وفُسِّرَ بالأنبياء صلواتُ الله عليهم. ﴿ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ يعني قريشاً فإنهم قالوا له إنا نخافُ أنْ تخبِلَكَ آلهتُنا بِعَيْبِك إيَّاها. وقيل إنه بعثَ خالداً ليكسِرَ العزَّى فقال له سادِنُها أُحَذِّرُكَهَا فإن لها شدةً، فعمدَ إليها خالدٌ فهشَمَ أنفَها فنزلَ تخويفُ خالدٍ منزلةَ تخويفِه لأنه الآمرُ له بما خوفَ عليه. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ ﴾ حتى غفلَ عن كفايةِ الله له وخوَّفه بما لا ينفعُ ولا يضرُّ. ﴿ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾ يهديه إلى الرشادَ.

(٣٧) ﴿ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ ﴾ إذ لا رادَّ لفعله كما قال: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ﴾ غالبٍ منيعٍ. ﴿ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾ ينتقمُ من أعدائِه.

---

(١) المؤمنون: «٤٩».

وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ
ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ
يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن
يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ ۖ فَمَنِ
ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٤١﴾ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ
حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لوضوح البرهان على تفرُّده بالخلقية. ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ أي أرأيتم بعد ما تحقَّقْتُم أنَّ خالقَ العالم هو اللهُ تعالى، وأنَّ آلِهتَكُم إنْ أرادَ اللهُ أنْ يصيبَني بِضُرٍّ هل يكشفنَّه. ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ بنفع. ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾ فيمسكْنَها عنِّي، وقرأ أبو عمرو كاشفاتٌ ضرَّه ممسكاتٌ رحمتَه بالتنوينِ فيهما ونصبِ ضُرِّهِ ورحمتِه. ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ﴾ كافياً في إصابة الخيرِ ودفعِ الضرِّ إذ تقرَّر بهذا التقريرِ أنه القادرُ الذي لا مانعَ لما يريدُه من خيرٍ أو شرٍّ. رُوِيَ أنَّ النبيَّ عليه الصلاة والسلام سألهم فسكتُوا فنزلَ ذلك. وإنما قال كاشفاتٌ وممسكاتٌ على ما يصفونَها به من الأُنوثةِ تنبيهاً على كمال ضعْفِها. ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ لعلمِهم بأنَّ الكلَّ منه تعالى.

(٣٩) ﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ على حالِكم، اسمٌ للمكانِ اسْتُعِيْرَ للحال كما استعيرَ هنا وحيثُ منَ المكانِ للزمانِ، وقرىء مكاناتِكم. ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ أي على مكانتي فحُذِفَ للاختصار والمبالغةِ في الوعيدِ، والإشعارِ بأنَّ حالَه لا يقفُ فإنه تعالى يزيدُه على مرِّ الأيام قوةً ونصرةً ولذلك توعَّدَهم بكونِه منصوراً عليهم في الداريْنِ فقال: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾.

(٤٠) ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾ فإنَّ خِزيَ أعدائِه دليلُ غَلَبَتِهِ، وقد أخزاهم اللهُ يومَ بدرٍ. ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ دائمٌ وهو عذابُ النار.

(٤١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ﴾ لأَجْلِهم فإنه مناطُ مصالحِهم في معاشِهم ومعادِهم. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متلبِّساً به. ﴿فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ﴾ إذ نفعَ به نفسَه. ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ فإنَّ وبالَه لا يتخطَّاها. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ وما وُكِّلْتَ عليهم لتجبُرَهم على الهدى وإنما أُمِرْتَ بالبلاغِ وقد بلَّغْتَ.

(٤٢) ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا﴾ أي يقبضُها عن الأبدانِ بأنْ يقطعَ تعلُّقَها عنها وتصرُّفَها فيها، إما ظاهراً وباطناً وذلك عندَ الموت، أو ظاهراً لا باطِناً وهو في النوم. ﴿فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ﴾ ولا يردُّها إلى البدنِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ قُضِيَ بضم القافِ وكسْرِ الضادِ والموتُ بالرفع. ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ أي النائمةَ إلى بدنها عند اليقظةِ. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو الوقتُ المضروبُ لموته وهو غاية جنسِ الإرسالِ. وما روي عن ابن عباسٍ رضي الله تعالى عنهما: أنَّ

في ابن آدم نفساً وروحاً بينهما مثلُ شعاعِ الشمسِ، فالنفسُ التي بها العقلُ والتمييزُ، والروحُ التي بها النفسُ والحياةُ، فيتوفَّيانِ عند الموتِ وتتوفَّى النفسُ وحدَها عند النوم[1]. قريبٌ مما ذكرناه. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ من التوفِّي والإمساكِ والإرسالِ. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ دالةً على كمالِ قدرتِه وحكمتِه وشمولِ رحمته. ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في كيفية تعلُّقِها بالأبدانِ وتوفِّيها عنها بالكلِّية حين الموتِ، وإمساكِها باقيةً لا تفنى بفنائِها، وما يعتريها من السعادة والشقاوةِ والحكمةِ في توفِّيها عن ظواهِرها وإرسالها حيناً بعد حينٍ إلى توفِّي آجالِها.

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٥﴾ قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ ﴿٤٧﴾

(٤٣) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتخذتْ قريشٌ. ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ تشفعُ لهم عندَ الله. ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ﴾ ولو كانوا على هذه الصفةِ كما تشاهدونَهم جماداتٍ لا تقدِّرُ ولا تعلمُ.

(٤٤) ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾ لعلَّه ردٌّ لما عسَى يجيبونَ به وهو أنَّ الشفعاءَ أشخاصٌ مقرَّبون هي تماثيلُهم، والمعنى أنه مالكُ الشفاعةِ كلِّها لا يستطيعُ أحدٌ شفاعةً إلا بإذنه ورضاهُ، ولا يستقلُّ بها، ثمَّ قرَّرَ ذلك فقال: ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ﴾ فإنه مالِكُ الملكِ كلِّه لا يملكُ أحدٌ أنْ يتكلَّمَ في أمرِهِ دونَ إذْنِه ورضاهُ. ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فيكون الملكُ له أيضاً حينئذٍ.

(٤٥) ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾ دونَ آلهتِهم. ﴿ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِۖ﴾ انقبضتْ ونفَرَتْ. ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ يعني الأوثانَ. ﴿إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ لفرْطِ افتتانِهم بها ونسيانِهم حقَّ اللهِ، ولقد بالغَ في الأمرينِ حتى بلغَ الغايةَ فيهما، فإنَّ الاستبشارَ أنْ يمتلىءَ قلبُه سروراً حتى تنبسطَ له بشرةُ وجْهِه، والاشمئزازُ أنْ يمتلىءَ غماً حتى ينبقضَ أديمُ وجْهِهِ، والعاملُ في ﴿إِذَا ذُكِرَ﴾ العاملُ في إذا المفاجأةُ.

(٤٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ عَٰلِمَ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ التجىءْ إلى الله بالدعاء لما تحيَّرتَ في أمرهم وضجِرتَ من عِنَادِهم وشدةِ شكيمتِهم، فإنه القادرُ على الأشياءِ والعالِمُ بالأحوالِ كلِّها. ﴿أَنتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ فأنتَ وحْدَك تقدِرُ أنْ تحكمَ بيني وبينهم.

(٤٧) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾ وعيدٌ

---

(١) ذكره الماوردي في تفسيره (٥/١٢٨).

شديد وإقناطٌ كليٌ لهم من الخلاص. ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ زيادةُ مبالغةٍ فيه وهو نظيرُ قوله تعالى ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم﴾[١] في الوعْدِ.

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٨﴾ فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٩﴾ قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٥١﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ سيئاتُ أعمالهم أو كسْبُهم حين تُعْرَضُ صحائِفُهم. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وأحاطَ بهم جزاؤُه.

(٤٩) ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾ إخبارٌ عن الجنسِ بما يغلبُ فيه، والعطفُ على قوله ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ﴾[٢] بالفاءِ لبيان مناقضتِهم وتعكيسِهم في التسبُّبِ بمعنى أنَّهم يشمئزُّون عن ذكْرِ الله وحدَه ويستبشرون بذكْرِ الآلهةِ، فإذا مسهم ضر دعوا من اشمأزوا من ذكره دون من استبشروا بذكره، وما بينهما اعتراض مؤكد لإنكار ذلك عليهم. ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ أعطيناه إياه تفضُّلاً فإنَّ التخويلَ مختصٌّ به. ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ منِّي بوجوهِ كسْبه، أو بأني سأُعْطَاهُ لما لي من استحقاقِه، أو من الله بي واستحقاقي، والهاءُ فيه لما إنْ جُعِلَتْ موصولةً وإلا فللنعمة، والتذكير[٣] لأنَّ المرادَ شيءٌ منها. ﴿بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ﴾ امتحانٌ له أيشكرُ أمْ يكفرُ، وهو ردٌّ لما قاله وتأنيثُ الضميرِ باعتبارِ الخيرِ أو لفظِ النعمةِ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ، وهو دليلٌ على أنَّ الإنسانَ للجنسِ.

(٥٠) ﴿قَدْ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ الهاء لقوله ﴿إنما أوتيته على علم﴾[٤] لأنها كلمةٌ أو جملةٌ، وقرىء بالتذكيرِ. ﴿والذين مَنْ قَبْلَهُمْ﴾ قارونُ وقومُه فإنه قال ورضيَ به قومُه. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من متاعِ الدنيا..

(٥١) ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ جزاءُ سيئاتِ أعمالهم أو جزاءُ أعمالهم، وسمَّاه سيئةً لأنه في مقابلةِ أعمالهم السيئةِ رمزاً إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلك. ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ بالعتوِّ. ﴿مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ المشركينَ ومِنْ للبيانِ أو للتبعيضِ. ﴿سَيُصِيبُهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟﴾ كما أصابَ أولئك، وقد أصابَهم فإنَّهم قُحطُوا سبعَ سنينَ وقُتِلَ ببدرٍ صناديدُهم. ﴿وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ بفائتينَ.

(٥٢) ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ حيث حَبَسَ عنهم الرزقَ سبعاً ثم بسطَ لهم

---

(١) السجدة: «١٧».
(٢) الزمر: «٤٥».
(٣) تذكير الضمير مع أنه يعود على مؤنث.
(٤) الزمر: «٤٩».

سبعاً. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ بأن الحوادثَ كلَّها من الله بوسطٍ أو غيرِه.

﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾

(٥٣) ﴿۞ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ أفرطُوا في الجنايةِ عليها بالإسرافِ في المعاصي، وإضافةُ العبادِ تخصِّصُه بالمؤمنين على ما هو عُرْفُ القرآن. ﴿لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ لا تيأسُوا من مغفرتِه أولاً وتفضُّله ثانياً. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عفواً ولو بَعْدَ بُعْدٍ، وتقييدُه بالتوبة خلافُ الظاهرِ ويدلُّ على إطلاقِه فيما عدا الشركَ قولُه تعالى ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾ الآيةَ، والتعليلُ بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ على المبالغة. وإفادةُ الحصْرِ والوعْدِ بالرحمةِ بعدَ المغفرة، وتقديمُ ما يستدعي عمومَ المغفرةِ مما في عبادي من الدلالةِ على الذلَّةِ والاختصاصِ المقتضيينِ للترحُّم، وتخصيصُ ضررِ الإسرافِ بأنفسِهم والنهيُ عن القنوطِ مطلقاً عن الرحمة فضلاً عن المغفرة وإطلاقِها، وتعليلُه بأنَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً، ووضْعُ اسمِ الله موضعَ الضمير لدلالتِه على أنه المستغني والمنعِمُ على الإطلاقِ، والتأكيدُ بالجميع. وما روي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما أحبُّ أنْ تكونَ لي الدنيا وما فيها بها» فقال رجلٌ: يا رسولَ الله ومَنْ أشركَ؟ فسكتَ ساعةً ثم قال: «ألا ومَنْ أشرك ثلاثَ مراتٍ»[1]. وما روي أنَّ أهلَ مكَّةَ قالوا: يزعمُ محمدٌ أنَّ مَنْ عبدَ الوثَنَ وقتلَ النفسَ بغير حقٍّ لم يُغْفَرْ له فكيفَ ولم نهاجِرْ وقد عبدْنا الأوثانَ وقتلْنا النفسَ فنزلتْ[2]. وقيل في عياشٍ والوليدِ بنِ الوليدِ في جماعةٍ افتتنوا[3]، أو في الوحْشيِّ لا ينفي عمومَها[4] وكذا قولُه:

(٥٤) ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ فإنَّها لا تدلُّ على حصولِ المغفرةِ لكلِّ أحدٍ من غيرِ توبة وسَبْقِ تعذيبٍ لتُغْنِي عن التوبةِ والإخلاصِ في العمل وتنافي الوعيدِ بالعذاب.

(٥٥) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ القرآنَ أوِ المأمورَ به دونَ المنهي عنه، والعزائمَ

---

(١) أخرجه ابن جرير في التفسير (١٢/ج٢٤/١٥) وأحمد (٥/٢٧٥) والطبراني في الأوسط كما في مجمع الزوائد (٧/١٠٠) من حديث ثوبان.
قال الهيثمي: فيه ابن لهيعة وفيه ضعف وحديثه حسن.

(٢) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٣٦٩.

(٣) أخرجه ابن جرير (١٢/ج٢٤/١٥) عن ابن عمر، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث في هذه الرواية.

(٤) أخرج البخاري (٨/٥٤٩ رقم ٤٨١٠) ومسلم (١/١١٣ رقم ١٩٣/١٢٢) وأبو داود (٤/٤٦٥ رقم ٤٢٧٣) والحاكم (٢/٤٠٣).
عن ابن عباس أن ناساً من أهل الشرك قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا ثم أتوا محمداً ﷺ، فقالوا: إن الذي تقول وتدعو لحسنٌ. ولو تخبرنا أنَّ لما عملنا كفارةً، فنزل «والذين لا يدعونَ مع الله إلهاً آخر. . .» [الفرقان: ٦٨] ونزل: «يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم. . الآية».

دونَ الرُّخَصِ أو الناسخَ دونَ المنسوخ، ولعلَّه ما هو أنْجَى وأسْلَمُ كالإنابةِ والمواظبةِ على الطاعة. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةً وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ بمجيئه فتتداركُوا.

أَن تَقُولَ نَفۡسٌ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ
هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ
ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوۡمَ
ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾

(٥٦) ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ كراهةَ أنْ تقولَ، وتنكيرُ نفسٍ لأنَّ القائلَ بعضُ الأنفسِ أو للتكثيرِ كقولِ الأعْشَى:

وَرُبَّ بَقِيعٍ لَوْ هَتَفْتُ بِجَوِّهِ ... أَتَانِي كَرِيمٌ يَنْفُضُ الرَّأْسَ مُغْضبا

﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ وقرىء بالياءِ على الأصْلِ. ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ بما قصَّرتُ. ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ في جانبه أي في حقِّه وهو طاعتُه. قال سابقٌ البربري:

أَمَا تَتَّقِينَ الله فِي جَنْبِ وَامِقٍ ... لَهُ كَبِدٌ حَرِيٌّ عَلَيْكَ تَقَطَّعُ

وهو كنايةٌ فيها مبالغةٌ كقوله:

إِنَّ السَّمَاحَةَ وَالمُرُوءَةَ وَالنَّدَى ... فِي قُبَّةٍ ضُرِبَتْ عَلَى ابْنِ الحَشْرَجِ

وقيل ذاتُه على تقديرِ مضافٍ كالطاعة، وقيل في قربه من قوله «والصاحب بالجَنْبِ»، وقرىء في ذكرِ الله. ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ المستهزئين بأهله، ومحلُّ ﴿إن كنت﴾ نصبٌ على الحالِ كأنه قال فرَّطْتُ وأنا ساخِرٌ.

(٥٧) ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ بالإرشادِ إلى الحقِّ. ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الشركَ والمعاصي.

(٥٨) ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في العقيدةِ والعملِ، وأو للدلالةِ على أنَّها لا تخلو من هذه الأقوالِ تحيُّراً وتعلُّلاً بما لا طائلَ تحتَه.

(٥٩) ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ ردٌّ من الله عليه لما تضمَّنه قولُه ﴿لو أن الله هداني﴾ من معنى النفي وفصْلُه عنه لأنَّ تقديْمَهُ يفرقُ القرائنَ، وتأخيرُ الموددِ يخلُّ بالنظمِ المطابقِ للوجودِ لأنه يتحسَّرُ بالتفريطِ ثم يتعلَّلُ بفقْدِ الهداية ثم يتمنَّى الرجعةَ، وهو لا يمنعُ تأثيرَ قدرةِ الله في فعلِ العبدِ ولا ما فيه من إسنادِ الفعلِ إليه كما عرفْتَ، وتذكيرُ الخطابِ على المعنى، وقرىء بالتأنيثِ للنفسِ.

(٦٠) ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ بأنْ وصفوه بما لا يجوزُ كاتخاذِ الولد. ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ بما ينالهم من الشدةِ أو بما يتخيلُ عليها من ظلمةِ الجهلِ، والجملةُ حالٌ إذِ الظاهرُ أنْ تَرَى من رؤيةِ البصرِ واكْتُفِيَ فيها بالضميرِ عن الواو. ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى﴾ مقامٌ. ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الإيمان والطاعة وهو تقريرٌ لأنهم يَرَوْنَ كذلك.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾﴾

(٦١) ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ وقرىء ويُنْجِي. ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ بفلاحِهم مفعلةٌ من الفوز، وتفسيرها بالنجاةِ تخصيصُها بأهمِّ أقسامِه وبالسعادةِ والعملِ الصالحِ إطلاقٌ لها على السبب، وقرأ الكوفيونَ غيرَ حفصٍ بالجمع تطبيقاً لهم، والباء فيها للسببيةِ صلةٌ لينجي أو لقولِه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ وهو حالٌ أو استئنافٌ لبيانِ المفازةِ.

(٦٢) ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ من خيرٍ وشرٍّ وإيمان وكفرٍ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ يتولّى التصرُّفَ.

(٦٣) ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ لا يملكُ أَمْرَهَا ولا يتمكنُ من التصرفِ فيها غيرُهُ، وهو كنايةٌ عن قدرتِه وحفظِه لها وفيها مزيدُ دلالةٍ على الاختصاصِ، لأنَّ الخزائنَ لا يدخلُها ولا يتصرفُ فيها إلا مَنْ بيدِهِ مفاتيحُها، وهو جمعُ مِقْلِيدٍ أو مقلادٍ من قلّدتُه إذا ألزمتُهُ، وقيل جمعُ إقليدٍ معرَّبُ إكليدٍ على الشذوذِ كمذاكيرَ. وعن عثمانَ رضيَ الله عنه أنه سأل النبيَّ ﷺ عن المقاليدِ فقال: «تفسيرُها لا إله إلا الله والله أكبر، وسبحانَ الله وبحمدِه وأستغفرُ اللهَ ولا حولَ ولا قوةَ إلا بالله، هو الأولُ والآخِرُ والظاهر والباطنُ، بيده الخيرُ يحيي ويميتُ وهو على كلِّ شيء قدير»[1]. والمعنى على هذا إنَّ لله هذه الكلماتِ يوحَّدُ بها ويمجَّدُ، وهي مفاتيحُ خيرِ السمواتِ والأرض مَنْ تكلَّم بها أصابَهُ. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ متصلٌ بقوله ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾[2] وما بينهما اعتراضٌ للدلالةِ على أنه

---

(١) وهو حديث موضوع.
- أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (١/ ١١٧ ـ ١١٨) و(٤/ ٢٣١ ـ ٢٣٢) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٧٣) والذهبي في الميزان (٤/ ٨٤ ـ ٨٥).
وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٤٤ ـ ١٤٥) والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص١٣ من حديث ابن عمر.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ١١٥) وقال: «رواه الطبراني في «الكبير» وفيه الأغلب بن تميم وهو ضعيف» هـ.
وقال ابن الجوزي: «وهذا حديث لا يصح قال: أما الأغلب فقال يحيى: ليس بشيء وأما مخلد فقال ابن حبان منكر الحديث جداً ينفرد بمناكير لا تشبه أحاديث الثقاة، وأما عبدالرحيم فكذا في رواية يوسف القاضي، وفي رواية العقيلي عبدالرحمن المدني وهو ضعيف. وهذا الحديث من الموضوعات النادرة التي لا تليق بمنصب رسول الله ﷺ لأنه منزه عن الكلام الركيك والمعنى البعيد» هـ.
وقال الذهبي: «هذا موضوع فيما أرى» هـ.
وانظر «تنزيه الشريعة» (١/ ١٩٢ ـ ١٩٣).

(٢) الزمر: «٦١».

مهيمنٌ على العبادِ مطلعٌ على أفعالِهم مجازٍ عليها، وتغييرُ النظمِ للإشعارِ بأنَّ العمدةَ في فلاحِ المؤمنينَ فضلُ الله وفي هلاكِ الكافرين أنْ خسِروا أنفسَهم، وللتصريحِ بالوعْدِ والتعريضِ بالوعيدِ قضيةٌ للكرمِ أو بما يليهِ، والمرادُ بآياتِ الله دلائلُ قدرتهِ واستبدادُه بأمْرِ السمواتِ والأرضِ، أو كلماتُ توحيدِه وتمجيدِه، وتخصيصُ الخسارِ بهم لأنَّ غيرَهُم ذو حظٍّ من الرحمةِ والثواب.

قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٦﴾ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾

(٦٤) ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ أي أفغيرَ اللهِ أعبدُ بعدَ هذه الدلائلِ والمواعيدِ، وتأمروني اعتراضٌ للدلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك وقالوا استلِمْ بعضَ آلهتنا ونؤمنُ بإلهك لفرْطِ غباوتهم، ويجوزُ أنْ ينتصبَ غيرُ بما دلَّ عليه تأمروني أنْ أعبدَ لأنه بمعنَى تعبدونَني على أنَّ أصلَه تأمرونني أنْ أعبدَ فحذفَ أنْ ورفَعَ كقوله:

أَلاَ أَيُّهَذَا الزَّاجِري أَحْضرِ الوَغَى

ويؤيدُه قراءةُ أعبدَ بالنصبِ، وقرأ ابنُ عامرٍ تأمرونني بإظهارِ النونينِ على الأصْلِ، ونافعٌ بحذفِ الثانية فإنها تُحْذَفُ كثيراً.

(٦٥) ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾ أي من المرسل. ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ كلامٌ على سبيلِ الفرَض، والمرادُ به تهييجُ الرسل وإقناطُ الكفرةِ والإشعارُ على حكمِ الأمَّةِ، وإفرادُ الخطابِ باعتبارِ كلٍّ واحد، واللامُ الأُولى موطِّئةٌ للقسمِ والأخريانِ للجوابِ، وإطلاقُ الإحباطِ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ من خصائِصهم لأنَّ شِرْكَهم أقبحُ، وأنْ يكونَ على التقييدِ بالموتِ كما صرَّح به في قوله ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم﴾[1] وعطفُ الخسرانِ عليه من عطفِ المسبَّبِ على السببِ.

(٦٦) ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ ردٌّ لما أَمَرُوهُ به ولولا دلالةُ التقديم على الاختصاص لم يكنْ كذلك. ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ إنعامَه عليك، وفيه إشارةٌ إلى موجِبِ الاختصاصِ.

(٦٧) ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ ما قدروا عظَمَتَهُ في أنفسِهم حقَّ تعظيمِه حيثُ جعلُوا له شركاءَ ووصفُوه بما لا يليقُ به، وقرىء بالتشديدِ. ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ تنبيهٌ على عظمتِه وحقارةِ الأفعالِ العِظامِ التي تتحيَّرُ فيها الأوهامُ بالإضافةِ إلى قدرتِه، ودلالةٌ على أنَّ تخريبَ العالم أهونُ شيءٍ عليه على طريقةِ التمثيلِ والتخييلِ من غير اعتبارِ القبضةِ واليمينِ حقيقةً ولا مجازاً كقولهم: شابتْ لُمَّةُ الليلِ، والقبضةُ المرَّةُ من القبْضِ أُطْلِقَتْ بمعنى القبضةِ

(١) البقرة: «٢١٧».

وهي المقدارُ المقبوضُ بالكفِّ تسميةً بالمصدرِ، أو بتقديرِ ذاتِ قبضةٍ. وقرىء بالنصبِ على الظرفِ تشبيهاً للمؤقَّت بالمبهَم، وتأكيدُ الأرضِ بالجميعِ لأنَّ المرادَ بها الأرَضُونَ السبعُ أو جميع أبعاضِها الباديةُ والغائرةُ. وقرىء مطوياتٍ على أنها حالٌ، والسمواتُ معطوفةٌ على الأرضِ منظومةٌ في حكمِها. ﴿ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ما أبعدَ وأعلى من هذه قدرتَه وعظمَتَه عن إشراكِهم، أو ما يضافُ إليه من الشركاءِ.

وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ
يَنظُرُونَ ﴿٦٨﴾ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم
بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾

(٦٨) ﴿ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ ﴾ يعني المرةَ الأُولى. ﴿ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ خرَّ ميتاً أو مَغْشِيّاً عليه. ﴿ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ﴾ قيل جبريلُ ومكائيلُ وإسرافيلُ فإنهم يموتونَ بعدُ. وقيل حَمَلَةُ العرش. ﴿ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ ﴾ نفخةٌ أخرى وهي تدلُّ على أنَّ المرادَ بالأولى، ونفخَ في الصورِ نفخةٌ واحدةٌ كما صرَّح به في مواضِعَ، وأخرى تحتملُ النصبَ والرفعَ. ﴿ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ ﴾ قائمونَ من قبورِهم أو متوقِّفونَ، وقرىء بالنصبِ على أنَّ الخبرَ ﴿ يَنظُرُونَ ﴾ وهو حالٌ من ضميرِه والمعنى: يقلِّبونَ أبصارَهم في الجوانبِ كالمبهوتينَ أو ينتظرونَ ما يُفْعَلُ بهم.

(٦٩) ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا ﴾ بما أقامَ فيها من العدْلِ، سمَّاه نوراً لأنه يزيِّنُ البقاعَ ويظهرُ الحقـوقَ كما سُمِّيَ الظلمُ ظلْمةً. وفي الحديثِ «الظلم ظلماتٌ يوم القيامة»[1]. ولذلك أضافَ اسْمَه إلى الأرضِ، أو بنـورٍ خُـلِـقَ فيها بـلا واسطةِ أجسامٍ مضيئةٍ ولذلك أضافَه إلى نفسِه. ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ ﴾ للحسابِ والجزاءِ من وضَعَ المحاسِبُ كتابَ المحاسبةِ بينَ يديه، أو صحائفَ الأعمالِ في أيدي العمالِ، واكْتَفَى باسمِ الجنسِ عن الجمْعِ. وقيل اللوحُ المحفوظُ يُقَابِلُ به الصحائفَ. ﴿ وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ ﴾ الذين يشهدونَ للأممِ وعليهم من الملائكةِ والمؤمنينَ، وقيل المستشهدونَ. ﴿ وَقُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ بينَ العبادِ. ﴿ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ بنقصِ ثوابٍ أو زيادةِ عقابٍ على ما جَرَى بِهِ الوعد.

(٧٠) ﴿ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾ جزاءه. ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ فلا يفوتُه شيءٌ من أفعالهم، ثم فصَّل التوفيةَ فقال:

---

(١) أخرجه البخاري (٥/ ١٠٠ رقم ٢٤٤٧) ومسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٧/ ٢٥٧٩) وأحمد (٢/ ١٣٧، ١٥٦) والترمذي (٤/ ٣٧٧ رقم ٢٠٣٠) من حديث ابن عمر. وأخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٦ رقم ٥٦/ ٢٥٧٨) وأحمد (٣/ ٣٢٣) من حديث جابر.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ٧٣﴾

(٧١) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ أفواجاً متفرِّقةً بعضُها في أثرِ بعضٍ على تفاوتِ أقدامِهم في الضلالة والشرارةِ، جمعُ زمرةٍ، واشتقاقُها من الزَّمرِ وهو الصوتُ. إذ الجماعةُ لا تخلو عنه، أو مِن قولهم: شاةٌ زَمِرَةٌ قليلةُ الشعرِ، ورجلٌ زَمِرٌ قليلُ المروءةِ، وهي الجمعُ القليلُ. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ ليدخلُوها، وحتى هي التي تُحكَى بعدَها الجملةُ، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بتخفيفِ التاءِ. ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ تقريعاً وتوبيخاً. ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ من جنسِكم. ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ وقتكم هذا، وهو وقتُ دخولهم النارَ، وفيه دليلٌ على أنه لا تكليفَ قبل الشرعِ من حيثُ إنهم علَّلُوا توبيخَهم بإتيانِ الرسل وتبليغِ الكتبِ. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ كلمةُ الله بالعذابِ علينا وهو الحكمُ عليهم بالشقاوةِ، وأنَّهم من أهلِ النارِ، وَوَضَعَ الظاهرَ فيه موضِعَ الضميرِ للدلالة على اختصاصِ ذلك بالكفرةِ، وقيل هو قوله ﴿لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ﴾[(١)].

(٧٢) ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ أَبهَمَ القائلَ لتهويلِ ما يُقَالُ لهم. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى﴾ مكانُ. ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ اللامُ فيه للجنسِ، والمخصوصُ بالذمِّ سبقَ ذِكْرهُ، ولا ينافي إشعارَه بأنَّ مثواهُم في النار لتكبُّرهم عن الحقِّ أنْ يكون دخولُهم فيها لأنَّ كلمةَ العذابِ حقَّتْ عليهم، فإنَّ تكبُّرَهُم وسائرَ مقابِحهم مسبَّبَةٌ عنه، كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ اللهَ تعالى إذا خلقَ العبدَ للجنةِ استعملَه بعملِ أهلِ الجنة، حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ الجنةِ فيدخلُ الجنةَ. وإذا خَلَقَ العبدَ للنارِ استعملَه بعملِ أهلِ النار حتى يموتَ على عملٍ من أعمالِ أهلِ النار، فيدخلُ به النارَ»[(٢)].

(٧٣) ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ﴾ إسراعاً بهم إلى دارِ الكرامة، وقيل سيقَ مراكِبُهم إذ لا يُذْهَبُ بهم إلاّ راكبينَ. ﴿زُمَرًاۖ﴾ على تفاوتِ مراتِبِهم في الشرفِ وعلوِّ الطبقة. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ حُذِفَ جوابُ إذا للدلالة على أنَّ لهم حينئذ من الكرامة والتعظيم ما لا يحيطُ به

(١) هود: «١١٩».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ (٢/٨٩٨ ـ ٨٩٩ رقم ٢) وأبو داود (٥/٨٠ رقم ٤٧٠٣) والترمذي (٥/٢٦٦ رقم ٣٠٧٥) وأحمد (١/٤٤ ـ ٤٥) من حديث عمر.

قال الترمذي: هذا حديث حسن، ومسلم بن يسار لم يسمع من عمر، وقد ذكر بعضهم في هذا الإسناد بين مسلم بن يسار وبين عمر رجلاً مجهولاً.

إلا أن المحدث الألباني قال في ضعيف أبي داود (صحيح ـ إلا مسح الظهر ـ).

الوصفُ، وأنَّ أبوابَ الجنة تُفْتَحُ لهم قبلَ مجيئهم غيرَ منتظرينَ، وقرأ الكوفيونَ فُتِحَتْ بالتخفيفِ. ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ﴾ لا يعتريكُم بعدُ مكروهٌ. ﴿طِبْتُمْ﴾ طَهُرْتُم من دَنَسِ المعاصي. ﴿فَادْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ مقدِّرِينَ الخلودَ فيها، والفاءُ للدلالة على أنَّ طِيْبَهُم سببٌ لدخولهم وخلودِهم، وهو لا يمنعُ دخولَ العاصي بعفوهِ لأنه مطَهِّرُهُ.

وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ ۖ فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٧٤﴾ وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٥﴾

(٧٤) ﴿وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ﴾ بالبعثِ والثواب. ﴿وَأَوْرَثَنَا ٱلْأَرْضَ﴾ يريدون المكانَ الذي استقرُّوا فيه على الاستعارة، وإيراثُها تمليكُها مخلَّفةً عليهم من أعمالهم أو تمكينُهم من التصرُّفِ فيها تمكينَ الوارثِ فيما يرِثُه. ﴿نَتَبَوَّأُ مِنَ ٱلْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَآءُ﴾ أي يتبوأ كلٌّ منا في أي مقام أراده من جنَّته الواسعةِ، مع أن في الجنة مقاماتٍ معنويةً لا يتمانع واردُوها. ﴿فَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ الجنةُ.

(٧٥) ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ﴾ محدِقين. ﴿مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ﴾ أي حولَه، ومِنْ مزيدةٌ أو لابتداءِ الحفوفِ. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ ملتبسين بحمده. والجملة حالٌ ثانية أو مقيِّدةٌ للأولى، والمعنى ذاكرين له بوصْفَيْ جلاله وإكرامه تلذُّذاً به، وفيه إشعارٌ بأنَّ منتهى درجاتِ العلِّيِّينَ وأعلى لذائذِهم هو الاستغراق في صفاتِ الحقِّ. ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ﴾ أي بين الخلْق بإدخال بعضِهم النارَ وبعضِهم الجنةَ، أو بين الملائكةِ بإقامتهم في منازِلهم على حَسَبِ تفاضُلِهم. ﴿وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي على ما قُضِيَ بيننا بالحقِّ. والقائلون هم المؤمنون من المقضي بينَهم أو الملائكةُ وعلى ذِكْرِهم لِتَعَيُّنِهِمْ وتعظيمهم. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزمر لم يقطعْ رجاءَه يومَ القيامة وأعطاه الله ثوابَ الخائفينَ»[١]. عن عائشةَ رضي الله عنها «أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأُ كلَّ ليلةٍ بني إسرائيلَ والزمرَ»[٢] والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٧٥ رقم ٣٤٠٥) وأحمد (٦/ ٦٨، ١٢٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (ص٤٣٤ رقم ٧١٢) والحاكم (٢/ ٤٣٤) من حديث عائشة في أثناء حديث.
قال الترمذي: حسن غريب، وسكت عليه الحاكم والذهبي.
وحسن الحديث الدكتور فاروق حمادة في تحقيق عمل اليوم والليلة للنسائي.

سُورَةُ غَافِر
ترتيبها ٤٠ آياتها ٨٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٢﴾ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾ مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٤﴾

سورة المؤمن مكية[1] وآيها خمس وثمانون
بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ أمالَه ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي وأبو بكر صريحاً، ونافعٌ برواية ورْشٍ وأبو عمرو بَيْنَ بَيْنَ، وقُرِىءَ بفتح الميم على التحريكِ لالتقاء الساكنين، أو النصبِ بإضمارِ اقرأْ. ومنْعُ صَرْفِهِ للتعريفِ والتأنيثِ، أو لأنها على زِنَةِ أعجميٍّ كقابيلَ وهابيلَ.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ لعلَّ تخصيصَ الوصْفينِ لما في القرآن منَ الإعجازِ والحِكَمِ الدالِّ على القدرة الكاملة والحكمة البالغةِ.

(٣) ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ﴾ صفاتٌ أخرى لتحقيق ما فيه من الترغيب والترهيب والحثِّ على ما هو المقصودُ منه، والإضافةُ فيها حقيقةٌ على أنه لم يُرَدْ بها زمانٌ مخصوصٌ.

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: أنزلت الحواميم السبع بمكة.
وأخرج ابن جرير عن الشعبي ـ رضي الله عنه ـ قال: أخبرني مسروق رضي الله عنه أنها أنزلت بمكة.
وأخرج ابن مردويه والديلمي عن سمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ قال: نزلت الحواميم جميعاً بمكة.
وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت حم (المؤمن) بمكة، انظر الدر المنثور: (٧/ ٢٦٨).

وأُرِيْدَ بشديد العقاب مشدِّده أو الشديدِ عقابُه، فَحُذِفَ اللامُ للازدواجِ وأَمْنِ الالتباسِ أو إبدالٌ، وجَعْلُه وحْدَه بدلاً مشوِّشٌ للنَّظْم. وتوسيطُ الواوِ بينَ الأَوَّلَيْنِ لإفادة الجمع بين محوِ الذنوب وقبولِ التوبة، أو تغايرُ الوصْفَيْنِ إذ ربَّما يُتَوَهَّمُ الاتحادُ، أو تغايرُ موقعِ الفعلين لأنَّ الغفرَ هو السترُ فيكون لذنبٍ باقٍ وذلك لمن لم يتبْ (فإنَّ التائبَ من الذنبِ كَمَنْ لا ذنْبَ له)[1]. والتوبُ مصدرٌ كالتوبةِ، وقيل جمعاً. والطَّوْلُ الفضلُ بتركِ العقابِ المستحِقِّ. وفي توحيد صفةِ العذاب مغمورةً بصفاتِ الرحمة دليلُ رُجْحَانِها. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيجبُ الإقبالُ الكليُّ على عبادته. ﴿إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فيجازي المطيعَ والعاصي.

(٤) ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لما حقَّق أمرَ التنزيل سجَّلَ بالكفرِ على المجادِلِيْنَ فيه بالطعنِ وإدحاضِ الحقِّ لقوله ﴿وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[2] وأما الجدالُ فيه لِحَلِّ عُقَدِهِ واستنباطِ حقائقِه وقطعِ تشبُّثِ أهلِ الزيغ به وقطْعِ مطاعِنهم فيه فَمِنْ أعظمِ الطاعاتِ، ولذلك قال عليه الصلاةُ والسلام: «إنَّ جِدالاً في القرآن كفرٌ»[3] بالتنكير مع أنه ليس جدالاً فيه على الحقيقة. ﴿فَلَا

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢/ ١٤٢٠ رقم ٤٢٥٠) والطبراني في الكبير (١٠/ ١٨٥ رقم ١٠٢٨١) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٢١٠) والقضاعي في مسند الشهاب رقم (١٠٨) والسهمي في تاريخ جرجان ص٣٩٩ والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من حديث ابن مسعود.
قلت: في سنده انقطاع لأن أبا عبيدة بن عبدالله بن مسعود لم يسمع من أبيه. لكن للحديث متابع وشواهد يرتقي بها إلى درجة الحسن.
أما المتابع فقد أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١٥٤) من طريق عبدالكريم الجزري عن زياد بن أبي مريم عن عبدالله بن معقل عن ابن مسعود وإسناده حسن.
أما الشواهد: (فالأول) أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) وفي الشعب (٥/ ٤٣٦ رقم ٧١٧٨) من حديث ابن عباس.
وفي سنده سلم بن سالم، وسعيد بن عبدالجبار كلاهما ضعيف.
(والثاني): أخرجه البيهقي (١٠/ ١٥٤) من حديث أبي عتبة الخولاني.
(والثالث): أخرجه أبو نعيم في «الحلية» (١٠/٣٩٨) من حديث أبي سعد الأنصاري وفي سنده: يحيى بن أبي خالد، وابن أبي سعد كلاهما مجهول.
والحديث حسنه الحافظ ابن حجر كما نقل عنه السخاوي وقال: يعني لشواهده.
وكذا الألباني. المقاصد الحسنة (رقم: ٣١٣) والضعيفة (رقم ٦١٥ و٦١٦).
(٢) غافر: «٥».
(٣) أخرجه الطيالسي في مسنده (ص٣٠٢ رقم ٢٢٨٦) من حديث عبدالله بن عمرو بلفظ: «لا تجادلوا في القرآن فإن جدالاً فيه كفر».
وفي إسناده: فليح بن سليمان وهو صدوق كثير الخطأ. لكن الحديث له شواهد ينجبر بها هذا الضعف وقد صححه الألباني في صحيح الجامع (٢/ ١٢١٠ رقم ٧٢٢٣).
وأخرجه الإمام أحمد (٤/ ٢٠٤، ٢٠٥) من حديث عمرو بن العاص في سياق طويل بلفظ «لا تماروا فيه فإن المراء فيه كفر».
وقال الألباني: وهذا إسناد صحيح رجاله كلهم ثقات على شرط مسلم ـ كما في «الصحيحة» (رقم: ١٥٢٢) ـ.
وأخرج الإمام أحمد أيضاً (٤/ ١٦٩ ـ ١٧٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١/ ١٩) من حديث أبي جهيم بن الحارث كحديث عمرو بن العاص. =

﴿يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ فلا يغرزك إمهالُهم وإقبالُهم في دنياهم وتقلُّبهم في بلاد الشام واليمنِ بالتجاراتِ المربحة فإنهم مأخوذون عما قريبٍ بكفرِهم أَخْذَ مَنْ قبلَهم كما قال:

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ ۝٦ ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۖ رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا۟ وَٱتَّبَعُوا۟ سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ۝٧﴾

(٥) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ والذين تحزَّبوا على الرسُل وناصَبُوهم بعدَ قوم نوح كعادٍ وثمودَ. ﴿وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ﴾ من هؤلاءِ. ﴿بِرَسُولِهِمْ﴾ وقرىء برسولِهَا. ﴿لِيَأْخُذُوهُ﴾ ليتمكَّنوا من إصابته بما أرادوا من تعذيبٍ وقتلٍ من الأخذِ بمعنى الأسْرِ. ﴿وَجَـٰدَلُوا۟ بِٱلْبَـٰطِلِ﴾ بما لا حقيقةَ له. ﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ ليزيلُوه به. ﴿فَأَخَذْتُهُمْ﴾ بالإهلاك جزاءً لهم. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ فإنكم تمرون على ديارهم وترونَ أثره، وهو تقريرٌ فيه تعجيبٌ.

(٦) ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ وعيدُه أو قضاؤُه بالعذاب. ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ بكفرِهم. ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ من كلمة ربِّك بدلُ الكلِّ أو الاشتمالِ على إرادةِ اللفظ أو المعنى.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ الكروبيُّون أعلى طبقاتِ الملائكةِ وأوَّلُهم وجوداً، وحملُهم إياه وحفيفُهم حولَه مجازٌ عن حفظِهم وتدبيرهم له، أو كنايةٌ عن قُرْبِهم من ذي العرش ومكانتِهم عندَه وتوسُّطِهم في نَفَاذِ أمرِه. ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ يذكرون اللهَ بمجامعِ الثناء من صفاتِ الجلال والإكرام، وجعلَ التسبيحَ أصلاً والحمدَ حالاً لأنَّ الحمدَ مقتضى حالهم دون التسبيح أصلاً. ﴿وَيُؤْمِنُونَ بِهِۦ﴾ أَخْبَرَ عنهم بالإيمان إظهاراً لفضلِه وتعظيماً لأهلِه، ومساقُ الآيةِ لذلك كما صرَّح به بقوله: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وإشعاراً بأنَّ حَمَلَةَ العرش وسُكَّانَ الفرْشِ في معرفته سواءٌ رداً على المجسِّمة[1]، واستغفارُهم شفاعتُهم وحملُهم على التوبة وإلهامُهم ما يوجِبُ المغفرةَ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المشاركةَ في الإيمانِ توجبُ النُّصْحَ والشفقةَ وإنْ تخالفتِ الأجناسُ لأنها أقوى المناسباتِ كما قال تعالى ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[2]. ﴿رَبَّنَا﴾ أي يقولون ربَّنا وهو بيانٌ ليستغفرون أو حالٌ. ﴿وَسِعْتَ

= وأخرج أبو داود (٥/٩ رقم ٤٦٠٣) وأحمد (٢/٢٨٦، ٣٠٠، ٤٧٥، ٥٠٣، ٥٢٨) وابن جرير في «جامع البيان» (١/ج١١/١) والحاكم (٢/٢٢٣) وابن حبان (ص٤٤٠ رقم ١٧٨٠) من حديث أبي هريرة، بلفظ «المراء في القرآن كفر». وصححهُ الألباني في الصحيحة (رقم: ١٥٢٢).

(١) انظر «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية. تحقيق: د. محمد رشاد سالم (١/ ١٠٤ ـ ١١١).

(٢) الحجرات: «١٠».

كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْمًا﴾ أي وسعت رحمتُك وعِلْمُك فأُزِيلَ عن أصلِه للإغراقِ في وصْفِه بالرحمةِ والعلْم. والمبالغةُ في عمومِها، وتقديمُ الرحمة لأنها المقصودةُ بالذاتِ ها هنا. ﴿فَٱغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ﴾ للذين علمْتَ منهم التوبةَ واتباعَ سبيلِ الحقِّ. ﴿وَقِهِمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ واحفظْهم عنه وهو تصريحٌ بعدَ إشعارٍ للتأكيدِ والدلالةِ على شدَّةِ العذاب.

رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨﴾ وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ ﴿١٠﴾ قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ مِّن سَبِيلٍ ﴿١١﴾

(٨) ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمْ﴾ وعدْتَهم إياها. ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْۚ﴾ عطفٌ على هم الأولِ أي أدخلْهم ومعَهُم هؤلاءِ ليتمَّ سرورُهم، أو الثاني لبيانِ عمومِ الوعْدِ، وقرىء جنةَ عدنٍ وصلُح بالضمِّ وذريَّتِهم بالتوحيد. ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الذي لا يمتنعُ عليه مقدورٌ. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفعلُ إلا ما تقتضيه حِكْمتُه ومن ذلك الوفاءُ بالوعد.

(٩) ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ العقوباتِ أو جزاءَ السيئاتِ، وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ، أو تخصيصٌ بِمَنْ صَلَحَ أو المعاصي في الدنيا لقوله: ﴿وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُۥۚ﴾ أي ومَنْ تقِهَا في الدنيا فقد رَحِمْتَهُ في الآخرة كأنهم طلبوا السببَ بعدَ ما سألوا المسبَّبَ. ﴿وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ يعني الرحمةَ أو الوقايةَ أو مجموعَهُما.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنَادَوْنَ﴾ يومَ القيامةِ فيُقالُ لهم: ﴿لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ أي لمقتُ اللهِ إياكم أكبرُ من مقْتِكم أنفسَكم الأمارةَ بالسوءِ. ﴿إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ﴾ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه المقتُ الأولُ لا له لأنه أخْبَرَ عنه، ولا للثاني لأنَّ مقْتَهُم أنفسَهم يومَ القيامة حينَ عاينوا جزاءَ أعمالِهم الخبيثةِ إلا أنْ يُؤوَّلَ بنحوِ بالصَّيْفِ ضيَّعْتِ اللَّبَن، أو تعليلٌ للحكم. وزمانُ المقْتَيْنِ واحدٌ.

(١١) ﴿قَالُواْ رَبَّنَآ أَمَتَّنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ إماتتَيْنِ بأنْ خلقْتَنا أمواتاً أولاً ثم صيَّرتنا أمواتاً عند انقضاء آجالِنا، فإنَّ الإماتةَ جعْلُ الشيءِ عادِمَ الحياة ابتداءً، أو بتصييرٍ كالتصغيرِ والتكبيرِ، ولذلك قيل سبحانَ مَنْ صغَّر البعوضَ وكبَّر الفيلَ(١)، وإنْ خصَّ بالتصيير فاختيار الفاعلِ المختارِ أحدَ مفعوليه تصييرٌ وصرفٌ له عن الآخَر. ﴿وَأَحْيَيْتَنَا ٱثْنَتَيْنِ﴾ الإحياءةُ الأولى وإحياءةُ البعث. وقيل الإماتةُ الأولى عندَ انخرامِ الأجلِ

---

(١) أي خلقه كبيراً. لا أنه خلقه صغيراً ثم كبّره، وهم كانوا في حكم الموتى قبل الخلق لا أنهم كانوا أحياء ثم أماتهم الله كما يقتضيه ظاهر لفظ الإماتة.

والثانية في القبر بعدَ الإحياءِ للسؤالِ والإحياءانِ ما في القبر والبعْثِ، إذِ المقصودُ اعترافُهم بعدَ المعاينة بما غَفَلُوا عنه ولم يكترثُوا به ولذلك تسبَّبَ بقوله: ﴿فَٱعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ فإنَّ اقترافَهم لها من اغترارِهم بالدنيا وإنكارِهم البعثَ. ﴿فَهَلْ إِلَىٰ خُرُوجٍ﴾ نوع خروج من النار. ﴿مِّن سَبِيلٍ﴾ طريقٍ فنسلُكُه وذلك إنما يقولونه من فَرْطِ قنوطِهم تعلُّلاً وتحيُّراً ولذلكَ أُجِيبُوا بقوله:

ذَٰلِكُم بِأَنَّهُۥٓ إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ كَفَرْتُمْ ۖ وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟ ۚ فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ ٱلْعَلِىِّ ٱلْكَبِيرِ ﴿١٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا ۚ وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الذي أنتم فيه. ﴿بِأَنَّهُۥٓ﴾ بسببِ أنه. ﴿إِذَا دُعِىَ ٱللَّهُ وَحْدَهُۥ﴾ متحداً أو توحَّد وحْدَه فحُذِفَ الفعلُ وأُقِيمَ مقامَه في الحاليةِ. ﴿كَفَرْتُمْ﴾ بالتوحيد. ﴿وَإِن يُشْرَكْ بِهِۦ تُؤْمِنُوا۟﴾ بالإشراك. ﴿فَٱلْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ المستحقّ للعبادة حيث حكمَ عليكم بالعذاب السَّرمدِ الدائم. ﴿ٱلْعَلِىِّ﴾ عن أنْ يُشْرَكَ به ويسوَّى بغيرِه. ﴿ٱلْكَبِيرِ﴾ حيثُ حكمَ على مَنْ أشركَ وسوَّى به بعضَ مخلوقاته في استحقاقِ العبادة بالعذاب السَّرمدِ.

(١٣) ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ الدالَّة على التوحيدِ وسائر ما يجب أنْ يُعْلَمَ تكميلاً لنفوسِكم. ﴿وَيُنَزِّلُ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ رِزْقًا﴾ أسبابَ رزقٍ كالمطرِ[١] مراعاةً لمعاشِكم. ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بالآياتِ التي هي كالمركوزة في العقولِ لظهورِها المغفولِ عنها للانهماك في التقليدِ واتباعِ الهوى. ﴿إِلَّا مَن يُنِيبُ﴾ يرجعُ عن الإنكارِ بالإقبالِ عليها والتفكُّرِ فيها، فإنَّ الجازمَ بشيءٍ لا ينظرُ فيما ينافيه.

(١٤) ﴿فَٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ من الشركِ. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إخلاصَكم وشقَّ عليهم.

(١٥) ﴿رَفِيعُ ٱلدَّرَجَٰتِ ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خبرانِ آخرانِ للدلالة على علوِّ صمديَّتِهِ من حيثُ المعقولُ والمحسوسُ الدالُّ على تفرُّدِهِ في الألوهيةِ، فإنَّ مِن ارتفعتْ درجاتُ كمالِه بحيثُ لا يظهرُ دونَها كمالٌ وكان العرشُ الذي هو أصلُ العالَمِ الجسمانيِّ في قبضةِ قدرتِه لا يصحُّ أنْ يُشْرَكَ به، وقيلَ الدرجاتُ مراتبُ المخلوقاتِ أو مصاعِدُ الملائكة إلى العرش أو السمواتُ أو درجاتُ الثوابِ. وقُرِئَ رفيعَ بالنصبِ على المدح. ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ خبرٌ رابعٌ للدلالةِ على أنَّ الرَّوْحَانيَّاتِ أيضاً مسخَّراتٌ لأمره بإظهار آثارِها وهو الوحيُ، وتمهيدٌ للنبوة بعدَ تقريرِ التوحيدِ، والروحُ الوحيُ ومِنْ أمرِه بيانُه لأنه أمرٌ بالخير أو مبدؤُه والآمرُ هو المَلَكُ المبلِّغُ. ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ يختارُه للنبوةِ، وفيه دليلٌ على أنها

---

(١) وإفراد المطر بالذكر ـ مع كونه من جملة الآيات الدالة على كمال قدرته تعالى لتفرده بعنوان كونه من آثار رحمته وجلائل نعمته الموجبة للشكر ـ.

وصيغة المضارع في الفعلين «يريكم» و«ينزل» للدلالة على تجرد الإراءة والتنزيل واستمرارهما (س٧/ ٢٧٠).

عطائية. ﴿لِيُنذِرَ﴾ غايةَ الإلقاءِ، والمستكِنُّ فيه لله. أو لِمَنْ أو للروحِ، واللامُ مع القربِ تؤيدُ الثاني. ﴿يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ يومَ القيامة، فإنَّ فيه تتلاقى الأرواحُ والأجسادُ وأهلُ السماءِ والأرضِ، أوِ المعبودونَ والعبادُ أوِ الأعمالُ والعمَّالُ.

﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ ﴿١٦﴾ ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٧﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ كَٰظِمِينَۚ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٢٠﴾﴾

(١٦) ﴿يَوْمَ هُم بَٰرِزُونَۖ﴾ خارِجونَ مِنْ قبورِهم أو ظاهرون لا يستُرهم شيءٌ أو ظاهرةٌ نفوسُهم لا تحجبُهم غواشي الأبدانِ، أو أعمالُهم وسرائِرُهم. ﴿لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌۚ﴾ من أعيانهم وأعمالِهم وأحوالِهم، وهو تقريرٌ لقوله هم بارزون وإزاحةٌ لنحوِ ما يُتَوَهَّمُ في الدنيا. ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَۖ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ حكايةٌ لما يُسْأَلُ عنه في ذلك اليوم، ولما يُجَابُ به، أو لما دلَّ عليه ظاهرُ الحالِ فيه من زوالِ الأسبابِ وارتفاعِ الوسائطِ، وأما حقيقةُ الحالِ فناطقةٌ بذلك دائماً.

(١٧) ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْۚ﴾ كأنه نتيجةٌ لما سبقَ، وتحقيقُه أنَّ النفوسَ تكتسِبُ بالعقائدِ والأعمالِ هيئاتٍ توجبُ لذَّتَها وألَمَهَا لكنَّها لا تشعُرُ بها في الدنيا لعوائقَ تشغلُها، فإذا قامتْ قيامتُها زالتِ العوائقُ وأدركتْ لذَّاتِها وألَمَهَا. ﴿لَا ظُلْمَ ٱلْيَوْمَۚ﴾ بنقصِ الثوابِ وزيادةِ العقابِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ إذ لا يشغلُه شأنٌ عن شأنٍ فيصِلُ إليهم ما يستحقُّونه سريعاً.

(١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْءَازِفَةِ﴾ أي القيامةَ سُمِّيَتْ بها لأُزُوفِها أي قُرْبِها، أوِ الخِطَّةَ الآزفةَ وهي مُشَارَفَتُهم النارَ وقيل الموتَ. ﴿إِذِ ٱلْقُلُوبُ لَدَى ٱلْحَنَاجِرِ﴾ فإنها ترتفعُ عن أماكِنها فتلصقُ بحُلُوقِهم فلا تعودُ فيتروَّحوا ولا تخرجُ فيستريحوا. ﴿كَٰظِمِينَۚ﴾ على الغمِّ حالٌ من أصحابِ القلوبِ على المعنى لأنه على الإضافةِ، أو منها أو من ضميرِها في لَدَى وجمعُه كذلك لأنَّ الكظْمَ من أفعالِ العقلاءِ كقوله ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ﴾[1]. أو مِنْ مفعولِ أنذِرهم على أنه حالٌ مقدَّرةٌ. ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ﴾ قريبٌ مشفقٌ. ﴿وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ ولا شفيعٍ مشفَّعٍ، والضمائِرُ إنْ كانتْ للكفارِ وهو الظاهِرُ كان وضْعُ الظالمين موضِعَ ضميرِهم للدلالةِ على اختصاصِ ذلك بهم وأنه لِظُلْمِهِم.

(١٩) ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ﴾ النظرةَ الخائنةَ كالنظرةِ الثانيةِ إلى غيرِ المحرَّمِ واستراقَ النظرِ إليه، أو خيانةَ الأعْيُنِ. ﴿وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ من الضمائر، والجملة خبر خامس للدلالة على أنه ما من خفي إلا وهو متعلق العلم والجزاء.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّۖ﴾ لأنه المالكُ الحاكِمُ على الإطلاقِ فلا يقضي بشيء إلا وهو حقُّه. ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَقْضُونَ بِشَىْءٍۗ﴾ تهكُّمٌ بهم لأنَّ الجمادَ لا يُقالُ فيه إنه يقضي أو لا يقضِي. وقرأ

---

(١) الشعراء: ٤.

نافعٌ وهشامٌ بالتاءِ على الالتفاتِ أو إضمارِ قُلْ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ تقريرٌ لِعِلْمِه بخائنةِ الأعينِ وقضائِه بالحقِّ، ووعيدٌ لهم على ما يقولون ويفعلون، وتعريضٌ بحالِ ما يدعون من دونِه.

۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً
وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٢١﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا
وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٢٣﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا جَآءَهُم
بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ ۚ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ
إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿٢٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن
يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ ﴿٢٦﴾

(٢١) ﴿۞أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ مِن قَبْلِهِمْ﴾ مآلُ حالِ الذين كذَّبوا الرسلَ قبلَهم كعادٍ وثمودَ. ﴿كَانُوا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً وتمكُّناً، وإنما جِيْءَ بالفصلِ ـ وحقُّه أنْ يقعَ بينَ معرفتينِ ـ لمضارَعَةِ أفعلَ مِنْ للمعرفةِ في امتناعِ دخولِ اللامِ عليه[1]. وقرأ ابن عامر أشدَّ منكم بالكافِ. ﴿وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مثلَ القِلاعِ والمدائنِ الحصينةِ. وقيل المعنى وأكثرَ آثاراً كقوله: متقلِّداً سيفاً ورُمْحاً ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ يمنعُ العذابَ عنهم.

(٢٢) ﴿ذَٰلِكَ﴾ الأخذُ. ﴿بِأَنَّهُمْ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَـٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أوِ الأحكامِ الواضحةِ. ﴿فَكَفَرُوا۟ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّهُۥ قَوِىٌّ﴾ متمكِّنٌ مما يريدُه غايةَ التمكُّنِ. ﴿شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لا يُؤْبَهُ بعقابٍ دونَ عقابِه.

(٢٣) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ يعني المعجزاتِ. ﴿وَسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ وحجَّةٍ قاهرةٍ ظاهرة، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ أو لإفرادِ بعضِ المعجزاتِ كالعصا تفخيماً لشأنِه.

(٢٤) ﴿إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَـٰمَـٰنَ وَقَـٰرُونَ فَقَالُوا۟ سَـٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ يعنونَ موسى عليه الصلاة والسلام، وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ وبيانٌ لعاقبةِ مَنْ هو أشدُّ الذين كانوا من قبلهم بطشاً وأقربُهم زماناً.

(٢٥) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ ٱقْتُلُوٓا۟ أَبْنَآءَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ وَٱسْتَحْيُوا۟ نِسَآءَهُمْ﴾ أي أعيدوا عليهم ما كنتم تفعلون بهم أولاً كي يصدُّوا عن مظاهرةِ موسى عليه السلام. ﴿وَمَا كَيْدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾ في ضَياعٍ، ووضَعَ الظاهِرَ فيه موضِعَ الضميرِ لتعميمِ الحكمِ والدلالةِ على العِلَّةِ.

(٢٦) ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ كانوا يكفُّونه عن قَتْلِه ويقولون إنه ليس الذي تخافُه بل هو

(١) قوله: وإنما جيء بالفصل... أي ضمير الفصل وهو قوله «هم» حيث وقع بين اسم كان وخبرها...
وذكر البيضاوي أن من حق ضمير الفصل أن يقع بين معرفتين، وجاز هنا وقوعه قبل نكرة لأن صيغة «أفعَل مِنْ» مثل المعرفة حيث يمتنع دخول اللام عليه...
ولكن الألوسي قال: (ولا يتعين وقوعه بين معرفتين... نعم الأصل الأكثر فيه ذلك) روح المعاني (٢٤/ ٦٠).

ساحرٌ، ولو قتلتَهُ ظُنَّ أنك عجزتَ عن معارَضَتِهِ بالحجَّةِ، وتعلُّلُه بذلك مع كونه سفاكاً في أهونِ شيءٍ دليلٌ على أنه تيقَّن أنه نبيٌّ فخاف من قتله، أو ظنَّ أنه لو حاولَه لم يتيسرْ له ويؤيدُه قولُه. ﴿وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ﴾ فإنه تجلُّدٌ وعدمُ مبالاةٍ بدعائه. ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ﴾ إن لم أقتلْه. ﴿أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ أنْ يغيِّرَ ما أنتم عليه من عبادتِه وعبادةِ الأصنام لقوله تعالى ﴿وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ﴾[1]. ﴿أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ ما يفسِدُ دنياكم من التحارُبِ والتهارُجِ إنْ لم يقدرْ أنْ يبطلَ دينَكُم بالكلِّيةِ. وقرأ ابنُ كثير ونافعٌ وأبو عمرو وابنُ عامر بالواوِ على معنى الجمعِ، وابنُ كثير وابن عامر والكوفيونَ غيرَ حفصٍ بفتحِ الياءِ والهاءِ ورفعِ الفسادِ.

وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّىَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾

(٢٧) ﴿وَقَالَ مُوسَىٰٓ﴾ أي لقومه لما سمعَ بكلامِه. ﴿إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ﴾ صدَّرَ الكلامَ بأنَّ تأكيداً وإشعاراً على أنَّ السببَ المؤكَّدَ في دفعِ الشرِّ هو العياذُ باللهِ، وخصَّ اسْمَ الربِّ لأنَّ المطلوبَ هو الحفظُ والتربيةُ، وإضافتُه إليه وإليهم حثّاً لهم على موافقتِه لما في تظاهُرِ الأرواحِ مِن استجلابِ الإجابة، ولم يسمِّ فرعونَ وذكر وصْفاً يعمُّه وغيرَهُ لتعميمِ الاستعاذةِ ورعايةِ الحقِّ والدلالةِ على الحاملِ له على القولِ. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ والكسائيُّ عُذْتُّ فيه وفي سورة الدخانِ بالإدغامِ وعن نافعٍ مثلُه[2].

(٢٨) ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ مِنْ أقاربه. وقيل مِنْ متعلِّقٌ بقوله: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ والرجلُ إسرائيليٌّ أو غريب موحد كان ينافقهم. ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا﴾ أتقصدون قتله. ﴿أَن يَقُولَ﴾ لأن يقول، أو وقت أن يقول من غير رويةٌ وتأمُّلَ في أمرِهِ. ﴿رَبِّىَ ٱللَّهُ﴾ وحدَه وهو في الدلالة على الحصْرِ مثلُ صديقي زيدٌ. ﴿وَقَدْ جَآءَكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المتكثرةِ الدالةِ على صدقه مِنَ المعجزاتِ والاستدلالاتِ. ﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ أضافَه إليهم بعد ذِكْرِ البيناتِ احتجاجاً عليهم واستدراجاً لهم إلى الاعترافِ به، ثم أخذَهم بالاحتجاجِ مِنْ بابِ الاحتياطِ فقال: ﴿وَإِن يَكُ كَٰذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُۥ﴾ لا يتخطَّاه وبالُ كَذِبِهِ فيحتاجُ في دفعِهِ إلى قَتْلِهِ. ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ ٱلَّذِى يَعِدُكُمْ﴾ فلا أقلَّ مِنْ أنْ يصيبَكُم بعضُه، وفيه مبالغةٌ في التحذير وإظهارٌ للإنصافِ وعدمِ التعصُّبِ، ولذلك قدَّم كونَه كاذِباً أو

---

(١) الأعراف: «١٢٧».

(٢) قول البيضاوي: قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «عذت» فيه أي في هذا الموطن من سورة غافر، وفي سورة الدخان آية (٢٠) بالإدغام أي بإدغام الذال في التاء، وعن نافع مثله أي وورد عن نافع مثله حيث ورد عن نافع ذلك برواية إسماعيل. (انظر المبسوط لابن مهران ص٣٢٧).

يصبْكُم ما يعدُكم مِنْ عذابِ الدنيا وهو بعضُ مواعيده، كأنه خوَّفَهم بما هو أظهرُ احتمالاً عندَهم، وتفسيرُ البعضِ بالكلِّ كقولِ لبيدٍ:

تَــــرَّاكُ أَمْكنـــةٍ إِذَا لَـــمْ أَرْضَهَـــا أَوْ يَـرْتَبِـطْ بَعْـضَ النُّفُـوسِ حمـامُهَـا[1]

مردودٌ لأنه أرادَ بالبعضِ نفسَه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾ احتجاجٌ ثالثٌ ذو وجْهَيْنِ:

أحدُهما أنه لو كان مسْرِفاً كذَّاباً لما هداه الله إلى البيِّناتِ ولما عضَّده بتلك المعجزاتِ.

وثانيهما: أنَّ مَنْ خَذَلَه الله أهلكَه فلا حاجةَ لكم إلى قتْلِه. ولعلَّه أرادَ به المعنى الأولَ وخيَّلَ إليهم الثانيَ لِتَلِيْنَ شكيمتُهم، وعرَّضَ به لفرعونَ بأنه مسرفٌ كذَّابٌ لا يهديه اللهُ سبيلَ الصَّوابِ وطريقَ النجاة.

يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ فِى ٱلْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا ۚ قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ ﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۚ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ ﴿٣٢﴾

(٢٩) ﴿يَٰقَوْمِ لَكُمُ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ ظَٰهِرِينَ﴾ غالبينَ عالينَ. ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أرضِ مِصْرَ. ﴿فَمَن يَنصُرُنَا مِنۢ بَأْسِ ٱللَّهِ إِن جَآءَنَا﴾ أي فلا تفسِدوا أي فلا تفسِدوا أَمْرَكُم ولا تتعرَّضوا لبأسِ اللهِ بقتْلِه فإنه إنْ جاءَنا لم يمنعْنا منه أحدٌ، وإنما أدرجَ نفسَه في الضميريْنِ لأنه كانَ منهم في القرابةِ وليريَهُم أنه معَهُم ومساهِمُهم فيما ينصحُ لهم. ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَآ أُرِيكُمْ﴾ ما أشيرُ عليكم. ﴿إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ وأَسْتَصْوبُه مِنْ قتْلِه وما أُعْلِمُكم إلا ما علمتُ من الصوابِ وقلبي ولساني متواطئانِ عليه. ﴿وَمَآ أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ طريقَ الصوابِ، وقُرِىءَ بالتشديدِ على أنه فعَّالٌ للمبالغة من رَشَّدَ كعلاَّم، أو مِنَ رَشَدَ كعبَّادٍ لا مِنْ أرشد كجبَّارٍ مِنْ أَجْبَرَ لأنه مقصورٌ على السماعِ أو بالنسبةِ إلى الرَّشَدِ كعوَّاجٍ وبتَّاتٍ.

(٣٠) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ في تكذيبه والتعرُّضِ له. ﴿مِّثْلَ يَوْمِ ٱلْأَحْزَابِ﴾ مثلَ أيامِ الأُممِ الماضيةِ يعني وقائِعَهم، وجَمْعُ الأحزابِ مع التفسير أَغْنَى عن جَمْعِ اليومِ.

(٣١) ﴿مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ مثلُ جزاءِ ما كانوا عليه دائباً من الكفر وإيذاءِ الرُّسلِ. ﴿وَٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ كقوم لوطٍ. ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ فلا يعاقِبُهم بغير ذنْبٍ ولا يخلي الظالِمَ منهم بغير انتقامٍ، وهو أبلغُ مِنْ قوله تعالى ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[2] من حيثُ إنَّ المنفيَّ فيه حدوثُ تعلُّقِ إرادتِه بالظلمِ.

(٣٢) ﴿وَيَٰقَوْمِ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ ٱلتَّنَادِ﴾ يومَ القيامة ينادي فيه بعضُهم بعضاً للاستغاثةِ، أو يتصايحون بالويلِ والثُّبورِ، أو يتنادى أصحابُ الجنةِ وأصحابُ النارِ كما حُكِيَ في الأعرافِ. وقُرِىءَ بالتشديد وهو أنْ يندَّ بعضُهم مِنْ بعضٍ كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾[3].

---

(١) من معلقته من الكامل.

(٢) فصلت: «٤٦».

(٣) عبس: «٣٤».

يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ۚ
كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۖ
كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ
يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ
كَٰذِبًا ۚ وَكَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۚ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ ﴿٣٧﴾

(٣٣) ﴿ يَوْمَ تُوَلُّونَ ﴾ عن الموقفِ. ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ منصرفينَ عنه إلى النار. وقيل فارِّينَ عنها. ﴿ مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ﴾ يعصمُكم من عذابه. ﴿ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾.

(٣٤) ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ ﴾ يوسف بنُ يعقوبَ على أنَّ فرعونَه فرعونُ موسى، أو على نسبةِ أحوالِ الآباءِ إلى الأولادِ، أو سبطُه يوسفُ بنُ إبراهيمَ بنِ يوسفَ. ﴿ مِن قَبْلُ ﴾ مِنْ قبلِ موسى. ﴿ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ بالمعجزاتِ. ﴿ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُم بِهِۦ ﴾ من الدين. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا هَلَكَ ﴾ مات. ﴿ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِهِۦ رَسُولًا ﴾ ضمّاً إلى تكذيب رسالته تكذيبَ رسالةِ مَنْ بعدَه، أو جزماً بأنْ لا يُبْعثَ من بعده رسولٌ مع الشك في رسالته، وقُرِئ أَلَنْ يبعثَ اللهُ على أنَّ بعضَهم يقرِّر بعضاً بنفي البعثِ. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مِثْلُ ذلكَ الضلالِ. ﴿ يُضِلُّ ٱللَّهُ ﴾ في العصيانِ. ﴿ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ ﴾ شاكٌّ فيما تشهدُ به البيناتُ لِغَلَبةِ الوهْمِ والانهماكِ في التقليد.

(٣٥) ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ بدلٌ من الموصول الأولِ لأنه بمعنى الجمعِ. ﴿ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ﴾ بغيرِ حجَّةٍ بل إما بتقليدٍ أو بشبهةٍ داحضةٍ. ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ﴾ فيه ضميرُ مَنْ وإفرادُه للَّفظِ، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين آمنوا مبتدأً وخبرُه كَبُرَ على حذفِ مضافٍ أي: وجدالُ الذين يجادلون كَبُرَ مقتاً أو بغيرِ سلطانٍ وفاعلُ كَبُرَ: ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كَبُرَ مقتاً مِثْلُ ذلك الجدالِ فيكون قولُه: ﴿ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ استئنافاً للدلالة على الموجِبِ لجدالِهم. وقرأ أبو عمرو وابنُ ذكوانَ قلبِ بالتنوينِ على وصْفِهِ بالتكبُّرِ والتجبُّرِ لأنه منبعُهما كقولهم: رأتْ عيني وسمعتْ أُذُني، أو على حذفِ مضافٍ أي على كلِّ ذي قلبٍ متكبِّرٍ.

(٣٦) ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا ﴾ بناءً مكشوفاً عالياً من صَرَحَ الشيءَ إذا ظَهَرَ. ﴿ لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴾ الطرقَ.

(٣٧) ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ بيانٌ لها. وفي إبهامِها ثمَّ إيضاحُها تفخيمٌ لشأنِها وتشويقٌ للسامعِ إلى معرفتها. ﴿ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾ عطفٌ على أبلغُ. وقرأ حفصٌ بالنصبِ على جوابِ الترجِّي ولعلَّه أرادَ أنْ يبنيَ له رَصَداً في موضعٍ عالٍ يرصُدُ منه أحوالَ الكواكبِ التي هي أسبابٌ سماويةٌ تدلُّ على الحوادثِ الأرضيةِ، فَيَرَى هل فيها ما يدلُّ على إرسالِ اللهِ إياهُ، أو أنْ يرى فسادَ قولِ موسى بأنَّ أخبارَه من إلهِ السماءِ يتوقَّفُ على إطلاعِهِ ووصولِه إليه، وذلك لا يتأتَّى إلا بالصعودِ إلى السماءِ وهو مما لا يقوى عليه الإنسانُ، وذلك لجهلِه باللهِ وكيفيةِ استنبائِه. ﴿ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا ﴾ في دعوى

الرسالةِ. ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثْلُ التزيين، ﴿زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَصُدَّ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ سبيلِ الرشاد، والفاعلُ على الحقيقةِ هو اللهُ تعالى ويدلُّ عليه أنه قُرِئَ زَيَّنَ بالفتح وبالتوسُّطِ الشيطانُ. وقرأ الحجازيانِ والشاميُّ[1] وأبو عمرو وصَدَّ على أنَّ فرعونَ صدَّ الناسَ عن الهدى بأمثالِ هذه التمويهاتِ والشُّبهاتِ ويؤيدُه: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِى تَبَابٍ﴾ أي خَسارٍ.

وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ ۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ عِلْمٌ وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ ﴿٤٢﴾

(٣٨) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِىٓ ءَامَنَ﴾ يعني مؤمِنَ آلِ فرعونَ. وقيل موسى عليه الصلاةُ والسلام. ﴿يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ﴾ بالدلالةِ. ﴿سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ سبيلاً يصلُ سالِكُه إلى المقصودِ، وفيه تعريضٌ بأنَّ ما عليه فرعونُ وقومُه سبيلُ الغيِّ.

(٣٩) ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ تمتُّعٌ يسيرٌ لسرعةِ زوالها. ﴿وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ﴾ لخلودِها.

(٤٠) ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا﴾ عدلاً من الله، وفيه دليلٌ على أنَّ الجناياتِ تغرَّمُ بمثلِها. ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بغيرِ تقديرٍ وموازنةٍ بالعملِ بل أضعافاً مضاعفةً فضلاً منه ورحمةً. ولعلَّ تقسيمَ العمالِ وجَعْلَ الجزاءِ جملةً اسميةً مصدَّرةً باسمِ الإشارةِ. وتفضيلَ الثوابِ لتغليبِ الرحمةِ، وجَعَلَ العملَ عُمْدَةً والإيمانَ حالاً للدلالةِ على أنه شرطٌ في اعتبار العملِ وأنَّ ثوابَه أعلى مِنْ ذلك.

(٤١) ﴿۞ وَيَٰقَوْمِ مَا لِىٓ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلنَّجَوٰةِ وَتَدْعُونَنِىٓ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ كرَّر نداءَهم إيقاظاً لهم عن سِنَةِ الغفلةِ واهتماماً بالمنادَى له. ومبالغةً في توبيخِهم على ما يقابِلُون به نُصْحَهُ، وعطفُه على النداءِ الثاني الداخلِ على ما هو بيانٌ لما قبلَه، ولذلك لم يَعْطِفْ على الأولِ، فإنَّ ما بعدَه أيضاً تفسيرٌ لما أُجْمِلَ فيه تصريحاً أو تعريضاً أو على الأولِ.

(٤٢) ﴿تَدْعُونَنِى لِأَكْفُرَ بِٱللَّهِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ فيه تعليلٌ والدعاءُ كالهدايةِ في التعديةِ بإلى واللام. ﴿وَأُشْرِكَ بِهِۦ مَا لَيْسَ لِى بِهِۦ﴾ بربوبيَّته. ﴿عِلْمٌ﴾ والمرادُ نفيُ المعلوم والإشعارُ بأنَّ الألوهيةَ لا بدَّ لها من برهانٍ فاعتقادُها لا يصحُّ إلا عن إيقانٍ. ﴿وَأَنَا۠ أَدْعُوكُمْ إِلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلْغَفَّٰرِ﴾ المستجمعِ لصفاتِ الألوهيةِ من كمالِ القدرةِ والغلبةِ وما يتوقَّفُ عليه مِنَ العلمِ والإرادةِ، والتمكُّنِ من المجازاةِ والقُدْرَةِ على التعذيبِ والغفرانِ.

---

(١) الحجازيان: نافع وابن كثير، والشامي: ابن عامر.

لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ
هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ ۚ وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ
بِٱلْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ
عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾

(٤٣) ﴿لَا جَرَمَ﴾ لا ردَّ لما دَعَوْهُ إليه، وجَرَمَ فعلٌ بمعنى حَقَّ وفاعلُه: ﴿أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِي ٱلدُّنْيَا وَلَا فِي ٱلْآخِرَةِ﴾ أي حقَّ عدمُ دعوةِ آلهتِكم إلى عبادتِها أصلاً لأنها جماداتٌ ليس لها ما يقتضي ألوهيَّتَها أو عدمَ دعوةٍ مُسْتَجَابةٍ، أو عدمَ استجابةِ دعوةٍ لها. وقيل جَرَمَ بمعنى كسبَ وفاعلُه مستكِنٌّ فيه أي كَسَبَ ذلك الدعاءَ إليه أنْ لا دعوةَ له بمعنى ما حصلَ من ذلك إلا ظهورُ بُطْلانِ دعوتِه، وقيل فِعْلٌ من الجزمِ بمعنى القطعِ كما إنَّ بُدّاً مِنْ لا بدَّ فِعْلٌ من التبديدِ وهو التفريقُ، والمعنى لا قطعَ لِبُطْلانِ دعوةِ ألوهيةِ الأصنامِ أي لا ينقطعُ في وقتٍ ما فتنقلبُ حقاً، ويؤيدُه قولُهم لا جرمَ إنه لغةٌ فيه كالرَّشَدِ والرُّشْدِ. ﴿وَأَنَّ مَرَدَّنَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ بالموت. ﴿وَأَنَّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في الضلالة والطغيانِ كالإشراك وسفكِ الدماء. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ ملازِمُوها.

(٤٤) ﴿فَسَتَذْكُرُونَ﴾ وقُرِئ فستذكِّرون أي فسيذكِّر بعضُكم بعضاً عندَ معاينةِ العذاب. ﴿مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ مِنَ النصيحة. ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ ليعصِمَني من كلِّ سوء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ فيحرسُهم وكأنه جوابٌ توعَّدَهم المفهومَ مِنْ قوله:

(٤٥) ﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟﴾ شدائدَ مكْرِهم. وقيل الضميرُ لموسى عليه الصلاة والسلام. ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ﴾ بفرعونَ وقومِه فاستغنى بذكْرِهم عن ذِكْرِهِ للعلْمِ بأنه أَوْلَى بذلك. وقيل بطلبةِ المؤمنِ منْ قومِه فإنه فرَّ إلى جبلٍ فاتَّبعه طائفةٌ فوجدُوه يصلي والوحوشُ حولَه صفوفاً فرجعوا رُعْباً فقتلَهم. ﴿سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ﴾ الغرقُ أوِ القتلُ أو النارُ.

(٤٦) ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ جملةٌ مُستأنفة أوِ النارُ خبرٌ محذوفٌ ويُعْرَضُونَ استئنافٌ للبيانِ، أو بدلٌ ويُعْرَضُونَ حالٌ منها، أو مِنَ الآلِ وقُرِئَتْ منصوبةً على الاختصاصِ أو بإضمارِ فعلٍ يفسِّرُهُ يُعْرَضُونَ مِثْلَ يَصْلَوْنَ، فإنَّ عَرْضَهُم على النارِ إحراقُهم بها من قولهم: عرضَ الأَسَارى على السيفِ إذا قُتِلُوا به، وذلك لأرواحِهم كما رَوَى ابنُ مسعودٍ[1] أنَّ أرواحَهم في أجوافِ طيورٍ سودٍ تُعْرَضُ على النارِ بُكْرَةً وعشيّاً إلى يوم القيامةِ، وذِكْرُ الوقتينِ تحتملُ التخصيصَ والتأبيدَ، وفيه دليلٌ على بقاء النفسِ وعذابِ القبرِ. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي هذا ما دامتِ الدنيا فإذا قامتِ الساعةُ قيل لهم: ﴿أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ يا آلَ فرعونَ. ﴿أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ عذابَ جهنَّم فإنه أشدُّ مما كانوا فيه، أو أشدَّ عذابِ جهنَّمَ. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ ونافعٌ ويعقوبُ وحفصٌ أَدْخِلُوا على أمرِ الملائكةِ بإدخالهم النارَ.

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٢٢٦ ـ ٢٢٨) بدون سند.
وانظر «البحر المحيط» (٧/ ٤٦٨) و«الجامع لأحكام القرآن» (١٥/ ٣١٨).

وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم
مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ
الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا
أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي
ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴿٥١﴾

(٤٧) ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ﴾ واذكرْ وقتَ تخاصُمِهم فيها، ويُحْتَمَلُ العطفُ على غُدُوّاً. ﴿فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ تفصيلٌ له. ﴿إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا﴾ تباعاً كخدم في جَمْعِ خادمٍ أو ذوي تَبَعٍ بمعنى أتباعٍ على الإضمارِ أو التجوُّزِ. ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ﴾ بالدَّفعِ أو الحمْلِ، ونصيباً مفعولٌ به لما دلَّ عليه مُغْنُوْنَ أولهُ بالتضمينِ أو مصدرٌ كشيئاً في قوله تعالى ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾(١). فيكونُ مِنْ صلةِ لِمُغْنُوْنَ.

(٤٨) ﴿قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا﴾ نحنُ وأنتم فكيفَ نغني عنكم ولو قَدَرْنا لأغْنَيْنَا عن أنفسِنا، وقُرِىءَ كلاً على التأكيدِ لأنه بمعنى كلُّنا وتنوينُه عِوَضٌ عن المضافِ إليه، ولا يجوز جعلُه حالاً من المستكِنِّ في الظرفِ فإنه لا يعملُ في الحالِ المتقدِّمةِ كما يعملُ في الظرفِ المتقدِّمِ كقولك: كلُّ يومٍ لك ثوبٌ. ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ بأنْ أدخلَ أهلَ الجنةِ الجنةَ وأهلَ النارِ النارَ، ولا معقِّبَ لحكْمِه.

(٤٩) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ﴾ أي لخزنتِها، ووضْعُ جهنَّمَ موضِعَ الضميرِ للتهويلِ، أو لبيانِ محلِّهم فيها، إذ يُحْتَمَلُ أنْ تكونَ جهنَّمُ أبعدَ دَرَكَاتِها مِنْ قولهم: بئرٌ جَهَنَّامٌ بعيدةُ القعْرِ. ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا﴾ قَدْرَ يومٍ. ﴿مِّنَ الْعَذَابِ﴾ شيئاً من العذاب، ويجوزُ أنْ يكونَ المفعولُ يوماً بحذفِ المضافِ ومِنَ العذابِ بيانُه.

(٥٠) ﴿قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أرادوا به إلزامَهم للحجَّةِ وتوبيخَهم على إضاعتِهم أوقاتَ الدعاءِ، وتعطيلَهم أسبابَ الإجابة. ﴿قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا﴾ فإنا لا نجترىءُ فيه إذ لم يُؤْذَنْ لنا في الدعاءِ لأمثالِكم، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابة ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ ضياعٍ لا يُجَابُ، وفيه إقناطٌ لهم عن الإجابةِ.

(٥١) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ بالحجَّةِ والظَّفَرِ والانتقامِ لهم من الكَفَرَةِ. ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ أي في الدَّارينِ، ولا ينتقضُ ذلك بما كان لأعدائِهم عليهم من الغَلَبَةِ أحياناً إذِ العِبْرةُ بالعواقبِ وغالبِ الأمرِ، والأشهادُ جمعُ شاهدٍ كصاحبٍ وأصحابٍ، والمرادُ بهم مَنْ يقومُ يومَ القيامة الشهادةَ على الناسِ منَ الملائكةِ والأنبياءِ والمؤمنينَ.

---

(١) آل عمران: «١٠».

يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ وَأَوْرَثْنَا
بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ ﴿٥٣﴾ هُدًى وَذِكْرَىٰ لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٥٤﴾ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ
وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴿٥٥﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ
ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ
إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿٥٦﴾ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ
أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾

(٥٢) ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ﴾ بدلٌ منَ الأوّلِ، وعدمُ نفعِ المعذرةِ لأنها باطلةٌ، أو لأنه لم يُؤْذَنْ لهم فيعتذِروا. وقرأ غيرُ الكوفيينَ ونافعٌ بالتاء. ﴿وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ البعدُ عن الرحمةِ. ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ جهنّمُ.

(٥٣) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ ما يهتدي به في الدينِ منَ المعجزاتِ والصُّحفِ والشرائعِ. ﴿وَأَوْرَثْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ وتركْنا عليهم بَعْدَهُ من ذلك التوراةَ.

(٥٤) ﴿هُدًى وَذِكْرَىٰ﴾ هدايةً وتذكرةً أو هادياً ومذكِّراً. ﴿لِأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ لذوي العقولِ السليمةِ.

(٥٥) ﴿فَٱصْبِرْ﴾ على أذى المشركينَ ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ بِالنَّصْرِ لا يخلفُه، واستشهدْ بحالِ موسى وفرعونَ. ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ وأقبِلْ على أمرِ دينِكَ وتدارُكِ فَرطَاتِكَ بِتَرْكِ الأَوْلَى، والاهتمامِ بأمرِ العِدا بالاستغفارِ، فإنه تعالى كافيك في النصرِ وإظهارِ الأمرِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ ودُمْ على التسبيحِ والتحميدِ لربك. وقيل صلِّ لهذين الوقتينِ، إذ كان الواجبُ بمكةَ ركعتينِ بُكْرَةً وركعتينِ عشيّاً.

(٥٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ ۙ﴾ عامٌّ في كلِّ مجادِلٍ مُبْطِلٍ وإن نزلَ في مشركي مكّةَ واليهودِ حين قالوا: لَسْتَ صاحِبَنا بل هو المسيحُ بنُ داودَ يبلُغُ سلطانُه البرَّ والبحرَ وتسير معه الأنهارُ. ﴿إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ﴾ إلا تكبُّرٌ عن الحقِّ وتعظُّمٌ عن التفكُّرِ والتعلُّمِ، أو إرادةُ الرياسةِ أو أنَّ النبوةَ والمُلْكَ لا يكونانِ إلا لهم. ﴿مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ ۚ﴾ ببالغي دفْعِ الآياتِ أوِ المرادِ. ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ﴾ فالتَجِئ إليه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لأقوالِكم وأفعالِكم.

(٥٧) ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ فَمَنْ قَدَرَ على خلْقِها مع عِظَمِها أولاً من غير أصلٍ قَدَرَ على خلْقِ الإنسانِ ثانياً من أصْلٍ، وهو بيانٌ لا شكلٌ ما يجادلون فيه مِنْ أمر التوحيد. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لأنهم لا ينظرون ولا يتأمّلون لِفَرْطِ غَفْلَتِهم واتِّباعِهم أهواءَهم.

(٥٨) ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ الغافلُ والمستبصرُ. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ﴾ والمحسنُ والمسيءُ فينبغي أنْ يكونَ لهم حالٌ يظهر فيها التفاوتُ، وهي فيما بعدَ البعثِ، وزيادةُ «لا» في المسيء لأنَّ المقصودَ نفيُ مساواتِه للمحسِنِ فيما له من الفضْلِ والكرامةِ. والعاطِفُ

الثاني عطفُ الموصولِ بما عُطِفَ عليه على الأعمى والبصيرِ لتغايُرِ الوصْفينِ في المقصود، أو الدلالةِ بالصراحةِ والتمثيل. ﴿قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ﴾ أي تذكُّراً ما قليلاً يتذكَّرون، والضميرُ للناسِ أو الكفارِ. وقرأ الكوفيونَ بالتاءِ على تغليبِ المخاطَبِ، أو الالتفاتِ أو أمْرِ الرسولِ بالمخاطبةِ.

إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ
إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟
فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦١﴾
ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٦٢﴾ كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟
بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٤﴾

(٥٩) ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا﴾ في مجيئها لوضوحِ الدلالة على جوازِها. وإجماعِ الرُّسلِ على الوعْدِ بوقوعِها. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لا يصدِّقون بها لقصور نظَرِهم على ظاهرِ ما يَحسُّون به.

(٦٠) ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ﴾ اعبدُوني. ﴿أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ أُثِبْكُم لقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ صاغرِينَ، وإنْ فُسِّر الدعاءُ بالسؤالِ كان الاستكبارُ الصارفُ عنه مُنَزَّلاً منزلَتَهُ للمبالغةِ. أوِ المرادُ بالعبادةِ الدعاءُ فإنه من أبوابها. وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر سيُدْخَلُونَ بضمِّ الياء وفتحِ الخاءِ.

(٦١) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ﴾ لتستريحوا فيه بأنْ خلقَه بارِداً مظلِماً ليؤدي إلى ضعفِ الحركاتِ وهدوءِ الحواسِّ. ﴿وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ يُبْصَرُ فيه أو به، وإسنادُ الإبصارِ إليه مجازٌ فيه مبالغةٌ ولذلك عَدَلَ به عن التعليل إلى الحالِ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ لا يوازيه فضلٌ، وللإشعارِ به لم يقلْ لَمُفَضِّلٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾ لِجَهْلِهم بالمنْعِم وإغفالِهم مواقعَ النِّعم، وتكريرُ الناسِ لتخصيص الكُفْرانِ بهم.

(٦٢) ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ المخصوصُ بالأفعالِ المقتضيةِ للألوهيةِ والربوبيةِ. ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أخبارٌ مترادِفةٌ تخصِّصُ اللاحقةُ السابقة وتقرِّرُها. وقرىء خالقَ بالنصبِ على الاختصاصِ، فيكون لا إله إلا هو استئنافاً بما هو كالنتيجةِ للأوصافِ المذكورة. ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ فكيفَ ومِنْ أيِّ وجْهٍ تُصْرَفُونَ عن عبادته إلى عبادةِ غيرِه.

(٦٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُؤْفَكُ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ أي كما أُفِكُوا أفِكَ عن الحقِّ كلُّ مَنْ جحدَ بآياتِ اللهِ ولم يتأمَّلْها.

(٦٤) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ استدلالٌ ثانٍ بأفعالٍ أُخَرَ مخصوصةٍ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ بأنْ خلقَكم منتصِبَ القامةِ باديَ البَشَرَةِ متناسِبَ الأعضاءِ والتخطيطاتِ متهيأً لمزاولةِ الصنائع واكتسابِ الكمالاتِ. ﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ اللذائذِ. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ فإنَّ كلَّ ما سواهُ مربوبٌ مفتقِرٌ بالذاتِ معرَّضٌ للزوال.

هُوَ ٱلْحَيُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ
أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٦﴾ هُوَ
ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟
شُيُوخًا ۚ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ ۖ وَلِتَبْلُغُوٓا۟ أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ
فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴿٦٩﴾ ٱلَّذِينَ
كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ
يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾

(٦٥) ﴿ هُوَ ٱلْحَيُّ ﴾ المتفرِّدُ بالحياةِ الذاتيةِ. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا موجِدَ سواهُ ولا موجودَ يساويهِ أو يدانيه في ذاتِه وصفاتِه. ﴿فَٱدْعُوهُ﴾ فاعبدُوه. ﴿مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ أي الطاعةَ من الشركِ والرياءِ. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ قائلينَ له.

(٦٦) ﴿ ۞ قُلْ إِنِّى نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَمَّا جَآءَنِىَ ٱلْبَيِّنَٰتُ مِن رَّبِّى﴾ من الحُجَجِ والآياتِ أو منَ الآياتِ، فإنها مقوِّيةٌ لأدلةِ العقلِ منبِّهةٌ عليها. ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ بأنْ أنقادَ له أو أُخلِصَ له ديني.

(٦٧) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ أطفالاً، والتوحيدُ لإرادةِ الجِنْسِ أو على تأويل كلِّ واحدٍ منكم. ﴿ ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ﴾ اللامُ فيه متعلِّقةٌ بمحذوفٍ تقديرُهُ: ثم يبقيكُم لتبلُغوا وكذا في قوله: ﴿ ثُمَّ لِتَكُونُوا۟ شُيُوخًا﴾ ويجوزُ عطفُه على لتبلغوا. وقرأ نافعٌ وأبو عمرو وحفصٌ وهشام شُيوخاً بضمِّ الشينِ. وقُرِىءَ شيخاً كقوله طفلاً. ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ الشيخوخةِ أو بلوغِ الأشُدِّ. ﴿وَلِتَبْلُغُوٓا۟﴾ ويفعلُ ذلك لتبلغوا: ﴿ أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ هو وقْتُ الموتِ أو يومُ القيامةِ. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ ما في ذلك من الحججِ والعِبَرِ.

(٦٨) ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا ﴾ فإذا أرادَهُ. ﴿فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يحتاجُ في تكوينه إلى عدَّةٍ وتجشُّمِ كُلْفَةٍ، والفاءُ الأولى للدلالةِ على أنَّ ذلك نتيجةُ ما سبقَ مِنْ حيثُ إنه يقتضي قدرةً ذاتيةً غيرَ متوقِّفةٍ على العُدَدِ والموادِّ.

(٦٩) ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ﴾ عَن التصديقِ به، وتكريرُ ذمِّ المجادَلَةِ لتعدُّدِ المجادِلِ أو المجادَلِ فيه أو للتأكيدِ.

(٧٠) ﴿ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِٱلْكِتَٰبِ﴾ بالقرآنِ أو بجِنْسِ الكُتبِ السماويةِ. ﴿ وَبِمَآ أَرْسَلْنَا بِهِۦ رُسُلَنَا﴾ من سائرِ الكتبِ أو الوحْي والشرائعِ. ﴿ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ جزاءَ تكذيبِهم.

(٧١) ﴿ إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ ظرفٌ ليعلمون إذِ المعنَى على الاستقبالِ، والتعبيرُ بلفظِ المضيِّ لِتيقُّنِه. ﴿ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ عطفٌ على الأغلالِ أو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿ يُسْحَبُونَ﴾.

﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ ٧٢ ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ ٧٣ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧٤ ذَٰلِكُم بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ ٧٥ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٦ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۚ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ ٧٧﴾

(٧٢) ﴿فِي ٱلۡحَمِيمِ﴾ والعائدُ محذوفٌ أي يُسْحَبُونَ بها، وهو على الأوّلِ حالٌ. وقُرِىءَ والسلاسلَ يَسْحَبُونَ بالنصبِ وفتحِ الياءِ على تقديمِ المفعولِ وعطْفِ الفعليةِ على الاسميةِ، والسلاسلِ بالجرِّ حملاً على المعنَى إذِ الإغلالُ في أعناقِهم بمعنى أعناقُهم في الأغلالِ؛ أو إضماراً للباءِ ويدلُّ عليه القراءةُ به. ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ يُحرَقُونَ من سَجَرَ التنورَ إذا ملأهُ بالوَقُودِ، ومنه السجيرُ للصديقِ كأنه سُجِرَ بالحبِّ أي مُلِىءَ. والمراد أنهم يُعَذَّبونَ بأنواعٍ من العذابِ ويُنَقلُونَ من بعضِها إلى بعضٍ.

(٧٣) ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾.

(٧٤) ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالُواْ ضَلُّواْ عَنَّا﴾ غابوا عنَّا وذلك قبلَ أنْ تُقرَنَ بهم آلهتُهم، أو ضاعوا عنَّا فلم نجدْ ما كنَّا نتوقَّعُ منهم[١]. ﴿بَل لَّمۡ نَكُن نَّدۡعُواْ مِن قَبۡلُ شَيۡـٔٗاۚ﴾ أي بلْ تبيَّنَ لنا لم نكنْ نعبدُ شيئاً بعبادتِهم فإنَّهم ليسُوا شيئاً يُعْتَدُّ به كقولك: حسبتُه شيئاً فلم يكنْ. ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الضلالِ. ﴿يُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ حتى لا يهتدُوا إلى شيءٍ ينفعُهم في الآخرةِ، أو يضلُّهم عن آلهتِهم حتى لو تطالبُوا لم يتصادفُوا.

(٧٥) ﴿ذَٰلِكُم﴾ الإضلالُ[٢]. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَفۡرَحُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ تَبْطَرُونَ وتتكبَّرونَ. ﴿بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ﴾ وهو الشركُ والطغيانُ. ﴿وَبِمَا كُنتُمۡ تَمۡرَحُونَ﴾ تتوسَّعون في الفرحِ، والعدولُ إلى الخطابِ للمبالغةِ في التوبيخِ.

(٧٦) ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ الأبوابَ السبعةَ المقسومةَ لكم. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾ مقدَّرين الخلودَ. ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ عن الحقِّ جهنَّمُ، وكان مُقْتَضَى النَّظْمِ فَبِئْسَ مدخلُ المتكبرينَ ولكنْ لما كان الدخولُ المقيَّدُ بالخلودِ بسببِ الثواءِ عَبَّرَ بالمثْوى.

(٧٧) ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ بهلاكِ الكافرينَ. ﴿حَقّٞۚ﴾ كائنٌ لا محالةَ. ﴿فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ فإنْ نُرِكَ، وما مزيدةٌ لتأكيد الشرطيةِ ولذلك لحقتِ النونُ الفعلَ ولا تلحقُ مع أنْ وحْدَها. ﴿بَعۡضَ ٱلَّذِي نَعِدُهُمۡ﴾ وهو القتلُ والأسرُ. ﴿أَوۡ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبلَ أنْ تراهُ. ﴿فَإِلَيۡنَا يُرۡجَعُونَ﴾ يومَ القيامة فنجازيهم بأعمالِهم، وهو جوابُ نتوفينَّكَ، وجوابُ نرينَّك محذوفٌ مثلُ فَذَاكَ، ويجوزُ أنْ يكونَ جواباً لهما بمعنى إنْ نعذِّبْهم في حياتك أو لم نعذِّبْهم فإنا نعذِّبُهم في الآخرة أشدَّ العذابِ، ويدلُّ على شِدَّتِهِ الاقتصارُ بِذِكْرِ الرجوعِ في هذا المعرِضِ.

---

(١) وصيغة الماضي في «ضلوا» للدلالة على تحقق وقوع الفعل (س٧/ ٢٨٥).

(٢) والالتفات «ذلكم» إلى الخطاب للمبالغة في التوبيخ (س٧/ ٢٨٥).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ
أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ قُضِيَ بِٱلْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى
جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى
صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ
يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى
ٱلْأَرْضِ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

(٧٨) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ إذ قيل عددُ الأنبياء مائةُ ألفٍ وأربعةٌ وعشرونَ ألفاً[١]، والمذكورُ قِصَصُهم أشخاصٌ معدودةٌ. ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فإنَّ المعجزاتِ عطايا قَسَمَهَا بينَهم على ما اقتضتْه حِكْمَتُهُ كسائرِ القِسَمِ، ليس لهم اختيارٌ في إيثارِ بعضِها والاستبدادِ بإتيانِ المقترحِ بها. ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ بالعذابِ في الدنيا أو الآخرة. ﴿قُضِيَ بِٱلْحَقِّ﴾ بإنجاءِ المحقِّ وتعذيبِ المبطِلِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ المعاندون باقتراحِ الآياتِ بعد ظهور ما يغنيهم عنها.

(٧٩) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ فإنَّ مِنْ جِنسِها ما يُؤْكَلُ كالغنمِ ومنها ما يؤكلُ ويُرْكَبُ كالإبلِ والبقرِ.

(٨٠) ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ﴾ كالألبان والجلود والأوبار. ﴿وَلِتَبْلُغُوا۟ عَلَيْهَا حَاجَةً فِى صُدُورِكُمْ﴾ بالمسافرةِ عليها. ﴿وَعَلَيْهَا﴾ في البرِّ. ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾ في البحر. ﴿تُحْمَلُونَ﴾ وإنما قال وعلى الفلكِ ولم يقلْ في الفلكِ للمزاوجةِ، وتغييرُ النَّظْمِ في الأكْلِ لأنه في حيِّزِ الضرورة. وقيل لأنه يُقصَدُ به التعيُّشُ ـ وهو من الضرورياتِ ـ والتلذُّذُ، والركوبُ والمسافرةُ عليها قد تكون لأغراضٍ دينية واجبةٍ أو مندوبةٍ، أو للفرقِ بينَ العينِ والمنفعةِ.

(٨١) ﴿وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ﴾ دلائلَه الدالةَ على كمالِ قدرته وفَرْطِ رحمتِه. ﴿فَأَىَّ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي فأيَّ آيةٍ من تلكَ الآياتِ[٢]. ﴿تُنكِرُونَ﴾ فإنها لظهورِها لا تقبلُ الإنكارَ، وهو ناصبُ أيَّ إذ لو قدَّرْتَهُ متعلِّقاً بضميرِه كان الأَوْلى رفعُه، والتفرقةُ بالتاءِ في أيِّ أغربُ منها في الأسماءِ غيرِ الصفاتِ لإبهامِه.

(٨٢) ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓا۟ أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاثَارًا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ما بقيَ منهم من القصورِ والمصانعِ ونحوِهما. وقيل آثارُ أقدامِهم في الأرضِ لِعِظَمِ أجرامِهم. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ ما الأُولى نافيةٌ أوِ استفهاميةٌ منصوبةٌ بأغْنَى، والثانيةُ موصولةٌ أو مصدريةٌ مرفوعةٌ به.

---

(١) انظر «جامع البيان» (١٢/ج٢٤/ ٨٦ ـ ٨٧).
«وروح المعاني» (٢٤/ ٨٨).

(٢) وإضافة الآيات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتهويل إنكارها (س/٧/ ٢٨٦).

فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٨٣﴾
فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا
رَأَوْا۟ بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾

(٨٣) ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات أو الآياتِ الواضحات. ﴿فَرِحُوا۟ بِمَا عِندَهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ واستحقروا عِلْمَ الرُّسلِ. والمرادُ بالعلمِ عقائدُهم الزائغةُ وشُبَهُهُمُ الداحضةُ كقوله ﴿بَلِ ٱدَّٰرَكَ عِلْمُهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾[١] وهو قولُهم: لا نُبْعَثُ ولا نعذَّبُ؛ وما أظنُّ الساعةَ قائمةً ونحوُها؛ وسمَّاها علماً على زعْمِهم تهكُّماً بهم، أو عِلْمَ الطبائع والتنجيمِ والصنائعِ ونحوِ ذلك، أو علمَ الأنبياءِ؛ وفرحُهم به ضَحِكُهم منه واستهزاؤُهم به؛ ويؤيدُه: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وقيل الفرحُ أيضاً للرسلِ فإنهم لما رأوا تمادي جهلِ الكفارِ وسوءَ عاقِبَتِهم فرِحوا بما أُوْتُوا من العلمِ وشكروا اللهَ عليه وحاقَ بالكافرين جزاءُ جهلِهم واستهزائِهم.

(٨٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ شِدَّةَ عذابِنا. ﴿قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ﴾ يعنُونَ الأصنامَ.

(٨٥) ﴿فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا﴾ لامتناعِ قبولِه حينئذ ولذلك قال ﴿لم يك﴾ بمعنَى لم يصحَّ ولم يستقمْ، والفاءُ الأولى لأنَّ قولَه ﴿فما أغنى﴾ كالنتيجة لقوله ﴿كانوا أكثر منهم﴾، والثانيةُ لأنَّ قولَه ﴿فلما جاءتهم رسلهم﴾ كالتفسير لقوله ﴿فما أغنى﴾ والباقيتانِ لأنَّ رؤيةَ البأسِ مسبَّبةٌ عن مجيءِ الرسلِ، وامتناعُ نفي الإيمانِ مسبَّبٌ عن الرؤية. ﴿سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ﴾ أي سنَّ اللهُ ذلك سنةً ماضيةً في العبادِ وهي من المصادرِ المؤكِّدةِ. ﴿وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي وقتَ رؤْيَتِهم البأسَ، اسمُ مكانٍ استُعِيْرَ للزمان. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ المؤمنِ لم يبقَ روحُ نبيٍّ ولا صِدِّيقٍ ولا شهيدٍ ولا مؤمنٍ إلا صلَّى عليه واستغفرَ له»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) النمل: «٦٦».
(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٥ رقم ٣٤٥) وهو حديث موضوع، تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ فُصِّلَتْ

ترتيبها ٤١ — آياتها ٥٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢﴾ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾

سورة فصِّلتْ مكّيةٌ[1] وآيُها ثلاثٌ أو أربعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾ إنْ جعلْتَهُ مبتدأً فخبرهُ.

(٢) ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ وإنْ جعلْتَه تعديداً للحروفِ فتنزيلٌ خبرٌ محذوفٌ أو مبتدأٌ لتخصُّصِه بالصِّفَةِ وخبرهُ:

(٣) ﴿كِتَٰبٌ﴾ وهو على الأوَّلين بدلٌ منه أو خبرٌ آخرُ أو خبرٌ محذوفٌ، ولعلَّ افتتاحَ هذه السُّورِ السَّبْعِ بحم وتسميتَها به لكونها مصدَّرةً ببيانِ الكتابِ متشاكِلَةً في النَّظْمِ والمعنَى، وإضافةُ التنزيلِ إلى الرحمنِ الرحيم للدلالةِ على أنه مَنَاطُ المصالحِ الدينية والدنيويةِ. ﴿فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ مُيِّزَتْ باعتبارِ اللفظِ والمعنى. وقُرِىءَ فُصِلَتْ أي فُصِلَ بعضُها من بعض باختلاف الفواصلِ والمعاني، أو فَصَلَتْ بينَ الحقِّ والباطل. ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ نُصِبَ على المدحِ أو الحالِ من فُصِّلَتْ، وفيه امتنانٌ بسهولةِ قراءتِه وفهْمِه.

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قال: نزلت (حم) السجدة بمكة، وأخرج ابن مردويه عن الزبير ـ رضي الله عنه ـ مثله. انظر: الدر المنثور (٧/ ٣٠٨).

﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ﴾ أي لقوم يعلمونَ العربيةَ أو لأهلِ العلمِ والنظرِ، وهو صفةٌ أخرى لقرآناً أو صلةٌ لتنزيل، أو لفصِّلتْ، والأوَّلُ أولى لوقوعِه بينَ الصِّفاتِ.

(٤) ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ للعاملين به والمخالِفين له، وقُرِئَا بالرفع على الصفةِ للكتابِ أو الخبرِ لمحذوفٍ. ﴿فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ﴾ عن تدبُّره وقَبُوْلِه. ﴿فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾ سماعَ تأمُّلٍ وطاعةٍ.

(٥) ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ﴾ أغطيةٍ جمعُ كِنَانٍ. ﴿مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ﴾ صَمَمٌ، وأصلُه الثِّقَلُ، وقرىء بالكسرِ[١]. ﴿وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ﴾ يمنعُنا عن التواصُلِ، ومن للدلالة على أنَّ الحجابَ مبتدأٌ منهم ومنه بحيثُ استوعَبَ المسافةَ المتوسطةَ ولم يبقَ فراغٌ. وهذه تمثيلاتٌ لِنُبُوِّ قلوبِهم عن إدراكِ ما يدعوهم إليه واعتقادِهم ومجِّ أسماعِهم له، وامتناعِ مواصلتِهم وموافقتِهم للرسولِ ﷺ. ﴿فَٱعۡمَلۡ﴾ على دينِك أو في إبطالِ أمرِنا. ﴿إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾ على دينِنا أو في إبطالِ أمرِكَ.

قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ﴿٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ غَيۡرُ مَمۡنُونٖ ﴿٨﴾ ۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾

(٦) ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ لستُ ملكاً ولا جِنّياً لا يمكنكُم التلقِّيْ منه، ولا أدعوكم إلى ما تنبُو عنه العقولُ والأسماعُ، وإنما أدعوكم إلى التوحيدِ والاستقامة في العملِ، وقد يدلُّ عليهما دلائلُ العقلِ وشواهدُ النقلِ. ﴿فَٱسۡتَقِيمُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ فاستقيموا في أفعالِكم متوجِّهين إليه، أو فاسْتَوُوْا إليه بالتوحيد والإخلاص في العملِ. ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُوهُۗ﴾ مما أنتم عليه من سوءِ العقيدةِ والعملِ، ثم هدَّدهم على ذلك فقال. ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ﴾ من فَرْطِ جهالَتِهم واستخفافِهم باللهِ.

(٧) ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ لِبُخْلِهم وعدمِ إشفاقِهم على الخلْقِ، وذلك مِنْ أعظمِ الرذائلِ، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبونَ بالفروعِ. وقيل معناه لا يفعلون ما يزكِّي أنفسَهم وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ﴾ حالٌ مشعرةٌ بأنَّ امتناعَهم عن الزكاةِ لاستغراقِهم في طلب الدنيا وإنكارِهم للآخرةِ.

(٨) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُمۡ أَجۡرٌ﴾ عظيمٌ. ﴿غَيۡرُ مَمۡنُونٖ﴾ لا يَمُنُّ به عليهم من المنِّ وأصلُه الثِّقْلُ، أو لا يُقطعُ من مَنَنْتُ الحبلَ إذا قطعتُه. وقيل نزلتْ في المرضى والهرْمَى إذا عجَزُوا عن الطاعةِ كُتِبَ لهم الأجرُ كأصلحِ ما كانوا يعملونَ.

(٩) ﴿۞قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ في مقدارِ يومينِ، أو نوبتينِ وخَلَقَ في كلِّ نوبةٍ ما خلقَ في أسرعِ ما يكونُ. ولعلَّ المرادَ من الأرض ما في جهةِ السُّفْلِ من الأجرامِ البسيطةِ ومَنْ خلقَها في يومين أنه خلَقَ لها أصلاً مشتركاً ثم خلَقَ لها صُوَراً بها صارتْ أنواعاً، وكفرُهم به إلحادُهم في ذاتِه

(١) أي بكسر الواو في «وقر».

وصفاتِه[١]. ﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا﴾ ولا يصحُّ أنْ يكونَ له نِدٌّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي خلقَ الأرضَ في يومينِ. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ خالِقُ جميعِ ما وُجِدَ من الممكِنَاتِ ومربِّيها.

وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ استئنافٌ غيرُ معطوفٍ على خلَقَ للفصْلِ بما هو خارجٌ عن الصِّلةِ. ﴿مِن فَوْقِهَا﴾ مرتفعةً عليها ليظهرَ للنُّظَّارِ ما فيها من وجوهِ الاستبصارِ وتكونُ منافِعُها معرَّضَةً للطُّلاب. ﴿وَبَٰرَكَ فِيهَا﴾ وأكْثَرَ خَيْرَهَا بأنْ خلقَ فيها أنواعَ النباتِ والحيوانِ. ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ أقواتَ أهلِها بأنْ عيَّنَ لكلِّ نوعٍ ما يصلِحُه ويعيشُ به، أو أقواتاً تنشأُ منها بأنْ خصَّ حدوثَ كلِّ قوتٍ بقطرٍ من أقطارِها، وقُرِىءَ وقسَّمَ فيها أقواتَها. ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ في تتمةِ أربعةِ أيام كقولك: سرتُ من البصرةِ إلى بغدادَ في عشرةِ أيام، وإلى الكوفةِ في خمسةَ عشرَ يوماً. ولعلَّه قال ذلك ولم يقلْ في يومينِ للإشعارِ باتصالهما باليومينِ الأوَّلين والتصريح على الفذْلَكةِ. ﴿سَوَآءً﴾ أي استوتْ سواءً بمعنى استواءٍ، والجملةُ صفةُ أيامٍ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ بالجرِّ. وقيلَ حالٌ من الضمير في أقواتِها أو في فيها، وقرىء بالرفع على هي سواءٌ. ﴿لِّلسَّآئِلِينَ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ تقديرهُ هذا الحصْرُ للسائلينَ عن مدَّةِ خلْقِ الأرضِ وما فيها، أو بقدر أي قدَّرَ فيها الأقواتَ للطالبينَ لها[٢].

(١١) ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ قصدَ نحوَها من قولِهم استوى إلى مكانٍ كذا إذا توجَّه إليه توجُّهاً لا يلوي على غيرِه، والظاهرُ أنَّ ثُمَّ لتفاوُتِ ما بينَ الْخَلْقَتينِ لا للتراخي في المدَّةِ لقوله ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾[٣] ودحُوُّها متقدِّمٌ على خلْقِ الجبالِ من فوقِها. ﴿وَهِىَ دُخَانٌ﴾ أمرٌ ظلمانيٌّ، ولعلَّه أرادَ به مادَّتَها أوِ الأجزاءَ المتصغِّرةَ التي رُكِّبَتْ منها. ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا﴾ بما خلقْتُ فيكما من التأثيرِ والتأثُّرِ وأَبْرِزَا ما أودعتُكُما من الأوضاعِ المختلفةِ والكائناتِ المتنوعةِ، أوِ ائْتِيَا في الوجودِ على أنَّ الخلْقَ السابقَ بمعنى التقديرِ أو الترتيبَ للرتبةِ أو الإخبارِ، أو إتيانُ السماءِ حدوثُها وإتيانُ الأرضِ أنْ تصيرَ مدحوَّةً وقد عرفتَ ما فيه، أو لِتَأْتِ كلٌّ منكما الأخرى في حدوثِ ما أُريدَ توليدُه منكما ويؤيدُه قراءةُ وآتيا من المؤاتاةِ أي لِتوافِقَ كلُّ واحدةٍ أختَها فيما أردْتُ منكما. ﴿طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ شئتُما ذلك أو أبيتُما، والمرادُ إظهارُ كمالِ قدرته ووجوبُ وقوعِ مُرادِه لا إثباتُ الطوعِ والكُرهِ لهما، وهما مصدرانِ وقعا موقِعَ الحالِ. ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ منقادينَ بالذاتِ، والأظهرُ أنَّ المرادَ تصويرُ تأثيرِ قدرتِه فيهما وتأثُّرهُما بالذاتِ عنها، وتمثيلُهما بأمرِ المطاعِ وإجابةِ المطيعِ الطائعِ كقوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٤] وما قيل من أنه تعالى

(١) في قوله: «أئنكم لتكفرون» أتىٰ بإن واللام إما لتأكيد الإنكار، أو للإشعار بأن كفرهم من البعد بحيث ينكر العقلاء وقوعه فيحتاج إلى التأكيد (س٨/ ٤).

(٢) ولعل تخصيص البيان بما يتعلق بالأرض وأهلها لبيان اعتنائه تعالى بأمر المخاطبين وترتيب مبادي عيشهم قبل خلقهم، مما يحملهم على الإيمان ويزجرهم عن الكفر والطغيان (س٨/ ٥).

(٣) النازعات: «٣٠».

(٤) البقرة: «١١٧».

خاطَبَهُما وأَقْدَرَهُما على الجواب إنما يُتصوَّرُ على الوجْهِ الأولِ والأخيرِ، وإنما قال طائعينَ على المعنى باعتبارِ كونهما مخاطَبَيْنِ كقوله ﴿سَٰجِدِينَ﴾(١).

فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًاۚ ذَٰلِكَ
تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿١٢﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾ إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ
مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَۖ قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ
كَٰفِرُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةًۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى
خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةًۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ فخلقهنَّ خلْقاً إبداعياً وأتقنَ أمرهنَّ، والضميرُ للسماءِ على المعنَى أو مبهمٌ، وسبعَ سمواتٍ حالٌ على الأول وتمييزٌ على الثاني. ﴿فِى يَوْمَيْنِ﴾ قيلَ خلْقِ السمواتِ يومَ الخميس والشمسَ والقمرَ والنجومَ يومَ الجمعةِ. ﴿وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ شأنَها وما يتأتَّى منها بأنْ حَمَلَها عليه اختياراً أو طبعاً. وقيل أوحى إلى أهلِها بأوامره ونواهيه. ﴿وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فإنَّ الكواكبَ كلَّها تُرَى كأنَّها تتلألأُ عليها. ﴿وَحِفْظًا﴾ أي وحفظْنَاها من الآفات، أو من المسترِقةِ حفظاً. وقيل مفعولٌ له على المعنى كأنه قال: وخصَصْنا السماءَ الدنيا بمصابيحَ زينةً وحفظاً. ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ البالغُ في القُدْرَةِ والعِلْمِ.

(١٣) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟﴾ عن الإيمان بعدَ هذا البيانِ. ﴿فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ فحذِّرهم أنْ يصيبَهُم عذابٌ شديدُ الوقْعِ كأنه صاعقةٌ. ﴿مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقُرِىءَ صعقةً مثلَ صعقةِ عادٍ وثمودَ وهي المرَّةُ من الصَّعْقِ أو الصَّعِقِ يُقَالُ صعقَتْهُ الصاعقةُ صعقاً فَصَعِقَ صعْقاً.

(١٤) ﴿إِذْ جَآءَتْهُمُ ٱلرُّسُلُ﴾ حالٌ من صاعقةِ عادٍ، ولا يجوزُ جعْلُه صفةً لصاعقةٍ أو ظرفاً لأَنْذَرْتُكُم لفسادِ المعنى. ﴿مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ أَتَوْهُم من جميعِ جوانِبِهِم واجتهدوا بهم من كلِّ جهةٍ، أو من جهةِ الزَّمَنِ الماضي بالإنذارِ عما جَرَى فيه على الكفَّارِ، ومن جهةِ المستقبلِ بالتحذير عما أعدَّ لهم في الآخرة، وكلٌّ من اللفظين يحتملُهما، أو مِنْ قبلهم ومن بعدِهم إذْ قد بلَّغتهم خبرَ المتقدِّمين، وأخبرهُم هودٌ وصالحٌ عنِ المتأخرينَ داعينَ إلى الإيمان بهم أجمعينَ، ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ عبارةً عن الكثرةِ كقوله تعالى ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾(٢). ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ بأنْ لا تعبدُوا أو أي لا تعبدُوا. ﴿قَالُوا۟ لَوْ شَآءَ رَبُّنَا﴾ إرسالَ الرُّسلِ. ﴿لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ برسالتِه. ﴿فَإِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾ على زعْمِكُم. ﴿كَٰفِرُونَ﴾ إذ أنتم بشرٌ مثلُنا لا فضلَ لَكُمْ علينا.

(١٥) ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ فتعظَّموا فيها على أهلها من غير استحقاقٍ. ﴿وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ اغتراراً بقوَّتِهِم وشوْكَتِهِم. قيل كان مِنْ قوَّتهم أنَّ الرجلَ منهم ينزعُ الصخرةَ فيقتلِعُها

(١) يوسف: «٤».
(٢) النحل: «١١٢».

بيده. ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ قدرةً فإنه قادرٌ بالذاتِ مقتدِرٌ على ما لا يتناهَى، قويٌّ على ما لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرُهُ. ﴿وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ يعرفُون أنَّها حقٌّ وينكرونَها وهو عطفٌ على فاستكبروا.

فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بادرةً تُهْلِكُ بشدةِ بَرْدِها من الصرِّ وهو البردُ الذي يُصَرُّ أي يُجْمَعُ، أو شديدةَ الصوتِ في هبوبها من الصرير. ﴿فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾ جمعُ نحسةٍ من نَحِسَ نحساً نقيضُ سَعِدَ سَعْداً، وقرأ الحجازيانِ والبصريانِ بالسكونِ على التخفيفِ أو النعتِ على فعلٍ[1]، أو الوصفِ بالمصدرِ، قيل كُنَّ آخِرَ شوالَ من الأربعاءِ إلى الأربعاءِ، وما عذِّبَ قومٌ إلا في يوم الأربعاء. ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أضافَ العذابَ إلى الخزي وهو الذلُّ على قصْدِ وصْفِهِ به لقوله: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾ وهو في الأصلِ صفةُ المعذَّبِ وإنما وُصِفَ به العذابُ على الإسنادِ المجازى للمبالغةِ. ﴿وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ بدفعِ العذابِ عنهم.

(١٧) ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ﴾ فدلَلْنَاهم على الحقِّ بِنَصْبِ الحججِ وإرسالِ الرُّسلِ. وقرىء ثمودَ بالنصبِ بفعلٍ مضمَرٍ يفسِّره ما بعدَه، ومنوَّناً في الحالين، وبضمِّ الثاءِ. ﴿فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ فاختاروا الضلالةَ على الهدى. ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ﴾ صاعقةٌ من السماءِ فأهلكتْهم، وإضافتُها إلى العذابِ ووصفُه بالهونِ للمبالغة. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من اختيار الضلالةِ.

(١٨) ﴿وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ من تلك الصاعقةِ.

(١٩) ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ﴾ وقُرِىءَ يَحْشُرُ على البناء للفاعلِ وهو اللهُ عزَّ وجلَّ. وقرأ نافعٌ نَحْشُرُ بالنونِ مفتوحةً وضمِّ الشينِ ونصبِ أعداءَ[2]. ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ يُحْبَسُ أوَّلُهم على آخرِهم لئلاَّ يتفرَّقوا وهو عبارةٌ عن كثرةِ أهلِ النارِ.

(٢٠) ﴿حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا﴾ إذا حضَرُوها، وما مزيدةٌ لتأكيدِ اتصالِ الشهادةِ بالحضورِ. ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ بأنْ يُنْطِقَها اللهُ تعالى، أو يُظْهِرَ عليها آثاراً تدلُّ على ما اقْتُرِفَ بها فتنطقُ بلسانِ الحالِ.

---

(١) فائدة وجه السكون في نحْسات كونها وصفاً، فإن الاسم إذا كان وصفاً يسكن جمعه المؤنث، ويحرّك إذا لم يكن يكن كذلك، لذلك تقول في جمع ضربة ضرَبات وغرفة غرُفات، وتقول في ضخمة ضخْمات وخدْله خدلات بالسكون لأنها وصف، والخدلة هي الممتلئة لحماً، توصف بها المرأة.

(٢) والتعبير عنهم بأعداء الله تعالى لذمهم والإيذان بعلة ما يحيق بهم من ألوان العذاب.
والتعبير عن الحشر بأنه إلى النار إما للإيذان بأنها عاقبة حشرهم أو لأن حسابهم يكون على شفيرها (س٨/٩).

وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ
لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾
فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ۞ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُواْ
لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنَّهُمْ
كَانُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا﴾ سؤالُ توبيخٍ أو تعجُّبٍ، ولعلَّ المرادَ به نفسُ التعجُّبِ. ﴿قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ أي ما نطقْنا باختيارِنا بلْ أنطقنا اللهُ الذي أنطقَ كلَّ شيءٍ، أو ليس نطقنا بعجبٍ من قدرةِ اللهِ الذي أنطقَ كلَّ حيٍّ، ولو أُوِّلَ الجوابُ والنطقُ بدلالةِ الحالِ بقيَ الشيءُ عاماً في الموجوداتِ الممكنةِ. ﴿وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تمامَ كلامِ الجلودِ وأن يكونَ استئنافاً.

(٢٢) ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾ أي كنتُم تستترونَ عن الناس عندَ ارتكابِ الفواحشِ مخافةَ الفضاحةِ، وما ظننتُم أنَّ أعضاءَكم تشهدُ عليكم بها فما استترتُم عنها. وفيه تنبيهٌ على أنَّ المؤمنَ ينبغي أنْ يتحقَّقَ أنه لا يمرُّ عليه حالٌ إلا وهو عليه رقيبٌ. ﴿وَلَـٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ فلذلك أجترأتُم على ما فعلتُم.

(٢٣) ﴿وَذَٰلِكُمْ﴾ إشارةٌ إلى ظنِّهم هذا، وهو مبتدأٌ وقولُه: ﴿ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ﴾ خبرانِ له ويجوزُ أنْ يكونَ ظنُّكم بدلاً وأرْداكُم خبراً. ﴿فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ إذْ صارَ ما مُنِحُوا للاستسعادِ به في الدَّارينِ سبباً لشقاءِ المنزلَيْن.

(٢٤) ﴿فَإِن يَصْبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ لا خلاصَ لهم عنها[1]. ﴿وَإِن يَسْتَعْتِبُواْ﴾ يَسْألُوا العُتْبى وهي الرجوعُ إلى ما يُحبُّونَ. ﴿فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ﴾ المجابِيْنَ إليها ونظيرُه قولُه تعالى حكايةً ﴿أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ﴾[2] وقُرِىءَ وأنْ يُسْتَعْتَبُوا فما هم من المعتبينَ، أي إنْ يُسْأَلُوا أنْ يُرْضُوا ربَّهم فما هم فاعلونَ لفواتِ المُكْنَةِ.

(٢٥) ﴿۞ وَقَيَّضْنَا﴾ وقدَّرنا. ﴿لَهُمْ﴾ للكفرة. ﴿قُرَنَآءَ﴾ أخْداناً من الشياطين يستولُون عليهم استيلاءَ القيضِ على البيضِ وهو القشرُ. وقيل أصلُ القيضِ البدلُ ومنه المقايضةُ للمعاوضةِ. ﴿فَزَيَّنُواْ لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ من أمرِ الدنيا واتباعِ الشهواتِ. ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ مِنْ أمرِ الآخرةِ وإنكارِه. ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ أي كلمةُ العذابِ. ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾ في جملةِ أممٍ كقولِه:

---

(١) والالتفات إلى الغيبة «يصبروا...» للإيذان باقتضاء حالهم أن يعرض عنهم ويُحكىٰ سوء حالهم لغيرهم، أو للإشعار بإبعادهم عن حيز الخطاب وإلقائهم في غاية دركات النار (س٨/ ١١).

(٢) إبراهيم: «٢١».

إنْ تَـكُ عَـنْ أَحْسَـنِ الصَّنِيعَـةِ مَـأْ ... فـوكـاً فَفِـي آخَـرِيـنَ قَـدْ أُفِكُـوا

وهو حالٌ من الضمير المجرورِ. ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ وقد عمِلُوا مثلَ أعمالِهم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ لاستحقاقِهم العذابَ، والضميرُ لهم وللأُمم.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾ فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ ٱلنَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ﴾ وعارِضُوه بالخرافاتِ أوِ ارفعُوا أصواتَكُم بها لتشوِّشوهُ على القارِىء، وقُرِىءَ بضمِّ الغينِ والمعنَى واحدٌ يُقَالُ لَغَى يلغي ولَغَا يلغُو إذا هَذَى. ﴿لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ أي تغلبونَه على قراءته.

(٢٧) ﴿فَلَنُذِيقَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَذَابًا شَدِيدًا﴾ المرادُ بهم هؤلاء القائلونَ، أو عامةُ الكفار. ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ سيئاتِ أعمالِهم وقد سبقَ مثلُه.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الأسوأ. ﴿جَزَآءُ أَعْدَآءِ ٱللَّهِ﴾ خبرُه. ﴿ٱلنَّارُ﴾ عطفُ بيانٍ للجزاءِ أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾ في النار. ﴿دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ فإنَّها دارُ إقامتِهم، وهو كقولِكَ: في هذه الدارِ دارُ سرورٍ، وتعني بالدارِ عينَها على أنَّ المقصودَ هو الصفةُ. ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ ينكِرونَ الحقَّ أو يلغُونَ، وذَكَرَ الجحودَ الذي هو سببُ اللغوِ.

(٢٩) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ يعني شيطاني النوعينِ الحامِلَيْنِ على الضلالةِ والعصيانِ. وقيل هما إبليسُ وقابيلُ فإنهما سنَّا الكفرَ والقتْلَ، وقرأَ ابنُ كثير وابنُ عامر ويعقوبُ وأبو بكر والسوسيّ أرْنا بالتخفيفِ كفَخْذٍ في فَخِذَ، وقرأ الدوري باختلاسِ كسرة الراءِ. ﴿نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا﴾ ندوسُهُما انتقاماً منهما، وقيل نجعلُهما في الدركِ الأسفلِ. ﴿لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ﴾ مكاناً أو ذُلاً.

(٣٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾ اعترافاً بربوبيَّته وإقراراً بوحدانيَّته. ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ في العمل وثمَّ لتراخيهِ عن الإقرارِ في الرتبةِ من حيثُ إنه مبدأُ الاستقامةِ، أو لأنها عسرٌ قلّما تتبعُ الإقرارَ، وما رُوِيَ عن الخلفاءِ الراشدين[1] في معنى الاستقامةِ من الثباتِ على الإيمانِ وإخلاصِ العمل وأداءِ الفرائضِ فجزئياتُها. ﴿تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فيما يعنُّ لهم بما يشرحُ صدورَهم ويدفعُ عنهم الخوفَ والحزَنَ، أو عندَ الموت أو الخروجِ من القبر. ﴿أَلَّا تَخَافُوا۟﴾ ما تقدِمُون عليه. ﴿وَلَا تَحْزَنُوا۟﴾ على ما خلّفتم، وأنْ مصدريةٌ أو مخففةٌ مقدَّرةٌ بالباء أو مفسِّرة. ﴿وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ في الدنيا على لسان الرسلِ.

---

(١) انظر «معالم التنزيل» للبغوي (٧/ ١٧٢).

نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا
تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ ﴿٣٢﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي
مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ
عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا
يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ نلهمكُمُ الحقَّ ونَحمِلُكُم على الخير بدلَ ما كانتِ الشياطينُ تفعلُ بالكفرةِ. ﴿وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ بالشفاعةِ والكرامةِ حيثُما يتعادى الكفرةُ وقُرَنَاؤُهم. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا﴾ في الآخرة. ﴿مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ﴾ من اللذائذِ. ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ﴾[1] ما تتمنَّونَ من الدعاءِ بمعنى الطلبِ وهو أعمُّ من الأولِ.

(٣٢) ﴿نُزُلٗا مِّنۡ غَفُورٖ رَّحِيمٖ﴾ حالٌ من ما تدعونَ للإشعارِ بأنَّ ما يتمنَّونَ بالنسبة إلى ما يُعْطَوْنَ مما لا يخطرُ ببالِهم كالنُّزَلِ للضيفِ.

(٣٣) ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إلى عبادته. ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحٗا﴾ فيما بينَه وبينَ ربِّه. ﴿وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تفاخُراً به واتخاذاً للإسلامِ ديناً ومذهَباً من قولهم: هذا قولُ فلانٍ لمذهبِه. والآيةُ عامةٌ لمنِ استجمعَ تلك الصفاتِ. وقيل نزلتْ في النبيِّ ﷺ[2]، وقيل في المؤذِّنينَ[3].

(٣٤) ﴿وَلَا تَسۡتَوِي ٱلۡحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ﴾ في الجزاءِ وحُسْنِ العاقبةِ ولا الثانيةُ مزيدةٌ لتأكيدِ النَّفْيِ. ﴿ٱدۡفَعۡ بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ ادفع السيئةَ حيثُ اعترضتْكَ بالتي هي أحسنُ منها وهي الحسنةُ على أنَّ المرادَ بالأحسنِ الزائدُ مطلقاً، أو بأحسنِ ما يمكن دفعُها به من الحسناتِ، وإنما أخرجَه مخرجَ الاستئنافِ على أنه جوابُ مَنْ قال: كيفَ أصنعُ؟ للمبالغةِ ولذلك وضعَ أحسنَ موضعَ الحسنةِ. ﴿فَإِذَا ٱلَّذِي بَيۡنَكَ وَبَيۡنَهُۥ عَدَٰوَةٞ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٞ﴾ أي إذا فعلْتَ ذلك صارَ عدوُّك المشاقُّ مثل الوليِّ الشفيقِ.

(٣٥) ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ﴾ وما يُلقَّى هذه السجيةَ وهي مقابلتُه الإساءةَ بالإحسانِ. ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ فإنها تحبسُ النفسَ عن الانتقام. ﴿وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٖ﴾ من الخير وكمالِ النفس وقيل الحظُّ الجنةُ.

(٣٦) ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ﴾ نخسٌ، شبَّه به وسْوَسَتَهُ لأنها تبعثُ الإنسانَ على ما لا ينبغي كالدفعِ بما هو أسوأُ، وجَعَلَ النزغَ نازغاً على طريقةِ جديدةٍ؛ أو أُريدَ به نازغٌ وصفاً للشيطان بالمصدرِ. ﴿فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ﴾ من شرِّه ولا تطِعْه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ لاستعاذتِك. ﴿ٱلۡعَلِيمُ﴾ بِنيَّتِكَ أو بصلاحِك.

---

(١) وعدم الاكتفاء بعطف «ما تدعون» على «ما تشتهي» للإشباع في البشارة والإيذان باستقلال كلٍّ منهما (س٨/ ١٣).

(٢) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لعبد بن حميد وابن المنذر.

(٣) عزاه السيوطي في الدر المنثور: ٧/ ٣٢٥ لابن أبي شيبة وابن المنذر وابن مردويه من وجه عن عائشة رضي الله عنها.

وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ ۗ أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ ۖ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ ﴿٤٣﴾

(٣٧) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ﴾ لأنَّهما مخلوقانِ مأمورانِ مثلُكم. ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ الضميرُ للأربعةِ المذكورةِ، والمقصودُ تعليقُ الفعلِ بهما إشعاراً بأنَّهما من عِدادِ ما لا يَعْلَمُ ولا يَخْتارُ. ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ فإنَّ السجودَ أخصُّ العباداتِ وهو موضِعُ السجود عندَنا لاقترانِ الأمرِ به، وعند أبي حنيفةَ آخِرَ الآيةِ الأخرى لأنه تمامُ المعنَى.

(٣٨) ﴿فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ عن الامتثال. ﴿فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ﴾ من الملائكةِ. ﴿يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ أي دائماً لقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩﴾ أي لا يملُّون.

(٣٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً﴾ يابِسةً متطامِنةً مستعارٌ من الخشوعِ بمعنى التذلُّلِ. ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ تزخرفتْ وانتفختْ بالنباتِ، وقُرِىءَ ربأَتْ أي زادتْ. ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا﴾ بعد موتِها. ﴿لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من الإحياءِ والإماتةِ.

(٤٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ يميلونَ إلى الاستقامةِ. ﴿فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾ بالطعنِ والتحريفِ والتأويلِ الباطلِ والإلغاءِ فيها. ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فنجازيهم على إلحادِهم. ﴿أَفَمَن يُلْقَىٰ فِى ٱلنَّارِ خَيْرٌ أَم مَّن يَأْتِىٓ ءَامِنًا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ قابَلَ الإلقاءَ في النارِ بالإتيانِ آمِناً مبالغةً في إحمادِ حالِ المؤمنين. ﴿ٱعْمَلُوا۟ مَا شِئْتُمْ﴾ تهديدٌ شديدٌ. ﴿إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ وعيدٌ بالمجازاةِ.

(٤١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ بدلٌ من قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا﴾[1] أو مستأنفٌ، وخبرُ إنَّ محذوفٌ مثلُ معاندونَ أو هالكونَ أو أولئك ينادَوْن، والذِّكرُ القرآنُ. ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ﴾ كثيرُ النفعِ عديمُ النظيرِ أو منيعٌ لا يتأتَّى إبطالُه وتحريفُه.

(٤٢) ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ﴾ لا يتطرَّقُ إليه الباطلُ من جهةٍ من الجهاتِ أو مما فيه من الأخبارِ الماضيةِ والأمور الآتيةِ. ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ﴾ أي حكيم. ﴿حَمِيدٍ﴾ يحمدُه كلُّ مخلوقٍ بما ظهرَ عليه من نِعَمِه.

(٤٣) ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ﴾ أي ما يقولُ لك كفارُ قومِك. ﴿إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِن قَبْلِكَ﴾ إلا مثلَ ما قالَ لهم

---

(١) فصلت: «٤٠».

كفارُ قومِهم، ويجوزُ أنْ يكونَ المعنى ما يقولُ اللهُ لك إلا مثلَ ما قال لهم. ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ لأنبيائِه. ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ لأعدائِهم، وهو على الثاني يُحتَمَلُ أنْ يكونَ المقولُ بمعنى أنَّ حاصلَ ما أُوحِيَ إليك وإليهم وَعْدُ المؤمنين بالمغفرة والكافرينَ بالعقوبة.

وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٤٤﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿٤٥﴾ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾

(٤٤) ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا﴾ جوابٌ لقولهم: هلاَّ أُنْزِلَ القرآنُ بلغةِ العجمِ، والضميرُ للذِّكرِ. ﴿لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ بُيِّنَتْ بلسانٍ نفقهُهُ. ﴿ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ أكلامٌ أعجميٌّ ومخاطبٌ عربيٌّ، إنكارٌ مقرِّرٌ للتخصيصِ. والأعجميُّ يُقَالُ للذي لا يُفْهَمُ كلامُه. وهذا قراءةُ أبي بكر وحمزةَ والكسائيِّ، وقرأ قالون وأبو عمرٍو بالمدِّ والتسهيلِ وورشٌ بالمدِّ وإبدالِ الثانية ألفاً، وابنُ كثير وابنُ ذكوان وحفصٌ بغير المدِّ بتسهيلِ الثانية، وقُرِىءَ أعجميٌّ وهو منسوبٌ إلى العجمِ، وقرأ هشام أعجميٌّ على الإخبارِ. وعلى هذا يجوزُ أنْ يكونَ المرادُ هلاَّ فصِّلَتْ آياتُه فجُعِلَ بعضُها أعجمياً لإفهامِ العجمِ وبعضُها عربياً لإفهام العربِ، والمقصودُ إبطالُ مُقْتَرَحِهم باستلزامِه المحذورَ، أو للدلالةِ على أنهم لا ينفكُّونَ عن التعنُّتِ في الآياتِ كيف جاءت. ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى﴾ إلى الحقِّ. ﴿وَشِفَآءٌ﴾ لما في الصدور من الشكِّ والشبَهِ. ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ مبتدأٌ خبرُه. ﴿فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرٌ﴾ على تقديرِ هو في آذانِهم وقْرٌ لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى﴾ وذلك لتصامِّهم عن سماعِه وتعاميهم عما يريهم من الآياتِ، ومَنْ جوَّزَ العطفَ على عاملينِ مختلفينِ عطفَ ذلك على للذين آمنوا هدًى. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي صمٌّ، وهو تمثيلٌ لهم في عدمِ قبولِهم الحقَّ واستماعِهم له بِمَنْ يُصَاحُ به من مسافةٍ بعيدة.

(٤٥) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ﴾ بالتصديق والتكذيب كما اختُلِفَ في القرآن. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ وهي العِدَةُ بالقيامة وفصلُ الخصومةِ حينئذ، أو تقديرُ الآجال. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصالِ المكذِّبين. ﴿وَإِنَّهُمْ﴾ وإنَّ اليهودَ أوِ الذين لا يؤمنون. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من التوراةِ أوِ القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ موجبٌ للاضطراب.

(٤٦) ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ﴾ نفعُه. ﴿وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ ضرُّه. ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فيفعلُ بهم ما ليس له أنْ يفعلَه.

(٤٧) ﴿۞ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ أي إذا سُئِلَ عنها إذ لا يعلمُها إلا هوَ. ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾ من أوعيتِها جمعُ كُمٍّ بالكسرِ. وقرأ نافع وابنُ عامر وحفصٌ من ثمراتٍ بالجمعِ لاختلافِ

الأنواع، وقُرِئ بجمعِ الضميرِ أيضاً. وما نافيةٌ، ومنْ الأوْلَى مزيدةٌ للاستغراقِ، ويُحْتَمَلُ أنْ تكونَ موصولَةً معطوفةً على الساعةِ ومِنْ مبينةٌ بخلاف قوله: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ﴾ بمكانٍ. ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾ إلا مقروناً بعلمِه واقعاً حَسَبَ تعلُّقه به. ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى﴾ بزعْمِكم. ﴿قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ﴾ أعلمْناكَ. ﴿مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ﴾ من أحدٍ يشهدُ لهم بالشركةِ إذ تبرَّأْنا عنهم لما عايَنَّا الحالَ فيكونُ السؤالُ عنهم للتوبيخ، أو من أحدٍ يشاهدُهم لأنَّهم ضلُّوا عنَّا. وقيل هو قولُ الشركاءِ أي ما منَّا مَنْ يشهدُ لهم بأنَّهم كانوا محقِّين.

وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ ﴿٥١﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾

(٤٨) ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ﴾ يعبدُونَ. ﴿مِن قَبْلُ﴾ لا ينفعهُم أو لا يَرَوْنَهُ. ﴿وَظَنُّوا۟﴾ وأيقَنُوا. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ مهربٍ، والظنُّ معلَّقٌ عنه بحرفِ النفي.

(٤٩) ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ لا يملُّ. ﴿مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ من طلبِ السَّعَةِ في النِّعمةِ، وقُرِئ من دعاءِ بالخير. ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضِّيقةُ. ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ من فضلِ الله ورحمتِه وهذا صفةُ الكافرِ لقوله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[1] وقد بولِغَ في يأسِه من جهةِ البنيةِ والتكريرِ وما في القنوطِ من ظهورِ أثرِ اليأسِ.

(٥٠) ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ﴾ بتفريجها عنه. ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ حقِّي أستحقُّه لِمَا لِيَ من الفضلِ والعملِ، أولي دائماً لا يزولُ. ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ تقومُ. ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ أي ولئنْ قامتْ على التوهُّم كان لي عندَ الله الحالةُ الحسْنَى من الكرامةِ، وذلك لاعتقادِه أنَّ ما أصابه من نِعَمِ الدنيا فلاستحقاقٍ لا ينفكُّ عنه. ﴿فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ فلنخبرنَّهم ﴿بِمَا عَمِلُوا۟﴾ بحقيقةِ أعمالِهم ولَنُبَصِّرَنَّهم عكسَ ما اعتقدُوا فيها. ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ لا يمكِنُهم التقصِّي عنه.

(٥١) ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ﴾ عن الشكرِ. ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ وانحرفَ عنه أو ذهبَ بنفسه وتباعدَ عنه بِكُلِّيَّتِهِ تكبُّراً، والجانبُ مجازٌ عن النفسِ كالجنْبِ في قوله ﴿فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾[2]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ كثيرٌ، مستعارٌ ممَّا لَهُ عرضٌ متَّسِعٌ للإشعارِ بكثرتِه واستمرارِه، وهو أبلغُ من الطويلِ إذ الطولُ أطولُ الامتدادينِ. فإذا كان عرضُه كذلك فما ظنُّك بطولِه.

(٥٢) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أخبروني. ﴿إِن كَانَ﴾ أي القرآنُ. ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ﴾ من غير

---

(١) يوسف: «٨٧».
(٢) الزمر: «٥٦».

نظرٍ واتباعِ دليلٍ. ﴿مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي من أضلُّ منكم، فوضَعَ الموصولَ موضِعَ الضميرِ شرْحاً لحالِهم وتعليلاً لمزيدِ ضلالِهم.

سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ ۗ أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌۢ ﴿٥٤﴾

(٥٣) ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ﴾ يعني ما أخبرهُم النبيُّ عليه الصلاة والسلام به من الحوادثِ الآتية وآثارَ النوازلِ الماضية، وما يسَّر اللهُ له ولخلفائِه من الفتوحِ والظهورِ على ممالِكِ الشرقِ والغرب على وجْهٍ خارقٍ للعادة. ﴿وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ما ظهرَ فيما بينَ أهلِ مكَّةَ وما حلَّ بهم، أو ما في بدنِ الإنسان من عجائبِ الصُّنعِ الدالةِ على كمالِ القدرةِ. ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ الضميرُ للقرآنِ أو الرسولِ أو التوحيدِ أو اللهِ ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ﴾ أي أو لم يَكفِ ربُّك، والفاءُ مزيدةٌ للتأكيد كأنه قيل: أو لم تحصلِ الكفايةُ به، ولا تكادُ تُزادُ في الفاعلِ إلا مع كفَىٰ. ﴿أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ بدلٌ منه، والمعنى أولم يكْفِك أنه تعالى على كلِّ شيءٍ شهيدٌ محقِّقٌ له فيحقِّقُ أمْرَكَ بإظهارِ الآياتِ الموعودةِ كما حقَّقَ سائِرَ الأشياءِ الموعودةِ، أو مطَّلِعٌ فيعلمُ حالَكَ وحالَهم، أو لم يكفِ الإنسانَ رادعاً عن المعاصي أنه تعالى مطلعٌ على كلِّ شيءٍ لا يَخفَى عليه خافيةٌ.

(٥٤) ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٌّ، وقرئ بالضمِّ وهو لغةٌ كخُفيةٍ وخِفْيَةٍ. ﴿مِّن لِّقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ بالبعثِ والجزاءِ. ﴿أَلَآ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ﴾ عالمٌ بِجُمَلِ الأشياء وتفاصيلِها، مقتدِرٌ عليها لا يفوتُه شيءٌ منها. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ السجدةِ أعطاه الله بكلِّ حرفٍ عشْرَ حسناتٍ»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشُّورَىٰ
ترتيبها ٤٢ آياتها ٥٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ عٓسٓقٓ ﴿٢﴾ كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾

سورةُ حمَ عسقَ مكِّيةٌ[1]، وهي ثلاثٌ وخمسونَ آيةً، وتُسَمَّى سورةَ الشورى

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿عٓسٓقٓ﴾ لعلَّه اسمانِ للسورة ولذلك فُصِلَ بينَهما وعُدَّا آيتينِ، وإنْ كانا اسماً واحداً فالفصلُ ليطابقَ سائرَ الحواميم، وقرىء حمَ سقَ.

(٣) ﴿كَذَٰلِكَ يُوحِىٓ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ أي مثلَ ما في هذه السورةِ من المعاني، أو إيحاءً مثلَ إيحائِها أَوْحَى الله إليك وإلى الرُّسلِ من قبلِكَ، وإنما ذُكِرَ بلفظ المضارعِ على حكايةِ الحالِ الماضية للدلالة على استمرارِ الوحي وأنَّ إيحاءَ مثلِه عادتُه، وقرأ ابنُ كثير يُوْحَىٰ بالفتح على أنَّ كذلك مبتدأٌ ويُوْحَى خبرُه المسندُ إلى ضميرِه، أو مصدرٌ ويوحى مسندٌ إلى إليك، واللهُ مرتفعٌ بما دلَّ عليه يوحي، والعزيزُ الحكيمُ صفتانِ له مقرِّرَتانِ لعلوِّ شأنِ الموحَى به كما مرَّ في السورةِ السابقة، أو بالابتداءِ كما في قراء نوحي بالنونِ، والعزيزُ وما بعدَه أخبارٌ أو العزيزُ الحكيم صفتانِ. وقولُه:

(٤) ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ خبرانِ له وعلى الوجوهِ الأُخَرِ استئنافٌ مقرِّرٌ لِعِزَّتِهِ وحِكْمَتِهِ.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٣٣٥).

(٥) ﴿ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ وقرأ نافعٌ والكسائيُّ بالياء. ﴿يَتَفَطَّرْنَ﴾ يتشقَّقْنَ من عظمةِ الله، وقيل من ادِّعاءِ الولدِ له. وقرأ البصريانِ وأبو بكر ينفطِرْنَ بالنونِ والأولُ أبلغُ لأنه مطاوِعُ فَطَّرَ وهذا مطاوع فَطِر، وقرىء تتفطَّرنَ بالتاءِ لتأكيد التأنيثِ وهو نادرٌ. ﴿ مِن فَوْقِهِنَّ﴾ أي يبتدىءُ الانفطارُ من جهتهنَّ الفوقانيةِ، وتخصيصُها على الأولِ لأنَّ أعظمَ الآياتِ وأدلَّها على علوِّ شأنه من تلك الجهةِ، وعلى الثاني ليدلَّ على الانفطارِ من تحتهنَّ بالطريقِ الأَوْلَى. وقيل: الضميرُ للأرضِ فإنَّ المرادَ بها الجنسُ. ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالسعي فيما يستدعي مغفرتَهم من الشفاعةِ والإلهامِ وإعدادِ الأسبابِ المقرِّبة إلى الطاعةِ، وذلك في الجملةِ يعمُّ المؤمنَ والكافرَ، بل لو فُسِّرَ الاستغفارُ بالسَّعْي فيما يدفعُ الخلَلَ المتوقَّعَ عمَّ الحيوانَ بلِ الجمادَ. وحيثُ خُصَّ بالمؤمنين فالمرادُ به الشفاعةُ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ إذ ما مِنْ مخلوقٍ إلا وهو ذو حظ من رحمته. والآيةُ على الأول زيادةُ تقرير لعظمته، وعلى الثاني دلالةٌ على تقدُّسه عما نُسِبَ إليه، وإنَّ عدمَ معاجلَتهم بالعقاب على تلك الكلمةِ الشنعاء باستغفار الملائكة وفَرْطِ غفران الله ورحمته.

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا
عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴿٧﴾ وَلَوْ شَآءَ
ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٨﴾

(٦) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ﴾ شركاءَ وأنداداً. ﴿ ٱللَّهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ ﴾ رقيبٌ على أحوالهم وأعمالهم فيجازيهم بها. ﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمدُ. ﴿ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾ بموكَّل بهم أو بموكول إليك أمرَهم.

(٧) ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ الإشارةُ إلى مصدر يوحي أو إلى معنى الآية المتقدمة، فإنه مكررٌ في القرآن في مواضعَ جمَّةٍ فتكون الكافُ مفعولاً به وقرآناً عربياً حالٌ منه. ﴿لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ﴾ أهلَ أمِّ القرى وهي مكةُ شرَّفها اللهُ تعالى. ﴿ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ من العرب. ﴿ وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ﴾ يوم القيامة يُجْمَعُ فيه الخلائقُ أو الأرواح والأشباح، أوِ العمالُ والأعمال، وحذفَ ثاني مفعولي الأولِ وأولَ مفعولي الثاني للتهويل وإيهام التعميم، وقُرِىءَ لينذرَ بالياء والفعلُ للقرآن. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ اعتراضٌ لا محلَّ له من الإعراب. ﴿ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ﴾ أي بعدَ جمعِهم في الموقفِ يُجْمَعُوْنَ أولاً ثم يفرَّقون، والتقدير منهم فريقٌ، والضمير للمجموعين لدلالةِ الجمْعِ عليه، وقرئا منصوبينِ على الحالِ منهم أي وتنذرَ يومَ جَمْعِهم متفرِّقين بمعنى مشارفين للتفرُّقِ، أو متفرِّقين في دَارَيِ الثوابِ والعقاب.

(٨) ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾ مهتدين أو ضالِّين. ﴿ وَلَٰكِن يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ﴾ بالهداية والحمْل على الطاعة. ﴿ وَٱلظَّٰلِمُونَ مَا لَهُم مِّن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ أي يدعُهم بغير وليٍّ ولا نصيرٍ في عذابه، ولعل تغييرَ المقابلة للمبالغة في الوعيد إذِ الكلامُ في الإنذار[١].

---

(١) أو للإيذان بأن الإدخال في العذاب من جهة الداخلين بموجب سوء اختيارهم، لا من جهته تعالىٰ كما في =

أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ ۖ فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٩﴾ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ
فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ جَعَلَ لَكُم مِّنْ
أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا ۖ يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ ۚ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُۥ
مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ ۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا
وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ۚ
كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾

(٩) ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ بل اتَّخذوا. ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ كالأصنام. ﴿فَٱللَّهُ هُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ جوابٌ لشرطٍ محذوف مثلُ إنْ أرادوا أولياءَ بحقٍّ فالله هو الولي بالحق. ﴿وَهُوَ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ كالتقرير لكونه حقيقاً بالولاية.

(١٠) ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ﴾ أنتم والكفارُ. ﴿فِيهِ مِن شَىْءٍ﴾ من أمر من أمور الدنيا أو الدين. ﴿فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ مفوَّضٌ إليه يميزُ المحِقَّ من المبطِلِ بالنصر أو بالإثابة والمعاقَبةِ. وقيل وما اختلفتم فيه من تأويل متشابه فارجعوا فيه إلى المحكَم من كتاب الله. ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبِّى عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في مجامعِ الأمور. ﴿وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ إليه أرجع في المعضلاتِ.

(١١) ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خبرٌ آخرُ لذلكم أو مبتدأٌ خبره: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾ وقرىء بالجرِّ على البدلِ من الضمير أو الوصفِ لإلى الله. ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ من جنسِكم. ﴿أَزْوَٰجًا﴾ نساء. ﴿وَمِنَ ٱلْأَنْعَٰمِ أَزْوَٰجًا﴾ أي وخلق للأنعامِ من جنسها أزواجاً، أو خلق لكم من الأنعام أصنافاً أو ذكوراً وإناثاً. ﴿يَذْرَؤُكُمْ﴾ يكثِّركُم من الذَّرْءِ وهو البثُّ وفي معناه الذَّرُّ والذَّرْوُ، والضمير على الأول للناس والأنعامِ على تغليب المخاطَبين العقلاءِ. ﴿فِيهِ﴾ في هذا التدبيرِ، وهو جعْلُ الناسِ والأنعام أزواجاً يكون بينهم توالُدٌ فإنه كالمنبعَ للبثِّ والتكثير. ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ أي ليس مثلَه شيءٌ يزاوِجه ويناسبه، والمراد من مثله ذاتُه كما في قولهم: مثلُك لا يفعل كذا، على قصدِ المبالغة في نفيه عنه فإنه إذا نفي عمَّن يناسبه ويسدُّ مسدَّه كان نفيه عنه أولى، ونظيرهُ قول رقيقةَ بنتِ صيفي في سُقيا عبدِالمطلب: ألاَ وَفِيهِمُ الطَّيِّبُ الطَاهِرُ لِذَاتِهِ. ومَنْ قال الكافُ فيه زائدةٌ لعله عنى أنه يعطَى معنى ليس مثلَه غيرَ أنه آكدُ لما ذكرناه. وقيل مثلُه صفتُه أي ليس كصفته صفةٌ. ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ لكل ما يسمع ويبصرُ.

(١٢) ﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ خزائنُها. ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ يوسِّعُ ويضيق على وِفْقِ مشيئته. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ فيفعله على ما ينبغي.

(١٣) ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ﴾ أي شرع لكم من الدين دينَ نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام ومَنْ بينهما من أرباب الشرائع، وهو الأصل المشتركُ فيما . . . .

= الإدخال في الرحمة (س٨/ ٢٣).

بينهم[١]، المفسَّرُ بقوله: ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ﴾ وهو الإيمان بما يجب تصديقُه والطاعة في أحكام الله. ومحلُّه النصبُ على البدل من مفعول شرع، أوِ الرفعُ على الاستئنافِ كأنه جوابُ وما ذلك المشروعُ، أوِ الجرُّ على البدلِ من هاءِ به. ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ ولا تختلفوا في هذا الأصلِ أما فروعُ الشرائع فمختلفةٌ كما قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[٢] ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ عظمُ عليهم. ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ من التوحيد. ﴿ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ﴾ يجتلبُ إليه، والضميرُ لما تدعوهم أو للدين. ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ بالإرشاد والتوفيق. ﴿مَن يُنِيبُ﴾ يقبلُ إليه.

وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟﴾ يعني الأممَ السالفة. وقيل أهلُ الكتاب لقوله ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾[٣] ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ العلم بأنَّ التفرُّقَ ضلالٌ متوعَّدٌ عليه، أوِ العلمُ بمبعَثِ الرسلِ عليهم الصلاة والسلام، أو أسبابُ العلم من الرسل والكتبِ وغيرهما فلم يلتفتوا إليها. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً أو طلباً للدنيا. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ بالإمهال. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يومُ القيامة أو آخِرُ أعمارهم المقدَّرةِ. ﴿لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ باستئصال المبطلينَ حين اقترفوا لعظمِ ما اقترفوا. ﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ يعني أهلَ الكتاب الذين كانوا في عهد الرسول ﷺ، أوِ المشركينَ الذين أُورِثُوا القرآنَ من بعد أهل الكتاب. وقُرِىءَ ورثُوا وَوُرِّثُوا. ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ﴾ من كتابِهم لا يعلمونه كما هو أو لا يؤمنون به حقَّ الإيمانِ، أو من القرآن. ﴿مُرِيبٍ﴾ مقلِقٍ أو مدخِلٍ في الريبة.

(١٥) ﴿فَلِذَٰلِكَ﴾ فَلأَجْلِ ذلك التفرُّقِ أو الكتابِ، أو العلمِ الذي أُوتِيتَهُ. ﴿فَٱدْعُ﴾ إلى الاتفاقِ على الملَّةِ الحنيفيةِ أو الاتِّباعِ لما أُوتيتَ، وعلى هذا يجوزُ أن تكونَ اللام في موضعٍ إلى لإفادة الصلةِ

---

(١) خص الأنبياء المذكورين للتنبيه على علو شأنهم، ولاستمالة قلوب الكفرة إليه.
وإيثار الإيحاء «وأوحينا» على ما قبله «شرع...» وما بعده «وصينا» لما في الإيحاء من التصريح برسالته عليه الصلاة والسلام القامع لإنكار الكفرة.
والالتفات إلى نون العظمة «أوحينا...» لإظهار كمال الاعتناء بإيحائه، وهو السرّ في تقديمه على ما بعده مع تقدمه عليه زماناً.
وتقديم توصية نوح عليه السلام للمسارعة إلى بيان كون المشروع لهم ديناً قديماً.
وتوجيه الخطاب إليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ بطريق التلوين للتشريف والتنبيه على أنه تعالى شرعه لهم على لسانه عليه الصلاة والسلام (س٨/ ٢٥).

(٢) المائدة: «٤٨».

(٣) البينة: «٤».

والتعليل. ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ﴾ واستقمْ على الدعوةِ كما أمرك الله تعالى. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ الباطلةَ. ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ يعني جميعَ الكتبِ المنزَّلةِ لا كالكفار الذين آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض. ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ في تبليغ الشرائع والحكومات، والأولُ إشارةٌ إلى كمال القوة النظرية وهذا إشارةٌ إلى كمال القوة العملية. ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ خالقُ الكلِّ ومتولي أمرِه. ﴿لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ وكلٌّ مجازَى بعمله. ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ لا حِجاجَ بمعنى لا خصومةَ إذِ الحقُّ قد ظهرَ ولم يبقَ للمحاجَّةِ مجالٌ ولا للخلاف مبدأٌ سوى العناد. ﴿ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ يومَ القيامة. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ مرجعُ الكلِّ لفصلِ القضاءِ. وليس في الآية ما يدلُّ على متاركةِ الكفار رأساً حتى تكونَ منسوخةً بآية القتال.

وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
شَدِيدٌ ﴿١٦﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٧﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا
ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ ۗ أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى
ٱلسَّاعَةِ لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿١٨﴾ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ﴾ في دينه. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ﴾ من بعد ما استجابَ له الناسُ ودخلوا فيه، أو من بعد ما استجاب اللهُ لرسوله فأظهر دينَه بنصرهِ يومَ بدْرٍ، أو من بعد ما استجابَ له أهلُ الكتاب بأنْ أقرُّوا بنبوّته واستفتحُوا به. ﴿حُجَّتُهُمْ[1] دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ زائلةٌ باطلة. ﴿وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ﴾ لمعاندتهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ على كفرهم.

(١٧) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ جنسَ الكتاب. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بعيداً من الباطلِ، أو بما يحقُّ إنزالُه من العقائد والأحكام. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ والشرعَ الذي تُوْزَنُ به الحقوقُ ويسوِّي بين الناس، أوِ العدلَ بأنْ أنزلَ الأمرَ به، أو آلةَ الوزْنِ بأن أوحى بإعدادها. ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ إتيانُها فاتَّبِع الكتابَ واعملْ بالشرع وواظبْ على العدل قبل أنْ يفاجئَك اليومُ الذي تُوْزَنُ فيه أعمالُك وتوفَّى جزاءَك. وقيل تذكير القريبِ لأنه بمعنى ذاتِ قُرْبٍ، أو لأنَّ الساعةَ بمعنى البعثِ.

(١٨) ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ استهزاءً. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مُشْفِقُونَ مِنْهَا﴾ خائفون منها مع اغتيابها لتوقُّعِ الثواب. ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا ٱلْحَقُّ﴾ أي الكائنُ لا محالةَ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُمَارُونَ فِى ٱلسَّاعَةِ﴾ يجادلون فيها من المِرْيَةِ، أو من مريتُ الناقةَ إذا مسحتُ ضِرْعَها بشدةٍ للحلب لأنَّ كلاًّ من المتجادلِيْنَ يستخرجُ ما عندَ صاحبه بكلام فيه شِدَّةٌ. ﴿لَفِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الحقِّ فإنَّ البعثَ أشبهُ الغائباتِ إلى المحسوسات، فمن لم يهتدِ لتجويزه فهو أبعدُ عن الاهتداءِ إلى ما وراءَه.

(١٩) ﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ﴾ برٌّ بهم بصنوفٍ من البرِّ لا تبلغُها الأفهامُ. ﴿يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ﴾ أي يرزقه

(١) عبّر عن أباطيلهم بالحجة مجاراة معهم على زعمهم الباطل (س٨/٢٨).

كما يشاء فيخصُّ كلاً من عباده بنوعٍ من البرِّ على ما اقتضته حكمتُه. ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ﴾ الباهرُ القدرةِ. ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ المنيعُ الذي لا يُغلَبُ.

مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى
ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةُ
ٱلْفَصْلِ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا
كَسَبُوا۟ وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ ۗ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ ۖ لَهُم مَّا
يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٢﴾ ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۗ
قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٣﴾

(٢٠) ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْآخِرَةِ﴾ ثوابَها شبَّهه بالزرع من حيثُ إنهُ فائدةٌ تحصل بعملٍ ولذلك قيل: الدنيا مزرعةُ الآخرةِ، والحرثُ في الأصل إلقاء البذْر في الأرض ويُقَالُ للزرع الحاصلِ منه. ﴿نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ﴾ فنعطِه بالواحدِ عشراً إلى سبعمائة فما فوقَها. ﴿وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا﴾ شيئاً منها على ما قسمْنا له. ﴿وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ إذِ الأعمالُ بالنيات ولكل امرىءٍ ما نوى.

(٢١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟﴾ بل أَلَهُمْ شركاءُ، والهمزة للتقرير والتقريع، وشركاؤهم شياطينُهم. ﴿شَرَعُوا۟ لَهُم﴾ بالتزيين. ﴿مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ كالشرك وإنكار البعْثِ والعمل للدنيا. وقيل شركاؤهم أوثانُهم وإضافتُها إليهم لأنهم متَّخِذُوها شركاءَ، وإسناد الشرع إليها لأنها سببُ ضلالتِهم وافتتانهم بما تديَّنوا به، أو صورُ مَنْ سنَّه لهم. ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ أي القضاءِ السابق بتأجيل الجزاءِ، أو العِدَةُ بأنَّ الفصلَ يكون يومَ القيامة. ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾ بين الكافرين والمؤمنين، أو المشركين وشركائِهم. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقرىء أنَّ بالفتح عطفاً على كلمة الفصلِ أي ولولا كلمةُ الفصلِ وتقديرُ عذاب الظالمين في الآخرة لقُضِيَ بينهم في الدنيا، فإنَّ العذابَ الأليمَ غالبٌ في عذاب الآخرة.

(٢٢) ﴿تَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في القيامة. ﴿مُشْفِقِينَ﴾ خائفين. ﴿مِمَّا كَسَبُوا۟﴾ من السيئات. ﴿وَهُوَ وَاقِعٌۢ بِهِمْ﴾ أي وبالُه لاحقٌ بهم أشفقوا أو لم يُشْفِقُوا. ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى رَوْضَاتِ ٱلْجَنَّاتِ﴾ في أطيب بِقاعِها وأنزهِها. ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي ما يشتهونه ثابتٌ لهم عند ربِّهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى المؤمنين. ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ الذي يصغُر دونه ما لغيرهم في الدنيا.

(٢٣) ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ذلك الثوابُ الذي يبشِّرهم الله به فحذفَ الجارَّ ثم العائِدَ، أو ذلك التبشيرُ الذي يبشره اللهُ عبادَه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي يُبْشِر مِنْ بَشَرهُ وقُرِىءَ يُبْشِر من أَبشرهُ. ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ على ما أتعاطاه من التبليغ والبِشارة. ﴿أَجْرًا﴾ نفعاً منكم. ﴿إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ أي تودُّوني لقرابتي منكم. أو تودُّوا قرابتي، وقيل الاستثناء منقطعٌ والمعنى: لا أسألكم أجراً قطُّ، ولكني أسألكم المودةَ، وفي القربى حالٌ منها أي إلا المودةَ ثابتةً في ذوي القربى متمكِّنة في أهلها، أو في حقِّ القرابة ومن أجلها كما جاء في الحديث «الحبُّ في الله

والبغضُ في الله»[1]. رُوِيَ: أنَّها لما نزلت قيل يا رسولَ الله مَنْ قرابتُك هؤلاءِ الذين وجبتْ مودَّتُهم علينا؟ قال: «عليٌّ وفاطمةُ وإبناهما»[2]. وقيل القربى التقرُّبُ إلى الله أي إلا أنْ تَوَدُّوا الله ورسولَه في تقرُّبكم إليه بالطاعة والعملِ الصالح، وقرىء إلا مودةً في القربى. ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ ومن يكتسبْ طاعةً سيَّما حبُّ آلِ رسولِ الله ﷺ، وقيل نزلتْ في أبي بكر الصدِّيقِ رضي الله تعالى عنه ومودَّته لهم[3]. ﴿نَّزِدْ لَهُۥ فِيهَا حُسْنًا﴾ في الحسنة بمضاعفة الثواب، وقرىء يُزِدْ أي يزدِ اللهُ وحسنى. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾ لمن أذنبَ. ﴿شَكُورٌ﴾ لمن أطاع بتوفية الثوابِ والتفضُّلِ عليه بالزيادة.

أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۚ وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٦﴾ ۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾

(٢٤) ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بل أيقولون. ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ افترى محمدٌ بدعوى النبوةِ أو القرآن. ﴿فَإِن يَشَإِ ٱللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ استبعادٌ للافتراءِ عن مثله بالإشعارِ على أنه إنما يجترىءُ عليه من كان مختوماً على

---

(١) ذكره الديلمي في «الفردوس» رقم (٢٧٨٧) من حديث أنس. وعزاه إليه صاحب كنز العمال رقم (٢٤٦٨٨) بلفظ: «الحب في الله فريضة، والبغض في الله فريضة».
● وأخرج أبو داود (٥/ ٦٠ رقم ٤٦٨١) من حديث أبي أمامة. بلفظ: «من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان» وهو حديث صحيح.
● وأخرج الترمذي (٤/ ٦٧٠ رقم ٢٥٢١) وأحمد (٣/ ٤٣٨، ٤٤٠) من حديث معاذ بن أنس بلفظ: «من أعطى لله ومنع لله وأحب لله وأبغض لله وأنكح لله فقد استكمل الإيمان» قال الترمذي حديث حسن وهو كما قال.
● وأخرج أحمد (٥/ ١٤٦) من حديث أبي ذر، بلفظ: «إن أحب الأعمال: الحب في الله، والبغض في الله». وفيه رجل لم يسم.
● وأخرج أحمد (٤/ ٢٨٦) من حديث البراء، بلفظ: «أوسط عرى الإسلام الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٤ رقم ١٢٢٥٩).
وزاد السيوطي في الدر المنثور (٧/ ٣٤٨) نسبته إلى ابن المنذر، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وقال: بسند ضعيف.
وقال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٤٥ رقم ٣٥٠): «أخرجه: الطبراني، وابن أبي حاتم، والحاكم في مناقب الشافعي من رواية حسين الأشقر عن قيس بن الربيع عن الأعمش عن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وحسين ضعيف ساقط، وقد عارضه ما هو أولى منه.
ففي البخاري ـ (٦/ ٥٢٦ رقم ٣٤٩٧) و(٨/ ٥٦٤ رقم ٤٨١٨) ـ من رواية طاوس عن ابن عباس أنه سئل عن هذه الآية. فقال سعيد بن جبير قربي آل محمد ﷺ؟ فقال ابن عباس: عجلت، إن النبي ﷺ لم يكن بطن من قريش إلا كان له فيهم قرابة ـ الحديث) هـ.
والخلاصة أن الحديث ضعيف والله أعلم.

(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٣٣).

قلبه جاهلاً بربِّه، فأما من كان ذا بصيرةٍ ومعرفةٍ فلا وكأنه قال: إنْ يشأِ اللهُ خُذْلانَك يختمْ على قلبك لتجترئَ بالافتراءِ عليه. وقيل يختِمْ على قلبك يمسكِ القرآنَ أو الوحْيَ عنه، أو يربطْ عليه بالصبر فلا يشقُّ عليك أذاهُم. ﴿وَيَمْحُ ٱللَّهُ ٱلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ استئنافٌ لنفي الافتراءِ عما يقوله بأنه لو كان مُفْتَرى لمحَقَه إذ من عادتِه تعالى محوُ الباطلِ وإثباتُ الحقِّ بوحْيه أو بقضائِه، أو بوعْدِه بمحوِ باطلِهم وإثباتِ حقِّه بالقرآنِ، أو بقضائه الذي لا مردَّ له، وسقوطُ الواوِ من يمحُ في بعضِ المصاحفِ لاتباعِ اللفظ كما في قوله تعالى ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ﴾(١).

(٢٥) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ بالتجاوُزِ عما تابوا عنه، والقَبولُ يُعَدَّى إلى مفعول ثانٍ بِمِنْ وعنْ لتضمُّنه معنى الأخذِ والإبانةِ، وقد عرفتَ حقيقةَ التوبة. وعن عليٍّ رضي الله تعالى عنه هي اسمٌ يقع على ستة معانٍ: على الماضي من الذنوب الندامةُ، ولتضييع الفرائض الإعادةُ، وردُّ المظالم وإذابةُ النفس في الطاعة كما ربَّيتها في المعصية وإذاقتُها مرارةَ الطاعة كما أذقْتَها حلاوةَ المعصية، والبكاءُ بدل كلِّ ضحكٍ ضحكْته. ﴿وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ صغيرِها وكبيرِها لمن يشاء. ﴿وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ فيجازي ويتجاوز عن إتقان وحكمةٍ. وقرأ الكوفيون غيرُ أبي بكر ما تفعلون بالتاء.

(٢٦) ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ أي يستجيبُ اللهُ لهم فحذَف اللامَ كما حذف في ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ﴾(٢) والمرادُ إجابةُ الدعاء، أو الإثابةُ على الطاعة، فإنها كدعاء وطلبٍ لما يترتبُ عليها. ومنه قولُه عليه الصلاة والسلام «أفضلُ الدعاء الحمدُ لله»(٣)، أو يستجيبون لله بالطاعة إذا دعاهم إليها. ﴿وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ على ما سألُوا واستحقُّوا واستوجَبُوا له بالاستجابة. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ بدلَ ما للمؤمنين من الثوابِ والتفضُّل.

(٢٧) ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لتكبَّروا وأفسدوا فيها بطراً، أو لبغى بعضُهم على بعض، استيلاءً واستعلاء وهذا على الغالب، وأصلُ البغي طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يتحرّى كميَّةً أو كيفية. ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ﴾ بتقدير. ﴿مَّا يَشَآءُ﴾ كما اقتضتْه مشيئتُه. ﴿إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ خفايا أمرِهم وجلايا حالهم فيقدِّرُ لهم ما يناسب شأنَهم. رُوِيَ أنَّ أهلَ الصُّفَّةِ تمنَّوا الغنى فنزلتْ(٤). وقيل

---

(١) الإسراء: «١١».

(٢) المطففين: «٣».

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٤٦٢ رقم ٣٣٨٣) وابن ماجة (٢/ ١٢٤٩ رقم ٣٨٠٠) وابن حبان (ص٥٧٨ رقم ٢٣٢٦ ـ موارد) والحاكم (١/ ٤٩٨) من حديث جابر.
قال الترمذي: حديث حسن غريب.
وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقال الألباني: حديث حسن ـ صحيح الجامع (رقم: ١١٠٤).

(٤) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ٣٠) عن أبي هانىء قال: سمعت عمرو بن حريث وغيره يقولون. . . فذكره.
وزاد السيوطي في «الدر المنثور» (٧/ ٣٥٢) نسبته لابن المنذر وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، والطبراني، وابن مردويه، وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في شعب الإيمان بسند صحيح.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٤) وقال: «رواه الطبراني ورجاله رجال الصحيح».

في العرب كانوا إذا أخصبُوا تحاربوا وإذا أجدبوا انتجعُوا[١].

وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟ وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ ۚ وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٨﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٣١﴾ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ المطرَ الذي يغيثُهم من الجدْبِ ولذلك خُصَّ بالنافع، وقرأ نافع وابن عامر وعاصمٌ ينزِّلُ بالتشديد. ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ أَيِسُوا منه، وقرىء بكسر النون. ﴿وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُۥ﴾ في كل شيء من السهلِ والجبل والنبات والحيوانِ. ﴿وَهُوَ ٱلْوَلِىُّ﴾ الذي يتولَّى عباده بإحسانه ونشْرِ رحمته. ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ المستحقُّ للحمدِ على ذلك.

(٢٩) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنها بذاتها وصفاتها تدلُّ على وجود صانع قادرٍ حكيم. ﴿وَمَا بَثَّ فِيهِمَا﴾ عطفٌ على السموات أوِ الخلْقِ. ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ من حيٍّ على إطلاق اسم المسبَّب على السبب، أو مما يدبُّ على الأرض وما يكون في أحد الشيئين يصدُق أنَّه فيهما في الجملة. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَآءُ﴾ أي في أي وقت يشاءُ. ﴿قَدِيرٌ﴾ متمكِّنٌ منه وإذا كما تدخلُ على الماضي تدخلُ على المضارع.

(٣٠) ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ فبسببِ معاصيكم. والفاءُ لأنَّ ما شرطيةٌ أو متضمِّنةٌ معناهُ، ولم يذكرْها نافع وابنُ عامر استغناءً بما في الباء من معنى السببيةِ. ﴿وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ﴾ من الذنوب فلا يعاقِبُ عليها. والآيةُ مخصوصةٌ بالمجرمين، فإنَّ ما أصاب غيرَهُم فلأسبابٍ أُخَرَ منها تعريضُه للأجر العظيم بالصبر عليه.

(٣١) ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فائتين ما قضى عليكم من المصائب. ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ﴾ يحرِصُكم عنها. ﴿وَلَا نَصِيرٍ﴾ يدفعُها عنكم.

(٣٢) ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ﴾ السفنُ الجارية. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ كالجبال. قالتِ الخنساءُ:

وَإِنَّ صَخْـــراً لَتَــأْتَـــمُّ الهُـــدَاةُ بِـــهِ　　كَـــأَنَّـــهُ عَلَـــمٌ فـــي رَأْسِـــهِ نـــارُ

(٣٣) ﴿إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ﴾ وقرىء الرياحَ. ﴿فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ﴾ فيبقَيْنَ ثوابتَ على ظهْرِ البحر. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ لكلِّ مَنْ وكَّل همَّتَهُ وحبس نفسه على النظر في آيات الله والتفكُّرِ في آلائِه، أو لكلِّ مؤمن كاملِ الإيمان، فإنَّ الإيمانَ نصفانِ نصفٌ صبرٌ ونصف شكر.

---

(١) خرجوا في طلب الكلأ فشغلهم الجدب عن القتال.

﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٤﴾ وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٣٥﴾ فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾

(٣٤) ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ﴾ أو يهلكْهُنَّ بإرسال الريح العاصفة المغرِقةِ، والمراد إهلاكُ أهلِها لقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبُوا﴾ وأصلُه أو يرسلها فيوبقْهنَّ لأنه قسيمٌ يسكَّن فاقتصر فيه على المقصودِ كما في قوله تعالى: ﴿وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ إذ المعنى أو يرسلْها فيوبقْ ناساً بذنوبهم وينجِ ناساً على العفو منهم، وقرىء ويعفو على الاستئنافِ.

(٣٥) ﴿وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا﴾ عطفٌ على علَّةٍ مقدَّرة مثل لينتقمَ منهم ويعلمَ، أو على الجزاء، ونُصِبَ نَصْبَ الواقعِ جواباً للأشياء الستةِ لأنه أيضاً غيرُ واجب، وقرأ نافع وابن عامر بالرفع على الاستئنافِ، وقرىء بالجزمِ عطفاً على يعفُ فيكون المعنى ويجمعُ بينَ إهلاك قوم وإنجاءِ قوم وتحذيرِ آخرين. ﴿مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ﴾ محيدٍ من العذاب، والجملةُ معلَّقٌ عنها الفعلُ.

(٣٦) ﴿فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ تمتَّعون به مدَّة حياتِكم. ﴿وَمَا عِندَ اللَّهِ﴾ من ثواب الآخرة. ﴿خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لخلُوص نفعه ودوامِه. وما الأُولَى موصولةٌ تضمَّنت معنى الشرط من حيثُ إنَّ إيتاءَ ما أُوتوا سببٌ للتَّمتُّع بها في الحياة الدنيا فجاءتِ الفاء في جوابها بخلاف الثانية. وعن علي رضي الله تعالى عنه: تصدَّق أبو بكر رضي الله تعالى عنه بماله كلِّه فلامَه جَمْعٌ فنزلت[١].

(٣٧) ﴿وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ والذين بما بعدَه عطفٌ على للذين آمنوا، أو مدحٌ منصوبٌ أو مرفوع، وبناءُ يغفرون على ضميرِهم خبراً للدلالة على أنهم الأخِصَّاء بالمغفرة حالَ الغضبِ، وقرأ حمزة والكسائيُّ كبيرَ الإثم.

(٣٨) ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ نزلت في الأنصار دعاهم رسولُ الله ﷺ إلى الإيمان فاستجابوا له[٢]. ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ذو شورى بينَهم لا ينفردون برأيٍ حتى يتشاوروا ويجتمعوا عليه. وذلك من فَرْطِ تدبُّرهم وتيقُّظهم في الأمور، وهي مصدرٌ كالفُتْيَا بمعنى التَّشاوُر. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ في سبيل الله الخيرِ.

(٣٩) ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾ على ما جعلَه الله لهم كراهةَ التذلُّل، وهو وصفُهم بالشجاعة بعد وصْفِهم بسائر أمهاتِ الفضائلِ، وهو لا يخالِفُ وصْفَهم بالغُفرانِ، فإنه ينبىءُ عن عجزِ المغفورِ والانتصار عن مقاومةِ الخصْم، والحلمُ عن العاجِز محمودٌ وعن المتغلِّبِ مذمومٌ لأنه إجراءٌ وإغراء على البغي، ثم عقَّب وصْفَهم بالانتصار للمنْع عن التعدي.

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٤٥) بدون سند.

(٢) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٥/ ٤٦) بدون سند.

وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ
فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ
لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ
بَعْدِهِۦۗ وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ ﴿٤٤﴾ وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا
خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ
وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ
ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ ﴿٤٦﴾ ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ مَا
لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾

(٤٠) ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَاۖ﴾ وسمِّي الثانية سيئةً للازدواج، أو لأنها تسوءُ مَنْ تنزلُ به. ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ﴾ بينه وبين عدوه. ﴿فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ﴾ عِدَةٌ مبهمةٌ تدل على عِظَمِ الموعود. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ المبتدئين بالسيئةِ والمتجاوزين في الانتقام.

(٤١) ﴿وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ﴾ بعد ما ظُلِمَ، وقد قُرِئَ به. ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾ بالمعاتبة والمعاقبة.

(٤٢) ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾ يبتدئونهم بالإضرارِ ويطلبون ما لا يستحقُّونه تجبُّراً عليهم. ﴿وَيَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ على ظلمهم وبغيهم.

(٤٣) ﴿وَلَمَن صَبَرَ﴾ على الأذى. ﴿وَغَفَرَ﴾ ولم ينتصرْ. ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ أي إنَّ ذلك منه فحذفَ كما حذف في قولهم: السمنُ مَنوانِ بدرهمٍ، للعلم به.

(٤٤) ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن وَلِىٍّ مِّنۢ بَعْدِهِۦۗ﴾ من ناصرٍ يتولاه من بعدِ خُذْلانِ اللهِ إياهُ. ﴿وَتَرَى ٱلظَّٰلِمِينَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ﴾ حين يرونه فذُكِرَ بلفظ الماضي تحقيقاً. ﴿يَقُولُونَ هَلْ إِلَىٰ مَرَدٍّ مِّن سَبِيلٍ﴾ هل إلى رجعة إلى الدنيا.

(٤٥) ﴿وَتَرَىٰهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾ على النار، ويدل عليه العذابُ. ﴿خَٰشِعِينَ مِنَ ٱلذُّلِّ﴾ متذلِّلين متقاصرينَ مما يلحقُهم من الذلِّ. ﴿يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِىٍّۗ﴾ أي يبتدىء نظرُهم إلى النار من تحريكٍ لأجفانهم ضعيفٍ كالمصبور[1] ينظرُ إلى السيف. ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾ بالتعريض للعذاب المخلَّد. ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ﴾ ظرفٌ لخسروا والقولُ في الدنيا، أو لِقَالَ أي يقولون إذا رأوهم على تلك الحالِ. ﴿أَلَآ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ فِى عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ تمامُ كلامهم أو تصديقٌ من الله لهم.

(٤٦) ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن سَبِيلٍ﴾ إلى الهدى أو النجاة.

(٤٧) ﴿ٱسْتَجِيبُواْ لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يردُّه الله بعد ما حكم به ومِنَ صلةٌ

---

(١) الموقوف ليضرب عنقه.

لِمَرَدِّ. وقيل صلةُ يأتي أي من قبل أنْ يأتيَ يومٌ من الله لا يمكنُ ردُّه. ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ﴾ مفرٌّ. ﴿يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ إنكارٌ لما اقترفتموه لأنه مدوَّنٌ في صحائفِ أعمالكم تشهدُ عليه ألسنتُكم وجوارِحُكم.

فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا
وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ ﴿٤٨﴾ لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ
مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ
عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا
فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴿٥١﴾

(٤٨) ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ رقيباً أو محاسباً. ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ وقد بلَّغتَ. ﴿وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا الْإِنسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَرِحَ بِهَا﴾ أراد بالإنسان الجنسَ لقوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ بليغُ الكفرانِ ينسىٰ النعمةَ رأساً ويذكرُ البليةَ ويعظِّمها ولا يتأملُ سَبَبَها، وهذا وإنِ اختصَّ بالمجرمين جازَ إسنادُه إلى الجنسِ لِغَلَبَتِهم واندراجِهم فيه. وتصديرُ الشرطية الأولى بإذا والثانيةِ بإن لأنَّ إذاقةَ النعمةِ محقَّقة من حيثُ إنها عادةٌ مقتضاةٌ بالذات بخلافِ إصابة البليةِ، وإقامةُ علَّةِ الجزاءِ مقامَه ووضعُ الظاهر موضِعَ المضمَرِ في الثانية للدلالةِ على أن هذا الجنسَ موسومٌ بكُفْران النعمة.

(٤٩) ﴿لِّلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ فله أنْ يقسِّم النعمةَ والبليةَ كيف يشاء. ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ من غير لزومٍ ومجالِ اعتراض. ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَن يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾.

(٥٠) ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَن يَشَاءُ عَقِيمًا﴾ بدلٌ مِنْ يخلقُ بدلُ البعضِ، والمعنى يجعلُ أحوالَ العباد في الأولاد مختلفةً على مقتضى المشيئةِ فيهَبُ لبعضٍ إما صنفاً واحداً من ذكرٍ أو أنثى أو الصنفينِ جميعاً ويعقمُ آخرِينَ. ولعلَّ تقديمَ الإناثِ لأنها أكثرُ لتكثيرِ النَّسل، أو لأنَّ مساقَ الآية للدلالة على أنَّ الواقعَ ما يتعلَّق به مشيئةُ الله لا مشيئةُ الإنسان والإناثُ كذلك، أو لأنَّ الكلامَ في البلاءِ والعربُ تعدُّهن بلاءً، أو لتطييب قلوب آبائهِنَّ، أو للمحافظة على الفواصلِ ولذلك عرَّف الذكورَ، أو لِجَبْرِ التأخير. وتغييرُ العاطفِ في الثلثِ لأنه قسيمُ المشترك بين القسمينِ، ولم يَحتجْ إليه الرابعُ لإفصاحه بأنه قسيمُ المشترك بين الأقسام المتقدمة. ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾ فيفعلُ ما يفعل بحكمةٍ واختيار.

(٥١) ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ وما صحَّ له. ﴿أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا﴾ كلاماً خفياً يُدْرَكُ لأنه بسرعةٍ تمثيلٍ ليس في ذاته مركَّباً من حروفٍ مقطعة تتوقَّفُ على تموُّجات متعاقِبةٍ. وهو ما يعمُّ المشافهةَ به كما رُوِيَ في حديث المعراجِ، وما وعد به في حديث الرؤية، والمهتفَ به كما اتفقَ لموسى في طُوًى والطورِ، ولكنَّ عطْفَ قوله: ﴿أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ عليه يخصُّه بالأولِ فالآية دليلٌ على جواز الرؤية لا على امتناعِها. وقيل المرادُ به الإلهامُ والإلقاء في الروعِ، أو الوحيُ المنزَّلِ به الملكُ إلى الرسلِ فيكون

المرادُ بقوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِىَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ أو يرسلَ إليه نبياًفيبلِّغُ وحْيَهُ كما أمره، وعلى الأولِ المرادُ بالرسول الملكُ الموحي إلى الرسلِ، ووحياً بما عُطِفَ عليه منتصِبٌ بالمصدرِ لأنَّ مِنْ وراء حجاب صفةُ كلامٍ محذوفٍ، والإرسالُ نوعٌ من الكلام، ويجوزُ أن يكونَ وحياً ويرسلَ مصْدَرينِ ومن وراء حجاب ظرفاً وقعتْ أحوالاً. وقرأ نافعٌ أو يرسلُ برفعِ اللام. ﴿إِنَّهُۥ عَلِىٌّ﴾ عن صفات المخلوقين. ﴿حَكِيمٌ﴾ يفعل ما تقتضيه حكمتُه فيكلِّم تارةً بِوُسُطٍ، وتارةً بغير وسطٍ إما عياناً وإما من وراء حجاب.

وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾

(٥٢) ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ يعني ما أوحى إليه، وسمَّاه روحاً لأن القلوبَ تحيا به، وقيل جبريلُ والمعنى أرسلْناه إليك بالوحي. ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ﴾ أي قبلَ الوحي، وهو دليلٌ على أنه لم يكنْ متعبِّداً قبل النبوة بشرع. وقيل المرادُ هو الإيمان بما لا طريقَ إليه إلا السمعُ. ﴿وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ﴾ أي الروحَ أوِ الكتابَ أو الإيمانَ. ﴿نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ بالتوفيقِ للقبول والنظرِ فيه. ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ هو الإسلام، وقُرِىءَ لتُهْدَى أي ليهديك اللهُ.

(٥٣) ﴿صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من الأول. ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ خلْقاً ومُلْكاً. ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ بارتفاع الوسائطِ والتعلُّقاتِ، وفيه وعْدٌ ووعيدٌ للمطيعين والمجرمينَ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم عسق كان ممَّنْ تصلِّي عليه الملائكةُ ويستغفرون له ويسترحمونَ له»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه بإسنادهما إلى أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٦ رقم ٣٦٥) ـ. وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الزُّخْرُفِ

ترتيبها ٤٣ آياتها ٨٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٣﴾ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ
لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥﴾ وَكَمْ
أَرْسَلْنَا مِن نَّبِىٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦﴾ وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِىٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٧﴾ فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا
وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ
ٱلْعَلِيمُ ﴿٩﴾

سورة الزخرف مكيةٌ[١]

وقيل إلا قولَه: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[٢] وآيُها تسعٌ وثمانون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾

(٣) ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ أقسمَ بالقرآن على أنه جعلَه قرآناً عربياً، وهو من البدائع لتناسُبِ القسَمِ والمقسَمِ عليه، كقول أبي تمام: وَثَنَايَاكَ أَنَّهَا أَغْرِيضُ. ولعلَّ إقسامَ الله بالأشياء استشهادٌ بما فيها من الدلالة على المقسَمِ عليه، وبالقرآنِ من حيثُ إنه معجزٌ مبينٌ لطرقِ الهدى وما يُحتَاجُ إليه في الديانة، أو بيَّنَ للعرب ما يدل على أنه تعالى صيَّره كذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ لكي تفهموا معانيه.

(٤) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ عطفٌ على إنا، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالكسرِ على الاستئنافِ. ﴿فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ في

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٧/ ٣٠١): «وهي مكية بإجماعهم. وقال مقاتل: هي مكية إلاَّ آيةً وهي قوله: «واسأل من أرسلنا» [الزخرف: ٤٥].

(٢) الزخرف: «٤٥».

اللوح المحفوظِ فإنه أصلُ الكتبِ السماوية، وقرىء إِمِّ الكتاب بالكسر. ﴿لَدَيْنَا﴾ محفوظاً عندنا عن التغيير. ﴿لَعَلِيٌّ﴾ رفيعُ الشأنِ في الكتب لكونه معجِزاً من بينها. ﴿حَكِيمٌ﴾ ذو حكمة بالغةٍ، أو محكمٌ لا ينسخُه غيرهُ. وهما خبرانِ لإنَّ وفي «أم الكتاب» متعلِّق بعليٍّ واللامُ لا تمنعُه، أو حالٌ منه ولدينا بدلٌ منه أو حالٌ من أمِّ الكتاب.

(٥) ﴿أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ ٱلذِّكْرَ صَفْحًا﴾ أفنذوده ونبعدُه عنكم مجازٌ من قولهم: ضربَ الغرائب عن الحوض، قال طرفةُ[1]:

اضْـرِبْ عَنْـكَ الهُمُـومَ طَـارِقَهَـا ضَـرْبَـكَ بِـالسَّيْـفِ قَـوْنَـس الفَـرَسِ

والفاءُ للعطف على محذوفٍ أي أنهملُكم فنضربُ عنكم الذِّكرَ، وصفْحاً مصدرٌ من غير لفظِه فإنَّ تنحيةَ الذِّكرِ عنهم إعراضٌ أو مفعولٌ له أو حالٌ بمعنى صافحين، وأصلُه أنْ تُوليَ الشيءَ صفحةَ عُنُقِكَ. وقيل إنه بمعنى الجانبِ فيكون ظرفاً ويؤيدُه أنه قرىء صُفْحاً بالضمِّ، وحينئذ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ تخفيفُ صفُحٍ جمعَ صفوحٍ بمعنى صافحين، والمرادُ إنكارُ أنْ يكون الأمرُ على خلافِ ما ذكر من إنزال الكتاب على لغتهم ليفهموه. ﴿أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ﴾ أي لأنْ كنتم، وهو في الحقيقة علةٌ مقتضية لتركِ الإعراضِ عنهم، وقرأ نافع وحمزةُ والكسائي إنْ بالكسرِ على أنَّ الجملةَ شرطيةٌ مخرِجةٌ للمحقَّقِ مخرجَ المشكوكِ استجْهالاً لهم، وما قبلَها دليلُ الجزاءِ.

(٦) ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيٍّ فِى ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٧) ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ عن استهزاء قومِه.

(٨) ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي من القوم المسرفين لأنه صرفَ الخطابَ عنهم إلى الرسول مخبِراً عنهم. ﴿وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وسلفَ في القرآن قصتُهم العجيبةُ، وفيه وعدٌ للرسول ووعيدٌ لهم بمثل ما جرى على الأولينَ.

(٩) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ لعلَّه لازمَ مقولَهم أو ما دلَّ عليه إجمالاً أُقيمَ مقامَه تقريراً لإلزامِ الحجَّةِ عليهم، فكأنهم قالوا الله كما حُكِيَ عنهم في مواضعَ أخرَ وهو الذي من صفته ما سردَ من الصفاتِ، ويجوز أن يكونَ مقولُهم وما بعدَه استئنافاً.

---

(١) طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد، البكري الوائلي، أبو عمرو. شاعر، جاهلي، من الطبقة الأولى. ولد في بادية البحرين نحو (٨٦ ـ ٦٠ ق هـ = ٥٣٨ ـ ٥٦٤م) وتنقل في بقاع نجد. واتصل بالملك عمرو بن هند فجعله في ندمائه.
ثم أرسله بكتاب إلى المكعبر (عامله على البحرين وعمان) يأمره فيه بقتله، لأبيات بلغ الملك أن طرفة هجاه بها، فقتله المكعبر، شاباً، في (هَجَر) قيل: ابن عشرين عاماً، وقيل ابن ست وعشرين، أشهر شعره معلقته، ومطلعها:
(لخولة أطلال ببرقة ثهمد)
وقد شرحها كثيرون من العلماء. وجمع المحفوظ من شعره في «ديوان» مطبوع.
[الأعلام للزركلي (٣/ ٢٢٥)].

ﵟالَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ
السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ١١ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ
الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ١٢ لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ١٣ وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ ١٤ﵞ

(١٠) ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ فتستقرُّون فيها وقرأ غيرُ الكوفيونَ مهاداً بالألفِ.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ تسلكونَها. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ لكي تهتدوا إلى مقاصدِكم، أو إلى حكمةِ الصانعِ بالنظرِ في ذلك.

(١١) ﴿وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بمقدارٍ ينفع ولا يضرُّ. ﴿فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا﴾ مالَ عنه النماءُ، وتذكيرهُ لأنَّ البلدةَ بمعنى البلدِ والمكانِ[1]. ﴿كَذَلِكَ﴾ مثلُ ذلك الإنشارِ. ﴿تُخْرَجُونَ﴾ تُنشَرون من قبورِكم، وقرأ ابن عامرٍ وحمزة والكسائيُّ تَخرُجون بفتح التاءِ وضمِّ الراء.

(١٢) ﴿وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾ أصنافَ المخلوقاتِ. ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ﴾ ما تركبونه على تغليب المتعدِّي بنفسه على المتعدِّي بغيرِه إذْ يُقالُ: ركبتُ الدابةَ وركبتُ في السفينة، أو المخلوقَ للركوبِ على المصنوعِ له أو الغالبَ على النادرِ ولذلك قال:

(١٣) ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ﴾ أي ظهورِ ما تركبونَ، وجمعَه للمعنى. ﴿ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾ تذكُروها بقلوبكم معترفينَ بها حامدينَ عليها. ﴿وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ﴾ مطيقينَ مِنْ أقْرَنَ الشيءَ إذا أطاقه، وأصلُه وجدَه قرينتَه إذِ الصعبُ لا يكون قرينةَ الضعيفِ. وقرىء بالتشديد والمعنى واحدٌ. وعنه عليه الصلاة والسلام أنه كان إذا وضعَ رجلَه في الرِّكابِ قال: «بسم اللهِ» فإذا استوى على الدابةِ قال: «الحمدُ لله على كلِّ حال سبحانَ الذي سخَّر لنا هذا»[2] إلى قوله:

(١٤) ﴿وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾ أي راجعون، واتصالُه بذلك لأن الركوبَ للتنقُّل، والنقلةُ العظمى هو

(١) والالتفات إلى نون العظمة لإظهار كمال العناية بأمر الإحياء والإشعار بعظم خطره (س٨/٤١).

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه أبو داود (٣/٧٧ رقم ٢٦٠٢) والترمذي (٥/٥٨ رقم ٣٤٤٦) والنسائي كما في تحفة الأشراف (٧/٤٣٦ رقم ١٠٢٤٨) وابن حبان (ص٥٩١ رقم ٢٣٨٠ و٢٣٨١) والحاكم (٢/٩١ - ٩٢) وأحمد (١/٩٧، ١٢٨) والطيالسي في المسند (ص٢٠ رقم ١٣٢).
كلهم من طريق أبي الأحوص عن أبي إسحاق عن علي بن ربيعة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وأبو الأحوص فقد أخرج الشيخان من طريقه عن أبي إسحاق. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الشيخ أحمد شاكر في المسند (رقم: ٧٥٣).
إسناده صحيح.
وصححه الألباني في صحيح أبي داود.

الانقلابُ إلى الله تعالى، أو لأنه مخطرٌ فينبغي للراكبِ أنْ لا يغفلَ عنه ويستعدَّ لِلقاءِ الله تعالى.

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ وَيُسْأَلُونَ ﴿١٩﴾

(١٥) ﴿وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جُزْءًا﴾ متصلٌ بقوله ﴿ولئن سألتهم﴾ أي وقد جعلُوا له بعد ذلك الاعترافِ من عباده ولداً فقالوا الملائكةُ بناتُ الله، ولعله سمَّاه جزأً كما سُمِّي بعضاً لأنه بِضْعَةٌ من الوالدِ دلالةً على استحالتهِ على الواحدِ الحقِّ في ذاته، وقرأ أبو بكر جُزُأً بضمتينِ. ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ﴾ ظاهرُ الكفرانِ ومن ذلك نسبةُ الولدِ إلى اللهِ لأنها من فَرْطِ الجهلِ به والتحقيرِ لشأنه.

(١٦) ﴿أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَاكُمْ بِالْبَنِينَ﴾ معنى الهمزةِ في أمْ للإنكارِ والتعجُّب من شأنهم حيثُ لم يقنعوا بأنْ جعلُوا له جزءاً حتى جعلُوا له من مخلوقاته أجزاءَ أخسَّ مما اختِيْرَ لهم وأبغضَ الأشياءِ إليهم، بحيثُ إذا بُشِّرَ أحدُهم بها اشتدَّ غمُّه به كما قال.

(١٧) ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا﴾ بالجنس الذي جعلَه له مثلاً إذ الولدُ لا بدَّ وأنْ يماثِلَ الوالدَ[١]. ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا﴾ صار وجهُه أسودَ في الغايةِ لما يعتريه من الكآبةِ. ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾ مملوءٌ قلبُه من الكرب، وفي ذلك دلالاتٌ على فساد ما قالوه، وتعريفُ البنينَ بما مرَّ في الذكور[٢]، وقُرِىءَ مسودٌ ومسوَادٌّ على أنَّ في ظلَّ ضميرَ المبشَّرِ ووجهه مسودٌ جملةٌ وقعتْ خبراً.

(١٨) ﴿أَوَمَنْ يُنَشَّأُ فِي الْحِلْيَةِ﴾ أي أو جعلوا له، أوِ اتخذَ مَنْ يتربَّى في الزينة يعني البناتِ. ﴿وَهُوَ فِي الْخِصَامِ﴾ في المجادلة. ﴿غَيْرُ مُبِينٍ﴾ مقرِّر لما يدَّعيه من نقصانِ العقل وضعفِ الرأي، ويجوزُ أنْ يكون مَنْ مبتدأ محذوفَ الخبرِ أي أو من هذا حالةُ ولده. وفي الخصام متعلِّق بمبينٍ، وإضافةُ غيرِ إليه لا يمنعُه لما عرفْتَ. وقرأ حمزة والكسائي وحفصٌ يُنَشَّأُ أي يُرَبَّى. وقرىء يُنْشَأُ ويُناشَأُ بمعناه ونظيرُ ذلك أعلاهُ وعُلاه وعالاهُ بمعنًى.

(١٩) ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَٰنِ إِنَاثًا﴾ كفرٌ آخرُ تضمَّنه مقالُهم شنَّع به عليهم، وهو جعلُهم أكملَ العبادِ وأكرمَهُم على الله تعالى أنقصَهم رأياً وأخسَّهم صِنفاً. وقرىء عبيدُ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ عندَ على تمثيلِ زُلْفَاهم. وقرىء أُنُثَاو وهو جمعُ الجمعِ. ﴿أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ﴾ أَحَضَروا خلْقَ الله إياهم فشاهدوهم إناثاً، فإنَّ ذلك مما يُعْلَمُ بالمشاهدة وهو تجهيلٌ وتهكُّمٌ به. وقرأ نافع أأُشْهِدوا بهمزةِ الاستفهام وهمزةٍ مضمومةٍ بينَ بينَ، وآأشهدُوا بمدَّةٍ بينَهما. ﴿سَتُكْتَبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ التي شهدوا بها على الملائكة. ﴿وَيُسْأَلُونَ﴾ أي عنها يومَ القيامة، وهو وعيدٌ شديد. وقرىء

(١) والالتفات إلى الغيبة للإيذان باقتضاء ذكر قبائحهم أن يعرض عنهم وتحكىٰ لغيرهم تعجيباً منها (س٨/ ٤٢).
(٢) مر في سورة الشورى آية (٤٩ ـ ٥٠).

سيُكْتَب وسنَكتُب بالياءِ والنونِ، وشهاداتِهم وهي أنَّ لله جزءٌ أو أنَّ له بناتٍ وهنَّ الملائكةُ، ويُساءَلُون مِنَ المساءلةِ.

وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن
قَبْلِهِۦ فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ ﴿٢١﴾ بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾
وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم
مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ ۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾
فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا
تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُم ۗ﴾ أي لو شاء عدمَ عبادة الملائكة ما عبدْناهم فاستدلُّوا بنفي مشيئتِه عدمَ العبادةِ على امتناع النهي عنها أو على حُسْنِها، وذلك باطلٌ لأن المشيئة ترجِّح بعضَ الممكناتِ على بعض مأموراً كان أو منهياً حسناً كان أو غيرَه، ولذلك جهَّلَهُم فقال: ﴿مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ يتمحَّلون تمحُّلاً باطلاً، ويجوز أنْ تكونَ الإشارةُ إلى أصل الدعوى كأنه لما أبدَى وجوهَ فسادها وحكى شبهتَهم المزيَّفةَ نَفَى أن يكون لهم بها علمٌ من طريق العقل، ثم أضربَ عنه إلى إنكار أنْ يكون لهم سندٌ من جهة النقل فقال:

(٢١) ﴿أَمْ ءَاتَيْنَٰهُمْ كِتَٰبًا مِّن قَبْلِهِۦ﴾ من قبلِ القرآن أو ادِّعائهم ينطقُ على صحةِ ما قالوه. ﴿فَهُم بِهِۦ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ بذلك الكتابِ متمسِّكون.

(٢٢) ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ﴾ أي لا حجَّةَ لهم على ذلك عقليةً ولا نقليةً، وإنما جنحُوا فيه إلى تقليد آبائهم الجهالةَ، والأمةُ الطريقةُ التي تُؤَمُّ كالراحلة للمرحولِ إليه، وقُرِئَتْ بالكسرِ وهي الحالة التي يكون عليها الآمُّ أي القاصدُ ومنها الدِّيْنُ.

(٢٣) ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ ودلالة على أنَّ التقليد في نحو ذلك ضلالٌ قديم، وأنَّ مقدَّميهم أيضاً لم يكن لهم سندٌ منظور إليه، وتخصيصُ المترفين إشعارٌ بأنَّ التنعُّمَ وحبَّ البطَالةِ صرفَهم عن النظر إلى التقليد.

(٢٤) ﴿۞ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ﴾ أي أتتبعون آباءَكم ولو جئتكم بدينٍ أهدَى من دين آبائِكم، وهي حكايةُ أمرٍ ماضٍ أوحي إلى النذير، أو خطابٌ لرسول الله ﷺ، ويؤيد الأولَ أنه قرأ ابنُ عامر وحفص قالَ، وقولُه: ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي وإن كان أهدَى إقناطاً للنذير من أنْ ينظروا أو يتفكَّروا فيه.

(٢٥) ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ﴾ بالاستئصالِ. ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ ولا تكترثْ بتكذيبهم.

(٢٦) ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ﴾ واذكُرْ وقْتَ قوله هذا ليروا كيفَ تبرَّأ عن التقليد وتمسَّكَ بالدليل، أو ليقلِّدوه إن لم يكنْ لهم بُدٌّ من التقليد فإنه أشرف آبائِهم. ﴿لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾ بريءٌ من

عبادتكم أو معبودِكم، مصدرٌ نُعِتَ به ولذلك استوى فيه الواحدُ والمتعدِّد والمذكَّر والمؤنَّث، وقرىء بريءٌ وبَرَاءٌ ككريم وكِرَام.

﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٢٩﴾ وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ استثناء منقطعٌ أو متصل على أنَّ ما يعمُّ أولي العلمِ وغيرهم، وأنهم كانوا يعبدون اللهَ والأصنامَ والأوثانَ، أو صفةٌ على أنَّ ما موصوفةٌ أي إنني بريءٌ من آلهةٍ تعبدونها غيرَ الذي فطرني. ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ سيثبِّتُني على الهداية، أو سيهديني إلى ما وراءَ ما هداني إليه.

(٢٨) ﴿وَجَعَلَهَا﴾ وجعل إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام أو اللهُ كلمةَ التوحيد. ﴿كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ في ذريته فيكون فيهم أبداً من يوحِّدُ اللهَ ويدعو إلى توحيده. وقرىء كلْمةً وفي عقْبهِ على التخفيف، وفي عاقِبِه أي فيمنْ عَقَبَهُ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يرجع من أشرك بدعاءِ مَنْ وحَّد.

(٢٩) ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ﴾ هؤلاء المعاصرين للرسولِ ﷺ من قريش وآباءَهم بالمدِّ في العمُرِ والنعمةِ، فاغتروا لذلك وانهمكوا في الشهواتِ. وقرىء متَّعْتَ بالفتح على أنه تعالى اعترضَ به على ذاتِه في قوله ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً﴾ مبالغةً في تعييرهم. ﴿حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ دعوةُ التوحيد أو القرآن. ﴿وَرَسُولٌ مُّبِينٌ﴾ ظاهرُ الرسالة بما له من المعجزات، أو مبينٌ للتوحيد بالحججِ والآياتِ.

(٣٠) ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ﴾ لينبِّهَهُم عن غفلَتِهم ﴿قَالُواْ هَٰذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ زادوا شرارةً فضمُّوا إلى شِرْكِهم معاندةَ الحقِّ والاستخفافَ به، فسمُّوا القرآنَ سحراً وكفروا به واستحقروا الرسولَ.

(٣١) ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ﴾ من إحدى القريتينِ مكَّةَ والطائفِ. ﴿عَظِيمٍ﴾ بالجاهِ والمال كالوليد بنِ المغيرة وعروةَ بنِ مسعود الثقفي، فإنَّ الرسالةَ منصِبٌ عظيم لا يليق إلا بعظيمٍ، ولم يعلموا أنها رتبةٌ روحانيةٌ تستدعي عِظَمَ النفس بالتحلي بالفضائل والكمالاتِ القدسيَّة، لا التزخرفِ بالزخارفِ الدنيوية.

(٣٢) ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ إنكارٌ فيه تجهيلٌ وتعجيب من تحكُّمِهم، والمرادُ بالرحمة النبوةُ. ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وهم عاجزون عن تدبيرها وهي خُوَيْصَةُ أمرهم في دنياهم، فَمِنْ أين لهم أنْ يدَبِّروا أمرَ النبوةِ التي هي أعلى المراتب الأنسيةِ، وإطلاقُ المعيشة يقتضي أنْ يكون حلالُها وحرامُها من الله. ﴿وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ وأوقعْنا بينَهم التفاوُتَ في الرزق وغيرِه. ﴿لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ ليستعملَ بعضُهم بعضاً في حوائجِهم فيحصلَ بينَهم تآلفٌ وتضامٌّ ينتظم بذلك نظامُ العالَم، لا لكمالٍ في الموسَعِ ولا لنقصٍ في المقتَرِ، ثم إنه لا اعتراضَ لهم علينا في ذلك ولا تصرُّفَ

فكيف يكون فيما هو أعلى منه. ﴿وَرَحْمَتُ رَبِّكَ﴾ يعني هذه النبوةَ وما يتبعُها. ﴿خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ من حطام الدنيا، والعظيمُ مَنْ رُزِقَ منها لا منْهُ.

وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ ﴿٣٤﴾ وَزُخْرُفًا وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٧﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ ﴿٣٨﴾

(٣٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ لولا أنْ يرغَبوا في الكفْرِ إذا رأَوا الكفارَ في سَعَةٍ وتنعُّم لحبِّهم الدنيا فيجتمعوا عليه. ﴿لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ﴾ ومصاعِدُ جمعُ معراجٍ، وقرىء ومعاريجَ جمعُ معراج. ﴿عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ يعلُونَ السطوحَ لحقارةِ الدنيا، ولبيوتهم بدلٌ مِنْ لِمَنْ بدلَ الاشتمالِ أو على كقولكَ: وهبتُ له ثوباً لقميصِه. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وسَقْفاً اكتفاءً بجمعِ البيوتِ، وقرىء سُقْفاً بالتخفيف، وسُقُوفاً وسَقَفاً وهي لغةٌ في سَقْف.

(٣٤) ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَٰبًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ أي أبواباً وسرُراً من فضَّة.

(٣٥) ﴿وَزُخْرُفًا﴾ وزينةً عطفٌ على سقفاً أو ذهباً عطفٌ على محلِّ من فضة ﴿وَإِن كُلُّ ذَٰلِكَ لَمَّا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ إنْ هي المخففةُ واللامُ هي الفارقةُ. وقرأ عاصم وحمزة وهشامٌ بخلافٍ عنه لمّا بالتشديد بمعنَى إلاَّ وإنْ نافيةٌ، وقرىء به مع إنْ وما ﴿وَٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ عن الكفر والمعاصي، وفيه دلالةٌ على أنَّ العظيمَ هو العظيمُ في الآخرة لا في الدنيا، وإشعارٌ بما لأجله لم يجعلْ ذلك للمؤمنين حتى يجتمعَ الناسُ على الإيمان، وهو أنه تمتُّع قليلٌ بالإضافة إلى ما لهم في الآخرة مخلٌّ به في الأغلب لما فيه من الآفات قلَّ مَنْ يتخلص عنها كما أشار إليه بقوله:

(٣٦) ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يتعامَ ويعرِضُ عنه لفرطِ اشتغاله بالمحسوسات وانهماكِه في الشهوات، وقُرِىءَ يعشَ بالفتح أي يَعْمَ يقالُ عشَىٰ إذا كان في بصره آفةٌ وعشيَ إذا تعشَّى بلا آفةٍ كعَرِجَ وعَرُجَ، وقرىء يعشُو على أنَّ مَنْ موصولةٌ[1]. ﴿نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ يوسوسُه ويغويه دائماً، وقرأ يعقوب بالياء على إسناده إلى ضمير الرحمنِ، ومَنْ رفعَ يعشو ينبغي أنْ يرفعَ نقيضُ.

(٣٧) ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ عن الطريق الذي من حقِّه أنْ يُسْبَلَ، وجمعَ الضميرين للمعني إذِ المرادُ جنسُ العاشي والشيطانِ المقيِّض له. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الضمائرُ الثلاثة الأُوَلُ له والباقيانِ للشيطان.

(٣٨) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَنَا﴾ أي العاشي، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر وأبو بكر جاآنا أي العاشي

(١) إضافة الذكر إلى اسم الرحمن للإيذان بنزوله رحمة للعالمين (س٨/٤٧).

والشيطانُ. ﴿قَالَ﴾ أي العاشي للشيطان. ﴿يَٰلَيۡتَ بَيۡنِي وَبَيۡنَكَ بُعۡدَ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ﴾ بُعْدَ المشرق من المغرب، فغلَّب المشرقَ وثنّى وأُضِيفَ البعدُ إليهما. ﴿فَبِئۡسَ ٱلۡقَرِينُ﴾ أنتَ.

وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ إِذ ظَّلَمۡتُمۡ أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ ﴿٣٩﴾ أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ
وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٤٠﴾ فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ ﴿٤١﴾ أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ فَإِنَّا
عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ ﴿٤٢﴾ فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ وَلِقَوۡمِكَۖ
وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ ﴿٤٤﴾ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴿٤٥﴾
وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٦﴾

(٣٩) ﴿وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ أي ما أنتم عليه من التمنّي. ﴿إِذ ظَّلَمۡتُمۡ﴾ إذ صحَّ أنكم ظلمتُم أنفسَكم في الدنيا بدلٌ من اليوم. ﴿أَنَّكُمۡ فِي ٱلۡعَذَابِ مُشۡتَرِكُونَ﴾ لأنَّ حقَّكم أن تشتركوا أنتم وشياطينَكم في العذاب كما كنتم مشتركينَ في سببه، ويجوزُ أنْ يُسْنَدَ الفعلُ إليه بمعنى: ولن ينفعَكم اشتراككُم في العذابِ كما ينفعُ الواقعينَ في أمرٍ صعبٍ معاونتُهم في تحمُّل أعبائِه وتقسُّمهم لمكابدةِ عنائِه، إذ لكلٍّ منكم ما لا تسعهُ طاقتُه. وقرىء إنكم بالكسرِ وهو يقوي الأولَ.

(٤٠) ﴿أَفَأَنتَ تُسۡمِعُ ٱلصُّمَّ أَوۡ تَهۡدِي ٱلۡعُمۡيَ﴾ إنكار وتعجُّبٌ من أنْ تحملَ هو الذي يقدرُ على هدايتهم بعدَ تمرُّنهم على الكفرِ واستغراقِهم في الضلال بحيثُ صارَ عَشَاهُم عَمًى مقروناً بالصَّمَم. كان رسولُ الله ﷺ يُتعِبُ نفسَه في دعاء قومه وهم لا يزيدون إلا غيّاً، فنزلتْ. ﴿وَمَن كَانَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ عطفٌ على العمى باعتبارِ تغايُرِ الوصفين، وفيه إشعارٌ بأنَّ الموجِبَ لذلك تمكُّنهم في ضلال لا يخفَى.

(٤١) ﴿فَإِمَّا نَذۡهَبَنَّ بِكَ﴾ أي فإنْ قبضناك قبلَ أنْ نبصركَ عذابَهم، وما مزيدةٌ مؤكِّدة بمنزلةِ لامِ القسم في استجلابِ النونِ المؤكدة ﴿فَإِنَّا مِنۡهُم مُّنتَقِمُونَ﴾ بعذابٍ في الدنيا والآخرة.

(٤٢) ﴿أَوۡ نُرِيَنَّكَ ٱلَّذِي وَعَدۡنَٰهُمۡ﴾ أو إنْ أردنا أنْ نريَكَ ما وعدناهم من العذاب، وقرأ يعقوب برواية رويسٍ أو نُرِيَنْكَ بإسكان النون وكذا نذهبنْ. ﴿فَإِنَّا عَلَيۡهِم مُّقۡتَدِرُونَ﴾ لا يَفوتونَنا.

(٤٣) ﴿فَٱسۡتَمۡسِكۡ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيۡكَۖ﴾ من الآيات والشرائعِ، وقرىء أوحىٰ على البناءِ للفاعل وهو الله تعالى. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ لا عوجَ له.

(٤٤) ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكۡرٞ لَّكَ﴾ لشرفٍ لك. ﴿وَلِقَوۡمِكَۖ وَسَوۡفَ تُسۡـَٔلُونَ﴾ إي عَنْهُ يوم القيامة وعن قيامكم بحقِّه.

(٤٥) ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ أي واسأل أُمَمَهُم وعلماءَ دينهم، وقرأ ابن كثير والكسائي بتخفيفِ الهمزة. ﴿أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ﴾ هل حكمْنا بعبادةِ الأوثان وهل جاءت في ملةٍ من مِلَلِهم، والمرادُ به الاستشهادُ بإجماعِ الأنبياء على التوحيد، والدلالةُ على أنه ليس بِبِدْعٍ ابتدعه فيكذَّبُ ويعادي له، فإنه كان أقوى ما حملَهم على التكذيب والمخَالفة.

(٤٦) ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَقَالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يـريـدُ

باقتصاصه[١] تسلية رسولِ الله ﷺ ومناقضةَ قولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[٢] والاستشهادُ بدعوة موسى عليه السلام إلى التوحيد ليتأملُوا فيها.

فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم
بِٱلْعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ ﴿٥٠﴾ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ
وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾

(٤٧) ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ﴾ فاجؤوا وقتَ ضحِكهم منها، أوِ استهزؤوا بها أولَ ما رأوها ولم يتأملوا فيها.

(٤٨) ﴿وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا﴾ إلا هي بالغة أقصى درجات الإعجاز بحيث يحسب الناظر فيها أنها أكبر مما يقاس إليها من الآيات، والمرادُ وصفُ الكلِّ بالكِبْرِ كقولك: رأيت رجالاً بعضُهم أفضلُ من بعض، وكقوله:

مَـنْ تَلْـقَ مِنْهُـمْ تَقُـلْ لاَقَيْـتُ سَيِّـدَهُـمْ   مِثْـلُ النُّجُـومِ الَّتـي يَسْـرِي بِهَـا السَّـارِي

أو إلا وهي مختصةٌ بنوع من الإعجاز مفضلةٌ على غيرها بذلك الاعتبارِ. ﴿وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ﴾ كالسنينَ والطوفانِ والجرادِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على وجه يُرْجَى رجوعُهم.

(٤٩) ﴿وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَ ٱلسَّاحِرُ﴾ نادَوْه بذلك في تلك الحال لشدةِ شكيمتهم وفَرْطِ حماقتِهم، أو لأنهم كانوا يسمُّون العالمَ الماهر ساحراً. وقرأ ابن عامر بضمِّ الهاء ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ فَيكشفُ عنا العذابَ. ﴿بِمَا عَهِدَ عِندَكَ﴾ بعهده عندك من النبوةِ، أو من أن يستجيبَ دعوتك، أو أنْ يكشفَ العذابَ عمَّنِ اهتدى، أو بما عهد عندك فوفَّيْتَ به وهو الإيمانُ والطاعةُ. ﴿إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ﴾.

(٥٠) ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾ فاجؤُوا نكْثَ عهدهم بالاهتداءِ.

(٥١) ﴿وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ﴾ بنفسه أو بمناديه. ﴿فِى قَوْمِهِۦ﴾ في مجمعِهم أو فيما بينهم بعد كشفِ العذاب عنهم مخافةَ أنْ يؤمن بعضُهم. ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ أنهارُ النيل ومعظمُها أربعة أنهرٍ: نهر الملك، ونهرِ طولونَ، ونهر دمياطَ، ونهرِ تنيسَ. ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾ تحتَ قصري أو أمري، أو بين يدي في جناني. والواوُ إما عاطفةٌ لهذه الأنهارِ على الملكِ وتجري حالٌ منها، أو واوُ حالٍ وهذه مبتدأٌ والأنهارُ صفتُها وتجري خبرُها. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ ذلك.

(٥٢) ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ﴾ مع هذه المملكةِ والبسْطَةِ. ﴿مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ﴾ ضعيفٌ حقير لا يستعدُّ للرئاسة، من المهانة وهي القلَّة. ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ الكلامَ لما به من الرتةِ فكيف يصلحُ للرسالة، وأم إما

---

(١) بقصّ خبره.
(٢) الزخرف: «٣١».

منقطعةٌ والهمزةُ فيها للتقرير إذ قدَّم من أسباب فضله، أو متصلةٌ على إقامة المسبِّبِ مقامَ السببِ. والمعنى أفلا تبصرون أم تبصرون فتعلمونَ أني خيرٌ منه.

﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾﴾

(٥٣) ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ أي فهلاَّ ألقي عليه مقاليدُ الملْكِ إنْ كان صادقاً، إذ كانوا إذا سوَّدوا رجلاً سوَّروه وطوَّقوه بسوارٍ وطوقٍ من ذهبٍ، وأساورةٌ جمعُ أسوارٍ بمعنى السوارِ على تعويضِ التاء من ياء أساويرَ، وقد قُرِئَ به. وقرأ يعقوب وحفصٌ أسورةٌ وهي جمعُ سوارٍ، وقرىء أساوِرُ جمعُ أسورة؛ وألقىٰ عليه أسورةً وأساورَ على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ تعالى. ﴿أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ﴾ مقرونين يعينُونه أو يصدقونه من قرَنته به فاقترنَ، أو متقارنين من اقترنَ بمعنى تقارَنَ.

(٥٤) ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ﴾ فطلبَ منهم الخفَّة في مطاوعتِه أو فاستخفَّ أحلامَهم. ﴿فَأَطَاعُوهُ﴾ فيما أمرهُم به. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ فلذلك أطاعوا ذلك الفاسقَ.

(٥٥) ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا﴾ أَغضبُونا بالإفراطِ في العِناد والعصيان منقولٌ من أسف إذا اشتدَّ غضبُه. ﴿ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ في اليمِّ.

(٥٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُمْ سَلَفًا﴾ قدوةً لمن بعدَهم من الكفار يقتدون بهم في استحقاقِ مثلِ عقابِهم، مصدرٌ نَعَتَ به أو جمعُ سالفٍ كخَدَمٍ وخادمٍ. وقرأ حمزة والكسائيُّ بضم السين واللام جمعُ سليفٍ كرُغُفٍ ورغيفٍ أو سالفٍ كصُبُرٍ جمع صابرٍ أو سَلَفٍ كخشبٍ، وقرىء سُلَفاً بإبدال ضمةِ اللامِ فتحةً أو على أنه جمعُ سَلَفةٍ أي ثُلَّة قد سلفت. ﴿وَمَثَلًا لِّلْءَاخِرِينَ﴾ وعظةً لهم أو قصة عجيبةً تسير مسير الأمثال لهم فيقالَ: مثلُكم مثلُ قوم فرعونَ.

(٥٧) ﴿۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا﴾ أي ضربه ابنُ الزبعرىٰ لما جادل رسولَ الله ﷺ في قوله تعالى ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾[١] أو غيرهُ بأنْ قال النَّصارى أهلُ كتابٍ وهم يعبدون عيسى عليه السلام ويزعمون أنه ابنُ الله والملائكةُ أَوْلَى بذلك، أو على قوله تعالى ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾[٢] أو أن محمداً يريدُ أنْ نعبدَه كما عُبِدَ المسيحُ. ﴿إِذَا قَوْمُكَ﴾ في قريش ﴿مِنْهُ﴾ من هذا المثلِ. ﴿يَصِدُّونَ﴾ يضجُّون فرحاً لظنِّهم أنَّ الرسولَ ﷺ صارَ ملزماً به. وقرأ نافع وابنُ عامر والكسائيُّ بالضمِّ من الصدودِ أي يصدون عن الحقِّ ويعرِضُون عنه. وقيل هما لغتانِ نحو يعكِفُ ويعكُفُ.

(١) الأنبياء: «٩٨».
(٢) الزخرف: «٤٥».

وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ
وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ
فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٦١﴾

(٥٨) ﴿وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيۡرٌ أَمۡ هُوَۚ﴾ أي آلهتنا خيرٌ عندك أم عيسى عليه السلام فإن يكن في النار فتلكنْ آلهتُنا معه، أو آلهتنا الملائكةُ خيرٌ أم عيسى عليه السلام فإذا أجاز أنْ يُعْبَدَ ويكونَ ابنَ الله كانتْ آلهتنا أولى بذلك، أو آلهتنا خيرٌ أم محمدٌ ﷺ فنعبده وندعُ آلهتَنا. وقرأ الكوفيونَ آآلهتنا بتحقيقِ الهمزتين وألفٌ بعدَهما. ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلَۢاۚ﴾ ما ضربوا هذا المثلَ إلا لأجلِ الجدلِ والخصومةِ لا لتمييز الحقِّ من الباطل. ﴿بَلۡ هُمۡ قَوۡمٌ خَصِمُونَ﴾ شِدَادُ الخصومة حراصٌ على اللَّجاجِ.

(٥٩) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا عَبۡدٌ أَنۡعَمۡنَا عَلَيۡهِ﴾ بالنبوة. ﴿وَجَعَلۡنَٰهُ مَثَلٗا لِّبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ أمراً عجيباً كالمثل السائرِ لبني إسرائيلَ، وهو كالجواب المزيح لتلك الشبهةِ.

(٦٠) ﴿وَلَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَا مِنكُم﴾ لولَّدنا منكم يا رجالُ كما ولَّدنا عيسى من غير أبٍ، أو لجعلْنا بدلَكُم. ﴿مَّلَٰٓئِكَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ يَخۡلُفُونَ﴾ ملائكةً يخلُفونكم في الأرض، والمعنى أنَّ حالَ عيسى عليه السلام وإن كانت عجيبةً فإنه تعالى قادرٌ على ما هو أعجبُ من ذلك، وأنَّ الملائكة مِثْلُكم من حيثُ إنها ذواتٌ ممكنة يحتملُ خلقُها توليداً كما جاز خلقُها إبداعاً، فمن أين لهم استحقاقُ الألوهية والانتسابُ إلى الله سبحانه وتعالى.

(٦١) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ عيسى عليه السلام. ﴿لَعِلۡمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ لأنَّ حدوثَه أو نزولَه من أشراطِ الساعة يُعْلَمُ به دنوُّها، أو لأن إحياءَ الموتى يدلُّ على قدرة الله تعالى عليه. وقرئ لَعَلَمٌ أي لعلامةٌ ولِذِكرٌ على تسمية ما يذكُر به ذِكْراً، وفي الحديث «ينزلُ عيسى عليه السلام على ثنية بالأرض المقدسةِ يُقَالُ لها أفيقُ وبيده حربةٌ يقتلُ بها الدجالَ، فيأتي بيتَ المقدس والناسُ في صلاة الصبح فيتأخَّر الإمام فيقدِّمه عيسى عليه الصلاة والسلام ويصلي خلفَه على شريعةِ محمد عليه الصلاة والسلام، ثم يقتلُ الخنازيرَ ويكسرُ الصليبَ، ويخربُ البِيَعَ والكنائسَ، ويقتل النصارى إلا من آمن به»[1]. وقيل الضميرُ للقرآن فإنَّ فيه الإعلامَ بالساعة والدلالةَ عليها. ﴿فَلَا تَمۡتَرُنَّ بِهَا﴾ فلا تشكُّنَّ فيها. ﴿وَٱتَّبِعُونِۚ﴾ واتبعوا

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٣): «ـ أخرجه ـ الثعلبي بغير سند. وهو موجود في أحاديث متفرقة.
فقوله: «ثنية أفيق» عند الحاكم ـ (٤/٤٧٨) ـ من حديث عثمان بن أبي العاص.
و
وقوله: «وعليه ممصرتان» عند أحمد ـ (٢/٤٠٦) ـ والحاكم من حديث أبي هريرة.
وقوله: «والناس في صلاة الصبح» عند ابن ماجَهْ ـ (٢/١٣٥٩ رقم ٤٠٧٧) من حديث أبي أمامة.
وقوله: «فيقتل الخنزير، ويكسر الصليب» في «الصحيح» ـ البخاري (٤/٤١٤ رقم ٢٢٢٢) ومسلم (١/١٣٥ ـ ١٣٧ رقم ١٥٥) ـ من حديث «أبي هريرة» هـ.

هدايَ أو شرعي أو رسولي. وقيل هو قولُ الرسولِ ﷺ أُمِرَ أنْ يقولَه. ﴿هَٰذَا﴾ الذي أدعوكم إليه. ﴿صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا يضلُّ سالِكُه.

وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٦﴾ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾

(٦٢) ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ عن المتابعة. ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ ثابتٌ عداوتُه بأنْ أخرجَكم عن الجنة وعرَّضَكُم للبلية.

(٦٣) ﴿وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزاتِ أو بآيات الإنجيل، أو بالشرائع الواضحاتِ. ﴿قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ﴾ بالإنجيل أو بالشريعة. ﴿وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو ما يكون من أمر الدين لا ما يتعلَّقُ بأمر الدنيا، فإنَّ الأنبياءَ عليهم الصلاة والسلام لم يُبْعَثُوا لبيانه، ولذلك قال عليه الصلاة والسلام «أنتم أعلمُ بأمرِ دنياكم»[1]. ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾ فيما أبلِّغه عنه.

(٦٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ﴾ بيانٌ لما أمرهم بالطاعةِ فيه، وهو اعتقادُ التوحيدِ والتعبُّدُ بالشرائعِ. ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرين وهو تتمةُ كلامِ عيسى عليه الصلاة والسلام، أو استئنافُ من الله تعالى يدلُّ على ما هو المقتضي للطاعة في ذلك.

(٦٥) ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الفِرَقُ المتحزِّبةُ. ﴿مِنۢ بَيْنِهِمْ﴾ من بين النصارى أو اليهودِ والنصارى من بين قومِهِ المبعوثِ إليهم. ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ من المتحزِّبين ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ هو القيامة.

(٦٦) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ الضمير لقريش أو للذين ظلموا. ﴿أَن تَأْتِيَهُم﴾ بدلٌ من الساعة والمعنى هل ينظرون إلا إتيانَ الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجاةً. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ غافِلُون عنها لاشتغالهم بأمور الدنيا وإنكارِهم لها.

(٦٧) ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ﴾ الأحِبَّاءُ. ﴿يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ أي يتعادَوْنَ يومئذ لانقطاع العُلَقِ لظهورِ ما كانوا يتخالُّون له سبباً للعذاب. ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فإنَّ خِلَّتهم لما كانتْ في الله تبقى نافعةً أبدَ الآباد.

(٦٨) ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ حكايةٌ لما يُنَادى به المتقون المتحابُّون في الله يومئذ، وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي وحفص بغير الياءِ.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/١٨٣٦ رقم ١٤١/٢٣٦٣) من طريق حماد بن سلمة عن هشام عن عروة عن عائشة وعن ثابت عن أنس؛ قالا: إن النبي ﷺ مرَّ بقوم يلقحون. فقال: «لو لم تفعلوا لصلح» قال: فخرج شيصاً. فمرَّ بهم فقال: «ما لنخلكم؟» قالوا: قلت كذا وكذا. قال: «أنتم أعلم بأمر دنياكم».

ﵟٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ ٦٩ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم
بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ
ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢ لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٧٣ إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ فِي
عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ٧٤ لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ ٧٥ وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ٧٦ وَنَادَوۡاْ
يَٰمَٰلِكُ لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ٧٧ﵞ

(٦٩) ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ صفةُ المنادي. ﴿وَكَانُواْ مُسۡلِمِينَ﴾ حالٌ من الواو أي الذين آمنوا مخلصين، غير أنَّ هذه العبارةَ آكدُ وأبلغُ.

(٧٠) ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ﴾ نساؤكم المؤمناتُ. ﴿تُحۡبَرُونَ﴾ تُسَرُّون سروراً يظهرُ حبارُه أي أثرهُ على وجوهكم، أو تزيَّنون من الحبرِ وهو حسنُ الهيئة أو تكرمون إكراماً يُبَالغُ فيه، والحبرةُ المبالغةُ فيما وصف بجميلٍ.

(٧١) ﴿يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ﴾ الصحافُ جمع صحفة، والأكواب جمع كوب وهو كوزٌ لا عروةَ له. ﴿وَفِيهَا﴾ وفي الجنة ﴿مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ وقرأ نافع وابنُ عامر وحفص تشتهيه الأنفسُ على الأصل. ﴿وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ﴾ بمشاهدته وذلك تعميمٌ بعد تخصيص ما يُعَدُّ من الزوائد في التنعُّم والتلذُّذِ. ﴿وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ فإنَّ كلَّ نعيمٍ زائلٌ موجب لكلفةِ الحفظ وخوف الزوال ومستعقِبٍ للتحسُّر في ثاني الحال.

(٧٢) ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ وقرأ ورثتُموها، شبَّه جزاءَ العمل بالميراث لأنه يخلُفه عليه العاملُ، وتلك إشارةٌ إلى الجنة المذكورة وقعتْ مبتدأً والجنةُ خبرُهَا، والتي أُورِثْتُموها صفتُها أو الجنةُ صفةُ تلك والتي خبرُهَا أو صفة الجنة والخبرُ بما كنتم تعملون، وعليه يتعلَّق الباء بمحذوفٍ لا بأورثتموها.

(٧٣) ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ بعضُها تأكلون لكثرتها ودوامِ نوعها، ولعلَّ تفصيل التنعُّم بالمطاعمِ والملابس وتكريره في القرآن وهو حقيرٌ بالإضافة إلى سائر نعائِم الجنة لما كان بهم من الشدةِ والفاقةِ.

(٧٤) ﴿إِنَّ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ الكاملين في الإجرام وهم الكفارُ لأنه جعلَ قسيمَ المؤمنينِ بالآياتِ، وحكَى عنهم ما يخصُّ بالكفار. ﴿فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ خبرُ إنَّ أو خالدون خبرٌ والظرفُ متعلِّق به.

(٧٥) ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ﴾ لا يُخفَّفُ عنهم من فترتْ عنه الحمَّىٰ إذا سكنتْ قليلاً والتركيبُ للضعفِ. ﴿وَهُمۡ فِيهِ﴾ في العذاب ﴿مُبۡلِسُونَ﴾ آيسون من النجاةِ.

(٧٦) ﴿وَمَا ظَلَمۡنَٰهُمۡ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مر مثلُه غيرَ مرّةٍ وهم فصلٌ.

(٧٧) ﴿وَنَادَوۡاْ يَٰمَٰلِكُ﴾ وقرىء يا مالِ على الترخيم مكسوراً ومضموماً، ولعلَّه إشعارٌ بأنهم لضعفهم لا يستطيعونَ تأديةَ اللفظ بالتمام ولذلك اختصَروا فقالوا: ﴿لِيَقۡضِ عَلَيۡنَا رَبُّكَۖ﴾ والمعنى سلْ ربَّنا أنْ يقضيَ

علينا من قضى عليه إذا أماته، وهو لا ينافي إبلاسَهم فإنه جُؤَارٌ وتمنٍّ للموت من فَرْطِ الشدة ﴿قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ لا خلاصَ لكم بموتٍ ولا بغيره.

لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴿٧٨﴾ أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٩﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم ۚ بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٨٠﴾ قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ ﴿٨١﴾ سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٨٢﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟ وَيَلْعَبُوا۟ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٨٣﴾

(٧٨) ﴿لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ﴾ بالإرسال والإنزالِ، وهو تتمةُ الجواب إنْ كان في قال ضميرُ اللهِ وإلا فجوابٌ منه فكأنه تعالى تولّى جوابَهم بعد جواب مالكٍ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ﴾ لما في اتباعِه من إتعابِ النفس وآداب الجوارحِ.

(٧٩) ﴿أَمْ أَبْرَمُوٓا۟ أَمْرًا﴾ في تكذيب الحقِّ وردِّه ولم يقتصِروا على كراهته. ﴿فَإِنَّا مُبْرِمُونَ﴾ أمراً في مجازاتهم. والعدولُ عن الخطاب للإشعار بأن ذلك أسوأُ من كراهتهم، أو أم أحكمَ المشركون أمراً من كيدهم بالرسول فإنا مبرمونَ كيدَنا بهم، ويؤيدُه قولُه:

(٨٠) ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ﴾ حديثَ أنفسِهم بذلك. ﴿وَنَجْوَىٰهُم﴾ وتناجيهم. ﴿بَلَىٰ﴾ نسمعُهما. ﴿وَرُسُلُنَا﴾ والحفظةُ مع ذلك. ﴿لَدَيْهِمْ﴾ ملازمةٌ لهم. ﴿يَكْتُبُونَ﴾ ذلك.

(٨١) ﴿قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدٌ فَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْعَٰبِدِينَ﴾ منكم فإنَّ النبيَّ ﷺ يكون أعلمَ بالله وبما يصح له وبما لا يصح له، وأولى بتعظيم ما يُوجِبُ تعظيمَه ومن تعظيم الوالدِ تعظيمُ ولده، ولا يلزم من ذلك صحةُ كينونةِ الولد وعبادته له إذِ المحالُ قد يستلزمُ المحالَ بلِ المرادُ نفيُهما على أبلغ الوجوهِ كقوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾[1] غير أنَّ «لو» ثَمَّ مشعرةٌ بانتفاء الطرفين، وإنْ هَهنا لا تشعِرُ به ولا بنقيضِه فإنها لمجردِ الشريطةِ، بلِ الانتفاءُ معلوم لانتفاءِ اللازم الدالِّ على انتفاء ملزومه، والدلالةُ على أن إنكاره الولدَ ليس لعناد ومِرَاءٍ بل لو كان لكان أولى الناس بالاعترافِ به. وقيل معناه إنْ كان له ولدٌ في زعْمِكم فأنا أول العابدين لله الموحِّدين له أو الآنفينَ منه، أو من أنْ يكون له ولدٌ من عبدٍ يعبدُ إذا اشتدَّ أنفُه، أو ما كان له ولدٌ فأنا أولُ الموحدين من أهل مكّةَ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وُلْدٌ بالضمِّ وسكون اللام.

(٨٢) ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ عن كونه ذا ولدٍ فإن هذه الأجسامَ لكونها أصولاً ذاتَ استمرار تبرَّأَتْ عما يتَّصف به سائرُ الأجسام من توليد المِثْلِ، فما ظنُّك بمبدعها وخالقها.

(٨٣) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا۟﴾ في باطلهم. ﴿وَيَلْعَبُوا۟﴾ في دنياهم. ﴿حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي يومَ القيامة، وهو دلالةٌ على أنَّ قولَهم هذا جهلٌ واتباعُ هوى، وإنهم مطبوعٌ على قلوبهم معذَّبون في الآخرة.

---

(١) الأنبياء: «٢٢».

وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨٤﴾ وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ
وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَن
شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ
هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾

(٨٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ مستحقٌّ لأنْ يُعْبَدَ فيهما، والظرفُ متعلِّقٌ به لأنه بمعنى المعبود أو متضمِّنٌ معناه كقولك: هو حاتمٌ في البلد، وكذا فيمن قرأ اللهُ والراجعُ مبتدأٌ محذوفٌ لطولِ الصلة بمتعلَّقِ الخبرِ والعطفِ عليه، ولا يجوزُ جعْلُه خبراً له لأنه لا يبقى له عائدٌ لكنْ لو جُعِلَ صلةً وقُدِّرَ الإلهُ مبتدأً محذوفٍ يكون به جملةً مبينةً للصلة دالةً على أن كونَه في السماء بمعنى الألوهية دون الاستقرارِ، وفيه نفيُ الآلهة السماوية والأرضيةِ واختصاصُه باستحقاق الألوهية. ﴿وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ كالدليل عليه.

(٨٥) ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ كالهواء. ﴿وَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ﴾ العلمُ بالساعة التي تقوم القيامةُ فيها. ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء، وقرأ نافع وابن عامر وأبو عمرو وعاصمٌ ورَوْحٌ بالتاءِ على الالتفاتِ للتهديد.

(٨٦) ﴿وَلَا يَمْلِكُ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ كما زعموا أنهم شفعاؤُهم عند الله. ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ بالتوحيد، والاستثناءُ متصلٌ إنْ أُرِيْدَ بالموصول كلُّ ما عُبِدَ من دون الله لاندراجِ الملائكةِ والمسيح فيه، ومنفصلٌ إنْ خُصَّ بالأصنام.

(٨٧) ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾ سَألتَ العابدين أو المعبودين. ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ لتعذُّرِ المكابرة فيه من فَرْطِ ظهوره ﴿فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ يُصْرفُون عن عبادته إلى عبادة غيرِه.

(٨٨) ﴿وَقِيلِهِۦ﴾ وقولَ الرسولِ ونَصبَه للعطف على سرِّهم، أو على محلِّ الساعة أو لإضمار فعلِه أي وقال قيلَه. وجرَّهُ عاصم وحمزة عطفاً على الساعةِ، وقرىء بالرفع على أنه مبتدأٌ خبره. ﴿يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ أو معطوفٌ على علم الساعة بتقدير مضافٍ. وقيلَ هو قسمٌ منصوبٌ بحذف الجارِّ أو مجرورٌ بإضماره، أو مرفوعٌ بتقدير وقيله يا ربِّ قسمي، وإنَّ هؤلاءِ جوابُه.

(٨٩) ﴿فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ﴾ فأعرضْ عن دعوتهم آيساً عن إيمانهم. ﴿وَقُلْ سَلَٰمٌ﴾ تسلُّمٌ منكم ومتارَكَةٌ. ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تسليةٌ للرسولِ ﷺ وتهديدٌ لهم، وقرأ نافع وابن عامر بالتاءِ على أنه من المأمور بقوله. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ الزخرف كان ممنْ يُقَالُ له يومَ القيامة يا عبادي لا خوفٌ عليكم اليومَ ولا أنتم تحزنون»[(١)].

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٤٧ رقم ٣٧٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الدُّخَانِ

ترتيبها ٤٤ — آياتها ٥٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢﴾ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴿٤﴾ أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥﴾ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦﴾ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٧﴾

سورة الدخان مكيةٌ[١]

إلا قولَه: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ﴾[٢] الآيةَ، وهي سبعٌ أو تسعٌ وخمسون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ القرآنُ والواو للعطف إنْ كان حمٓ مقْسَماً به وإلا فللقسمِ والجوابُ قولُه:

(٣) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ ليلةِ القدرِ، أو البراءةِ[٣] ابتُدِىءَ فيها إنزالُه، أو أُنزِلَ فيها جملةً إلى سماءِ الدنيا من اللوح المحفوظ، ثم أنزل على الرسولِ ﷺ نجوماً وبركتُها لذلك، فإنَّ نزولَ القرآن سببٌ للمنافع الدينية والدنيوية، أو لما فيها من نزول الملائكة والرحمةِ وإجابةِ الدعوة وقَسْمِ النعمة وفصْلِ الأقضية. ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾ استئنافٌ يبين المقتضى للإنزال وكذلك قولُه:

---

(١) أخرج ابن مردويه، عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حم) الدخان وأخرج ابن مردويه، عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بمكة سورة الدخان. «الدر المنثور» (٧/ ٣٩٧).

(٢) الدخان: «١٥».

(٣) ليلة البراءة هي ليلة النصف من شعبان (انظر روح المعاني ٢٥/ ١١٠).

(٤) ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ فإن كونها مفرَقُ الأمور المحكمة أو الملتبسةِ بالحكمة يستدعي أن ينزلَ فيها القرآنُ الذي هو من عظائمها، ويجوز أنْ يكونَ صفةَ ليلةٍ مباركة وما بينهما اعتراضٌ، وهو يدل على أنَّ الليلةَ ليلةُ القدر لأنه صفتُها لقوله ﴿تَنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر﴾ وقرىء يُفَرَّقُ بالتشديد، ويَفْرُقُ كلَّ أي يفرقه اللهُ، ونَفْرِق بالنونِ.

(٥) ﴿أَمْرًا مِّنْ عِندِنَآ﴾ أي أعني بهذا الأمرِ أمراً حاصلاً من عندنا على مقتضى حكمتِنا، وهو مزيدُ تفخيم للأمرِ، ويجوزُ أنْ يكون حالاً من كلّ أو أمرٍ، أو ضميره المستكِنِّ في حكيمٍ لأنه موصوف، وأنْ يكون المرادُ به مقابلَ النهي وقَعَ مصدراً ليفرق أو لفعلِه مضمراً من حيثُ إن الفرقَ به، أو حالاً من أحدِ ضميري أنزلناه بمعنى آمرين أو مأموراً. ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾.

(٦) ﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ بدلٌ من إنا كنَّا منذرين أي أنزلنا القرآنَ لأنَّ من عادتنا إرسالَ الرسل بالكتب إلى العباد لأجلِ الرحمة عليهم، ووضعَ الربِّ موضعَ الضمير للإشعارِ بأنَّ الربوبيةَ اقتضتْ ذلك، فإنه أعظمُ أنواع التربية أو علَّةً ليفرِّقَ أو أمراً، ورحمةً مفعولٌ به أي يفصلُ فيها كلَّ أمر أو تصدرُ الأوامرُ من عندنا لأنَّ. مِنْ شأننا أنْ نرسلَ رحمتَنا، فإنَّ فصْلَ كلِّ أمر من قسمةِ الأرزاق وغيرها وصدورِ الأوامرِ الإلهية من باب الرحمةِ. وقرىء رحمةٌ على تلك رحمةٌ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ يسمع أقوالَ العباد ويعلم أحوالَهم، وهو بما بعدَه تحقيقٌ لربوبيته فإنها لا تحقُّ إلا لمن هذه صفاتُه.

(٧) ﴿رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ﴾ خبرٌ آخرُ أو استئنافٌ. وقرأ الكوفيون بالجرِّ بدلاً من ربِّك. ﴿إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ أي إن كنتم من أهل الإيقانِ في العلوم، أو كنتم موقنينَ في إقرارِكم إذا سُئِلتُم مَنْ خلَقَها؟ فقلتم اللهُ، علمتُم أنَّ الأمر كما قلْنا، أو إن كنتم مريدين اليقينَ فاعلموا ذلك.

لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٨﴾ بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ ﴿٩﴾ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا خالقَ سواهُ. ﴿يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ كما تشاهدون. ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ وقُرِئَا بالجرِّ بدلاً من ربك.

(٩) ﴿بَلْ هُمْ فِى شَكٍّ يَلْعَبُونَ﴾ ردٌّ لكونهم موقنين.

(١٠) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظرْ لهم. ﴿يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ يوم شدَّةٍ ومجاعة فإنَّ الجائعَ يرى بينَه وبينَ السماء كهيئة الدخانِ من ضعفِ بصرِه، أو لأنَّ الهواءَ يظلمُ عامَ القحط لقلةِ الأمطار وكثرةِ الغبار، أو لأن العرب تسمي الشرَّ الغالبَ دخاناً وقد قحطُوا حتى أكلوا جيفَ الكلاب وعظامَها، وإسنادُ الإتيان إلى السماء لأن ذلك يكفُّه عن الأمطار، أو يومَ ظهورِ الدخان المعدودِ في أشراطِ الساعة لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما قال: «أولُ الآيات الدخانُ ونزول عيسى عليه السلام، ونارٌ تخرج من قعْرِ عدنِ أبْيَنَ تسوقُ الناسَ إلى المحشرِ» قيل وما الدخانُ؟ فتلا رسولُ الله ﷺ الآيةَ وقال: «يملأ ما بين المشرق والمغرب يمكثُ أربعينَ يوماً وليلةً، أما المؤمن فيصيبُه كهيئة الزُّكام، وأما الكافرُ فهو

كالسكرانِ يخرج من منخريهِ وأذنيه ودُبُرِهِ»(١) أو يومَ القيامة والدخانُ يَحْتَمِلُ المعنيين.

يَـغۡشَى ٱلنَّاسَۖ هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿١١﴾ رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ ﴿١٢﴾ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ ﴿١٤﴾ إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ قَلِيلًاۚ إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴿١٦﴾ ۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ ﴿١٧﴾

(١١) ﴿يَـغۡشَى ٱلنَّاسَۖ﴾ يحيطُ بهم صفةٌ للدخان وقوله ﴿هَـٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

(١٢) ﴿رَّبَّنَا ٱكۡشِفۡ عَنَّا ٱلۡعَذَابَ إِنَّا مُؤۡمِنُونَ﴾ مقدَّر بقولٍ وقعَ حالاً وإنا مؤمنون وعدٌ بالإيمان إنْ كشفَ العذابَ عنهم.

(١٣) ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكۡرَىٰ﴾ من أين لهم وكيف يتذكَّرون بهذه الحالةِ. ﴿وَقَدۡ جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مُّبِينٞ﴾ بيَّن لهم ما هو أعظمُ منها في إيجاب الإذكار من الآيات والمعجزات.

(١٤) ﴿ثُمَّ تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٞ مَّجۡنُونٌ﴾ أي قال بعضُهم يعلمه غلامٌ أعجمي لبعض ثقيفَ. وقال آخرون إنه مجنون.

(١٥) ﴿إِنَّا كَاشِفُواْ ٱلۡعَذَابِ﴾ بدعاء النبيِّ عليه الصلاة والسلام فإنه لما دعا رُفِعَ القحطُ ﴿قَلِيلًاۚ﴾ كشفاً قليلاً أو زماناً قليلاً وهو ما بقي من أعمارهم. ﴿إِنَّكُمۡ عَآئِدُونَ﴾ إلى الكفر غبَّ الكشفِ، ومَنْ فسَّر الدخانَ بما هو من الأشراطِ قال: إذا جاء الدخانُ غَوِثَ الكفار بالدعاء فيكشفُه الله عنهم بعدَ الأربعينَ، فريثما يكشفُه عنهم يرتدُّون، ومن فَسّره بما في القيامة أوَّله بالشرطِ والتقدير.

(١٦) ﴿يَوۡمَ نَبۡطِشُ ٱلۡبَطۡشَةَ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ يوم القيامة أو يومَ بدرٍ ظرفٌ لفعلٍ دلَّ عليه. ﴿إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ لا لمنتقمون فإنَّ إنْ تحجُزه عنه، أو بدلٌ من يوم تأتي. وقرىء نبطشُ أي نجعلُ البطشةَ الكبرى باطشةً بهم، أو نحملُ الملائكةَ على بطشِهم وهو التناولُ بصولةٍ.

(١٧) ﴿۞وَلَقَدۡ فَتَنَّا قَبۡلَهُمۡ قَوۡمَ فِرۡعَوۡنَ﴾ امتحنَّاهم بإرسال موسى عليه السلام إليهم، أو أوقعْناهم في الفتنة بالإمهالِ وتوسيع الرزقِ عليهم. وقرىء بالتشديد للتأكيدِ أو لكثرةِ القوم. ﴿وَجَآءَهُمۡ رَسُولٞ كَرِيمٌ﴾ على الله أو على المؤمنين أو في نفسه لشرفِ نسبه وفضْلِ حَسَبِه.

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١١٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٢٣٠) من حديث حذيفة بن اليمان.
وقال ابن جرير: «. . . وإنما لم أشهد له بالصحة ـ أي الحديث ـ لأن محمد بن خلف العسقلاني حدثني أنه سأل رواداً عن هذا الحديث، هل سمعه من سفيان؟ فقال له: لا، فقلت له: فقرأته عليه، فقال: لا، فقلت له: فقرىء عليه وأنت حاضر فأقرَّ به، قال: لا، فقلت: فمن أين جئت به؟ قال: جاءني به قوم فعرضوه عليَّ وقالوا لي: اسمعه منا فقرؤوه عليَّ، ثم ذهبوا، فحدثوا به عني، أو كما قال؛ فلما ذكرت من ذلك لم أشهد له بالصحة. . .» هـ.

أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٩﴾ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ
أَن تَرْجُمُونِ ﴿٢٠﴾ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٢٣﴾
وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ۖ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾ كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا
فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾

(١٨) ﴿ أَنْ أَدُّوٓا۟ إِلَىَّ عِبَادَ ٱللَّهِ ﴾ بأنْ أدُّوهم إليَّ وأرسلوا معيَ، أو بأنْ أدوا إلي حقَّ الله من الإيمان وقبولِ الدعوة يا عبادَ الله، ويجوزُ أن تكون أنْ مخففةً ومفسِّرةً لأنَّ مجيء الرسول يكون برسالة ودعوة. ﴿ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴾ غيرُ متَّهم لدلالة المعجزاتِ على صدقه، أو لائتمان الله إياه على وحْيِهِ وهو علَّةُ الأمرِ.

(١٩) ﴿ وَأَن لَّا تَعْلُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ﴾ ولا تتكبَّروا عليه بالاستهانة بوحيه ورسوله، وأنْ كالأولى في وجْهَيْهَا. ﴿ إِنِّىٓ ءَاتِيكُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ علةٌ للنهي، ولذكرِ الأمين مع الأداء والسلطان مع العلاءِ شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ﴿ وَإِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ ﴾ التجأت إليه وتوكَّلْتُ عليه. ﴿أَن تَرْجُمُونِ﴾ أن تؤذوني ضرباً أو شتْماً أو أنْ تقتلوني. وقرىء عُتُّ بالإدغام فيه.

(٢١) ﴿ وَإِن لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ لِى فَٱعْتَزِلُونِ ﴾ فكونوا بمعزِلٍ مني لا عليَّ ولا لي، ولا تتعرضوا إليَّ بسوء فإنه ليس جزاءَ مَنْ دعاكم إلى ما فيه فلا حُكم.

(٢٢) ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ ﴾ بعدما كذَّبوه. ﴿ أَنَّ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ بأنَّ هؤلاء ﴿ قَوْمٌ مُّجْرِمُونَ ﴾ وهو تعريضٌ بالدعاء عليهم بذكْرِ ما استوجبوه به ولذلك سمَّاه دعاءً، وقرىء بالكسر على إضمار القولِ.

(٢٣) ﴿ فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا ﴾ أي فقال أسرِ أو قال إن كان الأمرُ كذلك فأسْرِ، وقرأ نافع وأبو عمرو وابنُ كثير بوصلِ الهمزة من سَرَى ﴿ إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴾ يتَّبعكم فرعونُ وجنوده إذا علموا بخروجكم.

(٢٤) ﴿ وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا ﴾ مفتوحاً ذا فجوة واسعةٍ أو ساكناً على هيئته بعد ما جاوزْته ولا تضْربه بعصاكَ ولا تغيِّرْ منه شيئاً ليدخلَه القِبْطُ ﴿ إِنَّهُمْ جُندٌ مُّغْرَقُونَ ﴾ وقرىء بالفتح بمعنى لأنَّهم.

(٢٥) ﴿ كَمْ تَرَكُوا۟ ﴾ كثيراً تركُوا. ﴿ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴾.

(٢٦) ﴿ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴾ محافِلَ مزينةً ومنازِلَ حسنةً.

(٢٧) ﴿ وَنَعْمَةٍ ﴾ وتنعُّمٍ. ﴿ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴾ متنعِّمين، وقرىء فَكِهِينَ.

(٢٨) ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك الإخراج أخرجْناهم أوِ الأمرُ كذلك. ﴿ وَأَوْرَثْنَٰهَا ﴾ عطفٌ على المقدَّر أو على تركوا ﴿ قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴾ ليسوا منهم في شيء وهم بنو إسرائيلَ، وقيل غيرُهم لأنهم لم يعودوا إلى مِصْرَ.

(٢٩) ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ مجازٌ عن عدم الاكتراثِ بهلاكهم والاعتدادِ بوجودهم كقولهم: بكتْ عليهم السماءُ والأرض وكُسِفَتْ لمهلِكهم الشمسُ في نقيض ذلك. ومنه ما رُوِيَ في

الأخبار: إن المؤمنَ ليبكي عليه مصلاَّهُ ومحلُّ عبادته ومصعدُ عمله ومهبطُ رزقِه[١]. وقيل تقديره فما بكتْ عليهم أهلُ السماءِ والأرض ﴿وَمَا كَانُواْ مُنظَرِينَ﴾ ممهلينَ إلى وقتٍ آخرَ.

وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِن فِرْعَوْنَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَيَقُولُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ أَهْلَكْنَٰهُمْ ۖ إِنَّهُمْ كَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾

(٣٠) ﴿وَلَقَدْ نَجَّيْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ من استعبادِ فرعونَ وقتلِه أبناءَهم.

(٣١) ﴿مِن فِرْعَوْنَ﴾ بدلٌ من العذاب على حذفِ المضافِ، أو جعله عذاباً لإفراطه في التعذيب، أو حالٌ من المهين بمعنى واقعاً من جهته، وقرىء مَنْ فرعونُ على الاستفهام تنكيرٌ له لِنُكرِ ما كان عليه من الشيطَنةِ. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَالِيًا﴾ متكبراً. ﴿مِّنَ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾ في العتوِّ والشرارة، وهو خبرٌ ثانٍ أي كان متكبِّراً مسرِفاً، أو حالٌ من الضمير في عالياً أي كان رفيعَ الطبقةِ من بينهم.

(٣٢) ﴿وَلَقَدِ ٱخْتَرْنَٰهُمْ﴾ اخترنا بني إسرائيلَ. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالمين بأنهم أحقَّاءُ بذلك، أو مع علمٍ منَّا بأنهم يزيغون في بعض الأحوال. ﴿عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ لكثرة الأنبياء فيهم أو على عالَمَيْ زمانِهم.

(٣٣) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم مِّنَ ٱلْءَايَٰتِ﴾ كفلْقِ البحر وتظليلِ الغمام وإنزالِ المنِّ والسلوى. ﴿مَا فِيهِ بَلَٰٓؤٌاْ مُّبِينٌ﴾ نعمةٌ جليَّةٌ أو اختبارٌ ظاهر.

(٣٤) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ يعني كفَّارَ قريش، لأنَّ الكلامَ فيهم، وقصةُ فرعونَ وقومِه مسوقةٌ للدلالة على أنهم مثلُهم في الإصرار على الضلالة، والإنذار عن مثل ما حلَّ بهم. ﴿لَيَقُولُونَ﴾.

(٣٥) ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا ٱلْأُولَىٰ﴾ ما العاقبةُ ونهاية الأمر إلا الموتةُ الأولى المزيلة للحياة الدنيوية، ولا قصدَ فيه إلى إثبات ثانية كما في قولك: حجَّ زيدٌ الحجة الأولى وماتَ. وقيل لما قيل إنكم تموتون موتةً يعقبها حياةٌ كما تقدم منكم موتةٌ كذلك قالوا إنْ هي إلا موتتُنا الأولى، أي ما الموتةُ التي من شأنها كذلك إلا الموتةُ الأولى. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ﴾ بمبعوثين.

(٣٦) ﴿فَأْتُواْ بِـَٔابَآئِنَآ﴾ خطابٌ لمن وعدَهم بالنشور من الرسولِ والمؤمنين. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في وعدكم ليدلَّ عليه.

(٣٧) ﴿أَهُمْ خَيْرٌ﴾ في القوة والمَنَعَةِ. ﴿أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تُبَّع الحميريُّ الذي سارَ بالجيوش وحيَّر الحيرةَ وبنى سمرقندَ، وقيل هدمَها وكان مؤمناً وقومُه كافرين ولذلك ذمَّهم دونه. وعنه عليه الصلاة والسلام: «ما أدري أكان تُبَّع نبياً أم غيرَ ....

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٥/ ١٢٤ ـ ١٢٥) من ثلاثة طرق من حديث ابن عباس نحوه اثنان منها ضعيفان وأحدهما صحيح.

نبيٌّ»[(١)]. وقيل لملوك اليمنِ التبابعةُ لأنهم يتَّبعون كما قيل لهم الأقيالَ لأنهم يتقيَّلون. ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ﴾ كعاد وثمودَ. ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡۖ﴾ استئنافٌ بمآل قوم تبعٍ، والذين من قبلهم هدَّد به كفارَ قريش، أو حالٌ بإضمار قدْ أو خبرُ مَنْ الموصولِ إنِ اسْتُؤْنِفَ به. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ﴾ بيانٌ للجامع المقتضي للإهلاكِ.

وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ
لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ ﴿٤٠﴾ يَوۡمَ لَا يُغۡنِي مَوۡلًى عَن مَّوۡلًى شَيۡـٔٗا وَلَا هُمۡ
يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٢﴾ إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾

(٣٨) ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا﴾ وَمَا بين الجنسين وقرىء وما بينهنَّ ﴿لَٰعِبِينَ﴾ لاهينَ، وهو دليلٌ على صحة الحشرِ كما مرَّ في الأنبياء وغيرِها.

(٣٩) ﴿مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ إلا بسببِ الحقِّ الذي اقتضاه الدليلُ من الإيمان والطاعة، أو البعثِ والجزاءِ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ لقلة نظرِهم.

(٤٠) ﴿إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ﴾ فصلُ الحقِّ عن الباطل، أوِ المحقُّ عن المبطلِ بالجزاء، أو فصلُ الرجلِ عن أقاربه وأحبائِه. ﴿مِيقَٰتُهُمۡ﴾ وقْتُ موعدِهم. ﴿أَجۡمَعِينَ﴾ وقرىء ميقاتَهم بالنصبِ على أنه الاسمُ أي إنَّ ميعادَ جزائِهم في يوم الفصل.

(٤١) ﴿يَوۡمَ لَا يُغۡنِي﴾ بدلٌ من يوم الفصل أو صفةٌ لميقاتهم، أو ظرفٌ لما دلَّ عليه الفصلُ لاله للفصلِ. ﴿مَوۡلًى﴾ من قرابة أو غيرها. ﴿عَن مَّوۡلًى﴾ أيُّ مولًى كان. ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من الإغناء. ﴿وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ﴾ الضمير لمولى الأولِ باعتبار المعنى لأنه عامٌّ.

(٤٢) ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ ٱللَّهُۚ﴾ بالعفو عنه وقبولِ الشفاعة فيه، ومحلُّه الرفعُ على البدلِ من الواو والنصبُ على الاستثناءِ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ لا يُنْصَرُ منه مَنْ أرادَ تعذيبَهُ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ لمن أرادَ أنْ يرحَمَهُ.

(٤٣) ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ﴾ وقرىء بكسر الشين، ومعنى الزقومِ سَبَقَ في الصافات[(٢)].

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٤٨ رقم ٣٨٧): «ـ أخرجه ـ الثعلبي من طريق عبدالرزاق عن معمر عن ابن أبي ذئب عن المقبري عن أبي هريرة بهذا.
والمعروف بهذا الإسناد «ما أدري أَلَعينٌ هو أم لا، وما أدري أعزير نبي أم لا».
أخرجه أبو داود ـ (٥/ ٥٤ رقم ٤٦٧٤) ـ وكذا الحاكم ـ (١/ ٣٦) و(٢/ ١٤) و(٢/ ٤٥٠) وقال: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي ـ لكن قال: ذو القرنين بدل «عزير».
قال الدارقطني تفرد به عبدالرزاق وغيره أرسله» هـ.
قلت: ووافق الحاكم والذهبي والألباني في «الصحيحة» (رقم: ٢٢١٧) والخلاصة أن الحديث صحيح. ولمزيد من البيان انظر «الصحيحة».

(٢) الزقوم عبارة عن أطعمة كريهة في النار، ومنه استعير زقم فلان وتزقم إذا ابتلع شيئاً كريهاً. (المفردات للراغب الأصفهاني ص٢١٣).

طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلۡمُهۡلِ يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٦﴾ خُذُوهُ فَٱعۡتِلُوهُ إِلَىٰ سَوَآءِ
ٱلۡجَحِيمِ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ ﴿٤٨﴾ ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ﴿٤٩﴾ إِنَّ
هَٰذَا مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٖ ﴿٥١﴾ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ﴿٥٢﴾ يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ
وَإِسۡتَبۡرَقٖ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٥٣﴾ كَذَٰلِكَ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٥٤﴾

(٤٤) ﴿طَعَامُ ٱلۡأَثِيمِ﴾ الكثيرُ الآثامِ، والمرادُ به الكافر لدلالة ما قبلَه وما بعدَه عليه.

(٤٥) ﴿كَٱلۡمُهۡلِ﴾ وهو ما يمهلُ في النار حتى يذوبَ. وقيل درديُّ الزيت[1]. ﴿يَغۡلِي فِي ٱلۡبُطُونِ﴾ وقرأ ابن كثير وحفصٌ ورويس بالياء على أن الضميرَ للطعامِ، أو الزقومِ لا للمهلِ إذِ الأظهرُ أنَّ الجملةَ حالٌ من أحدِهما.

(٤٦) ﴿كَغَلۡيِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ غليانا مثلَ غَلْيِه.

(٤٧) ﴿خُذُوهُ﴾ على إرادة القولِ، والمقولُ له الزبانيةُ. ﴿فَٱعۡتِلُوهُ﴾ فجرُّوه، والعتْلُ الأخذُ بمجامعِ الشيء وجرُّه بقهرٍ، وقرأ الحجازيانِ وابن عامر ويعقوبُ بالضم وهما لغتانِ. ﴿إِلَىٰ سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ﴾ وسطِه.

(٤٨) ﴿ثُمَّ صُبُّواْ فَوۡقَ رَأۡسِهِۦ مِنۡ عَذَابِ ٱلۡحَمِيمِ﴾ كان أصلُه يُصَبُّ من فوق رؤوسهم الحميمُ فقيل يُصَبُّ من فوق رؤوسِهم عذابٌ هو الحميمُ للمبالغة، ثم أضيفَ العذابُ إلى الحميمِ للتخفيفِ وزِيْدَ من الدلالة على أنَّ المصبوبَ بعضُ هذا النوع.

(٤٩) ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ﴾ أي وقولُوا له ذلك استهزاءً به وتقريعاً على ما كان يزعُمُهُ، وقرأ الكسائي أنك بالفتحِ أي ذقْ لأنك أوِ عذابَ أنَّك.

(٥٠) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ إنَّ هذا العذابَ ﴿مَا كُنتُم بِهِۦ تَمۡتَرُونَ﴾ تَشْكُّون وتمارونَ فيه.

(٥١) ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ﴾ في موضعِ إقامة، وقرأ نافع وابن عامر بضمِّ الميم ﴿أَمِينٖ﴾ يأمنُ صاحِبُه عن الآفة والانتقال.

(٥٢) ﴿فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ﴾ بدلٌ من مقامٍ جيء به للدلالة على نزاهته، واشتمالِه على ما يُسْتَلَذُّ به من المآكل والمشارب.

(٥٣) ﴿يَلۡبَسُونَ مِن سُندُسٖ وَإِسۡتَبۡرَقٖ﴾ خبرٌ ثانٍ أو حالٌ من الضمير في الجارِّ أو استئناف، والسندسُ ما رَقَّ من الحرير، والإستبرقُ ما غَلُظَ منه معرَّبُ استبرهِ، أو مشتقٌّ من البراقةِ. ﴿مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ في مجالسهم ليستأنسَ بعضُهم ببعض.

(٥٤) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الأمرُ كذلك أو آتيناهم مثلَ ذلك. ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ قرنَّاهم بهنَّ ولذلك عُدِّيَ بالباء، والحوراءُ البيضاءُ والعيناءُ عظيمةُ العينين، واخْتُلِفَ في أنهنَّ نساءُ الدنيا أو غيرُها.

---

(١) العكر الباقي منه.

يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ ﴿٥٥﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾ فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٥٧﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ فَٱرْتَقِبْ إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ ﴿٥٩﴾

(٥٥) ﴿يَدْعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ يطلبون ويأمرون بإحضارِ ما يشتهون من الفواكهِ لا يتخصَّصُ شيءٌ منها بمكان ولا بزمان. ﴿ءَامِنِينَ﴾ من الضررِ.

(٥٦) ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ إِلَّا ٱلْمَوْتَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ بل يَحْيَوْنَ فيها دائماً، والاستثناءُ منقطعٌ أو متصلٌ والضمير للآخرةِ، والموتُ أولُ أحوالِها، أوِ الجنةِ والمؤمنُ يشارِفُها بالموت ويشاهدُها عنده فكأنه فيها، أو الاستثناءُ للمبالغةِ في تعميم النفي وامتناع الموت فكأنه قال: لا يذوقون فيها الموتَ إلا إذا أمكنَ ذوقَ الموتةِ الأولى في المستقبل. ﴿وَوَقَىٰهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ وقرىء ووقَّاهم على المبالغةِ.

(٥٧) ﴿فَضْلًا مِّن رَّبِّكَ﴾ أي أُعطُوا كلَّ ذلك عطاءً وتفضُّلاً منه. وقرىء بالرفع أي ذلك فضلٌ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ لأنه خلاصٌ عن المكاره وفوزٌ بالمطالب.

(٥٨) ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ سهلناه حيث أنزلناه بلغتك وهو فذلكة السورة. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ لعلهم يفهمونه فيتذكرون به ما لم يتذكروا.

(٥٩) ﴿فَٱرْتَقِبْ﴾ فانتظر ما يحلُّ بهم. ﴿إِنَّهُم مُّرْتَقِبُونَ﴾ منتظِرُون ما يحلُّ بك. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حم الدخانَ ليلةَ جمعةٍ أصبحَ مغفوراً له»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث ضعيف جداً.
أخرجه الترمذي (٥/ ١٦٣ رقم ٢٨٨٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (رقم: ٦٧٩) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: «هذا حديث لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وهشام أبو المقداد يضعف. ولم يسمع الحسن من أبي هريرة، هكذا قال أيوب ويونس بن عبيد وعلي بنُ زيد» هـ.
وقال الألباني في «ضعيف الجامع» (٥/ ٢٣٥ رقم ٥٧٧٩): «ضعيف جداً» هـ.

سُورَةُ الجَاثِيَةِ
ترتيبها ٤٥ — آياتها ٣٧

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ
مِن دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن رِّزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾

سورة الجاثية مكيةٌ[1] وآيُها سبعٌ أو ستٌّ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ إنْ جعلتَ حمَ مبتدأً خبرُه تنزيلُ الكتاب احتجْتَ إلى إضمارِ مثلُ ذلك تنزيلُ حمَ، وإن جعلْتَها تعديداً للحروف كان تنزيلُ مبتدأً خبرهُ: ﴿مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقيل حمَ مقْسَمٌ به وتنزيلُ الكتاب صفتُه، وجوابُ القسم:

(٣) ﴿إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهو يُحْتَمَلُ أنْ يكون على ظاهره وأنْ يكون المعنى إنَّ في خلقِ السموات لقوله:

(٤) ﴿وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِن دَابَّةٍ﴾ ولاَ يحسنُ عطفُ ما على الضمير المجرورِ بل عطفُه على المضافِ إليه بأحدِ الاحتمالين، فإنَّ بثَّه وتنوُّعه واستجماعَه لما به يتمُّ معاشُه إلى غير ذلك دلائلُ على وجود الصانع المختارِ. ﴿آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ محمولٌ على محلِّ إنَّ واسمِها، وقرأ حمزة والكسائيُّ ويعقوب بالنصبِ حملاً على الاسمِ.

---

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٤٢٢) وزاد المسير (٧/ ٣٥٤).

(٥) ﴿وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن رِّزۡقٖ﴾ من مطرٍ، وسمَّاه رزقاً لأنه سببُه. ﴿فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا﴾ يُبْسِها. ﴿وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ﴾ باختلافِ جهاتها وأحوالها، وقرأ حمزة والكسائيُّ وتصريفِ الريح[١]. ﴿ءَايَٰتٞ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ فيه القراءتانِ ويلزمُهما العطفُ على عاملين في والابتداءِ، أو إنَّ إلا أنْ يُضمِرَ في أو ينصِبَ آياتٍ على الاختصاصِ أو يرفعَ بإضمار هي، ولعلَّ اختلافَ الفواصلِ الثلاثِ لاختلاف الآياتِ في الدقةِ والظهورِ.

تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۖ فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ ﴿٦﴾ وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٖ ﴿٧﴾ يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسۡتَكۡبِرٗا كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٨﴾ وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴿٩﴾ مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ وَلَا يُغۡنِي عَنۡهُم مَّا كَسَبُواْ شَيۡـٔٗا وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡلِيَآءَۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾

(٦) ﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ﴾ أي تلك الآياتُ دلائلُه ﴿نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ﴾ حالٌ عاملُها معنى الإشارةِ. ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ ملتبسينَ به أو ملتبسةً به. ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثِۭ بَعۡدَ ٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ يُؤۡمِنُونَ﴾ أي بعدَ آياتِ اللهِ، وتقديمُ اسمِ الله للمبالغةِ والتعظيمِ كما في قولك أعجبني زيدٌ وكرمُه أو بعدَ حديثِ الله وهو القرآنُ كقوله تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾[٢] وآياتُه دلائلُه المتلوَّةُ أو القرآنُ، والعطفُ لتغايُرِ الوصْفَيْنِ. وقرأ الحجازيانِ وحفصٌ وأبو عمرو وروْحٌ يؤمنون بالياء ليوافقَ ما قبلَه.

(٧) ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ أَفَّاكٍ﴾ كذَّابٍ. ﴿أَثِيمٖ﴾ كثيرِ الآثام.

(٨) ﴿يَسۡمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ثُمَّ يُصِرُّ﴾ يقيم على كفره. ﴿مُسۡتَكۡبِرٗا﴾ عن الإيمان بالآياتِ. وثمَّ لاستبعادِ الإصرارِ بعدَ سماعِ الآياتِ كقوله: يَرَى غَمرَاتٍ ثُمَّ يَزُورهَا[٣]. ﴿كَأَن لَّمۡ يَسۡمَعۡهَاۖ﴾ أي كأنه فخُفِّفَتْ وحُذِفَ ضميرُ الشأنِ، والجملةُ في موضعِ الحالِ، أي يصرُّ مثلُ غيرِ السامعِ. ﴿فَبَشِّرۡهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ على إصراره. والبشارةُ على الأصلِ أو التهكُّم.

(٩) ﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا شَيۡـًٔا﴾ وإذا بَلغه شيءٌ من آياتنا وعلمَ أنه منها. ﴿ٱتَّخَذَهَا هُزُوًاۚ﴾ لذلك من غير أنْ يرى فيها ما يناسبُ الهزْءَ، والضميرُ لآياتنا وفائدتُه الإشعارُ بأنه إذا سمع كلاماً وعلِمَ أنه من الآيات بادَرَ إلى الاستهزاءِ بالآياتِ كلِّها ولم يقتصرْ على ما سمعَه، أو لشيءٍ لأنه بمعنى الآيةِ. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾.

(١٠) ﴿مِّن وَرَآئِهِمۡ جَهَنَّمُۖ﴾ من قدَّامهم لأنهم متوجِّهون إليها، أو من خلْفِهم لأنها بعدَ آجالهم. ﴿وَلَا

---

(١) تأخير الرياح عن إنزال المطر ـ مع تقدمه عليه في الوجود ـ إما للإيذان بأنه آية مستقلة حيث لو روعي الترتيب الوجودي لربما توهم أن مجموع تصريف الرياح وإنزال المطر آية واحدة، وإما لأن كون التصريف آية ليس لمجرد كونه مبدأ لإنشاء المطر بل له ولسائر المنافع التي من جملتها سوق السفن في البحار (س٨/٦٨).

(٢) الزمر: «٢٣».

(٣) شطر من الطويل.

﴿يُغْنِي عَنْهُم﴾ ولا يدفعُ عنهم. ﴿مَّا كَسَبُواْ﴾ من الأموالِ والأولاد. ﴿شَيْـًٔا﴾ من عذابِ الله. ﴿وَلَا مَا ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ أي الأصنام[1]. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ لا يتحمّلونه.

هَٰذَا هُدًى وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ ۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ
فِيهِ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ إِنَّ فِى
ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ
يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١٥﴾

(١١) ﴿هَٰذَا هُدًى﴾ الإشارةُ إلى القرآن ويدلُّ عليه قولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ﴾ وقرأ ابنُ كثير ويعقوب وحفصٌ برفعِ أليمٍ، والرِجزُ أشدُّ العذاب.

(١٢) ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ بأنْ جعلَه أملسَ السطح يطفو عليه ما يتخلخلُ كالأخشابِ ولا يمنعُ الغوصَ فيه. ﴿لِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِۦ﴾ بتسخيرِه وأنتم راكِبُوها. ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِۦ﴾ التجارةَ والغوصَ والصيدَ وغيْرَها. ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ هذه النعمَ.

(١٣) ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ بأنْ خلقها نافعةً لكم. ﴿مِّنْهُ﴾ حالٌ من ما أي سخّر هذه الأشياءَ كائنةً منه، أو خبرٌ لمحذوفٍ أي هي جميعاً منه، أو لما في السموات وسخّر لكم تكريرٌ للتأكيد أو لما في الأرضِ. وقرىء مِنَّةً على المفعولِ له، ومَنَّه على أنه فاعلُ سخّر على الإسنادِ المجازي أو خبرٌ محذوفٌ. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صنائعه.

(١٤) ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ﴾ حذفَ المقولَ لدلالةِ الجوابِ عليه، والمعنى قلْ لهم اغْفِروا يغفِروا أي يعفُوا ويصفحُوا. ﴿لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ﴾ لا يتوقَّعون وقائِعَه بأعدائه من قولهم: أيامُ العرب لوقائِعهم، أو لا يأمَلُون الأوقاتِ التي وقَّتها الله لنصرِ المؤمنين وثوابِهم ووعدَهم بها. والآيةُ نزلتْ في عمرَ رضيَ الله عنه شتمه غفاريٌّ فهمَّ أنْ يبطِشَ به[2]. وقيل إنها منسوخةٌ بآية القتال. ﴿لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ علةٌ للأمر، والقومُ هم المؤمنون أو الكافرونَ أو كلاهُما فيكون التنكيرُ للتعظيم أو التحقيرِ أو الشيوعِ، والكسبُ المغفرةُ أو الإساءة أو ما يعمُّهما. وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ والكسائي لنجزيَ بالنون؛ وقرىء ليُجْزي قومٌ، وليجزي قوماً أي ليجزيَ الخير أو الشرَّ أوِ الجزاءَ، أعني ما يُجْزَى به لا المصدرُ فإنَّ الإسنادَ إليه سيَّما مع المفعولِ به ضعيفٌ.

(١٥) ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ أي لَهَا ثوابُ العملِ وعليها عقابُه. ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم على أعمالكم.

---

(١) توسيط حرف النفي «لا» بين المعطوفين ـ مع أن عدم إغناء الأصنام أظهر وأجلىٰ من عدم إغناء الأموال والأولاد ـ حيث إنه مبنيّ على زعمهم الفاسد حيث كانوا يطمعون في شفاعتهم، وفيه تهكم بهم (س٨/ ٦٩).

(٢) حكاه النحاس والمهدوي عن ابن عباس ـ كما في «روح المعاني» (٢٥/ ١٤٧).

وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾
وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ
ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ
ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾ هَٰذَا بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ
أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾

(١٦) ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ التوراةَ. ﴿وَٱلْحُكْمَ﴾ والحكمة النظريةَ والعملية، أو فصلَ الخصومات. ﴿وَٱلنُّبُوَّةَ﴾ إذ كثُر فيهم الأنبياءُ ما لم يكثروا في غيرهم. ﴿وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ مما أحلَّ الله من اللذائذ. ﴿وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ حيث آتيناهم ما لم نؤتِ غيرَهُم.

(١٧) ﴿وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ أدلةً في أمر الدين ويندرجُ فيها المعجزاتُ. وقيل آياتٌ من أمر النبيِّ عليه الصلاة والسلام مبينةٌ لصدقِه. ﴿فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟﴾ في ذلك الأمرِ. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ﴾ بحقيقة الحالِ. ﴿بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾ عداوةً وحسداً. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ بالمؤاخذة والمجازاةِ.

(١٨) ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ﴾ طريقةٍ ﴿مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾ من أمر الدين. ﴿فَٱتَّبِعْهَا﴾ فاتَّبعْ شريعتَك الثابتةَ بالحجج. ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ آراءَ الجهّالِ التابعةَ للشهواتِ، وهم رؤساءُ قريش قالوا له ارجعْ إلى دين آبائك.

(١٩) ﴿إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ مما أراد بك. ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ﴾ إذ الجنسيةُ علّةُ الانضمام فلا توالِهم باتباع أهوائهم. ﴿وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فوالِه بالتُّقى واتباعِ الشريعةِ.

(٢٠) ﴿هَٰذَا﴾ أي القرآنُ أو اتباعُ الشريعة. ﴿بَصَٰٓئِرُ لِلنَّاسِ﴾ بيناتٌ تبصّرهم وجهَ الفلاحِ. ﴿وَهُدًى﴾ من الضلالة. ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ ونعمةٌ من الله. ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ يطلبون اليقينَ.

(٢١) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أم منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها إنكارُ الحسبانِ. والاجتراحُ الاكتسابُ ومنه الجارحةُ. ﴿أَن نَّجْعَلَهُمْ﴾ أنْ نصيِّرَهُم. ﴿كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مثلَهم وهو ثاني مفعولي نجعلُ وقوله: ﴿سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بدلٌ منه إنْ كان الضميرُ للموصول الأولِ لأنَّ المماثلةَ فيه، إذ المعنى إنكارُ أنْ يكون حياتُهم ومماتُهم سيين في البهجةِ والكرامة كما هو للمؤمنين، ويدلُّ عليه قراءةُ حمزةَ والكسائي وحفصٍ سواءً بالنصبِ على البدل، أو الحالِ من الضمير في الكافِ، أو المفعوليةِ. والكافُ حالٌ وإنْ كان للثاني فحالٌ منه أو استئنافٌ يبين المقتضى للإنكار، وإنْ كان لهما فبدلٌ أو حالٌ من الثاني، وضميرُ الأولِ والمعنَى إنكارُ أنْ يستووا بعدَ المماتِ في الكرامةِ أو تركِ المؤاخَذةِ كما استووا في الرزق والصحّةِ في الحياة، أوِ استئنافٌ مقرِّرٌ لتساوي محيا كلِّ صنفٍ ومماتِه في الهدى والضلال، وقرىء مماتَهم بالنصبِ على أنَّ مَحْيَاهُم ومماتَهم ظرفانِ كمقْدَمِ الحاجِّ. ﴿سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ ساءَ حكمُهم هذا أو بئس شيئاً حكمُوا به ذلك.

وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٢) ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ كأنه دليلٌ على الحكم السابقِ من حيثُ إنَّ خلْقَ ذلك بالحقِّ المقتضي للعدل يستدعي انتصارَ المظلوم من الظالم، والتفاوتَ بين المسيء والمحسنِ، وإذا لم يكن في المحيا كان بعد المماتِ. ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ عَطفٌ على بالحقِّ لأنه في معنى العلَّةِ أو على عِلَّةٍ محذوفة مُثِّلَ ليدلَّ بها على قدرته أو ليعدلَ ولتجزى. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وتضعيف عقاب، وتسميةُ ذلك ظلماً ولو فعلَه الله لم يكن منه ظلماً لأنه لو فعلَه غيرُهُ لكان ظلماً كالابتلاءِ والاختبارِ.

(٢٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ تركَ متابعةَ الهدى إلى متابعة الهوى فكأنه يعبدُه، وقرىء آلهةً هواهُ لأنه كان أحدُهم يستحسنُ حجراً فيعبدُه فإذا رأى أحسنَ منه رفضَه إليه. ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ﴾ وخذلَه. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ عالماً بضلالِه وفساد جوهرِ روحِه. ﴿وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ فلا يبالي بالمواعظِ ولا يتفكَّر في الآيات. ﴿وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ فلا ينظرُ بعين الاستبصار والاعتبار، وقرأ حمزة والكسائيُّ غشوةً. ﴿فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ﴾ من بعدِ إضلاله. ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ وقرىء تتذكرون.

(٢٤) ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ﴾ ما الحياةُ أوِ الحالُ. ﴿إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا﴾ التي نحنُ فيها. ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي نكون أمواتاً نُطَفاً وما قبلَها ونحيا بعدَ ذلك، أو نموتُ بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادِنا، أو يموتُ بعضُنا ويحيا بعضُنا، أو يصيبنا الموتُ والحياةُ فيها وليس وراءَ ذلك حياةٌ، ويحتملُ أنَّهم أرادوا به التناسُخَ فإنه عقيدةُ أكثر عَبَدَةِ الأوثان. ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ إلا مرورُ الزمان وهو في الأصل مدةُ بقاءِ العالم من دَهَرَهُ إذا غَلَبَهُ. ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ يعني نسبةَ الحوادثِ إلى حركاتِ الأفلاك وما يتعلَّق بها على الاستقلال، أو إنكارَ البعث أو كليهما. ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ إذ لا دليلَ لهم عليه وإنما قالوه بناءً على التقليد والإنكارِ لما لم يُحِسُّوا به.

(٢٥) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾ واضحاتِ الدلالةِ على ما يخالفُ مُعتَقَدَهُم أو مبيناتٍ له. ﴿مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ﴾ ما كان لهم متشبَّثٌ يعارضونها به. ﴿إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ وإنما سمَّاه حجَّةً على حُسْبَانِهم ومساقِهم، أو على أسلوبِ قولهم تحيةُ بَيْنِهمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ[١] فإنه لا يلزمُ من عدمِ حصولِ الشيء حالاً امتناعُه مطلقاً.

(٢٦) ﴿قُلِ ٱللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ﴾ على ما دلَّت عليه الحججُ. ﴿ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ فإنَّ مَنْ

---

(١) شطر من الوافر.

قدرَ على الابتداءِ قدرَ على الإعادة، والحكمةُ اقتضتِ الجمعَ للمجازاة على ما قُرِّرَ مراراً، والوعدُ المصدَّقُ بالآيات دلَّ على وقوعِها، وإذا كان كذلك أمكنَ الإتيانُ بآبائهم لكنَّ الحكمةَ اقتضتْ أن يُعَادُوا يومَ الجمْع للجزاء. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لقلةِ تفكُّرِهم وقصورِ نظرِهم على ما يحسُّونه.

وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٢٧﴾ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ
كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾
فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٠﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟
أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم
مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴿٣٢﴾

(٢٧) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ تعميمٌ للقدرة بعدَ تخصيصِها. ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ ٱلْمُبْطِلُونَ﴾ أي ويخسر يومَ تقومُ ويومئذ بدلٌ منه.

(٢٨) ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً﴾ مجتمعةً من الجثْوةِ وهي الجماعةُ، أو باركةً مستوفزةً على الرُّكَبِ. وقرىء جاذيةً أي جالسةً على أطرافِ الأصابع لاستيفازِهم. ﴿كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ صحيفةِ أعمالها. وقرأ يعقوبُ كلّ على أنه بدلٌ من الأول. وتدعى صفةٌ أو مفعولٌ ثانٍ. ﴿ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ محمولٌ على القول.

(٢٩) ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا﴾ أضافَ صحائفَ أعمالِهم إلى نفسِه لأنه أمرَ الكَتَبَةَ أنْ يكتبوا فيها أعمالَهم[1] ﴿يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ﴾ يَشهدُ عليكم بما عملتُم بلا زيادةٍ ولا نقصانٍ. ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ﴾ نستكتِبُ الملائكةَ. ﴿مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أعمالَكُم.

(٣٠) ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ التي من جملتها الجنةُ. ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ﴾ الظاهرُ لخلوصِه عن الشوائب.

(٣١) ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَفَلَمْ تَكُنْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ أي فيقالُ لهم ألم يأتِكم رُسُلي فلم تكنْ آياتي تُتْلَى عليكم، فحذفَ القولَ والمعطوفَ عليه اكتفاءً بالمقصود واستغناءً بالقرينة. ﴿فَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان بها. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾ عادتُكم الإجرامُ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ يحتملُ الموعودَ به والمصدرَ. ﴿حَقٌّ﴾ كائنٌ هو أو متعلَّقُهُ لا محالةَ. ﴿وَٱلسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ إفرادٌ للمقصود، وقرأ حمزة بالنصبِ عطفاً على اسم إنَّ. ﴿قُلْتُم مَّا نَدْرِى مَا ٱلسَّاعَةُ﴾ أيُّ شيء الساعةُ استغراباً لها. ﴿إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا﴾ أصلُه نظن ظناً فأدخلَ حرفا النفي والاستثناءِ لإثباتِ الظنِّ ونفيِ ما عداه كأنه قال: ما نحنُ إلا نظنُّ ظناً، أو لنفي ظنِّهم فيما سِوَى ذلك مبالغةً ثم أكَّده بقوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ﴾ أي لإمكانه، ولعلَّ ذلك قولُ بعضِهم تحيَّروا بين ما سمعوا من آبائهم وما تُلِيَتْ

(١) أو لتفخيم شأنه وتهويل أمره (س٨/ ٧٤).

عليهم من الآياتِ في أمر الساعةِ.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾﴾

(٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ﴾ ظهرَ لهم. ﴿سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا﴾ على ما كانتْ عليه بأنْ عرفوا قُبْحَها وعاينوا وخامةَ عاقِبَتِها، أو جزاءَها. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ وهو الجزاءُ.

(٣٤) ﴿وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ﴾ نتركُكُم في العذاب تركَ ما يُنْسَى. ﴿كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا﴾ كما تركتُم عِدَتَه ولم تبالُوا به، وإضافةُ لقاءِ إلى يومِ إضافةُ المصدرِ إلى ظرفِه. ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ يخلِّصونكم منها.

(٣٥) ﴿ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا﴾ استهزأتُم بها ولم تتفكَّروا فيها. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ فحسبتُم أنْ لا حياةَ سواها. ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا﴾ وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بفتحِ الياءِ وضمِّ الراءِ. ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يُطْلَبُ منهم أنْ يعتبوا ربَّهم أي يرضُوه لفواتِ أوانه.

(٣٦) ﴿فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ إذ الكلُّ نعمةٌ منه ودالٌّ على كمال قدرته.

(٣٧) ﴿وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إذْ ظهرَ فيها آثارُها. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الذي لا يُغْلَبُ. ﴿الْحَكِيمُ﴾ فيما قدَّر وقضَى فاحمدوه وكبِّروه وأطيعوا له. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ حمَ الجاثيةَ سترَ الله عورتَه وسكَّنَ روعته يومَ الحسابِ»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٤٩ رقم ٣٩٢) وانظر الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَحْقَافِ

ترتيبها ٤٦ — آياتها ٣٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾

سورة الأحقاف مكيةٌ(١) وآيها أربعٌ أو خمسٌ وثلاثون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿حمٓ﴾.

(٢) ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾.

(٣) ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ إلا خلْقاً ملتبساً بالحقِّ وهو ما تقتضيه الحكمةُ والمعدلةُ، وفيه دلالةٌ على وجود الصانع الحكيم والبعثِ للمجازاة على ما قرَّرناه مراراً. ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وبتقدير أجل مسمًّى ينتهي إليه الكلُّ وهو يومُ القيامة، أو كلُّ واحدٍ وهو آخر مدَّةٍ بقائه المقدَّرة له. ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾ من هول ذلك الوقت، ويجوز أن تكون ما مصدرية. ﴿مُعْرِضُونَ﴾ لا يتفكرون فيه ولا يستعدون لحلوله.

(٤) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ أي أخبروني عن حالِ آلهتكم بعد تأمُّلٍ فيها، هل يُعْقَلُ أنْ يكونَ لها في أنفسها مدخلٌ في خلْقِ شيء من أجزاء العالم

---

(١) أخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال: نزلت بمكة سورة (حمٓ) الأحقاف وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله. كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٣٣).

فتستحقُّ به العبادةَ، وتخصيصُ الشرك بالسموات احترازٌ عما يُتَوَهَّمُ أنَّ للوسائط شركةً في إيجاد الحوادث السفليةِ. ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ﴾ من قبل هذا الكتاب يعني القرآنَ فإنه ناطقٌ بالتوحيد. ﴿أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ﴾ أو بقيةٍ من علم بقيتْ عليكم من علوم الأوَّلينَ علَّ فيها ما يدلُّ على استحقاقهم للعبادة أو الأمرِ به. ﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكُم، وهو إلزامٌ بعدَم ما يدلُّ على ألوهيَّتِهم بوجْهٍ ما نقلاً بعدَ إلزامِهم بعدم ما يقتضيها عقلاً، وقرىء إثارةٍ بالكسرِ أي مناظرةٍ فإنَّ المناظرةَ تثير المعاني وأثرة أيُّ شيءٍ أُوثِرْتُم به، وأَثْرَةٌ بالحركاتِ الثلاث في الهمزة وسكونِ الثاءِ فالمفتوحةِ للمرَّةِ من مصدرِ أَثَرَ الحديثَ إذا رواه والمكسورةُ بمعنى الأثرةِ والمضمومةُ اسمُ ما يُؤْثَرُ.

وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ وَهُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾

(٥) ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ﴾ إنكارُ أنْ يكونَ أحدٌ أضلَّ من المشركين حيثُ تركوا عبادةَ السميعِ البصيرِ المجيبِ القادرِ الخبيرِ إلى عبادة مَنْ لا يستجيبُ لهم لو سمعَ دعاءَهم، فضلاً أنْ يعلم سرائِرَهُم، ويراعي مصالِحَهُم. ﴿إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ ما دامتِ الدنيا. ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ﴾ لأنهم إما جماداتٌ وإما عبادٌ مسخَّرون مشتغِلُون بأحوالهم[1].

(٦) ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ﴾ يضرُّونهم ولا ينفعونَهم. ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾ مكذِّبين بلسانِ الحالِ أو المقالِ. وقيل الضميرُ للعابدين وهو كقوله تعالى ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ﴾[2].

(٧) ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٖ﴾ واضحاتٍ أو مبيناتٍ. ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلۡحَقِّ﴾ لأجله وفي شأنه، والمرادُ به الآياتُ، ووضْعُه موضعَ ضميرها ووضْعُ الذين كفروا موضعَ ضمير المتلوِّ عليهم للتسجيل عليها بالحقِّ وعليهم بالكفرِ والانهماكِ في الضلالة. ﴿لَمَّا جَآءَهُمۡ﴾ حينما جاءهم من غير نَظَرٍ وتأمُّل. ﴿هَٰذَا سِحۡرٞ مُّبِينٌ﴾ ظاهرٌ بطلانُه.

(٨) ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ إضرابٌ عن ذكْرِ تسميتهم إياهُ سحراً إلى ذكْرِ ما هو أشنعُ منه وإنكارٌ له وتعجيبٌ. ﴿قُلۡ إِنِ ٱفۡتَرَيۡتُهُۥ﴾ على الفَرَضِ. ﴿فَلَا تَمۡلِكُونَ لِي مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۖ﴾ أي إنْ عاجلني اللهُ بالعقوبة فلا تقدرونَ على دفْعِ شيءٍ منها، فكيف أجترىءُ عليه وأعرِّضُ نفسي للعقابِ من غير توقُّعِ نفعٍ ولا دفعِ ضُرٍّ من قِبَلِكُم. ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِۖ﴾ تندفعون فيه من القدْحِ في آياته. ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۖ﴾

---

(١) وضمائر العقلاء «وهم...» لإجرائهم إياها مجرى العقلاء.
ووصفها بما ذكر من ترك الاستجابة والغفلة ـ مع ظهور حالها ـ للتهكم بها وبعَبَدَتها، كقوله تعالى: «إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم» (س٨/٧٨).

(٢) الأنعام: «٢٣».

يشهدُ لي بالصدقِ والبلاغِ وعليكم بالكذبِ والإنكارِ، وهو وعيدٌ بجزاء إفاضَتِهم. ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ وعدٌ بالمغفرة والرحمة لمَن تاب وآمن وإشعارٌ بحلم الله عنهم مع عِظَم جُرْمِهم.

قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ بديعاً منهم أدعوكُم إلى ما لا يدعون إليه، أو أقدرُ على ما لم يقدروا عليه، وهو الإتيانُ بالمقترحات كلِّها. ونظيرُهُ الخِفُّ بمعنى الخفيفِ. وقرىء بفتح الدالِ على أنه كقِيَم أو مقدَّر بمضافٍ أي ذا بدْعٍ. ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾ في الدارين على التفصيلِ إذ لا علمَ لي بالغيبِ، ولا لتأكيدِ النفي المشتملِ على ما يفعلُ بي، وما إما موصولة منصوبةٌ أوِ استفهاميةٌ مرفوعةٌ. وقرىء يَفْعَلُ أي يفعلُ الله. ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾ لا أتجاوزُه، وهو جوابٌ عن اقتراحهم الإخبارَ عما لم يوحَ إليه من الغيوب، أوِ استعجالُ المسلمين أنْ يتخلَّصوا من أذى المشركين. ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ من عقاب الله. ﴿مُّبِينٌ﴾ بيِّنُ الإنذارِ بالشواهدِ المبينة والمعجزاتِ المصدِّقة.

(١٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ أي القرآنُ. ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾ وقد كفرتُم به، ويجوزُ أنْ تكونَ الواوُ عاطفةً على الشرط وكذا الواوُ في قوله: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ إلا أنَّها تعطفه بما عُطِفَ عليه على جملةِ ما قبلَه. والشاهدُ هو عبدُالله بنُ سلام، وقيل موسى عليه الصلاة والسلام، وشهادتُه ما في التوراة من نعتِ الرسول عليه الصلاة والسلامُ. ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ مثلِ القرآنِ وهو ما في التوراة من المعاني المصدِّقة للقرآنِ المطابقة له، أو مثلِ ذلك وهو كونُه من عند الله. ﴿فَـَٔامَنَ﴾ أي بالقرآنِ لما رآه من جنسِ الوحي مطابقاً للحقِّ. ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ عن الإيمان. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ استئنافٌ مشْعِرٌ بأنَّ كفرَهُم به لضلالهم المسبَّبِ عن ظلمِهم، ودليلٌ على الجواب المحذوف مثلُ ألستُم ظالمين.

(١١) ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ لأجلِهم. ﴿لَوْ كَانَ﴾ الإيمانُ أو ما أتى به محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ﴾ وهم سقَّاطٌ إذ عامَّتُهم فقراءُ وموالٍ ورعاةٌ، وإنما قاله قريشٌ وقيل بنو عامر وغطفانُ وأسدٌ وأشجعُ لما أسلَم جُهَيْنَةُ ومزينةُ وأسْلَمُ وغفارٌ، أو اليهودُ حين أسلمَ عبدالله بنُ سلام وأصحابه. ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ﴾ ظرفٌ لمحذوفٍ مثلُ ظَهَر عنادِهم وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ مسبَّبٌ عنه وهو كقولهم: أساطيرُ الأولين.

(١٢) ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ﴾ ومَن قَبلِ القرآنِ وهو خبرٌ لقوله: ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ ناصبٌ لقوله: ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ على الحال. ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ﴾ لكتاب موسى أو لما بين يديه وقد قُرِىءَ به. ﴿لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾ حالٌ من ضمير كتابٍ في مصدِّق أو منه لتخصُّصِه الصِّفةِ. وعاملُها معنى الإشارة، وفائدتُها الإشعارُ بالدلالة

على أنَّ كونَه مصدِّقاً للتوراة كما دلَّ على أنه حقٌّ دلَّ على أنه وحيٌ وتوقيفٌ من الله سبحانه وتعالى. وقيل مفعولُ مصدِّقٍ أي يصدِّقُ ذا لسانٍ عربي بإعجازه. ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ علَّةُ مصدِّقٍ، وفيه ضميرُ الكتابِ أو اللهِ أو الرسولِ، ويؤيد الأخيرَ قراءةُ نافع وابن عامر والبزي بخلافٍ عنه ويعقوبَ بالتاء ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ﴾ عطفٌ على محلِّه.

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ جمَعوا بين التوحيد الذي هو خُلاصةُ العلم والاستقامةِ في الأمور التي هي منتهى العمل، وثُمَّ للدلالة على تأخُرِ رتبةِ العمل وتوقُّفِ اعتباره على التوحيد. ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ من لحوقِ مكروهٍ. ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ على فواتِ محبوبٍ، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشرط.

(١٤) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من اكتساب الفضائل العلميةِ والعمليةِ، وخالدين حالٌ من المستِكنِّ في أصحابُ، وجزاءً مصدرٌ لفعلٍ دلَّ عليه الكلامُ أي جُوزُوا جزاءً.

(١٥) ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا﴾ وقرأ الكوفيون إحساناً، وقرىء حُسُناً أي إيصاء حَسَناً. ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ ذاتُ كرهٍ أو حملاً ذا كرهٍ وهو المشقةُ. وقرأ الحجازيانِ وأبو عمرو وهشام بالفتح، وهما لغتانِ كالفَقرِ والفُقر، وقيل المضمومُ اسمٌ والمفتوحُ مصدرٌ. ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ﴾ ومدةُ حَمْلِهِ وفصالِه، والفصالُ الفطامُ ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ وفصلُه أو وقتُه والمرادُ به الرضاعُ التامُّ المنتهي به ولذلك عبَّر به كما يعبَّر بالأمدِ عن المدةِ، قال:

كُلُّ حَيٍّ مُسْتَكْمِلٌ عِدَّةَ العُمْرِ وَمُودٍ إذَا انْتَهَى أَمَدُهْ[1]

﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ كلُّ ذلك بيانٌ لما تكابده الأمُّ في تربية الولد مبالغةً في التوصية بها، وفيه دليلٌ على أنَّ أقلَّ مدَّةِ الحملِ ستةُ أشهرٍ لأنه إذا حطَّ منه الفصالُ حولانِ لقوله تعالى ﴿حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ﴾[2] بقي ذلك وبه قال الأطباءُ، ولعلَّ تخصيصَ أقلِّ الحملِ وأكثرِ الرَّضاع لانضباطِهما وتحقُّقِ ارتباط حكمِ النَّسبِ والرضاع بهما. ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾ إذا اكتهلَ واستحكم قوَّته وعقله. ﴿وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾ قيل لم يُبْعَثْ نبيٌّ إلا بعدَ الأربعين. ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ﴾ ألهمني وأصلُه أولِعْني من أوزَعْتُهُ بكذا. ﴿أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ﴾ يعني نعمةَ الدينِ أو ما يعمُّها وغيرَها، وذلك يؤيدُ ما رُوِيَ

---

(١) البيت من الخفيف، ومودٍ: ميّت راحل، اسم فاعل من أودى.

(٢) البقرة: «٢٣٣».

أنها نزلتْ في أبي بكر رضيَ الله تعالى عنه[١] لأنه لم يكن أحدُ أسلمَ هو وأبواهُ من المهاجرينَ والأنصارِ سواهُ. ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾ نكَّره للتعظيم أو لأنه أرادَ نوعاً من الجنسِ يستجلِبُ رضا الله عزَّ وجلَّ. ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾ واجعلْ لي الصلاحَ سارياً في ذريتي راسخاً فيهم ونحوُه قولُه:

وَإِنْ تَعْتَذِرْ بِالمَحلِ عَنْ ذِي ضُرُوعِهَا إِلَى الضَيْفِ يَجْرِحْ في عَرَاقِيبِهَا نَصْلِي

﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾ عما لا ترضَاه أو يشغِلُ عنك. ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ المخلصينَ لك.

أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ وَيْلَكَ ءَامِنْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿١٨﴾

(١٦) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾ يعني طاعاتِهم فإنَّ المباحَ حسنٌ ولا يُثَابُ عليه. ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾ لتوبتِهم، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وحفص بالنون فيهما. ﴿فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلْجَنَّةِ﴾ كائنينَ في عِدادِهم أو مثابينَ أو معدودين فيهم. ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ﴾ مصدرٌ مؤكِّدٌ لنفسه فإنَّ يتقبلُ ويتجاوزُ وعدٌ. ﴿ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ﴾ أي في الدنيا.

(١٧) ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَآ﴾ مبتدأٌ خبره أولئك، والمرادُ به الجنسُ وإنْ صحَّ نزولُها في عبدالرحمن بن أبي بكر قبلَ إسلامه[٢]، فإنَّ خصوصَ السببِ لا يوجِبُ التخصيصَ. وفي أفٍّ قراءاتٌ ذُكِرَتْ في سورة بني إسرائيلَ[٣]. ﴿أَتَعِدَانِنِىٓ أَنْ أُخْرَجَ﴾ أُبعَثَ، وقرأ هشام أتعدانِّي بنونٍ واحدة مشدَّدةٍ. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾ فلم يرجعْ أحدٌ منهم. ﴿وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقولان: الغياثُ بالله منك، أو يسألانه أن يغيثَه بالتوفيق للإيمان. ﴿وَيْلَكَ ءَامِنْ﴾ أي يقولان له ويلك، وهو الدعاءُ بالثبورِ بالحثِّ على ما يخافُ على تركِه. ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أباطيلهم التي كتبُوها.

(١٨) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾ بأنهم أهلُ النار وهو يردُّ النزولَ في عبدالرحمن لأنه يدلُّ على أنه من أهلها لذلك وقد جُبَّ عنه إنْ كان لإسلامه. ﴿فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم﴾ كقوله في أصحاب الجنة. ﴿مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ بيانٌ للأمم. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ تعليلٌ للحكم على الاستئنافِ.

---

(١) انظر تفسير البغوي (٤/ ٢٥٨). وانظر «زاد المسير» (٧/ ٣٧٨).

(٢) قال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٤/ ١٧١): «ومن زعم أنها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر رضي الله عنه فقوله ضعيف لأن عبدالرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنه أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه وكان من خيار أهل زمانه». وانظر البحر المحيط (٨/ ٦١).

(٣) انظر سورة الإسراء: «٢٣».
والقراءات في «أف» هي: قرأ نافع وحفص «أفٍّ» منوناً بكسر الفاء، وقرأ ابن كثير وابن عامر «أفَّ» بفتح الفاء غير منوّن، وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي «أفِّ» بكسر الفاء غير منون (المبسوط لابن مهران ص٢٢٨).

وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ
فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ
تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾ ۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟
إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ
ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾

(١٩) ﴿وَلِكُلٍّ﴾ من الفريقين. ﴿دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾ مراتبُ من جزاءِ ما عملوا من الخير والشر، أو من أجلِ ما عملوا والدرجاتُ غالبةٌ في المثوبةِ وها هنا جاءتْ على التغليبِ. ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَها، وقرأ نافع وابن عامرٍ وحمزةُ والكسائيُّ وابن ذكوان بالنونِ. ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ بنقصِ ثوابٍ وزيادةِ عقابٍ.

(٢٠) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ يعذَّبون بها. وقيل تُعرضُ النارُ عليهم فَقُلِبَ مبالغةً كقولهم: عرضتُ الناقةَ على الحوض. ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ أي يُقَالُ لهم أذهبتُم، وهو ناصبُ اليومَ. وقرأ ابنُ كثيرٍ وابن عامر ويعقوبُ بالاستفهام، غيرَ أنَّ ابن كثير يقرؤُه بهمزة ممدودةٍ وهما يقرأان بها وبهمزتين محققتين. ﴿طَيِّبَٰتِكُمْ﴾ لذَّاتِكم. ﴿فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾ باستيفائها. ﴿وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ فما بقي لكم منها شيءٌ. ﴿فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾ الهوانِ وقد قرىء به. ﴿بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ﴾ بسببِ الاستكبارِ الباطل والفسوقِ عن طاعة الله، وقرىء تفسِقون بالكسرِ.

(٢١) ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ﴾ يعني هوداً. ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ جمعُ حقفٍ وهو رملٌ مستطيلٌ مرتفع فيه انحناءٌ من احقوقفَ الشيءُ إذا اعوجَّ، وكانوا يسكنون بين رمال مشرفة على البحر بالشِّحرِ(١) من اليمن. ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ﴾ الرسلُ. ﴿مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ﴾ قبلَ هودٍ وبعدَه، والجملةُ حالٌ أو اعتراضٌ. ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ أي لا تعبدوا، أو بأنْ لا تعبدوا فإنَّ النهيَ عن الشيءِ إنذارٌ من مضرَّته(٢). ﴿إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ هائلٍ بسببِ شِرْكِكُم.

(٢٢) ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا﴾ لتصرفَنا. ﴿عَنْ ءَالِهَتِنَا﴾ عن عبادتِها. ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب على الشركِ. ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ في وعدك.

(٢٣) ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا علمَ لي بوقْتِ عذابكم ولا مدخلَ لي فيه فأستعجلُ به، وإنما علمُه عند الله فيأتيكم به في وقْته المقدَّرِ له. ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ﴾ إليكم وما على الرسول إلا البلاغُ. ﴿وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ﴾ لا تعلمون أنَّ الرسلَ بُعِثُوا مبلِّغين منذِرينَ لا معذِّبين مقترِحين.

---

(١) بفتح الشين وتكسر، ساحل البحرين عدن وعمان.

(٢) وسّط قوله: «وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه» بين الإنذار وبين «ألا تعبدوا إلا الله» وذلك للمسارعة إلى ما ذكر من التقرير والتأكيد، وللإيذان باشتراكهم في العبارة المحكية (س٨/ ٨٥).

فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾

(٢٤) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا﴾ سحاباً عرضَ في أُفُق السماء. ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾ متوجِّه أوديتِهم، والإضافةُ فيه لفظيةٌ وكذا في قوله: ﴿قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ أي يأتينا بالمطر. ﴿بَلْ هُوَ﴾ أي قال هودٌ عليه الصلاة والسلام بل هو: ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ من العذاب، وقرىء قلْ بلْ: ﴿رِيحٌ﴾ هي ريحٌ، ويجوز أنْ يكونَ بدلَ ما. ﴿فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ صفتُها وكذا قوله:

(٢٥) ﴿تُدَمِّرُ﴾ تهلِكُ. ﴿كُلَّ شَىْءٍۭ﴾ من نفوسهم وأموالهم. ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ إذ لا توجدُ نابضةُ حركةٍ ولا قابضةُ سكونٍ إلا بمشيئته، وفي ذِكْرِ الأمر والربِّ وإضافته إلى الريح فوائدُ سبقَ ذِكْرها مراراً، وقرىء يدمِّر كلَّ شيء من دمَّر دماراً إذا هَلَكَ فيكون العائد محذوفاً أو الهاء في ربِّها، ويُحْتَمَلُ أن يكونَ استئنافاً للدلالة على أنَّ لكل ممكنٍ فَناءً مقضياً لا يتقدَّم ولا يتأخَّرَ، وتكونُ الهاءُ لكلِّ شيء فإنه بمعنى الأشياءِ ﴿فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾ أي فجاءتْهمُ الريحُ فدمَّرتْهم فأصبحوا بحيثُ لو حضرْتَ بلادَهم لا ترى إلا مساكنَهم، وقرأ عاصم وحمزةُ والكسائي لا يُرَى إلا مساكِنُهم بالياءِ المضمومة ورفعِ المساكنِ. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾. رُوِيَ أنَّ هوداً عليه السلام لما أحسَّ بالريح اعتزلَ بالمؤمنين في الحظيرة وجاءتِ الريح فأمالتِ الأحقافَ على الكفرةِ، وكانوا تحتَها سبعَ ليال وثمانيةَ أيام، ثم كُشِفَتْ عنهم واحتملتْهم فقذفتهم في البحر.

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ إنْ نافيةٌ وهي أحسنُ من ما ههنا لأنها توجِبُ التكريرَ لفظاً ولذلك قُلِبَتْ ألفُها هاءً في مهما، أو شرطيةٌ محذوفةُ الجوابِ والتقديرُ، ولقد مكَّنَّاهم في الذي أو في شيءٍ إنْ مكَّنَّاكم فيه كان بغْيُكم أكثرَ، أو صلةٌ كما في قوله:

يُـرَجِّـي المَـرْءُ مَـا إِنْ لاَ يَـرَاهُ ويعـرض دُونَ أدنـاهُ الخُطُـوبُ

والأولُ أظهرُ وأوفقُ لقوله ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا﴾[1] ﴿كَانُوٓا۟ هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَءَاثَارًا﴾[2]. ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾ ليعرفُوا تلك النعم ويستدلوا بها على مانِحِها تعالى ويواظبوا على شكرِها. ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ من الإغناءِ وهو القليلُ. ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ صلةٌ لما أغنى وهو ظرفٌ جرى مجرى التعليلِ من حيث إنَّ الحكمَ مرتَّبٌ على ما أُضِيفَ إليه، وكذلك حيثُ. ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ من العذاب.

---

(١) مريم: «٧٤».
(٢) غافر: «٢١».

وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ
ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ
يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا
سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ
أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾

(٢٧) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم﴾ يا أهلَ مكّةَ. ﴿مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾ كحجْرِ ثمودَ وقُرى قوم لوطٍ. ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْآيَٰتِ﴾ بتكريرها. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عن كفرهم.

(٢٨) ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ فهلاَّ مَنَعْتهُم من الهلاك آلهتُهم الذين يتقرَّبون بهم إلى اللهِ تعالى حيثُ قالوا: هؤلاءِ شفعاؤُنا عند الله، وأولُ مفعولي اتخذوا الراجعُ إلى الموصول محذوفٌ، وثانيهما قرباناً وآلهةً بدلٌ أو عطفُ بيانٍ، أو آلهةً وقرباناً حالٌ أو مفعولٌ له على أنه بمعنى التقرُّبِ. وقرىء قُرباناً بضمِّ الراءِ. ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾ غابوا عن نصرهم وامتنع أن يستمدُّوا بهم امتناعَ الاستمدادِ بالضالِّ. ﴿وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ﴾ وذلك الاتخاذُ الذي هذا أثره صرفهم عن الحقِّ. وقرىء أَفَكَهم بالتشديد للمبالغةِ، وآفكهم أي جعلَهم آفكينَ، وآفِكُهم أي قولُهم الآفِكُ أي ذو الإفك. ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

(٢٩) ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ أملْناهم إليك، والنفرُ دون العشرةِ وجمعُه أنفارٌ. ﴿يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ حَالٌ محمولةٌ على المعنى. ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾ أي القرآنَ أوِ الرسولَ. ﴿قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟﴾ قالوا بعضُهم لبعض اسكتُوا لنسمعَهُ. ﴿فَلَمَّا قُضِىَ﴾ أتمَّ وفرغَ من قراءته، وقرىء على بناءِ الفاعلِ وهو ضميرُ الرسولِ عليه الصلاةُ والسلام. ﴿وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ﴾ أي منذرين إيَّاهم بما سمعوا. رُوِيَ أنهم وافَوْا رسولَ الله ﷺ بوادي النخلةِ عند مُنْصَرَفِهِ من الطائف يقرأ في تهجُّده[1].

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ قيل إنما قالوا ذلك لأنهم كانوا يهوداً أو ما سمعوا بأمر عيسى عليه الصلاة والسلام. ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾ من العقائد. ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ من الشرائع.

(٣١) ﴿يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ بعضَ ذنوبكم، وهو ما يكون في

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٥٠ رقم ٤٠٣): «متفق عليه ـ البخاري (٨/ ٦٦٩ رقم ٤٩٢١) ومسلم (١/ ٣٣١ رقم ١٤٩/ ٤٤٩) ـ بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «وكانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله: «في جوف الليل يصلي» ودون قوله «نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره».
وأما زوبعة: فأخرجه الحاكم ـ في المستدرك (٢/ ٤٥٦) ـ من رواية ذر عن ابن مسعود قال: (هبطوا يعني الجن على النبي ﷺ وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا أنصتوا).
وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل الله «وإذ صرفنا إليك ـ الآية» وقوله «نينوى» أخرجه الطبراني ـ في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٦/ ٣١) ـ من رواية قتادة عن هذه الآية قال: ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث» هـ.

خالص حقِّ الله، فإنَّ المظالمَ لا تُغفَرُ بالإيمان. ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ هو مُعَدٌّ للكفار، واحتجَّ أبو حنيفةَ رضي الله عنه باقتصارهم على المغفرة والإجارةِ على أنْ لا ثوابَ لهم، والأظهرُ أنهم في توابعِ التكليف كبني آدمَ.

وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ ۚ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

(٣٢) ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ إذ لا ينجي منه مهربٌ[١]. ﴿وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾ يمنعونه منه. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ حيثُ أعرضُوا عن إجابة من هذا شأنُه.

(٣٣) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ ولم يتعبْ ولم يعجزْ، والمعنى أنَّ قدرتَهُ واجبةٌ لا تنقصُ ولا تنقطع بالإيجاد أبدَ الآباد. ﴿بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي قادرٌ، ويدل عليه قراءةُ يعقوبَ يقدرُ، والباءُ مزيدةٌ لتأكيد النفي فإنه مشتملٌ على أنْ وما في حيِّزها ولذلك أجابَ عنه بقوله: ﴿بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ تقريرٌ للقدرة على وجهٍ عام يكون كالبرهان على المقصود، كأنه صدَّرَ السورةَ بتحقيق المبدأ أراد ختمَها بإثباتِ المعادِ.

(٣٤) ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ منصوبٌ بقول مضمرٍ مقولُه: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾ والإشارةُ إلى العذاب. ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ بكفرِكم في الدنيا، ومعنى الأمرِ هو الإهانةُ بهم والتوبيخُ لهم.

(٣٥) ﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ أولو الثباتِ والجدِّ منهم فإنك من جملتهم، ومِنْ للتبيين، وقيل للتبعيضِ، وأولو العزمِ منهم أصحابُ الشرائع اجتهدوا في تأسيسها وتقريرِها وصبروا على تحمُّلِ مشاقِّها ومعاداةِ الطاعنين فيها، ومشاهيرُهم: نوحٌ، وإبراهيمُ، وموسى، وعيسى عليه السلام. وقيل الصابرون على بلاءِ الله كنوحٍ صَبَرَ على أذى قومِه كانوا يضربونه حتى يُغْشَى عليه، وإبراهيمُ على النارِ وذبحِ ولده، والذبيحُ على الذبح، ويعقوبُ على فقْدِ الولد والبصرِ، ويوسفُ على الجبِّ والسجن، وأيوبُ على الضرِّ، وموسى قال له قومه ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾[٢]،

---

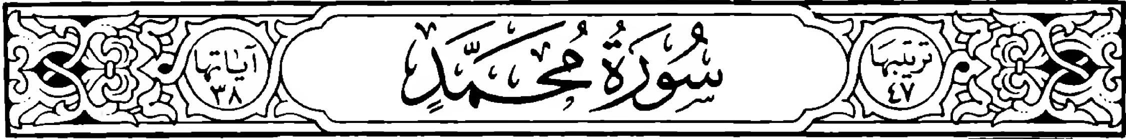
(١) وإظهار «داعي الله» من غير اكتفاء بأحد الضميرين للمبالغة في الإيجاب بزيادة التقرير، وتربية المهابة، وإدخال الروعة.
وتقييدُ الإعجاز بكونه في الأرض لتوسيع الدائرة، أي فليس بمعجز له تعالى بالهرب وإن هرب كل مهرب من أقطارها أو دخل في أعماقها (س٨/ ٨٩).

(٢) الشعراء: «٦١ ـ ٦٢».

وداودُ بكىٰ على خطيئته أربعينَ سنةً، وعيسى لم يضعْ لبنةً على لبنةٍ. ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ لكفارِ قريشٍ بالعذاب فإنه نازلٌ بهم في وقتِه لا محالةَ. ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾ استقْصَروا من هوله مدةَ لُبْثِهم في الدنيا حتى يحسِبُونَها ساعَة. ﴿بَلَٰغٌ﴾ هذا الذي وُعِظْتُم به أو هذه السورةُ بلاغ أي كفايةٌ، أو تبليغٌ من الرسول عليه الصلاة والسلام ويؤيدُه أنه قُرِىءَ بلغ، وقيل بلاغٌ مبتدأ خبرُه لهم وما بينَهما اعتراضٌ أي لهم وقتٌ يبلغُون إليه كأنهم إذا بلَغُوه ورأوا ما فيه استقْصَروا مدةَ عُمُرِهم، وقرىء بالنصبِ أي بلِّغوا بلاغاً. ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الخارجونَ عن الاتعاظِ أو الطاعةِ. وقرىء يهلِكُ بفتحِ اللامِ وكسْرها من هلَك وهلِك، ونُهلِكُ بالنونِ ونصْبِ القومِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الأحقافِ كُتِبَ له عشرُ حسناتٍ بعددِ كلِّ رمْلةٍ في الدنيا»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥١ رقم ٤٠٦).
وتقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.



بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴿١﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ وَهُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡ كَفَّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡ وَأَصۡلَحَ بَالَهُمۡ ﴿٢﴾

سورةُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورةَ القتال، وهي مدنيةٌ[١] وقيل مكيةٌ، وآيها سبعٌ أو ثمان وثلاثون أو أربعونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ امتنعوا عن الدخولِ في الإسلام وسلوكِ طريقه، أو مَنَعُوا الناسَ عنه كالمطعِمين يومَ بدرٍ، أو شياطينُ قريش، أو المصريينَ من أهل الكتاب، أو عامٌّ في جميع من كفر وصدَّ. ﴿أَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ جعلَ مكارِمَهم ـ كصلةِ الرحم وفكِّ الأَسَارى وحفظِ الجوارِ ـ ضالةً أي ضائعةً محيطةً بالكفر، أو مغلوبة مغمورةً فيه كما يضلُّ الماءُ في اللبن، أو ضلالٌ حيث لم يقصدوا به وجْهَ الله، أو أبطلَ ما عملوه من الكيدِ لرسوله والصدِّ عن سبيله بنصرِ رسوله وإظهارِ دينه على الدين كلِّه.

(٢) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ يعمُّ المهاجرينَ والأنصارَ والذين آمنوا من أهل الكتاب وغيرَهم.

---

(١) أخرج ابن الضريس عن ابن عباس رضي الله عنه قال: أنزلت سورة القتال بالمدينة. وأخرج النحاس وابن مردويه والبيهقي في «الدلائل» عن ابن عباس رضي الله عنه قال: نزلت سورة محمد بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه عن عبدالله بن الزبير قال: نزلت بالمدينة سورة «الذين كفروا» كما في «الدر المنثور» (٧/ ٤٥٦).

﴿ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ ﴾ تخصيصٌ للمنزَّلِ عليه مما يجبُ الإيمانُ به تعظيماً له وإشعاراً بأنَّ الإيمان لا يتمُّ دونه، وأنه الأصلُ فيه، ولذلك أكَّده بقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ اعتراضاً على طريقة الحصْر. وقيل حقيقته بكونه ناسخاً لا يُنْسَخُ. وقرىء نَزَلَ على البناء للفاعل، وأنزلَ على البناءين[1]، ونَزَلَ بالتخفيفِ. ﴿ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ﴾ سَتَرَهَا بالإيمان وعملِهم الصالحِ. ﴿ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾ في الدين والدنيا بالتوفيق والتأييد.

ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾

(٣) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ إشارةٌ إلى ما مرَّ من الإضلال والتكفير والإصلاح وهو مبتدأٌ خبرهُ. ﴿ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ ﴾ بسبب اتباع هؤلاءِ الباطلَ واتباع هؤلاءِ الحقَّ، وهذا تصريحٌ بما أشعر به ما قبلَها ولذلك سُمِّي تفسيراً. ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ مثلُ ذلك الضربِ. ﴿ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ﴾ يبينُ لهم. ﴿ أَمْثَٰلَهُمْ ﴾ أحوالَ الفريقين أو أحوالَ الناس، أو يضربُ أمثالَهم بأنْ جعلَ اتِّباعَ الباطلِ مثلاً لعمل الكفار والإضلالَ مثلاً لخيبتِهم واتباعَ الحقِّ مثلاً للمؤمنين، وتكفيرَ السيئات مثلاً لفوزِهم.

(٤) ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ في المحاربة. ﴿ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ ﴾ أصلُه فاضربوا الرقابَ ضرباً فحذفَ الفعلَ وقدَّم المصدرَ، وأُنيبَ منابَه مضافاً إلى المفعول ضماً إلى التأكيد والاختصارِ. والتعبيرُ به عن القتل إشعار بأنه ينبغي أن يكون بضربِ الرقابِ حيث أمكنَ، وتصويرٌ له بأشنعِ صورةٍ. ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ ﴾ أكثرتُم قَتْلَهم وأغلظتُموه من الثخينِ وهو الغليظُ. ﴿ فَشُدُّواْ ٱلْوَثَاقَ ﴾ فأسِرُوهم واحفظُوهم، والوَثَاقُ بالفتحِ والكسرِ ما يُوثَقُ به. ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ أي فإما تمنُّون منّاً أو تفدون فداءً، والمراد التخييرُ بعد الأسْرِ بين المنِّ والإطلاقِ وبينَ أخذِ الفداءِ، وهو ثابتٌ عندنا فإنَّ الذَّكَرَ الحرَّ المكلَّفَ إذا أُسِرَ تخيَّر الإمامُ بينَ القتلِ والمنِّ والفداءِ، والاسترقاقُ منسوخٌ عند الحنفيةِ أو مخصوصٌ بحربِ بدرٍ فإنهم قالوا يتعيَّن القتلُ أوِ الاسترقاقُ. وقُرِىءَ فِدَاً كعصاً. ﴿ حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ آلاتِها وأثقالها التي لا تقومُ إلا بها كالسلاحِ والكراعِ، أي تنقضي الحربُ ولم يبقَ إلا مسلمٌ أو مسالِمٌ. وقيل آثامَها والمعنى حتى يضعَ أهلُ الحربِ شِرْكَهم ومعاصيهم، وهو غايةٌ للضرب أو الشدِّ أو للمنِّ والفداءِ أو للمجموعِ بمعنى أنَّ هذه الأحكامَ جاريةٌ فيهم حتى لا يكونَ حربٌ مع المشركين بزوالِ شوكَتِهم. وقيل بنزولِ عيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي الأمرُ ذلك، أو افعلوا بهم ذلك. ﴿ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ ﴾ لا نتقم منهم بالاستئصالِ. ﴿ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ ولكنْ أمرَكُم بالقتال ليبلُوَا المؤمنينَ بالكافرين بأنْ يجاهِدُوهم فيستوجِبُوا الثوابَ العظيمَ، والكافرين بالمؤمنينَ بأنْ يعاجِلَهم على أيديهم ببعضِ عذابِهم كي يرتدعَ بعضُهم عن الكفرِ. ﴿ وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ أي جاهدوا، وقرأ البصريانِ وحفصٌ قُتِلُوا أي اسْتُشْهِدوا.

---

(١) أي على البناء للفاعل «أَنْزَلَ» وعلى البناء للمفعول «أُنْزِلَ».

﴿ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ فلن يضيِّعَها. وقرىء يَضِلَّ من ضلَّ، ويُضَلَّ على البناء للمفعولِ.

سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ
أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٩﴾
۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَٰفِرِينَ أَمْثَٰلُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ
ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن
تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾

(٥) ﴿ سَيَهْدِيهِمْ﴾ إلى الثواب، أو سيثبِّتُ هدايَتَهم. ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ﴾.

(٦) ﴿ وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ وقد عرَّفها لهم في الدنيا حتى اشتاقوا إليها فعملوا ما استحقُّوها به، أو بيَّنها لهم بحيثُ يعلم كلُّ واحد منزلَه ويهتدي إليه كأنه كان ساكِنَه منذُ خُلِقَ، أو طيَّبها لهم من العُرْفِ وهو طيبُ الرائحةِ، أو حدَّدها لهم بحيث يكون لكلّ جنة مفرزةٌ.

(٧) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ إنْ تنصروا دينَه ورسولَه. ﴿ يَنصُرْكُمْ﴾ على عدوِّكم. ﴿ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ في القيام بحقوق الإسلام والمجاهدةِ مع الكفار.

(٨) ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ فعثُوراً لهم وانحطاطاً ونقضه لعا قال الأعشى: فالتَّعْسُ أولى بها من أنْ أقولَ لَعَا. وانتصابُه بفعله الواجبِ إضمارُه سماعاً، والجملةُ خبرُ الذين كفروا أو مفسِّرةٌ لناصِبه. ﴿ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ عطفٌ عليه.

(٩) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ القرآنَ لما فيه من التوحيد والتكاليفِ المخالفةِ لما أَلِفُوه واشتهتْه أنفسُهم، وهو تخصيصٌ وتصريحٌ بسببه الكفرُ بالقرآن للتعْسِ والإضلال. ﴿ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ كرَّره إشعاراً بأنه يلزمُ الكفرُ بالقرآن ولا ينفكُّ عنه بحالٍ.

(١٠) ﴿ ۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ﴾ استأصلَ عليهم ما اختصَّ بهم من أنفسِهم وأهليهم وأموالهم. ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾ من وضْعِ الظاهرِ موضعَ المضمَرِ. ﴿أَمْثَٰلُهَا﴾ أمثالُ تلك العاقبةِ أو العقوبةِ، أو الهلَكَةِ لأنَّ التدميرَ يدل عليها، أوِ السنَّةُ لقوله تعالى ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ﴾(١).

(١١) ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ناصرُهم على أعدائهم. ﴿ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ فيدفعُ العذابَ عنهم، وهو لا يخالُف قوله ﴿ وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾(٢) فإنَّ المولى فيه بمعنى المالِكِ.

(١٢) ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَتَمَتَّعُونَ﴾ ينتفعون بمتاع الدنيا. ﴿ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ﴾ حريصينَ غافلينَ عن العاقبة. ﴿ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ منزلٌ ومقام.

---

(١) الفتح: «٢٣».
(٢) يونس: «٣٠».

وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ على حذف المضافِ وإجراءِ أحكامِه على المضافِ إليه، والإخراجُ باعتبار التسبُّبِ[1]. ﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ بأنواعِ العذاب. ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ يَدفعُ عنهم العذابَ وهو كالحالِ المحكِيَّةِ.

(١٤) ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ حجَّةٍ من عنده وهو القرآنُ، أو ما يعمُّه، والحججُ العقلية كالنبيِّ ﷺ والمؤمنينَ. ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ كالشركِ والمعاصي. ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ في ذلك لا شبهةَ لهم عليه فضلاً عن حجَّةٍ.

(١٥) ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي فيما قصَصْنا عليك صفتَها العجيبةَ. وقيل مبتدأٌ خبرُه: كَمَن هو خالدٌ في النار، وتقديرُ الكلام أَمَثَلُ أهلِ الجنة كمثلِ مَنْ هو خالدٌ، أو أَمَثَلُ الجنةِ كمثلِ جزاءِ من هو خالدٌ فعرَّى عن حرفِ الإنكارِ وحذفَ ما حذف استغناءً يجري مثلُه تصويراً لمكابرةِ مَنْ يسوي بين المتمسِّك بالبيِّنةِ والتابعِ للهوى بمكابرةِ مَنْ يسوي بين الجنةِ والنارِ، وهو على الأولِ خبرٌ محذوفٌ تقديرهُ: أفَمَنْ هو خالدٌ في هذه الجنةِ كمن هو خالدٌ في النار، أو بدلٌ من قوله ﴿كَمَن زُيِّنَ﴾ وما بينَهما اعتراضٌ لبيان ما يمتازُ به مَنْ على بينةٍ في الآخرة تقريراً لإنكار المساواة[2]. ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾ استئنافٌ لشرح المثلِ أو حالٌ من العائدِ المحذوف، أو خبر لمثلٍ. وآسِنٌ من أَسَنَ الماءُ بالفتح إذا تغيَّر طعمُه وريحُه، أو بالكسرِ على معنى الحدوثِ. وقرأ ابن كثير أَسِنَ. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾ لم يصِرْ قارصاً ولا حازراً. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ لذيذةٍ لا يكون فيها كراهةُ طعم وريحٌ ولا غائلةُ سُكْرٍ وخمارٍ تأنيثُ لذٍّ أو مصدرٌ نعت به بإضمار ذات، أو تجوُّزٍ، وقرئت بالرفع على صفة الأنهار والنصب على العلَّة. ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ لم يخالِطْه الشمعُ وفضلاتُ النحلِ وغيرُها، وفي ذلك تمثيلٌ لما يقومُ مقامَ الأشربة في الجنة بأنواع ما يُسْتَلَذُّ منها في الدنيا بالتجريد عما ينقصُها وينغِّصها، والتوصيفُ بما يوجب غزارتَها واستمرارَها. ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ صنفٌ على هذا القياس. ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ عطفٌ على الصنف المحذوفِ. أو مبتدأٌ خبره محذوفٌ أي لهم مغفرةٌ. ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾ مكانَ تلك الأشربةِ. ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ﴾ من فَرْطِ الحرارةِ.

---

(١) وصف القرية الأولى بشدة القوة للإيذان بأولوية الثانية منها بالإهلاك لضعف قوتها، كما أن وصف الثانية بإخراجه عليه الصلاة والسلام للإيذان بأولويتها في الإهلاك لقوة جنايتها. (س٨/ ٩٥).

(٢) وعبر عنهم بالمتقين إيذاناً بأن الإيمان والعمل الصالح من باب التقوىٰ الذي هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها وترك السيئات عن آخرها (س٨/ ٩٥).

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ۖ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ ۙ رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾

(١٦) ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ ﴾ يعني المنافقينَ كانوا يحضرون مجلسَ الرسولِ ﷺ ويسمعون كلامَهُ فإذا خرجوا. ﴿ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ﴾ أي لعلماءِ الصحابة رضي الله تعالى عنهم. ﴿ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ﴾ ما الذي قال الساعةَ، استهزاءً أو استعلاماً إذ لم يُلقُوا له آذانَهم تهاوُناً به، وآنفاً من قولهم: أنفُ الشيءِ لما تقدَّم منه مستعارٌ من الجارِحة، ومنه استأنفَ وائتنفَ وهو ظرفٌ بمعنى وقتاً مؤتنفاً، أو حالٌ من الضمير في قال، وقرأ ابنُ كثير أنِفاً[1].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ فلذلك استهزؤُوا وتهاونُوا بكلامِه.

(١٧) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ أي زادهم اللهُ بالتوفيق والإلهامِ، أو قولِ الرسول عليه الصلاة والسلام. ﴿ وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ بيَّن لهم ما يتَّقون أو أعانَهم على تقواهُم، أو أعطاهم جزاءَها.

(١٨) ﴿ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ ﴾ فهل ينتظرون غيْرَهَا. ﴿ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ﴾ بدلُ اشتمال من الساعةِ، وقوله: ﴿ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ﴾ كالعِلَّة له، وقرىء أنْ تأتِهم على أنه شرطٌ مُسْتأْنَفٌ جزاؤُه: ﴿ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴾ والمعنى أنْ تأتِهم الساعةُ بغتة لأنه قد ظهر أماراتُها كمبعثِ النبيِّ عليه الصلاة والسلام، وانشقاقِ القمر فكيف لهم ذكراهُم أي تذكُّرهم إذا جاءتْهم الساعةُ بغتةً، وحينئذ لا يفرغُ له ولا ينفعُ[2].

(١٩) ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ ﴾ أي إذا علمتَ سعادةَ المؤمنين وشقاوةَ الكافرين فاثبُتْ على ما أنتَ عليه من العلم بالوحدانية وتكميلِ النفسِ بإصلاح أحوالها وأفعالِها وهضْمِها بالاستغفارِ لذنبك. ﴿ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ ولذنوبهم بالدعاءِ لهم والتحريض على ما يستدعي غفرانَهم، وفي إعادة الجارِّ وحذفِ المضافِ إشعارٌ بفرْطِ احتياجِهم وكثرةِ ذنوبهم وأنها جنسٌ آخرُ، فإن الذَّنْبَ له مالَهُ تبعةٌ ما بتركِ الأَوْلَى. ﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ ﴾ في الدنيا فإنها مراحلُ لا بدَّ من قطْعِها. ﴿ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴾ في العقْبى فإنها دار إقامتِكم فاتقوا اللهَ واستغفروه وأعِدُّوا لمعادِكم.

(٢٠) ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ﴾ أي هلاَّ نزلتْ سورةٌ في أمر الجهاد. ﴿ فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ

---

(١) يقال: ذكره آنفاً وأنفاً وسالفاً.
ذكر الأولى والثالثةَ الرازي في مختاره، وذكر القراءتين الفيروز في قاموسه هـ.

(٢) وتقديم «إذا جاءتهم» على «ذكراهم» للإشعار بغاية سرعة مجيئها. (س٨/ ٩٧).

﴿مُّحۡكَمَةٞ﴾ مبيِّنةٌ لا تشابُهَ فيها. ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلۡقِتَالُ﴾ أي الأمرُ به. ﴿رَأَيۡتَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ضعفٌ في الدين وقيلَ: نفاقٌ. ﴿يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ نَظَرَ ٱلۡمَغۡشِيِّ عَلَيۡهِ مِنَ ٱلۡمَوۡتِۖ﴾ جُبْناً ومخافةً. ﴿فَأَوۡلَىٰ لَهُمۡ﴾ فويلٌ لهم، أفعلُ من الولْيِ وهو القربُ، أو فَعْلَى من آلَ ومعناه الدعاءُ عليهم بأن يليهم المكروهُ أو يؤول إليه أمرُهم.

طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ ﴿٢١﴾ فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ إِن تَوَلَّيۡتُمۡ أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ ﴿٢٢﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمۡ وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى ٱلشَّيۡطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمۡ وَأَمۡلَىٰ لَهُمۡ ﴿٢٥﴾

(٢١) ﴿طَاعَةٞ وَقَوۡلٞ مَّعۡرُوفٞۚ﴾ استئنافٌ أي أمرُهم طاعةٌ أو طاعةٌ وقولٌ معروف خيرٌ لهم، أو حكايةُ قولِهم لقراءةِ أبيٍّ يقولون طاعةٌ. ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي جدَّ وهو لأصحاب الأمرِ، وإسناده إليه مجازٌ وعاملُ الظرفِ محذوف، وقيل ﴿فَلَوۡ صَدَقُواْ ٱللَّهَ﴾ أي فيما زعموا من الحرصِ على الجهاد أو الإيمان. ﴿لَكَانَ﴾ الصدقُ ﴿خَيۡرٗا لَّهُمۡ﴾.

(٢٢) ﴿فَهَلۡ عَسَيۡتُمۡ﴾ فهل يُتَوَقَّعُ منكم[1]. ﴿إِن تَوَلَّيۡتُمۡ﴾ أمورَ الناس وتأمَّرْتُم عليهم، أو أعرضتم وتوليتم عن الإسلام. ﴿أَن تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَتُقَطِّعُوٓاْ أَرۡحَامَكُمۡ﴾ تناحُراً على الولاية وتجاذباً لها، أو رجوعاً إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من التغاوُرِ ومقاتلةِ الأقاربِ، والمعنى أنهم لضعفِهم في الدين وحرصِهم على الدنيا أحقَّاءُ بأنْ يُتَوَقَّعَ ذلك منهم مَنْ عرف حالَهم ويقول لهم: هل عسيتُم، وهذا على لغةِ الحجاز فإنَّ بني تميم لا يُلْحِقُون الضميرَ به، وخبرُه أنْ تفسِدوا وإن توليتم اعتراضٌ، وعن يعقوبَ توليتُم أي إنْ تولاَّكم ظَلَمةٌ خرجتُم معهم وساعدتُموهم في الإفساد وقطيعةِ الرحم وتقطِّعوا من القطْعِ، وقرىء تَقَطَّعوا من التقطُّعِ.

(٢٣) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارةٌ إلى المذكورين[2]. ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ لإفسادِهم وقطعِهم الأرحامَ. ﴿فَأَصَمَّهُمۡ﴾ عن استماع الحق. ﴿وَأَعۡمَىٰٓ أَبۡصَٰرَهُمۡ﴾ فلا يهتدون سبيلَه.

(٢٤) ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ يتصفَّحونه وما فيه من المواعظ والزواجرِ حتى لا يجسُروا على المعاصي. ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ لا يصلُ إليها ذِكْرٌ ولا ينكشفُ لها أمرٌ، وقيل أمْ منقطعةٌ ومعنى الهمزة فيها التقريرُ، وتنكيرُ القلوب لأنَّ المرادَ قلوبُ بعضٍ منهم أو للإشعار بأنها لإبهامِ أمرِها في القساوة، أو لفرْطِ جهالَتِها ونُكْرِها كأنها مبهمةٌ منكورةٌ. وإضافةُ الأقفال إليها للدلالة على أقفالٍ مناسبة لها مختصَّةٍ بها لا تجانِسُ الأقفالَ المعهودةَ. وقرىء إقفالُها على المصدر.

(٢٥) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرۡتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدۡبَٰرِهِم﴾ أي ما كانوا عليه من الكفر. ﴿مِّنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلۡهُدَى﴾

---

(١) التفات إلى المخاطب لتأكيد التوبيخ وتشديد التقريع (س٨/٩٨).

(٢) التفات إلى الغائب للإيذان بأن ذكر هناتهم أوجب إسقاطهم عن رتبة الخطاب وحكاية أحوالهم الفظيعة لغيرهم (س٨/٩٩).

بالدلائلِ الواضحة والمعجزات الظاهرةِ. ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ سهَّلَ لهم اقترافَ الكبائر من السُّولِ وهو الاسترخاءُ. وقيل حملهم على الشهواتِ من السُّولِ وهو التمنِّي، وفيه أنَّ السُّولَ مهموزٌ قُلِبتْ همزتُه واواً لضمِّ ما قبلها ولا كذلك التسويلُ، ويمكنُ ردُّه بقولهم هما يتساولانِ، وقرىء سُوِّل على تقدير مضافٍ أي كيدُ الشيطان سولَّ لهم. ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ﴾ ومدَّ لهم في الآمال والأماني، أو أمهلَهم اللهُ تعالى ولم يعاجِلْهم بالعقوبةِ لقراءةِ يعقوبَ وأُمْلِي لهم أي وأنا أملي لهم فتكونُ الواوُ للحال أوِ الاستئنافِ، وقرأ أبو عمرو وأُمْلِيَ لهم على البناء للمفعول وهو ضميرُ الشيطانِ أو لهم.

ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾
فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ
وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ
أَضْغَٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾

(٢٦) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ أي قال اليهودُ الذين كفروا بالنبيِّ عليه الصلاة والسلام بعدَ ما تبيَّن لهم نعتُه للمنافقين، أو المنافقون لهم أو أحدُ الفريقين للمشركين. ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾ في بعض أمورِكم أو في بعض ما تأمُرون به، كالقعودِ عن الجهاد والموافقةِ في الخروجِ معهم إنْ أُخرِجُوا والتظافرِ على الرسولِ ﷺ. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾ ومنها قولُهم هذا الذي أفشاهُ الله عليهم، وقرأ حمزةُ والكسائي وحفصٌ إسرارَهم على المصدرِ.

(٢٧) ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ فكيف يعملون ويحتالُون حينئذ، وقرىء توفَّاهم وهو يحتملُ الماضي والمضارعَ المحذوفَ إحدى تاءيْه. ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ﴾ تصويرٌ لتوفِّيهم بما يخافون منه ويجبُنُون عن القتال له.

(٢٨) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى التوفِّي الموصوف. ﴿بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ﴾ من الكفر كَكِتْمَانِ نعتِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام وعصيانِ الأمر. ﴿وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ﴾ ما يرضاهُ من الإيمان والجهادِ وغيرِهما من الطاعات. ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ لذلك.

(٢٩) ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ﴾ أنْ لن يبرزَ اللهُ لرسوله ﷺ والمؤمنين. ﴿أَضْغَٰنَهُمْ﴾ أحقادَهم.

(٣٠) ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ لعرَّفناكَهم بدلائلَ تعرفُهم بأعيانهم[١]. ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ بعلاماتِهم التي نَسِمُهم بها، واللامُ لامُ الجواب كُرِّرَتْ في المعطوف. ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، ولحنُ القول أسلوبُه، أو إمالتُه إلى جهة تعريضٍ وتوريةٍ، ومنه قيل للمخطىءِ لاحنٌ لأنه يعدِلُ بالكلام عن الصواب. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فيجازيكم على حساب قصْدِكم إذ الأعمالُ بالنيات.

(١) الالتفات إلى نون العظمة لإبراز العناية بالإراءة (س٨/١٠١).

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ
وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٣٢﴾ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾
إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾

(٣١) ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالأمرِ بالجهاد وسائرِ التكاليف الشاقَّة. ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ﴾ على مشاقّه. ﴿وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ ما يخبرُ به عن أعمالِكم فيظهرُ حسنُها وقُبحُها، أو أخبارَهم عن إيمانِهم وموالاتِهم المؤمنينَ في صدقِها وكذبِها. وقرأ أبو بكر الأفعالَ الثلاثةَ بالياء لتوافِقَ ما قبلَها، وعن يعقوبَ ونبلُوْ بسكونِ الواو على تقدير ونحنُ نبلُو.

(٣٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ﴾ هم قريظةُ والنضيرُ أو المطعمونَ يومَ بدرٍ. ﴿لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ بكفرهم وصدِّهم، أو لن يضرُّوا رسولَ الله ﷺ بمشاقَّتِه، وحذفَ المضافَ لتعظيمه وتفظيعِ مشاقَّته. ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُمْ﴾ ثوابَ حسناتِ أعمالهم بذلك، أو مكايدَهم التي نصبُوها في مشاقَّته فلا يصِلُون بها إلى مقاصِدِهم ولا تثمرُ لهم إلا القتلَ والجلاءَ عن أوطانِهم.

(٣٣) ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾ بما أبطلَ به هؤلاءِ كالكفر والنفاقِ والعُجْبِ والرياء والمنِّ والأذى ونحوِها، وليس فيه دليلٌ على إحباط الطاعات بالكبائرِ.

(٣٤) ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ عامٌّ في كل مَنْ مات على كفرِه وإنْ صحَّ نزولُه في أصحاب القليبِ، ويدل بمفهومه على أنه قد يُغْفَرُ لمن لم يَمُتْ على كفرِهِ سائرُ ذنوبِه.

(٣٥) ﴿فَلَا تَهِنُوا﴾ فلا تضعُفوا. ﴿وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ﴾ ولا تدعوا إلى الصُّلح خَوَراً وتذلُّلاً، ويجوزُ نصبه بإضمارِ إنْ. وقرِئ ولا تدَّعوا من ادَّعى بمعنى دعَا، وقرأ أبو بكر وحمزةُ بكسرِ السين. ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ﴾ الأغلبونَ. ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ ناصِرُكم. ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ ولن يضيعَ أعمالَكُم، مِنْ وَتَرْتُ الرجلَ إذا قتلْتُ متعلِّقاً به من قريبٍ أو حميمٍ فأفردتُه منه من الوِتْرِ، شبَّه به تعطيلَ ثواب العملِ وإفرادَه منه[1].

(٣٦) ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لا ثباتَ لها. ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ ثوابَ إيمانكم وتقواكم. ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ﴾ جميعَ أموالِكم بل يقتصرُ على جزءٍ يسير كربعِ العشرِ والعشرِ.

---

(١) عبر عن ترك الإثابة في مقابلة الأعمال بالوَتْر الذي هو إضاعة شيء معتد به من الأنفس والأموال إبرازاً لغاية اللطف بتصوير الثواب بصورة الحق المستحق وتنزيل ترك الإثابة منزلة إضاعة أعظم الحقوق وإتلافها (س٨/ ١٠٢).

إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُواْ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ
ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ
يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴿٣٨﴾

(٣٧) ﴿ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ ﴾ فيجهدْكم بطلب الكلِّ، والإحفاءُ والإلحافُ المبالغة وبلوغ الغاية يُقَالُ: أحفى شاربَه إذ استأصله. ﴿ تَبْخَلُواْ ﴾ فلا تعطُوا. ﴿ وَيُخْرِجْ أَضْغَـٰنَكُمْ ﴾ ويضغنكم على رسولِ الله ﷺ والضميرُ في يخرجْ لله تعالى، ويؤيدُه القراءةُ بالنونِ أو البخلَ لأنه سببٌ الإضغانِ، وقرىء وتَخْرُجُ بالتاء والياء ورفعِ أضغانُكم.

(٣٨) ﴿ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ ﴾ أي أنتم يا مخاطَبون هؤلاءِ الموصوفونَ وقوله ﴿ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ استئنافٌ مقرِّرٌ لذلك، أو صلةٌ لهؤلاء على أنه بمعنى الذين وهو يعمُّ نفقةَ الغزْو والزكاة وغيرِهما. ﴿ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ﴾ ناسٌ يبخلون وهو كالدليل على الآية المتقدِّمة. ﴿ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ﴾ فإنَّ نفعَ الإنفاق وضرَّ البخل عائدانِ إليه، والبخلُ يُعَدَّى بعنْ وعلى لتضمُّنه معنى الإمساكِ والتعدي فإنه إمساك عن مستحقٍّ. ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ﴾ فما يأمركُم به فهو لاحتياجكم إليه فإن امتثلْتُم فلكُم وإن توليتم فعليكُم. ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْاْ ﴾ عطفٌ على أنْ تؤمنوا. ﴿ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ﴾ يُقِمْ مقامَكم قوماً آخرين. ﴿ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓاْ أَمْثَـٰلَكُم ﴾ في التولي والزهدِ في الإيمان، وهم الفرسُ لأنه سُئِلَ عليه الصلاة والسلام عنه وكان سلمانُ إلى جنبه فضربَ فخِذَه وقال: «هذا وقومُه»[١] أو الأنصارُ أو اليمنُ أو الملائكةُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ محمدٍ كان حقاً على الله أن يسقيهُ من أنهارِ الجنة»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٣ ـ ٣٨٤ رقم ٣٢٦٠ و٣٢٦١) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٥٨) والطبري في جامع البيان (١٣/ج٢٦/ ٦٦ ـ ٦٧) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي في الإسناد الأول: في إسناده مقال. ولم يقل في الآخر شيئاً، لكنه من طريق عبدالله بن جعفر المديني وهو ضعيف. وقال الحاكم: صحيح الإسناد، وسكت عنه الذهبي. وهو عند الحاكم من طريق عبدالعزيز الدراوردي.
وأخرجه البخاري (٨/ ٦٤١ رقم ٤٨٩٧) والترمذي (٥/ ٤١٣ رقم: ٣٣١٠) من طريق ثور بن زيد الديلي عن أبي الغيث عن أبي هريرة.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه وتقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الفتح

ترتيبها ٤٨ — آياتها ٢٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا
مُّسْتَقِيمًا ﴿٢﴾ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ
إِيمَٰنِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٤﴾

سورة الفتح مدنيةٌ[١]
نزلت في مرجعِ رسولِ الله ﷺ من الحديبية وآيُها تسعٌ وعشرون آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ وعدٌ بفتح مكّةَ، والتعبير عنه بالماضي لتحقُّقِه. أو بما اتفقَ له في تلك السَّنَةِ كفتحِ خيبرَ وَفَدَكَ. أو إخبارٌ عن صلح الحديبية، وإنما سمَّاه فتحاً لأنه كان بعد ظهوره على المشركين حتى سألوا الصلحَ وتسببَ لفتحِ مكةَ، وفرغ به رسولُ الله ﷺ لسائرِ العرب فغزاهم وفتحَ مواضعَ، وأدخل في الإسلام خلْقاً عظيماً، وظهر له في الحديبية آيةٌ عظيمة وهي أنه نزحَ ماؤُها بالكلية فتمضمضَ ثم مجَّه فيها فدرَّتْ بالماء حتى شربَ جميع مَنْ كان معه[٢]، أو فتحِ الرومِ فإنهم غلبوا الفرسَ في تلك السنةِ، وقد عرفتَ كونه فتحاً للرسول عليه الصلاة والسلام في سورة الرومِ. وقيل الفتح بمعنى القضاءِ أي قضينا لك أن تدخلَ مكّة من قابِلٍ.

(٢) ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ علّةٌ للفتح من حيثُ إنه مسبَّبٌ عن جهاد الكفارِ والسَّعْي في إزاحة الشرك

(١) انظر «الدر المنثور» (٧/ ٥٠٧). و«المحرر الوجيز» (١٥/ ٨٤).
(٢) يشير إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (٦/ ٥٨١ رقم ٣٥٧٧) عن البراء بن عازب.

وإعلاءِ الدين وتكميلِ النفوس الناقصةِ قهراً ليصيرَ ذلك بالتدريج اختياراً، وتخليصِ الضَّعفةِ عن أيدي الظَّلَمةِ. ﴿مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ جميعَ ما فَرَطَ منك مما يصحُّ أنْ تعاتَبَ عليه. ﴿وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ﴾ بإعلاء الدين وضمِّ الملْكِ إلى النبوة. ﴿وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ في تبليغ الرسالة وإقامةِ مراسِمِ الرئاسة.

(٣) ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ نصراً فيه عزٌّ ومَنَعَةٌ، أو يُعَزُّ به المنصورُ فوُصِفَ بوصْفه مبالغةً(١).

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ﴾ الثباتَ والطمأنينةَ. ﴿فِي قُلُوبِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ حتى ثبتُوا حيث تقلَقُ النفوسُ وتَدْحَضُ الأقدامُ. ﴿لِيَزۡدَادُوٓاْ إِيمَٰنٗا مَّعَ إِيمَٰنِهِمۡۗ﴾ يقيناً مع يقينهم برسوخ العقيدة واطمئنانِ النفس عليها، أو نُزِّل فيها السكونَ إلى ما جاءَ به الرسولُ ﷺ ليزدادوا إيماناً بالشرائع مع إيمانِهم بالله واليوم الآخر. ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ يدبِّر أمْرَها فيسلِّط بعضَها على بعض تارةً ويوقعُ فيما بينَهم السِّلْمَ أخرى كما تقتضيه حكمتُه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بالمصالح. ﴿حَكِيمٗا﴾ فيما يقدِّر ويدبِّر.

لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥ وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ۝٦

(٥) ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ علَّة بما بعدَه لما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾(٢) من معنى التدبير، أي دبَّر ما دبَّر من تسليط المؤمنين ليعرفوا نعمةَ الله فيه ويشكروها فيدخلُهم الجنةَ ويعذِّبُ الكفارَ والمنافقينَ لما غاظَهم من ذلك، أو فتحْنا أو أنزلَ أو جميعُ ما ذكر أو ليزدادوا، وقيل إنه بدلٌ منه بدلَ الاشتمالِ. ﴿وَيُكَفِّرَ عَنۡهُمۡ سَيِّـَٔاتِهِمۡۚ﴾ يغطِّيها ولا يظهرُها. ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي الإدخالُ والتكفير. ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا﴾ لأنه منتهى ما يطلبُ من جلْبِ نفعٍ أو دفعِ ضُرٍّ، وعند حالٌ من الفوزِ.

(٦) ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾ عطفٌ على يدخلَ إلا إذا جعلْته بدلاً فيكون عطفاً على المبدَلِ منه(٣). ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ ظنَّ الأمرِ السوءِ وهو أنْ لا ينصرَ رسولَه والمؤمنين. ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دائرةُ ما يظنُّونه ويتربَّصونه بالمؤمنينَ لا يتخطَّاهم، وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو دائرةُ السوءِ بالضمِّ وهما لغتانِ، غيرَ أنَّ المفتوحَ غلبَ في أنْ يُضَافَ إليه ما يُرَادُ ذمُّه والمضمومُ جَرَى مجرى الشرِّ وكلاهما في الأصل مصدرٌ. ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾ عطفٌ لما استحقُّوه في الآخرة على ما استوجَبُوْهُ في الدنيا. والواوُ في الأخيرين ـ والموضِعُ موضعُ الفاء. إذِ اللَّعنُ سببٌ للإعداد والغضبُ سببٌ له ـ لاستقلالِ الكلِّ في الوعيدِ بلا اعتبار السببيةِ. ﴿وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا﴾ جهنَّمُ.

---

(١) إظهار الاسم الجليل «الله» لإظهار كمال العناية بشأن النصر (س٨/ ١٠٤).
(٢) الفتح: «٧».
(٣) وفي تقديم المنافقين عن المشركين ما لا يخفى من الدلالة على أنهم أحف منهم بالعذاب (س٨/ ١٠٥).

وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿٧﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾
لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا
يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ
أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ
بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ
ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾

(٧) ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾.

(٨) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ على أُمتِكَ. ﴿وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾ على الطاعة والمعصية.

(٩) ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الخطابُ للنبيِّ ﷺ والأمّةِ، أو لهم على أنَّ خطابَه منزَّلٌ منزلةَ خطابهم. ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾ وتقوُّوهُ بتقويةِ دينه ورسوله ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾ وتعظِّموه. ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾ وتنزِّهوه أو تُصَلُّوا له. ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ غدوةً وعشيًّا أو دائماً. وقرأ ابنُ كثير وأبو عمرو الأفعالَ الأربعةَ بالياءِ، وقرىء تُعْزروه بسكون العين، وتَعزِروه بفتحِ التاءِ وضمِّ الزاي وكسْرها، وتعزِّزُوه بالزاءَيْنِ، وتُوقِروه من أوقَرَهُ بمعنى وَقَرَهُ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ لأنه المقصودُ ببيعته. ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ﴾ حالٌ أو استئنافٌ مؤكِّدٌ له على سبيل التخييلِ. ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾ نقضَ العهدَ. ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ﴾ فلا يعود ضررُ نكثه إلا عليه. ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾ في مبايعتِه ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ هو الجنةُ. وقُرِىءَ عهِدَ. وقرأ حفصٌ عليهُ بضمِّ الهاء، وابنُ كثير ونافع وابنُ عامر وروْحٌ فسنؤتيه بالنونِ. والآيةُ نزلتْ في بيعة الرضوانِ[1].

(١١) ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ هم أَسْلَمُ وجُهَيْنَةُ ومُزَيْنَةُ وغَفَارُ استنفرهُم رسولُ اللهِ ﷺ عامَ الحديبيةِ فتخلَّفوا واعتلُّوا بالشُّغل بأموالهم وأهاليهم، وإنما خلَّفهم الخذلانُ وضعْفُ العقيدةِ والخوفُ من مقاتلةِ قريش إنْ صدُّوهم. ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾ إذ لم يكن لنا مَنْ يقومُ بأشغالهم، وقرىء بالتشديدِ للتكثيرِ. ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾ من الله على التخلُّفِ. ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾ تكذيبٌ لهم في الاعتذارِ والاستغفارِ. ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فمن يمنعُكم من مشيئته وقضائِه. ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾ ما يضرُّكم كقتلٍ أو هزيمةٍ أو خللٍ في المالِ والأهلِ عقوبةً على التخلُّفِ، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالضمِّ. ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ﴾ ما يُضادُّ ذلك، وهو تعريضٌ بالردِّ. ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ فيعلَمُ تخلُّفَكم وقَصْدَكُم فيه.

---

(١) أخرج ابن أبي حاتم عن سلمة بن الأكوع قال: بينما نحن قائلون إذ نادى منادي رسول الله ﷺ: يا أيها الناس البيعة البيعة نزل روح القدس فسرنا إلى رسول الله ﷺ وهو تحت الشجرة [شجرة سمرة] فبايعناه فنزلت الآية. [أسباب النزول، جلال السيوطي ص٢٦٥].

بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ
وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا
ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا
كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

(١٢) ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ لِظَنِّكُم أنَّ المشركينَ يستأصِلُونهم، وأهلونَ جمعُ أهلٍ، وقد يُجمَعُ على أهلاتٍ كأرضاتٍ على أنَّ أصله أَهَلَةٌ، وأما أهالٌ فاسمُ جمعٍ كَلَيَالٍ ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ فتمكَّن فيها، وقرىء على البناءِ للفاعلِ وهو اللهُ أوِ الشيطانُ. ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ الظنَّ المذكورَ، والمرادُ التسجيلُ عليه بالسوءِ أو هو وسائر ما يظنون بالله ورسوله من الأمور الزائغةِ. ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا﴾ هالكينَ عندَ الله لفسادِ عقيدتكم وسوءِ نيَّتِكُم.

(١٣) ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾ وضَعَ الكافرين موضِعَ الضمير إيذاناً بأنَّ مَنْ لم يجمعْ بينَ الإيمان بالله ورسوله فهو كافرٌ وأنه مستوجِبٌ للسعير بكفرِه، وتنكيرُ سعيراً للتهويلِ أو لأنها نارٌ مخصوصةٌ.

(١٤) ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ يدبِّره كيفَ يشاءُ. ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾ إذ لا وجوبَ عليه. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ فإنَّ الغفرانَ والرحمةَ من ذاتِه، والتعذيبُ داخلٌ تحتَ قضائِه بالعرضِ، ولذلك جاءَ في الحديث الإلهي: «سبقتْ رحمتي غضبي»[1].

(١٥) ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ يعني المذكورين. ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ فإنه عليه الصلاة والسلام رجعَ من الحديبية في ذي الحجَّة من سنةِ ستٍّ وأقامَ بالمدينة بقيَّتها وأوائلَ المحرَّم، ثم غزا خيبرَ بمن شهدَ الحديبيةَ ففتحَها وغنِمَ أموالاً كثيرةً فخصَّها بهم. ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ أنْ يغيِّروه وهو وعدُه لأهلِ الحديبيةِ أنْ يعوِّضَهم من مغانم مكَّة مغانِمَ خيبرَ، وقيل قوله تعالى ﴿لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا﴾[2] والظاهر أنه في تبوكَ. والكلامُ اسمٌ للتكليم غلبَ في الجملة المفيدةِ. وقرأ حمزة والكسائيُّ كلِمُ اللهِ وهو جمعُ كلمةٍ. ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ نفيٌ في معنى النهي. ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾. من قبلِ تهيُّئِهم للخروج إلى خيبرَ. ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ أن يشارِكَكُم في الغنائمِ، وقرىء بالكسرِ. ﴿بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يفهمون. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إلا فهماً قليلاً وهو فطنتُهم لأمورِ الدنيا، ومعنى الإضرابِ الأول ردٌّ منهم أنْ يكونَ حكمُ الله أنْ لا يتَّبِعُوهم وإثباتٌ

(١) أخرج البخاري رقم (٣١٩٤) وأطرافه (٧٤٠٤)، (٧٤٢٢) و(٧٤٥٣) و(٧٥٥٤) ومسلم رقم (٢٧٥١).
عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما قضى اللهُ الخلقَ كتبَ في كتابه، فهو عندَهُ فوق العرش: إن رحمتي غَلَبَتْ غضبي».
(٢) التوبة: «٨٣».

للحسدِ، والثاني ردٌّ من اللهِ لذلك وإثباتٌ لجهْلِهم بأمورِ الدين.

﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ ۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾﴾

(١٦) ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ كرَّر ذِكْرَهُم بهذا الاسم مبالغةً في الذمِّ وإشعاراً بشناعة التخلُّفِ. ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ بني حنيفةَ أو غيرَهم ممَّن ارتدُّوا بعدَ رسولِ الله ﷺ، أو المشركين فإنه قال: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ أي يكون أحدُ الأمرين إما المقاتلةُ أو الإسلامُ لا غيرَ كما دلَّ عليه قراءةُ أو يسلمون، ومَنْ عداهُم يقاتَلُ حتى يسلِمَ أو يعطي الجزيةَ. وهو يدلُّ على إمامةِ أبي بكر رضي الله عنه إذ لم تتفقْ هذه الدعوةُ لغيرِه إلا إذا صحَّ أنهم ثقيفُ وهوازنُ فإنَّ ذلك كان في عهد النبوةِ. وقيل فارسُ والرومُ ومعنى يسلِمونَ ينقادون ليتناولَ تقبُّلَهُمْ الجزيةَ. ﴿فَإِن تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾ هو الغنيمةُ في الدنيا والجنةُ في الآخرة. ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾ عن الحديبية. ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ لتضاعف جرمكم.

(١٧) ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ لما أوعدَ على التخلُّف نَفَىٰ الحرجَ عن هؤلاءِ المعذورينَ استثناءً لهم عن الوعيد[١]. ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ فصَّلَ الوعْدَ وأجملَ الوعيدَ مبالغةً في الوعد لسبقِ رحمته، ثم جَبَرَ ذلك بالتكرير على سبيلِ التعميم فقال: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ إذ الترهيبُ ها هنا أنفعُ من الترغيبِ، وقرأ نافع وابنُ عامر ندخلْه ونعذِّبه بالنونِ.

(١٨) ﴿۞ لَّقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ رُوِيَ أنه ﷺ لما نزلَ الحديبيةَ بعثَ جوَّاسَ بنَ أميةَ الخزاعي إلى أهل مكَّةَ، فهمُّوا به فمنعه الأحابيشُ فرجعَ، فبعثَ عثمانَ بنَ عفانَ رضيَ الله عنه فحبسوهُ فأرجفَ بقتلِه، فدعا رسولُ الله ﷺ أصحابَه وكانوا ألفاً وثلثَمائةٍ أو وأربعمائة أو وخمسَمائة، وبايعهم على أنْ يقاتِلُوا قريشاً ولا يفِرُّوا عنهم وكان جالساً تحتَ سمرةٍ أو سدرةٍ[٢]. ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ من الإخلاصِ. ﴿فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ﴾ الطمأنينةَ، وسكونُ النفس بالتشجيعِ أو

(١) وفي نفي الحرج عن كل من الطوائف المعدودة مزيد اعتناء بأمرهم وتوسيع لدائرة الرخصة (س٨/١٠٩).

(٢) أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم مطولاً. وأخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥) بسند ضعيف عن عروة بن الزبير، وعن ابن إسحاق عن عبدالله بن أبي بكر بن حزم.
وأما حديث البيعة بدون ذكر السبب فهو في الصحيحين من طرق وألفاظ مختلفة، البخاري (٧/ ٤٤٣) ومسلم (٣/ ١٤٨٣).
والسَّمُرة: بضم الميم ـ من شجر الطلح ـ وهو شجر عظيم من شجر العضاة.

الصُّلحِ. ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ فَتۡحٗا قَرِيبٗا﴾ فتحَ خيبرَ غِبَّ انصرافِهم، وقيلَ مكَّةَ أو هَجَرَ.

وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا ١٩ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمۡ
هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ وَلِتَكُونَ ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢٠ وَأُخۡرَىٰ لَمۡ تَقۡدِرُواْ
عَلَيۡهَا قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا ٢١ وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا
يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣ وَهُوَ ٱلَّذِي
كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرًا ٢٤

(١٩) ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ يعني مغانِمَ خيبرَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمٗا﴾ غالباً مراعياً مقتضَى الحكمةِ.

(٢٠) ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾ وهي ما يفيءُ على المؤمنين إلى يوم القيامة. ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾ يعني مقامَ خيبرَ. ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾ أي أيديَ أهلِ خيبرَ وحلفائِهم من بني أسدَ وغطفانَ، أو أيدي قريش بالصلح. ﴿وَلِتَكُونَ﴾ هذه الكفةُ أو الغنيمةُ. ﴿ءَايَةٗ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أمارةً يعرفون بها أنهم من الله بمكانٍ، أو صِدقَ الرسول في وعْدِهم فتحَ خيبرَ في حينِ رجوعه من الحديبية، أو وعْدَ المغانم أو عنواناً لفتحِ مكَّةَ، والعطفُ على محذوفٍ هو علةٌ لكفٍّ، أو عجَّلَ مثلُ لتسلموا، أو لتأخذوا أوِ العلةُ لمحذوفٍ مثلُ فعلَ ذلك. ﴿وَيَهۡدِيَكُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ هو الثقةُ بفضلِ الله والتوكُّلِ عليه.

(٢١) ﴿وَأُخۡرَىٰ﴾ ومغانمُ أخرى معطوفةٌ على هذه، أو منصوبةٌ بفعلٍ يفسِّره قد أحاط الله بها مثلَ قضَى، ويُحتَمَلُ رفعُها بالابتداءِ لأنها موصوفةٌ وجرُّها بإضمارِ ربَّ. ﴿لَمۡ تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهَا﴾ بعد لما كان فيها من الجولةِ. ﴿قَدۡ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾ استولى فأظْفَرَكُم بها وهي مغانمُ هوازنَ أو فارسَ. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٗا﴾ لأن قدرته ذاتيةٌ لا تختصُّ بشيءٍ دونَ شيءٍ.

(٢٢) ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ من أهل مكةَ ولم يصالحوا. ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ لانهزموا. ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾ يحرسُهم. ﴿وَلَا نَصِيرٗا﴾ ينصرُهم.

(٢٣) ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ﴾ أي سنَّ غلبةَ أنبيائه سُنَّةً قديمةً فيمن مضى من الأمم كما قال تعالى ﴿لَأَغۡلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓۚ﴾[1]. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾ تغييراً.

(٢٤) ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي كَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡ﴾ أي أيدي كفارِ مكَّة. ﴿وَأَيۡدِيَكُمۡ عَنۡهُم بِبَطۡنِ مَكَّةَ﴾ في داخل مكَّةَ. ﴿مِنۢ بَعۡدِ أَنۡ أَظۡفَرَكُمۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ أظهركم عليهم، وذلك أنَّ عكرمةَ بنَ أبي جهلٍ خرجَ في خمسِمائةٍ إلى الحديبية، فبعث رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد على جنْد فهزمَهم حتى أدخلَهم حيطانَ مكَّةَ ثم عاد[2].

---

(١) المجادلة: «٢١».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/٩٥) عن ابن حميد الرازي وهو ضعيف. وقال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٥٣ رقم ٤٢٤): «وفي صحته نظر لأن خالداً لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية...» هـ.

وقيل كان ذلك يومَ الفتحِ واستُشْهِدَ به على أنَّ مكةَ فتحتْ عُنْوَةً وهو ضعيفٌ إذ السورةُ نزلتْ قبلَه. ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ من مقاتلتِهم أولاً طاعةً لرسوله وكفِّهم ثانياً لتعظيم بيتِه، وقرأ أبو عمرو بالياء ﴿بَصِيرًا﴾ فيجازيهم عليه.

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾

(٢٥) ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ يدلُّ على أنَّ ذلك كان عامَ الحديبية، والهدي ما يُهْدَى إلى مكَّةَ. وقرىء الهديُ وهو فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، ومحلُّه مكانُه الذي يحلُّ فيه نحرُه والمرادُ مكانُه المعهودُ وهو مِنَى لا مكانُه الذي لا يجوزُ أنْ يُنْحَرَ في غيرِه، وإلا لما نَحَرَهُ الرسولُ ﷺ حيث أحْصِرَ فلا ينتهضُ حجَّةً للحنفيةِ على أنَّ مذْبَحَ هذي الْمُحْصَرِ هو الحرمُ. ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾ لم تعرفوهم بأعيانهم لاختلاطِهم بالمشركين. ﴿أَنْ تَطَئُوهُمْ﴾ أنْ توقعوا بهم وتبيدُوهم قال:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنَقٍ وطْءَ المُقَيَّدِ ثَابِتِ الهَرَمِ

وقال عليه الصلاةُ والسلام «إنَّ آخرَ وطأةٍ وطِئَهَا الله بوجٍّ»[1] وهو وادٍ بالطائفِ كان آخِرَ وقعةٍ للنبي ﷺ بها، وأصلُه الدوسُ وهو بدلُ الاشتمالِ من رجالٍ ونساء أو من ضميرِهم في تعلَموهم. ﴿فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ﴾ من جهتهم. ﴿مَعَرَّةٌ﴾ مكروهٌ كوجوبِ الديةِ والكفَّارةِ بقتْلِهم وللتأسُّفِ عليهم، وتعييرُ الكفارِ بذلك والإثمُ بالتقصيرِ في البحثِ عنهم مفعلةٌ من عرَّه إذا أعْرَاهُ ما يكرهُه. ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلِّقٌ بأنْ تطؤوهم أي تطؤُوهم غيرَ عالمينَ بهم، وجوابُ لولا محذوفٌ لدلالة الكلام عليه، والمعنى لولا كراهةَ أنْ تهلِكوا أناساً مؤمنينَ بينَ أظْهُرِ الكافرين جاهلينَ بهم فيصيبُكم بإهلاكهم مكروهٌ لما كفَّ

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٧٢) والبيهقي في الأسماء والصفات ص٤٦١، من حديث يعلى العامري. وفيه سعيد بن أبي راشد: مقبول، قاله الحافظ في التقريب. وقال عنه الذهبي في «الكاشف» صدوق.
والحديث له شاهد من حديث (خولة بنت حكيم) أخرجه أحمد (٦/ ٤٠٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٦١). وفي إسناده: محمد بن أبي سويد الطائفي: مجهول، قاله الحافظ في التقريب.
وخلاصة القول أن الحديث حسن والله أعلم.
قلت: أول البيهقي الحديث ومذهب السلف إمرار صفاته تعالى كما جاءت دون تأويل ولا تعطيل ولا تكييف.

أيديَكُم عنهم. ﴿لِيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِي رَحْمَتِهِۦ﴾ علّةٌ لما دلَّ عليه كفُّ الأيدي عن أهل مكّةَ صوناً لمن فيها من المؤمنين، أي كان ذلك ليدخلَ اللهُ في رحمته أي في توفيقه لزيادةِ الخير أو للإسلام. ﴿مَن يَشَآءُ﴾ مِنْ مؤمنيهم أو مشركيهم. ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾ لو تفرّقوا وتميَّز بعضُهم من بعض، وقرىء تزايلوا. ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ بالقتل والسبي.

(٢٦) ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مقدَّرٌ باذكُر أو ظرفٌ لعذبنا أو صدُّوكم. ﴿فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾ الأنفةَ. ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ التي تمنعُ إذعانَ الحقّ. ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فأنزل عليهم الثباتَ والوقارَ وذلك ما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما همَّ بقتالهم بعثُوا سهيلَ بنَ عمرو وحويطبَ بنَ عبدالعزّى ومكرزَ بنَ حفص ليسألوه أنْ يرجعَ من عامِه على أنْ يُخليَ له قريشٌ مكّةَ من القابلِ ثلاثةَ أيامٍ، فأجابهم وكتبوا بينَهم كتاباً، فقال عليه الصلاة والسلام لعليٍّ رضي الله عنه «اكتبْ بسم الله الرحمن الرحيم» فقالوا ما نعرفُ هذا اكتبْ باسمك اللهمَّ ثم قال: «اكتبْ هذا ما صالح عليه رسولُ الله أهلَ مكّة» فقالوا: لو كنا نعلمُ أنك رسولُ الله ما صددْناك عن البيت وما قاتلْناك، اكتبْ هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله أهلَ مكّةَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «اكتب ما يريدون» فهمَّ المؤمنون أن يأبوا ذلك ويبطشُوا عليهم فأنزلَ الله السكينةَ عليهم فتوقَّروا وتحمَّلوا[1]. ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ كلمةَ الشهادة أو بسم الله الرحمن الرحيم محمدُ رسول الله اختارَها لهم، أو الثباتَ والوفاءَ بالعهد، وإضافةُ الكلمةِ إلى التقوى لأنها سببُها أو كلمةُ أهلِها. ﴿وَكَانُوٓا أَحَقَّ بِهَا﴾ من غيرهم. ﴿وَأَهْلَهَا﴾ والمستأهِلِينَ لها. ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ فيعلَمُ أهلَ كلِّ شيء وييسرُه له.

(٢٧) ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا﴾ رأى عليه الصلاة والسلام أنه وأصحابَه دخلُوا مكّة آمنين وقد حلَّقوا وقصَّروا، فقصَّ الرؤيا على أصحابه ففرحوا وحسِبوا أن ذلك يكونُ في عامِهم، فلما تأخَّر قال بعضُهم والله ما حلقْنا ولا قصَّرنا ولا رأينا البيتَ فنزلتْ[2] والمعنى صدقُه في رؤياهُ. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبِساً به فإن ما رآه كائنٌ لا محالةَ في وقْتِه المقدَّر له وهو العامُ القابلُ، ويجوزُ أنْ يكونَ بالحقِّ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ أي صدقاً ملتبساً بالحقِّ وهو القصدُ إلى التمييز بينَ الثابتِ على الإيمان والمتزلزلِ فيه، وأنْ يكون قسماً إما باسم الله تعالى أو بنقيضِ الباطل وقوله: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جوابُه وعلى الأوَّلينِ جوابُ قسَم محذوف. ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ تعليقٌ للعدةِ بالمشيئة تعليماً للعبادِ، أو إشعاراً بأن بعضَهم لا يدخل لموتٍ أو غيبةٍ أو حكاية لما قاله ملك الرؤيا، أو النبيُّ ﷺ لأصحابه. ﴿ءَامِنِينَ﴾ حالٌ من الواو، والشرطُ معترِضٌ. ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ أي محلقاً بعضُكم ومقصِّراً آخرون. ﴿لَا

---

(١) أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٣/ ٤٢٧، ٤٤٠) وأحمد في المسند (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٦) من طريق ابن إسحاق. وقد صرح بالسماع عند ابن هشام وسنده متصل ورجاله ثقات ولم يصرح ابن إسحاق بالسماع عند أحمد.
والخلاصة أن الحديث حسن.
وأخرجه البخاري (٥/ ٣٠٣ ـ ٣٠٤ رقم ٢٦٩٨، ٢٦٩٩) ومسلم (٣/ ١٤٠٩ ـ ١٤١١ رقم ٩٠، ٩١، ٩٢/ ١٧٨٣) من حديث البراء بن عازب ومسلم (٣/ ١٤١١ رقم ٩٣/ ١٧٨٤) من حديث أنس.

(٢) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٤/ ١٦٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/ ١٠٧) بإسنادين أحدهما إسناد البيهقي، وهو إسناد صحيح إلى مجاهد.

﴿تَخَافُونَ﴾ حالٌ مؤكِّدة أو استئنافٌ أي لا تخافون بعدَ ذلك. ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ﴾ من الحكمة في تأخير ذلك. ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ من دون دخولكم المسجدَ أو فتحِ مكّة. ﴿فَتْحًا قَرِيبًا﴾ هو فتحُ خيبرَ ليستروحَ إليه قلوبَ المؤمنين إلى أنْ يتيسَّر الموعودُ.

هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾

(٢٨) ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ ملتبساً به أو بسببه أو لأجلِه. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ وبدين الإسلام. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبَه على جنسِ الدين كلِّه بنسْخِ ما كان حقاً، وإظهارِ فسادِ ما كان باطلاً، أو بتسليط المسلمين على أهلِه إذْ ما من أهل دينٍ إلا وقدَ قهرهُم المسلمونَ، وفيه تأكيدٌ لما وعدَه من الفتح. ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ على أن ما وعدَه كائنٌ أو على نبوَّته بإظهارِ المعجزات.

(٢٩) ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ جملةٌ مبيِّنة للمشهود به، ويجوزُ أنْ يكونَ رسولُ الله صفةً ومحمدٌ خبرٌ محذوف أو مبتدأ: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ معطوفٌ عليه وخبرهما. ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ وأشدَّاء جمعُ شديد ورحماءُ جمع رحيم، والمعنى أنهم يغلُظُون على مَنْ خالف دينَهم ويتراحمون فيما بينَهم كقوله ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[1]. ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ لأنهم مشتغلون بالصلاة في أكثرِ أوقاتِهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ الثوابَ والرضا. ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ يريد السمةَ التي تحدُثُ في جباههم من كثرة السجود، فعلى من سامَه إذا أعلَمه وقد قرئت ممدودةً ومن أثرِ السجود بيانُها أو حالٌ من المستكِنِّ في الجارِّ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الوصف المذكورِ، أو إشارة مبهمةٌ يفسِّرها كزرع. ﴿مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ﴾ صفتُهم العجيبةُ الشأنِ المذكورةُ فيها. ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ عطفٌ عليه أن ذلك مثلُهم في الكتابين وقوله: ﴿كَزَرْعٍ﴾ تمثيلٌ مستأنَفٌ أو تفسيرٌ أو مبتدأ، وكزرع خبرهُ. ﴿أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ﴾ فراخَه يُقَالُ أشطأ الزرع إذا فرَّخَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر برواية ابنِ ذكوانَ شَطَأَه بفتحاتٍ وهو لغةٌ فيه، وقرِىء شَطَاهُ بتخفيفِ الهمزة، وشطاءَه بالمدِّ، وشَطَه بنقل حركةِ الهمزة وحذفِها، وشَطْوه بقلبها واواً. ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾ فقوَّاه من المؤازرةِ وهي المعاونةُ أو من الإيزارِ وهي الإعانة، وقرأ ابن عامر برواية ابن ذكوانَ فأزَرَه كأجَرَه في آجَرَهُ. ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ فصار من الدقةِ إلى الغلظ. ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾ فاستقامَ على قصبه جمع ساقٍ، وعن ابن كثير سؤقَه بالهمزةِ. ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾ بكثافته وقوّته وغِلَظِه وحُسْنِ منظره. وهو مَثَلٌ ضربَه الله تعالى للصحابة قلُّوا في بدء الإسلام ثم كثرُوا واستحكموا فترقَّى أمرهم بحيث أعجبَ الناسَ. ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ علةٌ لتشبيههم بالزرع في زكاته واستحكامه أو لقوله:

(١) المائدة: «٥٤».

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴾ **فإنَّ الكفارَ لما سمعوه غاظَهم ذلك ومنهم للبيان.** عن النبيِّ ﷺ **«من قرأ سورةَ الفتح فكأنما كان ممنْ شهدَ مع محمدٍ عليه الصلاة والسلام فتحَ مكَّةَ»**(١).

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبي بن كعب.
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الحُجُرَاتِ

ترتيبها ٤٩ — آياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟
أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا
تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم
مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

سورة الحجرات مدنية[1] وآيها ثمانِ عشْرَة آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟﴾ أي لا تقدموا أمراً، فحذفَ المفعولَ ليُذْهِبَ الوهم إلى كلِّ ما يمكن، أو تُرِكَ لأنَّ المقصود نفيُ التقديم رأساً، أو لا تتقدموا ومنه مقدمةُ الجيش لمتقدِّميهم، ويؤيده قراءة يعقوبَ لا تَقَدَّموا. وقرىء لا تَقْدُموا من القدوم[2]. ﴿بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ مستعارٌ مما بين الجهتين المسامتتينِ ليدي الإنسان تهجيناً لما نُهُوا عنه، والمعنى لا تقطعُوا أمراً قبلَ أنْ يحكُما به.

---

(١) أخرج ابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: نزلت سورة الحجرات بالمدينة.
وأخرج ابن مردويه عن ابن الزبير مثله.
وقال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ١٢٩): «وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل رضي الله عنهم».

(٢) تصدير الخطاب بالنداء لتنبيه المخاطبين على أن ما في خيره أمر خطير يستدعي مزيد اعتنائهم بشأنه وفرط اهتمامهم بتقلّيه ومراعاته، ووصفهم بالإيمان لتنشيطهم والإيذان بأنه داع إلى المحافظة عليه ووازع عن الإخلال به (س٨/ ١١٥).

وقيل المراد بين يدي رسولِ الله ﷺ، وذِكْرُ اللهِ تعظيمٌ له وإشعار بأنه من الله بمكان يوجبُ إجلالَه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ في التقديم أو مخالفةِ الحكم. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لأقوالِكم. ﴿عَلِيمٌ﴾ بأفعالِكم.

(٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ أي إذا كلَّمتموه فلا تجاوزوا أصواتَكُم عن صوته. ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ ولا تبلغوا به الجهرَ الدائرَ بينكم بلِ اجعلوا أصواتكم أخفضَ من صوته محاماةً على الترحيبِ ومراعاة للأدب. وقيل معناه ولا تخاطبوه باسمِه وكنيتِه كما يخاطِبُ بعضُكم بعضاً وخاطبوه بالنبيِّ والرسول، وتكريرُ النداءِ لاستدعاءِ مزيدِ الاستبصارِ والمبالغةِ في الاتعاظ والدلالة على استقلالِ المنادى له وزيادةِ الاهتمام به. ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ كراهةَ أن تحبطَ فيكون علَّةً للنهي، أو لأنْ تَحْبَطَ على أنَّ النهي عن الفعل المعلَّلِ باعتبار التأديةِ لأن في الجهر والرفعِ استخفافاً قد يؤدي إلى الكفرِ المحبِط، وذلك إذا انضمَّ إليه قصدُ الإهانة وعدمُ المبالاةِ. وقد روي أنَّ ثابتَ بنَ قيس[1] كان في أذنه وقرٌ وكان جهورياً، فلما نزلتْ تخلَّف عن رسول الله ﷺ فتفقَّده ودعاه، فقال: يا رسولَ الله لقد أنزلت إليك هذه الآيةُ وإني رجل جهِّيرُ الصوتِ فأخاف أنْ يكون عملي قد حبطَ، فقال عليه الصلاة والسلام: «لست هناك، إنك تعيشُ بخير وتموتُ بخير وإنك من أهل الجنة»[2]. ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أنها محبطةٌ.

(٣) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾ يخفِضونَها. ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ مراعاةً للأدب أو مخافةً عن مخالفة النهي. قيل كان أبو بكر وعمرُ بعدَ ذلك يُسِرَّانه حتى يستفهِمَهما. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾ جرَّبها للتقوى ومرَّنها عليها، أو عرَّفها كائنةً للتقوى خالصةً لها، فإنَّ الامتحانَ سببُ المعرفة. واللامُ صلةُ محذوف أو للفعل باعتبار الأصل، أو ضربَ الله قلوبَهم بأنواعِ المحنِ والتكاليف الشاقةِ لأجل التقوى، فإنها لا تظهرُ إلا باصطبارٍ عليها، أو أخلصَها للتقوى من امتحنَ الذهب إذا أذابه وميَّز إبريزَه من خُبثِه. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لغضِّهم وسائرِ طاعاتهم، والتنكيرُ للتعظيم، والجملةُ خبر ثانٍ لإنَّ، أو استئنافٌ لبيان ما هو جزاء الغاضيـن إحماداً لحالهم كما أخبرَ عنهم بجملة مؤلفةٍ من معرفتين، والمبتدأ اسمُ الإشارة المتضمِّنُ لما جُعِلَ عنواناً لهم، والخبرُ الموصول بصلةٍ دلَّتْ على بلوغِهم أقصى الكمالِ مبالغةً في الاعتدادِ بغضِّهم والارتضاءِ له، وتعريضاً بشناعة الرفعِ والجهْرِ وأنَّ حالَ المرتكِبِ لهما على خلاف ذلك.

(٤) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ من خارجها خلفَها أو قُدَّامَها، ومن ابتدائيةٌ فإنَّ المناداةَ نشأت من جهة الوراءِ، وفائدتُها الدلالةُ على أنَّ المنادى داخلَ الحجرةِ إذ لا بدَّ وأنْ يختلفَ المبتدأُ والمنْتَهَى بالجهةِ، وقرىء الحُجْرَاتِ بفتح الجيم وسكونِها وثلاثتُها جمعُ حجرةٍ وهي القطعةُ من الأرضِ المحجورةُ بحائط، ولذلك يقال لحظيرةِ الإبلِ حجرةً. وهي فعلةٌ بمعنى مفعولٍ كالغرفةِ والقبضةِ، والمراد حجراتُ نساءِ النبي عليه الصلاة والسلام وفيها كنايةٌ عن خلوته بالنساءِ ومناداتِهم من ورائِها،

---

(١) هو ثابت بن قيس بن شماس بن زهير بن مالك بن امرىء القيس بن ثعلبة بن كعب بن الخزرج أبو محمد وقيل أبو عبدالرحمٰن خطيب الأنصار شهد أحداً وقتل باليمامة [تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج١ ص٦٤].

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٦٢٠ رقم ٣٦١٣) و(٨/ ٥٩٠ رقم ٤٨٤٦) ومسلم (١١/ ١١٠ رقم ١٨٧، ١٨٨) عنه.

إما بأنهم أتوها حجرةً حجرةً فنادَوْهُ من ورائها، أو بأنهم تفرَّقوا على الحجراتِ متطلبين له، فأسندَ فعلَ الأبعاضِ إلى الكلِّ. وقيل إن الذي ناداه عيينةُ بنُ حصن والأقرع بنُ حابس، وَفَدَا على رسولِ الله ﷺ في سبعين رجلاً من بني تميمٍ وقتَ الظهيرة وهو راقدٌ فقالا يا محمد اخرجْ إلينا، وإنما أُسْنِدَ إلى جميعهم لأنهم رضُوا بذلك أو أَمَرُوا به، أو لأنه وجد فيما بينَهم. ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ إذ العقلُ يقتضي حسنَ الأدبِ ومراعاةَ الحشمةِ سيَّما لمن كان بهذا المنصبِ.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴿٦﴾﴾

(٥) ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ أي ولو ثبتَ صبرُهم وانتظارُهم حتى تخرجَ إليهم، فإنَّ أنَّ وإنْ دلَّتْ بما في حيِّزها على المصدرِ دلتْ بنفسها على الثبوتِ، ولذلك وجبَ إضمار الفعل وحتى تفيدَ أنَّ الصبرَ ينبغي أنْ يكونَ مغنياً بخروجه، فإنَّ حتى مختصَّةٌ بغاية الشيءِ في نفسه ولذلك تقول: أكلتُ السمكةَ حتى رأسَها، ولا تقول حتى نصفَها، بخلافِ إلى فإنها عامةٌ، وفي إليهم إشعارٌ بأنه لو خرجَ لا لأجلهم ينبغي أنْ يصبروا حتى يفاتِحَهُم بالكلام أو يتوجَّه إليهم. ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ لكان الصبرُ خيراً لهم من الاستعجالِ لما فيه من حفظ الأدبِ وتعظيمِ الرسول الموجِبَيْنِ للثناءِ والثواب والإسعافِ بالمسؤولِ، إذ روي أنَّهم وفدوا شافعينَ في أَسَارَى بني العنبرِ فأطلق النصفَ وفادى النصفَ. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ حيث اقتصرَ على النصحِ والتقريعِ لهؤلاء المسيئين الأدبَ التاركين تعظيمَ الرسول عليه الصلاة والسلام.

(٦) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ فتعرفوا وتصفَّحوا، روي أنه عليه الصلاة والسلام بعث الوليد بنَ عقبة[(١)] مصدقاً[(٢)] إلى بني المصطلقِ وكان بينه وبينهم إحنةٌ[(٣)]، فلما سمعوا به استقبلوه فحسِبَهم مقاتليه فرجعَ وقال لرسول الله ﷺ قد ارتدوا ومنعُوا الزكاةَ فهمَّ بقتالهم فنزلتْ[(٤)]. وقيل بعثَ

---

(١) الوليد بن عقبة بن أبي معيط إبان بن أبي عمرو ذكوان بن أمية بن عبدشمس في دمشق، من مسلمة الفتح وأمه أروى أم عثمان بن عفان.
[تجريد أسماء الصحابة. الذهبي ج٢ ص١٢٩].

(٢) عاملاً في الصدقة.

(٣) الإحنة: العداوة.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير (٢٣/ ٤٠١ رقم ٩٦٠) وابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٦/ ١٢٣) من حديث أم سلمة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١١) وقال: «رواه الطبراني وفيه موسى بن عبيدة وهو ضعيف».
● وبنحوه أخرجه أحمد في المسند (٤/ ٢٧٩) والطبراني في الكبير (٣/ ٣١٠ رقم ٣٣٩٥) من حديث الحارث بن ضرار الخزاعي.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٠٩): «رجال أحمد ثقات».
وانظر «الكافي الشاف» (ص١٥٦ رقم ١٨). وتفسير ابن كثير (٤/ ٢٢٣). =

إليهم خالد بنَ الوليد فوجدهم منادين بالصلاة متهجدينَ فسلَّموا إليه الصدقاتِ فرجعَ[1]، وتنكيرُ الفاسقِ والنبأ للتعميم، وتعليقُ الأمر بالتبين على فسقِ المخْبَرِ يقتضي جوازَ قبولِ خبرِ العدْلِ من حيثُ أن المعلَّقَ على شيءٍ بكلمةِ إنْ عدمَ عند عدمِه، وأنَّ خبرَ الواحدِ لو وجب تبيُّنه من حيث هو كذلك لما رتب على الفسقِ، إذ الترتيبُ يفيد التعليلَ وما بالذات لا يعلَّلُ بالغير. وقرأ حمزةُ والكسائيُّ فتثبتوا أي فتوقَّفوا إلى أن يتبيَّن لكم الحالُ. ﴿أَن تُصِيبُوا۟﴾ كراهةَ إصابتِكم. ﴿قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾ جاهلينَ بحالهم. ﴿فَتُصۡبِحُوا۟﴾ فتصيروا. ﴿عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ﴾ مغتمينَ غمّاً لازماً متمنينَ أنه لم يقعْ، وتركيبُ هذه الأحرفِ الثلاثة دائر مع الدوامِ.

وَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ﴿٨﴾ وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُوا۟ فَأَصۡلِحُوا۟ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُوا۟ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓا۟ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٩﴾

(٧) ﴿وَٱعۡلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ أنَّ بما في حيِّزه سادٌّ مسدَّ مفعولي اعلموا باعتبار ما قيِّد به من الحال وهو قوله: ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ﴾ فإنه حالٌ من أحدِ ضميري فيكم، ولو جُعِلَ استئنافاً لم يظهر للأمر فائدةٌ. والمعنى أنَّ فيكم رسولَ الله على حالٍ يجب تغييرُها وهي أنكم تريدون أنْ يتَّبِعَ رأيكم في الحوادثِ، ولو فعل ذلك لعِنتُّم أي لوقعتم في الجهدِ من العنَتِ، وفيه إشعارٌ بأن بعضَهم أشارَ إليه بالإيقاع ببني المصطلق وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ﴾ استدراكٌ ببيان عذرِهم، وهو أنه من فَرْطِ حبِّهم للإيمان وكراهتِهم للكفر حملهم على ذلك لمَّا سمعُوا قولَ الوليد، أو بصفةِ مَنْ لم يفعلْ ذلك منهم إحماداً لفعلهم وتعريضاً بذمِّ مَنْ فعل ويؤيدُه قولُه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ أي أولئك المستثْنَوْنَ هم الذين أصابوا الطريقَ السويَّ، وكرِهَ يتعدَّى بنفسه إلى مفعولٍ واحد فإذا شُدِّدَ زادَ له آخرَ، لكنه لما تضمَّن معنى التبغيضِ نُزِّلَ كرهَ منزلةَ بغضَ فَعُدِّيَ إلى آخرَ بإلى، أو نُزِّلَ إليكم منزلةَ مفعولٍ آخرَ. والكفر: تغطيةُ نِعَمِ الله بالجحودِ، والفسوقُ: الخروجُ عن القصد، والعصيان: الامتناعُ عن الانقياد.

(٨) ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ﴾ تعليلٌ لكرَّه أو حبَّبَ، وما بينَهما اعتراضٌ لا للراشدون فإنَّ الفضلَ فعلُ الله، والرشدُ وإن كان مسبَّباً عن فعلِه مسندٌ إلى ضميرِهم أو مصدرٌ لغير فعلِه فإنَّ التحبيبَ والرشدَ فضلٌ من الله وإنعامٌ. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ بأحوالِ المؤمنين وما بينهم من التفاضُلِ ﴿حَكِيمٞ﴾ حيث يفضلُ وينعِم بالتوفيق عليهم.

(٩) ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُوا۟﴾ تقاتلوا والجمعُ باعتبار المعنى فإنَّ كل طائفةٍ جمعٌ.

= وخلاصة الحديث أنه حسن والله أعلم.

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٥٦ رقم ١٩): لم أره.

﴿ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ ﴾ بالنُّصح والدعاءِ إلى حكم الله تعالى. ﴿ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ ﴾ تعدَّتْ عليها. ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ ﴾ ترجعَ إلى حكمِه أو ما أمرَ به، وإنما أُطْلِقَ الفيءُ على الظلِّ لرجوعِه بعد نسخِ الشمسِ، والغنيمةُ لرجوعِها من الكفار إلى المسلمين. ﴿ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ ﴾ بفصلِ ما بينَهما على ما حكم الله، وتقييدُ الإصلاحِ بالعدل ها هنا لأنه مظنةُ الحيفِ من حيثُ إنه بعدَ المقاتلةِ. ﴿ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ ﴾ واعدلوا في كلِّ الأمور. ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴾ يحمدُ فعلَهم بحسنِ الجزاء. والآيةُ نزلتْ في قتالٍ حَدَثَ بين الأوسِ والخزرجِ في عهده عليه الصلاة والسلام بالسعفِ والنعال[١]، وهي تدل على أنَّ الباغي مؤمنٌ وأنه إذا قبضَ عن الحرب ترك كما جاء في الحديث لأنه فيء إلى أمرِ الله تعالى، وأنه يجبُ معاونةُ مَنْ بُغِيَ عليه بعد تقديم النصحِ والسعي في المصالحةِ.

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴿١٠﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ ﴾ من حيثُ إنهم منتسبونَ إلى أصلٍ واحدٍ وهو الإيمان الموجبُ للحياة الأبدية، وهو تعليلٌ وتقرير للأمرِ بالإصلاح ولذلك كرَّره مرتباً عليه بالفاءِ فقال: ﴿ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ ﴾ ووضعَ الظاهرَ موضعَ الضميرِ مضافاً إلى المأمورِينَ للمبالغةِ في التقرير والتخصيصِ، وخصَّ الاثنين بالذِّكر لأنهما أقلُّ مَنْ يقعُ بينَهم الشقاقُ. وقيل المراد بالأخوين الأوسُ والخزرجُ. وقرىء بين إخوتِكم وإخوانِكم. ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ في مخالفة حكمه والإهمالِ فيه. ﴿ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ على تقواكُم.

(١١) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ ﴾ أي لا يسخرْ بعضُ المؤمنين والمؤمناتِ من بعض إذ قد يكون المسخورُ منه خيراً عند الله من الساخرِ. والقومُ مختصٌّ بالرجال لأنه إما مصدرٌ نُعِتَ به فشاعَ في الجمعِ، أو جمعٌ لقائمٍ كزائرٍ وزَوْرٍ والقيامُ بالأمور وظيفةُ الرجال كما قال تعالى ﴿ ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ ﴾[٢] وحيث فسَّر بالقبيلينِ كقومِ عادٍ وفرعونَ؛ فإما على التغليبِ أو الاكتفاءِ بذكرِ الرجالِ على ذكرهنَّ لأنهنَّ توابعُ. واختيار الجمعِ لأنَّ السخريةَ تغلِبُ في المجامعِ. وعسى باسمِها استئنافٌ بالعلة الموجبَةِ للنهي، ولا خبرَ لها لإغناءِ الاسمِ عنه. وقرىء عسوا أنْ يكونوا، وعسينَ أنْ يكنَّ فهي على هذا ذاتُ خبرٍ. ﴿ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ ﴾ أي ولا يغتبْ بعضُكم بعضاً فإنَّ المؤمنين كنفس واحدةٍ، أو لا تفعلوا ما تلمزون به فإن من فعل ما يستحقُّ به اللمزَ فقد لمزَ نفسَه. واللمزُ الطعنُ باللسان. وقرأ يعقوب بالضمِّ. ﴿ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ ﴾ ولا يدْعُ بعضُكم بعضاً بلقب السوءِ، فإنَّ النبزَ مختصٌّ بلقبِ السوءِ عُرْفاً. ﴿ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ ﴾ أي بئس الذِّكْرُ المرتفع للمؤمنين أنْ يُذْكَروا بالفسوق بعدَ دخولهم الإيمانَ واشتهارِهم به، والمراد به إما

(١) أخرجه البخاري (٤/٢٩٧ رقم ٢٦٩١) ومسلم (٣/١٤٢٤ رقم ١٧٩٩) من حديث أنس.
(٢) النساء: «٣٤».

تهجينُ نسبةِ الكفر والفسقِ إلى المؤمنين خصوصاً إذ روي أنَّ الآيةَ نزلتْ في صفيةَ بنتِ حييٍّ رضي الله عنها، أتتْ رسولَ الله ﷺ فقالت: إن النساءَ يقلْنَ لي يا يهوديةُ بنتُ يهوديين، فقال لها «هلا قلتِ إن أبي هارونُ وعمي موسى وزوجي محمدٌ عليهم السلام»[١] أو الدلالةُ على أنَّ التنابزَ فِسقٌ والجمعُ بينه وبين الإيمان مستقبَحٌ. ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عما نُهِيَ عنه. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ بوضعِ العصيان موضعَ الطاعةِ وتعريضِ النفس للعذاب.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾ كونوا منه على جانبٍ، وإبهامُ الكثير ليَحتاطَ في كل ظنٍّ ويتأملَ حتى يعلمَ أنه من أي القبيلِ، فإن من الظنِّ ما يجب اتباعُه كالظنِّ حيث لا قاطعَ فيه من العملياتِ وحسنِ الظنِّ بالله سبحانه وتعالى، وما يحرم كالظنِّ في الإلهيات والنبواتِ وحيث يخالفُه قاطعٌ وظنِّ السوءِ بالمؤمنين، وما يباحُ كالظنِّ في الأمور المعاشية. ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ مستأنَفٌ للأمرِ، والإثمُ الذَّنْبُ الذي يستحقُّ العقوبة عليه. والهمزةُ فيه بدلٌ من الواو كأنه يَثِمُ الأعمالَ أي يكسِرها. ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ ولا تبحثوا عن عورات المسلمين، تفعُّل من الجسِّ باعتبار ما فيه من معنى الطلبِ كالتلمُّسِ، وقرىء بالحاء من الحسِّ الذي هو أثر الجسِّ وغايتُه، ولذلك قيل للحواسِّ الخمس الجواسُّ. وفي الحديث: «لا تتبعوا عوراتِ المسلمين، فإن من تتبعَ عوراتِهم تتبعَ الله عورته حتى يفضحَه ولو في جوف بيته»[٢]. ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ ولا يذكُرْ بعضُكم بعضاً بالسوء في غيبتِه. وسُئِلَ عليه الصلاة والسلام عن الغيبة فقال «أنْ تذكرَ أخاك بما يكرهُهُ، فإن كان فيه فقدِ اغْتَبْتَهُ، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه»[٣]. ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ تمثيلٌ لما يناله المغتابُ من عرضِ

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٣٩٣) عن عكرمة عن ابن عباس به بدون سند.

(٢) أخرجه الترمذي (٤/٣٧٨ رقم ٢٠٣٢) وابن حبان (ص٣٥٩ رقم ١٤٩٤ ـ موارد).

وقال الترمذي: حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين بن واقد. وروى عن أبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ نحو هذا.

● والشاهد الذي أشار إليه الترمذي أخرجه أبو داود (٥/١٩٤ رقم ٤٨٨٠) وأحمد في المسند (٤/٤٢١) من حديث أبي برزة الأسلمي.

● وله شاهد من حديث البراء بن عازب أخرجه أبو يعلى في المسند (٣/٢٣٧ ـ ٢٣٨ رقم ٢٢/١٦٧٥).

والخلاصة أن الحديث صحيح والله أعلم.

(٣) أخرجه مسلم (٤/٢٠٠١ رقم ٧٠/٢٥٨٩) وأبو داود (٥/١٩١ رقم ٤٨٧٤) والترمذي (٤/٣٢٩ رقم ١٩٣٤) من =

المغتابِ على أفحشِ وجهٍ مع مبالغاتِ الاستفهام المقرِّرِ، وإسنادِ الفعلِ إلى أحدٍ للتعميم، وتعليقُ المحبة بما هو في غاية الكراهةِ وتمثيلُ الاغتياب بأكْلِ لحم الإنسان وجعْلُ المأكولِ أخاً وميتاً وتعقيبُ ذلك بقوله: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ تقريراً وتحقيقاً لذلك. والمعنى إن صحَّ ذلك أو عرضَ عليكم هذا فقد كرِهتموه ولا يمكنكُم إنكارُ كراهته وانتصابُ ميتاً على الحال من اللحمِ أو الأخ. وشدَّده نافع. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ لمن اتقى ما نُهِيَ عنه وتابَ مما فرطَ منه، والمبالغةُ في التَّوابِ لأنه بليغٌ في قَبُولِ التوبة إذ يجعلُ صاحِبَها كمن لم يذنِبْ، أو لكثرةِ المتوب عليهم أو لكثرة ذنوبهم، روي: أنَّ رجلينِ من الصحابة بعثا سلمانَ إلى رسول الله ﷺ يبغي لهما إداماً، وكان أسامةُ على طعامه فقال: ما عندي شيءٌ فأخْبَرَهُما سلمان فقالا: لو بعثناه إلى بئرٍ سميحةٍ لغارَ ماؤُها، فلما راحا إلى رسول الله ﷺ قال لهما: «مالي أرى خضرةَ اللحمِ في أفواهِكما»؟ فقالا: ما تناولْنا لحماً، فقال: «إنكما قد اغتبتما» فنزلتْ[1].

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى﴾ من آدمَ وحواء عليهما السلام، أو خلقنا كلَّ واحد منكم من أب وأمٍّ فالكل سواءٌ في ذلك فلا وجه للتفاخُر بالنسبِ. ويجوز أنْ يكون تقريراً للأخوة المانعة عن الاغتياب. ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ﴾ الشعبُ الجمع العظيم المتسبون إلى أصلٍ واحد وهو يجمع القبائلَ. والقبيلة تجمعُ العمائرَ. والعمارة تجمع البطونَ. والبطن تجمع الأفخاذَ. والفخذ يجمعُ الفصائلَ، فخزيمةُ شعبٌ، وكنانة قبيلةٌ، وقريش عمارةٌ، وقصيٌّ بطنٌ، وهاشم فخذٌ، وعباسُ فصيلةٌ. وقيل الشعوبُ بطونُ العجم والقبائلُ بطونُ العرب. ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ ليعرف بعضُكم بعضاً لا للتفاخرِ بالآباء والقبائل. وقرىء لتعارفوا بالإدغام ولتتعارفوا ولتعرفُوا. ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ فإنَّ التقوى بها تكملُ النفوسُ وتتفاضلُ بها الأشخاص، فمن أراد شرفاً فلْيَلْتَمِسْه منها كما قال عليه الصلاة والسلام: «من سره أن يكون أكرمَ الناس فليتقِ الله»[2] وقال عليه الصلاة والسلام «يا أيها الناس إنما الناسُ رجلان: مؤمن تقيٌّ كريم على الله، وفاجر شقيٌّ هينٌ على الله»[3]. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بكم ﴿خَبِيرٌ﴾ ببواطنِكم.

(١٤) ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾ نزلت في نفر من بني أسدٍ، قدموا المدينةَ في سَنَةٍ جدْبةٍ وأظهروا الشهادتينِ، وكانوا يقولون لرسول الله ﷺ أتيناك بالأثقالِ والعيال ولم نقاتِلْك كما قاتلك بنو فلانٍ، يريدون الصدقةَ ويمنُّون[4]. ﴿قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا﴾ إذ الإيمانُ تصديق مع ثقة وطمأنينةِ قلبٍ، ولم يحصلْ لكم

= حديث أبي هريرة.

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٥٨ رقم ٣٦): «هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راوٍ. وفي الترغيب لأبي القاسم الأصبهاني من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبدالرحمن بن أبي ليلة نحوه» هـ.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٢١٨/٣) من حديث ابن عباس.

(٣) أخرجه الترمذي (٥/ ٣٨٩ رقم ٣٢٧٠) من حديث ابن عمر في سياق أطول من ذلك وهذا جزء منه.

وقال الترمذي: وعبدالله بن جعفر يضعف، ولا نعرفه إلا من هذا الوجه. وصححه الألباني في الصحيحة رقم (٢٧٠٠).

(٤) أخرج الطبراني بسند حسن عن عبدالله بن أبي أوفى أن ناساً من العرب قالوا: يا رسول الله، أسلمنا ولم نقاتلك وقاتلك بنو فلان فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

وأخرج البزار من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس مثله.

وأخرج ابن أبي حاتم مثله عن الحسن وأن ذلك لما فتحت مكة. =

إلا لما مننتم على الرسول عليه الصلاة والسلام بالإسلام وتركِ المقاتلة كما دل عليه آخرُ السورة. ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ فإن الإسلام انقيادٌ ودخول في السِّلْمِ وإظهار الشهادتين وتركُ المحاربةِ يشعرُ به، وكان نظمُ الكلام أن يقول لا تقولوا آمنا ولكن قولوا أسلمنا. أوْ لم تؤمنوا ولكن أسلمتُم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزْم بإسلامِهم، أوْ لم تؤمنوا ولكن أسلمتُم فعدلَ منه إلى هذا النظم احترازاً من النهي عن القولِ بالإيمان والجزْم بإسلامِهم، وقد فقدَ شرطَ اعتباره شرعاً. ﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ توقيتٌ لقولوا فإنه حالٌ من ضميره أي: ولكن قولوا أسلمنا ولم تواطىء قلوبُكم ألسنَتَكُم بعدُ. ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بالإخلاص وتركِ النفاق. ﴿لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ﴾ لا ينقِصْكم من أجورها. ﴿شَيۡـًٔاۚ﴾ من لاتَ يليت ليتاً إذا نقصَ، وقرأ البصريانِ لا يألتكم من الألْتِ وهو لغة غطفانَ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ﴾ لما فَرَطَ من المطيعين. ﴿رَّحِيمٌ﴾ بالتفضُّل عليهم.

إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ﴿١٨﴾

(١٥) ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ لم يشكُّوا مِن ارتاب مطاوع رابَه إذا أوقعه في الشكِّ مع التهمةِ، وفيه إشارة إلى ما أوجبَ نفيَ الإيمان عنهم، وثمَّ للإشعار بأنَّ اشتراطَ عدم الارتياب في اعتبار الإيمانِ ليس حالَ الإيمان فقطْ بل فيه وفيما يستقبلُ فهي كما في قوله ﴿ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ﴾(١). ﴿وَجَٰهَدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ في طاعته والمجاهدةِ بالأموال والأنفُسِ تصلحُ للعبادات المالية والبدنية بأسْرها. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ الذين صدقوا في ادعاءِ الإيمان.

(١٦) ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ أتخبرونه به بقولكم آمنّا. ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ لا يخفى عليه خافيةٌ، وهو تجهيلٌ لهم وتوبيخٌ. روي أنه لما نزلت الآيةُ المتقدمةُ جاؤوا وحلفوا أنهم مؤمنون معتقدون، فنزلت هذه الآيةُ.

(١٧) ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ يعدُّون إسلامَهم عليك مِنَّةً وهي النعمةُ التي لا يستثيبُ موليها ممن

= وأخرج ابن سعد عن محمد بن كعب القرظي قال: قدم عشرة نفر من بني أسد على رسول الله ﷺ. سنة تسع وفيهم طلحة بن خويلد ورسول الله في المسجد مع أصحابه فسلموا وقال متكلمهم: يا رسول الله إنا شهدنا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنك عبده ورسوله وجئناك يا رسول الله ولم تبعث إلينا بعثاً ونحن لمن وراءنا سلم فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

وأخرج سعيد بن منصور في سننه عن سعيد بن جبير قال: أتى قوم من الأعراب من بني أسد النبي ﷺ فقالوا: جئناك ولم نقاتلك فأنزل الله «يمنون عليك أن أسلموا».

انظر [أسباب النزول، السيوطي ص٢٧٢، ص٢٧٣].

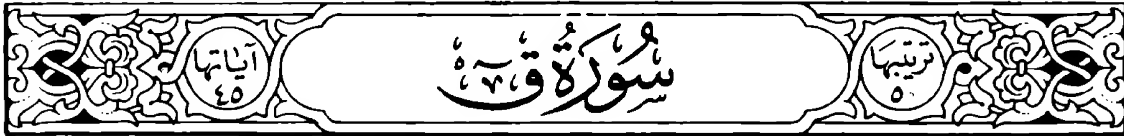
(١) الأحقاف: «١٣».

بذَلها إليه، من المنِّ بمعنى القطْعِ لأنَّ المقصودَ بها قطعُ حاجته. وقيل النعمة الثقيلة من المنِّ. ﴿قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ أي بإسلامِكم، فَنُصِبَ بنزع الخافضِ أو تضمينِ الفعلِ معنى الاعتدالِ. ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ على ما زعمتُم مع أنَّ الهدايةَ لا تستلزمُ الاهتداءَ وقرىء إنْ هداكم بالكسْرِ، وإذ هدَاكم. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في ادعاء الإيمانِ، وجوابُه محذوف يدلُّ عليه ما قبلَه أي فللَّه المنةُ عليكم، وفي سياق الآية لطفٌ وهو أنهم لما سمُّوا ما صدَر عنهم إيماناً ومنُّوا به فنفَى أنه إيمانٌ وسمَّاه إسلاماً بأن قال يمنُّون عليكم بما هو في الحقيقة إسلامٌ وليس بجدير أنْ يُمَنَّ به عليك، بل لو صحَّ ادعاؤُهم للإيمان فللَّه المنةُ عليهم بالهداية له لا لهم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ما غابَ فيهما. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ في سرِّكم وعلانِيَتِكُم فكيف يخفَى عليه ما في ضمائركم، وقرأ ابنُ كثير بالياء لما في الآية من الغيبة. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الحجراتِ أُعْطِيَ من الأجر بعددِ مَنْ أَطاع اللهَ وعصاهُ»[١].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبي بن كعب به.
وهو حديث موضوع.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥٩ رقم ٤٠).
وتقدم الكلام في آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٢﴾ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ﴿٤﴾ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ﴿٥﴾

سورة قٓ مكية[١]، وهي خمس وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾ الكلامُ فيه كما مرَّ في صٓ والقرآنِ ذي الذكر. والمجيدُ: ذو المجد والشرفِ على سائر الكتبِ، أو لأنه كلامُ المجيدِ، أو لأن من عَلِمَ معانيه وامتثل أحكامَه مُجِّدَ.

(٢) ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾ إنكار لتعجُّبهم مما ليس بعجبٍ، وهو أن ينذِرَهم أحدٌ من جنسهم أو من أبناء جِلْدَتِهم. ﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ حكايةٌ لتعجُّبهم، وهذا إشارة إلى اختيار اللهِ محمداً ﷺ للرسالةِ. وإضمارُ ذكرِهم ثم إظهارُه للإشعار بتعنُّتهم بهذا المقالِ، ثم التسجيلُ على كفرهم بذلك، أو عطفٌ لتعجُّبهم من البعثِ على تعجبهم من البِعْثَةِ، والمبالغةُ فيه بوضعِ الظاهرِ موضعَ ضميرِهم، وحكايةُ تعجبهم مبهماً إنْ كانت الإشارةُ إلى مبهم يفسِّره ما بعدَه، أو محملاً إن كانت الإشارة إلى محذوف دل عليه «منذر» ثم تفسيره أو تفصيله لأنه أدخل في الإنكار إذ الأول استبعاد لأن يفضل عليهم مثلهم، والثاني استقصار لقدرة الله تعالى عما هو أهون مما يشاهدونه من صنعه.

(٣) ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾ أي أنرجع إذا مِتْنا وصِرْنا تراباً، ويدل على المحذوفِ قوله: ﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ أي بعيدٌ عن الوهم أو العادةِ أو الإمكانِ. وقيل الرجع بمعنى المرجوعِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٥٨) «وهي مكية بإجماع من المتأولين» هـ.

(٤) ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ ما تأكلُ من أجساد موتاهم، وهو ردٌّ لاستبعادهم بإزاحةِ ما هو الأصلُ فيه، وقيل إنه جوابُ القسمِ واللامُ محذوفٌ لطولِ الكلام. ﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ حافظٌ لتفاصيلِ الأشياءِ كلِّها، أو محفوظٌ عن التغيير، والمراد إما تمثيلُ علمِه بتفاصيلِ الأشياءِ بعلمِ مَنْ عنده كتابٌ محفوظ يطالعُه، أو تأكيدٌ لعلمِه بها بثبوتها في اللوح المحفوظ عندَه.

(٥) ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ يعني النبوةَ الثابتةَ بالمعجزات، أو النبيَّ ﷺ، أوِ القرآنَ. ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ﴾ وقرىء لما بالكسْرِ. ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ مضطربٍ من مَرَجَ الخاتَمُ في أُصْبُعِه إذا خرج، وذلك قولُهم تارةً إنه شاعرٌ وتارة إنه ساحرٌ وتارة إنه كاهنٌ.

أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٨﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ﴿١١﴾

(٦) ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ حين كفروا بالبعث. ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ إلى آثار قدرةِ الله تعالى في خلْق العالَم. ﴿كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا﴾ رفعناها بلا عَمَدٍ. ﴿وَزَيَّنَّٰهَا﴾ بالكواكب. ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ فتوقٍ بأنْ خلقَها ملساءَ متلاصقةَ الطباقِ.

(٧) ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بسطْناها. ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ جبالاً ثوابتَ[١]. ﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ﴾ أي من كل صِنْفٍ. ﴿بَهِيجٍ﴾ حسنٍ.

(٨) ﴿تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ راجعٍ إلى ربه متفكرٍ في بدائع صنعِه، وهما علتانِ للأفعالِ المذكورة معنى وإنِ انتصبتا عن الفعلِ الأخير.

(٩) ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ كثيرَ المنافع ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ أشجاراً وأثماراً. ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ وحبَّ الزرع الذي من شأنه أن يُحْصَدَ كالبرِّ والشعيرِ[٢].

(١٠) ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾ طوالاً أو حواملَ من أبسقتِ الشاةُ إذا حملتْ فيكون من أفعلَ فهو فاعلٌ، وإفرادها بالذِّكْرِ لفرْطِ ارتفاعِها وكثرةِ منافعها[٣]. وقرىء باصقاتٍ لأجل القافِ. ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ منضودٌ بعضُه فوق بعض، والمرادَ تراكمُ الطلعِ أو كثرةُ ما فيه من الثمرِ.

(١١) ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ علَّة لأنبتْنا أو مصدرٌ، فإنَّ الإنباتَ رزقٌ. ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾ بذلك الماءِ. ﴿بَلْدَةً

---

(١) والتعبير عنها بالرواسي للإيذان بأن إلقاءها بإرساء الأرض بها (س٨/١٢٦).

(٢) وتخصيص إنبات حبه بالذكر لأنه المقصود بالذات (س٨/١٢٧).

(٣) وتوسيط الحب بين النخل وبين الجنات لتأكيد استقلالها وامتيازها عن البقية، مع ما فيها من مراعاة الفواصل (س٨/١٢٧).

﴿مَّيْتًا﴾ أرضاً جذبةً لا نماءَ فيها. ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ كما حييتْ هذه البلدةُ يكون خروجُكم أحياءً بعد موتِكم[1].

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ
كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ
مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾

(١٢، ١٣) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ ﴿وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ﴾ أراد بفرعونَ إياه وقومَه ليلائم ما قبلَه وما بعدَه. ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ أخدانه لأنهم كانوا أصهارَه.

(١٤) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ سبق في الحِجْر والدخانِ. ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي كلُّ واحد أو قوم منهم أو جميعِهم، وإفرادُ الضمير لإفرادِ لفظه. ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ فوجبَ وحلَّ عليه وعيدي، وفيه تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لهم.

(١٥) ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾ أي أفعجزْنا عن الإبداءِ حتى نَعجزَ عن الإعادةِ، من عييَ بالأمرِ إذا لم يهتدِ لوجه عملِه، والهمزةُ فيه للإنكارِ. ﴿بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ أي هم لا ينكرون قُدْرَتَنا على الخلْق الأولِ بل هم في خلْطٍ، وشبهةٍ في خلقٍ مستأنَفٍ لما فيه من مخالفةِ العادةِ، وتنكيرُ الخلقِ الجديدِ لتعظيمِ شأنه والإشعارِ بأنه على وجه غير متعارَفٍ ولا معتادٍ.

(١٦) ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ ما تحدِّثه به نفسُه وهو ما يخطر بالبال، والوسوسةُ الصوتُ الخفيُّ ومنها وسواسُ الحلْي. والضميرُ لما إنْ جُعِلَتْ موصولةً والباء مثلُها في صوتٍ بكذا، أو للإنسان إنْ جُعِلَتْ مصدريةً والباءُ للتعدية. ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ أي ونحنُ أعلمُ بحاله ممن كان أقربَ إليه من حبلِ الوريد، تجوُّزٌ بقرب الذاتِ لقرب العلمِ لأنه موجِبُه، وحبلُ الوريد مَثَلٌ في القربِ قال: والموتُ أدنى من الوريد. والحبلُ العِرْقُ وإضافته للبيانِ، والوريدانِ عرقَانِ مكتنفانِ بصفحتي العُنُقِ في مقدَّمِها متصلانِ بالوتين يَرِدَان من الرأسِ إليه، وقيل سُمِّي وريداً لأن الروحَ تردُه.

(١٧) ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ مقدَّرٌ باذْكُر أو متعلِّقٌ بأقربُ، أي هو أعلمُ بحاله من كل قريب حين يتلقَّى أي يتلقنُ الحفيظانِ ما يتلفظُ به، وفيه إيذانٌ بأنه غنيٌّ عن استحفاظ الملكينِ فإنه أعلمُ منهما ومطَّلِعٌ

---

(١) قوله «كذلك الخروج».
قدم فيها الخبر للإشارة إلى القصر.
وما فيه من معنىٰ البعد للإشعار ببعد رتبتها، أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور لا شيء مخالف لها.
وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء وعن حياة الموتىٰ بالخروج تفخيم لشأن الإنبات وتهوين لأمر البعث وتحقيق للمماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتىٰ لتوضيح منهاج القياس وتقريبه إلى أفهام الناس (س٨/ ١٢٧).

على ما يَخفَى عليهما، لكنه لحكمةٍ اقتضتْه وهي ما فيه من تشديد يثبِّطُ العبدَ عن المعصية، وتأكيدٌ في اعتبار الأعمال وضبطِها للجزاءِ وإلزامٌ للحجَّةِ يوم يقومُ الأشهاد. ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ أي عن اليمين قعيدٌ وعن الشمال قعيدٌ، أي مقاعدُ كالجليسِ فحذفَ الأولَ لدلالة الثاني عليه كقوله: فإني وقيارٌ بها لغريبُ. وقد يُطْلَقُ الفعلُ للواحدِ والمتعدِّد كقوله تعالى ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾[1].

مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾

(١٨) ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ما يرمي به من فِيْه[2]. ﴿إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ﴾ مَلَكٌ يرقُب عملَه. ﴿عَتِيدٌ﴾ معدٌّ حاضرٌ، ولعلَّه يكتبُ عليه ما فيه ثوابٌ أو عقاب وفي الحديث: «كاتب الحسناتِ أمينٌ على كاتب السيئاتِ فإذا عمل حسنةً كتبها ملك اليمينِ عشراً، وإذا عملَ سيئة قال صاحبُ اليمين لصاحب الشمال دعْه سبعَ ساعاتٍ لعله يسبحُ أو يستغفرُ»[3].

(١٩) ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ لما ذكر استبعادَهم البعثَ للجزاءِ وأزاحَ ذلك بتحقيق قدرتِه وعلمه أعلمَهم بأنهم يلاقون ذلك عن قريبٍ عند الموت وقيامِ الساعة، ونبه على اقترابه بأن عبَّر عنه بلفظ الماضي، وسكرةُ الموت شدَّتُهُ الذاهبةُ بالعقلِ والباءُ للتعديةِ كما في قولك: جاء زيدٌ بعمرو. والمعنى وأحضرت سكرةُ الموتِ حقيقةَ الأمرِ أو الموعودَ الحقَّ، أو الحقَّ الذي ينبغي أن يكونَ من الموت أو الجزاءِ، فإنَّ الإنسانَ خُلِقَ له أو مِثْلُ الباءِ في ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهْنِ﴾[4]. وقرىء سكرةُ الحقِّ بالموتِ على أنها لشدتها اقتضتِ الزهوقَ أو لاستعقابها له كأنها جاءتْ به، أو على أنَّ الباء بمعنى مع. وقيل سكرةُ الحقِّ سكرة الله وإضافتُها إليه للتهويلِ. وقرىء سكراتُ الموتِ. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي الموتُ. ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ تميل وتنفرُ عنه والخطابُ للإنسان.

(٢٠) ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ يعني نفخةَ البعث. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي وقتُ ذلك يومَ تحقُّقِ الوعيد

---

(١) التحريم: «٤».

(٢) وتخصيص القول بالذكر لإثبات الحكم في الفعل بدلالة النص (س٨/ ١٢٩).

(٣) أخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٩١ رقم ٧٠٥١) والطبراني في الكبير (٨/ ٢١٧ ـ ٢١٨ رقم ٧٧٦٥) وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١٢٤) كلهم من طريق عروة بن رويم.
وأخرجه البيهقي في «الشعب» (٥/ ٣٩٠ رقم ٥٠٤٩) والطبراني في الكبير (٨/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ رقم ٧٩٧١) من طريق جعفر بن الزبير.
وأخرجه الطبراني في الكبير (٨/ ٢٢٥ رقم ٧٧٨٧) من طريق ثور بن يزيد. كلهم عن القاسم أبي عبدالرحمن عن أبي أمامة.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (١٠/ ٢٠٨) وقال: رواه الطبراني بأسانيد ورجال أحدها وثقوا وقال في طريق جعفر بن الزبير: فيه جعفر بن الزبير وهو كذاب.
وحسن الألباني الحديث في «الصحيحة» (٣/ ٢١٠ رقم ١٢٠٩).

(٤) المؤمنون: «٢٠».

وإنجازِه، والإشارة إلى مصدر نُفِخَ[١].

(٢١) ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ﴾ ملكانِ أحدُهما يسوقُه والأخرُ يشهدُ بعمله، أو مَلَكٌ جامعٌ للوصفين. وقيل السائقُ كاتبُ السيئات، والشهيدُ كاتب الحسناتِ. وقيل السائق نفسُه أو قرينه والشهيدُ جوارحُه أو أعمالُه، ومحلُّ معها النصبُ على الحالِ من كلُّ لإضافتِه إلى ما هو في حكمِ المعرفة.

لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ﴿٢٢﴾ وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٖ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ مُعۡتَدٖ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطۡغَيۡتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلِۭ بَعِيدٖ ﴿٢٧﴾

(٢٢) ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ على إضمارِ القولِ، والخطابُ لكلِّ نفسٍ إذ ما من أحدٍ إلا وله اشتغالٌ ما عن الآخرةِ أو للكافرِ. ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ الغطاءُ الحاجبُ لأمورِ المعادِ وهو الغفلةُ، والانهماكُ في المحسوساتِ والإلفُ بها وقصورُ النظر عليها. ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ﴾ نافذٌ لزوال المانع للأبصارِ. وقيل الخطابُ للنبي عليه الصلاة والسلام والمعنى: كنتَ في غفلة من أمرِ الديانة فكشفْنا عنك غطاءَ الغفلة بالوحي وتعليم القرآن، فبصرُك اليومَ حديدٌ ترى ما لا يرون وتعلمُ ما لا يعلمونَ. ويؤيد الأولَ قراءةُ من كسرَ التاءَ والكافاتُ على خطابِ النفس.

(٢٣) ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ قال الملكُ الموكَّل عليه. ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ هذا ما هو مكتوبٌ عندي حاضرٌ لديَّ، أو الشيطانُ الذي قُيِّضَ له هذا ما عندي وفي ملكتي عتيدٌ لجهنَّم هيأتُه لها بإغوائي وإضلالي، وما إنْ جُعِلَتْ موصوفةً فعتيد صفتُها وإنْ جعلتْ موصولةً فبدلُها أو خبرٌ بعد خبر أو خبرٌ محذوفٌ.

(٢٤) ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ﴾ خطابٌ من الله تعالى للسائقِ والشهيد، أو الملكين من خزنةِ النار، أو لواحدٍ وتثنيةُ الفاعلِ منزَّلٌ منزلةَ تثنيةِ الفعلِ وتكريرُه كقوله:

فـإنْ تَـزْجُـرَانـي يَـا ابْـنَ عَفَّـانَ أَنْـزَجِـرْ ... وإنْ تَـدَعَـانِـي أَحْـمِ عِـرْضـاً مُمنعـاً[٢]

أو الألفُ بدلٌ من نون التأكيدِ على إجراءِ الوصلِ مجرى الوقفِ، ويؤيده أنه قرىء أَلْقِيَنْ بالنونِ الخفيفةِ. ﴿عَنِيدٖ﴾ معاندٌ للحق.

(٢٥) ﴿مَّنَّاعٖ لِّلۡخَيۡرِ﴾ كثيرِ المنع للمالِ عن حقوقه المفروضةِ. وقيل المرادُ بالخيرِ الإسلامُ فإنَّ الآيةَ نزلت في الوليد بنِ المغيرة لما منعَ بني أخيه عنه. ﴿مُعۡتَدٖ﴾ متعدٍّ. ﴿مُّرِيبٍ﴾ شاكٌّ في الله وفي دينِه.

(٢٦) ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ مبتدأٌ متضمِّنٌ معنى الشرط وخبرهُ. ﴿فَأَلۡقِيَاهُ فِي ٱلۡعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ أو بدلٌ من كلِّ كفار فيكون فألقياه تكريراً للتوكيد، أو مفعولٌ لمضمَرٍ يفسِّره فألقياهُ.

(٢٧) ﴿۞قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي الشيطانُ المقيَّضُ له، وإنما استُؤنِفَتْ كما تُسْتَأْنَفُ الجملُ الواقعةُ في حكايةِ

---

(١) وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنه يوم الوعد أيضاً لتهويله، ولذلك بدىء ببيان حال الكفرة (س٨/ ١٣٠).
(٢) من الطويل.

التقاولِ فإنه جوابٌ لمحذوفٍ دلَّ عليه. ﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ كأنَّ الكافرَ قال هو أطغاني فقال قرينُه ربَّنا ما أطغيتُه بخلافِ الأولى فإنها واجبة العطفِ على ما قبلَها للدلالةِ على الجمعِ بينَ مفهوميهما في الحصولِ، أعني مجيءَ كلِّ نفس مع الملكينِ وقولَ قرينه: ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ فاعنتُه عليه فإنَّ إغواءَ الشياطين إنما يؤثر فيمَنْ كان مختلَّ الرأي مائلاً إلى الفجورِ كما قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾[1].

قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿قَالَ﴾ أي اللهُ تعالى. ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾ أي في موقفِ الحساب فإنه لا فائدةَ فيه، وهو استئنافٌ مثلُ الأول. ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ﴾ على الطغيانِ في كتبي وعلى ألسنةِ رسلي فلم يبقَ لكم حجةٌ. وهو حالٌ تعليلٍ للنهي أي لا تختصمُوا عالمين بأني أوعدتُكم، والباءُ مزيدةٌ أو معدِّيةٌ على أنَّ قدَّم بمعنى تقدَّم، ويجوزُ أنْ يكون بالوعيدِ حالاً والفعلُ واقعاً على قوله:

(٢٩) ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ أي بوقوعِ الخُلْفِ فيه فلا تطمعُوا أنْ أبدِّلَ وعيدي. وعفوُ بعض المذنبين لبعضِ الأسبابِ ليس من التبديل فإنَّ دلائلَ العفو تدلُّ على تخصيصِ الوعيد. ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ فأعذِّبُ مَنْ ليس لي تعذيبُه.

(٣٠) ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ سؤالٌ وجواب جيءَ بهما للتخييل والتصوير، والمعنى أنها مع اتساعِها تطرحُ فيها الجِنَّةَ والناسَ فوجاً فوجاً حتى تمتلىءَ لقوله تعالى ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ﴾[2]، أو أنها من السَّعةِ بحيث يدخلُها من يدخلُها وفيها بعدُ فراغٌ، أو أنها من شدة زفيرها وحِدَّتها وتشبُّثها بالعصاةِ كالمستكثرةِ لهم والطالبةِ لزيادتهم. وقرأ نافع وأبو بكر يقولُ بالياء والمزيدُ إما مصدرٌ كالمحيد أو مفعولٌ كالمبيعِ، ويومَ مقدَّرٌ باذكر أو ظرفٌ لِنُفِخَ فيكونُ ذلك إشارةً إليه فلا يفتقرُ إلى تقدير مضافٍ.

(٣١) ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ قُرِّبَتْ لهم. ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ مكاناً غيرَ بعيدٍ، ويجوز أنْ يكون حالاً وتذكيرهُ لأنه صفةُ محذوفٍ، أو شيئاً غيرَ بعيد أو على زِنَةِ المصدرِ أو لأنَّ الجنةَ بمعنى البستانِ.

(٣٢) ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ على إضمار القولِ، والإشارةُ إلى الثواب أو مصدرُ أُزلِفَتْ. وقرأ ابن كثير بالياءِ. ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ﴾ رجَّاعٍ إلى الله تعالى، بدلٌ من المتقين بإعادة الجارِّ. ﴿حَفِيظٍ﴾ حافظٍ لحدودِه.

(٣٣) ﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ بعدَ بدلٍ أو بدلٌ من موصوفِ أوَّابٍ، ولا يجوزُ أنْ يكونَ في حكمِه لأن مَنْ لا يوصفُ به أو مبتدأٌ خبرُه.

---

(١) إبراهيم: «٢٢».
(٢) الأعراف: «١٨».

ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ ﴿٣٥﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ
مِنۡهُم بَطۡشٗا فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ هَلۡ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ
شَهِيدٞ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ ﴿٣٨﴾ فَٱصۡبِرۡ
عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ قَبۡلَ طُلُوعِ ٱلشَّمۡسِ وَقَبۡلَ ٱلۡغُرُوبِ ﴿٣٩﴾

(٣٤) ﴿ٱدۡخُلُوهَا﴾ على تأويلِ يُقَالُ لهم ادخلوها، فإنَّ مَنْ بمعنى الجمعِ وبالغيبِ حالٌ من الفاعلِ أو المفعول، أو صفةٌ لمصدرٍ أي خشيةً ملتبسةً بالغيب حيث خشي عقابَه وهو غائبٌ، أو العقابَ بعدَ غيبٍ أو هو غائب عن الأعين لا يراهُ أحدٌ. وتخصيصُ الرحمن للإشعار بأنهم يرجُون رحمتَه ويخافون عذابَه، أو بأنهم يخشَوْنَ مع علمهم بِسَعَةِ رحمتِه، ووصفُ القلب بالإنابة إذ الاعتبارُ برجوعه إلى الله. ﴿بِسَلَٰمٖ﴾ سالمين من العذاب وزوالِ النِّعَمِ، أو مسلَّماً عليكم من الله وملائكتِه. ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ يومُ تقديرِ الخلودِ كقوله تعالى ﴿فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾[1].

(٣٥) ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ وهو ما لا يخطرُ ببالهم مما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت ولا خطر على قلبِ بشرٍ.

(٣٦) ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم﴾ قبلَ قومِك. ﴿مِّن قَرۡنٍ هُمۡ أَشَدُّ مِنۡهُم بَطۡشٗا﴾ قوةً كعادٍ وثمودَ وفرعونَ. ﴿فَنَقَّبُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ فخرقُوا في البلاد وتصرَّفوا فيها، أو جالوا في الأرض كلَّ مجالٍ حذرَ الموت، فالفاءُ على الأولِ للتسبُّبِ وعلى الثاني لمجرَّدِ التعقيبِ، وأصلُ التنقيبِ التنقيرُ عن الشيءِ والبحثُ عنه. ﴿هَلۡ مِن مَّحِيصٍ﴾ أي لهم من الله أو منَ الموتِ. وقيل الضميرُ في نقَّبوا لأهلِ مكةَ أي ساروا في أسفارِهم في بلاد القرونِ فهل رأَوا لهم محيصاً حتى يتوقَّعوا مثلَه لأنفسِهم، ويؤيدُه أنه قرىء فنقِّبوا على الأمرِ، وقرىء فَنَقِبُوا بالكسرِ من النَّقَبِ وهو أنْ ينتقبَ خفُّ البعير أي أكثَروا السيرَ حتى نقبتْ أقدامُهم أو أخفافُ مراكِبهم.

(٣٧) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ فيما ذُكِرَ في هذه السورةِ. ﴿لَذِكۡرَىٰ﴾ لتذكرةٌ. ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ﴾ أي قلبٌ واعٍ يتفكَّر في حقائقِه. ﴿أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ﴾ أي أصْغَى لاستماعِه. ﴿وَهُوَ شَهِيدٞ﴾ حاضرٌ بِذِهْنِه ليفهمَ معانيه، أو شاهدٌ بصدقِه فيتعظُ بظواهره وينزجرُ بزواجرِه، وفي تنكير القلبِ وإبهامِه تفخيمٌ وإشعار بأنَّ كلَّ قلبٍ لا يتفكر ولا يتدبَّر كلا قلبَ.

(٣٨) ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٖ﴾ مرَّ تفسيره مراراً. ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٖ﴾ من تعبٍ وإعياءٍ، وهو ردٌّ لما زعمتِ اليهودُ من أنه تعالى بدأ خلقَ العالم يومَ الأحدِ وفرغَ منه يومَ الجمعةِ واستراحَ يومَ السبتِ واستلقى على العرشِ.

(٣٩) ﴿فَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ ما يقول المشركونَ من إنكارِهم البعثَ، فإنَّ من قَدَرَ على خلْقِ العالَم بلا عياءٍ قدرَ على بعْثِهم والانتقامِ منهم، أو ما يقول اليهودُ من الكفر والتشبيهِ. ﴿وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ﴾

---

(١) الزمر: «٧٣».

ونزِّهْهُ عن العجْزِ عما يمكنُ، والوصفُ بما يوجب التشبيهَ حامداً له على ما أنعمَ عليك من إصابةِ الحقِّ وغيرِها. ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ يعني الفجرَ والعصرَ وقد عرفْتَ فضيلةَ الوقتينِ.

وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾ وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ
بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ۚ ذَٰلِكَ
حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ ۖ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾

(٤٠) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ أي وسبِّحه بعضَ الليلِ. ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ وأعقابَ الصلواتِ جمعُ دُبُرٍ من أَدْبَرَ، وقرأ الحجازيانِ وحمزةُ وخلفٌ بالكسرِ من أدبرتِ الصلاةُ إذا انقضتْ. وقيل المرادُ بالتسبيح الصلاةُ، فالصلاةُ قبلَ الطلوعِ الصبح وقبل الغروبِ: الظهرُ، والعصرُ. ومن الليل: العشاءانِ، والتهجدُ وأدبارُ السجود النوافلُ بعدَ المكتوبات. وقيل الوترُ بعدَ العشاءِ.

(٤١) ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ لِمَا أخبرك به من أحوال القيامةِ، وفيه تهويلٌ وتعظيم للمخبَرِ به. ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ إسرافيلُ أو جبريلُ عليهما الصلاة والسلام فيقول: أيتُها العظامُ البالية واللحومُ المتمزقةُ والشعورُ المتفرقة إنَّ الله يأمركنَّ أنْ تجتمعْنَ لفصلِ القضاء[١]. ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ بحيثُ يصلُ نداؤه إلى الكلِّ على سواءٍ، ولعلَّه في الإعادةِ نظيرُكُنَّ في الإبداءِ، ويومَ نُصِبَ بما دلَّ عليه يومُ الخروج.

(٤٢) ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ﴾ بدلٌ منه والصيحةُ النفخةُ الثانية. ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ متعلِّقٌ بالصيحةِ والمرادُ به البعثُ للجزاءِ. ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ﴾ من القبور، وهو من أسماءِ يوم القيامة وقد يُقَالُ للعيدِ.

(٤٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْىِۦ وَنُمِيتُ﴾ في الدنيا. ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ للجزاء في الآخرةِ.

(٤٤) ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ﴾ تتشقَّقُ، وقرىء تنشقُّ. وقرأ عاصم وحمزةُ والكسائي وخلف وأبو عمرو بتخفيفِ الشين. ﴿ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾ مسرعينَ. ﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ﴾ بعثٌ وجمعٌ. ﴿عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ هيِّنٌ، وتقديمُ الظرفِ للاختصاصِ فإن ذلك لا يتيسَّرُ إلا على العالِمِ القادِرِ لذاتِه الذي لا يشغلُه شأنٌ عن شأن، كما قال الله تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾[٢].

(٤٥) ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ تسليةٌ لرسول الله ﷺ وتهديدٌ لهم. ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ بمسلَّطٍ تقسُرهم على الإيمان، أو تفعلُ بهم ما تريد وإنما أنت داعٍ. ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ فإنه لا ينتفعُ به غيرهُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ قٓ هوَّن الله عليه تاراتِ الموتِ وسكراتِه»[٣]. والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) انظر [تفسير البغوي (٧/ ٣٦٦)] وانظر فتح القدير (٥/ ٨١).
(٢) لقمان: «٢٨».
(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥٩ رقم ٤٦). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الذَّارِيَاتِ

ترتيبها ٥١ — آياتها ٦٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ
الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦) وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ
هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ
بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا
قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧)

سورة والذاريات مكية[1] وآيها ستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ يعني الرياحَ تذرو الترابَ وغيره، أو النساءَ الولودَ فإنهن يذرينَ الأولادَ، أو الأسبابَ التي تذري الخلائقَ من الملائكة وغيرهم. وقرأ أبو عمرو وحمزةُ بإدغام التاءِ في الذالِ.

(٢) ﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا﴾ فالسحبِ الحاملةِ للأمطار، أو الرياحِ الحاملة للسحابِ، أو النساءِ الحواملِ، أو أسبابِ ذلك. وقرئ وَقراً على تسمية المحمولِ بالمصدرِ.

(٣) ﴿فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا﴾ فالسفنِ الجاريةِ في البحرِ سهلاً، أو الرياحِ الجاريةِ في مهابِّها، أو الكواكبِ التي تجري في منازلِها. ويسراً صفةُ مصدرٍ محذوفٍ أي جرياً ذا يسرٍ.

(٤) ﴿فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الملائكةِ التي تقسِّمُ الأمورَ من الأمطار والأرزاقِ وغيرها، أو ما يعمُّهم وغَيْرَهُم من أسباب القسمةِ، أو الريحِ يقسِّمْنَ الأمطارَ بتصريفِ السحابِ، فإنْ حُمِلَتْ على ذواتٍ مختلفةٍ فالفاءِ لترتيبِ الأقسامِ بها باعتبارِ ما بينها من التفاوُتِ في الدلالة على كمال القدرةِ، وإلا فالفاءُ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/١٩٧): «وهي مكية بإجماعٍ من المفسرين».

لترتيبِ الأفعال إذ الرياحُ مثلاً تذرُو الأبخرةَ إلى الجوِّ حتى تنعقدَ سحاباً، فتحملُه فتجري به باسطةً له إلى حيثُ أُمِرَتْ به فتقسِّمُ المطرَ.

(٥) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ﴾ .

(٦) ﴿وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾ جوابُ القسمِ كأنه استدلَّ باقتداره على هذه الأشياءِ العجيبةِ المخالفةِ لمقتضى الطبيعةِ على اقتداره على البعثِ للجزاء الموعودِ، وما موصولةٌ أو مصدريةٌ والدينُ الجزاء والواقعُ الحاصلُ.

(٧) ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذاتِ الطرائقِ، والمرادُ إما الطرائقُ المحسوسة التي هي مسيرُ الكواكب أو المعقولةِ التي يسلُكها النُّظارُ ويُتَوَصَّلُ بها إلى المعارفِ، أو النجومُ فإنَّ لها طرائقَ أو أنها تزيِّنها كما يزيِّنُ الموشيُّ طرائقَ الوشْيِ؛ جمعُ حبيكةٍ كطريقةٍ وطرقٍ أو حباكٍ كمثالٍ ومُثُلٍ. وقرىء الحُبْكِ بالسكونِ، والحِبِكِ كالإبِلِ، والحِبْكِ كالسِّلْكِ، والحَبَكِ كالجبلِ، والحِبَكِ كالنِّعَمِ، والحَبْكِ كالبرقِ.

(٨) ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ﴾ في الرسول ﷺ وهو قولُهم تارةً إنه شاعرٌ وتارة إنه ساحر وتارة إنه مجنونٌ، أو في القرآن أو القيامةِ أو أمرِ الديانة، ولعل النكتةَ في هذا القسمِ تشبيهُ أقوالهم في اختلافِها وتنافي أغراضِها بطرائقِ السموات في تباعُدِها واختلافِ غاياتها.

(٩) ﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ يُصْرَفُ عنه والضميرُ للرسول أو القرآنِ أو الإيمانِ، من صَرَفَ إذ لا صَرْفَ أشدُّ منه فكأنه لا صَرْفَ بالنسبة إليه، أو يُصْرَفُ مَنْ صُرِفَ في علم الله وقضائه ويجوز أن يكون الضميرُ للقول على معنى يصدرُ، أَفِكَ من أُفِكَ عن القولِ المختلفِ وبسببه كقوله: ينهون عن أكلٍ وعن شربٍ. أي يصدرُ تناهيهم عنهما وبسبَبِهما وقرىء أَفَكَ بالفتحِ أي من أَفَكَ الناسُ وهم قريشٌ كانوا يصدُّون الناسَ عن الإيمان.

(١٠) ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذابونَ من أصحابِ القول المختلفِ، وأصله الدعاءُ بالقتل أجري مجرى اللعنِ.

(١١) ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ في جهل يغمُرهم. ﴿سَاهُونَ﴾ غافلون عما أُمِرُوا به.

(١٢) ﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي فيقولون متى يومُ الجزاء أي وقوعُه، وقرىء إيانَ بالكسْرِ.

(١٣) ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ يُحرَقُونَ جوابٌ للسؤالِ أي يقعُ يومَ هم على النارِ يفتنونَ، أو هو يومَ هم على النارِ يفتنونَ، وفتحَ يومَ لإضافتهِ إلى غير متمكِّنٍ ويدلُّ عليه أنه قرىء بالرفعِ.

(١٤) ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ أي مقولاً لهم هذا القولَ. ﴿هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا العذابُ هو الذي كنتم به تستعجلون، ويجوزُ أنْ يكونَ هذا بدلاً من فتنتِكم والذي صفتُه.

(١٥) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ .

(١٦) ﴿آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ﴾ قابلينَ لما أعطاهم راضينَ به، ومعناه أنَّ كلَّ ما آتاهم حسنٌ مرضيٌّ متلقًّى بالقبول. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ قد أحسنوا أعمالَهم وهو تعليلٌ لاستحقاقهم ذلك.

(١٧) ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ تفسير لإحسانِهم، وما مزيدةٌ أي يهجعون في طائفة من الليل أو يهجعونَ هجوعاً قليلاً، أو مصدريةٌ أو موصولةٌ أي في قليل من الليلِ هجوعُهم، أو ما يهجعون فيه،

ولا يجوزُ أن تكون نافيةً لأنَّ ما بعدَها لا يعملُ فيما قبلَها. وفيه مبالغاتٌ لتقليلِ نومِهم واستراحتِهم، ذكرَ القليلَ والليلَ الذي هو وقتُ السباتِ، والهجوعَ الذي هو الفرارُ من النوم وزيادةُ ما.

﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٤﴾﴾

(١٨) ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ أي أنهم مع قلةِ هجوعِهم وكثرةِ تهجُّدهم إذا أسحروا أخذوا في الاستغفارِ كأنهم أسلفُوا في ليلهم الجرائمَ، وفي بناءِ الفعلِ على الضمير إشعاراً بأنهم أحقَّاءُ بذلك لوفور علمِهم بالله وخشيتهم منه.

(١٩) ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ﴾ نصيبٌ يستوجبونَه على أنفسِهم تقرُّباً إلى الله وإشفاقاً على الناس. ﴿لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾ للمستجدي والمتعففِ الذي يُظَنُّ غنياً فيحرمُ الصدقةَ.

(٢٠) ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾ أي فيها دلائلُ من أنواع المعادنِ والحيوانات، أو وجوهُ دلالات من الدُّحُوِّ والسكونِ وارتفاعِ بعضِها عن الماء واختلافِ أجزائها في الكيفياتِ والخواصِّ والمنافع تدلُّ على وجودِ الصانع وعلمِه وقدرتِه وإرادتِه ووحدتِه وفرْطِ رحمتِه.

(٢١) ﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ﴾ أي وفي أنفسِكم آياتٌ إذ ما في العالم شيءٌ إلا وفي الإنسان له نظيرٌ يدل دلالتَه مع ما انفردَ به من الهيئات النافعةِ والمناظرِ البهيةِ والتركيبات العجيبةِ، والتمكنِ من الأفعالِ الغريبة واستنباطِ الصنائعِ المختلفةِ واستجماعِ الكمالات المتنوعةِ. ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ تنظرون نظرَ مَنْ يعتبرُ.

(٢٢) ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ﴾ أسبابُ رزقِكم أو تقديرُه. وقيل المرادُ بالسماءِ السحابُ وبالرزقِ المطرُ فإنه سببُ الأقواتِ. ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ من الثوابِ لأنَّ الجنَّةَ فوقَ السماءِ السابعةِ، أو لأنَّ الأعمالَ وثوابَها مكتوبةٌ مقدَّرةٌ في السماءِ. وقيل إنه مستأنفٌ خبرهُ:

(٢٣) ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ وعلى هذا فالضميرُ لما وعلى الأولِ يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ له ولما ذكر من أمرِ الآياتِ والرزقِ والوعدِ. ﴿مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴾ أي مثلَ نُطقِكُم كما أنه لا شكَّ لكم في أنكم تنطقونَ ينبغي أنْ لا تشكُّوا في تحقُّقِ ذلك. ونَصَبَهُ على الحالِ من المستكِنِّ في لَحَقّ، أو الوصفِ لمصدرٍ محذوفٍ أي أنه لحقٌّ حقاً مِثلَ نطقِكم. وقيل إنه مبنيٌّ على الفتح لإضافتهِ إلى غير متمكِّنٍ وهو ما إن كانت بمعنى شيءٍ وأنّ بما في حيِّزها إنْ جُعِلَتْ زائدةً، ومحلُّه الرفعُ على أنه صفةٌ لحقٍّ، ويؤيدُه قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ وأبي بكر بالرفعِ.

(٢٤) ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ﴾ فيه تفخيمٌ لشأنِ الحديثِ وتنبيهٌ على أنه أُوحِيَ إليه، والضيفُ في الأصلِ مصدرٌ ولذلك يُطْلَقُ على الواحدِ والمتعدِّدِ. قيل كانوا اثني عشرَ ملَكاً. وقيل ثلاثةٌ جبريلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ، وسمَّاهم ضيفاً لأنهم كانوا في صورةِ الضيفِ. ﴿الْمُكْرَمِينَ﴾ أي مكرمينَ عند الله أو عندَ إبراهيمَ إذ خدمهم بنفسِه وزوجتِه.

إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴿٢٥﴾ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ﴿٢٦﴾ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٠﴾ ۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

(٢٥) ﴿إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ﴾ ظرفٌ للحديث أو الضيفِ أو المكرمين. ﴿فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ أي نسلِّم عليك سلاماً. ﴿قَالَ سَلَٰمٌ﴾ أي عليكم سلامٌ، عَدَلَ به إلى الرفع بالابتداءِ لقصدِ الثباتِ حتى تكونَ تحيَّتُه أحسنَ من تحيَّتِهم. وقرئا مرفوعين، وقرأ حمزة والكسائيُّ قال سِلْمٌ، وقرىء منصوباً والمعنى واحدٌ. ﴿قَوْمٌ مُّنكَرُونَ﴾ أي أنتم قومٌ منكرونَ، وإنما أنكرهُم لأنه ظنَّ أنهم بنو آدمَ ولم يعرِّفهم، أو لأنَّ السلامَ لم يكن تحيَّتَهم فإنه علَمُ الإسلامِ وهو كالتعرُّفِ عنهم.

(٢٦) ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ فذهبَ إليهم في خفيةٍ من ضيفِه فإنَّ من أدبِ المضيفِ أنْ يبادِرَ بالقرى حذَراً من أنْ يكفَّه الضيفُ أو يصبرَ منتظراً. ﴿فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ لأنه كان عامةَ مالِه البقرُ[1].

(٢٧) ﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ﴾ بأنْ وضَعَه بين أيديهم. ﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي منه، وهو مشعرٌ بكونه حنيذاً، والهمزةُ فيه للعرضِ والحثِّ على الأكلِ على طريقةِ الأدبِ إنْ قاله أولَ ما وضَعَه، وللإنكارِ إنْ قاله حينما رأى إعراضَهم.

(٢٨) ﴿فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ فأضمرَ منهم خوفاً لما رأى إعراضَهم عن طعامِه لظنِّه أنهم جاؤوه لشرٍّ. وقيل وقعَ في نفسه أنهم ملائكةٌ أُرسِلُوا للعذاب. ﴿قَالُوا۟ لَا تَخَفْ﴾ إنا رسلُ اللهِ. قيل مسحَ جبريلُ العجلَ بجناحه فقام يدرجُ حتى لحقَ بأمِهِ فعرفَهم وأمِنَ منهم. ﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ﴾ هو إسحقُ عليه السلام. ﴿عَلِيمٍ﴾ يكمُلُ علمُه إذا بلغَ.

(٢٩) ﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾ سارةُ إلى بيتها وكانت في زاوية تنظرُ إليهم. ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صيحةٍ من الصرير، ومحلُّه النصبُ على الحال أو المفعولِ إنْ أُوِّلَ فأقبلتْ بأخذتْ. ﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ فلطمتْ بأطرافِ الأصابع جَبْهَتَها فِعْلَ المتعجِّبِ. وقيل وجدتْ حرارةَ دمِ الحيضِ فلطمتْ وجْهَهَا من الحياءِ. ﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي أنا عجوز عاقرٌ فكيف أَلِدُ.

(٣٠) ﴿قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ﴾ مثلَ ذلك الذي بشَّرنا به. ﴿قَالَ رَبُّكِ﴾ وإنما نخبركِ به عنه. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ﴾ فيكون قولُه حقاً وفعلُه محكماً.

(٣١) ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ لما علم أنهم ملائكةٌ وأنهم لا ينزلونَ مجتمعينَ إلا لأمرٍ عظيم سألَ عنه.

---

(١) الفاء في قوله «فجاء بعجل سمين» فصيحة أفصحت عن جمل قد حذفت ثقة بدلالة الحال عليها وإيذاناً بكمال سرعة المجيء بالطعام، كما في قوله تعالى: «أن اضرب بعصاك البحر فانفلق..» ـ الشعراء «٦٣» ـ. والمعنى: فذبح عجلاً فحنذه فجاء به.. (س٨/ ١٤٠).

قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ
فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾ وَفِى
مُوسَىٰٓ إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ
وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾ وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ يعنونَ قومَ لوط.

(٣٣) ﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ يريدَ السجِّيلَ فإنه طينٌ متحجِّرٌ.

(٣٤) ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ مرسلةً من أسمتُ الماشيةَ، أو معلَّمةً من السومةِ وهي العلامةُ. ﴿لِلْمُسْرِفِينَ﴾ المجاوزين الحدَّ في الفجورِ.

(٣٥) ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا﴾ في قرى قومِ لوطٍ وإضمارها ولم يجرِ ذكرُها لكونها معلومةً. ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ممن آمن بلوط.

(٣٦) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ غير أهلِ بيت من المسلمين. واستُدِلَّ به على اتحادِ الإيمان والإسلامِ، وهو ضعيفٌ لأن ذلك لا يقتضي إلا مَنْ صدَّقَ المؤمنَ والمسلمَ على مَنِ اتَّبعه، وذلك لا يقتضي اتحادَ مفهوميهما لجوازِ صدقِ المفهوماتِ المختلفة على ذاتٍ واحدة.

(٣٧) ﴿وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ علامةٌ. ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ فإنهم المعتبِرونَ بها، وهي تلك الأحجارُ أو صخرٌ منضودٌ فيها أو ماءٌ أسودُ منتنٌ.

(٣٨) ﴿وَفِى مُوسَىٰٓ﴾ عطف على وفي الأرض، أو تركْنا فيها على معنى وجعلْنا في موسى كقوله: علفْتُها تبناً وماءً بارداً[1]. ﴿إِذْ أَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ هو معجزاتُه كالعصا واليد.

(٣٩) ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ فأعرضَ عن الإيمان به كقوله ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾[2] أو فتولَّى بما كان يتقوَّى به من جنوده، وهو اسمٌ لما يُرْكَنُ إليه الشيءُ ويتقوَّى به. وقرىء بضمِّ الكافِ. ﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ﴾ أي هو ساحرٌ. ﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كأنه جعلَ ما ظهرَ عليه من الخوارقِ منسوباً إلى الجنِّ، وتردَّدَ في أنه حصلَ ذلك باختيارِه وسعْيِه أو بغيرِهما.

(٤٠) ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ فأغرقْناهم في البحرِ. ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ آتٍ بما يُلامُ عليه من الكفرِ والعنادِ، والجملة حالٌ من الضمير في فأخذْناه.

(٤١) ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ سمَّاها عقيماً لأنها أهلكتْهم وقطعتْ دابِرَهم، أو لأنها لم تتضمنْ منفعةً، وهي الدَّبورُ أو الجنُوبُ أوِ النكباءُ.

(٤٢) ﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ﴾ مرَّتْ. ﴿عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ كالرمادِ من الرمِّ وهو البِلَى والتفتُّتُ.

---

(١) من الرجز، أي وسقيتها ماءً، فحذف اكتفاء بالأول، ونحوه: وزججّن الحواجب والعيونا، أي وكحّلن.
(٢) الإسراء الآية: «٨٣» وفصلت الآية: «٥١».

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا
اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا
بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ
تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٥١﴾ كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّىٰ حِينٍ﴾ تفسيرُ قولِه ﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾[1].

(٤٤) ﴿فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ فاستكبروا عن امتثاله. ﴿فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ﴾ أي العذابُ بعد الثلاث. وقرأ الكسائي الصعقةُ وهي المرة من الصَّعْقِ. ﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ إليها فإنها جاءتهم معاينةً بالنهار.

(٤٥) ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا مِن قِيَامٍ﴾ كقوله ﴿فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾[2]. وقيل من قولهم ما يقومُ به إذا عجزَ عن دفعه. ﴿وَمَا كَانُوا مُنتَصِرِينَ﴾ ممتنعينَ منه.

(٤٦) ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ﴾ أي وأهلكْنا قومَ نوح لأنَّ ما قبلَه يدلُّ عليه. أو اذكُر ويجوز أن يكونَ عطفاً على محل في عادٍ، ويؤيده قراءةُ أبي عمرو وحمزةَ والكسائي بالجرِّ. ﴿مِّن قَبْلُ﴾ من قبلِ هؤلاء المذكورينَ. ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ خارجين عن الاستقامة بالكفر والعصيان.

(٤٧) ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ﴾ بقوةٍ. ﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ لقادرون من الوُسْعِ بمعنى الطاقةِ والموسعُ القادرُ على الإنفاق، أو لموسعون السماءَ أو ما بينَها وبين الأرض أو الرزقَ.

(٤٨) ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ مهَّدْناها لتستقروا عليها. ﴿فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ أي نحنُ.

(٤٩) ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الأجناس. ﴿خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾ نوعين ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ فتعلمون أنَّ التعددَ من خواصِّ الممكناتِ وأن الواجبَ بالذاتِ لا يقبل التعدُّدَ والانقسامَ.

(٥٠) ﴿فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ﴾ من عقابه بالإيمان والتوحيد وملازمةِ الطاعة. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ﴾ أي من عذابه المعدِّ لمن أشركَ أو عصَى. ﴿نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ بيِّنٌ كونَه منذراً من الله بالمعجزات، أو مبيِّنٌ ما يجب أن يُحْذَرَ عنه.

(٥١) ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ إفراد لأعظمَ ما يجب أن يُفَرَّ منه. ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأولُ مرتبٌ على ترك الإيمان والطاعة والثاني على الإشراكِ.

(٥٢) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي الأمرُ مثلُ ذلك، والإشارة. إلى تكذيبهم الرسولَ وتسميتهم إياهُ ساحراً أو مجنوناً وقوله: ﴿مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ كالتفسيرِ له، ولا يجوز نصبُه بأَتَى أو ما يفسِّره لأنَّ ما بعدَ ما النافيةِ لا يعملُ فيما قبلَها.

---

(١) هود: ٦٥.
(٢) الأعراف: ٧٨.

أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾
وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ
ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن
يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾

(٥٣) ﴿أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦ﴾ أي كأن الأولين والآخرينَ منهم أوصَى بعضُهم بعضاً بهذا القول حتى قالوه جميعاً. ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ إضرابٌ عن أن التواصيَ جامِعُهم لتباعُدِ أيامهم إلى أن الجامعَ لهم على هذا القولِ مشاركتُهم في الطغيان الحاملِ عليه.

(٥٤) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ فأعرضْ عن مجادلتهم بعدما كرَّرْتَ عليهم الدعوةَ فأَبَوْا إلا الإصرارَ والعنادَ. ﴿فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ على الإعراض بعد ما بذلت جُهْدَكَ في البلاغ.

(٥٥) ﴿وَذَكِّرْ﴾ ولا تدعِ التذكيرَ والموعظةَ. ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ من قدَّر اللهُ إيمانه أو مَنْ آمن فإنه يزدادُ بها بصيرةً.

(٥٦) ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لمّا خلقهم على صورة متوجِّهة إلى العبادة مغلَّبة لها. جَعَلَ خلْقَهم مغيّاً بها مبالغةً في ذلك؛ ولو حُمِلَ على ظاهره، مع أنَّ الدليلَ يمنعه لنا في ظاهرِ قوله ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾(١) وقيل معناه إلا لأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عباداً لي(٢).

(٥٧) ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي ما أريدُ أنْ أصْرِفكم في تحصيل رزقي فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به، والمرادُ أنْ يبيِّنَ أنَّ شأنه مع عباده ليس شأنَ السادة مع عبيدهم، فإنهم إنما يملكونَهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشِهم، ويُحْتَمَلُ أنْ يُقَدَّرَ بقلْ فيكون بمعنى قوله ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾(٣).

(٥٨) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ الذي يرزقُ كلَّ ما يفتقر إلى الرزق، وفيه إيماءٌ باستغنائه عنه، وقرىء إني أنا الرزاقُ. ﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ شديدُ القوة، وقرىء المتينِ بالجرِّ صفةً للقوةِ.

(٥٩) ﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا﴾ أي للذين ظلموا رسولَ الله ﷺ بالتكذيب نصيباً من العذاب. ﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ﴾ مثلَ نصيبِ نُظَرائِهم من الأمم السالفةِ، وهو مأخوذٌ من مقاسمةِ السُّقاةِ الماءَ بالدِّلاءِ فإن الذَّنوبَ هو الدلْو العظيم المملوءُ. ﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ جوابٌ لقولهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾(٤).

(٦٠) ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ من يوم القيامة أو يومِ بدرٍ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ

(١) الأعراف: «١٧٩».
(٢) ولعل تقديم خلق الجن في الذكر لتقدمه على خلق الإنس في الوجود (س٨/ ١٤٤).
(٣) الأنعام: «٩٠».
(٤) يسٓ: «٤٨».

سورةَ والذارياتِ أعطاه الله عشْرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ ريحٍ هبَّت وجَرَتْ في الدنيا»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٥٩ رقم ٥٠). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطُّورِ

ترتيبها ٥٢ — آياتها ٤٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾

سورة والطور مكية[١] وآيها تسع أو ثمان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلطُّورِ﴾ يريدُ طورَ سينينَ، وهو جبل بمدينَ سمعَ فيه موسى عليه السلام كلامَ الله تعالى، والطور الجبلُ بالسريانيةِ أو ما طارَ من أوجِ الإيجادِ إلى حضيضِ الموادِّ، أو من عالم الغيب إلى عالمِ الشهادة.

(٢) ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ مكتوبٍ، والسطر ترتيبُ الحروف المكتوبةِ. والمراد به القرآنُ أو ما كتبه اللهُ في اللوح المحفوظِ، أو ألواحِ موسى عليه السلام، أو في قلوب أوليائهِ من المعارفِ والحِكَمِ أو ما تكتبه الحفَظَةُ.

(٣) ﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرَّقُّ الجلدُ الذي يُكْتَبُ فيه استُعِيْرَ لما كُتِبَ فيه الكتابُ، وتنكيرهُما للتعظيم والإشعارِ بأنهما ليسا من المتعارَفِ فيما بينَ الناس.

(٤) ﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ يعني الكعبةَ وعمارتَها بالحجَّاج والمجاورين، أو الضراحَ وهو في السماء الرابعةِ. وعمرانُه كثرةُ غاشيتهِ من الملائكة، أو قلبَ المؤمن وعمارتَه بالمعرفةِ والإخلاص.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/٢٢٩): «وهي مكية بإجماع من المفسرين والرواة».

(٥) ﴿وَٱلسَّقْفِ ٱلْمَرْفُوعِ﴾ يعني السماءَ.

(٦) ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ أي المملوءِ وهو المحيطُ، أو الموقَدُ من قوله ﴿وإذا البحار سجرت﴾[1] روي أنه تعالى يجعلُ يومَ القيامة البحارَ ناراً يسجُر بها نارَ جهنَّمَ[2]، أو المختلطِ من السجير وهو الخليطُ.

(٧) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ لنازلٌ.

(٨) ﴿مَّا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ يدفعُه، ووجه دلالةِ هذه الأمورِ المقسَمِ بها على ذلك أنها أمور تدلُّ على كمال قدرةِ الله تعالى وحكمتِه وصدقِ أخباره وضبطِه أعمالَ العبادِ للمجازاةِ.

(٩) ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ تَضْطَرِبُ، والمَوْرُ تردُّدٌ في المجيءِ والذَّهابِ، وقيل تحرّك في تموُّجٍ. ويومَ ظرفٌ.

(١٠) ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ أي تسير عن وجه الأرض فتصيرُ هباءً[3].

(١١) ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي إذا وقعَ ذلك فويلٌ لهم.

ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

(١٢) ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِى خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي في الخوض في الباطلِ.

(١٣) ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ يُدْفَعُونَ إليها دفعاً بعنفٍ، وذلك بأن تُغَلَّ أيديهم إلى أعناقهم وتُجْمَعَ نواصيهم إلى أقدامِهم فيُدْفَعُونَ إلى النارِ. وقرىء يُدْعَوْنَ من الدعاءِ فيكون دعًّا حالاً بمعنى مدعوِّين، ويومَ بدلٌ من يومَ تمورُ أو ظرفٌ لقول مقدَّر محكيه.

(١٤) ﴿هَٰذِهِ ٱلنَّارُ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك.

(١٥) ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ﴾ أي كنتم تقولون للوحي هذا سحرٌ أفهذا المصداقُ أيضاً سحرٌ، وتقديمُ الخبر لأنه المقصودُ بالإنكارِ والتوبيخ. ﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ هذا أيضاً كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ما يدلُّ عليه، وهو تقريعٌ وتهكُّمٌ، أو: أم سُدَّتْ أبصارُكم كما سُدَّتْ في الدنيا على زعْمِكم حين قلتُم إنما سُكِّرتْ أبصارُنا.

(١٦) ﴿ٱصْلَوْهَا فَٱصْبِرُوٓا۟ أَوْ لَا تَصْبِرُوا۟﴾ أي ادخلُوها على أي وجهٍ شئتُم من الصبرِ وعدمِه فإنه

---

(١) التكوير: «٦».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٣٨٦) بدون راوٍ ولا سند.

(٣) وتأكيد الفعلين بمصدريهما للإيذان بغرابتهما وخروجهما عن الحدود المعهودة، أي موراً عجيباً وسيراً بديعاً لا يدرك كنههما (س٨/ ١٤٧).

لا محيصَ لكم عنها. ﴿سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ أي الأمرانِ الصبرُ وعدمُه. ﴿إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ تعليلٌ للاستواءِ فإنه لما كان الجزاءُ واجبَ الوقوعِ كان الصبرُ وعدمُه سِيَّيْنِ في عدم النفعِ.

إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾

(١٧) ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ﴾ في أية جناتٍ وأي نعيمٍ، أو في جنات ونعيمٍ مخصوصةٍ بهم.

(١٨) ﴿فَٰكِهِينَ﴾ ناعمين متلذِّذِينَ. ﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ وقرىء فكِهِينَ وفاكهونَ على أنه الخبرُ والظرفُ لغوٌ. ﴿وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾ عطفٌ على آتاهم إنْ جَعَلَ ما مصدريةً، أو في جناتٍ أو حالٌ بإضمارِ قدْ مِنَ المستكِنِّ في الظرفِ أو الحالِ، أو من فاعلِ آتي أو مفعولِه أو منهما[1].

(١٩) ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا﴾ أي أكلاً وشراباً هنيئاً، أو طعاماً وشراباً هنيئاً وهو الذي لا تنغيصَ فيه. ﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بسببه أو بدلِه، وقيل الباءُ زائدةٌ وما فاعلُ هنيئاً، والمعنى هَنَأَكم ما كنتُم تعملون أي جزاؤُه.

(٢٠) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ﴾ مصطفَّةٍ ﴿وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ﴾ الباءُ لما في التزويج من معنى الوصْلِ والإلصاقِ، أو للسببية إذ المعنى صيَّرناهم أزواجاً بسببهنَّ، أو لما في التزويج من معنى الإلصاق والقَرْنِ ولذلك عطفَ:

(٢١) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ على حورٍ أي قرنَّاهم بأزواجٍ حورٍ ورفقاءِ مؤمنينَ. وقيل إنه مبتدأٌ خبرهُ ألحقنا بهم وقولُه: ﴿وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ اعتراضٌ للتعليلِ، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ ذرياتُهم بالجمع وضمِّ التاءِ للمبالغة في كثرتِهم والتصريحِ، فإنَّ الذرِّيَّةَ تقعُ على الواحدِ والكثيرِ، وقرأ أبو عمرو وأتبعْناهم ذريَّاتِهم أي جعلْناهم تابعينَ لهم في الإيمان. وقيل بإيمانٍ حالٌ من الضمير أو الذريةِ أو منهما. وتنكيرهُ للتعظيم، أو الإشعارِ بأنه يكفي للإلحاقِ المتابعةُ في أصلِ الإيمان. ﴿أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ في دخول الجنةِ أو الدَّرجةِ. لما رُوِيَ أنه عليه الصلاةُ والسلام قال «إنَّ الله يرفعُ ذريةَ المؤمنِ في درجتِه وإن كانوا دونَه لِتقرَّ بهم عينُه» ثم تلا هذه الآيةَ[2]. وقرأ نافع وابنُ عامر والبصريان ذريَّاتِهم.

---

(١) في قوله «ووقاهم ربهم» أظهر كلمة الرب في موقع الإضمار مضافاً إلى ضميرهم وذلك للتشريف والتعليل (س٨/١٤٨).

(٢) أخرجه البزار (٣/ ٧٠ رقم ٢٢٦٠ ـ كشف) وأبو نعيم في الحلية (٤/ ٣٠٢) وابن عدي في الكامل (٦/ ٢٠٦٦) عن ابن عباس.
قال البزار: لا نعلم أسنده إلا الحسن عن قيس، وقد رواه الثوري عن عمرو بن مُرَّة موقوفاً.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٤) وقال: رواه البزار وفيه قيس بن الربيع وثقه شعبة والثوري وفيه ضعف. =

﴿ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم ﴾ وما نقصْناهم. ﴿ مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ ﴾ بهذا الإلحاقِ فإنه كان يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ بنقصِ مرتبةِ الآباءِ أو بإعطاءِ الأبناءِ بعضَ مثوباتِهم، ويحتملُ أنْ يكونَ بالتفضُّلِ عليهم وهو اللائقُ بكمال لُطفِه. وقرأ ابنُ كثير بكسْرِ اللامِ من أَلِتَ يأْلِتُ، وعنه لِتْناهُم من لاتَ يليتُ، وآلتناهم من آلَتَ يُؤْلِتُ، وولتْناهم من ولتَ يلِتُ، ومعنى الكلِّ واحدٌ. ﴿ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴾ بعملِه مرهونٌ عند الله تعالى فإنْ عملَ صالحاً فكَّه وإلا أهلكَه.

﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ ﴾

(٢٢) ﴿ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴾ أي وزدناهم وقتاً بعد وقتٍ ما يشتهونَ من أنواع التنعُّم.

(٢٣) ﴿ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا ﴾ يتعاطَوْنَ هم وجلساؤُهم بتجاذبٍ. ﴿ كَأۡسٗا ﴾ خمراً سمَّاها باسم محلِّها ولذلك أنَّث الضميرَ في قوله: ﴿ لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴾ أي لا يتكلَّمون بلغوِ الحديثِ في أثناءِ شُرْبها، ولا يفعلونَ ما يُؤْثَمُ به فاعلُه كما هو عادةُ الشاربينَ في الدنيا، وذلك مثلُ قوله تعالى ﴿ لَا فِيهَا غَوۡلٞ ﴾[(1)] وقرأهما ابنُ كثير والبصريانِ بالفتح.

(٢٤) ﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ ﴾ أي بالكأسِ. ﴿ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ ﴾ أي مماليكُ مخصوصونَ بهم. وقيل هم أولادُهم الذين سبقوهُم. ﴿ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴾ مصونٌ في الصَّدَفِ من بياضِهم وصفائِهم. وعنه ﷺ: «والذي نفسي بيده، إنَّ فضلَ المخدومِ على الخادمِ كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائرِ الكواكبِ»[(2)].

(٢٥) ﴿ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ يسأل بعضُهم بعضاً عن أحواله وأعماله.

= ● وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٦٨) والبيهقي في الاعتقاد (ص٩٠) من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

● وأخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ٢٤ ـ ٢٥) من طريق شعبة وسماعة عن عمرو بن مرة به موقوفاً.

فرواية هؤلاء الثقات أرجح من رواية قيس بن الربيع، لأن فيها ضعفاً. فالصحيح هو الموقوف لكن مثل هذا لا يقال من قبيل الرأي.

● وأخرج الطبراني في الكبير (١١/ ٤٤٠ ـ ٤٤١ رقم ١٢٢٤٨) والصغير (١/ ٢٢٩) من طريق سالم الأفطس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أظنه عن النبي ﷺ قال: «إذا دخل الرجل الجنة سأل عن أبويه وزوجته وولده، فيقال إنهم لم يبلغوا درجتك وعملك، فيقول يا رب قد عملت لي ولهم، فيؤمر بإلحاقهم به وقرأ ابن عباس «والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان» إلى آخر الآية.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١١٤) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير وفيه محمد بن عبدالرحمن بن غزوان وهو ضعيف» هـ.

(١) الصافات: «٤٧».

(٢) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ ج٢٧/ ٢٩) من طريق معمر، وسعيد عن قتادة بإسناد صحيح.

(٢٦) ﴿قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ خائفين من عصيانِ الله معتنينَ بطاعته، أو وجِلينَ من العاقبة.

فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾
فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ
تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآۚ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ بَل لَّا
يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾ أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ
خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾

(٢٧) ﴿فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ بالرحمةِ والتوفيق. ﴿وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ﴾ عذابَ النار النافذةِ في المسامِّ نفوذَ السموم، وقُرِىءَ ووقَّانا بالتشديد.

(٢٨) ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ﴾ من قبلِ ذلك في الدنيا. ﴿نَدْعُوهُۖ﴾ نعبدُه أو نسأله الوقايةَ. ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ﴾ المحسِنُ، وقرأ نافعٌ والكسائي أنه بالفتحِ. ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ الكثيرُ الرحمةِ.

(٢٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ فاثبُتْ على التذكير ولا تكترِثْ بقولهم. ﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ﴾ بحمدِ الله وإنعامِه. ﴿بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ كما يقولون.

(٣٠) ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ ما يقلق النفوسَ من حوادثِ الدهر، وقيل المنونُ الموتُ فعولٌ من منَّه إذا قطعَه.

(٣١) ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ أتربَّص هلاكَكُم كما تتربصون هلاكي.

(٣٢) ﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم﴾ عقولُهم. ﴿بِهَٰذَآۚ﴾ بهذا التناقضِ في القول فإنَّ الكاهِنَ يكون ذا فطنةٍ ودقَّةِ نظرٍ، والمجنونُ مغطًى عقلُه والشاعرُ يكون ذا كلام موزونٍ متَّسقٍ مخيَّلٍ، ولا يتأتى ذلك من المجنونِ، وأمرُ الأحلام به مجازٌ عن أدائها إليه. ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ مجاوزونَ الحدَّ في العِنادِ. وقرىء بل هم.

(٣٣) ﴿أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥۚ﴾ اختلقَه من تلقاء نفسِه. ﴿بَل لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ فيرمونَه بهذه المطاعنِ لكفرهم وعنادِهم.

(٣٤) ﴿فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ مثلِ القرآن. ﴿إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعْمِهم إذ فيهم كثيرٌ ممَّن عُدُّوا فصحاءَ فهو ردٌّ للأقوالِ المذكورة بالتحدي، ويجوزُ أنْ يكونَ ردًّا للتقول فإنَّ سائر الأقسامِ ظاهرُ الفساد.

(٣٥) ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾ أم أُحدِثُوا وقدِّروا من غير محدِثٍ ومقدِّرٍ فلذلك لا يعبدونه، أو من أجلِ لا شيءَ من عبادةٍ ومجازاةٍ. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ يؤيدُ الأولَ فإنَّ معناه أم خَلَقُوا أنفسَهم ولذلك عقَّبه بقوله:

(٣٦) ﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ﴾ وأم في هذه الآيات منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها الإنكارُ. ﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ إذا سُئِلُوا مَنْ خَلَقَكُم ومن خلقَ السموات والأرض قالوا الله إذ لو أيقنُوا ذلك لما أعرضُوا عن عبادته.

أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
يُرِيدُونَ كَيْدًا فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ
ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾

(٣٧) ﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ خزائنُ رزقِه حتى يَرْزُقُوا النبوةَ مَنْ شاؤوا، أو خزائنُ علمه حتى يختاروا لها مِن اختارته حكمتُه. ﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ الغالبون على الأشياءِ يدبِّرونها كيفَ شاؤوا. وقرأ قنبل وحفصُ بخلاف عنه وهشام بالسينِ وحمزةُ بخلاف عن خلادٍ بين الصادِ والزاي، والباقون بالصادِ خاصَّةً.

(٣٨) ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ﴾ مرتقى إلى السماء. ﴿يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ صاعدين فيه إلى كلام الملائكةِ وما يُوحَى إليهم من علمِ الغيبِ حتى يعلموا ما هو كائنٌ. ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ بحجَّةٍ واضحةٍ تصدِّق استماعَه.

(٣٩) ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ فيه تسفيهٌ لهم وإشعارٌ بأن مَنْ هذا رأيهُ لا يعدُّ من العقلاء فضلاً أنْ يترقَّى بروحه إلى عالم الملكوتِ فيتطلعَ على الغيوب[1].

(٤٠) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على تبليغ الرسالة. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من التزام غُرْمٍ. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ محمَّلونَ الثِّقَلَ فلذلك زهدوا في اتباعِك.

(٤١) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اللوحُ المحفوظ المثْبَتُ فيه المغيَّباتُ. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه.

(٤٢) ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ وهو كيدُهم في دارِ الندوة برسولِ الله ﷺ. ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ يحتمل العمومَ والخصوصَ فيكون وضْعُه موضعَ الضمير للتسجيلِ على كفرِهم، والدلالةِ على أنه الموجِبُ للحكمِ المذكورِ. ﴿هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ هم الذين يحيقُ بهم الكيدُ أو يعودُ عليهم وبالُ كيدِهم، وهو قتلُهم يومَ بدرٍ أو المغلوبون في الكيدِ من كايدتُه فكِدْتُه.

(٤٣) ﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ يعينُهم ويحرسُهم من عذابِه. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكِهم أو شركةِ ما يشركونه به.

(٤٤) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا﴾ قطعةً. ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟﴾ من فَرْطِ طغيانهم وعنادِهم. ﴿سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ هذا سحابٌ تراكمَ بعضُه على بعض، وهو جوابُ قولهم ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾[2].

(٤٥) ﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو عند النفخةِ الأولى، وقُرِىءَ يَلْقَوْا وقرأ ابن عامر وعاصمٌ يُصْعَقُونَ على المبني للمفعول من صعقهُ أو أصْعَقَهُ.

---

(١) والالتفات إلى الخطاب في «ولكم» لتشديد ما في أم المنقطعة من الإنكار والتوبيخ (س٨/ ١٥١).
(٢) الشعراء: «١٨٧».

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾

(٤٦) ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ أي شيئاً من الإغناءِ في رد العذاب. ﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ يمنعون من عذاب الله.

(٤٧) ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ يحتملُ العمومَ والخصوصَ. ﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي دون عذابِ الآخرة وهو عذابُ القبرِ أو المؤاخذةُ في الدنيا كقتْلِهم ببدْرٍ والقحْطِ سبعَ سنينَ. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلكَ.

(٤٨) ﴿وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بإمهالِهم وإبقائِك في عنائِهم. ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ في حفْظِنا بحيثُ نراك ونكلؤُكَ، وجَمَعَ العينَ لجمعِ الضميرِ والمبالغةِ بكثرةِ أسبابِ الحفظِ. ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من أي مكانٍ قُمْتَ أو من منامِك أو إلى الصلاةِ.

(٤٩) ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ فإنَّ العبادةَ فيه أشقُّ على النفس وأبعدُ من الرياءِ، ولذلك أفرده بالذِّكْرِ وقدَّمه على الفعل. ﴿وَإِدْبَارَ النُّجُومِ﴾ وإذا أدبرتِ النجومُ من آخر الليلِ، وقرىء بالفتحِ أي في أعقابِها إذا غربتْ أو خفيتْ. عن رسولِ الله ﷺ «من قرأ سورةَ والطورِ كان حقاً على اللهِ أنْ يؤمِّنه من عذابِه وأن ينعِّمه في جنَّتِه»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٠ رقم ٥٦).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة النجم

ترتيبها ٥٣ — آياتها ٦٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾

سورة والنجم مكية[١] وآيها إحدى أو اثنتان وستون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ أقسم بجنسِ النجوم أو الثريا فإنه غلب فيها إذا غربَ أو انتثر يومَ القيامة أو انقضَّ أو طلعَ فإنه يُقَالُ: هوى هوياً بالفتح إذا سقط وغربَ، وهُوِيّاً بالضمِّ إذا علا وصعد، أو بالنجم من نجوم القرآنِ إذا نزل أو النباتِ إذا سقط على الأرض، أو إذا نما وارتفعَ على قوله[٢].

(٢) ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ما عدلَ محمد ﷺ عن الطريق المستقيم، والخطابُ لقريش[٣]. ﴿وَمَا غَوَىٰ﴾

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٢٥٣): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».
وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال: يكفيني هذا. وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا إن محمداً يتقول القرآن ويختلق أقواله فنزلت السورة في ذلك» هـ.

(٢) تقييد القسم بوقت الهويّ لأن النجم لا يهتدي به الساري عند كونه في وسط السماء ولا يعلم المشرق من المغرب ولا الشمال من الجنوب، وإنما يهتدي به عند هبوطه أو صعوده، مع ما فيه من كمال المناسبة لما سيحكىٰ من تدلي جبريل من الأفق الأعلىٰ ودنوه منه عليهما السلام (س٨/ ١٥٤).

(٣) وإيراده عليه الصلاة والسلام بعنوان صاحِبِيّتِهِ لهم للإيذان بوقوفهم على تفاصيل أحواله الشريفة، وإحاطتهم خبراً ببراءته عليه الصلاة والسلام مما نفي عنه بالكلية، واتصافه عليه السلام بغاية الهدىٰ والرشاد فإن طول صحبتهم له=

وما اعتقد باطلاً والخطابُ لقريش، والمراد نفيُ ما ينسِبونَ إليه.

(٣) ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ وما يصدر نطقُه بالقرآن عن الهوى.

(٤) ﴿إِنْ هُوَ﴾ ما القرآنُ أو الذي ينطقُ به. ﴿إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ أي إلا وحيٌ يوحيه اللهُ إليه، واحتجَّ به من لم يرَ الاجتهادَ له. وأُجِيْبَ عنه بأنه إذا أُوْحِيَ إليه بأنْ يجتهدَ كان اجتهادُه وما يستند إليه وحياً، وفيه نظرٌ لأن ذلك حينئذٍ يكون بالوحي لا الوحيِ.

(٥) ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ مَلَكٌ شديد قُواهُ وهو جبريلُ عليه السلام فإنه الواسطة في إبداء الخوارقِ، رُوِيَ أنه قلعَ قرى قوم لوط ورفعَها إلى السماء ثم قلَبها وصاحَ صيحة بثمودَ فأصبحوا جاثمينَ.

(٦) ﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ حصافةٍ في عقلِه ورأيِه. ﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ فاستقام على صورته الحقيقيةِ التي خلقَه اللهُ تعالى عليها. قيل[1] ما رآه أحدٌ من الأنبياء في صورته غيرُ محمد عليه الصلاة والسلام مرتين، مرةً في السماء ومرةً في الأرض، وقيل استوى بقوَّته على ما جُعِلَ له من الأمرِ.

(٧) ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ في أفق السماء والضميرُ لجبريلَ عليه السلام.

(٨) ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ من النبيِّ عليه الصلاة والسلام. ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ فتعلَّق به وهو تمثيلٌ لعروجِه بالرسولِ ﷺ. وقيل ثم تدلَّى من الأفقِ الأعلى فدنا فيكون من الرسولِ إشعاراً بأنه عُرِجَ به غير منفِصلٍ عن محلِّه تقريراً لشدةِ قوته، فإنَّ التدلِّي استرسالٌ مع تعلُّقٍ كتدلي الثمرة، ويقال دلَّى رجليه من السرير وأدلى دلْوَهُ، والدوالي الثمرُ المعلَّقُ.

(٩) ﴿فَكَانَ﴾ جبريلُ عليه السلام كقولك: هو مني معقدَ إزارٍ، أو المسافةُ بينهما. ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ مقدارُهما. ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ على تقديركم كقوله أو يزيدون، والمقصودُ تمثيل مَلَكَةِ الاتصالِ وتحقيقُ استماعِه لما أُوحِيَ إليه بنفي البعدِ الملبسِ.

(١٠) ﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾ جبريلُ عليه السلام. ﴿إِلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ عبدِالله، وإضماره قبلَ الذِّكْرِ لكونه معلوماً كقوله ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾[2] ﴿مَآ أَوْحَىٰ﴾ جبريلُ عليه السلام وفيه تفخيمٌ للموحَىٰ به أو اللهُ إليه. وقيل الضمائرُ كلُّها لله تعالى، وهو المعني بشديدِ القُوى كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[3]، ودُنُوُّهُ منه برفعِ مكانته وتدلِّيه جذبُه بشراشره إلى جنابِ القدسِ.

(١١) ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ﴾ ما رأى ببصرِهِ من صورة جبريلَ عليه السلام أو اللهِ تعالى، أي ما كذَبَ بصرهُ بما حكاه له فإنَّ الأمورَ القدسيةَ تُدْرَكُ أولاً بالقلب ثم تنتقل منه إلى البصرِ، أو ما قال فؤادُه لما رآه لم أعرفْك ولو قال ذلك كان كاذباً لأنه عرفه بقلبه كما رآه ببصرهِ، أو ما رآه بقلبه

= عليه الصلاة والسلام ومشاهدتهم لمحاسن شؤونه العظيمة مقتضية لذلك حتماً (س٨/ ١٥٤).

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٦٠ رقم ٥٩): «لم أجده هكذا. وذكر المرتين تقدم في الذي قبله» هـ.

(٢) فاطر: «٤٥».

(٣) الذاريات: «٥٨».

والمعنى أنه لم يكن تخيلاً كاذباً. ويدلُّ عليه أنه عليه الصلاة والسلام سُئِلَ: هل رأيتَ ربَّك؟ فقال: «رأيته بفؤادي»[(١)]. وقرأ هشام ما كذّبَ، أي صدَّقه ولم يشكَّ فيه.

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾

(١٢) ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ أفتجادلونه عليه، من المِراءِ وهو المجادلةُ واشتقاقُه من مَرَى الناقةَ كأنَّ كلاً من المتجادلَيْنِ يمري ما عندَ صاحبه. وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلف ويعقوب أفتمرونَه، أي أفتغلبونَه في المراءِ من ماريتُه فمريتُه؛ أو أفتجحدونه من مراهُ حقَّه إذا جحدَه. وعلى لتضمينِ الفعلِ معنى الغلبةِ فإنَّ المماريَ والجاحدَ يقصدانِ بفعلِهما غلبةَ الخصْمِ.

(١٣) ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ مرَّةً أخرى، فَعْلَةً من النزولِ أقيمتْ مقامَ المرَّةِ ونصبت نَصْبَها إشعاراً بأنَّ الرؤيةَ في هذه المرةِ كانت أيضاً بنزولٍ ودنوٍّ، والكلامُ في المرئي والدنوُّ ما سبق. وقيل تقديره ولقد رآه نازلاً نزلةً أخرى، ونصبَها على المصدرِ، والمرادُ به نفيُ الريبةِ عن المرةِ الأخيرةِ.

(١٤) ﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ التي ينتهي إليها أعمالُ الخلائق وعلمُهم، أو ما ينزلُ من فوقِها ويصعدُ من تحتِها، ولعلَّها شُبِّهَتْ بالسدرةِ وهي شجرةُ النَّبِقِ لأنهم يجتمعون في ظلِّها. وروي مرفوعاً أنها في السماء السابعةِ[(٢)].

(١٥) ﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ الجنةُ التي يأوي إليها المتقون أو أرواحُ الشهداء[(٣)].

(١٦) ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾ تعظيمٌ وتكثير لما يغشاها بحيثُ لا يكتنهها نعتٌ ولا يحصيها عدٌّ، وقيل يغشَاها الجمُّ الغفير من الملائكة يعبدونَ اللهَ عندَها[(٤)].

(١٧) ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ﴾ ما مالَ بصرُ رسولِ الله ﷺ عما رآه. ﴿وَمَا طَغَىٰ﴾ وما تجاوزَهُ بل أثبتَه إثباتاً صحيحاً مستيقناً، أو ما عدلَ عن رؤيةِ العجائب التي أُمِرَ برؤيتها وما جاوزَها.

(١٨) ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ أي واللهِ لقد رأى الكبرى من آياتِه وعجائبِه الملكِيَّةِ والملكوتيةِ

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ. وقد أخرج مسلم في صحيحه (١/ ١٥٨ رقم ٢٨٤/ ١٧٦) عن ابن عباس موقوفاً. بلفظ «رآه بقلبه» و(١/ ١٥٨ رقم ٢٨٥/ . . .) بلفظ «رآهُ بفؤادِهِ مرتين».

(٢) أخرج مسلم في صحيحه (١/ ١٤٥ ـ ١٤٧ رقم ٢٥٩/ ١٦٢) من حديث أنس بن مالك. ضمن حديث طويل: «. . . ثم ذهبَ إلى السدرةِ المنتهى، وإذا ورقُها كآذانِ الفيلةِ. وإذا ثمرها كالقلال. قال، فلمَّا غشيها من أمْرِ اللهِ ما غشى تغيَّرَتْ. فما أحدٌ من خلقِ اللهِ يستطيعُ أن ينعتها من حُسْنِها فأوحىٰ الله إليَّ ما أوحى. . .».

(٣) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٧/ ٤٠٦) بدون سند عن مقاتل والكلبي.
وانظر «جامع البيان» (١٣/ ج٢٧/ ٥٥).

(٤) وصيغة المضارع في «يغشىٰ» لحكاية الحال الماضية استحضاراً لصورتها البديعة، وللإيذان باستمرار الغشيان بطريق التجدد (س٨/ ١٥٧).

ليلةَ المعراجِ وقد قيلَ: إنها المعنيةُ بما رأى. ويجوز أنْ تكونَ الكبرى صفةً للآياتِ على أنَّ المفعولَ محذوفٌ أي شيئاً من آياتِ ربِّه أو مِنْ مزيدةٌ.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾﴾

(١٩) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾.

(٢٠) ﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ هي أصنامٌ كانت لهم، فاللاتُ كانت لثقيفَ بالطائفِ أو لقريش بنخلةَ وهي فَعْلَةٌ من لَوَى لأنهم كانوا يلْوُوْنَ عليها أي يطوفُون. وقرأ هِبَةُ الله عن البزِّي ورويسٌ عن يعقوبَ اللاَّتّ بالتشديد على أنه سُمِّيَ به لأنه صورةُ رجلٍ كان يلتُّ السَّويقَ بالسمنِ ويطعم الحاجَّ. والعزَّى بالتشديد سَمُرة[1] لغطفانَ كانوا يعبدونها فبعثَ إليها رسولُ الله ﷺ خالد بنَ الوليد فقطعَها[2]. وأصلُها تأنيث الأعزِّ. ومناةُ صخرةٌ كانت لهذيلٍ وخزاعةَ أو لثقيفَ وهي فَعلةٌ من منَّاه إذا قطعَه فإنهم كانوا يذبحون عندَها القرابينَ ومنه مَنَى. وقرأ ابن كثير منَّاةَ وهي مَفْعَلَةٌ من النَّوْءِ فإنهم كانوا يستمطِرونَ الأنواءَ عندَها تبرُّكاً بها. وقوله الثالثةَ الأخرى صفتانِ للتأكيدِ كقوله تعالى ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾[3] أو الأخرى من التأخُّرِ في الرتبةِ.

(٢١) ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ إنكارٌ لقولهم: الملائكةُ بناتُ الله، وهذه الأصنامُ استوطَنها جنِّياتٌ هنَّ بناتُه، أو هياكلُ الملائكةِ وهو المفعول الثاني لقوله أفرأيتُم.

(٢٢) ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ جائرةٌ حيث جعلتُم له ما تستنكفون منه وهي فُعْلَى من الضَّيْزِ وهو الجوْرُ، لكنه كُسِرَ فاؤُه لتسلمَ الياءُ كما فُعِلَ في بِيضٍ فإن فِعْلَى بالكسرِ لم تأتِ وصفاً. وقرأ ابن كثير بالهمزِ من ضأزه إذا ظلمَه على أنه مصدر نُعِتَ به.

(٢٣) ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ﴾ الضمير للأصنام أي ما هيَ باعتبار الألوهيةِ إلا أسماءٌ تطلقونها عليها لأنهم يقولون إنها آلهةٌ وليس فيها شيءٌ من معنى الألوهيةِ، أو للصفة التي تصِفُونها بها من كونها آلهةً وبناتٍ وشفعاءَ، أو للأسماء المذكورةِ فإنهم كانوا يطلقونَ اللاَّتَ عليها باعتبار استحقاقِها للعكوفِ على

---

(١) السَّمُرة من شجر الطلح (مختار الصحاح مادة سمر).

(٢) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٥٦٧) بإسناد حسن وأبو يعلى في سنده (٢/ ١٩٦ رقم ٣/ ٩٠٢) بإسناد صحيح.
وأبو نعيم في الدلائل (٢/ ٦٨٧ رقم ٤٦٣) وذكره ابن سعد في الطبقات (٢/ ١٤٥) وأورده الهيثمي في «المجمع» (٦/ ١٧٦) وقال: «رواه الطبراني وفيه يحيى بن المنذر وهو ضعيف» هـ. قلت: وفاته أن ينسبه إلى أبي يعلى.
وزاد السيوطي في «الدر» (٧/ ٦٥٢) نسبته لابن مردويه.

(٣) الأنعام: «٣٨».

عبادتها، والعزَّى لعزَّتها ومناةُ لاعتقادِهم أنها تستحقُّ أنْ يتقرَّبَ إليها بالقرابين. ﴿سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ سمَّيتُم بها.

﴿أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ بهواكُم. ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ برهانٍ تتعلَّقون به. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ﴾ وقرىء بالتاء. ﴿إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ إلا توهُّمَ أنَّ ما هم عليه حق تقليداً وتوهُّماً باطلاً. ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ وما تشتهيه أنفسُهم. ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الرسولُ أو الكتابُ فتركوه.

أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾

(٢٤) ﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ أم منقطعةٌ ومعنى الهمزةِ فيها الإنكار، والمعنى ليس له كل ما يتمنَّاه والمراد نفيُ طمعِهم في شفاعةِ الآلهة وقولهم ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾[(١)] وقولهم ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[(٢)] ونحوهما.

(٢٥) ﴿فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ﴾ يعطي منهما ما يشاء لمن يريدُ وليس لأحد أنْ يتحكَّم عليه في شيء منهما.

(٢٦) ﴿۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا﴾ وكثيرٌ من الملائكة لا تغني شفاعتُهم شيئاً ولا تنفعُ[(٣)]. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ في الشفاعة. ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من الملائكة أنْ يشفعَ أو من الناس أنْ يشفعَ له. ﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾ ويراهُ أهلاً لذلك فكيف تشفعُ الأصنامُ لِعبَدَتِهم.

(٢٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ أي كلُّ واحد منهم. ﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ بأنْ يسمُّوه بنتاً.

(٢٨) ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾ أي بما يقولون، وقرىء بها أي بالملائكةِ أو بالتسميةِ. ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ فإن الحقَّ الذي هو حقيقةُ الشيء لا يُدْرَكُ إلا بالعلمِ، والظنُّ لا اعتبارَ له في المعارفِ الحقيقية، وإنما العبرةُ به في العملياتِ وما يكون وصلةً إليها.

(٢٩) ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فأعرضْ عن دعوتِه والاهتمامِ بشأنه فإنَّ مَنْ غَفَلَ عن اللهِ وأعرضَ عن ذكره وانهمكَ في الدنيا بحيثُ كانت منتهى همَّتِهِ ومبلغَ علمه لا تزيدُه الدعوة إلا عناداً وإصراراً على الباطل.

(٣٠) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي أمرُ الدنيا أو كونها شهيةً. ﴿مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ لا يتجاوزُه علمُهم، والجملةُ اعتراض مقرِّرٌ لقصور هِمَمِهم بالدنيا وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ تعليلٌ

(١) فصلت: «٥٠».
(٢) الزخرف: «٣١».
(٣) وجمع الضمير في شفاعتهم ـ مع إفراد المَلَك ـ باعتبار المعنى (س٨/ ١٦٠).

للأمر بالإعراض، أي إنما يعلمُ الله مَنْ يجيبُ ممَّن لا يجيبُ فلا تتعِبْ نفسَك في دعوتهم إذ ما عليك إلا البلاغُ وقد بلَّغْتَ [١].

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾ أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾

(٣١) ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ خلقاً وملكاً. ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ بعقابِ ما عملُوا من السوء أو بمثلِه أو بسببِ ما عملوا من السوءِ، وهو علَّةٌ دلَّ عليه ما قبلَه أي خلَقَ العالَمَ وسوَّاه للجزاءِ، أو ميَّز الضالَّ عن المهتدي وحفظَ أحوالَهم لذلك. ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ بالمثوبةِ الحسنى وهي الجنةُ، أو بأحسنَ من أعمالهم أو بسببِ الأعمال الحسنى [٢].

(٣٢) ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ﴾ ما يكبرُ عقابُه من الذنوب وهو ما رتَّبَ عليه الوعيدَ بخصوصِه، وقيل ما أوجبَ الحدَّ. وقرأ حمزة والكسائيُّ وخلفٌ كبيرَ الإثمِ على إرادة الجنسِ أو الشركِ. ﴿وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ ما فَحشَ من الكبائرِ خصوصاً. ﴿إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ إلا ما قلَّ وصغُر فإنه مغفورٌ من مجتنبي الكبائر، والاستثناءُ منقطعٌ ومحلُّ الذين النصبُ على الصفةِ أو المدح أو الرفع على أنه خبرٌ محذوف. ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حيثُ يغفر الصغائرَ باجتناب الكبائرِ، أو له أنْ يغفرَ ما شاء من الذنوب صغيرِها وكبيرِها، ولعلَّه عقَّبَ به وعيدَ المسيئين وَوَعَدَ المحسنين لئلا ييأسَ صاحب الكبيرةِ من رحمته ولا يتوهَّمَ وجوبَ العقاب على اللهِ تعالى. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾ أعلم بأحوالِكم منكم. ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ علم أحوالَكُم ومصارِفَ أمورِكم حين ابتدأَ خلْقَكُم من التراب بخلْق آدمَ وحينما صوَّركم في الأرحام. ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ فلا تُثْنُوا عليها بزكاءِ العمل وزيادةِ الخير، أو بالطهارة عن المعاصي والرذائل. ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ فإنه يعلم التقيَّ وغيرَهُ منكم قبلَ أنْ يخرجَكُم من صُلْبِ آدمَ عليه السلام.

(٣٣) ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِي تَوَلَّىٰ﴾ عن اتباع الحقِّ والثباتِ عليه.

(٣٤) ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ﴾ وقطعَ العطاءَ من قولهم أكدَى الحافرُ إذا بلغَ الكديةَ وهي الصخرةُ الصلبة فترك الحفرَ. والأكثرُ على أنها نزلتْ في الوليد بن المغيرة، كان يتَّبع رسولَ الله ﷺ فعيَّره بعضُ المشركين وقال: تركتَ دين الأشياخ وضلَّلْتَهُم؛ فقال: أخشى عذابَ الله تعالى، فضمِنَ أنْ يتحمَّل عنه العقابَ إن أعطاه بعضَ ماله، فارتدَّ وأعطى بعضَ المشروط ثم بخلَ بالباقي [٣].

---

(١) وتكرير قوله: «هو أعلم» لزيادة التقرير والإيذانِ بكمال تباين المعلومين (س٨/ ١٦١).

(٢) وتكرير الفعل يجزي لإبراز كمال الاعتناء بأمر الجزاء، والتنبيه على تباين الجزاءين (س٨/ ١٦١).

(٣) ذكره الطبري في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ٧٠) والواحدي في «الأسباب» (ص٣٩٩) والقرطبي في «الجامع =

أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾
وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿٤٢﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾

(٣٥) ﴿أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ يعلم أنَّ صاحِبَه يتحملُ عنه.

(٣٦) ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ .

(٣٧) ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ﴾ وفَّر وأتمَّ ما التزمه وأُمِرَ به، أو بالغَ في الوفاءِ بما عاهد اللهَ، وتخصيصُه بذلك لاحتماله ما لم يحتملْه غيرُهُ كالصَّبْرِ على نارِ نمروذَ حتى أتاه جبريلُ عليه السلام حين ألقي في النار فقال ألك حاجةٌ فقال أما إليك فلا، وذبْحِ الولد، وأنه كان يمشي كلَّ يوم فرسخاً[١] يرتادُ ضيفاً فإنْ وافقَه أكرمَه وإلا نوى الصومَ. وتقديمُ موسى عليه الصلاة والسلام لأنَّ صحفَه وهي التوراة كانتْ أشهرَ وأكبرَ عندهم.

(٣٨) ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ أنْ هي المخففةُ من الثقيلة وهي بما بعدَها في محلِّ الجرِّ بدلاً مما في صحفِ موسى، أو الرفعِ على هو أنْ لا تزرَ كأنه قيل ما في صُحُفِهما؟ فأجاب به، والمعنى أنه لا يُؤَاخَذُ أحدٌ بذنْبِ غيرِهِ ولا يخالفُ ذلك قولَه تعالى ﴿كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[٢] وقولَه عليه الصلاة والسلام «من سنَّ سنة سيئة فعليه وزرُها ووزرُ من عمل بها إلى يوم القيامة»[٣] فإن ذلك للدلالة والتسبُّبِ الذي هو وِزْرُهُ.

(٣٩) ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ إلا سعيُه أي كما لا يُؤَاخَذُ أحدٌ بذنْبِ الغيرِ لا يُثَابُ بفعلِه، وما جاء في الأخبار من أنَّ الصدقةَ والحجَّ ينفعانِ الميِّتَ فَلِكَوْنِ الناوي له كالنائبِ عنه.

(٤٠) ﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ .

(٤١) ﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي يُجْزَى العبدُ سَعْيَهُ بالجزاءِ الأوفرِ فَنُصِبَ بنزعِ الخافضِ، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدراً وأنْ تكون الهاءُ للجزاءِ المدلولِ عليه بيجزى والجزاءُ بدلُه.

(٤٢) ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ انتهاءُ الخلائقِ ورجوعُهم، وقرىء بالكسرِ على أنه منقطعٌ عما في الصحفِ وكذلك ما بعدَه.

(٤٣) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ .

(٤٤) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ لا يقدرُ على الإماتة والإحياءِ غيرُه فإنَّ القاتلَ ينقضُ البنيةَ والموتُ

= لأحكام القرآن» (١٧/ ١١١).

(١) الفرسخ = ٥٥٤٤ متراً. وانظر كتابنا: «الإيضاحات العصرية للمقاييس والمكاييل والأوزان الشرعية» فصل «الفرسخ».

(٢) المائدة: «٣٢».

(٣) أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٧ رقم ٧٠٤) من حديث جرير.

يحصل عندَه بفعلِ الله تعالى على سبيل العادةِ.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ ۝٤٥ مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ ۝٤٦ وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ ۝٤٧ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ ۝٤٨
وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ ۝٤٩ وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ ۝٥٠ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبۡقَىٰ ۝٥١ وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ
أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ ۝٥٢ وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ أَهۡوَىٰ ۝٥٣ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝٥٥﴾

(٤٥) ﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوۡجَيۡنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰ﴾.

(٤٦) ﴿مِن نُّطۡفَةٍ إِذَا تُمۡنَىٰ﴾ تدفَّق في الرَّحم أو تخلَّقُ، أو يُقَدَّرُ منها الولدُ من مَنَى إذا قَدَّرَ.

(٤٧) ﴿وَأَنَّ عَلَيۡهِ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ الإحياءَ بعد الموت وفاءٌ بوعده، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو النشاءةَ بالمدةِ وهو أيضاً مصدرُ نشأ.

(٤٨) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغۡنَىٰ وَأَقۡنَىٰ﴾ وأعطى القنيةَ وهو ما يتأثَّل من الأموال، وإفرادُها لأنها أشفُّ الأموال أو أرضى، وتحقيقُه جَعَلَ الرضا له قنيةً.

(٤٩) ﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ يعني العبورَ وهي أشدُّ ضياءً من الغُمَيْصَاءِ، عَبَدَهَا أبو كبشةَ أحدُ أجداد النبيِّ ﷺ وخالفَ قريشاً في عبادة الأوثانِ، ولذلك كانوا يسمُّون الرسولَ ﷺ ابنَ أبي كبشةَ. ولعلَّ تخصيصَها للإشعار بأنه عليه الصلاة والسلام وإنْ وافقَ أبا كبشة في مخالفاتِهم خالفه أيضاً في عبادتِها.

(٥٠) ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ القدماءَ لأنهم أولى الأممِ هلاكاً بعد قومِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام. وقيل عادٌ الأولى قومُ هود وعادٌ الأخرى إرمُ. وقرىء عاداً لُولى بحذفِ الهمزةِ ونقلِ ضمَّتها إلى لامِ التعريف، وقرأ نافع وأبو عمرو عاداً لولى بضمِّ اللام بحركةِ الهمزةِ وبإدغام التنوين، وقالونُ بعد ضمةِ اللام بهمزةٍ ساكنة في موضعِ الواو.

(٥١) ﴿وَثَمُودَاْ﴾ عطفٌ على عاداً لأن ما بعدَه لا يعملُ فيه. وقرأ عاصم وحمزةُ بغير تنوينٍ ويقفانِ بغير الألفِ، والباقون بالتنوين ويقفون بالألفِ. ﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ الفريقين.

(٥٢) ﴿وَقَوۡمَ نُوحٖ﴾ أيضاً معطوفٌ عليه. ﴿مِّن قَبۡلُۖ﴾ من قبلِ عادٍ وثمودَ. ﴿إِنَّهُمۡ كَانُواْ هُمۡ أَظۡلَمَ وَأَطۡغَىٰ﴾ من الفريقين لأنهم كانوا يؤذونَه وينفِرونَ عنه ويضربونه حتى لا يكونَ به حِراكٌ.

(٥٣) ﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ والقُرى التي ائتفكتْ بأهلِها أي انقلبتْ، وهي قرى قومِ لوط. ﴿أَهۡوَىٰ﴾ بعد أنْ رفعَها فقلَبها.

(٥٤) ﴿فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ﴾ فيه تهويلٌ وتعميم لما أصابَهم.

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ تتشكَّكُ، والخطابُ للرسول ﷺ أو لكلِّ أحدٍ[1]. والمعدوداتُ وإنْ

(١) وإسناد فعل التماري إلى الواحد باعتبار تعدده بحسب تعدد متعلقه، وذلك أن صيغة التفاعل وإن كانت موضوعة لإفادة صدور الفعل عن المتعدد ووقوعه عليه بحيث يكون كل من ذلك فاعلاً ومفعولاً معاً، لكنها قد تجرد عن المعنى الثاني فيراد بها المعنى الأول فقط كما في يتداعونهم أي يدعونهم، وقد تجرد عنهم أيضاً فيكتفى بتعدد =

كانت نعماً ونقماً سمَّاها آلاءً من قِبَلِ ما في نِقَمِه من العِبَرِ والمواعظِ للمعتبرين. والانتقامِ للأنبياء عليهم الصلاة والسلام والمؤمنين.

هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ
تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾

(٥٦) ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي هذا القرآنُ إنذارٌ من جنسِ الإنذاراتِ المتقدِّمة، أو هذا الرسولُ نذيرٌ من جنس المنذِرين الأولينَ.

(٥٧) ﴿أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ﴾ دنتِ الساعةُ الموصوفةُ بالدنوِّ في نحوِ قوله تعالى ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾[1].

(٥٨) ﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ ليس لها نفس قادرةٌ على كشفِها إذا وقعتْ إلا اللهُ لكنه لا يكشفُها، أو الآنَ بتأخيرها إلا اللهُ، أو ليس لها كاشفةٌ لوقتها إلا اللهُ إذ لا يطَّلعُ عليه سواهُ، أوليس لها من غير الله كشفٌ على أنها مصدر كالعافيةِ.

(٥٩) ﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ يعني القرآن ﴿تَعْجَبُونَ﴾ إنكاراً.

(٦٠) ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ استهزاءً. ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ تحزُّناً على ما فرَّطْتُم.

(٦١) ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ لاهون أو مستكبرونَ من سَمَدَ البعير في مسيره إذا رفع رأسه، أو مغنُّون لِتُشْغِلُوا الناس عن استماعه من السُّمود وهو الغناء.

(٦٢) ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ أي واعبدوه دون الآلهة ـ عن النبي ﷺ: «من قرأ سورة النجم أعطاه الله عشر حسنات بعدد من صدَّق بمحمد وجحد به بمكة»[2].

* * *

= الفعل بتعدد متعلقه كما في الآية «فبأي آلاء ربك تتمارىٰ» فإن المراء متعدد بتعدد الآلاء (س٨/ ١٦٥).

(١) القمر: «١».

(٢) أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦١/رقم ٧٠). وهو حديث موضوع تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَمَر

ترتيبها ٥٤ آياتها ٥٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴿١﴾ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟
أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴿٤﴾ حِكْمَةٌۢ
بَٰلِغَةٌ ۖ فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ ﴿٥﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ ۘ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴿٦﴾ خُشَّعًا أَبْصَٰرُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ
ٱلْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ﴿٧﴾ مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ ۖ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ﴿٨﴾ ۞ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ
فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾

سورة القمر مكيةٌ[١] وآيها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ رُوِيَ أنَّ الكفارَ سألوا رسولَ الله ﷺ آيةً فانشقَّ القمر[٢]. وقيل معناه سينشقُّ يومَ القيامة ويؤيد الأولَ أنه قرئ وقدِ انشقَّ القمر أي اقتربتِ الساعةُ وقد حصلَ من آيات اقترابِها انشقاقُ القمر، وقوله:

(٢) ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟﴾ عن تأمُّلها والإيمان بها. ﴿وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ مُطَّرِدٌ وهو يدلُّ على أنهم رأوا قبلَه آياتٍ أخرَ مترادفةً ومعجزاتٍ متتابعةً حتى قالوا ذلك، أو محكمٌ من المرَّةِ يقالُ أمررتُه فاستمرَّ إذا أحكمتُه فاستحْكَمَ، أو مستبشَعٌ مِن استمرَّ الشيءُ إذا اشتدَّت مرارتُه، أو مارٌّ ذاهبٌ لا يبقَى.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٢٩١): «وهي مكية بإجماع إلاَّ آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس هي مكية، وقال قوم هي مما نزل ببدر، وقيل بالمدينة وهي «سيهزم الجمع» الآية» هـ.

(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٦٣١ رقم ٣٦٣٧) و(٧/ ١٨٢ رقم ٣٨٦٨) و(٨/ ٦١٧ رقم ٤٨٦٧) ومسلم (٤/ ٢١٥٩ رقم ٤٦/ ٢٨٠٢) من حديث أنس.

(٣) ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ وهو ما زيَّن لهم الشيطانُ من رد الحقِّ بعد ظهوره، وذِكْرُهما بلفظ الماضي للإشعارِ بأنهما من عادتهم القديمة. ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ﴾ منتهٍ إلى غاية من خذلانٍ أو نصرٍ في الدنيا وشقاوةٍ، أو سعادةٍ في الآخرة فإنَّ الشيءَ إذا انتهى إلى غايته ثَبُتَ واستقرَّ. وقرىء بالفتحِ أي ذو مستقرٍّ بمعنى استقرارٍ، وبالكسرِ والجرِّ على أنه صفةُ أمرٍ، وكلٌّ معطوفٌ على الساعةِ[١] .

(٤) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُم﴾ في القرآن ﴿مِنَ الْأَنبَاءِ﴾ أنباءِ القرون الخالية أو أنباءِ الآخرة. ﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ ازدجارٌ من تعذيبٍ أو وعيد، وتاءُ الافتعالِ تُقْلَبُ دالاً مع الذالِ والدالِ والزاي للتناسُبِ، وقرىء مزجرٌ بقلبها زاياً وإدغامِها.

(٥) ﴿حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ﴾ غايتُها لا خللَ فيها وهي بدلٌ من ما أو خبرٌ لمحذوف، وقرىء بالنصبِ حالاً من ما فإنها موصولةٌ أو مخصوصةٌ بالصفة فيجوز نصبُ الحال عنها. ﴿فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ﴾ نفيٌ أو استفهامُ إنكارٍ، أي فأيُّ غناءٍ تغني النُّذُرُ وهو جمع نذير بمعنى المنذِرِ، أو المنذَرِ منه أو مصدرٌ بمعنى الإنذار[٢] .

(٦) ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ لعلمك بأنَّ الإنذارَ لا يغني فيهم. ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ﴾ إسرافيلُ، ويجوزُ أنْ يكونَ الدعاءُ فيه كالأمرِ في قوله ﴿كُن فَيَكُونُ﴾[٣] وإسقاطُ الياءِ اكتفاءً بالكسرة للتخفيفِ، وانتصابُ يومِ بيخرجونَ أو بإضمار اذكُر. ﴿إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ فظيعٍ تنكره النفوسُ لأنها لم تعهدْ مثلَه وهو هولُ يوم القيامة، وقرأ ابن كثير نُكْر بالتخفيف، وقرىء نُكِر بمعنى أُنكِرَ.

(٧) ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي يخرجون من قبورِهم خاشعاً ذليلاً أبصارُهم من الهول، وإفرادُه وتذكيرُهُ لأنَّ فاعلَه ظاهر غيرُ حقيقيِّ التأنيثِ، وقرىء خاشعةً على الأصل، وقرأ ابن كثير ونافع وابن عامر وعاصمٌ خشَّعاً، وإنما حَسُنَ ذلك ولم يحسنْ مررتُ برجالٍ قائمين غلمانُهم لأنه ليس على صيغةٍ تشبه الفعلَ، وقرىء خُشَّعٌ أبصارُهم على الابتداءِ والخبرِ فتكونُ الجملةُ حالاً. ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ في الكثرة والتموُّج والانتشار في الأمكنةِ.

(٨)﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ مسرعين مادِّي أعناقِهم إليه، أو ناظرين إليه. ﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ صعبٌ.

(٩) ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ قبلَ قومِك. ﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ نوحاً عليه السلام وهو تفصيلٌ بعد إجمال، وقيل معناه كذَّبوه تكذيباً على عقبِ تكذيب كلَّما خلا منهم قَرْنٌ مكذِّبٌ تبعه قرنٌ مكذِّب، أو كذبوه بعدما كذبوا الرسل[٤] . ﴿وَقَالُوا مَجْنُونٌ﴾ هو مجنون. ﴿وَازْدُجِرَ﴾ وزُجِرَ عن التبليغِ بأنواع الأذية، وقيل إنه من جملة قيلِهم أي هو مجنونٌ وقد ازدجرتْه الجنُّ وتخبَّطَتْهُ.

---

(١) وإبهام المستقر عليه للتنبيه على كمال ظهور الحال وعدم الحاجة إلى التصريح به (س٨/ ١٦٧).

(٢) وصيغة المضارع في «تغني» للدلالة على تجدد عدم الإغناء واستمراره حسب تجدد مجيء الزواجر واستمراره (س٨/ ١٦٨).

(٣) البقرة: «١١٧».

(٤) وفي ذكره عليه الصلاة والسلام بعنوان العبودية مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم له عليه الصلاة والسلام ورفع لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه (س٨/ ١٦٩).

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٥﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى﴾ بأني، وقُرِىءَ بالكسرِ على إرادةِ القول. ﴿مَغْلُوبٌ﴾ غَلبني قومي. ﴿فَٱنتَصِرْ﴾ فانتقمْ لي منهم وذلك بعد يأسِه منهم. فقد روي أنَّ الواحد منهم كان يلقاهُ فيخنقهُ حتى يخرَّ مغشياً عليه فيفيقُ ويقول: اللَّهُم اغفر لقومي فإنَّهم لا يعلمون[١].

(١١) ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ منصبٍّ، وهو مبالغة وتمثيلٌ لكثرة الأمطار وشدَّةِ انصبابها، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ ففتّحنا بالتشديد لكثرة الأبواب.

(١٢) ﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ وجعلْنا الأرض كلَّها كأنها عيون متفجِّرةٌ، وأصله وفجرنا عيونَ الأرضِ فَغُيِّرَ للمبالغة. ﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ﴾ ماءُ السماء وماءُ الأرض. وقرىء الماءانِ لاختلافِ النوعين، والماوانِ بقلبِ الهمزة واواً. ﴿عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ على حال قدَّرها الله تعالى في الأزَلِ من غير تفاوُتٍ، أو على حال قُدِّرَتْ وسُوِّيَتْ وهو أن قدر ما أنزلَ على قدرِ ما أخرجَ، أو على أمر قدَّره اللهُ تعالى وهو هلاكُ قوم نوحٍ بالطوفان.

(١٣) ﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ﴾ ذاتِ أخشاب عريضةٍ. ﴿وَدُسُرٍ﴾ ومساميرَ جمعُ دسارٍ من الدَّسرِ، وهو الدفْع الشديدُ وهي صفة للسفينةِ أُقيمَتْ مقامَها من حيثُ إنها كالشرحِ لها تؤدي مؤدَّاها.

(١٤) ﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ بمرأى منَّا أي محفوظةً بحفظنا. ﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي فعلْنا ذلك جزاءً لنوح لأنه نعمةٌ كفروها، فإن كلَّ نبيٍّ نعمةٌ من الله تعالى ورحمةٌ على أمَّتِه، ويجوزُ أنْ يكون على حذفِ الجارِّ وإيصال الفعلِ إلى الضميرِ، وقرىء لمن كفرَ أي للكافرين.

(١٥) ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ﴾ أي السفينةَ أو الفِعْلَةَ. ﴿ءَايَةً﴾ يُعْتَبَرُ بها إذ شاعَ خبرُها واشْتَهَرَ. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ معتبِرٍ، وقرىء مذْتكِر على الأصلِ، ومذَّكِرٍ بقلبِ التاءِ ذالاً والإدغامِ فيها.

(١٦) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ استفهام تعظيمٍ ووعيد، والنذر يحتملُ المصدرَ والجمعَ.

(١٧) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ سهَّلناه أو هيَّأناه من يسَّر ناقتَه للسفرِ إذا رحَّلَها. ﴿لِلذِّكْرِ﴾ للادِّكار والاتعاظِ بأن صرَّفنا فيه أنواعَ المواعظ والعِبَرِ، أو للحفظ بالاختصار وعذوبةِ اللفظ. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متَّعِظٍ.

(١٨) ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ وإنذاري أتى لهم بالعذاب قبلَ نزولِه، أو لمن بعدَهم في تعذيبهم[٢].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص٨٦ رقم ٢٧٨) من طريق مجاهد عن عبيد بن عمير. ورجاله ثقات، وإسناده صحيح مرسل. وانظر «فتح الباري» (١٢/ ٢٨٢). وللحديث شاهد من حديث ابن مسعود أخرجه البخاري (١٢/ ٢٨٢ رقم ٦٩٢٩) ومسلم (٣/ ١٤١٧ رقم ١٠٥/ ١٧٩٢) وأحمد (١/ ٣٨٠، ٤٢٧، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٥٣، ٤٥٦ ـ ٤٥٧) كلهم من طريق شقيق عنه.

(٢) لم يتعرض لكيفية تكذيبهم له روماً للاختصار، ومسارعة إلى بيان ما فيه الازدجار من العذاب (س٨/ ١٧٠).

إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ
عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا
نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ﴿٢٥﴾ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ
ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ ﴿٢٦﴾ إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ ﴿٢٧﴾

(١٩) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾ بارداً أو شديدَ الصوت. ﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ﴾ شؤم. ﴿مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي استمر شؤمُهُ، أو استمرَّ عليهم حتى أهلكهم، أو على جميعهم كبيرِهم وصغيرِهم فلم يُبْقِ منهم أحداً، أو اشتدَّ مرارتُه وكان يومَ الأربعاء آخرَ الشهر.

(٢٠) ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ تقلعُهم، روي أنهم دخلُوا في الشعابِ والحفرِ وتمسَّك بعضهم ببعض فنزعتْهم الريحُ منها وصرعتْهم موتَى. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ أصولُ نخلٍ منقلِعٍ عن مغارسِه ساقطٍ على الأرض. وقيل شبهوا بالأعجازِ لأن الريح طيَّرت رؤوسَهم وطرحت أجسادَهم، وتذكير منقعِرٍ للحملِ على اللفظ، والتأنيثُ في قوله: أعجازُ نخلٍ خاوية للمعنى.

(٢١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ كرَّره للتهويل. وقيل الأولُ لما حاقَ بهم في الدنيا، والثاني لما يحيقُ بهم في الآخرة كما قال أيضاً في قصَّتهم ﴿لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ﴾[1].

(٢٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

(٢٣) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ﴾ بالإنذاراتِ والمواعظ، أو الرسلِ.

(٢٤) ﴿فَقَالُوٓا۟ أَبَشَرًا مِّنَّا﴾ من جنسِنا أو من حَمْلِنا لا فضلَ له علينا، وانتصابُه بفعلٍ يفسِّره ما بعدَه، وقرىء بالرفع على الابتداء، والأولُ أَوْجَهُ للاستفهام. ﴿وَٰحِدًا﴾ منفرداً لاتبعَ له أو من آحادهم دون أشرافِهم. ﴿نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ جمعُ سعيرٍ كأنه عكسوا عليه فرتَّبوا على اتباعهم إياه ما رتَّبه على تركِ اتباعِهم له، وقيل السُّعُرُ الجنونُ ومنه ناقةٌ مسعورةٌ.

(٢٥) ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ﴾ الكتابُ أو الوحيُ. ﴿عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ وفينا من هو أحقُّ منه بذلك. ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ حمله بطرهُ على الترفُّعِ علينا بادعائِه إياهُ.

(٢٦) ﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ عند نزولِ العذاب بهم أو يومَ القيامة. ﴿مَّنِ ٱلْكَذَّابُ ٱلْأَشِرُ﴾ الذي حمله أَشَرُهُ على الاستكبارِ عن الحق وطلبِ الباطل، أصالحٌ عليه السلام أم مَنْ كذَّبه؟ وقرأ ابن عامر وحمزةُ ورويس ستعلمون على الالتفاتِ أو حكايةَ ما أجابهم به صالحٌ، وقرىء الأشرُّ كقولهم حذِرٌ في حَذِرَ والأشرُّ أي الأبلغُ في الشرارة وهو أصلٌ مرفوض كالأخير.

(٢٧) ﴿إِنَّا مُرْسِلُوا۟ ٱلنَّاقَةِ﴾ مخرجُوها وباعثُوها. ﴿فِتْنَةً لَّهُمْ﴾ امتحاناً لهم. ﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ﴾ فانتظرهم وتبصَّرْ ما يصنعون. ﴿وَٱصْطَبِرْ﴾ على أذاهم.

---

(١) فصلت: «١٦».

وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ﴿٢٨﴾ فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ﴿٢٩﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾
إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٣٢﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن
شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى
وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾

(٢٨) ﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةُۢ بَيْنَهُمْ﴾ مقسومٌ لها يومٌ ولهم يوم، وبينهم لتغليبِ العقلاءِ. ﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ يحضُره صاحبه في نوبتِه أو يحضره عنه غيرهُ.

(٢٩) ﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ﴾ قدارَ بنَ سالفَ أحيمرَ ثمودَ ﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ فاجترأَ على تعاطي قتلِها فقتلها، أو فتعاطى السيفَ فقتلَها، والتعاطي تناولُ الشيء بتكلُّفٍ.

(٣٠، ٣١) ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٠﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ صيحةَ جبريلَ عليه السلام. ﴿فَكَانُوا۟ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ كالشجرِ اليابس المتكسِّرِ الذي يتخذه من يعملُ الحظيرةَ لأجلِها، أو كالحشيشِ اليابس الذي يجمعه صاحبُ الحظيرة لماشيته في الشتاءِ[1]. وقرىء بفتح الظاءِ أي كهشيمِ الحظيرةِ أو الشجر المتَّخَذِ لها.

(٣٢) ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

(٣٣) ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾.

(٣٤) ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا﴾ ريحاً تحصبُهم بالحجارةِ أي ترميهم. ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ في سَحَرٍ وهو آخرُ الليل أو مسحِرِيْنَ.

(٣٥) ﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ إنعاماً منَّا، وهو علة لنجَّينا. ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ﴾ نعمتَنا بالإيمان والطاعة.

(٣٦) ﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم﴾ لوطٌ. ﴿بَطْشَتَنَا﴾ أخذَتَنا بالعذاب. ﴿فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ﴾ فكذَّبوا بالنُّذرِ متشاكينَ.

(٣٧) ﴿وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ﴾ قصدوا الفجورَ بهم. ﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ فمسخناها وسوَّيناها بسائر الوجهِ. روي أنهم لما دخلُوا داره عُنْوَةً صفقَهم جبريلُ عليه السلام صفقةً فأعْمَاهم[2]. ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ فقلْنا لهم ذوقوا على ألسنةِ الملائكة أو ظاهر الحالِ.

(٣٨) ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً﴾ وقرىء بكرةَ غيرَ مصروفةٍ على أنَّ المرادَ بها أولُ نهار معيَّنٍ. ﴿عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ﴾ يستقر بهم حتى يسلِمَهم إلى النار.

(٣٩) ﴿فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾.

---

(١) انظر «الجامع لأحكام القرآن» (١٧/ ١٤٢ ـ ١٤٣).
(٢) انظر تفسير البغوي (٧/ ٤٣٢) فقد ذكره بدون سند.

وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾

(٤٠) ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ كرَّر ذلك في كل قصةٍ إشعاراً بأنَّ تكذيبَ كلِّ رسول مقتضٍ لنزول العذاب واستماع كلِّ قصة مستدع للادكارِ والاتعاظِ، واستئنافاً للتنبيه والاتعاظ لئلا يغلِبَهم السهوُ والغفلةُ، وهكذا تكرير قوله ﴿ فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[1]. و ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾[2] ونحوهما.

(٤١) ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴾ اكتفى بذكرِهم عن ذكره للعلم بأنه أولى بذلك منهم[3].

(٤٢) ﴿ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا ﴾ يعني الآياتِ التسعَ. ﴿ فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ ﴾ لا يُغَالَبُ. ﴿ مُّقْتَدِرٍ ﴾ لا يعجزه شيءٌ.

(٤٣) ﴿ أَكُفَّارُكُمْ ﴾ يا معشرَ العرب. ﴿ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ ﴾ الكفارِ المعدودين قوةً وعدَّة أو مكانة وديناً عندَ الله تعالى. ﴿ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾ أم نزل لكم في الكتبِ السماوية أن مَنْ كفرَ منكم فهو في أمانٍ من العذاب.

(٤٤) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ ﴾ جماعةٌ أَمْرُنَا. ﴿ مُّنتَصِرٌ ﴾ ممتنعٌ لا نُرَامُ أو منتصر من الأعداء لا نُغْلَبُ، أو متناصِرٌ ينصر بعضُنا بعضاً والتوحيد على لفظِ الجميع.

(٤٥) ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾ أي الأدبارَ وإفراده لإرادة الجنسِ، أو لأن كلَّ واحد يولِّي دُبُرَهُ وقد وقعَ ذلك يومَ بدْرٍ وهو من دلائلِ النبوة. وعن عمرَ رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلتْ قال: لم أعلمْ ما هو، فلما كان يومُ بدرٍ رأيتُ رسولَ الله ﷺ يلبس الدرعَ ويقول «سيهزم الجمعُ» فعلمتُه[4].

(٤٦) ﴿ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ ﴾ موعدُ عذابهم الأصلي وما يحيقُ بهم في الدنيا فمن طلائعِه. ﴿ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ ﴾ أشدُّ، والداهيةُ أمر فظيع لا يُهْتَدَى لدوائه. ﴿ وَأَمَرُّ ﴾ مذاقاً من عذاب الدنيا.

---

(١) الرحمن: «١٣».

(٢) المرسلات: «١٥».

(٣) وصدرت قصتهم بالتوكيد القسمي لإبراز كمال الاعتناء بشأنها لغاية عظم ما فيها من الآيات وكثرتها وهول ما لاقوه من العذاب وقوة إيجابها للاتعاظ (س/٨/ ١٧٣).

(٤) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٦٢ رقم ٧٥): «ـ أخرجه ـ عبدالرزاق عن معمر عن قتادة، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر ـ فذكره» وأتم منه. ورواه من هذا الوجه إسحاق ـ كما في المطالب العالية (٣/ ٣٨١ رقم ٣٧٥٩) وفيه انقطاع ـ والطبري ـ (١٣/ ج٢٧/ ١٠٨) ـ وابن أبي حاتم.
ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبدالمجيد بن أبي داود عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولاً» هـ.
وانظر «فتح الباري» (٧/ ٢٨٩ ـ ٢٩٠) و«الدر المنثور» (٧/ ٦٨١).

إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ
بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾
وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ
صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾

(٤٧) ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ﴾ عن الحقِّ في الدنيا. ﴿وَسُعُرٍ﴾ ونيرانٍ في الآخرة.

(٤٨) ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ يُجَرُّوْنَ عليها. ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذوقوا حرَّ النار وألَمَهَا فإنَّ مسَّها سببُ التألم بها، وسقرُ علمٌ لجهنَّمَ ولذلك لم يُصْرَفْ من سقرته النارُ وصقرتُه إذا لوَّحتْه.

(٤٩) ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ أي إنا خلقنا كلَّ شيءٍ مقدَّراً مرتباً على مقتضى الحكمةِ، أو مقدراً مكتوباً في اللوح المحفوظِ قبل وقوعِه، وكلَّ شيءٍ منصوبٌ بفعلٍ يفسره ما بعدَه، وقرىء بالرفع على الابتداء وعلى هذا فالأَوْلى أنْ يُجْعَلَ خلقْناه خبراً لا نعتاً ليطابقَ المشهورةَ في الدلالة على أنَّ كلَّ شيءٍ مخلوقٌ بِقَدَرٍ، ولعل اختيارَ النصبِ ها هنا مع الإضمارِ لما فيه من النصوصيةِ على المقصود.

(٥٠) ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ إلا فعلةٌ واحدة وهو الإيجادُ بلا معالجةٍ ومعاناةٍ، أو إلا كلمةٌ واحدة وهو قولُه كنْ. ﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ في اليُسْرِ والسرعة، وقيل معناه معنى قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ﴾[1].

(٥١) ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ أشباهَكم في الكفرِ ممن قبلَكم. ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ متَّعِظٍ.

(٥٢) ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ مكتوبٌ في كتب الحَفَظَةِ.

(٥٣) ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ﴾ من الأعمالِ. ﴿مُّسْتَطَرٌ﴾ مسطورٌ في اللوح.

(٥٤) ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ أنهارٍ واكْتَفَى باسم الجنسِ، أو سعةٍ، أو ضياءٍ من النهار. وقرىء نُهُرٍ وبضم الهاء جمعُ نَهْرٍ كأُسْدٍ وأَسَدٍ.

(٥٥) ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ في مكانٍ مرضيٍّ، وقرىء مقاعدَ صدقٍ. ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾ مقربين عند من تعالى أَمْرُهُ في المُلْكِ، والاقتدارِ بحيث أبهمَهُ ذوو الأفهامِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ القمر في كلِّ غبٍّ بعثَه الله يومَ القيامة ووجْهه كالقمرِ ليلةَ البدْرِ»[2].

---

(١) النحل: «٧٧».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي، وابن مردويه، والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب رضي الله عنه كما في «الكاف الشاف» (ص١٦٢ رقم ٧٦).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الرَّحْمَٰن

ترتيبها ٥٥ آياتها ٧٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلرَّحْمَٰنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ﴿٤﴾ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾
وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا۟
ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١٠﴾

سورة الرحمن مكية أو مدنية أو متبعضة[1]، وآيها ثمان وسبعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ﴾.

(٢) ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ لما كانتِ السورةُ مقصورةً على تعدادِ النعم الدنيويةِ والأخروية صدَّرها بالرحمن[2]، وقدَّم ما هو أصلُ النعم الدينية وأجلُّها وهو إنعامُه بالقرآن وتنزيله وتعليمُه؛ فإنه أساسُ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/٣١٩): «وهي مكية فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين.
وقال نافع بن أبي نعيم، وعطاء، وقتادة، وكريب، وعطاء الخراساني عن ابن عباس هي مدنية. نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح: بسم الله الرحمن الرحيم.
والأول أصح.
وإنما نزلت حين قالت قريش بمكة: وما الرحمٰن؟ أنسجد لما تأمرنا؟
وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قريش فضربوه، وذلك قبل الهجرة» هـ.
وانظر «الدر المنثور» (٧/٦٨٩). و«زاد المسير» (٨/١٠٥).

(٢) وإسناد تعليمه إلى اسم الرحمن للإيذان بأنه من آثار الرحمة الواسعة وأحكامها، وقد اقتصر على ذكره تنبيهاً على =

الدين ومنشأُ الشرعِ وأعظمُ الوحْيِ وأعزُّ الكتب؛ إذ هو بإعجازه واشتماله على خُلاصَتِها مصدِّقٌ لنفسه ومصداقٌ لها، ثم أتبعه قولَه:

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾.

(٤) ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ إيماءً بأن خلْقَ البشر وما يميَّز به عن سائر الحيوان من البيان، وهو التعبير عما في الضميرِ وأفهامِ الغيرِ لما أدركه لتلقي الوحيِ وتعرُّفِ الحقِّ وتعلُّمِ الشرعِ. وإخلاءُ الجملِ الثلاثِ التي هي أخبار مترادفةٌ للرحمن عن العاطفِ لمجيئها على نهج التعديدِ.

(٥) ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ يجريان بحسابٍ معلوم مقدَّرٍ في بروجهما ومنازلهما، وتتسقُ بذلك أمورُ الكائنات السُّفْلِيَّةِ وتختلف الفصولُ والأوقاتُ، ويُعْلَمُ السُّنونَ والحسابُ.

(٦) ﴿وَٱلنَّجْمُ﴾ والنباتُ الذي ينجمُ أي يطلُعُ من الأرض ولا ساقَ له. ﴿وَٱلشَّجَرُ﴾ الذي له ساقٌ. ﴿يَسْجُدَانِ﴾ ينقادانِ لله تعالى فيما يريد بهما طبعاً انقيادَ الساجدِ من المكلَّفين طوعاً. وكان حقُّ النظم في الجملتين أن يقالَ: وأجرىٰ الشمس والقمر وأسجدَ النجمَ والشجرَ، أو الشمسُ والقمرُ بحسبانٍ والنجمُ والشجرُ يسجدان له، ليطابقا ما قبلهما وما بعدَهما في اتصالهما بالرحمن، لكنهما جُرِّدَتَا عما يدلُّ على الاتصال إشعاراً بأن وضوحَه يغنيه عن البيان. وإدخالُ العاطفِ بينَهما لاشتراكهما في الدلالة على أن ما يُحَسُّ به من تغيُّراتِ أحوال الأجرامِ العلويةِ والسفليةِ بتقديره وتدبيره.

(٧) ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا﴾ خلقَها مرفوعةً محلاً ومرتبةً، فإنها منشأُ أقضيتِه ومتنزَّلُ أحكامِه ومحلُّ ملائكته، وقرىء بالرفعِ على الابتداءِ. ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ العدلَ بأنْ وفَّر على كلِّ مستعدٍّ مستحقَّه، ووفَّى كلَّ ذي حقٍّ حقَّه حتى انتظم أمرُ العالمِ واستقامَ كما قال عليه السلام: «بالعدلِ قامتِ السمواتُ والأرضُ»[1]. أو ما يعرفُ به مقاديرُ الأشياء من ميزان ومكيالٍ ونحوِهما، كأنه لما وصفَ السماءَ بالرِّفعةِ من حيث إنها مصدرُ القضايا والإقرارِ أرادَ وصفَ الأرض بما فيها مما يظهرُ به التفاوتُ ويعرفُ به المقدارَ ويُسوَّىٰ به الحقوقَ والمواجِبَ.

(٨) ﴿أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ﴾ لئلا تطغَوْا فيه أي لا تعتدوا ولا تجاوِزُوا الإنصافَ، وقرىء لا تطغوا على إرادةِ القول.

(٩) ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾ ولا تنقِصُوه فإنَّ من حقِّه أنْ يُسَوَّى لأنه المقصودُ من وضْعِه، وتكريرُه مبالغةً في التوصيةِ به وزيادةَ حثٍّ على استعمالِه، وقرىء ولا تَخْسُروا بفتح التاء وضمِّ السين وكسرِها، وتَخْسَروا بفتحِها على أنَّ الأصلَ ولا تخسروا في الميزان فحذفَ الجارَّ وأوصلَ الفعلَ.

(١٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا﴾ خفضَها مدحوَّةً. ﴿لِلْأَنَامِ﴾ للخلْق، وقيل الأنام كل ذي روحٍ.

= أصالته وجلالة قدره (س٨/ ١٧٦).

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

وقد أخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/١١٨) عن قتادة، قوله: «ألاَّ تطغوا في الميزان، اعدل يا ابن آدم كما تحب أن يعدل عليك، وأوف كما تحب أن يُوفى لك، فإن بالعدل صلاح الناس» وإسناده صحيح.

فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾
خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

(١١) ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ﴾ ضروبٌ مما يُتَفَكَّهُ به. ﴿وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أوعيةُ التمرِ جمعُ كِمٍّ، أو كلُّ ما يُكَمُّ أي يغطّىٰ من ليفٍ وسَعَفٍ وكفرى[١] فإنه يُنْتَفَعُ به كالمكموم كالجذعِ والجمارِ والتمرِ.

(١٢) ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ كالحنطةِ والشعير وسائرِ ما يُتَغَذّى به، والعصفُ ورقُ النبات اليابسِ كالتين. ﴿وَٱلرَّيْحَانُ﴾ يعني المشمومَ، أو الرزقَ من قولهم: خرجتُ أطلب ريحانَ الله. وقرأ ابن عامر والحبَّ ذا العصف والريحانَ أي وخلقَ الحبَّ والريحانَ أو وأخصُّ، ويجوزُ أن يُرَادَ وذا الريحانِ فحذفَ المضافَ، وقرأ حمزة والكسائي والريحانِ بالخفضِ ما عدا ذلك بالرفعِ، وهو فيْعَلان[٢] من الروحِ فقُلِبَتِ الواوُ ياءً وأدغم ثم خفِّفَ، وقيل روحان فقلبتْ واوه ياءً للتخفيف.

(١٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الخطابُ للثقلين المدلولِ عليهما بقوله ﴿لِلْأَنَامِ﴾ وقوله ﴿أيها الثقلان﴾[٣].

(١٤) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ﴾ الصلصالُ الطينُ اليابس الذي له صلصلةٌ، والفخار الخزفُ وقد خلقَ اللهُ آدمَ من تراب جعلَه طيناً ثم حمأً مسنوناً، ثم صلصالاً فلا يخالفُ ذلك قوله خلقَه من ترابٍ ونحوِه.

(١٥) ﴿وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ﴾ الجنَّ أو أبا الجنِّ. ﴿مِن مَّارِجٍ﴾ من صافٍ من الدخان. ﴿مِّن نَّارٍ﴾ بيانٌ لمارج فإنه في الأصلُ للمضطربِ من مرجَ إذا اضطربَ.

(١٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما أفاضَ عليكما في أطوار خِلْقَتِكُما حتى صيَّركما أفضلَ

---

(١) . الكُفُرَّى: بالضم وتشديد الراء المفتوحة والكافور من الطِّيب.

(٢) قوله فيعلان ظاهره أن أصل ريحان: رَيْوحان، ويؤيده قوله وأُدغم، فصار: ريّحان على ما هو معلوم من اجتماع الواو والياء ومسبق إحداهما بالسكون. ثم خفف إلى ريحان، ولأن ريحان من خمسة أحرف وفيعلان من ستة. والله أعلم.

(٣) والتعرض لعنوان الربوبية المنبئة عن المالكية الكلية والتربية مع الإضافة إلى ضميرهم لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ.
ومعنى تكذيبهم بآلائه تعالى: كفرُهم بها، إما بإنكار كونه نعمة في نفسه كتعليم القرآن وما يستند إليه من النعم الدينية، وإما بإنكار كونه من الله تعالى مع الاعتراف بكونه نعمة في نفسه كالنعم الدنيوية الواصلة إليهم بإسناده إلى غيره تعالى استقلالاً أو اشتراكاً صريحاً أو دلالة؛ فإن إشراكهم لآلهتهم به تعالى في العبادة من دواعي إشراكهم لها به تعالىٰ فيما يوجبها.
والتعبير عن كفرهم المذكور بالتكذيب لما أن دلالة الآلاء المذكورة على وجوب الإيمان والشكر شهادة منها بذلك، فكفرهم بها تكذيب بها لا محالة، أي فإذا كان الأمر كما فُصِّل فبأي فرد من أفراد آلاء مالككما ومربيكما بتلك الآلاء تكذبان، مع أن كلاً منها ناطق بالحق شاهد بالصدق (س٨/ ١٧٨).

المركَّبات وخلاصةَ الكائناتِ.

رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ﴿١٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٨﴾ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٣﴾ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ ﴿٢٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٥﴾ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾

(١٧) ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ مشرقي الشتاءِ والصيفِ ومغربيهما.

(١٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مما في ذلك من الفوائد التي لا تُحْصَى، كاعتدالِ الهواء واختلافِ الفصولِ وحدوثِ ما يناسبُ كلَّ فصلٍ فيه إلى غير ذلك.

(١٩) ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ أرسلَهما من مرجتُ الدابةَ إذا أرسلْتَها، والمعنى أرسلَ البحرَ المِلْحَ والبحرَ العذْبَ. ﴿يَلْتَقِيَانِ﴾ يتجاورانِ ويتماسُّ سطوحُهما، أو بحري فارسَ والرومِ يلتقيان في المحيطِ لأنها خليجانِ يتشعَّبان منه.

(٢٠) ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ﴾ حاجزٌ من قدرة الله تعالى أو من الأرضِ. ﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ لا يبغي أحدُهما على الآخرِ بالممازجة وإبطالِ الخاصِّيَّةِ، أو لا يتجاوزان حدَّيْهما بإغراقِ ما بينَهما.

(٢١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٢) ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ كبارُ الدرِّ وصغارُه، وقيل المرجانُ الخرزُ الأحمرُ وإنْ صحَّ أنَّ الدرَّ يخرج من الملحِ، فعلى الأولِ إنما قال منهما لأنه مُخْرَجُ من مجتمعِ الملحِ والعذْبِ، أو لأنهما لما اجتمعا صارا كالشيء الواحدِ فكأن المخرجَ من أحدِهما كالمخرجِ منهما. وقرأ نافع وأبو عمرو ويعقوبُ يَخْرُجُ، وقُرِىءَ نخرجُ، ويُخْرِجُ بنصبِ اللؤلؤِ والمرجانِ.

(٢٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٢٤) ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي السفنُ جمعُ جاريةٍ، وقرىءَ بحذفِ الياء ورفعِ الراءِ كقوله:

لَهَا ثَنَايَا أَرْبَعٌ حِسَانٌ وَأَرْبَعٌ فَكُلُّهَا ثَمَان.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ﴾ المرفوعاتُ الشُّرُعُ، أو المصنوعاتُ، وقرأ حمزةُ وأبو بكر بكسْرِ الشين أي الرافعاتُ الشُّرُعِ، أو اللاتي ينشئنَ الأمواجَ أو السيرَ. ﴿فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾ كالجبالِ جمع عَلَمٍ وهو الجبل الطويلُ.

(٢٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ من خلق موادِّ السفنِ والإرشاد إلى أخْذِها وكيفية تركيبها وإجرائِها في البحر بأسباب لا يقدرُ على خلْقِها وجَمْعِهَا غيرهُ.

(٢٦) ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا﴾ مَنْ على الأرض من الحيوانات أو المركَّباتِ ومَنْ للتغليبِ، أو من الثَّقلينِ. ﴿فَانٍ﴾.

(٢٧) ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ﴾ ذاتُه، ولو استقريتَ جهاتِ الموجودات وتفحَّصْتَ وجوهَها وجدْتَها بأسْرِها فانيةً في حدِّ ذاتها إلا وجهَ الله أي الوجهَ الذي يلي جِهَتَهُ. ﴿ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ ذو الاستغناءِ المطلق والفضلِ العامِّ.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢٨﴾ يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ ﴿٢٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٠﴾
سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾

(٢٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما ذكرنا قبلُ من بقاء الربِّ وإبقاء ما لا يُحصَى مما هو على صددِ الفناء رحمةً وفضلاً، أو مما يترتب على فناءِ الكلِّ من الإعادة والحياة الدائمةِ والنعيم المقيم.

(٢٩) ﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنهم مفتقرون إليه في ذواتِهم وصفاتِهم وسائر ما يهمُّهم ويعنُّ لهم، والمرادُ بالسؤالِ ما يدل على الحاجةِ إلى تحصيل الشيءِ في ذواتهم وصفاتِهم نطْقاً كان أو غيرَهُ. ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ﴾ كل وقتٍ يُحْدِثُ أشخاصاً ويجدِّدُ أحوالاً على ما سبقَ به قضاؤُه. وفي الحديث: «من شأنِه أنْ يغفرَ ذنباً ويفرِّجَ كرباً ويرفعَ قوماً ويضعَ آخرين»(1). وهو ردٌّ لقول اليهود إنَّ اللهَ لا يقضي يومَ السبت شيئاً.

(٣٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يسعفُ به سؤالَكما وما يخرجُ لكما من مكمنِ العدمِ حيناً فحيناً.

(٣١) ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي ستتجرّدُ لحسابِكم وجزائِكم وذلك يومَ القيامة، فإنه تعالى لا يفعلُ فيه غيرهُ. وقيل تهديدٌ مستعارٌ من قولك لمن تهدِّدُهُ سأفرغُ لك، فإنَّ المتجرِّدَ للشيء كان أقوى عليه وأجدَّ فيه، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ بالياء، وقرىء سنفرغُ إليكم أي سنقصدُ إليكم. والثقلان الإنسُ والجنُّ سُمِّيا بذلك لِثِقَلِهما على الأرض، أو لرزانةِ رأيهما وقدْرِهما، أو لأنهما مُثْقَلانِ بالتكليفِ.

(٣٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٣٣) ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ إن قدرتُم أن تخرجُوا من جوانبِ السموات والأرض هاربينَ من الله فارِّين من قضائِه. ﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ فاخرجُوا. ﴿لَا تَنفُذُونَ﴾ لا تقدرون على النفوذِ. ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بقوة وقهرٍ وأنَّى لكم ذلك، أو إنْ قدرتُم أن تنفذوا لتعلمُوا ما في السموات والأرض فانفذوا لتعلموا لكنْ لا تنفذُون ولا تعلمون إلا ببيِّنةٍ نصبَها الله تعالى فتعرجون عليها بأفكارِكم.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (١/ ٧٣ رقم ٢٠٢) من حديث أبي الدرداء.
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (١/ ٧٠ رقم ٧١): «هذا إسناد حسن لتقاصر الوزير عن درجة الحفظ والإتقان... روى البخاري ـ(٨/ ٦٢٠) ـ هذا الحديث تعليقاً موقوفاً في تفسير سورة الرحمن. ورواه ابن حبان في صحيحه ـ (ص٤٣٧ رقم ١٧٦٣ ـ موارد) ـ من طريق أم الدرداء به.
لكن لم ينفرد به الوزير بن صبيح فقد رواه أبو يعلى الموصلي في مسنده... عن أبي الدرداء موقوفاً فذكره» هـ.
وانظر «مجمع الزوائد» (٧/ ١١٧ ـ ١١٨) وكتاب السنة لابن أبي عاصم (١/ ١٣٠ رقم ٣٠١).
والخلاصة: أن الحديث حسن والله أعلم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾
فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا
جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾

(٣٤) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي من التنبيه والتحذيرِ والمساهلةِ والعفوِ مع كمال القدرة، أو مما نصبُ من المصاعدِ العقلية والمعارجِ النقلية فتنفذون بها إلى ما فوقَ السموات العُلا.

(٣٥) ﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ﴾ لهب. ﴿مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ﴾ ودخان قال:

تُضِــيءُ كَضَــوْءِ السِــرَاجِ السَّلِيـ ــطِ لَـمْ يَجْعَـلِ الله فِيـهِ نُحَـاسـاً

أو صفرٌ مذابٌ يُصَبُّ على رؤوسهم. وقرأ ابن كثير شِواظٌ بالكسر وهو لغة ونحاسٍ بالجرِّ عطفاً على نارٍ، ووافقه فيه أبو عمرو ويعقوبُ في رواية، وقرىء ونُحُسٍ وهو جمع كلُحُفٍ. ﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ فلا تمتنعان.

(٣٦) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ فإنَّ التهديدَ لطفٌ والتمييزَ بين المطيع والعاصي بالجزاءِ والانتقام من الكفار في عِدَادِ الآلاء.

(٣٧) ﴿فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ أي حمراءَ كوردةٍ، وقرئت بالرفعِ على كان التامةِ فيكون من باب التجريد كقوله:

وَلَئِــنْ بَقِيــتُ لأَرْحَلَــنَّ بِغَــزْوَةٍ تحْـوِي الغَنَـائِـم أَوْ يَمُـوتَ كَـرِيـمُ[1]

﴿كَالدِّهَانِ﴾ وهو اسمٌ لما يُدْهَنُ به كالحزامِ، أو جمع دهْنٍ. وقيل هو الأديمُ الأحمر.

(٣٨) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما يكون بعدَ ذلك.

(٣٩) ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ أي فيومَ تنشقُّ السماء. ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ لأنهم يُعْرَفُوْنَ بسيماهم وذلك حين ما يخرجون من قبورهم ويُحْشَرُوْنَ إلى الموقف ذَوْداً ذوداً[2] على اختلافِ مراتِبهم، وأما قولُه تعالى ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ﴾[3] ونحوه فحين يُحَاسَبُونَ في المجمَعِ، والهاءُ للإنسِ باعتبار اللفظِ فإنه وإن تأخَّر لفظاً تقدَّم رتبةً.

(٤٠) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي مما أنعمَ الله على عبادِه المؤمنينَ في هذا اليوم.

(٤١) ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ وهو ما يعلُوهم من الكآبة والحزنِ. ﴿فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَٰصِى وَالْأَقْدَامِ﴾ مجموعاً بينهما، وقيل يؤخذون بالنواصي تارةً وبالأقدام أخرى.

---

(١) من الكامل.
(٢) الذود من الإبل ما بين الثلاث إلى العشر، وهي مؤنثة لا واحد لها من لفظها، والكثير أذواد. (مختار الصحاح مادة ذود).
(٣) الحجر: «٩٢».

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٧﴾ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ﴿٤٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ
رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٩﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ﴿٥٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥١﴾ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ﴿٥٢﴾ فَبِأَيِّ
ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٣﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ ۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴿٥٤﴾

(٤٢) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٣) ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ .

(٤٤) ﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا﴾ بين النار يُحرَقُونَ بها. ﴿وَبَيْنَ حَمِيمٍ﴾ ماءٍ حارٍّ. ﴿ءَانٍ﴾ بلغَ النهايةَ في الحرارة يُصَبُّ عليهم، أو يُسْقَوْنَ منه. وقيل إذا استغاثوا من النار أُغِيثُوا بالحميم.

(٤٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٦) ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ موقفَه الذي يقفُ فيه العبادُ للحساب، أو قيامَه على أحواله مِنْ قامَ عليه إذا راقَبَهُ، أو مقامَ الخائفِ عند ربه للحساب بأحدِ المعنيين فأُضِيْفَ إلى الربِّ تفخيماً وتهويلاً، أو ربَّه ومقامَ مقحمٌ للمبالغة كقوله:

ذُعِرتْ به القطا ونَفَيْتُ عنه مقام الذئب كالرجُل اللعين

﴿جَنَّتَانِ﴾ جنةٌ للخائف الإنسي والأخرى للخائفِ الجنِّي، فإنَّ الخطابَ للفريقين والمعنى لكل خائفين منكما أو لكلِّ واحد جنةٌ لعقيدته وأخرى لعملِه، أو جنةٌ لفعل الطاعاتِ وأخرى لترك المعاصي، أو جنة يُثَابُ بها وأخرى يُتَفَضَّلُ بها عليه، أو روحانيةٌ وجسمانية. وكذا ما جاء مثَّنى بعدُ.

(٤٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٤٨) ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أنواع من الأشجار والثمارِ جمعُ فَنٍّ، أو أغصانٌ جمعُ فَنَنٍ وهي الغصنةُ التي يتشعَّب من فرع الشجرة، وتخصيصُها بالذِّكرِ لأنها التي تورِقُ وتثمرُ وتمد الظلَّ.

(٤٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٠) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ حيث شاؤُوا في الأعالي والأسافل. قيل إحداهما التسنيمُ والأخرى السلسبيلُ.

(٥١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٢) ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ صنفانِ غريبٌ ومعروفٌ، أو رطْبٌ ويابسٌ.

(٥٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ .

(٥٤) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾ من ديباج ثخينٍ، وإذا كانتِ البطائنُ كذلك فما ظنُّك بالظهائر، ومتكئين مدحٌ للخائفين أو حالٌ منهم، لأن من خافَ في معنى الجمع. ﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ قريبٌ يناله القاعدُ والمضطجعُ. وجنى اسمٌ بمعنى مجنيٍّ. وقرىء بكسرِ الجيم.

فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٥﴾ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٥٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٥٧﴾ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٥٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٥٩﴾ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا
ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦١﴾ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾
مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾
فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾

(٥٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٥٦) ﴿فِيهِنَّ﴾ في الجنانِ فإنَّ جنتانِ تدلُّ على جنانٍ هي للخائفين، أو فيما فيهما من الأماكن والقصور، أو في هذه الآلاءِ المعدودة من الجنتين والعينين والفاكهةِ والفرشِ. ﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ نساءٌ قصرنَ أبصارَهنَّ على أزواجهنَّ. ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ لم يمسَّ الإنسياتِ إنسٌ ولا الجنياتِ جنٌّ، وفيه دليلٌ على أن الجنَّ يطمثونَ. وقرأ الكسائي بضمِّ الميم.

(٥٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٥٨) ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي حمرةُ الوجْنةِ وبياضُ البشرةِ وصفائِهما.

(٥٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٠) ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ﴾ في العمل. ﴿إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ في الثواب وهو الجنةُ.

(٦١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٢) ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ ومن دون تَيْنَكِ الجنتينِ الموعودتين للخائفين المقرَّبين جنتانِ لمن دونَهم من أصحاب اليمين.

(٦٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٤) ﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ خضراوانِ تضربان إلى السوادِ من شدة الخضرةِ، وفيه إشعارٌ بأن الغالب على هاتين الجنتين النباتُ والرياحينُ المنبسطةُ على وجه الأرضِ، وعلى الأوليين الأشجارُ والفواكهُ دلالةٌ على ما بينَهما من التفاوُتِ.

(٦٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٦) ﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ فوّارتانِ بالماء وهو أيضاً أقلُّ مما وصف به الأوليين وكذا ما بعدَه.

(٦٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٦٨) ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ عطفُهما على الفاكهة بياناً لفضْلِهما، فإن ثمرةَ النخل فاكهةٌ وغذاءٌ وثمرةُ الرمان فاكهةٌ ودواءٌ، واحتجَّ به أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه على أن مَنْ حلفَ لا يأكلُ فاكهةً فأكلَ رطْباً أو رماناً لم يحنَثْ.

(٦٩) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا
تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ
وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾

(٧٠) ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ﴾ أي خيراتٌ فخُفِّفَتْ لأنَّ خيرا الذي بمعنى أخيرَ لا يُجْمَعُ؛ وقد قُرِىءَ على الأصل. ﴿حِسَانٌ﴾ حسانُ الخَلْقِ والخُلُقِ.

(٧١) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٢) ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قُصِرنَ في خدورهنَّ، يقالُ امرأة قصيرةٌ وقصورةٌ ومقصورةٌ أي مخدَّرةٌ، أو مقصوراتُ الطرفِ على أزواجهنَّ.

(٧٣) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٤) ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ كحورِ الأولينَ وهم أصحابُ الجنتين فإنهما يدلأنِ عليهم.

(٧٥) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٦) ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ وسائدَ أو نمارقَ جمعُ رفرفةٍ. وقيل الرفرفُ ضربٌ من البُسُطِ أو ذيلُ الخيمةِ وقد يقالُ لكل ثوبٍ عريض. ﴿خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ العبقريُّ منسوبٌ إلى عبقرَ، تزعم العربُ أنه اسم بلدٍ للجنِّ فينسِبُونَ إليه كلَّ شيءٍ عجيبٍ، والمراد به الجنسُ ولذلك جُمِعَ حسانٍ حملاً على المعنى.

(٧٧) ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

(٧٨) ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ تعالى اسمُه من حيثُ إنه مطلقٌ على ذاته فما ظنُّك بذاته. وقيل الاسمُ بمعنى الصفةِ، أو مقحمٌ كما في قوله.

إلى الحَوْلِ ثُمّ اسْمُ السَّلاَمِ عَلَيْكُمَا[١]. ﴿ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ وقرأ ابن عامر بالرفعِ صفةً للاسم. عن النبي ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الرحمنِ أدّى شكْرَ ما أنعمَ اللهُ تعالى عليه»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) من الطويل.
(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٢ رقم ٨١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الوَاقِعَةِ

ترتيبها ٥٦ — آياتها ٩٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ
بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ
ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾

سورة الواقعة مكية[١]، وآيها ست وتسعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا حدثتِ القيامة، سمَّاها واقعةً لتحقُّقِ وقوعِها، وانتصابُ إذا بمحذوفٍ مثلُ اذكُر أو كان كيتَ وكيتَ.

(٢) ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي لا يكون حين تقعُ نفسٌ تكذِبُ على الله تعالى، أو تكذِّبُ في نفيها كما تكذِّب الآن، واللامُ مثلُها في قوله تعالى: ﴿قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾[٢] أو ليس لأحدٍ في وقعتها كاذبةٌ فإنَّ مَنْ أخبرَ عنها صدقَ، أو ليس لها حينئذ نفسٌ تحدِّثُ صاحِبَها بإطاقةِ شدَّتها واحتمالِها وتُغْرِيْه عليها من قولهم: كذَّبتْ فلاناً نفسُه في الخطْبِ العظيم إذا شجَّعته عليه وسوَّلَتْ له أنه يطيقُه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٣٥٤): «وهي مكية بإجماع ممن يعتد بقوله من المفسرين. وقيل إن فيها آيات مدنية، أو مما نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت» هـ.

(٢) الآية: «٢٤» من سورة الفجر.
واللام في قوله «قدمتُ لحياتي» للتعليل أو للتوقيت، أي قدمت لأجل حياتي أو لوقت حياتي.
واللام هنا كذلك. (انظر البيضاوي ٢/ ٧٨٥).

(٣) ﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ﴾ تخفضُ قوماً وترفعُ آخرين، وهو تقرير لعظَمَتِها فإنَّ الوقائعَ العظامَ كذلك، أو بيانٌ لما يكون حينئذ من خفضِ أعداءِ الله ورفعِ أوليائه، أو إزالة الأجرامِ عن مقارِّها بنثرِ الكواكب وتسييرِ الجبال في الجوِّ، وقُرِئَتا بالنصبِ على الحال[١].

(٤) ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ حُرِّكَتْ تحريكاً شديداً بحيث ينهدمُ ما فوقَها من بناءٍ وجبلٍ، والظرف متعلِّقٌ بخافضةٍ أو بدلٌ من إذا وقعتْ.

(٥) ﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي فُتِّتَتْ حتى صارتْ كالسَّويقِ الملتوتِ من بسَّ السويقَ إذا لتَّه، أو سيقتْ وسيِّرتْ من بسَّ الغنمَ إذا ساقَها.

(٦) ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً﴾ غباراً. ﴿مُّنۢبَثًّا﴾ منتشِراً.

(٧) ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا﴾ أصنافاً. ﴿ثَلَٰثَةً﴾ وكلُّ صِنف يكون أو يُذْكَرُ مع صنفٍ آخرَ زوجٌ.

(٨) ﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾.

(٩) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ فأصحاب المنزلةِ السَّنية وأصحاب المنزلةِ الدنيئةِ من تيمُّنهم بالميامن وتشاؤُمِهم بالشمائل، أو أصحابُ الميمنةِ وأصحاب المشأمةِ الذين يُؤْتَوْنَ صحائِفَهم بأَيْمَانهم والذين يأتونَها بشمائِلهم، أو أصحابُ اليُمْنِ والشؤْمِ فإنَّ السعداءَ ميامينُ على أنفسِهم بطاعتهم والأشقياءُ مشائيمُ عليها بمعصيتهم. والجملتانِ الاستفهاميتانِ خبرانِ لما قبلهما بإقامةِ الظاهرِ مقامَ الضمير، ومعناهما التعجبُ من حال الفريقين[٢].

(١٠) ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ والذين سبقُوا إلى الإيمان والطاعةِ بعدَ ظهور الحقِّ من غيرِ تلعثُم وتوانٍ، أو سبقوا في حيازة الفضائلِ والكمالات، أو الأنبياءُ فإنهم مقدَّمو أهلِ الأديان هم الذين عرفتَ حالَهم وعرفتَ مآلَهم كقول أبي النجم:

أَنَا أَبُو النَّجْمِ وَشِعْرِي شِعْرِي[٣]

أو الذين سبقوا إلى الجنة[٤].

(١١) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾.

(١٢) ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذين قُرِّبَتْ درجاتُهم في الجنة وأُعْلِيَتْ مراتِبُهم.

(١٣) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي هم كثيرٌ من الأوَّلينَ يعني الأممَ السالفةَ من لدنْ آدمَ إلى سيدنا محمدٍ عليه الصلاة والسلام.

---

(١) وتقديم الخفض على الرفع للتشديد في التهويل (س٨/ ١٨٨).

(٢) وقوله «ما أصحاب الميمنة» حيث وضع الظاهر موضع الضمير لكونه أدخل في التفخيم، حيث الأصل أن يقول ما هم؟ لكنه ذكرهم ثانية للتفخيم (س٨/ ١٨٩).

(٣) من الرجز.

(٤) ولعل تأخير ذكر السابقين ـ مع كونهم أسبق الأقسام وأقدمهم في الفضل ـ ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم. على أن إيرادهم بعنوان السبق مطلقاً معرب عن إحرازهم لقصب السبق من جميع الوجوه (س٨/ ١٨٩).

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

(١٤) ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ يعني أمةَ محمدٍ عليه الصلاة والسلام ولا يخالفُ ذلك قولَه عليه الصلاة والسلام «إن أمتي يكثرون سائرَ الأمم»[١] لجوازِ أنْ يكونَ سابقُو سائرِ الأمم أكثرَ من سابقي هذه الأمةِ، وتابعو هذه أكثرَ من تابعيهم، ولا يردُّه قولُه في ﴿لِّأَصْحَـٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾[٢]. لأنَّ كثرةَ الفريقين لا تنافي أكثريةَ أحدِهما، وروي مرفوعاً أنهما من هذه الأمَّةِ[٣]، واشتقاقُها من الثَّلِّ وهو القطعُ.

(١٥) ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ﴾ خبرٌ آخرُ للضمير المحذوفِ، والموضونةُ المنسوجةُ بالذهبِ مشبكةً بالدرِّ والياقوت، أو المتواصلةُ من الوضْنِ وهو نسجُ الدرعِ.

(١٦) ﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ حالانِ من الضمير في على سُرُرٍ.

(١٧) ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ للخدمةِ. ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ مُبَقَوْنَ أبداً على هيئةِ الولدان وطراوتِهم.

(١٨) ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ﴾ حالُ الشربِ وغيرِه، والكوبُ إناءٌ بلا عروةٍ ولا خرطومَ له، والإبريقُ إناءٌ له ذلك. ﴿وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ من خمرٍ.

(١٩) ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا﴾ بخمار. ﴿وَلَا يُنزِفُونَ﴾ ولا تنزفُ عقولُهم، أو لا ينفدُ شرابُهم. وقرأ الكوفيون بكسرِ الزاي لا يُصَدَّعون بمعنى لا يتصدَّعون أي لا يتفرَّقون.

---

(١) لم أقف عليه بهذا اللفظ.

● وقد أخرج الترمذي (٤/ ٦٨٣ رقم ٢٥٤٦) وابن ماجة (٢/ ١٤٣٣ رقم ٤٢٨٩) من رواية سليمان بن بريدة عن أبيه مرفوعاً بلفظ «أهل الجنة عشرون ومائة صف، ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم».

قال الترمذي: هذا حديث حسن. قلت: في سند الترمذي «حسين بن يزيد الطحان» وهو لين الحديث كما قال ابن حجر في التقريب (١/ ١٨١).

ولكن الترمذي حسنه لمتابعته عند ابن ماجة.

● وأخرج البخاري (١١/ ٣٧٨ رقم ٦٥٢٨) و(١١/ ٥٢٣ رقم ٦٦٤٢) ومسلم (١/ ٢٠٠ ـ ٢٠١ رقم ٢٢١) من حديث ابن مسعود، قال: كنا في قبة فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا نعم. قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم. قال: «والذي نفس محمد بيده إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة. وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مؤمنة، وما أنتم من أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر».

(٢) الواقعة: «٣٨، ٣٩، ٤٠».

(٣) أخرجه الطيالسي في المسند (ص١٢٠ رقم ٨٨٦) موقوفاً. ومسدد كما في المطالب العالية: (٣/ ٣٨٣ رقم ٣٧٦٨) موقوفاً ومرفوعاً. ومدار إسناديهما على علي بن زيد بن جدعان وهو ضعيف ـ وله شاهد عند أحمد (١٨/ ٢٩٣ رقم ٤٥٠) الفتح الرباني ـ من حديث أبي هريرة.

وأخرجه الطبراني بإسنادين، قال الهيثمي (٧/ ١١٩): «رجال أحدهما رجال الصحيح غير علي بن زيد وهو ثقة سيء الحفظ» هـ.

وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٞ ﴿٢٢﴾ كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ
يَعۡمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ﴿٢٦﴾ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِي سِدۡرٖ
مَّخۡضُودٖ ﴿٢٨﴾ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ﴿٢٩﴾ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقۡطُوعَةٖ وَلَا مَمۡنُوعَةٖ ﴿٣٣﴾

(٢٠) ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ أي يختارون.

(٢١) ﴿وَلَحۡمِ طَيۡرٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ يتمنّون.

(٢٢) ﴿وَحُورٌ عِينٞ﴾ عطفٌ على ولدانٍ، أو مبتدأٌ محذوفُ الخبرِ أي وفيها، أو ولهم حورٌ، وقرأ حمزة والكسائيُّ بالجرّ عطفاً على جناتٍ بتقدير مضافٍ أي هم في جناتٍ ومصاحبةِ حورٍ، أو على أكوابٍ لأنَّ معنى يطوف عليهم ولدانٌ مخلَّدون بأكواب ينعُمون بأكواب، وقُرِئَتا بالنصبِ على ويُؤْتَوْنَ حوراً.

(٢٣) ﴿كَأَمۡثَٰلِ ٱللُّؤۡلُوِ ٱلۡمَكۡنُونِ﴾ المصونُ عما يضرُّ به في الصفاءِ والنقاءِ.

(٢٤) ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ أي يفعلُ ذلك كلّه بهم جزاءً بأعمالهم.

(٢٥) ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا﴾ باطلاً. ﴿وَلَا تَأۡثِيمًا﴾ ولا نسبةً إلى الإثم أي لا يُقالُ لهم أثِمْتُم.

(٢٦) ﴿إِلَّا قِيلٗا﴾ أي قولاً. ﴿سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ بدلٌ من قيلا كقوله تعالى ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗا﴾(١) أو صفتُه أو مفعوله بمعنى إلا أنْ يقولوا سلاماً، أو مصدرٌ. والتكريرُ للدلالة على فشوِّ السلام بينَهم. وقرىء سلامٌ على الحكايةِ.

(٢٧) ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ﴾.

(٢٨) ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ﴾ لا شوكَ فيه من خضدَ الشوكَ إذا قطعَه، أو مثنَّى أغصانِه من كثرة حملِه من خضَدَ الغصنَ إذا ثناه وهو رطْبٌ.

(٢٩) ﴿وَطَلۡحٖ﴾ وشجرِ موزٍ، أو أمِّ غيلانَ وله أنوار كثيرة طيبةُ الرائحةِ، وقرىء بالعين. ﴿مَّنضُودٖ﴾ نُضِّدَ حملُه من أسفلِه إلى أعلاهُ.

(٣٠) ﴿وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ﴾ منبسطٍ لا يتقلَّص ولا يتفاوتُ.

(٣١) ﴿وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ﴾ يُسْكَبُ لهم أين شاؤوا وكيفَ شاؤوا بلا تعبٍ، أو مصبوبٍ سائلٍ كأنه لما شبَّه حالَ السابقين في التنعُّم بأعلى ما يُتَصَوَّرُ لأهلِ المدنِ شبَّه حالَ أصحاب اليمينِ بأكملِ ما يتمنَّاه أهل البوادي إشعاراً بالتفاوتِ بين الحالين.

(٣٢) ﴿وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ﴾ كثيرةِ الأجناس.

(٣٣) ﴿لَّا مَقۡطُوعَةٖ﴾ لا تنقطعُ في وقتٍ. ﴿وَلَا مَمۡنُوعَةٖ﴾ لا تُمْنَعُ عن متناوِلها بوجْهٍ.

---

(١) مريم: ٦٢.

وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ
ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا
بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا
وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾

(٣٤) ﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ رفيعةِ القدرِ أو منضدَّةٍ مرتفعةٍ. وقيل الفُرُشُ النساءُ وارتفاعُها أنها على الأرائكِ، ويدل عليه قولُه:

(٣٥) ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي ابتدأناهنَّ ابتداءً جديداً من غير ولادةٍ إبداءً أو إعادةً. وفي الحديث «هنَّ اللواتي قُبِضْنَ في دار الدنيا عجائزَ شُمْطاً رمَصاً، جعلهنَّ الله بعد الكِبَرِ أتراباً على ميلادٍ واحدٍ، كلما أتاهنَّ أزواجُهنَّ وجدوهنَّ أبكاراً»(١).

(٣٦) ﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾.

(٣٧) ﴿عُرُبًا﴾ متحبِّباتٍ إلى أزواجهنَّ جمعُ عروبٍ، وسكَّنَ راءَه حمزةُ وأبو بكر، ورُوِيَ عن نافع وعاصمٍ مثلُه.. ﴿أَتْرَابًا﴾ فإنَّ كلَّهن بناتُ ثلاثٍ وثلاثينَ وكذا أزواجُهنَّ.

(٣٨) ﴿لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ متعلِّقٌ بأنشأنا أو جعلْنا، أو صفةٌ لأبكاراً أو خبرٌ لمحذوفٍ مثلُ هنَّ أو لقوله:

(٣٩) ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

(٤٠) ﴿وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ﴾ وهي على الوجوه الأُوَلِ خبرٌ محذوفٌ.

(٤١) ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾.

(٤٢) ﴿فِى سَمُومٍ﴾ في حرِّ نارٍ ينفذُ في المسامِّ. ﴿وَحَمِيمٍ﴾ وماءٍ متناهٍ في الحرارة.

(٤٣) ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ من دخانٍ أسودَ يفعولٌ من الحممَةِ.

(٤٤) ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ كسائر الظلِّ. ﴿وَلَا كَرِيمٍ﴾ ولا نافعٍ، نفى بذلك ما أوهم الظلَّ من الاسترواح.

(٤٥) ﴿إِنَّهُمْ كَانُواْ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ منهمكين في الشهوات.

(٤٦) ﴿وَكَانُواْ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذَّنْبُ العظيم يعني الشركَ، ومنه بلغَ الغلامُ الحِنْثَ أي الحُلْمَ ووقْتَ المؤاخذةِ بالذَّنْبِ، وحَنِثَ في يمينه خلافُ برَّ فيها وتحنَّث إذا تأثَّم.

(٤٧) ﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ كُرِّرَتِ الهمزةُ للدلالة على إنكارِ البعثِ مطلقاً وخصوصاً في هذا الوقتِ كما دخلتِ العاطفةُ في قوله:

(١) أخرج الترمذي (٥/٤٠٢ رقم ٣٢٩٦) عن أنس رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ (إنا أنشأناهُنَّ إنشاءً) قال: «إنَّ من المنشآت التي كُنَّ في الدنيا عجائزَ عُمْشاً رُمصاً».
قال الترمذي: هذا حديثٌ غريبٌ لا نعرِفُهُ مرفوعاً إلاّ من حديث موسى بن عبيدة، وموسى بن عبيدة ويزيدُ بن أبَان الرقاشيُّ يضعفانِ في الحديث.
وأخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٣/ج٢٧/ ١٨٥) وانظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٢).

أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ
ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ
ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾ نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾

(٤٨) ﴿أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ للدلالةِ على أنَّ ذلك أشدُّ إنكاراً في حقِّهم لتقادُم زمانهم وللفصلِ بها حَسُنَ العطفُ على المستكِنِّ في لمبعوثون، وقرأ نافع وابنُ عامر أوْ بالسكونِ وقد سبقَ مثلُه. والعاملُ في الظرفِ ما دلَّ عليه مبعوثونَ، لا هو للفصلِ بأنَّ والهمزة [1].

(٤٩) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ﴾[2].

(٥٠) ﴿لَمَجْمُوعُونَ﴾ وقرىء لمجمَّعُون. ﴿إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى ما وقِّتَ به الدنيا وحدثٍ من يومٍ معيَّنٍ عند الله معلومٍ له.

(٥١) ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ أي بالبعثِ، والخطابُ لأهلِ مكَّةَ وأضرابِهم.

(٥٢) ﴿لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ مِنْ الأُولَى للابتداءِ والثانيةُ للبيانِ.

(٥٣) ﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ من شدة الجوعِ.

(٥٤) ﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ لغَلَبة العطشِ، وتأنيثُ الضمير في منها وتذكيرهُ في عليه على معنى الشجرِ ولفظِه، وقرىء من شجرة فيكون التذكيرُ للزقوم فإنه تفسيرها.

(٥٥) ﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ الإبلِ التي بها الهيامُ وهو داءٌ يشبه الاستسقاءَ، جمعُ أهيمَ وهيماءَ قال ذو الرمة:

فَـأَصْبَحْـتُ كَـالهَيْمَـاءِ لاَ المَـاءُ مُبْـرِدٌ   صَـدَاهَـا وَلاَ يَقْضِـي عَلَيْهَـا هيَـامُهَـا

وقيل الرمالُ على أنه جمعُ هَيَامٍ بالفتحِ وهو الرملُ الذي لا يتماسك جُمِعَ على هُيُمٍ كسُحُبٍ، ثم خُفِّفَ وفُعِلَ به ما فُعِلَ بجمعِ أبيضَ، وكلٌّ من المعطوفِ والمعطوفِ عليه أخصُّ من الآخر من وجهٍ فلا اتحادَ. وقرأ نافع وحمزةُ وعاصم شُرب بضمِّ الشين.

(٥٦) ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ يومَ الجزاء فما ظنُّك بما يكون لهم بعدَ ما استقروا في الجحيم، وفيه تهكُّم كما في قوله ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[3] لأن النُّزلَ ما يُعَدُّ للنازل تكرمةً له، وقرىء نُزْلُهم بالتخفيف.

(٥٧) ﴿نَحْنُ خَلَقْنَٰكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ بالخلْقِ متيقنين محقِّقِينَ للتصديق بالأعمال الدالة عليه، أو بالبعثِ فإن مَنْ قدرَ على الإبداءِ قدرَ على الإعادة.

(١) وتقديم التراب على العظام لعراقته في الاستبعاد وانقلابه من الأجزاء البادية (س٨/ ١٩٥).
(٢) في تقديم «الأولين» على «الآخرين» مبالغة في الرد، حيث كان إنكارهم لبعث آبائهم أشد من إنكارهم لبعثهم، مع مراعاة الترتيب الوجودي (س٨/ ١٩٥).
(٣) التوبة: «٣٤».

أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰٓ
أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَرَءَيْتُم مَّا
تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا
لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾

(٥٨) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ﴾ أي ما تقذفونه في الأرحامِ من النُّطفِ، وقرىء بفتح التاءِ من مَنَى النطفةَ بمعنى أمْنَاها.

(٥٩) ﴿ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ﴾ تجعلُونه بشراً سوياً. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾.

(٦٠) ﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ ٱلْمَوْتَ﴾ قسَّمناه عليكم وأقَّتنا موتَ كلٍّ بوقتٍ معيَّنٍ، وقرأ ابن كثير بتخفيف الدالِ. ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ لا يسبقُنا أحدٌ فيهربَ من الموتِ أو يغير وقْتِهِ، أو لا يغلِبُنا أحدٌ من سبقتُه على كذا إذا غلبتُه عليه.

(٦١) ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ على الأولِ حالٌ أو علةٌ لقدَّرنا وعلى بمعنى اللام، وما نحنُ بمسبوقين اعتراضٌ وعلى الثاني صلةٌ، والمعنى على أن نبدلَ منكم أشباهَكم فنخلقُ بدلَكم، أو نبدِّلَ صفاتِكم على أنَّ أمثالَكم جمعُ مِثْلٍ بمعنى صفةٍ. ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ في خلْقٍ أو صفاتٍ لا تعلمونها.

(٦٢) ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ أنَّ مَنْ قدرَ عليها قدرَ على النشأة الأخرى فإنها أقلُّ صنعاً لحصول الموادِّ وتخصيصِ الأجزاءِ وسَبْقِ المثالِ، وفيه دليلٌ على صحةِ القياس.

(٦٣) ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ تبذرون حبَّه.

(٦٤) ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ تنبتونه. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ المنبِتُونَ.

(٦٥) ﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا﴾ هشيماً. ﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ تعجبُون أو تندمون على اجتهادِكم فيه، أو على ما أصبتُم لأجله من المعاصي فتتحدَّثون فيه، والفكَهُ التنقلُ بصنوفِ الفاكهةِ وقد استُعِيرَ للتنقُّلِ بالحديث. وقرىء فظِلْتُم بالكسرِ، وفظلَلْتم على الأصلِ.

(٦٦) ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ لملزمون غرامةَ ما أنفقنا، أو مُهْلَكُونَ لهلاكِ رزقنا من الغرامِ، وقرأ أبو بكر أئِنا لمغرمون على الاستفهام.

(٦٧) ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ قومٌ. ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا رزقَنا، أو محدودون لا مَجْدُودُونَ.

(٦٨) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾ أي العذْبَ الصالحَ للشرب[1].

(٦٩) ﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ من السحاب واحدُه مُزْنَةٌ، وقيل المزنُ السحاب الأبيضُ وماؤه أعذبُ. ﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ بقدرتنا. والرؤيةُ إن كانتْ بمعنى العلمِ فمتعلِّقة بالاستفهام.

---

(١) وتخصيص هذا الوصف بالذكر مع كثرة منافعه لأن الشرب أهم المقاصد المنوطة به (س٨/١٩٨).

لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ
ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ ۞ فَلَآ
أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾

(٧٠) ﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ ملحاً أو من الأجيج فإنه يحرقُ الفمَ، وحذفَ اللامَ الفاصلةَ بين جواب ما يتمحضُ للشرط وما يتضمنُ معناه لعلمِ السامع بمكانها، أو الاكتفاءِ بسبقِ ذكرِها أو يختصُّ ما يُقْصَدُ لذاته ويكون أهمَّ وفقدُه أصعبَ بمزيد التأكيد. ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ أمثالَ هذه النِّعمِ الضروريةِ.

(٧١) ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ﴾ تقدحون.

(٧٢) ﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ يعني الشجرةَ التي منها الزِّنادُ[١].

(٧٣) ﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا﴾ جعلْنا نار الزِّناد. ﴿تَذْكِرَةً﴾ تبصرةً في أمرِ البعثِ كما مرَّ في سورةِ يٰس[٢]، أو في الظلام أو تذكيراً وأنموذجاً لنارِ جهنَّم. ﴿وَمَتَٰعًا﴾ ومنفعةً. ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ الذين ينزلون القَوَاءَ وهي القفْرُ، أو للذين خلتْ بطونُهم أو مزاودُهم من الطعام، من أقوتِ الدارُ إذا خلتْ من ساكنيها.

(٧٤) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فأحدِثِ التسبيحَ بذكرِ اسمِه تعالى أو بذكرِه فإنَّ إطلاقَ اسمِ الشيءِ ذِكْرُهُ. والعظيمُ صفةٌ للاسمِ أو الربِّ، وتعقيبُ الأمر بالتسبيح لما عدَّد من بدائعِ صُنْعِهِ وإنعامِه إما لتنزيهِه تعالى عما يقول الجاحدون لوحدانيتِه الكافرونَ لنعمتِه، أو للتعجُّبِ من أمرِهم في غمطِ نِعَمِه، أو للشكرِ على ما عدَّها من النعم.

(٧٥) ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ﴾ إذ الأمرُ أوضحُ من أنْ يحتاجَ إلى قسمٍ، أو فأقسمُ ولا مزيدةٌ للتأكيد كما في ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ﴾[٣] أو فَلأَنَا أقسِمُ فحذفَ المبتدأَ وأشبعَ فتحةَ لامِ الابتداءِ، ويدلُّ عليه قراءةُ فلأقسمُ، أو فلا ردٌّ لكلامٍ يخالفُ المقسَمَ عليه. ﴿بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ بمساقِطِها، وتخصيصُ المغاربِ لما في غروبها من زوالِ أثرِها والدلالةِ على وجود مؤثِّرٍ لا يزول تأثيرُهُ، أو بمنازلها ومجاريها. وقيل النجومُ نجومُ القرآن ومواقِعُها أوقاتُ نزولها، وقرأ حمزة والكسائيُّ بموقع.

(٧٦) ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ لما في المقسَمِ به من الدلالة على عِظَمِ القدرةِ وكمال الحكمة وفَرْطِ الرحمة، ومن مقتضياتِ رحمته أن لا يتركَ عبادَه سُدَىً، وهو اعتراضٌ في اعتراض فإنه اعتراضٌ بين القسمِ والمقسَمِ عليه، ولو تعلمون اعتراضٌ بين الموصوفِ والصفةِ.

(٧٧) ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ كثيرُ النفعِ لاشتماله على أصولِ العلوم المهمةِ في إصلاح المعاش والمعاد، أو حسنٌ مرضيٌّ في جنسِه.

---

(١) والتعبير عن خلقها بالإنشاء ـ المنبيء عن بديع الصنع المعرب عن كمال القدرة والحكمة ـ لما فيه من الغرابة الفارقة بينها وبين سائر الشجر التي لا تخلو عن النار، حتى قيل: في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار ـ كما أن التعبير عن نفخ الروح بالإنشاء في قوله تعالىٰ «ثم أنشأناه خلقاً آخر» لذلك (س٨/١٩٨).

(٢) سورة يٰسٓ آية: «٨٠».

(٣) الحديد: «٢٩».

فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم
مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحۡنُ
أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنكُمۡ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرۡجِعُونَهَآ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ
إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴿٨٩﴾

(٧٨) ﴿ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴾ مصونٍ وهو اللوحُ المحفوظُ.

(٧٩) ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ لا يطَّلِعُ على اللوحِ إلا المطهرون من الكُدوراتِ الجسمانية وهم الملائكةُ، أو لا يمسُّ القرآنَ إلا المطهرونَ من الأحداثِ فيكون نفياً بمعنى النهي، أو لا يطلبه إلا المطهرونَ من الكفرِ. وقرىء المتطهرون والمطْهَرون والمطَّهِّرون من أطْهَرَهُ بمعنى طهَّره، والمطَهِّرون أي أنفسَهم أو غيرهم بالاستغفارِ لهم والإلهام.

(٨٠) ﴿ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴾ صفةٌ ثالثة أو رابعة للقرآنِ، وهو مصدرٌ نُعِتَ به وقرىء بالنصبِ أي نُزِّلَ تنزيلاً.

(٨١) ﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ ﴾ يعني القرآنَ. ﴿ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴾ متهاونون به كمن يُدْهِنُ في الأمر أي يُلينُ جانبَهُ ولا يتصلَّب فيه تهاوناً به.

(٨٢) ﴿ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ ﴾ أي شكرَ رزْقِكم. ﴿ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ﴾ أي بمانحِه حيث تنسبونه إلى الأنواء، وقرىء شُكْرَكُم أي وتجعلون شكركم لنعمةِ القرآنِ أنكم تكذِّبون به وتكذبون أي بقولِكم في القرآن أنه سحر وشِعْرٌ، أو في المطر أنه من الأنواء.

(٨٣) ﴿ فَلَوۡلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلۡحُلۡقُومَ ﴾ أي النفسُ.

(٨٤) ﴿ وَأَنتُمۡ حِينَئِذٖ تَنظُرُونَ ﴾ حالكُم، والخطاب لمن حولَ المحتضِر، والواوُ للحالِ.

(٨٥) ﴿ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ ﴾ أي ونحن أعلمُ. ﴿ إِلَيۡهِ ﴾ إلى المحتضِرِ. ﴿ مِنكُمۡ ﴾ عبَّر عن العلمِ بالقربِ الذي هو أقوى سببِ الاطلاع. ﴿ وَلَٰكِن لَّا تُبۡصِرُونَ ﴾ لا تدركون كُنْهَ ما يجري عليه.

(٨٦) ﴿ فَلَوۡلَآ إِن كُنتُمۡ غَيۡرَ مَدِينِينَ ﴾ أي مجزيينَ يومَ القيامة أو مملوكينَ مقهورينَ من دانه إذا أذلَّه واستعبدَه، وأصل التركيب للذلِّ والانقياد.

(٨٧) ﴿ تَرۡجِعُونَهَآ ﴾ ترجعون النفسَ إلى مقرِّها وهو عاملُ الظرفِ والمحضَّضُ عليه بلولا الأُولى. والثانيةُ تكريرٌ للتوكيد وهي بما في حيِّزها دليلُ جوابِ الشرط، والمعنى إن كنتم غيرَ مملوكينَ مجزيِّينَ كما دلَّ عليه جحْدُكم أفعالَ اللهِ وتكذيبُكم بآياته. ﴿ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴾ في أباطيلكم فلولا ترجعون الأرواحَ إلى الأبدانِ بعد بلوغها الحلقومَ.

(٨٨) ﴿ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُقَرَّبِينَ ﴾ أي إن كان المتوفَّى من السابقين.

(٨٩) ﴿ فَرَوۡحٞ ﴾ فله استراحةٌ، وقرىء فَرُوْحٌ بالضمِّ، وفُسِّرَ بالرحمةِ لأنها كالسببِ لحياة المرحوم وبالحياةِ الدائمة. ﴿ وَرَيۡحَانٞ ﴾ ورزقٌ طيِّبٌ. ﴿ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ﴾ ذاتُ تنعُّمٍ.

وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾

(٩٠) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾.

(٩١) ﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ﴾ يا صاحبَ اليمين. ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي من إخوانك يسلِّمونَ عليك.

(٩٢) ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ يعني أصحابَ الشمال، وإنما وصفَهم بأفعالهم زجْراً عنها وإشعاراً بما أوجبَ لهم ما أوعدَهم به.

(٩٣) ﴿فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾.

(٩٤) ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ وذلك ما يجدُ في القبر من سمومِ النار ودخانِها.

(٩٥) ﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي الذي ذُكِرَ في السورة أو في شأن الفِرَقِ. ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ﴾ أي حقُّ الخبرِ اليقين.

(٩٦) ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ فنزِّهْهُ بذكرِ اسمه وتعالى عما لا يليقُ بعظَمَةِ شأنه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الواقعةِ في كلِّ ليلة لم تصبْه فاقةٌ أبداً»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن السني في «عمل اليوم والليلة» رقم (٦٨٠) والبيهقي في «الشعب» (٢/ ٤٩١ ـ ٤٩٢) والحارث بن أبي أسامة في مسنده (١٧٨ من زوائده)، وابن لال في «حديثه» (١/١١٦) وابن بشران في «الأمالي» (ج٢٠/٣٨/١) ـ كما في الضعيفة (١/ ٣٠٤ ـ ٣٠٥ رقم ٢٨٩) ـ وغيرهم من طريق أبي شجاع عن أبي طيبة عن ابن مسعود مرفوعاً.
وفيه علل: النكارة في متنه، والانقطاع، وضعف رواته، واضطرابه. وانظر الضعيفة (رقم: ٢٨٩) و«الكافي الشافِ» (ص١٦٣ رقم: ٩٢) وفيض القدير (٦/ ٢٠١).

سُورَةُ الحَدِيدِ

ترتيبها ٥٧ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ يُحْيِي وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

سورة الحديد مدنية(١)

وقيل مكية، وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ذُكِرَ ها هُنا وفي الحشر والصفِّ بلفظ الماضي، وفي الجمعة والتغابنِ بلفظ المضارعِ إشعاراً بأن مِنْ شأنِ ما أُسْنِد إليه أنْ يسبِّحه في جميع أوقاتِه، لأنه دلالةٌ جِبلِيَّةٌ لا تختلفُ باختلاف الحالاتِ. ومجيءُ المصدرِ مطلقاً في بني إسرائيلَ أبلغُ من حيث إنه يشعِرُ بإطلاقه على استحقاقِ التسبيح من كلِّ شيء وفي كلِّ حال. وإنما عدِّيَ باللام وهو متعدٍّ بنفسِه ـ مثلُ نصحتُ له في نصحتُه ـ إشعاراً بأنَّ إيقاعَ الفعل لأجلِ الله وخالصاً لوجهه. ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ حالٌ يشعرُ بما هو المبدأُ للتسبيح.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٣٩٦): «وهي مدنية فيما قال النقاش وغيره بإجماع من المفسرين. وقال غيره مكية»

وانظر «زاد المسير» (٨/ ١٦٠) و«الدر المنثور» (٨/ ٤٥).

(٢) ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فإنه الموجِدُ لها والمتصرِّفُ فيها. ﴿يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ استئنافٌ أو خبرٌ لمحذوف ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الإحياء والإماتةِ وغيرِها. ﴿قَدِيرٌ﴾ تامُّ القدْرةِ.

(٣) ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ﴾ السابقُ على سائر الموجوداتِ من حيث إنه موجِدُها ومُحْدِثُها. ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الباقي بعد فنائها ولو بالنظرِ إلى ذاتِها مع قطعِ النظرِ عن غيرِها، أو هو الأولُ الذي تبتدأُ منه الأسبابُ وتنتهي إليه المسبَّباتُ، أو الأول خارجاً والآخر ذهناً. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ الظاهر وجودُه لكثرةِ دلائله والباطنُ حقيقةً ذاتُه فلا تكتنِهُها العقولُ، أو الغالبُ على كل شيء والعالمُ بباطنِه. والواوُ الأولَى والأخيرةُ للجمعِ بين الوصْفَيْنِ، والمتوسطةُ للجمعِ بين المجموعين. ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ يستوي عندَه الظاهرُ والخفيُّ.

(٤) ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كالبذور. ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كالزروع. ﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ كالأمطارِ. ﴿وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كالأبخرةِ. ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ لا ينفكُّ علمُه وقدرتُه عنكم بحالٍ. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه. ولعلَّ تقديمَ الخلْقِ على العلم لأنه دليلٌ عليه.

لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ
ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ
كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾

(٥) ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ذَكَره مع الإعادةِ كما ذَكَرَهُ مع الإبداءِ لأنه كالمقدمةِ لهما. ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾.

(٦) ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بمكنُوناتِها.

(٧) ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ من الأموال التي جعلَكُم اللهُ خلفاءَ في التصرُّفِ فيها فهي في الحقيقة له لا لكم، أو التي استخلفكم عمَّن قبلَكُم في تملُّكِها والتصرُّفِ فيها، وفيه حثٌّ على الإنفاقِ وتهوينٌ له على النفس. ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَأَنفَقُوا۟ لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وعدٌ فيه مبالغاتٌ؛ جَعْلُ الجملةِ اسميةً وإعادةُ ذِكْرِ الإيمان والإنفاقِ وبناءُ الحكم على الضميرِ وتنكيرُ الأجْرِ ووصفُه بالكِبَرِ.

(٨) ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾ أي وما تصنعونَ غيرَ مؤمنين به كقولك: مالَكَ قائماً. ﴿وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ﴾ حالٌ من ضمير تؤمنون، والمعنى أيُّ عذْرٍ لكم في تركِ الإيمان والرسولُ يدعوكم إليه بالحججِ والآياتِ. ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ أي وقد أخذ الله ميثاقَكم بالإيمان قبل ذلك بنصبِ الأدلة والتمكينِ من النظرِ، والواو للحالِ من مفعولِ يدعوكم. وقرأ أبو عمرو على البناءِ للمفعول ورفعِ ميثاقُكُمْ. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ لموجبٍ ما فإن هذا موجبٌ لا مزيدَ عليه.

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾﴾

(٩) ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ﴾ أي اللهُ أو العبدُ. ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ من ظلماتِ الكفر إلى نور الإيمان. ﴿وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ حيثُ نبَّهكم بالرسولِ والآياتِ ولم يقتصرْ على ما نصبَ لكم من الحجج العقليةِ.

(١٠) ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾ وأيُّ شيءٍ لكم في ألا تنفقوا. ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فيما يكون قُرْبَةً إليه[١]. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يرثُ كلَّ شيءٍ فيهما فلا يبقى لأحدٍ مالٌ، وإذا كان كذلك فإنفاقُه بحيث يستخلفُ عوضاً يبقَى وهو الثوابُ كان أولى[٢]. ﴿لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً﴾ بيانٌ لتفاوُتِ المنفقينَ باختلافِ أحوالهم من السَّبْقِ وقوةِ اليقين وتحرِّي الحاجاتِ حثاً على تحرِّي الأفضلِ منها بعدَ الحثِّ على الإنفاقِ، وذِكْرُ القتالِ للاستطرادِ، وقسيمُ مَنْ أنفق محذوفٌ لوضوحه ودلالةِ ما بعدَه عليه، والفتحُ فتحُ مكَّةَ إذ عزَّ الإسلامُ به وكثُر أهلُه وقلَّتِ الحاجةُ إلى المقاتلة والإنفاقِ. ﴿مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ﴾ أي من بعدِ الفتح. ﴿وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي وعدَ اللهُ كلاً من المنفقينَ المثوبةَ الحسنى وهي الجنةُ. وقرأ ابن عامر وكلٌّ بالرفعِ على الابتداء أي وكلٌّ وعدَه الله ليطابقَ ما عُطِفَ عليه. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عالمٌ بظاهره وباطنِه فيجازيكم على حَسَبِه. والآيةُ نزلتْ في أبي بكرٍ رضي الله تعالى عنه، فإنه أولُ مَنْ آمن وأنفق في سبيل الله وخاصمَ الكفارَ حتى ضُرِبَ ضرباً أشرفَ به على الهلاك[٣].

(١١) ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ أي مَنِ الذي ينفقُ مالَهُ في سبيله رجاءَ أنْ يعوِّضَه فإنه كَمَنْ يقرضُه، وحسْنُ الإنفاقِ بالإخلاص فيه وتحري أكرم المال وأفضلِ الجهات له. ﴿فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾ أي يُعْطَى أَجْرَهُ أضعافاً. ﴿وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي وذلك الأجرُ المضموم إليه الأضعافُ كريمٌ في نفسه ينبغي أنْ يُتَوَخَّى وإن لم يُضَاعفْ، فكيف وقد يضاعف أضعافاً. وقرأ عاصمٌ فيضاعفَه بالنصبِ على جوابِ الاستفهام باعتبارِ المعنى فكأنه قال: أيقرضُ اللهَ أحدٌ فيضاعفَه له، وقرأ ابن كثير فيضعفُه مرفوعاً، وقرأ ابن عامر ويعقوبُ فيضعفَه منصوباً.

(١٢) ﴿يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ ظرفٌ لقوله وله أو فيضاعفَه أو مقدَّر باذْكُر ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُمْ﴾ ما يوجِبُ نجاتَهم وهدايتَهم إلى الجنة. ﴿بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ﴾ لأنَّ السعداءَ يؤْتَوْنَ صحائفَ أعمالهم من هاتين الجهتين. ﴿بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ﴾ أي يقول لهم مَنْ يتلقاهم من الملائكة بُشْرَاكم أي المبشَّرُ به

---

(١) وتعيين المنفق فيه لتشديد التوبيخ (س٨/ ٢٠٦).
(٢) وإظهار الاسم الجليل في موقع الإضمار «ولله» لزيادة التقرير وتربية المهابة (س٨/ ٢٠٦).
(٣) انظر «جامع البيان» للطبري (١٣/ ج٢٧/ ٢٢٠ ـ ٢٢١) والبحر المحيط (٨/ ٢١٩).

جناتٌ، أو بشراكم دخولُ جناتٍ. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما تقدَّم من النور والبشرى بالجناتِ المخلَّدةِ.

يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

(١٣) ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾ بدلٌ من يومَ ترى. ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا﴾ انتظرونا فإنَّهم يُسْرَعُ بهم إلى الجنة كالبرق الخاطفِ، أوِ انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بنورٍ بين أيديهم. وقرأ حمزةُ أَنظِرونا على أنَّ أتئادَهم ليلحقوا بهم إمهالٌ لهم. ﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ نُصِبْ منه. ﴿قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ إلى الدنيا. ﴿فَالْتَمِسُوا نُورًا﴾ بتحصيل المعارفِ الإلهية والأخلاقِ الفاضلة، فإنه يتولَّد منها أو إلى الموقف فإنه من ثمَّةَ يُقتَبَسُ، أو إلى حيثُ شئتُم فاطلبوا نوراً آخَرَ فإنه لا سبيلَ لكم إلى هذا، وهو تهكُّمٌ بهم وتخييبٌ من المؤمنين أو الملائكة ﴿فَضُرِبَ بَيْنَهُم﴾ بين المؤمنين والمنافقين. ﴿بِسُورٍ﴾ بحائطٍ. ﴿لَّهُ بَابٌ﴾ يدخلُ منه المؤمنونَ. ﴿بَاطِنُهُ﴾ باطنُ السورِ أو الباب. ﴿فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾ لأنه يلي الجنةَ. ﴿وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ﴾ من جهته لأنه يلي النارَ.

(١٤) ﴿يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ﴾ يريدون موافقتَهُم في الظاهر. ﴿قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ بالنفاق. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ بالمؤمنين الدوائرَ. ﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ وشككْتُم في الدِّينِ. ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ كامتدادِ العمرِ. ﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ وهو الموتُ. ﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ الشيطانُ أو الدنيا.

(١٥) ﴿فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ﴾ فداءٌ. وقرأ ابن عامر ويعقوبُ بالتاء. ﴿وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ظاهراً وباطناً. ﴿مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ﴾ هي أَوْلَى بكم كقول لبيدٍ[1]:

فَغَدَتْ كِلاَ الفرجَيْنِ تَحْسِبُ أنَّهُ مولَى المَخَافَةِ خَلْفَهَا وأمامها

وحقيقَتُه مجراكُم أي مكانكُم الذي يُقَالُ فيه هو أولى بكم كقولك: هو مَئِنَّةُ الكرمِ أي مكان قولِ

(١) هو لبيد بن ربيعة بن مالك، أبو عقيل العامري: أحدَ الشعراء الفرسان الأشراف في الجاهلية. من أهل عالية نجد، أدرك الإسلام، ووفد على النبي ﷺ. ويعد من الصحابة، ومن المؤلفة قلوبهم. وترك الشعر فلم يقل في الإسلام إلا بيتاً واحداً، قيل: هو

ما عاتب المرءَ الكريمَ كنفسه والمرء يصلحه الجليسُ الصالح

وترجم له رضي الله عنه محمد علي حمد الله في شرح الزوزني، ونسب إليه بيتاً واحداً هو:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسبتُ من الإسلام سربالا

وهو من البسيط، والأول من الكامل، ومسكن لبيد الكوفة...

[الأعلام، للزركلي (٥/ ٢٤٠)].

القائل إنه لكريمٌ، أو مكانكُم عما قريبٍ من الولْيِ وهو القربُ، أو ناصرُكم على طريقة قوله: تحِيَّةُ بَيْنَهُمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ، أو متوليكُم يتولاَّكُم كما توليتم موجباتِها في الدنيا. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ النارُ.

۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾

(١٦) ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ ألم يأتِ وقتُه، يُقَالُ أَنَى الأمرُ يأني أنْياً وأناً وإناً إذا جاءَ إناهُ، وقرىء ألم يئِنْ بكسرِ الهمزة وسكونِ النون من آنَ يئينُ بمعنى أنى، وألمّا يأنِ. رُوِيَ أنَّ المؤمنينَ كانوا مجدِبِيْنَ بمكَّةَ، فلما هاجروا أصابوا الرزقَ والنعمةَ ففتَروا عما كانوا عليه، فنزلت[1]. ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ أي القرآنُ وهو عطفٌ على الذِّكْرِ عطفُ أحدِ الوصفين على الآخرِ، ويجوزُ أنْ يرادَ بالذِّكر أن يُذْكَرَ اللهُ. وقرأ نافع وحفص ويعقوب نَزَلَ بالتخفيف، وقرىء أُنْزِلَ. ﴿وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ عطفٌ على تخشعَ. وقرأ رويسٌ بالتاء، والمراد النهيُ عن مماثلة أهلِ الكتاب فيما حُكِيَ عنهم بقوله: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي فطال عليهم الأجلُ لطول أعمارِهم وآمالهم، أو ما بينَهم وبين أنبيائهم فقستْ قلوبُهم. وقرىء الأمدّ وهو الوقتُ الأطول. ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن دينهم رافضونَ لما في كتابهم من فَرْطِ القسوةِ.

(١٧) ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تمثيلٌ لإحياءِ القلوب القاسيةِ بالذكرِ والتلاوةِ بالإحياءِ والأمواتِ ترغيباً في الخشوع وزجْراً عن القساوة. ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ كي تكمُلَ عقولُكم.

(١٨) ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ إنَّ المتصدقين والمتصدقاتِ، وقد قرىء بهما. وقرأ ابن كثير وأبو بكر بتخفيفِ الصادِ أي الذين صدقُوا اللهَ ورسولَه. ﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ عطفٌ على معنى الفعل في المحلَّى باللام لأن معناه: الذين أصْدَقُوا، أو صدقُوا وهو على الأول للدلالةِ على أنَّ المعتبَرَ هو التصدُّقُ المقرونُ بالإخلاص. ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ معناه والقراءةُ في يُضَاعَفُ كما مرَّ غيرَ أنه لم يُجْزَمْ لأنه خبرُ إنَّ، وهو مسندٌ إلى لهم أو إلى ضمير المصدرِ.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي أولئك عندَ الله بمنزلة الصِّديقينَ والشهداء، أو هم المبالغون في الصدقِ فإنهم آمنوا وصدَّقُوا جميعَ أخبارِ الله ورسلِه

---

(١) وقال الكلبي ومقاتل: نزلت في المنافقين بعد الهجرة بسنة، وذلك أنهم سألوا سلمان الفارسي ذات يوم فقالوا: حدثنا عما في التوراة فإن فيها العجائب فنزلت هذه الآية وقال غيرهما. نزلت في المؤمنين.
[أسباب النزول، لأبي الحسن الواحدي النيسابوري ص٤٠٦].

والقائمونَ بالشهادة لله ولهم، أو على الأمم يومَ القيامة. وقيل والشهداءُ عند ربهم مبتدأ وخبرٌ، والمراد به الأنبياءُ من قوله ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ﴾[١] أو الذين استُشْهِدوا في سبيل الله. ﴿ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ ﴾ مثلُ أجرِ الصِّدِّيقينَ والشهداءِ ومثلُ نورِهم. ولكنه من غير تضعيفٍ ليحلَّ التفاوتُ، أوِ الأجرُ والنور الموعودانِ لهم. ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴾ فيه دليلٌ على أنَّ الخلودَ في النار مخصوصٌ بالكفار من حيثُ إنَّ التركيبَ يشعِرُ بالاختصاص. والصُّحبةُ تدلُّ على الملازمةِ عرفاً.

اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾ سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢١﴾

(٢٠) ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ ﴾ لما ذكر حالَ الفريقين في الآخرةِ حقَّر أمورَ الدنيا أعني ما لا يُتَوَصَّلُ به إلى الفوزِ الآجلِ، بأنْ بيَّن أنها أمورٌ خيالية قليلةُ النفعِ سريعةُ الزوالِ لأنها لعب يتعِبُ الناسُ فيه أنفسَهم جداً إتعابَ الصبيانِ في الملاعب من غير فائدةٍ، ولهوٌ يُلْهُونَ به أنفسَهم عما يهمُّهم، وزينةٌ كالملابسِ الحسنة والمواكِب البهية والمنازلِ الرفيعة، وتفاخرٌ بالأنساب أو تكاثرٌ بالعدد والعُدَدِ، ثم قرر ذلك بقوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ﴾ وهو تمثيلٌ لها في سرعة تقضِّيها وقلَّةِ جدواها بحال نباتٍ أنبته الغيثُ فاستوى وأُعْجِبَ به الحرَّاثُ، أو الكافرون بالله لأنهم أشدُّ إعجاباً بزينة الدنيا ولأنَّ المؤمنَ إذا رأى معجباً انتقلَ فكرُهُ إلى قدرةِ صانِعه فأُعْجِبَ بها، والكافر لا يتخطَّى فكرُهُ عما أحسَّ به فيستغرقُ فيه إعجاباً، ثم هاج أي يبِسَ بعاهةٍ فاصفرَّ ثم صار حطاماً، ثم عظَّم أمورَ الآخرة الأبديةِ بقوله: ﴿ وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ تنفيراً عنِ الانهماكِ في الدنيا وحثاً على ما يوجِبُ كرامةَ العُقْبَى، ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلبْ إلا الآخرةَ. ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ أي لمن أقبلَ عليها ولم يطلبْ بها الآخرةَ.

(٢١) ﴿ سَابِقُوا ﴾ سارعوا مسارعةَ المسابقين في المِضْمَار. ﴿ إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ إلى موجِباتِها. ﴿ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أي عرضُها كعرضِهما وإذا كان العرضُ كذلك فما ظنُّك بالطول، وقيل المراد به البسطةُ كقوله ﴿ فَذُو دُعَاءٍ عَرِيضٍ ﴾[٢] ﴿ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ﴾ فيه دليلٌ على أن الجنةَ مخلوقةٌ وأن الإيمان وحدَه كافٍ في استحقاقها. ﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ ﴾ ذلك للوعود يتفضَّل به على مَنْ يشاء من غير إيجابٍ. ﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ منه التفضُّل بذلك وإن عظُم قدرُه.

---

(١) النساء: «٤١».

(٢) فُصِّلت: «٥١».

وتقديم المغفرة على الجنة لتقديم التخلية على التحلية (س٨/ ٢١١).

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ ۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٤﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾

(٢٢) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كجذبٍ وعاهةٍ. ﴿وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ﴾ كمرض وآفةٍ. ﴿إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ إلا مكتوبةً في اللوح مثبتةً في علمِ الله تعالى. ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ نخلقَها، والضميرُ للمصيبة أو الأرض أو للأنفسِ ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي إثباتَه في كتابٍ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لاستغنائِه تعالى فيه عن العدةِ والمدَّةِ.

(٢٣) ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾ أي أثبَتَ وكتبَ كي لا تحزنوا ﴿عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ من نِعَمِ الدنيا ﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ بما أعطاكم اللهُ منها فإن مَنْ عَلِمَ أن الكلَّ مقدَّر هانَ عليه الأمرُ. وقرأ أبو عمرو بما أتاكم من الإتيانِ ليعادِلَ ما فاتكم، وعلى الأول فيه إشعارٌ بأنَّ فواتَها يلحقُها إذا خُلِّيَتْ وطباعَها، وأما حصولُها وإبقاؤُها فلا بدَّ لهما من سببٍ يوجدُها ويبقيها، والمراد نفيُ الأسى المانعِ عن التسليم لأمرِ الله والفرحِ الموجبِ للبطرِ والاختيالِ، ولذلك عقبه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ إذ قلَّ مَنْ يثبِّتُ نفسَه في حالي الضراءِ والسراءِ[1].

(٢٤) ﴿ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبُخْلِ﴾ بدلٌ من كلِّ مختال فإن المختالَ بالمال يضنُّ به غالباً، أو مبتدأ خبرُه محذوفٌ مدلول عليه بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ لأنَّ معناه ومَنْ يعرضْ عن الإنفاقِ فإنَّ اللهَ غنيٌّ عنه وعن إنفاقه محمودٌ في ذاته لا يضرُّه الإعراضُ عن شكره ولا ينفعه التقربُ إليه بشكرِ مَنْ نعَّمه، وفيه تهديد وإشعارٌ بأن الأمرَ بالإنفاق لمصلحة المنفِق. وقرأ نافع وابن عامر فإنَّ الله الغنيُّ.

(٢٥) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ أي الملائكةَ إلى الأنبياء أو الأنبياءَ إلى الأمم. ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ بالحجج والمعجزاتِ. ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليبيِّنَ الحقَّ ويميِّزَ صوابَ العمل. ﴿وَٱلْمِيزَانَ﴾ لتسوَّى به الحقوقُ ويقامَ به العدلُ كما قال تعالى ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ وإنزاله إنزالُ أسبابه والأمر بإعداده، وقيل أنزلَ الميزانَ إلى نوح عليه السلام، ويجوز أن يُرادَ به العدلُ. ﴿لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ﴾ لِتُقَامَ به السياسةُ وتدفعَ به الأعداءُ كما قال: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ فإنَّ آلاتِ الحروب متَّخَذَةٌ منه. ﴿وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾ إذ ما من صنعةٍ إلا والحديدُ آلاتُها. ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ﴾ باستعمال الأسلحةِ في مجاهدةِ الكفار، والعطف على محذوفٍ دلَّ عليه ما قبلَه فإنه حالٌ يتضمَّن تعليلاً، أوِ اللامُ صلةٌ لمحذوف أي أنزله ليعلمَ اللهُ. ﴿بِٱلْغَيْبِ﴾ حالٌ من المستكِنِّ في ينصرهُ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ على إهلاك مَنْ أراد إهلاكَه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يفتقر إلى نُصْرةٍ وإنما أمرهم بالجهادِ لينتفعوا به ويستوجِبوا ثوابَ الامتثالِ فيه.

---

(١) وفي تخصيص التذييل بالنهي عن الفرح المذكور إيذان بأنه أقبح من الأسىٰ (س٨/ ٢١١).

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ
فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى
قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟
ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ
وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾

(٢٦) ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ بأنِ استنبأناهم وأوحينا إليهم الكتبَ. وقيل المرادُ بالكتابِ الخطُّ. ﴿فَمِنْهُم﴾ فمن الذرية أو مِنَ المرسَلِ إليهم وقد دلَّ عليهم أرسلنا. ﴿مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجونَ عن الطريق المستقيم، والعدولُ عن سننِ المقابلةِ للمبالغةِ في الذمِّ والدلالةِ على أنَّ الغلبةَ للضُلاَّلِ.

(٢٧) ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي أرسلْنا رسولاً بعد رسولٍ حتى انتهى إلى عيسى عليه السلام، والضميرُ لنوح وإبراهيمَ ومَنْ أُرسلا إليهم، أو من عاصَرَهُما من الرسلِ لا للذريةِ، فإن الرسلَ الملْقَى بهم من الذريةِ. ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ وقرىء بفتحِ الهمزة، وأمرهُ أهونُ من أمرِ البرطيلِ لأنه أعجميٌّ[1]. ﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً﴾ وقرىء رآفةً على فعالةٍ. ﴿وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ أي وابتدعوا رهبانيةً ابتدعوها، أو رهبانية مُبْتَدَعَةً على أنها من المجعولاتِ وهي المبالغةُ في العبادة والرياضة والانقطاعِ عن الناس، منسوبةً إلى الرُّهبانِ وهو المبالِغُ في الخوفِ من رَهِبَ كالخشيان من خَشِيَ، وقرئتْ بالضمِّ كأنها منسوبةٌ إلى الرهبانِ وهو جمعُ راهبٍ كراكِبٍ ورُكْبَانٍ. ﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ ما فرضْناها عليهم. ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أي ولكنَّهم ابتدعوها ابتغاءَ رضوانِ الله. وقيل متصلٌ فإنَّ ما كتبْناها عليهم بمعنى ما تعبَّدناهم بها وهو كما ينفي الإيجابَ المقصودَ منه دفعُ العقابِ ينفي الندبَ المقصودَ منه مجردَ حصولِ مرضاة الله، وهو يخالف قولَه ابتدعوها إلا أنْ يُقَالَ ابتدعوها ثم نُدِبُوا إليها، أو ابتدعوها بمعنى استحدثُوها وأَتَوْا بها، أو لأنهم اخترعُوها من تِلْقاء أنفسِهم. ﴿فَمَا رَعَوْهَا﴾ أي فما رَعَوْهَا جميعاً. ﴿حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ بضمِ التثليثِ والقولِ بالاتحادِ وقصدِ السمعةِ والكفرِ بمحمد عليه الصلاة والسلام ونحوها إليها. ﴿فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أتوْا بالإيمانِ الصحيحِ ومن ذلك الإيمانُ بمحمدٍ ﷺ وحافظوا حقوقَها. ﴿مِنْهُمْ﴾ من المتَّسِمِينَ باتباعِه. ﴿أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ خارجون عن حالِ الاتباعِ.

(٢٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالرسلِ المتقدمةِ. ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ فيما نهاكم عنه. ﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ عليه الصلاة. . . . .

---

(١) أي لا يلزم منه مراعاة أبنية العرب.

والسلام(١). ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ﴾ نصيبين. ﴿مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ لإيمانكم بمحمدٍ ﷺ إيمانكم بمن قبلَه، ولا يبعدُ أنْ يُثَابُوا على دينهم السابقِ وإن كان منسوخاً ببركةِ الإسلام، وقيل الخطابُ للنَّصارى الذين كانوا في عصْره. ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يريدُ المذكورَ في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم﴾(٢) أو الهدى الذي يُسْلَكُ به إلى جنابِ القدُسِ. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(٢٩) ﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي ليعلموا ولا مزيدةٌ ويؤيدُه أنه قرىء ليعلَمَ ولكي يعلمَ ولأنَ يعلمَ بإدغام النون في الياء. ﴿أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أنْ هي المخففةُ والمعنى: أنه لا ينالون شيئاً مما ذُكِرَ من فضلِه ولا يتمكّنون من نيله لأنهم لم يؤمنوا برسوله وهو مشروطٌ بالإيمان به، أو لا يقدِرونَ على شيءٍ من فضله فضلاً عن أن يتصرَّفوا في أعظَمِه وهو النبوةُ فيخصُّوها بِمَنْ أرادوا ويؤيدُه قولُه: ﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وقيل لا غيرُ مزيدةٍ، والمعنى لئلا يعتقدَ أهلُ الكتاب أنه لا يقدرُ النبيُّ والمؤمنون به على شيء من فضْلِ الله ولا ينالونه، فيكون وأنَّ الفضلَ عطفاً على لئلا يعلمَ، وقرىء لِيَلّا يعلمُ ووجهُهُ أنَّ الهمزةَ حُذِفَتْ وأدغمتِ النون في اللامِ ثمَّ أُبدِلَتْ ياءً. وقرىء لَيْلاَ على أنَّ الأصلَ في الحروفِ المفردةِ الفتحُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحديدِ كُتِبَ من الذين آمنوا بالله ورسلِه أجمعينَ»(٣).



---

(١) وفي إطلاق كلمة الرسول إيذانٌ بأنه عليه الصلاة والسلام ـ فردٌ في الرسالة لا يذهب الوهم إلى غيره (س٨/ ٢١٤) ـ.

(٢) الحديد: «١٢».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٤ رقم ٩٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُجَادِلَةِ

ترتيبها ٥٨ — آياتها ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ
يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ
ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن
قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٣﴾ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ
أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ
وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤﴾

سورة المجادلة مدنية

وقيل العشر الأول مكي والباقي مدني[1]، وآيها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ **رُوِيَ أنَّ خولة بنتَ ثعلبةَ ظاهَرَ عنها زوجُها أوسُ بنُ الصامت، فاستفتتْ رسول الله ﷺ فقال: «حرمتِ عليه»، فقالت: ما طلَّقني، فقال: «حرمتِ عليه»، فاغتمَّت لصغرِ أولادِها وشكتْ إلى الله تعالى، فنزلت هذه الآياتُ الأربعُ[2]، وقد تُشعِرُ بأن**

---

(١) وهي مدنية بالإجماع. إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى: «ما يكون من نجوى ثلاثة» الآية. مكي. قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/ ٥) وابن ماجة (١/ ٦٦٦ رقم ٢٠٦٣) وابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢٧٨ رقم ٦٢٥) والواحدي في الأسباب (ص٤٠٨) كلهم من طريق تميم بن سلمة عن عروة به. وإسناده صحيح. ويشهد له: =

الرسول عليه الصلاة والسلام أو المجادلةَ يتوقع أنَّ اللهَ يسمعُ مجادَلَتَهَا وشكْواها ويفرجُ عنها كربَهَا. وأدْغَمَ حمزةُ والكسائي وأبو عمرو وهشام عن ابن عامر دالها في السينِ. ﴿وَٱللَّهُ يَسۡمَعُ [1] تَحَاوُرَكُمَآ﴾ تراجُعَكُما الكلامَ وهو على تغليبِ الخطاب. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ للأقوال والأحوال.

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم﴾ الظِّهار أنْ يقولَ الرجلُ لامرأته أنتِ عليَّ كظهْرِ أمي مشتقٌ من الظَّهْرِ، وألحقَ به الفقهاءُ تشبيهَهَا بجزءِ أنثىْ مَحْرَم. وفي منكم تهجينٌ لعادتِهم فيه، فإنه كان من أيمانِ أهل الجاهليةِ. وأصل يظاهِرون يتظاهَرُون، وقرأ ابن عامر وحمزة والكسائيُّ يظّاهرون من أظّاهر وعاصم يُظاهِرون من ظَاهَرَ. ﴿مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ﴾ أي على الحقيقةِ. ﴿إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ﴾ فلا تشبُّهَ بهنَّ في الحرمةِ إلا مَنْ ألحقها الله بهنَّ كالمرضعاتِ وأزواجِ الرسول ﷺ، وعن عاصم أمهاتُهم بالرفع على لغةِ بني تميم، وقرىء بأمهاتِهم وهو أيضاً على لغة من ينصِبُ. ﴿وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ إذ الشرعُ أنكرَهُ. ﴿وَزُورٗاۚ﴾ منحرِفاً عن الحقِّ فإن الزوجةَ لا تشبِه الأمَّ. ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ﴾ لما سلفَ منه مطلقاً، أو إذا تِيبَ عنه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ﴾ أي إلى قولهم بالتداركِ ومنه المثَلُ: عاد الغيثُ على ما أفسدَ، وهو بنقضِ ما يقتضيه وذلك عند الشافعيِّ بإمساك المظاهِرِ عنها في النكاحِ زماناً يمكنُه مفارقتُها فيه إذ التشبيهُ يتناولُ حرمتَه لصحة استثنائِها عنه وهو أقلُّ ما ينتقضُ به، وعند أبي حنيفةَ باستباحةِ استمتاعِها ولو بنظرةِ شهوةٍ، وعند مالكٍ بالعزمِ على الجِماعِ، وعند الحسنِ بالجماعِ أو بالظِّهار في الإسلام على أنَّ قولَه يظاهرون بمعنى يعتادون الظِّهارَ إذ كانوا يظاهرون في الجاهليةِ وهو قول الثوري، أو بتكرارِه لفظاً وهو قول الظاهريةِ. أو معنًى بأنْ يحلفَ على ما قال وهو قولُ أبي مسلم، أو إلى المقول فيها بإمساكِها أو استباحةِ استمتاعِها أو وَطْئِها. ﴿فَتَحۡرِيرُ رَقَبَةٖ﴾ أي فعليهم أو فالواجبُ اعتاقُ رقبةٍ والفاءُ للسببيةِ، ومن فوائدِها الدلالةُ على تكرُّرِ وجوب التحرير بتكرُّرِ الظِّهارِ. والرقبةُ مقيدةٌ بالإيمان عندنا قياساً على كفارة القتلِ. ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ﴾ أنْ يستَمْتِعَ كلٌّ من المظاهِرِ والمظاهَرِ عنها بالآخر لعمومِ اللفظِ ومقتضى التشبيه، أو أنْ يجامِعَها وفيه دليلٌ على حرمةِ ذلك قبل التكفيرِ. ﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ أي ذلكم الحكمُ بالكفارة. ﴿تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ لأنه يدلُّ على ارتكابِ الجناية الموجِبَة للغرامةِ ويردعُ عنه. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ لا تخفى عليه خافية.

(٤) ﴿فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ﴾ أي الرقبةَ والذي غابَ مالُه واجدٌ. ﴿فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ﴾ فإنْ أفطرَ بغيرِ عذرٍ لزِمهُ الاستئنافُ وإنْ أفطرَ لعذرٍ ففيه خلافٌ، وإنْ جامعَ المظاهِر عنها ليلاً لم ينقطعِ التتابعُ عندنا خلافاً لأبي حنيفةَ ومالكٍ رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ﴾ أي الصومَ لهرم أو مرضٍ مزمن أو شبقٍ مفرطٍ فإنه ﷺ رخَّصَ للأعرابي المفطرِ أنْ يعدلَ لأجلِه. ﴿فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ﴾

= ما أخرجه البخاري تعليقاً (١٣/٣٧٢) ووصله النسائي (٦/١٦٨ رقم ٣٤٦٠) وأحمد في المسند (٦/٤٦) والحاكم في المستدرك (٢/٤٨١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/٥) والواحدي في الأسباب (ص٤٠٨) عن تميم به. وإسناده صحيح.

(١) وإظهار الاسم الجليل «الله» في الموقعين لتربية المهابة وتعليل الحكم بوصف الألوهية وتأكيد استقلال الجملتين (س٨/٢١٦).

ستين مُدّاً بمدِّ رسولِ الله ﷺ، وهو رطلٌ وثلثٌ لأنه أقلُّ ما قيل في الكفاراتِ وجنسِه المخرجِ في الفِطْرةِ، وقال أبو حنيفةَ رضي الله تعالى عنه يعطي كلَّ مسكينٍ نصفَ صاع من بُرٍّ أو صاعاً من غيره. وإنما لم يذكرِ التماسَّ مع الطعام اكتفاءً بذكره مع الآخرين، أو لجوازه في خلالِ الإطعام كما قال أبو حنيفةَ رضيَ الله تعالى عنه. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلكَ البيانُ أو التعليمُ للأحكام. ومحلُّه النصبُ بفعل معلَّلٍ بقوله: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي فرضَ ذلك لتصدِّقوا بالله ورسوله في قبول شرائعه ورفْضِ ما كنتم عليه في جاهليتِكم. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ﴾ لا يجوزُ تعدِّيها. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ﴾ أي الذين لا يقبلُونها. ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هو نظيرُ قوله تعالى ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾[1].

إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ كُبِتُوا كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٦﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾

(٥) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ يعادونَهما، فإنَّ كلاً من المتعادِيَيْنِ في حدٍّ غير حدِّ الآخر، أو يضعون أو يختارون حدوداً غيرَ حدودهما. ﴿كُبِتُوا﴾ أُخزُوا وأهلِكُوا وأصل الكبْتِ الكبُّ. ﴿كَمَا كُبِتَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني كفارَ الأممِ الماضية. ﴿وَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ تدلُّ على صدقِ الرسولِ وما جاء به. ﴿وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ يُذهِبُ عزَّهم وتكبُّرهم.

(٦) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ منصوبٌ بمهين أو بإضمار اذكُر. ﴿جَمِيعًا﴾ كلَّهم لا يدَعُ أحداً غيرَ مبعوثٍ أو مجتمعينَ. ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا﴾ أي على رؤوس الأشهادِ تشهيراً لحالهم وتقريراً لعذابهم. ﴿أَحْصَاهُ اللَّهُ﴾ أحاط به عدداً لم يغبْ منه شيءٌ. ﴿وَنَسُوهُ﴾ لكثرته أو تعاونهم به. ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ لا يغيب عنه شيءٌ.

(٧) ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ كلياً وجزئياً. ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ أي ما يقعُ من تناجي ثلاثةٍ، ويجوز أن يقدَّر مضافٌ أو يؤولَ نجوى بمتناجينَ وبجعْلِ ثلاثة صفةً لها، واشتقاقُها من النجوةِ وهي ما ارتفعَ من الأرض فإنَّ السرَّ أمرٌ مرفوعٌ إلى الذِّهنِ لا يتيسَّر لكلِّ أحدٍ أنْ يطَّلِعَ عليه. ﴿إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ إلا الله يجعلُهم أربعةً من حيث إنه يشارِكُهم في الاطلاع عليها، والاستثناءُ من أعمِّ الأحوال. ﴿وَلَا خَمْسَةٍ﴾ ولا نجوى خمسةٍ. ﴿إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾ وتخصيصُ العددين إما لخصوصِ الواقعة فإنَّ الآيةَ نزلت في تناجي المنافقين، أو لأنَّ الله تعالى وترٌ يحبُّ الوِتْرَ، والثلاثةُ أول الأوتارِ أو لأنَّ التشاورَ لا بد له من اثنينِ يكونانِ كالمتنازعَيْنِ وثالث يتوسَّط بينَهما. وقرىء ثلاثةً وخمسةً بالنصبِ على الحالِ بإضمار يتناجون أو تأويلِ نجوى بمتناجِيْنَ. ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ﴾ ولا أقلَّ مما ذكِرَ كالواحد

---

(١) آل عمران: ٩٧.

والاثنين. ﴿وَلَآ أَكْثَرَ﴾ كالستةِ وما فوقَها. ﴿إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾ يعلم ما يجري بينَهم. وقرأ يعقوبُ ولا أكثرُ بالرفع عطفاً على محلِّ من نجوى أو محلِّ لا أدنى بأنْ جُعِلتْ لا لنفي الجنس. ﴿أَيْنَ مَا كَانُوا۟﴾ فإنَّ علمَه بالأشياء ليس لقربٍ مكانيٍّ حتى يتفاوتَ باختلافِ الأمكنة. ﴿ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ تفضيحاً لهم وتقريراً لما يستحقُّونه من الجزاءِ. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاته المقتضيةِ للعلم إلى الكلِّ على السواءِ.

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾

(٨) ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ﴾[١]، نزلت في اليهودِ والمنافقين كانوا يتناجَوْنَ فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم إذا رأوا المؤمنينَ فنهاهم رسولُ الله ﷺ ثم عادوا لمثل فعلِهم[٢]. ﴿وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ أي بما هو إثمٌ وعدوانٌ للمؤمنين وتواصٍ بمعصية الرسول. وقرأ حمزةُ ويَنْتَجُون وهو يفتعلُون من النَّجوى، ورُوِيَ عن يعقوبَ مثلُه. ﴿وَإِذَا جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ﴾ فيقولون السامُ عليك[٣]، أو أنعِمْ صباحاً والله تعالى يقولُ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ﴾[٤]. ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ فيما بينَهم. ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ هلا يعذِّبنا اللهُ بذلك لو كان محمدٌ نبياً. ﴿حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ عذاباً. ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يدخلونها. ﴿فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ﴾ كما يفعلُه المنافقون وعن يعقوبَ فلا تنتجُوا. ﴿وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ بما يتضمنُ خيرَ المؤمنين والاتقاءَ عن معصية الرسول. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فيما تأتون وتذرون فإنه مجازيكم عليه.

(١٠) ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ﴾ أي النجوى بالإثم والعدوان. ﴿مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ فإنه المزيِّنُ لها والحاملُ عليها. ﴿لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بتوهُّمِهم أنها في نكبةٍ أصابتْهم. ﴿وَلَيْسَ﴾ أي الشيطانُ أو التناجي.

---

(١) صيغة المضارع «يعودون» للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة.
(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤١٠ ـ ٤١١) عن مجاهد وابن عباس بدون سند.
(٣) يشير المؤلف رحمه الله إلى الحديث الذي أخرجه البخاري (١١/ ١٩٩ ـ ٢٠٠ رقم ٦٤٠١) عن عائشة رضي الله عنها: أن اليهود أتوا النبي ﷺ فقالوا: السامُ عليك. قال: وعليكم. فقالت عائشة السامُ عليكم ولعنكم اللهُ وغضِبَ عليكم. فقال: رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة عليك بالرفق، وإياك والعنف ـ أو الفُحش ـ قالت: أولم تسمع ما قالوا؟ قال أوَلم تسمعي ما قلت؟ رددتُ عليهم، فيستجابُ لي فيهم ولا يُستجاب لهم فيَّ».
وأخرجه البغوي في «شرح السنة» (١٢/ ٢٧٠ ـ ٢٧١ رقم ٣٣١٣) و«معالم التنزيل» (٨/ ٥٦).
(٤) النمل: «٥٩».

﴿بِضَآرِّهِمْ﴾ بضارٍّ المؤمنين. ﴿شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إلا بمشيئته. ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ ولا يبالوا بنجواهُم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ فَٱنشُزُواْ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

(١١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُواْ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ﴾ توسَّعوا فيه وليُفسح بعضُكم عن بعض من قولهم: افسحْ عني أي تنحَّ، وقرىء تفاسحُوا. والمرادُ بالمجلسِ الجنسُ ويدلُّ عليه قراءةُ عاصم بالجمع، أو مجلسُ رسولِ الله ﷺ فإنهم كانوا يتضامُّون به تنافساً على القربِ منه وحِرْصَاً على استماع كلامِه. ﴿فَٱفْسَحُواْ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ فيما تريدون التفسُّحَ فيه من المكان والرزقِ والصَّدرِ وغيرها. ﴿وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُواْ﴾ انهضُوا للتوسعةِ أو لما أُمِرْتُم به كصلاةٍ أو جهاد، أو ارتفعوا عن المجلسِ. ﴿فَٱنشُزُواْ﴾ وقرأ نافع وابن عامر وعاصمٌ بضمِّ الشين فيهما. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ﴾ بالنصرِ وحسنِ الذِّكْرِ في الدنيا وإيوائِهم غرفَ الجنانِ في الآخرة. ﴿وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ويرفعُ العلماءَ منهم خاصَّةً درجاتٍ بما جمعوا من العلم والعملِ، فإنَّ العلمَ مع علوِّ درجته يقتضي العملَ المقرونَ به مزيدُ رفعةٍ، ولذلك يُقْتَدَى بالعالِمِ في أفعاله ولا يُقْتَدَى بغيرِه. وفي الحديث «فضلُ العالمِ على العابد كفضلِ القمرِ ليلةَ البدر على سائرِ الكواكب»[(١)]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تهديدٌ لمن لم يتمثَّلِ الأمرَ أوِ استكرهَهُ.

(١٢) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً﴾ فتصدقوا قدَّامها مستعارٌ ممن له يدانِ، وفي هذا الأمرِ تعظيمُ الرسولِ وإنفاعُ الفقراءِ والنهيُ عن الإفراطِ في السؤالِ والميْزُ بين المخلِص والمنافق ومحبِّ الآخرة ومحبِّ الدنيا. واختُلِفَ في أنه للندب أو للوجوب لكنَّه منسوخٌ بقوله ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾[(٢)] وهو إنِ اتصلَ به تلاوةً لم يتصلْ به نزولاً. وعن عليٍّ كرم الله وجهه إنّ في كتاب الله آيةً ما عمل بها أحدٌ غيري، كان لي دينار فصرفْتُه فكنتُ إذا ناجيتُه تصدَّقت بدرهمٍ[(٣)]، وهو على القولِ بالوجوب لا يقدحُ في غيره فلعلَّه لم يتفقْ للأغنياء مناجاةٌ في مدَّة بقائِه، إذ روي أنه لم يبقَ إلا عشراً وقيل إلا ساعةً. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي ذلك التصدقُ. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ﴾ أي لأنفسِكم من الريبة وحبِّ المالِ وهو يشعِرُ بالندبيةِ لكنَّ قولَه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ أي لمن لم يجدْه حيثُ رخَّص له في المناجاة بلا تصدُّقٍ أدلُّ على الوجوب.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤/٥٨ رقم ٣٦٤١) والترمذي (٥/٤٩ رقم ٢٦٨٢) وابن ماجة (١/٨١ رقم ٢٢٣) وأحمد (٥/١٩٦) وابن حبان (ص٤٨ رقم ٨٠ ـ موارد) وابن عبدالبر في «جامع بيان العلم» (١/٣٣ ـ ٣٤) كلهم في سياق طويل هذا جزء منه من حديث أبي الدرداء. وهو حديث صحيح.
وقد صححه الألباني في صحيح ابن ماجة وأبي داود. . .

(٢) المجادلة: «١٣».

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٨١ ـ ٤٨٢) من طريق عبدالرحمٰن بن أبي ليلى عن علي به وأتم منه. وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبي.

ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾

(١٣) ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَـٰتٍ ۚ﴾ أخِفتُم الفقرَ من تقديم الصدقةِ أو أخِفتُم التقديمَ لما يعدِكم الشيطانُ عليه من الفقرِ، وجمعُ صدقاتٍ لجمعِ المخاطبينَ أو لكثرةِ التناجي. ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ بأنْ رخَّص لكم أنْ لا تفعلوه، وفيه إشعارٌ بأنَّ إشفاقَهم ذنبٌ تجاوزَ الله عنه لما رأى منهم مما قامَ مقامَ تَوْبَتِهم. وإذ على بابِها، وقيل بمعنى إذا أو إنْ. ﴿فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ فلا تفرِّطوا في أدائِهما. ﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في سائر الأوامرِ، فإنَّ القيامَ بها كالجابرِ للتفريط في ذلك. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ ظاهراً وباطناً.

(١٤) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟﴾ والَوْا. ﴿قَوْمًا غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ يعني اليهودَ. ﴿مَّا هُم مِّنكُمْ وَلَا مِنْهُمْ﴾ لأنهم منافقون مذبذبون بين ذلك. ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ﴾ وهو ادعاءُ الإسلام. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنَّ المحلوفَ عليه كذبٌ كمنْ يحلفُ بالغموسِ، وفي هذا التقييدِ دليلٌ على أنَّ الكذبَ يعمُّ ما يعلمُ المخبرُ عدمَ مطابقتِه وما لا يعلَمُ. ورُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام كان في حجرةٍ من حجراتِه فقال: «يدخلُ عليكم الآنَ رجل قلبُه قلبُ جبارٍ وينظر بعينِ شيطانٍ، فدخل عبدالله بنُ نبتلٍ المنافقُ وكان أزرقَ، فقال عليه الصلاة والسلام له: علامَ تشتمُني أنتَ وأصحابك؛ فحلف بالله ما فعلَ ثم جاء بأصحابه فحلفوا، فنزلتْ[(١)].

(١٥) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ﴾ نوعاً من العذاب متفاقِماً. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ فتمرَّنوا على سوء العمل وأصرُّوا عليه.

(١٦) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَـٰنَهُمْ﴾ أي التي حلفوا بها، وقرىء بالكسرِ أي إيمانَهم الذي أظهروه. ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً دون دمائِهم وأموالهم. ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ فصدوا الناسَ في خلالِ أمْنِهم عن دين الله بالتحريشِ والتثبيطِ. ﴿فَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ وعيدٌ ثانٍ بوصفٍ آخرَ لعذابهم. وقيل الأولُ عذابُ القبر وهذا عذابُ الآخرة.

---

(١) أخرجه أحمد في المسند (١/ ٢٤٠) والبزار (٣/ ٧٤ ـ كشف) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/ ٢٣) والطبراني في الكبير (١٢/ ٧ رقم ١٢٣٠٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٢).
كلهم من طريق سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.
لكن ما عند أحمد والبزار وابن جرير، بعكس ما عند الطبراني والحاكم.
فعند أحمد والبزار وابن جرير، أن المنافق هو الذي قال للنبي ﷺ: يا محمد، علام تشتمني أنت وأصحابك وجعل يحلف. . .
وعند الطبراني والحاكم مثلما عند القاضي.
وكذلك عند الطبراني والحاكم اختلاف آخر مما عند غيرهما، وهو أن عندهما أن الله أنزل «يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم» [المجادلة: ١٨].

لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٨﴾ ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ ﴿٢٠﴾ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ قد سبق مثلُه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ﴾ أي لله تعالى على أنهم مسلمون. ﴿كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْۖ﴾ في الدنيا ويقولون إنَّهم لمنكم. ﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَىْءٍۚ﴾ في حَلِفِهم الكاذبِ لأنَّ تمكُّنَ النفاق في نفوسِهم بحيث يُخَيَّلُ إليهم في الآخرة أنَّ الأيمانَ الكاذبةَ تروِّجُ الكذبَ على الله كما تروِّجه عليكم في الدنيا. ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ البالغون الغايةَ في الكذبِ حيثُ يكذبون مع عالم الغيبِ والشهادةِ ويحلِفُون عليه.

(١٩) ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ استولى عليهم من حُذْتُ الإبلَ وأحذْتُها إذا استوليتَ عليها، وهو مما جاء على الأصل. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِۚ﴾ لا يذكُرونه بقلوبهم ولا بألسنَتِهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱلشَّيْطَٰنِۚ﴾ جنودُه وأتباعُه. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱلشَّيْطَٰنِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم فوَّتوا على أنفسِهم النعيمَ المؤبَّد وعرَّضوها للعذاب المخلَّدِ.

(٢٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحَآدُّونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْأَذَلِّينَ﴾ في جملة من هو أذلُّ خلْقِ الله[1].

(٢١) ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ﴾ في اللوح. ﴿لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓۚ﴾ أي بالحجةِ، وقرأ نافع وابن عامرٍ رُسُلِيَ بفتحِ الياء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ﴾ على نصرِ أنبيائه. ﴿عَزِيزٌ﴾ لا يغلِبُ عليه شيءٌ في مُرَادِه.

(٢٢) ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي لا ينبغي أنْ تجدَهم وادِّينَ أعداءَ اللهِ، والمراد أنه لا ينبغي أنْ يوادُّوهم. ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْۚ﴾ ولو كان المحادُّون أقربَ الناسِ إليهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾ أي الذين لم يوادُّوهم. ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أثبَتَهُ فيها، وهو دليلٌ على خروج العملِ من مفهوم الإيمان، فإنَّ جزءَ الثابتِ في القلبِ يكونُ ثابتاً فيه، وأعمالُ الجوارح لا تثبُتُ فيه. ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ أي من عندِ الله وهو نورُ القلب أو القرآنِ، أو بالنصرِ على العدوِّ. قيل الضميرُ للإيمان فإنه سببٌ لحياةِ القلبِ. ﴿وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ بطاعتِهم. ﴿وَرَضُوا۟ عَنْهُۚ﴾ بقضائه أو بما وعدَهم

(١) عبر عنهم بالموصول للتنبيه بما في حيز الصلة على أن موادة من حاد الله ورسوله محادة لهما، والإشعار بعلة الحكم (س٨/ ٢٢٣).

من الثواب. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ جندُه وأنصارُ دينه. ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بخيرِ الدَّارينِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ المجادلةِ كُتِبَ من حزبِ الله يومَ القيامة»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٦٦ رقم ١١٩).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الحشر
ترتيبها ٥٩ آياتها ٢٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ
مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ ۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟ ۖ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ
يَحْتَسِبُوا۟ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٢﴾

سورة الحشر مدنية(١) وآيها أربع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ روي(٢) أنه عليه الصلاة والسلام لما قدِمَ المدينةَ صالَحَ بني النضيرِ على أنْ لا يكونوا له ولا عليه، فلما ظهرَ يومُ بدرٍ قالوا: إنه النبيُّ المنعوت في التوراةِ بالنُّصرةِ، فلما هُزِمَ المسلمون يومَ أُحُدٍ ارتابوا ونكثُوا وخرجَ كعب بنُ الأشرف في أربعينَ راكباً إلى مكَّةَ وحالفوا أبا سفيان، فأمر رسولُ الله ﷺ أخا كعبٍ من الرضاعة فقتلَه غِيْلَةً، ثم صبَّحهم بالكتائبِ وحاصَرَهم حتى صالحوا على الجلاءِ فجلا أكثرُهم إلى الشامِ ولحقتْ طائفةٌ بخيبرَ والحيرةِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/٤٥٩): «هذه السورة مدنية باتفاق من أهل العلم» هـ.
وانظر «الدر المنثور» (٨/٨٨).

(٢) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٦٦ رقم ١٢٠): «لم أجد له إسناداً، بل ذكره الثعلبي هكذا بغير سند» هـ.
وذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤١٦) بدون سند.
قلت: قصة غزوة بني النضير وجلائهم مروية في كتب المغازي والسير بغير هذا السياق. انظر «فتح الباري» (٧/٣٢٩) وطبقات ابن سعد (٢/٥٧ ـ ٥٨) ودلائل النبوة للبيهقـي (٣/١٧٦ ـ ١٨٦) وغيرها من الكتب.
● وأما قتل كعب بن الأشرف فمخرج في صحيح البخاري (٧/٣٣٦ ـ ٣٣٧ رقم ٣٠٣٧) ومسلم (٣/١٤٢٥ ـ ١٤٢٦ رقم ١١٩/١٨٠١) من حديث جابر رضي الله عنه.

فأنزلَ الله تعالى ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1].

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ مِن دِيَـٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِ﴾ أي في أولِ حشرهم من جزيرةِ العربِ إذ لم يصبْهم هذا الذلُّ قبلَ ذلك أو في أولِ حشرِهم للقتال أو الجلاءِ إلى الشام، وآخِرُ حشرِهم إجلاءُ عمرَ رضي الله تعالى عنه إياهم من خيبرَ إليه، أو في أولِ حشرِ الناس إلى الشامِ وآخرُ حشرِهم أنَّهم يُحْشَرُوْنَ إليه عندَ قيامِ الساعةِ فيدركُهم هناك، أو أنَّ ناراً تخرجُ من المشرقِ فتحشُرهم إلى المغرب. والحشرُ إخراجُ جمعٍ من مكانٍ إلى آخرَ. ﴿مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا۟﴾ لشدةِ بأسِهم ومَنَعَتِهم. ﴿وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ أي أنَّ حصونَهم تمنعُهم من بأسِ الله. وتغييرُ النَّظْمِ وتقديمُ الخبرِ وإسنادُ الجملةِ إلى ضميرهم للدلالةِ على فَرْطِ وثُوقِهم بحصانتِها، واعتقادُهم في أنفسِهم أنهم في عِزَّةٍ ومَنَعَةٍ بسببِها، ويجوزُ أنْ تكونَ حصونُهم فاعلاً لمانعتُهم. ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ أي عذابُه وهو الرعبُ والاضطرارُ إلى الجلاءِ، وقيل الضميرُ للمؤمنينَ أي فأتاهم نصرُ الله، وقرىء فآتاهم اللهُ أي العذابَ أوِ النصرَ. ﴿مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا۟﴾ لقوةِ وثوقهم. ﴿وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ وأثبتَ فيها الخوفَ الذي يرعِبُها أي يملؤُها. ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ﴾ ضناً بها على المسلمين وإخراجاً لما استحسنوا من آلاتِها. ﴿وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ فإنَّهم أيضاً كانوا يخربون ظواهِرَها نكايةً وتوسيعاً لمجالِ القتالِ. وعَطَفَها على أيديهم من حيثُ إن تخريبَ المؤمنين مسبَّبٌ عن نقضِهم فكأنهم استعملُوهم فيه، والجملة حالٌ أو تفسيرٌ للرعبِ. وقرأ أبو عمرو يخرِّبون بالتشديدِ وهو أبلغُ لما فيه من التكثير. وقيل الإخرابُ التعطيلُ أو تركُ الشيءِ خراباً والتخريبُ الهدمُ. ﴿فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ فاتَّعظوا بحالِهم فلا تغدُروا ولا تعتمدُوا على غيرِ اللهِ، واسْتُدِلَّ به على أنَّ القياسَ حجةٌ من حيث إنه أمْرٌ بالمجاوزة من حالٍ إلى حال وحملُها عليها في حكْمٍ لما بينَهما من المشاركةِ المقتضية له على ما قررناه في الكتبِ الأصوليةِ.

وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ ﴿٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٤﴾ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيُخْزِىَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٥﴾

(٣) ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ الخروجَ من أوطانهم. ﴿لَعَذَّبَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتلِ والسبي كما فعلَ ببني قريظةَ. ﴿وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابُ ٱلنَّارِ﴾ استئنافٌ معناه أنهم إنْ نَجَوْا من عذابِ الدنيا لم ينجُوا من عذابِ الآخرة.

(٤) ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ الإشارةُ إلى ما ذكر مما حاقَ بهم وما كانوا بصددِه وما هو معدٌّ لهم أو إلى الأخيرِ.

(٥) ﴿مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ﴾ أيَّ شيءٍ قطعتُم من نخلةٍ فَعْلَةٍ من اللَّوْنِ ويُجْمَعُ على ألْوانٍ، وقيل من اللِّين ومعناها النخلةُ الكريمةُ وجمعُها ألْيانٌ. ﴿أَوْ تَرَكْتُمُوهَا﴾ الضميرُ لما، وتأنيثُه لأنه مفسَّرٌ باللينةِ.

(١) الحشر: «٦».

﴿قَآئِمَةً عَلَىٰٓ أُصُولِهَا﴾ وقرىء أُصُلِهَا اكتفاءً بالضمةِ عن الواوِ أو على أنه كَرُهُنٍ. ﴿فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ فبأمره. ﴿وَلِيُخۡزِيَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ علةٌ لمحذوفٍ أي وفعلتُم، أو وأَذِنَ لكم في القطعِ ليجزيهم على فسْقِهم بما غاظَهم منه. رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام لما أمر بقطعِ نخيلِهم قالوا: قد كنتَ يا محمد تنهى عن الفسادِ في الأرض فما بالُ قطعِ النخلِ وتحريقِها؟ فنزلتْ[١]. واستُدِلَّ به على جواز هدْمِ ديارِ الكفارِ وقطعِ أشجارِهم زيادةً لغيظِهم.

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡهُمۡ فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ﴿٧﴾

(٦) ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ وما أعاده عليه بمعنى صيَّره له أو ردَّه عليه، فإنه كان حقيقاً بأنْ يكونَ له لأنه تعالى خلق الناسَ لعبادته وخلقَ ما خلقَ لهم ليتوسَّلُوا به إلى طاعته فهو جديرٌ بأن يكونَ للمطيعين. ﴿مِنۡهُمۡ﴾ من بني النضير أو من الكفرةِ. ﴿فَمَآ أَوۡجَفۡتُمۡ عَلَيۡهِ﴾ فما أجريتُم على تحصيله من الوجيفِ وهو سرعةُ السيرِ. ﴿مِنۡ خَيۡلٖ وَلَا رِكَابٖ﴾ ما يُرْكَبُ من الإبلِ غلبَ فيه كما غلبَ الراكبُ على راكِبِه، وذلك إنْ كان المرادُ فيءِ بني النضير، فلأنَّ قراهم كانتْ على ميلينِ من المدينة فمشوا إليها رجالاً غيرَ رسولِ الله ﷺ فإنه ركبَ جملاً أو حماراً، ولم يجرِ مزيدُ قتال ولذلك لم يُعْطَ الأنصارُ منه شيئاً إلا ثلاثةً كانت بهم حاجةٌ. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُۚ﴾ بقذفِ الرعبِ في قلوبهم. ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ فيفعلُ ما يريد تارةً بالوسائطِ الظاهرةِ وتارةً بغيرها.

(٧) ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ بيانٌ للأول ولذلك لم يعطفْ عليه[٢]. ﴿فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ اختلف في قسْمِ الفيءِ، فقيل يُسَدَّسُ لظاهر الآيةِ ويُصْرَفُ سهمُ الله في عمارةِ الكعبةِ وسائرِ المساجدِ، وقيل يخمَّسُ لأن ذِكْرَ اللهِ للتعظيم ويُصْرَفُ الآنَ سهمُ الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الإمام على قولٍ وإلى العساكرِ والثغورِ على قولٍ وإلى مصالحِ المسلمين على قولٍ. وقيل يُخَمَّسُ خُمُسُهُ كالغنيمةِ فإنه عليه الصلاة والسلام كان يقسمُ الخمسَ كذلك ويصرفُ الأخماسَ الأربعةَ كما يشاءُ والآن على الخلافِ المذكورِ. ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ﴾ أي الفيءُ الذي حقُّه أنْ يكونَ للفقراءِ. وقرأ هشام في روايةٍ بالتاءِ. ﴿دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ الدُّولةُ ما يتداولهُ الأغنياءُ ويدورُ بينَهم كما

(١) أخرج البخاري (٨/ ٦٢٩ رقم ٤٨٨٤) ومسلم (٣/ ١٣٦٥ رقم ٢٩/ ١٧٤٦) عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ حرَّق نخل بني النضير وقطع، وهي البُوَيرة فأنزل الله تعالى «ما قطعتم من لينه أو تركتموها قائمة على أصولها...».

(٢) وَضَع «أهل القرىٰ» موضع قوله «منهم» ـ أي من بني النضير ـ للإشعار بأن هذا الحكم لا يختص ببني النضير وحدهم، بل هو حكم على كل قرية يفتحها رسول الله ﷺ صلحاً ولم يوجف عليها المسلمون بخيل ولا ركاب (فتح القدير ٥/ ١٩٧).

كان في الجاهلية، وقرىء دَوْلَةً بمعنى كيلا يكونَ الفيءُ ذا تداول بينَهم أو أخذُه غلبةً تكون بينَهم، وقرأ هشام دولةٌ بالرفع على كان التامةِ أي كيلا يقعَ دولةٌ جاهليةٌ. ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ﴾ وما أعطاكم من الفيءِ أو من الأمرِ. ﴿فَخُذُوهُ﴾ لأنه حلالٌ لكم، أو فتمسَّكوا به لأنه واجبُ الطاعة. ﴿وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ﴾ عن أخذِه منه، أو عن إتيانِه. ﴿فَٱنتَهُوا۟﴾ عنه. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ في مخالفةِ رسوله. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ لمن خالفه.

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

(٨) ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ بدلٌ من لذي القربى وما عُطِفَ عليه فإنَّ الرسولَ لا يسمَّى فقيراً. ومَنْ أعطَى أغنياءَ ذوي القربى خصَّصَ الإبدالَ بما بعدَه والفيءَ بفيءِ بني النضير. ﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ﴾ فإنَّ كفارَ مكَّةَ أخرجُوهم وأخذوا أموالَهم. ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ حالٌ مقيَّدة لإخراجِهم بما يوجبُ تفخيمَ شأنِهم. ﴿وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ بأنفسِهم وأموالهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ في إيمانهم.

(٩) ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ﴾ عطفٌ على المهاجرين، والمرادُ بهم الأنصارُ الذين ظهر صدقُهم فإنهم لزموا المدينةَ والإيمانَ وتمكَّنوا فيهما، وقيل المعنى تبوءوا دارَ الهجرةِ ودارَ الإيمانِ فحذفَ المضافَ من الثاني والمضافَ إليه من الأولِ وعوَّضَ عنه اللامَ، أو تبوءوا الدارَ وأخلصُوا الإيمانَ كقوله: عَلَفْتُهَا تِبْناً وَمَاءً بَارِداً[1]. وقيل سمَّى المدينةَ بالإيمان لأنها مظهرهُ ومصيرهُ. ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قبلِ هجرةِ المهاجرين. وقيل تقديرُ الكلام والذين تبوءوا الدارَ من قبلِهم والإيمان. ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ولا يثقلُ عليهم. ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ﴾ في أنفسِهم. ﴿حَاجَةً﴾ ما تحملُ عليه الحاجةُ كالطلبِ والحزازةِ والحسدِ والغيظِ. مما أُعطِيَ المهاجرون من الفيءِ وغيرِه. ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ ويقدِّمون المهاجرينَ على أنفسِهم حتى إن كان عندَه امرأتانِ نزلَ عن واحدةٍ وزوَّجها من أحدِهم. ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ حاجةٌ من خصاصِ البناءِ وهي فُرَجُه[2]. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ﴾ حتى

(١) أي علفتها تبناً وسقيتها ماء.

(٢) ورد في سبب نزول هذه الآية عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال إني مجهود، فأرسل إلى بعض نسائه، فقالت: والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، ثم أرسل إلى أخرى فقالت مثل ذلك، حتى قلن كلهن مثل ذلك: لا والذي بعثك بالحق ما عندي إلا ماء، فقال النبي ﷺ: «مَنْ يضيف هذا الليلة؟» فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله، فانطلق به إلى رَحْله، فقال لامرأته: أكرمي ضيف رسول الله ﷺ.
وفي رواية قال لامرأته: هل عندك شيء؟ فقالت: لا، إلا قوت صبياني، قال: علِّليهم بشيء وإذا أرادوا العشاء فنوّميهم، وإذا دخل ضيفنا فأطفئي السراج وأريه أنا نأكل، فقعدوا وأكل الضيف وباتا طاويين، فلما أصبح غدا =

يخالِفَها فيما يغلبُ عليها من حبِّ المالِ وبغضِ الإنفاقِ. ﴿فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الفائزون بالثناءِ العاجلِ والثواب الآجلِ.

وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي
قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ
الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾ لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا
يَفْقَهُونَ ﴿١٣﴾ لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ
تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾

(١٠) ﴿وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ هم الذين هاجروا حين قوي الإسلامُ، أو التابعونَ بإحسانٍ وهم المؤمنون بعد الفريقين إلى يوم القيامة ولذلك قيل: إنَّ الآيةَ قد استوعبتْ جميعَ المؤمنين. ﴿يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ أي لإخواننا في الدين. ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ حقداً لهم. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فحقيقٌ بأنْ تجيبَ دعاءَنا.

(١١) ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يريدُ الذين بينَهم وبينَهم أخوَّةُ الكفرِ أو الصداقةُ والموالاةُ. ﴿لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ﴾ من دياركم. ﴿لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ﴾ في قتالِكم أو خُذلانِكم. ﴿أَحَدًا أَبَدًا﴾ أي من رسولِ الله ﷺ والمؤمنين. ﴿وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ﴾ لنعاونَنَّكم. ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ لعلمِه بأنهم لا يفعلونَ ذلك كما قال:

(١٢) ﴿لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ﴾ وكان كذلك فإنَّ ابن أُبيٍّ وأصحابه راسلُوا بني النضير بذلك ثم أخلفُوهم، وفيه دليلٌ على صحةِ النبوةِ وإعجازِ القرآن. ﴿وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ﴾ على الفَرْضِ والتقدير. ﴿لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ﴾ انهزاماً. ﴿ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ﴾ بعدُ بل يَخْذُلُهم الله ولا ينفعُهم نصرةُ المنافقينَ، أو نفاقُهم إذ ضميرُ الفعلينِ يُحْتَمَلُ أنْ يكون لليهود وأنْ يكونَ للمنافقين.

(١٣) ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً﴾ أي أشدُّ مرهوبيةً مصدرٌ للفعلِ المبني للمفعولِ. ﴿فِي صُدُورِهِمْ﴾ فإنهم كانوا يضمِرون مخافَتَهُم من المؤمنين. ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ على ما يظهرونه نفاقاً فإنَّ استبطانَ رهْبَتِكم سببٌ لإظهارِ مرهبةِ الله. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ لا يعلمون عظمةَ الله حتى يخشوهُ حقَّ خشيتِه ويعلموا أنه الحقيقُ بأنْ يُخشَى.

(١٤) ﴿لَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ اليهودُ والمنافقون. ﴿جَمِيعًا﴾ مجتمعينَ متَّفِقِينَ. ﴿إِلَّا فِي قُرًى مُحَصَّنَةٍ﴾ بالدروب والخنادقِ. ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾ لفرطِ رهْبَتِهم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو جدارٍ، وأمالَ

على النبي ﷺ فقال: «لقد عجب الله من ضيفكما بضيفكما الليلة» أخرجه البخاري (٤٨٨٩) ومسلم (٢٠٥٤).

أبو عمرو فتحةَ الدالِ. ﴿بَأْسُهُم بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ﴾ أي وليس ذلك لضعفهم وجُبْنِهم فإنه يشتدُّ بأسُهم إذا حارب بعضُهم بعضاً، بل لِقَذْفِ اللهِ الرعبَ في قلوبهم ولأنَّ الشجاعَ يجبنُ والعزيز يذلُّ إذا حارب اللهَ ورسولَه. ﴿تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا﴾ مجتمعين متفقينَ. ﴿وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ﴾ متفرقةٌ لافتراقِ عقائدِهم واختلافِ مقاصدِهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ﴾ ما فيه صلاحُهم وإنْ تَشَتُّتَ القلوبِ يوهن قواهم.

كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥﴾ كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ
فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ
فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ
إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾
لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ ﴿٢٠﴾

(١٥) ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي مثلُ اليهود كمثلِ أهل بدرٍ، أو بني قينقاع إنْ صحَّ أنهم اخرجوا قبلَ النضير، أو المهلَكِينَ من الأمم الماضية. ﴿قَرِيبًا﴾ في زمان قريب. وانتصابُه بِمَثَلٍ إذ التقديرُ كوجودِ مثلٍ. ﴿ذَاقُوا۟ وَبَالَ أَمْرِهِمْ﴾ سوءَ عاقبة كفرِهم في الدنيا. ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

(١٦) ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ أي مثلُ المنافقينَ في إغراءِ اليهود على القتال كمثلِ الشيطان. ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ أغراهُ على الكفر إغراءَ الآمرِ المأمور. ﴿فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ تبرّأ منه مخافةَ أنْ يشاركَه في العذاب ولم ينفعْه ذلك كما قال:

(١٧) ﴿فَكَانَ عَٰقِبَتَهُمَآ أَنَّهُمَا فِى ٱلنَّارِ خَٰلِدَيْنِ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ والمرادُ من الإنسانِ الجنسُ. قيل أبو جهلٍ قال له إبليسُ يومَ بدرٍ ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾[1] الآيةَ، وقيل راهبٌ حمله على الفجورِ والارتدادِ. وقرىء عاقبتُهما وخالدانِ على أنه خبرُ إنَّ وفي النارِ لغوٌ.

(١٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ ليوم القيامة سمَّاه به لدنوِّه أو لأنَّ الدنيا كيومٍ والآخرةَ كغدِه، وتنكيرُه للتعظيم، وأما تنكيرُ النفسِ فلاستقلالِ الأنفسِ النواظرِ فيما قدَّمْنَ للآخرةِ كأنه قال: فلتنظرْ نفسٌ واحدةٌ في ذلك. ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ تكريرٌ للتأكيد، أو الأولُ في أداءِ الواجبات لأنه مقرونٌ بالعمل والثاني في تركِ المحارمِ لاقترانِه بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ وهو كالوعيد على المعاصي.

(١٩) ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ﴾ نَسُوا حقَّه. ﴿فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ فجعلَهم ناسِينَ لها حتى لم يسمعوا ما ينفعُها ولم يفعلوا ما يخلِّصُها، أو أراهم يومَ القيامةِ من الهولِ ما أنساهم أنفسَهم. ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ الكاملون في الفسوقِ.

(٢٠) ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾ الذين استكملوا نفوسَهم فاستأهلوا الجنةَ والذين استمْهَنُوها فاستحقُّوا النارَ، واحتجَّ به أصحابُنا على أنَّ المسلمَ لا يُقْتَلُ بالكافر. ﴿أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ

---

(١) الأنفال: «٤٨».

﴿ٱلْفَآئِزُونَ﴾ بالنعيم المقيم.

لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

(٢١) ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ تمثيلٌ وتخييلٌ كما مرَّ في قوله ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ﴾[1] ولذلك عقَّبه بقوله: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ الإشارةَ إليه وإلى أمثاله. والمرادُ توبيخُ الإنسان على عدمِ تخشُّعهِ عندَ تلاوةِ القرآن لقساوةِ قلبه وقلةِ تدبُّره، والتصدُّعُ التشققُ. وقرىء مصَّدِّعاً على الإدغام.

(٢٢) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ ما غابَ عن الحسِّ من الجواهرِ القدسية وأحوالِها، وما حضَر له من الأجرامِ وأعراضِها. وتقديمُ الغيب لتقدُّمه في الوجودِ وتعلُّق العلمِ القديمِ به، أو المعدومِ والموجودِ، أو السرِّ والعلانية. وقيل الدنيا والآخرة. ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

(٢٣) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ﴾ البالغُ في النزاهةِ عما يوجبُ نقصاناً. وقرىء بالفتح[2] وهو لغةٌ فيه. ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ ذو السلامة من كلِّ نقص وآفةٍ، مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغةِ. ﴿ٱلْمُؤْمِنُ﴾ واهبُ الأمنِ، وقرىء بالفتح[3] بمعنى المؤمَن به على حذفِ الجارِّ. ﴿ٱلْمُهَيْمِنُ﴾ الرقيبُ الحافظُ لكلِّ شيءٍ مفيعلٌ من الأمنِ قُلبَتْ همزته هاءً[4]. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ﴾ الذي جبَرَ خلْقَه على ما أراده، أو جَبَرَ حالَهم بمعنى أصلَحه. ﴿ٱلْمُتَكَبِّرُ﴾ الذي تكبَّر عن كلِّ ما يوجبُ حاجةً أو نقصاناً. ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ إذ لا يشركُه في شيء من ذلك.

(٢٤) ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ﴾ المقدِّرُ للأشياء على مقتضَى حكْمَتِه. ﴿ٱلْبَارِئُ﴾ الموجِدُ لها بريئاً من التفاوتِ. ﴿ٱلْمُصَوِّرُ﴾ الموجِدُ لصورِها وكيفياتها كما أراد. ومن أرادَ الإطنابَ في شرح هذه الأسماءِ وأخواتِها فعليه بكتابي المسمَّى بمنتهى المنَى. ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ لأنها دالةٌ على محاسنِ المعاني. ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ لتنزُّهه عن النقائصِ كلِّها. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ الجامعُ للكمالاتِ

---

(١) الأحزاب: «٧٢».

(٢) أي بفتح القاف من كلمة القدّوس.

(٣) أي بفتح الميم، أي «المؤمَن».

(٤) قال الشوكاني: يقال: هيمن يهيمن فهو مهيمن إذا كان رقيباً على الشيء.
قال الواحدي: وذهب كثير من المفسرين إلى أن أصله مؤيمن من آمن يؤمن، فيكون بمعنىٰ المؤمن. والأول أولىٰ (فتح القدير ٥/ ٢٠٨).

بأسْرِها فإنها راجعةٌ إلى الكمال في القدرة والعلم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الحشرِ غفرَ الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّرَ»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي من رواية يزيد بن أبان عن أنس بهذا ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٦٧ رقم ١٢٧) ويزيد بن أبان كذاب.
قلت: لم يخرجه الثعلبي في بداية السورة حسب عادته، وإنما أخرج عن ابن عباس مرفوعاً: «من قرأ سورة الحشر لم تبقَ جنة ولا نار ولا عرش ولا الكرسي ولا الحجاب ولا السمـوات السبع ولا الأرضون السبع والهوام والطير والشجر والدواب والجبال والشمس والقمر والملائكة إلاّ صلوا عليه، فإن مات من يومه أو ليلته مات شهيداً».
وهو من طريق محمد بن شجاع عن زيد العمي عن أبي نضرة عنه، وزيد العمي ضعيف.

سُورَةُ المُمْتَحَنَة

ترتيبها ٦٠ — آياتها ١٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١﴾

سورة الممتحنة مدنية[1] وآيها ثلاث عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ﴾ نزلتْ في حاطبِ بن أبي بلتعة، فإنه لما علمَ أنَّ رسولَ الله ﷺ يغزو أهلَ مكةَ كتبَ إليهم أنَّ رسولَ الله ﷺ يريدُكم فخذوا حِذْرَكم، وأرسلَ كتابَه مع سارةَ مولاةِ بني المطلبِ، فنزلَ جبريل عليه السلام فأَعْلَمَ رسولَ الله، فبعثَ رسولُ الله ﷺ علياً وعماراً وطلحةَ والزبيرَ والمقدادَ وأبا مرثدٍ وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضةَ خاخٍ فإنَّ بها ظعينةً معها كتابُ حاطبٍ إلى أهل مكةَ، فخذوه منها وخلُّوها فإنْ أبتْ فاضربوا عنقَها، فأدركُوها ثمَّةَ فجحدتْ فهمُّوا بالرجوع، فسلَّ عليٌّ رضي الله تعالى عنه السيفَ فأخرجتْه من عقاصِها، فاستحضَر رسولُ الله ﷺ حاطباً وقال: ما حملكَ عليه؟ فقال: يا رسولَ الله ما كفرتُ منذ أسلمتُ ولا غششْتك منذ نصحتُك ولكني كنتُ امرأً ملْصَقاً في قريش وليس لي فيهم مَنْ يحمي أهلي، فأردتُ أنْ آخذَ عندَهم يداً وقد علمتُ أنَّ كتابي لا يغني عنهم شيئاً، فصدَّقه رسولُ الله ﷺ وعذَره[2] ﴿تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ تُفْضُونَ إليهم المودةَ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٤٨٢): «وهي مدنية بإجماع المفسرين. وانظر «الدر المنثور» (٨/ ١٢٤). «وزاد المسير» (٨/ ٢٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٨/ ٦٣٣ ـ ٦٣٤ رقم ٤٨٩٠) من حديث علي.

بالمكاتبة، والباءُ مزيدةٌ أو إخبارَ رسولِ الله ﷺ بسبب المودةِ، والجملةُ حالٌ من فاعلِ لا تتخذوا أو صفةٌ لأولياء جرتْ على غير مَنْ هي له، ولا حاجةَ فيها إلى إبراز الضمير لأنه مشروطٌ في الاسم دون الفعل. ﴿وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ﴾ حالٌ من فاعلِ أحدِ الفعلين. ﴿يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ﴾ أي من مكّة وهو حالٌ من كفروا أو استئنافٌ لبيانه. ﴿أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ﴾ بأن تؤمنوا به، وفيه تغليبُ المخاطبِ، والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغيبةِ للدلالة على ما يوجبُ الإيمان. ﴿إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ﴾ عن أوطانكم. ﴿جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي﴾ علةٌ للخروج وعمدةٌ للتعليقِ وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دلَّ عليه لا تتخذوا. ﴿تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ﴾ بدلٌ من تلقونَ أو استئنافٌ معناهُ: أيُّ طائلٍ لكم في إسرار المودةِ أو الإخبارِ بسبب المودة. ﴿وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ﴾ أي منكم. وقيل أعلمُ مضارعٌ والباءُ مزيدة وما موصولةٌ أو مصدرية. ﴿وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ﴾ أي من يفعلِ الاتخاذَ. ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ أخطأهُ.

إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَن تَنفَعَكُمْ
أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي
إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ
الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن
شَيْءٍ رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾

(٢) ﴿إِن يَثْقَفُوكُمْ﴾ يظفروا بكم. ﴿يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً﴾ ولا ينفعُكم إلقاءُ المودّةِ إليهم. ﴿وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِالسُّوءِ﴾ ما يسوؤُكم كالقتل والشَّتم. ﴿وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾ وتمنَّوا ارتدادَكم. ومجيءُ وَدُّوا وحدَه بلفظ الماضي للإشعار بأنهم ودُّوا ذلك قبلَ كلِّ شيء، وأنَّ ودادَتَهم حاصلةٌ وإن لم يثقفُوكم.

(٣) ﴿لَن تَنفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ﴾ قَراباتُكم. ﴿وَلَا أَوْلَادُكُمْ﴾ الذين تُوَالُونَ المشركين لأجلِهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ﴾ يُفرِّقُ بينكم بما عَرَاكُم من الهولِ فيفرُّ بعضُكم من بعضٍ فما لكم ترفضُون اليومَ حقَّ الله لمن يفرُّ منكم غداً، وقرأ حمزة والكسائيُّ بكسر الصادِ والتشديدِ وفتح الفاء، وقرأ ابن عامر يُفْصَلُ على البناءِ للمفعول وهو بينَكم، وقرأ عاصمٌ يَفْصِلُ. ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيجازيكم عليه.

(٤) ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوةٌ. اسمٌ لما يُؤْتَسَى به. ﴿فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ صفةٌ ثانية أو خبرُ كانَ ولكم لغوٌ أو حالٌ من المستكِنِّ في حسنةٌ أو صلةٌ لها لا لأسوةٌ لأنها وُصِفَتْ. ﴿إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ﴾ ظرفٌ لخبرِ كانَ. ﴿إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ﴾ جمعُ بريء كظريفٍ وظُرَفَاءَ. ﴿وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ﴾ أي بدينكم أو بمعبودِكم، أو بكم وبه فلا نعتدُّ بشأنكم وآلهتِكم. ﴿وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ فتنقلبُ العداوةُ والبغضاء ألْفَةً ومحبَّةً. ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ استثناءٌ من قوله أسوةٌ حسنة فإنَّ استغفارَه لأبيه الكافرِ ليس مما ينبغي أنْ يأتَسُوا به، فإن كان قبلَ النهي أو لموعدةٍ وعدَها إياهُ. ﴿وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ من تمام قوله المستثْنى، ولا يلزمُ من استثناء المجموعِ استثناءُ جميعِ أجزائه. ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ متصلٌ بما قبلَ الاستثناءِ أو أمرٌ

من الله للمؤمنين بأنْ يقولوه تَتْمِيماً لما وصّاهم به من قطعِ العلائقِ بينَهم وبينَ الكفار[١].

رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦﴾ ۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَاللَّهُ قَدِيرٌ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧﴾ لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩﴾

(٥) ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بأنْ تسلِّطَهم علينا فيفتنونا بعذابٍ لا نتحمَّلُه. ﴿وَاغْفِرْ لَنَا﴾ ما فَرَطَ منَّا. ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ ومن كان كذلك كان حقيقاً بأنْ يجيرَ المتوكِّلَ ويجيبَ الداعيَ[٢].

(٦) ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِيهِمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ تكريرٌ لمزيد الحثِّ على التأسِّي بإبراهيمَ ولذلك صُدِّرَ بالقسمِ وأُبْدِلَ قولُه: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ من لكم فإنه يدلُّ على أنه لا ينبغي لمؤمنٍ أن يتركَ التأسيَ بهم، وإن تركه مُؤْذِنٌ بسوءِ العقيدة ولذلك عقَّبه بقوله. ﴿وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ فإنه جديرٌ بأن يُوْعَدَ به الكَفَرةُ.

(٧) ﴿۞ عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً﴾ لما نزلَ ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾[٣] عادى المؤمنونَ أقارِبَهم المشركين وتبرَّؤوا عنهم، فوعدَهم الله بذلك وأنجزَ إذ أسلمَ أكثرُهم وصاروا لهم أولياءَ. ﴿وَاللَّهُ قَدِيرٌ﴾ على ذلك ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ لما فَرَطَ منكم في موالاتِهم من قبلُ ولما بقيَ في قلوبكم من ميلِ الرحمِ.

(٨) ﴿لَّا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾ أي لا ينهاكم عن مبرة هؤلاء لأن قوله: ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بدل من الذين. ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ وتفضوا إليهم بالقسط أي العدل. ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ العادلين. روي أن قتيلة بنت عبدالعزى قدمت مشركة على بنتها أسماء بنت أبي بكر بهدايا، فلم تقبلها ولم تأذن لها بالدخول، فنزلت[٤].

(٩) ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ﴾ كمشركي مكة فإن بعضهم سعوا في إخراج المؤمنين وبعضهم أعانوا المخرجين. ﴿أَن تَوَلَّوْهُمْ﴾ بدل من الذين بدل

---

(١) قدم الجار والمجرور «عليك» لقصر التوكل والإنابة والمصير إلى الله عز وجل (س٨/ ٢٣٧).

(٢) وتكرير النداء «ربنا» للمبالغة في التضرع والجؤار (س٨/ ٢٣٨).

(٣) الممتحنة: «١».

(٤) أخرجه أبو داود الطيالسي (٢/ ٢٤ ـ منحة المعبود) والحاكم في المستدرك (٢/ ٤٨٥) وابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ج٢٨/ ٦٦) والطبراني كما في «المجمع» (٧/ ١٢٣) كلهم من طريق مصعب بن ثابت بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن جده عبدالله بن الزبير. وقال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
وقال الهيثمي: فيه مصعب بن ثابت، وثقه ابن حبان، وضعفه جماعة وبقية رجاله رجال الصحيح. وقال الحافظ في «التقريب» (٢/ ٢٥١) عن مصعب هذا بأنه لين الحديث.

الاشتمال. ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ لوضعهم الولاية في غير موضعها.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ ۖ اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ ۖ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ ۖ لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا ۚ ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنْتُمْ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ فاختبروهنَّ بما يغلبُ على ظنِّكم موافقةُ قلوبهم لسانَهم في الإيمان. ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ﴾ فإنه المطلعُ على ما في قلوبهم. ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾ العلمُ الذي يمكنكُم تحصيلُه وهو الظنُّ الغالبُ بالحلِفِ وظهورِ الأماراتِ، وإنما سمَّاه عِلماً إيذاناً بأنه كالعلمِ في وجوب العملِ به. ﴿فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ﴾ أي إلى أزواجهنَّ الكفرةِ لقوله: ﴿لَا هُنَّ حِلٌّ لَهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ والتكرير للمطابقةِ والمبالغةِ، أو الأُولَى لحصولِ الفُرْقَةِ والثانية للمنعِ عن الاستئنافِ. ﴿وَآتُوهُمْ مَا أَنْفَقُوا﴾ ما دفعُوا إليهنَّ من المهورِ، وذلك لأنَّ صلحَ الحديبية جرى على أن مَنْ جاءنا منكم رددْناه فلما تعذَّر عليه ردُّهنَّ لورودِ النهي عنه لزمه رد مهورِهنَّ، إذ روي أنه عليه الصلاة والسلام كان بعدَ الحديبية إذ جاءته سبيعةُ بنتُ الحارث الأسلميةُ مسلمةً فأقبل زوجُها مسافرٌ المخزوميُّ طالباً لها، فنزلتْ، فاستحلَفَها رسولُ الله ﷺ، فحلفتْ، فأُعطِيَ زوجُها ما أنفقَ وتزوَّجها عمرُ رضي الله تعالى عنه[١]. ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ فإنَّ الإسلامَ حالَ بينهنَّ وبين أزواجِهنَّ الكفارِ. ﴿إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ شَرَطَ إيتاءَ المهرِ في نكاحهنَّ إيذاناً بأنَّ ما أُعطِيَ أزواجُهُنَّ لا يقومُ مقامَ المهر. ﴿وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ﴾ بما يعتصِمُ به الكافراتُ من عقدٍ وسببٍ جمعُ عصمةٍ، والمراد نهي المؤمنين عن المقامِ على نكاحِ المشركات. وقرأ البصريانِ ولا تمسِّكوا بالتشديدِ. ﴿وَاسْأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ من مهورِ نسائِكم اللاحقاتِ بالكفار. ﴿وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهورِ أزواجِهم المهاجراتِ. ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ﴾ يعني جميعَ ما ذكر في الآية. ﴿يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ﴾ استئنافٌ أو حال من الحكمِ على حذفِ الضمير، أو جعلُ الحكمِ حاكماً على المبالغةِ. ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يشرعِ ما تقتضيه حِكْمَتُهُ.

(١١) ﴿وَإِنْ فَاتَكُمْ﴾ وإنْ سبقَكُم وانفلتَ منكم. ﴿شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ﴾ أحدٌ من أزواجكم، وقد قرىء به، وإيقاعُ شيء موقِعَه للتحقيرِ والمبالغةِ في التعميم، أو شيءٌ من مهورهنَّ. ﴿إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاقَبْتُمْ﴾ فجاءت عقبتُكم أي نوبتُكم من أداءِ المهرِ، شبَّه الحكمَ بأداء هؤلاءِ مهورَ نساءِ أولئك تارةً وأداءِ أولئك مهورَ نساءِ هؤلاءِ أخرى بأمرٍ يتعاقبون فيه كما يتعاقبُ في الركوبِ وغيره. ﴿فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنْفَقُوا﴾ من مهرِ المهاجِرةِ ولا تؤتوه زوجَها الكافرَ. روي أنه لما نزلتِ الآيةُ المتقدمةُ أَبى المُشركون أنْ يؤدُّوا مهرَ الكوافرِ، ....

(١) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٢٤.

فنزلتْ[١]. وقيل معناه إنْ فاتَكُم فأصبتُم من الكفار عُقْبَى وهي الغنيمةُ فآتوا بدلَ الفائتِ من الغنيمة. ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ فإنَّ الإيمانَ به يقتضي التقوى منه.

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ ۙ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

(١٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا﴾ نزلت يومَ الفتح فإنه عليه الصلاة والسلام لما فرغَ من بيعةِ الرجالِ أخذ في بيعة النساءِ. ﴿وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ﴾ يريدُ وأْدَ البنات. ﴿وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ﴾ في حسنةٍ تأمرهنَّ بها، والتقييدُ بالمعروف ـ مع أنَّ الرسولَ ﷺ لا يأمرُ إلا به ـ تنبيهٌ على أنه لا يجوزُ طاعةُ مخلوق في معصيةِ الخالق[٢]. ﴿فَبَايِعْهُنَّ﴾ إذا بايعْنَكَ بضمانِ الثوابِ على الوفاء بهذه الأشياءِ[٣]. ﴿وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

(١٣) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني عامةَ الكفارِ أو اليهودَ. إذ روي أنها نزلتْ في بعض فقراءِ المسلمين كانوا يواصلونَ اليهودَ ليصيبوا من ثمارِهم[٤] ﴿قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ﴾ لكفرِهم بها أو لعِلْمِهم بأنهم لا حظَّ لهم فيها لعنادِهم الرسولَ المنعوتَ في التوراةِ المؤيَّدَ بالآياتِ. ﴿كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ أنْ يُبْعَثُوا أو يُثَابُوا أو ينالُهم خيرٌ منهم، وعلى الأولِ وضَعَ الظاهرَ فيه موضعَ المضمَرِ للدلالة على أنَّ الكفرَ آيَسَهُم. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورة الممتحنةِ كان له المؤمنونَ والمؤمناتُ شفعاءَ يومَ القيامةِ»[٥].

☆ ☆ ☆

---

(١) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٩٩) بدون راوٍ ولا سند.

(٢) وتخصيص الأمور المعدودة بالذكر في حقهنّ لكثرة وقوعها منهنّ (س٨/ ٢٤١).

(٣) وتقييد مبايعتهنّ بما ذكر من مجيئهنّ لحثهنّ على المسارعة إليها مع كمال الرغبة فيها من غير دعوة لهنّ إليها (س٨/ ٢٤١).

(٤) انظر «البحر المحيط» (٨/ ٢٥٩).

(٥) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٦٩ رقم ١٤٢).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الصَّفِّ

آياتها ١٤ — ترتيبها ٦١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا
تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي
سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴿٤﴾

سورة الصف مدنية، وقيل مكية[١] وآيها أربع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سبق تفسيرُهُ.

(٢) ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ رُوِيَ أنَّ المسلمينَ قالوا: لو علِمْنا أحبَّ الأعمال إلى الله تعالى لبذلنا فيه أموالنا وأنفسَنا فأنزلَ الله ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾[٢] فولَّوْا يومَ أُحُدٍ، فنزلت[٣]. وَلِمَ مركَّبةٌ من لامِ الجرِّ وما الاستفهاميةِ، والأكثرُ على حذفِ ألفها مع حرفِ

(١) وهي مدنية في قول الجمهور. وقال مكي عن ابن عباس والمهدوي عن عطاء ومجاهد أنها مكية. والأول أصح لأن معاني السورة تعضده ويشبه أن يكون فيها المكي والمدني.
قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٥/ ٥٠٢).

(٢) الصف: «٤».

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٢٧. بدون سند.
وأخرج ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ ج٢٨/ ٨٣ ـ ٨٤) عن ابن عباس قال: كان ناس من المؤمنين قبل أن يفرض الجهاد يقولون: لوددنا أن الله دلنا على أحب الأعمال إليه فنعمل به، فأخبر الله أن أحب الأعمال إليه إيمان بالله، لا شك فيه، وجهاد أهل معصية الذين خالفوا الإيمان، ولم يقروا به فلما نزل الجهاد كره ذلك أناس من المؤمنين، وشق عليهم أمره فقال الله «يا أيها الذين آمنوا لما تقولون ما لا تفعلون» وسنده صحيح. =

الجرِّ لكثرة استعمالِها معاً واعتناقِهما في الدلالة على المستفهَم عنه.

(٣) ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ المقتُ أشدُّ البغض. ونصبُه على التمييزِ للدلالةِ على أنَّ قولَهم هذا مقتٌ خالص كَبُرَ عند مَنْ يحقِّر دونَه كلُّ عظيم مبالغةً في المنع عنه.

(٤) ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا﴾ مصطفِّينَ، مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ﴾ في تراصِّهم من غير فُرْجَةٍ، حالٌ من المستكِنِّ في الحال الأولى. والرصُّ اتصال بعض البناء بالبعضِ واستحكامه.

وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾

(٥) ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ﴾ مقدراً باذكُر أو كان كذا. ﴿يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى﴾ بالعصيان والرمي بالأُدْرَة[1]. ﴿وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ﴾ بما جئتكم من المعجزاتِ، والجملة حال مقرِّرةٌ للإنكار، فإنَّ العلمَ بنبوَّته يوجبُ تعظيمَهُ ويمنع إيذاءَه، وقد لتحقيق العلم. ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟﴾ عن الحقِّ. ﴿أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ صرفَها عن قبولِ الحق والميلِ إلى الصواب. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ هدايةً موصلةً إلى معرفة الحق أو إلى الجنة.

(٦) ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ ولعلَّه لم يقلْ يا قوم كما قال موسى عليه الصلاة والسلام لأنه لا نسبَ له فيهم. ﴿إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا﴾ في حال تصديقي لما تقدَّمني من التوراةِ وتبشيري برسولٍ يأتي من بعدي. والعاملُ في الحالين ما في الرسول من معنى الإرسالِ لا الجارُّ لأنه لغوٌ إذ هو صلة للرسولِ فلا يعملُ. ﴿بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ يعني محمداً عليه الصلاة والسلام، والمعنى أن ديني التصديقُ بكتبِ الله وأنبيائه، فذكر أولَ الكتبِ المشهورةِ الذي حكم به النبيونَ، والنبيُّ الذي هو خاتمُ المرسلين. ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ الإشارةُ إلى ما جاء به أو إليه، وتسميتُه سحراً للمبالغة، ويؤيده قراءةُ حمزةَ والكسائيِّ هذا ساحر على أنَّ الإشارة إلى عيسى عليه الصلاة والسلام.

= وأخرج ابن جرير نحوه عن أبي صالح ومجاهد (١٤/ج٢٨/ ٨٤) ونقل عن بعض المفسرين أنهم قالوا: إنها نزلت في توبيخ قوم من المسلمين، كان أحدهم يفتخر بالفعل من أفعال الخير التي لم يفعلها فيقول: فعلت كذا وكذا، فعذلهم الله على افتخارهم بما لم يفعلوا كذباً.
وهذا أخرجه ابن جرير عن قتادة والضحاك (١٤/ج٢٨/ ٨٤ ـ ٨٥) ثم قال: وقال آخرون: بل هذا توبيخ من الله لقوم من المنافقين كانوا يَعِدون المؤمنين النصر وهم كاذبون.
وهذا أخرجه ابن جرير عن ابن زيد (١٤/ج٢٨/ ٨٥) ورجح القول الأول بدليل خطابه تعالى «يا أيها الذين آمنوا».
وانظر «الدر المنثور» (٨/ ١٤٦ ـ ١٤٧). «وزاد المسير» (٨/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠).
و«الجامع لأحكام القرآن» (١٨/ ٧٧ ـ ٧٨). وأسباب النزول للواحدي (ص٤٢٦).

(١) الأُدْرة انتفاخ الخصية (المصباح المنير، مادة أدر).

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ
بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ
وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى
سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا ۖ نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

(٧) ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي لا أحدَ أظلمُ ممن يُدْعَى إلى الإسلام الظاهر حقيَّتُهُ المقتضي له خيرُ الدارين فيضعُ موضعَ إجابته الافتراءَ على اللهِ بتكذيب رسوله وتسميةِ آيته سحراً فإنه يعمُّ إثباتَ المنفي ونفيِ الثابتِ. وقرىء يَدَّعِي يقالُ دعاه وادَّعاه كلمسَه والتَمسه. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ لا يرشدُهم إلى ما فيه فلاحُهم.

(٨) ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ أي يريدون أنْ يطفِئُوا، واللام مزيدةٌ لما فيها من معنى الإرادة تأكيداً لها كما زِيدَتْ لما فيها من معنى الإضافة تأكيداً لها في لا أبا لك، أو يريدون الافتراءَ ليطفئوا. ﴿نُورَ ٱللَّهِ﴾ يعني دينَه أو كتابَه أو حجَّته. ﴿بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ بطعْنِهم فيه. ﴿وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ﴾ مُبْلِغُ غايتهِ بنشرهِ وإعلائه، وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالإضافة. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ إرغاماً لهم.

(٩) ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ﴾ بالقرآن أو المعجزةِ. ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ والملَّةِ الحنيفية. ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ليغلبه على جميعِ الأديان. ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾ لما فيه من محضِ التوحيد وإبطال الشرك.

(١٠) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وقرأ ابن عامر تنجِّيكم بالتشديد.

(١١) ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ استئنافٌ مبين للتجارة وهو الجمعُ بين الإيمان والجهادِ المؤدِّي إلى كمال عزِّهم، والمرادُ به الأمرُ وإنما جيء بلفظ الخبرِ إيذاناً بأنَّ ذلك مما لا يترك. ﴿ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ يعني ما ذُكِرَ من الإيمان والجهاد. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ إن كنتم من أهل العلم إذ الجاهلُ لا يُعْتَدُّ بفعلِه.

(١٢) ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ جوابٌ للأمرِ المدلولِ عليه بلفظ الخبر، أو لشرطٍ أو استفهام دلَّ عليه الكلامُ تقديره أنْ تؤمنوا وتجاهدوا، أو هل تقبلُون أنْ أدلَّكم يغفرْ لكم، ويبعدُ جعلُه جواباً لهلْ أدلُّكم لأنَّ مجردَ دلالته لا توجبُ المغفرةَ. ﴿وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى ما ذُكِرَ مِنَ المغفرة وإدخالِ الجنة.

(١٣) ﴿وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا﴾ ولكم إلى هذه النعمةِ المذكورة نعمةٌ أخرى عاجلة محبوبةٌ، وفي تحبُّونها تعريضٌ بأنهم يؤثرون العاجلَ على الآجلِ. وقيل أخرى منصوبةٌ بإضمارِ يعطيكم، أو تحبونَ أو مبتدأٌ خبرهُ: ﴿نَصْرٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهو على الأول بدلٌ أو بيانٌ، وعلى قولِ النصبِ خبرٌ محذوفٌ، وقد قرىء بما عُطِفَ عليه بالنصبِ على البدلِ أو الاختصاصِ أو المصدرِ. ﴿وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ عاجلٌ. ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ مثل: قل يا أيها الذين آمنوا وبشِّرْ، أو على تؤمنون فإنه في معنى الأمرِ كأنه قال:

آمنوا وجاهِدوا أيُّها المؤمنون وبشِّرهم يا رسولَ الله بما وعدْتَهم عليهما آجلاً وعاجلاً.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

(١٤) ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ﴾ وقرأ الحجازيانِ وأبو عمرو بالتنوينِ واللام لأنَّ المعنى كونوا بعضَ أنصارِ الله. ﴿ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ أي مَنْ جنديٌّ موجَّهاً إلى نصرةِ الله ليطابقَ قولَه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ والإضافةُ الأولى إضافةُ أحدِ المتشاركين إلى الآخرِ لما بينَهما من الاختصاصِ، والثانية إضافةُ الفاعلِ إلى المفعول، والتشبيهُ باعتبار المعنى إذ المرادُ قل لهم كما قال عيسى بنُ مريم، أو كونوا أنصاراً كما قال الحواريونَ حين قال لهم عيسى مَنْ أنصاري إلى الله. والحواريون أصفياؤُه، وهم أولُ مَنْ آمن به، وكانوا اثني عشر رجلاً، من الحَوَر وهو البياضُ. ﴿ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ﴾ أي بعيسى. ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ ﴾ بالحجَّةِ وبالحربِ وذلك بعدَ رفْعِ عيسى. ﴿ فَأَصْبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ فصاروا غالبين. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الصفِّ كان عيسى مصلياً عليه مستغفِراً له ما دامَ في الدنيا وهو يومَ القيامة رفيقُهُ»[(١)].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٦٩ رقم ١٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الجُمُعَةِ

ترتيبها ٦٢ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٢﴾ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾

سورة الجمعة مدنية[1] وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقد قُرِىءَ الصفاتُ الأربعُ بالرفعِ على المدحِ.

(٢) ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ﴾ أي في العربِ لأنَّ أكثَرهم لا يكتبون ولا يقرؤون. ﴿رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ من جملتهم أمياً مثلَهم. ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ من كونه أمياً مثلهم لم يُعْهَدْ منه قراءة ولا تعلُّم. ﴿وَيُزَكِّيهِمْ﴾ من خبائثِ العقائدِ والأعمالِ. ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ القرآنَ والشريعةَ، أو معالمَ الدين من المنقول والمعقول، ولو لم يكن له سِواهُ معجزةً لكفاهُ. ﴿وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ من الشركِ وخَبَثِ الجاهلية، وهو بيانٌ لشدةِ احتياجهم إلى نبيٍّ يرشدُهم، وإزاحةٌ لما يُتَوَهَّم أنَّ الرسول تعلَّم ذلك من معلِّم. وإنْ هي المخففةُ، واللامُ تدلُّ عليها.

(٣) ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ﴾ عطفٌ على الأميينَ، أو المنصوبِ في يعلِّمُهم وهم الذين جاؤوا بعدَ الصحابة

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٧): «وهي مدنية. وذكر النقاش قولاً إنها مكية، وذلك خطأ ممن قاله، لأن أمر اليهود لم يكن إلا بالمدنية، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكة، أعني إقامتها وصلاتها، وأما أمر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدنية...» هـ.

إلى يوم الدين، فإنَّ دعوتَه وتعليمَه يعمُّ الجميعَ. ﴿لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْۚ﴾ لم يلحقوا بهم بعدُ وسيلحقون. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في تمكينه من هذا الأمرِ الخارقِ للعادة. ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في اختياره وتعليمِه.

ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾ مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ
ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾ قُلْ
يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦﴾ وَلَا
يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ
مُلَٰقِيكُمْۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا
نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾

(٤) ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ﴾ ذلك الفضلُ الذي امتازَ به عن أقرانه فضلُه. ﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُۚ﴾ تفضلاً وعطيةً. ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ الذي يستحقر دونه نعيمُ الدنيا، أو نعيمُ الآخرة أو نعيمُهما.

(٥) ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ﴾ عُلِّموها وكُلِّفوا العملَ بها. ﴿ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا﴾ لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها. ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًاۢ﴾ كتباً من العلم يَتْعَبُ في حَمْلِها ولا ينتفعُ بها. ويَحْمِلُ حالٌ والعاملُ فيه معنى المَثَلِ، أو صفةٌ إذ ليس المرادُ من الحمارِ معيَّناً. ﴿بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ﴾ أي مَثَلُ الذين كذَّبوا وهم اليهودُ المكذِّبون بآيات الله الدالةِ على نبوةِ محمدٍ عليه الصلاة والسلام، ويجوزُ أنْ يكونَ الذين صفةٌ للقوم والمخصوصُ بالذم محذوفاً. ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

(٦) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ﴾ تهوَّدوا. ﴿إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ﴾ إذ كانوا يقولون نحنُ أبناءُ الله وأحباؤُه. ﴿فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ﴾ فتمنوا من الله أنْ يميتَكم وينقلَكم من دارِ البليةِ إلى محلِّ الكرامة. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في زعمِكم.

(٧) ﴿وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْۚ﴾ بسببِ ما قدَّموا من الكفر والمعاصي. ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ فيجازيهم على أعمالهم.

(٨) ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ﴾ وتخافون أنْ تتمنَّوه بلسانِكم مخافةَ أنْ يصيبَكم فتؤخذوا بأعمالِكم. ﴿فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْۖ﴾ لاحقٌ بكم لا تفوتونه، والفاءُ لتضمُّنِ الاسمِ معنى الشرطِ باعتبارِ الوصفِ، وكأن فرارَهم يسرعُ لحوقَه بهم. وقد قرىء بغير فاء، ويجوز أنْ يكونَ الموصولُ خبراً والفاءُ عاطفة. ﴿ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بأنْ يجازيَكم عليه.

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ﴾ أي إذا أُذِّنَ لها. ﴿مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ بيانٌ لإذا. وإنما سمِّي جمعةً الاجتماعِ الناس فيه للصلاةِ، وكان العربُ تسمِّيه العروبةَ. وقيل سمَّاه كعبُ بنُ لؤي لاجتماعِ الناسِ فيه إليه، وأول جمعةٍ جمعَها رسولُ الله ﷺ أنه لما قدِمَ المدينةَ نزل قباءَ فأقامَ بها إلى الجمعة، ثم دخلَ المدينةَ وصلى الجمعةَ في وادٍ لبني سالم بنِ

عوف[١]. ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ فامضُوا إليه مسرعينَ قصْداً فإن السعيَ دونَ العَدْوِ. والذِّكْرُ الخطبةُ، وقيل الصلاةُ. والأمرُ بالسعي إليها يدلُّ على وجوبِها. ﴿وَذَرُواْ ٱلْبَيْعَ﴾ واتركوا المعاملةَ. ﴿ذَٰلِكُمْ﴾ أي السعيُ إلى ذكرِ الله. ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ من المعاملةِ فإنَّ نفعَ الآخرةِ خيرٌ وأبقى. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الخيرَ والشرَّ الحقيقيينِ، أو إن كنتم من أهل العلمِ.

فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا ۚ قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ ۚ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١﴾

(١٠) ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ﴾ أُدِّيَتْ وفُرِغَ منها. ﴿فَٱنتَشِرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُواْ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ إطلاقٌ لما حُظِرَ عليهم، واحتجَّ به مَنْ جعلَ الأمرَ بعدَ الحظْرِ للإباحة. وفي الحديث «ابتغوا من فضلِ الله ليس بطلبِ الدنيا وإنما هو عيادةُ مريض وحضورُ جنازة وزيارةُ أخٍ في الله»[٢]. ﴿وَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ واذكروه في مجامعِ أحوالِكم ولا تخصُّوا ذِكْرَهُ بالصلاة. ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ بخير الدارين.

(١١) ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾ رُوِيَ أنه عليه الصلاةُ والسلام كان يخطبُ للجمعة فمرَّتْ عليه عيرٌ تحملُ الطعامَ، فخرجَ الناسُ إليهم إلا اثني عشر رجلاً، فنزلتْ[٣]. وإفرادُ التجارة بردِّ الكناية لأنها المقصودةُ؛ فإنَّ المرادَ من اللهوِ الطَّبْلُ الذي كانوا يستقبلون به العيرَ والترديدُ للدلالة على أنَّ منهم منِ انفضَّ لمجرَّدِ سماعِ الطبلِ ورؤيته، أو للدلالةِ على أنَّ الانفضاضَ إلى التجارة مع الحاجةِ إليها والانتفاعِ بها إذا كان مذموماً كان الانفضاضُ إلى اللهو أولى بذلك، وقيل تقديرُهُ إذا رأوا تجارةً انفضوا إليها وإذا رأوا لهواً انفضوا إليه. ﴿وَتَرَكُوكَ قَآئِمًا﴾ أي على المنبرِ. ﴿قُلْ مَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ من الثواب. ﴿خَيْرٌ مِّنَ ٱللَّهْوِ وَمِنَ ٱلتِّجَٰرَةِ﴾ فإنَّ ذلك محقَّقٌ مخلَّدٌ بخلافِ ما تتوهَّمون من نفعِهما ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ فتوكَّلوا عليه واطلبوا الرزقَ منه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الجمعةِ أُعْطِيَ من الأجرِ عشرَ حسناتٍ بعددِ مَنْ أَتَى الجمعةَ ومَنْ لم يأتِها في أمصارِ المسلمينَ»[٤].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥١٢) من حديث عبدالرحمن بن عويم أخبرني بعض قومي.
وقال البخاري في التاريخ الكبير (٥/ ٣٢٥) في هذا الإسناد مرسل.

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ١٢٣) بدون سند.

(٣) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤٢٩) بدون سند. وذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ١٢٤) عن الحسن وأبي مالك بدون سند أيضاً.
وانظر «الكافي الشاف» (ص١٧١ رقم ١٥٩).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٢ رقم ١٦٠).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُنَافِقُونَ

آياتها ١١ — ترتيبها ٦٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ
لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾

سورة المنافقين مدنية[1] وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ الشهادةُ إخبارٌ عن علم من الشهودِ وهو الحضورُ والاطلاعُ، ولذلك صدَّقَ المشهورَ به وكذَّبهم في الشهادةِ بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ لأنهم لم يعتقدوا ذلك

(٢) ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ﴾ حَلِفَهم الكاذبَ أو شهادتَهم هذه، فإنها تجري مجرى الحلِفِ في التوكيد، وقرىء إيمانَهم. ﴿جُنَّةً﴾ وقايةً من القتلِ والسَّبْيِ. ﴿فَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ صداً أو صدوداً. ﴿إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ من نفاقِهم وصدِّهم.

(٣) ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكلام المتقدِّم أي ذلك القولُ الشاهدُ على سوءِ أعمالهم، أو إلى الحالِ المذكورة من النفاقِ والكذبِ والاستجْنانِ بالإيمان[3]. ﴿بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾ بسببِ أنهم آمنوا ظاهراً. ﴿ثُمَّ

---

(١) وهي مدنية بإجماع، قاله ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٥).
(٢) إظهار «المنافقين» في موقع الإضمار لذمهم، والإشعار بعلة الحكم (س٨/ ٢٥١).
(٣) الاستجنان بالإيمان أي الاستتار به، يقال جنّه الليل أي ستره وغطاه، ومنه قوله تعالى: «فلما جنّ عليه الليل» ـ الأنعام «٧٦» ـ.

﴿كَفَرُوا﴾ سِرّاً، أو آمنوا إذا رأوا آيةً ثم كفروا حيثما سمعُوا من شياطينهم شبهةً. ﴿فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ حتى تمرَّنوا على الكفر فاستحكمُوا فيه. ﴿فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ حقِّيَةَ الإيمانِ ولا يعرفون صِحَّتهُ.

﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٤﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا ۗ وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾

(٤) ﴿۞ وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ﴾ لضخامَتِها وصباحَتِها. ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ لذلاقَتِهم وحلاوةِ كلامِهم، وكان ابنُ أبيٍّ جسيماً فصيحاً يحضرُ مجلسَ رسول الله ﷺ في جمعٍ مثلِه، فَيُعْجَبُ بهيكلِهم ويصغي إلى كلامهم. ﴿كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ حالٌ من الضمير المجرورِ في ﴿قولهم﴾ أي تسمعُ لما يقولونه مشبَّهينَ بأخشابٍ منصوبة مسندَةٍ إلى الحائطِ في كونهم أشباحاً خاليةً عن العلم والنظرِ، وقيل الخشُبُ جمعُ خشباءَ وهي الخشبةُ التي نُخِرَ جَوْفُهَا شُبِّهوا بها في حسنِ المنظرِ وقبحِ المخبرِ. وقرأ أبو عمرو والكسائيُّ وقنبل عن ابن كثير بسكونِ الشينِ على التخفيفِ، أو على أنه كَبُدُنٍ في جمعِ بدنةٍ ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾ أي واقعةٌ عليهم لِجُبْنِهم واتِّهامِهم، فعليهم ثاني مفعولي يحسبونَ، ويجوزُ أن يكون صِلتَه والمفعولُ: ﴿هُمُ الْعَدُوُّ﴾ وعلى هذا يكون الضميرُ للكلِّ وجمعُه بالنظرِ إلى الخبر لكن ترتُّب قوله: ﴿فَاحْذَرْهُمْ﴾ عليه يدلُّ على أنَّ الضمير للمنافقين. ﴿قَاتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ دعاءٌ عليهم وهو طلبٌ من ذاته أنْ يلعنَهم، أو تعليمٌ للمؤمنين أنْ يدعوا عليهم بذلك. ﴿أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ كيف يُصْرَفُونَ عن الحقِّ.

(٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ﴾ عطفُوها إعراضاً واستكباراً عن ذلك. وقرأ نافع بتخفيفِ الواو. ﴿وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ يعرِضُون عن الاستغفار. ﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾ عن الاعتذار.

(٦) ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ لرسوخِهم في الكفر. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ الخارجين عن مظنَّةِ الاستصلاحِ لانهماكهم في الكفر والنفاقِ.

(٧) ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ﴾ أي للأنصار. ﴿لَا تُنفِقُوا عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا﴾ يعنُون فقراءَ المهاجرين. ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بيده الأرزاقُ والقِسَمُ. ﴿وَلَٰكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ذلك لجهلِهم باللهِ.

(٨) ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ﴾ رُوِيَ أنَّ أعرابياً نازعَ أنصارياً في بعض الغزواتِ على ماءٍ، فضربَ الأعرابي رأسَه بخشبةٍ، فشُكِيَ إلى ابنِ أبيٍّ فقال: لا تنفقوا على مَنْ عندَ رسولِ الله ﷺ حتى ينفضُّوا، وإذا رجعْنا إلى المدينة فليخْرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذلَّ، عَنى بالأعزِّ نفسَه

وبالأذلِّ رسولَ الله ﷺ[١]. وقرىء ليَخرجنَّ بفتح الياء، وليُخْرَجَنَّ على بناء المفعول، ولنخرجنَّ بالنون، ونَصْبُ الأعزِّ والأذلِّ على هذه القراءاتِ مصدرٌ أو حال على تقدير مضافٍ كخروج أو إخراجٍ أو مثل[٢] ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ ولله الغلبةُ والقوةُ ولمن أعزَّه من رسولِه والمؤمنينَ.

﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من فَرْطِ جَهْلِهم وغرورِهم.

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ
قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

(٩) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ لايشغلْكم تدبيرُها والاهتمامُ بها عن ذكْرِهِ الصلواتِ وسائرِ العبادات المذكِّرةِ للمعبود، والمرادُ نهيُهم عن اللَّهو بها. وتوجيهُ النهي إليها للمبالغة ولذا قال: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ﴾ أي اللَّهوُ بها وهو الشغلُ. ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ لأنهم باعوا العظيمَ الباقي بالحقير الفاني.

(١٠) ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم﴾ بعضَ أموالِكم إدخاراً للآخرةِ. ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾ أي يرى دلائلَه[٣] ﴿فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ﴾ هلاَّ أمهلْتني. ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ أمدٍ غيرِ بعيدٍ. ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾ فأتصدَّقَ. ﴿وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ بالتدارُكِ، وجزمُ أكنْ للعطفِ على موضعِ الفاءِ وما بعدَه. وقرأ أبو عمرو وأكونَ منصوباً عطفاً على فأصدَّقَ، وقرىء بالرفعِ على وأنا أكونُ فيكون عِدَةً بالصلاح.

(١١) ﴿وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا﴾ ولن يمهلَها. ﴿إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا﴾ آخرُ عُمُرِها. ﴿وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ فمُجَازٍ عليه. وقرأ أبو بكر بالياء ليوافقَ ما قبلَه في الغيبةِ. عن النبيِّ ﷺ: «من قرأ سورةَ المنافقينَ بريءَ من النفاقِ»[٤].

☆ ☆ ☆

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٧٢ رقم ١٦١): «هكذا ذكره الواقدي في المغازي بغير إسناد، وعزاه إلى الثعلبي والواحدي ولأصحاب السير. . .
وأصل القصة في «الصحيحين» البخاري (٨/ ٦٤٤ رقم ٤٩٠٠) ومسلم (٤/ ٢١٤٠ رقم ٢٧٧٢) من حديث زيد بن أرقم. .» هـ.

(٢) وإسناد القول المذكور إلى المنافقين لرضاهم به (س٨/ ٢٥٣).

(٣) وتقديم المفعول على الفاعل للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر (س٨/ ٢٥٤).

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٢ ـ ١٧٣ رقم ١٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.
=

سُورَةُ التَّغَابُنِ
ترتيبها ٦٤ آياتها ١٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ
فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ
صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾

سورة التغابن مختلف فيها[1] وآياتها ثماني عشر آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بدلالَتِها على كماله واستغنائِه. ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ قدَّم الظرفين للدلالةِ على اختصاصِ الأمرين به من حيثُ الحقيقةُ. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لأنَّ نسبةَ ذاتِه المقتضيةِ للقدرةِ إلى الكلِّ على سواءٍ. ثمَّ شرع فيما ادَّعاه فقال:

(٢) ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ﴾ مقدرٌ كفرُهُ موجهٌ إليه ما يحملُه عليه. ﴿وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ مقدَّرٌ إيمانَه موفَّقٌ لما يدعُوه إليه[2]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فيعامِلُكم بما يناسِبُ أعمالَكُم.

(٣) ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ بالحكمة البالغةِ. ﴿وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ﴾ فصوَّركم من جملةِ ما خلقَ فيهما بأحسنِ صورة، حيث زيَّنكُم بصفوةِ أوصافِ الكائنات، وخصَّكم بخلاصة خصائصِ المبدَعَاتِ، وجعلكم أنموذجَ جميعِ المخلوقات. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ فأحسِنوا سرائِرَكُم حتى لا يَمْسَخَ بالعذابِ ظواهِرَكم.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٥): «قال بعض المفسرين هي مدنية، وقال آخرون هي مكية إلا قوله عز وجل «يا أيها الذين آمنوا إن من أزواجكم وأولادكم...» إلى آخر السورة فإنه مدني...».

(٢) وتقديم الكفر لأنه الأغلب فيما بينهم، والأنسب بمقام التوبيخ (س٨/ ٢٥٥).

يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ
كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُۥ كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ
يَهۡدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْۚ وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٞ ﴿٦﴾ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ
بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٧﴾ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ﴿٨﴾ يَوۡمَ
يَجۡمَعُكُمۡ لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن
تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۚ ذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿٩﴾

(٤) ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَيَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فلا يَخفَى عليه ما يصحُّ أنْ يُعْلَمَ كلياً كانَ أو جزئياً، لأن نسبةَ المقتضي لعلمِه إلى الكلِّ واحدةٌ. وتقديمُ تقرير القدرةِ على العلمِ لأن دلالةَ المخلوقاتِ على قدرته أولاً وبالذاتِ وعلى علمه بما فيها من الإتقانِ والاختصاصِ ببعضِ الأنحاءِ.

(٥) ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ يأيُّها الكفارُ. ﴿نَبَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُ﴾ كقومِ نوح وهودٍ وصالح عليهم السلام. ﴿فَذَاقُواْ وَبَالَ أَمۡرِهِمۡ﴾ ضررَ كفرِهم في الدنيا، وأصلُه الثِّقَلُ ومنه الوبيل لطعامٍ يَثْقُلُ على المعدةِ، والوابلُ المطرُ الثقيلُ القطَارُ. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ في الآخرة.

(٦) ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الوبال والعذاب. ﴿بِأَنَّهُۥ﴾ بسبب أنَّ الشأنَ. ﴿كَانَت تَّأۡتِيهِمۡ رُسُلُهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾ بالمعجزات. ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٞ يَهۡدُونَنَا﴾ أنكروا وتعجَّبوا من أنْ يكونَ الرسلُ بشراً. والبشرُ يُطلَقُ للواحدِ والجمعِ. ﴿فَكَفَرُواْ﴾ بالرسلِ ﴿وَتَوَلَّواْ﴾ عن التدبُّرِ في البيناتِ. ﴿وَّٱسۡتَغۡنَى ٱللَّهُۚ﴾ عن كلِّ شيءٍ فضلاً عن طاعتِهم. ﴿وَٱللَّهُ غَنِيٌّ﴾ عن عبادتهم وغيرها. ﴿حَمِيدٞ﴾ يدلُّ على حمدِه كلُّ مخلوقٍ.

(٧) ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ﴾ الزعمُ: ادِّعاءُ العلم، ولذلك يتعدَّى إلى مفعولين، وقد قامَ مقامَهما أنْ بما في حيِّزِه. ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ أي بلى تُبعَثُونَ. ﴿وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ﴾ قسمٌ أكَّدَ به الجوابَ. ﴿ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ﴾ بالمحاسبةِ والمجازاةِ. ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ لقبولِ المادةِ وحصولِ القدرة التامةِ.

(٨) ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ محمدٍ عليه الصلاة والسلام. ﴿وَٱلنُّورِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلۡنَاۚ﴾ يعني القرآنَ فإنه بإعجازه ظاهرٌ بنفسِه مظهِرٌ لغيره مما فيه شرحُه وبيانُه[1]. ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ﴾ فمجازٍ عليه[2].

(٩) ﴿يَوۡمَ يَجۡمَعُكُمۡ﴾ ظرفٌ لتُنَبَّؤُنَّ أو مقدَّرٌ باذْكُر، وقرأ يعقوب نجمعُكم. ﴿لِيَوۡمِ ٱلۡجَمۡعِۖ﴾ لأجلِ ما فيه منَ الحسابِ والجزاء، والجمعُ جمعُ الملائكة والثَّقلينِ. ﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلتَّغَابُنِۗ﴾ يغبنُ فيه بعضُهم بعضاً لنزولِ السعداءِ منازلَ الأشقياءِ لو كانوا سعداءَ وبالعكسِ، مستعارٌ من تغابُنَ التجارِ، واللام فيه للدلالة على أنَّ التغابُنَ الحقيقيَّ وهو التغابُنُ في أمور الآخرةِ لعِظَمِها ودوامِها. ﴿وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعۡمَلۡ صَٰلِحٗا﴾ أي

(١) والالتفات إلى نون العظمة «أنزلنا» لإبراز كمال العناية بأمر الإنزال (س٨/ ٢٥٧).
(٢) والالتفات إلى الاسم الجليل لتربية المهابة وتأكيد استقلال الجملة (س٨/ ٢٥٧).

عملاً صالحاً. ﴿يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۚ﴾ وقرأ نافع وابنُ عامر بالنون فيهما. ﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارةُ إلى مجموعِ الأمرين، ولذلك جعلَه الفوزَ العظيمَ لأنه جامعٌ للمصالح من دفعِ المضارِّ وجلبِ المنافعِ.

وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٠﴾ مَآ
أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ
وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ
فَٱحْذَرُوهُمْۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ
فِتْنَةٌۚ وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ كأنها والآيةُ المتقدمةُ بيانٌ للتغابُنِ وتفصيلٌ له.

(١١) ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ إلا بتقديره وإرادتِه. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥۚ﴾ للثباتِ والاسترجاع عندَ حلولها. وقرىء يَهْد قلبُه بالرفع على إقامتِه مقامَ الفاعلِ، وبالنصبِ على طريقة سفِه نفسَه، ويَهدأْ بالهمزةِ أي يسكُنُ. ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ حتى القلوب وأحوالِها.

(١٢) ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ أي فإنْ تولَّيتم فلا بأسَ عليه إذ وظيفتُه التبليغُ وقد بلَّغ[(١)].

(١٣) ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ لأنَّ إيمانَهم بأنَّ الكلَّ منه يقتضي ذلك.

(١٤) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ﴾ يشغلُكم عن طاعة الله أو يخاصِمُكم في أمر الدين أو الدنيا. ﴿فَٱحْذَرُوهُمْۚ﴾ ولا تأمنوا غوائِلَهم. ﴿وَإِن تَعْفُواْ﴾ عن ذنوبهم بتركِ المعاقبةِ. ﴿وَتَصْفَحُواْ﴾ بالإعراضِ وتركِ التثريبِ عليها. ﴿وَتَغْفِرُواْ﴾ بإخفائِها وتمهيدِ معذرتِهم فيها. ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يعامِلُكم بمثلِ ما عملتُم ويتفضَّلُ عليكم.

(١٥) ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌۚ﴾ اختبارٌ لكم. ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥٓ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ لمن آثر محبةَ الله وطاعتَه على محبةِ الأموالِ والأولاد والسعيِ لهم.

---

(١) وكرر الأمر بالطاعة للتأكيد، والإيذان بالفرق بين الطاعتين في الكيفية، وتوضيح مورد التولي في قوله تعالى: «فإن توليتم» أي عن طاعة الرسول وإظهار الرسول مضافاً إلى نون العظمة في مقام إضماره لتشريفه عليه الصلاة والسلام، والإشعارِ بمدار الحكم الذي هو كون وظيفته عليه الصلاة والسلام محض البلاغ، ولزيادة تشنيع التولي عنه (س٨/ ٢٥٨).

﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ۗ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾
عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾

(١٦) ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ أي ابذُلوا في تقواهُ جُهْدَكم وطاقتَكم. ﴿وَٱسْمَعُواْ﴾ مواعظَه. ﴿وَأَطِيعُواْ﴾ أوامِرَهُ. ﴿وَأَنفِقُواْ﴾ في وجوه الخيرِ خالصاً لوجهِهِ. ﴿خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ﴾ أي افعلوا ما هو خيرٌ لها، وهو تأكيد للحثِّ على امتثالِ هذه الأوامرِ، ويجوز أنْ يكونَ صفةَ مصدرٍ محذوفٍ تقديره: إنفاقاً خيراً أو خبراً لكان مقدَّراً جواباً للأوامرِ. ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ سبق تفسيرهُ.

(١٧) ﴿إِن تُقْرِضُواْ ٱللَّهَ﴾ تصرفُوا المالَ فيما أمرهُ. ﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾ مقروناً بإخلاصٍ وطيب قلبٍ. ﴿يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ﴾ يجعلْ لكم بالواحدِ عشراً إلى سبعمائة وأكثرَ، وقرأ ابن كثير وابن عامر ويعقوبُ يضعفه لكم. ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ ببركةِ الإنفاق. ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ﴾ يعطي الجزيلَ بالقليلِ. ﴿حَلِيمٌ﴾ لا يعاجِلُ بالعقوبة.

(١٨) ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ لا يخفى عليه شيءٌ. ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ تامُّ القدرةِ والعلمِ، عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ التغابن دُفِعَ عنه موتُ الفجْأَةِ»[1] والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٣ رقم ١٧٠).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّلَاقِ

ترتيبها ٦٥ — آياتها ١٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾

سورة الطلاق مدنية[1] وآيها اثنتا عشرة أو إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ خصَّ النداءَ وعمَّ الخطابَ بالحكم لأنه أمامَ أمَّتِه فنداؤُه كندائِهم، أو لأنَّ الكلامَ معه والحكمَ يعمُّهم. والمعنَى إذا أردتُم تطليقهنَّ على تنزيل المشارفِ له منزلةَ الشارعِ فيه. ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ أي في وقتِها وهو الطُّهرُ، فإنَّ اللامَ في الأزمان وما يشبهُها للتأقيتِ، ومَنْ عدَّ العدَّةَ بالحيضِ علَّق اللامَ بمحذوفٍ مثلَ مستقبلاتٍ، وظاهره يدلُّ على أنَّ العدَّةَ بالأطهارِ وأنَّ طلاقَ المعتدَّةِ بالأقراءِ ينبغي أنْ يكونَ في الطُّهرِ، وأنه يحرمُ في الحيضِ من حيث إنَّ الأمرَ بالشيء يستلزم النهيَ عن ضدِّه ولا يدل على عدمِ وقوعِه، إذ النهيُ لا يستلزم الفسادَ، كيف وقد صحَّ أن ابنَ عمرَ رضي الله تعالى عنهما لما طلَّقَ امرأتَه حائضاً أمرهُ النبيُّ ﷺ بالرجعة وهو سببُ نزوله[2]. ﴿وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ﴾ واضبطُوها وأكملوها ثلاثةَ أقراءٍ. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ﴾ في تطويل العدَّةِ والإضرارِ بهنَّ. ﴿لَا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٤): «وهي مدنية بإجماع أهل التفسير».

(٢) أخرج حديث ابن عمر البخاري (٨/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٨).

﴿تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ﴾ من مساكِنِهنَّ وقتَ الفراقِ حتى تنقضيَ عدَّتهُنَّ. ﴿وَلَا يَخْرُجْنَ﴾ باستبدادهنَّ أما لو اتفقا على الانتقالِ جازَ إذ الحقُّ لا يعدوهما، وفي الجمع بين النهيين دلالةٌ على استحقاقها السُّكْنَى ولزومَها ملازمةَ مسكنِ الفراقِ وقوله: ﴿إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ مُسْتثنًى من الأولِ، والمعنى إلا أنْ تبذوَ على الزوجِ فإنه كالنشوز في إسقاطِ حقِّها، أو إلا أنْ تزنيَ فتُخرجُ لإقامة الحدِّ عليها، أو من الثاني للمبالغةِ في النهي والدلالةِ على أن خروجَها فاحشةٌ. ﴿وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ الإشارةُ إلى الأحكام المذكورةِ. ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ بأن عرَّضَها للعقاب. ﴿لَا تَدْرِى﴾ أي النفسُ أو أنتَ أيُّها النبيُّ أوِ المطلِّقُ. ﴿لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا﴾ وهو الرغبةُ في المطلَّقةِ برجعةٍ أو استئنافٍ.

فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾

(٢) ﴿فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ﴾ شارفْنَ آخِرَ عدَّتهنَّ. ﴿فَأَمْسِكُوهُنَّ﴾ فراجعوهنَّ. ﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ بحسنِ عشرةٍ وإنفاقٍ مناسبٍ، ﴿أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ﴾ بإيفاءِ الحقِّ واتقاءِ الضرارِ مثلَ أنْ يراجِعَها ثم يطلقَها تطويلاً لعدَّتِها. ﴿وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ على الرجعةِ أو الفرقةِ تبرِّياً عن الريبةِ وقطعاً للتنازُعِ، وهو ندبٌ كقوله تعالى ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾[1] وعن الشافعيِ وجوبُه في الرجعة[2]. ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ﴾ أيها الشهودُ عند الحاجة. ﴿لِلَّهِ﴾ خالصاً لوجهه. ﴿ذَٰلِكُمْ يُوعَظُ بِهِۦ﴾ يريد الحثَّ على الإشهاد والإقامةِ، أو على جميعِ ما في الآية. ﴿مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ فإنه المنتفعُ به والمقصودُ بذكْرِه. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾.

(٣) ﴿وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ جملةٌ اعتراضيةٌ مؤكدة لما سبقَ بالوعدِ على الاتقاء عما نَهى عنه صريحاً أو ضِمْناً من الطلاق في الحيض، والإضرارِ بالمعتدَّةِ وإخراجِها من المسكنِ، وتعدِّي حدودِ الله وكتمانِ الشهادة وتوقُّعِ جعْلٍ على إقامتِها بأن يجعلَ اللهُ له مخرجاً مما في شأن الأزواجِ من المضايق والغموم، ويرزقُه فرَجاً وخَلَفاً من وجْهٍ لم يخطرْ بباله. أو بالوعدِ لعامةِ المتقينَ بالخلاصِ عن مضارِّ الدارين والفوزِ بخيرهما من حيثُ لا يحتسبونَ. أو كلامٌ جِيْءَ به للاستطرادِ عند ذكر المؤمنين. وعنه ﷺ «إني لأعلمُ آيةً لو أخذَ الناسُ بها لكفتْهم، ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فما زالَ يقرؤُها ويعيدُها»[3].

(١) البقرة: «٢٨٢».
(٢) راجع مذاهب العلماء في ذلك «الجامع لأحكام القرآن» (١٨/١٥٧ ـ ١٥٩).
(٣) وهو حديث ضعيف.
أخرجه ابن ماجة (٢/١٤١١ رقم ٤٢٢٠) والحاكم في المستدرك (٢/٤٩٢) وأحمد في «الزهد» (رقم: ٧٨٩) كلهم من طريق أبي السليل عن أبي ذر.
قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/٣٤٢ رقم ١٥٠٦): «هذا إسناد رجاله ثقات إلا أنه منقطع. أبو السليل =

وروي أن سالم بنَ عوف بنِ مالك الأشجعي[١] أسره العدوُّ، فشكا أبوه إلى رسولِ الله ﷺ فقال له «اتقِ اللهَ وأكثِرْ قولَ لا حولَ ولا قوةَ إلا بالله» ففعل، فبينَما هو في بيته إذ قرعَ ابنُه البابَ ومعه مائةٌ من الإبلِ غفلَ عنها العدوُّ فاستاقَها[٢]. وفي رواية «رجعَ ومعه غنيماتٌ ومتاعٌ». ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ كافيه. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ يبلغُ ما يريده ولا يفوتُه مرادُ، وقرأ حفص بالإضافةِ، وقرىء بالغٌ أمرُهُ أي نافذٌ، وبالغاً على أنه حالٌ والخبرُ: ﴿قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ تقديراً أو مقداراً أو أجَلاً لا يتأتَّى تغييرُه، وهو بيانٌ لوجوبِ التوكُّلِ وتقرير لما تقدَّم من تأقيتِ الطلاقِ بزمان العدَّةِ والأمرِ بإحصائِها، وتمهيدٌ لما سيأتي من مقاديرِها.

وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ ۚ وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾

(٤) ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ﴾ لكِبَرِهنَّ. ﴿إِنِ ٱرْتَبْتُمْ﴾ شكَكْتم في عدَّتهنَّ أي جهلتُم. ﴿فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ﴾ روي أنه لما نزلَ ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾[٣] قيل فما عدَّةُ اللاتي لم يحضن؟ فنزلتْ[٤]. ﴿وَٱلَّٰٓـِٔى لَمْ يَحِضْنَ﴾ أي واللائي لم يحضْنَ بعدُ كذلك. ﴿وَأُو۟لَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ﴾ منتهى عدَّتِهنَّ. ﴿أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ وهو حكمٌ يعمُّ المطلَّقاتِ والمتوفَّى عنهم أزواجُهنَّ، والمحافظةُ على عمومِه أولى من محافظةِ عمومِ قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾[٥] لأنَّ عمومَ أولاتِ الأحمالِ بالذات وعمومَ أزواجاً بالعَرَضِ، والحكمُ معلَّلٌ ها هنا بخلافه ثَمَّةَ، ولأنه صحَّ أنَّ سبيعةَ بنتَ الحرث وضعتْ بعدَ وفاة زوجها بليالٍ فذكَرَتْ ذلك لرسولِ الله ﷺ فقال «قد حلَلْتِ فتزوَّجي»[٦]، ولأنه متأخِّرُ النزولِ فتقديمه في العملِ تخصيصٌ وتقديم الآخِرِ بناءً للعامِّ على الخاصِّ

= لم يدرك أبا ذر قاله في «التهذيب» ـ (٤/ ٤٠١) ـ ورواه النسائي في «التفسير» ـ (رقم: ٦٢٣) ـ عن محمد بن عبدالأعلى عن المعتمر بن سليمان به.
ورواه أحمد بن منيع في مسنده بزيادة طويلة كما أفردته في زوائد المسانيد العشرة.
فقال: ثنا يزيد بن هارون ثنا كهمس بن الحسن فذكره» هـ.

(١) هو مالك بن عوف الأشجعي وقيل: أبو عوف وقيل سالم بن عوف وقع أسيراً فجاء والده شاكياً إلى الرسول فأمره أن يكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله.. ففك أسره. ونزل قوله تعالى «ومن يتقِ الله يجعل له مخرجاً».

(٢) أخرجه البيهقي في الدلائل (٦/ ١٠٦ ـ ١٠٧) من طريق علي بن بذيمة عن أبي عبيدة عن ابن مسعود، وعن أبي عبيدة قوله. وفيه أبو عبيدة لم يدرك أباه.
وأخرجه الثعلبي من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٤ رقم ١٨٠)
قلت: والكلبي وأبو صالح ضعيفان، بل الكلبي متروك.

(٣) البقرة: «٢٢٨».

(٤) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٣٦ بدون سند.

(٥) البقرة: «٢٣٤».

(٦) أخرجه البخاري (٨/ ٦٥٣ رقم ٤٩٠٩) ومسلم (٢/ ١١٢٢ ـ ١١٢٣ رقم ٥٧/ ١٤٨٥) كلاهما من رواية أبي سلمة بن عبدالرحمن عن كريب مولى ابن عباس عن أم سلمة. =

والأولُ راجحٌ للوفاق عليه. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِه فيراعي حقوقَها. ﴿يَجۡعَل لَّهُۥ مِنۡ أَمۡرِهِۦ يُسۡرٗا﴾ يسهِّلْ عليه أَمْرَهُ ويوفِّقْه للخير.

ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا ﴿٥﴾ أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم مِّن وُجۡدِكُمۡ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا ﴿٧﴾ وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا ﴿٨﴾ فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا ﴿٩﴾ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدۡ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكُمۡ ذِكۡرٗا ﴿١٠﴾

(٥) ﴿ذَٰلِكَ أَمۡرُ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ما ذُكِرَ من الأحكام. ﴿أَنزَلَهُۥٓ إِلَيۡكُمۡۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ﴾ في أحكامِه فيراعي حقوقَها. ﴿يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ﴾ فإنَّ الحسناتِ يذهِبْنَ السيئاتِ. ﴿وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا﴾ بالمضاعفةِ.

(٦) ﴿أَسۡكِنُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ سَكَنتُم﴾ أي مكانٌ من مكانِ سُكْناكم. ﴿مِّن وُجۡدِكُمۡ﴾ من وُسْعِكم أي مما تطيقُونه، أو عطفُ بيانٍ لقوله من حيثُ سكنْتُم. ﴿وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ﴾ في السُّكْنَى. ﴿لِتُضَيِّقُواْ عَلَيۡهِنَّۚ﴾ فَتلجئوهنَّ إلى الخروج. ﴿وَإِن كُنَّ أُوْلَٰتِ حَمۡلٖ فَأَنفِقُواْ عَلَيۡهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ فيخرجْنَ من العدَّةِ، وهذا يدلُّ على اختصاصِ استحقاق النفقة بالحاملِ من المعتداتِ والأحاديثُ تؤيدُه. ﴿فَإِنۡ أَرۡضَعۡنَ لَكُمۡ﴾ بعد انقطاعِ عَلَقَةِ النكاح. ﴿فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ﴾ على الإرضاع. ﴿وَأۡتَمِرُواْ بَيۡنَكُم بِمَعۡرُوفٖۖ﴾ وليأمرْ بعضُكم بعضاً بجميلٍ في الإرضاع والأجرِ. ﴿وَإِن تَعَاسَرۡتُمۡ﴾ تضايقْتُم. ﴿فَسَتُرۡضِعُ لَهُۥٓ أُخۡرَىٰ﴾ امرأةٌ أخرى، وفيه معاتبةٌ للأمِّ على المعاسرةِ.

(٧) ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ فَلۡيُنفِقۡ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُۚ﴾ أي فلينفقْ كلٌّ من الموسِرِ والمعسرِ ما بلغَهُ وُسْعُهُ. ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ﴾ فإنه تعالى لا يكلِّفُ نفساً إلا وُسْعَها، وفيه تطييبٌ لقلبِ المعسِرِ ولذلك وعدَ له باليُسْرِ فقال: ﴿سَيَجۡعَلُ ٱللَّهُ بَعۡدَ عُسۡرٖ يُسۡرٗا﴾ أي عاجلاً وآجلاً.

(٨) ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ﴾ أهلِ قريةٍ. ﴿عَتَتۡ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ﴾ أعرضتْ عنه إعراضَ العاتي المعاندِ. ﴿فَحَاسَبۡنَٰهَا حِسَابٗا شَدِيدٗا﴾ بالاستقصاء والمناقشة. ﴿وَعَذَّبۡنَٰهَا عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾ منكراً والمرادُ حسابُ الآخرة وعذابُها. والتعبير بلفظ الماضي للتحقيقِ.

(٩) ﴿فَذَاقَتۡ وَبَالَ أَمۡرِهَا﴾ عقوبةَ كفرِها ومعاصِيها. ﴿وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمۡرِهَا خُسۡرًا﴾ لا ربحَ فيه أصلاً.

(١٠) ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ﴾ تكريرٌ للوعيد وبيانٌ لما يوجبُ التقوى المأمورَ بها في قوله: ﴿فَٱتَّقُواْ

كما أخرجه البخاري (٩/٤٦٩ رقم ٥٣١٨) من طريق أبي سلمة عن زينب بنت أم سلمة عن أم سلمة.

وأخرجه أيضاً البخاري (٧/٣١٠ رقم ٣٩٩١) و(٩/٤٦٩ رقم ٥٣١٩) ومسلم (٢/١١٢٢ رقم ٥٦/ ١٤٨٤) من رواية عتبة بن عبدالله عن عمر بن عبدالله بن الأرقم الأزهري عن سبيعة نفسها.

ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ويجوزُ أنْ يكونَ المرادُ بالحساب استقصاءَ ذنوبهم وإثباتَها في صحفِ الحفظَةِ، وبالعذابِ ما أُصِيبُوا به عاجلاً. ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا﴾.

رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ
وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴿١١﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ
سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ
شَيْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾

(١١) ﴿رَّسُولًا﴾ يعني بالذِّكْرِ جبريلَ عليه السلام لكثرة ذكرِه، أو لنزولِه بالذكرِ وهو القرآنُ، أو لأنه مذكورٌ في السمواتِ أو ذا ذكرٍ أي شرفٍ. أو محمداً عليه الصلاة والسلام لمواظَبَتِه على تلاوة القرآن أو تبليغِه، وعبَّر عن إرساله بالإنزالِ ترشيحاً أو لأنه مسبَّبٌ عن إنزالِ الوحي إليه، وأبدلَ منه رسولاً للبيانِ أو أرادَ به القرآنَ. ورسولاً منصوبٌ بمقدَّر مثلَ أَرْسَلَ، أو ذِكْراً مصدرٌ ورسولاً مفعولُه أو بدلُه على أنه بمعنى الرسالة. ﴿يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ﴾ حالٌ من اسم الله أو صفةُ رسولاً، والمرادُ بالذين آمنوا في قوله: ﴿لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الذين آمنوا بعدَ إنزاله أي ليحصلَ لهم ما هم عليه الآنَ من الإيمان والعملِ الصالح أو ليخرجَ مَنْ علِمَ أو قدَّر أنه يؤمنُ ﴿مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ﴾ من الضلالة إلى الهدى. ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ وقرأ نافع وابن عامر ندخلْه بالنون. ﴿قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا﴾ فيه تعجيبٌ وتعظيم لما رُزِقُوا من الثواب.

(١٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ مبتدأٌ وخبرٌ. ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي وخلق مثلَهنَّ في العددِ من الأرضِ، وقرىء بالرفع على الابتداءِ والخبرِ: ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ أي يجري أمرُ الله وقضاؤُه بينهنَّ وينفذُ حكمُه فيهنَّ. ﴿لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾ علةٌ لِخَلَقَ أو ليتنزَّلُ، أو مضمرٌ يعمُّهما فإنَّ كلاً منهما يدلُّ على كمال قدرتِه وعلمِه. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الطلاقِ ماتَ على سُنَّةِ رسول الله ﷺ»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه بأسانيدهم إلى أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٤ رقم ١٨٧).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّحْرِيمِ　ترتيبها ٦٦　آياتها ١٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ
وَٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ
بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٣﴾ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ
صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴿٤﴾

سورة التحريم مدنية[1] وآيها اثنتا عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام خلا بماريَّةَ في نوبةِ عائشةَ رضي الله تعالى عنها أو حفصةَ، فاطلعتْ على ذلك حفصةُ فعاتبَتْه فيه فحرَّم ماريَّةَ، فنزلتْ[2]. وقيل شربَ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٤٦): «وهي مدنية بإجماع من أهل العلم بلا خلاف» هـ.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٨/ ١٨٥) عن ابن عباس وفيه أنه نام في يوم عائشة.
وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٧٥): «لم أقف في شيء من الطرق على أن ذلك كان في بيت عائشة رضي الله عنها، إلا فيما رواه ابن سعد ـ كما تقدم ـ» قلت: فيه الواقدي وهو ضعيف. وشعبة مولى ابن عباس ضعيف أيضاً.
وقد أخرجه أيضاً ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٨/١٥٧) عن ابن عباس بسند فيه ضعفاء من أسرة واحدة.
كما أخرجه ابن جرير (١٤/ج٢٨/١٥٦) عن الضحاك. والضحاك لم يلقَ أحداً من الصحابة.
وأما نزول الآية في أمر تحريم النبي ﷺ مارية القبطية، فقد أخرجه ابن جرير عن زيد بن أسلم، والشعبي، وعبدالرحمن بن زيد بن أسلم أيضاً. وأخرجه الحاكم في المستدرك (٢/٤٩٣) من حديث أنس وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

عسلاً عند حفصةَ، فواطأتْ عائشةُ سودةَ وصفيةَ فقلْنَ له إنا نشمُّ منك ريحَ المغافير[١] فحرَّم العسلَ، فنزلتْ[٢]. ﴿تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ تفسيرٌ لتحرِّمُ أو حالٌ من فاعلِه أوِ استئناف لبيانِ الداعي إليه. ﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ﴾ لك هذه الزلَّةَ فإنه لا يجوز تحريمُ ما أحلَّه الله. ﴿رَحِيمٌ﴾ رحِمَكَ حيث لم يؤاخذْك به وعاتَبَكَ محاماةً على عصمتِكَ.

(٢) ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ﴾ قد شرعَ لكم تحليلَها وهو حلُّ ما عقدْتَه بالكفارةِ، أو الاستثناءُ فيها بالمشيئةِ حتى لا تحنثَ من قولهم: حلَّلَ في يمينه إذا استثنى فيها، واحتجَّ بها مَنْ رأى التحريمَ مطلقاً أو تحريمَ المرأة يميناً، وهو ضعيفٌ إذ لا يلزمُ من وجوب كفارةِ اليمين فيه كونُه يميناً مع احتمالِ أنه عليه الصلاة والسلام أتى بلفظ اليمينِ كما قيل. ﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ متولِّي أمرِكم. ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ﴾ بما يصلِحُكم. ﴿الْحَكِيمُ﴾ المتقِنُ في أفعاله وأحكامِه.

(٣) ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ﴾ يعني حفصةَ. ﴿حَدِيثًا﴾ تحريمَ ماريَةَ أو العسلِ، أو أنَّ الخلافةَ بعدَه لأبي بكر وعمرَ رضي الله تعالى عنهما. ﴿فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ﴾ أي فلما أخبرتْ حفصةُ عائشةَ رضي الله تعالى عنهما بالحديث. ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ واطَّلعَ النبي عليه الصلاة والسلام على الحديث أي على إفشائِه. ﴿عَرَّفَ بَعْضَهُ﴾ عرَّف الرسولُ ﷺ حفصةَ بعضَ ما فعلتْ. ﴿وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ﴾ عن إعلام بعضٍ تكرماً أو جازاها على بعض بتطليقِه إياها وتجاوزَ عن بعضٍ، ويؤيده قراءةُ الكسائيِّ بالتخفيف فإنه لا يحتملُ ههنا غيرَهُ لكنَّ المشدَّدَ من بابِ إطلاقِ اسمِ المسبَّبِ على السببِ والمخففُ بالعكس، ويؤيد الأولَ قولُه: ﴿فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾ فإنه أوفقُ للإسلام.

(٤) ﴿إِنْ تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ﴾ خطابٌ لحفصةَ وعائشةَ على الالتفاتِ للمبالغةِ في المعاتبة. ﴿فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ فقد وجدَ منكما ما يوجِبُ التوبةَ، وهو ميلُ قلوبكما عن الواجبِ من مخالصةِ رسولِ الله عليه الصلاة والسلام بحبِّ ما يحبُّه وكراهةِ ما يكرهُهُ. ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ﴾ وإنْ تتظاهرا عليه بما يسوؤه، وقرأ الكوفيونَ بالتخفيفِ. ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فلنْ يُعْدَمَ مَنْ يظاهِرُه من الله والملائكةِ وصلحاءِ المؤمنين، فإنَّ الله ناصرُه وجبريلُ رئيسُ الكروبيين قرينُه، ومَنْ صلحَ من المؤمنين أتباعُه وأعوانُه. ﴿وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ متظاهرونَ، وتخصيصُ جبريلَ عليه السلام لتعظيمِه،

---

(١) المغافير: جمع مفرده مغفور، وهو شيء له رائحة كريهة وهو صمغ حلو الطعم.

(٢) أخرجه البخاري (٨/٦٥٦ رقم ٤٩١٢) و(٩/٣٧٤ رقم ٥٢٦٧) و(١١/٥٧٤ رقم ٦٦٩١) ومسلم (٢/١١٠٠ ـ ١١٠١ رقم ٢٠/١٤٧٤) عن عائشة رضي الله عنها قالت: (كان رسول الله ﷺ يشربُ عسلاً عند زينب بنت جحش ويمكث عندها، فواطأت أنا وحفصةُ عن أيتنا دخلَ عليها فلتقل له أكلتَ مغافير؟ إني أجِدُ منكَ ريحَ مغافير، قال: لا، ولكني كنتُ أشربُ عند زينبَ بنت جحش فلن أعودَ له، وقد حلفتُ لا تخبري بذلك أحداً).

وأخرج البخاري (٩/٣٧٤ ـ ٣٧٥ رقم ٥٢٦٨) ومسلم (٢/١١٠١ رقم ٢١/١٤٧٤) من حديث عائشة أيضاً قالت: كان النبي ﷺ يحب الحلواء والعسل، فكان إذا صلى العصر دار على نسائه فدخل على حفصة فاحتبس عندها أكثر مما كان يحتبس، ثم ذكرت احتيالها على حفصة مع سودة وصفية، وليس في هذه الرواية ذكر نزول الآية.

وانظر فتح الباري للجمع والتوفيق بين السببين (٩/٣٧٦ ـ ٣٧٧).

والمراد بالصالح الجنسُ ولذلك عُمِّمَ بالإضافة وبقوله بعدَ ذلك تعظيمٌ لمظاهرةِ الملائكة من جملةِ ما ينصرهُ الله تعالى به.

عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾

(٥) ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ على التغليب، أو تعميمُ الخطاب، وليس فيه ما يدلُّ على أنه لم يطلِّقْ حفصةَ وأنَّ في النساء خيراً منهنَّ لأنَّ تعليقَ طلاق الكلِّ لا ينافي تطليقَ واحدةٍ والمعلَّقُ بما لم يقعْ لا يجبُ وقوعُه. وقرأ نافع وأبو عمرو يُبْدِلَهُ بالتخفيف[١]. ﴿مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ﴾ مقرَّاتٍ مخلصاتٍ أو منقادات مصدِّقاتٍ. ﴿قَٰنِتَٰتٍ﴾ مصلياتٍ أو مواظباتٍ على الطاعاتِ. ﴿تَٰٓئِبَٰتٍ﴾ عن الذنوبِ. ﴿عَٰبِدَٰتٍ﴾ متعبِّداتٍ أو متذلِّلاتٍ لأمرِ الرسولِ عليه الصلاة والسلام. ﴿سَٰٓئِحَٰتٍ﴾ صائماتٍ، سُمِّيَ الصائمُ سائحاً لأنه يَسيحُ بالنهارِ بلا زاد، أو مهاجراتٍ. ﴿ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا﴾ وسَّطَ العاطِفَ بينَهما لتنافيهما ولأنهما في حكمِ صفةٍ واحدةٍ إذ المعنى مشتملاتٌ على الثيباتِ والأبكارِ.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ بتركِ المعاصي وفعلِ الطاعات. ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ بالنصح والتأديب. وقرىء وأهلُوكم عطفٌ على واوِ قُوْا، فيكون أنفسَكم أَنْفُسَ القبيلَيْنِ على تغليب المخاطَبِيْنَ. ﴿نَارًا وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾ ناراً تتقدُ بهما اتقادَ غيرها بالحطب. ﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ﴾ تلي أمرَها وهم الزبانيةُ. ﴿غِلَاظٌ شِدَادٌ﴾ غلاظُ الأقوالِ شدادُ الأفعالِ، أو غلاظُ الخلْقِ شدادُ الخلْقِ أقوياءُ على الأفعال الشديدةِ. ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ فيما مضَى. ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ فيما يُسْتَقْبَلُ، أو لا يمتنعونَ عن قَبُولِ الأوامر والتزامِها ويؤدُّون ما يؤمرون به.

(٧) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَعْتَذِرُوا۟ ٱلْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي يُقَالُ لهم ذلك عندَ دخولهم النارَ، والنهيُ عن الاعتذارِ لأنه لا عذْرَ لهم أو العذرُ لا ينفعُهم.

(٨) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ بالغةً في النصح وهو صفةُ التائبِ فإنه ينصحُ نفسَه بالتوبة، وُصِفَتْ به على الإسنادِ المجازي مبالغةً، أو في النصاحةِ وهي الخياطةُ كأنها تنصحُ ما خرقَ الذَّنْبُ. وقرأ أبو بكر بضمِّ النونِ وهو مصدرٌ بمعنى النصحِ كالشكرِ والشكورِ، أو النصاحةُ كالثباتِ والثبوتِ تقديرهُ ذاتَ نصوحٍ أو تنصح نصوحاً، أو توبوا نصوحاً لأنفسِكم. وسُئِلَ عليٌّ رضيَ الله تعالى

(١) قراءة نافع وأبو عمرو بتشديد الدال يُبَدِّلَه (المبسوط لابن مهران ص٢٣٨).

عنه عن التوبةِ فقال: يجمعُها ستةُ أشياءِ: على الماضي من الذنوب الندامةُ، وللفرائضِ الإعادةُ، وردُّ المظالم، واستحلالُ الخصوم، وأنْ تعزمَ على أنْ لا تعودَ، وأنْ تربِّي نفسَك في طاعة الله كما ربَّيْتَهَا في المعصية. ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ ذُكِرَ بصيغة الإطماع جَرْياً على عادة الملوك، وإشعاراً بأنه تفضُّلٌ. والتوبة غيرُ موجبةٍ وأنَّ العبدَ ينبغي أن يكون بينَ خوفٍ ورجاءٍ. ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ﴾ ظرفٌ ليدخلكم ـ ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ عطفٌ على النبيِّ عليه الصلاة والسلام إحماداً لهم وتعريضاً لمن ناوأهم، وقيل مبتدأٌ خبرهُ: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ﴾ أي على الصراطِ. ﴿يَقُولُونَ﴾ إذا طُفِيءَ نورُ المنافقين. ﴿رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ وقيل تتفاوتُ أنوارُهم بِحَسَبِ أعمالِهم فيسألون إتمامَه تفضُّلاً.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَـٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ ﴿١٢﴾

(٩) ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ بالسيفِ ﴿وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ﴾ بالحجَّةِ. ﴿وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ واستعملِ الخشونةَ فيما تجاهدهُم به إذا بلغَ الرفقُ مداهُ. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ جهنَّمُ أو مأواهم.

(١٠) ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ﴾ مثَّلَ اللهُ تعالى حالَهم في أنهم يُعَاقَبُوْنَ بكفرهم ولا يُحَابَوْنَ بما بينَهم وبينَ النبيِّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنين من النسبة بحالِهما. ﴿كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَـٰلِحَيْنِ﴾ يريدُ به تعظيمَ نوح ولوطٍ عليهما السلام. ﴿فَخَانَتَاهُمَا﴾ بالنفاقِ. ﴿فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ فلم يغنِ النبيَّانِ عنهما بحقِّ الزواج شيئاً إغناءً ما. ﴿وَقِيلَ﴾ أي لهما عند موتهما أو يومَ القيامة. ﴿ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ﴾ مع سائرِ الداخلين من الكفرةِ الذين لا وصلةَ بينَهم وبينَ الأنبياء عليهم السلام.

(١١) ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ شبَّه حالَهم في أنَّ وصلةَ الكافرين لا تضرُّهم بحالِ آسيةَ رضيَ الله عنها ومنزلتِها عند الله مع أنها كانتْ تحتَ أعدى أعداءِ الله. ﴿إِذْ قَالَتْ﴾ ظرفٌ للمثلِ المحذوفِ. ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ قريباً من رحمتك أو في أعلى درجاتِ المقرَّبين. ﴿وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ﴾ من نفسِه الخبيثةِ وعملِه السيءِ. ﴿وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ من القِبْطِ التابعين له في الظلمِ.

(١٢) ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ عطفٌ على امرأة فرعونَ تسليةً للأراملِ. ﴿ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ من الرجال. ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ﴾ في فَرْجِها، وقرىء فيها أي في مريمَ أو في الجملة. ﴿مِن رُّوحِنَا﴾ من

روح خلقناه بلا توسُّطِ أصلٍ. ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا﴾ بِصُحُفِهِ المنزَّلةِ أو بما أُوحِي إلى أنبيائه. ﴿وَكُتُبِهِۦ﴾ وما كُتِبَ في اللَّوح المحفوظ، أو جنسُ الكتب المنزَّلةِ وتدلُّ عليه قراءةُ البصريين وحفصٌ بالجمع، وقرىء بكلمة الله وكتابه أي بعيسى عليه السلام والإنجيل. ﴿وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ من عِدَادِ المواظبين على الطاعةِ، والتذكيرُ للتغليبِ والإشعارِ بأنَّ طاعتَها لم تَقْصُرْ عن طاعة الرجالِ الكاملينَ حتى عُدَّتْ من جُمْلَتِهم، أو من نَسْلِهم فتكون من ابتدائيةً. عن النبيِّ ﷺ «كَمُلَ مِنَ الرجال كثيرٌ ولم يكمُلْ من النساء إلا أربعٌ: آسيةُ بنتُ مزاحم امرأةُ فرعونَ، ومريم بنتُ عمران، وخديجةُ بنتُ خويلدٍ وفاطمة بنتُ محمدٍ. وفضلُ عائشةَ على النساءِ كفضلِ الثريدِ على سائر الطعامِ»[١] وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ التحريم آتاهُ الله توبةً نصوحاً»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه الثعلبي كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٥) وأبو نعيم في الحلية (٥/٩٩) من حديث أبي موسى.
وأصله في الصحيحين البخاري (٦/ ٤٧١ ـ ٤٧٢ رقم ٣٤٣٣) ومسلم (٤/ ١٨٨٦ ـ ١٨٨٧ رقم ٧٠/ ٢٤٣١) عن أبي موسى الأشعري قال: قال النبي ﷺ: فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام. كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلاّ مريم بنتُ عمران، وآسيةُ امرأة فرعون».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والثعلبي والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٦).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الملك

ترتيبها ٦٧ — آياتها ٣٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ۖ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾

سورة الملك مكية[1]، وتسمى الواقيةَ والمنجيةَ لأنها تقي قارئَها وتنجيه من عذاب القبرِ، وآيُها ثلاثونَ آيةً

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ بقبضةِ قُدْرتِه التصرفُ في الأمور كلِّها. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ على كل ما يشاءُ قديرٌ.

(٢) ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ قدَّرهما أو أوجدَ الحياةَ وأزالها حسْبَما قدَّره. وقدَّم الموتَ لقوله ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ﴾[2] ولأنه أدْعَى إلى حسنِ العمل. ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ ليعامِلَكم معاملةَ المختبِرِ بالتكليفِ أيُّها المكلَّفون. ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أصوبُه وأخلصُه، وجاء مرفوعاً: «أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارمِ الله تعالى، وأسرعُ في طاعته»[3]. جملةٌ واقعةٌ موقعَ المفعولِ ثانياً لفعلِ البلوى المتضمِّن معنى

---

(١) وهي مكية بإجماع ـ كما في «المحرر الوجيز» لابن عطية (١٦/ ٥٩) ـ.

(٢) البقرة: «٢٨».

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص٨٦ رقم ١٨٩): «أخرجه ـ داود بن المجير في كتاب العقل ـ والحارث في مسنده عنه، والطبري وابن مردويه من طريقه عن عبدالواحد بن زيد عن كليب بن وائل عن ابن عمر. وداود ساقط. وأخرج ابن مردويه أيضاً من طريق محمد بن أمرس عن سليمان بن عيسى عن الثوري عن كليب كذلك، وإسناده أسقط من الأول» هـ.

العلمِ، وليس هذا من باب التعليق لأنه يَخِلُّ به وقوعُ الجملة خبراً، فلا يعلّقُ الفعلُ عنها بخلافِ ما إذا وقعتْ موقعَ المفعولينِ. ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالبُ الذي لا يعجِزهُ مَنْ أساءَ العملَ. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تابَ منهم.

(٣) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ مطابقةً بعضُها فوقَ بعض، مصدرُ طابقتُ النعلَ إذا خلطْتُها طَبَقاً على طبقٍ وُصِفَ به، أو طوبقتْ طباقاً أو ذات طباقٍ جمعُ طبَقٍ كجبلٍ وجبالٍ، أو طَبْقَةٍ كرحْبةٍ ورحابٍ. ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ من تفوُّتٍ ومعناهما واحدٌ كالتعاهدِ والتعهُّدِ، وهو الاختلافُ وعدم التناسُبِ من الفوْتِ كأن كلا من المتفاوتين فاتَ عنه بعضُ ما في الآخر، والجملةُ صفةٌ ثانية لسبع وُضِعَ فيها خلْقُ الرحمن موضِعَ الضمير للتعظيم والإشعارِ بأنه تعالى يخلُق مثلَ ذلك بقدرته الباهرةِ رحمةً وتفضُّلاً وأنَّ في إبداعها نِعَماً جليلةً لا تُحْصَى، والخطابُ فيها للرسولِ أو لكلِّ مخاطَبٍ وقوله: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ متعلِّقٌ به على معنى التسبُّبِ، أي قد نظرت إليها مراراً فانظرْ إليها مرةً أخرى متأملاً فيها لتعاينَ ما أخبرتَ به من تناسُبِها واستقامَتِها واستجماعِها ما ينبغي لها. والفطورُ الشقوقُ، والمراد الخلَلُ من فَطَرَهُ إذا شقَّه.

ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾

(٤) ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي رجعَتَيْنِ أُخرَيَيْنِ في ارتيادِ الخللِ، والمرادُ بالتثنيةِ التكريرُ والتكثيرُ كما في لبَّيك وسعْدَيك، ولذلك أجابَ الأمرَ بقوله: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ بعيداً عن إصابة المطلوب كأنه طُرِدَ عنه طرداً بالصَّغَارِ. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ كليلٌ من طولِ المعاودةِ وكثرةِ المراجعةِ.

(٥) ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ أقربَ السمواتِ إلى الأرض[1]. ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ بالكواكبِ المضيئةِ بالليل إضاءةَ السُّرُجِ فيها، والتنكيرُ للتعظيم ولا يمنعُ ذلك كونَ بعضِ الكواكب مركوزةً في سمواتٍ فوقَها إذ التزيينُ بإظهارِها فيها ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى وهي رجْمُ أعدائِكم، والرجومُ جمعُ رَجْمٍ بالفتح وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يُرْجَمُ به بانقضاضِ الشهبِ المسبَّبَةِ عنها. وقيل معناه وجعلناها رجوماً وظنوناً لشياطينِ الإنس وهم المنجِّمونَ. ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرة بعدَ الإحراقِ بالشُّهبِ في الدنيا.

(٦) ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ من الشياطين وغيرِهم. ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقرىء بالنصبِ على أنَّ للذين عطفٌ على لهم وعذابٌ على عذابِ السعير.

(٧) ﴿إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا﴾ صوتاً كصوتِ الحمير. ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ تغلي بهم غليانَ المِرْجَلِ بما فيه.

---

(١) تصدير الجملة بالقسم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها (س٩/ ٤).

تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾

(٨) ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ تفرَّق غيظاً عليهم، وهو تمثيلٌ لشدةِ اشتعالها بهم، ويجوز أنْ يُرادَ غيظَ الزبانيةِ. ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ جماعةٌ من الكفرةِ. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يخوِّفكم هذا العذابَ وهو توبيخٌ وتبكيت.

(٩) ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ أي فكذَّبنا الرسلَ وأفرطْنا في التكذيب حتى نفينا الإنزالَ والإرسالَ رأساً، وبلغنا في نِسْبَتِهم إلى الضلال، فالنذير إما بمعنى الجمع لأنه فعيلٌ أو مصدرٌ مقدَّرٌ بمضافٍ أي أهلُ إنذارٍ، أو منعوتٌ به للمبالغة أو الواحدُ، والخطابُ له ولأمثاله على التغليب، أو إقامةُ تكذيبِ الواحدِ مقامَ تكذيب الكلِّ، أو على أنَّ المعنى قالتِ الأفواجُ قد جاء إلى كلِّ فوجٍ منَّا رسولٌ من الله فكذَّبناهم وضلَّلْناهم، ويجوزُ أنْ يكون الخطابُ من كلام الزبانية للكفار على إرادةِ القول فيكون الضُّلَّالُ ما كانوا عليه في الدنيا، أو عقابهُ الذي يكونون فيه.

(١٠) ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامُ الرسلِ فنقبلُه جملةً من غير بحثٍ وتفتيشٍ اعتماداً على ما لاحَ من صدْقِهم بالمعجزات. ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ فنتفكرُ في حِكَمِه ومعانيه تفكُّرَ المستبصرِينَ. ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ في عِدَادِهم ومن جملَتِهم.

(١١) ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ﴾ حين لا ينفعُهم، والاعترافُ إقرارٌ عن معرفةٍ، والذَّنْبُ لم يُجْمَعْ لأنه في الأصل مصدرٌ، أوِ المرادُ به الكفرُ. ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فأسحقَهُم الله سُحْقاً أبعدَهم من رحمته، والتغليبُ للإيجاز والمبالغة والتعليلِ، وقرأ الكسائيُ بالتثقيلِ[١].

(١٢) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ﴾ يخافون عذابَه غائباً عنهم لم يعاينُوه بعدُ، أو غائبين عنه أو عنِ أعينِ الناس، أو بالمخفيِّ منهم وهو قلوبُهم. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم. ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ تصغُر دونَه لذائذُ الدنيا.

(١٣) ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ بالضمائرِ قبلَ أنْ يعبَّرَ عنها سراً أو جهراً[٢].

(١٤) ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ ألا يعلمُ السرَّ والجهْرَ مَنْ أوجَدَ الأشياءَ حَسْبَما قدَّرته حِكْمَتُه. ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ المتوصِّلُ علمُه إلى ما ظهرَ من خلْقِه وما بطنَ، أو ألا يعلمُ الله مِنْ خلْقِه، وهو بهذه

---

(١) قوله: وقرأ الكسائي بالتثقيل أي بضم الحاء من قوله «فَسُحُقًا».

(٢) وتقديم السر على الجهر للإيذان بافتضاح أمرهم ووقوع ما يحذرونه من أول الأمر والمبالغةِ في بيان شمول علمه المحيط لجميع المعلومات كأن علمه تعالى بما يسرونه أقدر منه بما يجهرون به مع كونهما في الحقيقة على السوية... أو لأن مرتبة السرّ متقدمة على مرتبة الجهر (س٩/٦).

المثابةِ والتقييدِ بهذه الحالِ يستدعي أنْ يكونَ ليعلمَ مفعولَ ليفيد. رُوِيَ[١] أنَّ المشركينَ كانوا يتكلمون فيما بينهم بأشياءَ، فيخبر اللهُ بها رسولَه، فيقولون: أسروا قولَكم لئلا يسمعَ إلهُ محمدٍ فنبَّه الله على جَهْلِهم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

(١٥) ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ لينةً يسهلُ لكم السلوكُ فيها. ﴿فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ في جوانبها أو جبالها، وهو مَثَلٌ لفرْطِ التذليلِ فإنَّ منكبَ البعير ينبو عن أن يطأه الراكبُ ولا يتذلَّلُ له، فإذا جعلَ الأرضَ في الذلِّ بحيث يُمْشَى في مناكِبِها لم يبقَ شيء لم يتذلَّلْ. ﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والْتَمِسُوا من نعمِ الله. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ المرجعُ فيسألكم عن شكرِ ما أنعمَ عليكم.

(١٦) ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني الملائكةَ الموكَّلين على تدبير هذا العالَم، أو اللهَ تعالى على تأويل مَنْ في السماء أمرُه أو قضاؤه، أو على زعمِ العرب فإنهم زعمُوا أنه تعالى في السماء، وعن ابن كثير وأَمِنْتُم بقلب الهمزة الأولى واواً لانضمامِ ما قبلَها، وآمنتم بقلبِ الثانية ألفاً وهو قراءةُ نافع وأبي عمرو ورويسٍ. ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيغيِّبُكُم فيها كما فعل بقارونَ وهو بدلٌ من بدلِ الاشتمالِ. ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ تضطربُ، والمورُ التردُّدُ في المجيءِ والذَّهابِ.

---

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي (٨/ ٣٢١).

ـ قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٨/ ٣٢٢): «وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «أأمنتم» بهمزتين (من في السماء) قال ابن عباس: أمنتم عذاب من في السماء وهو الله عز وجل؟!» هـ.

ويؤيد ذلك ما أخرجه البخاري (٨/ ٦٧ رقم ٤٣٥١) ومسلم (٢/ ٧٤٢ رقم ١٤٤/ ١٠٦٤) وأحمد في المسند (٣/ ٤) وغيرهم من حديث أبي سعيد الخدري قال: بعث علي بن أبي طالب رضي الله عنه من اليمن بذُهَيبةٍ في أديم مقروظ لم تحصَّل من ترابها، قال: فقسمها بين أربعة نفر: بين عيينة بن بدر، وأقرع بن حابس، وزيد الخيل، والرابع إما علقمة، وإما عامر بن الطفيل. فقال رجل من أصحابه: كنَّا نحنُ أحقَّ بهذا من هؤلاء. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «ألا تأمنوني وأنا أمينُ من في السماء...» الحديث.

● وأخرج مسلم (١/ ٣٨١ ـ ٣٨٢ رقم ٣٣/ ٥٣٧) ضمن قصة طويلة:

عن معاوية بن الحكم السلميّ؛ قال: «وكانت لي جارية ترعى غنماً لي قِبَلَ أُحُد والجوَّانية فأطلعتُ ذاتَ يوم فإذا الذيب قد ذهب بشاةٍ من غنمها، وأنا رجل من بني آدم آسف كما يأسفون، لكني صككتها صَكَّةً. فأتيتُ رسول الله ﷺ فعظَّمَ ذلك عليَّ، قلت: يا رسول الله أفلا أعتِقُها؟ قال: «ائتِني بها» فأتيتهُ بها فقال لها: «أينَ اللهُ؟» قالت في السماء. قال «من أنا؟» قالت: أنت رسول الله. قال «أعتِقْها فإنها مؤمنة».

وأخرجه أبو داود (١/ ٥٧٠ ـ ٥٧٣ رقم ٩٣٠) والنسائي (٣/ ١٤ ـ ١٨ رقم ١٢١٨) وأحمد في المسند (٥/ ٤٤٧، ٤٤٨ ـ ٤٤٩) والطيالسي في المسند (ص١٥٠ رقم ١١٠٥) واللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» (٣/ ٣٩١ ـ ٣٩٢ رقم ٦٥٢) وابن أبي عاصم في «كتاب السنة» (١/ ٢١٥ رقم ٤٨٩) والبيهقي في الأسماء والصفات (ص٤٢١ ـ ٤٢٢) وابن خزيمة في «كتاب التوحيد» (ص١٢١ ـ ١٢٢) وغيرهم.

وانظر الأدلة الأخرى في «التحف في مذاهب السلف» للشوكاني بتحقيقي (ص٢١ ـ ٢٤).

أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ
فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقْبِضْنَۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءِۭ
بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي
يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ
صِرَٰطٖ مُّسْتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾

(١٧) ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًاۖ﴾ أنْ يمطِرَ عليكم حَصْبَاءَ. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ كيفَ إنذاري إذا شاهدتُم المنذرَ به ولكن لا ينفعكم العلمُ حينئذٍ.

(١٨) ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إنكاري عليهم بإنزالِ العذاب، وهو تسليةٌ للرسول ﷺ وتهديدٌ لقومه المشركين.

(١٩) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ باسطاتٍ أجنحتَهُنَّ في الجوِّ عند طيرانِها، فإنهنَّ إذا بسطْنَها صَفَفْنَ قوادِمَها. ﴿وَيَقْبِضْنَۚ﴾ ويضمُمْنَها إذا ضربْنَ بها جنوبَهُنَّ وقتاً بعدَ وقتٍ للاستظهار به على التحريكِ، ولذلك عدلَ به إلى صيغةِ الفعلِ للتفرقة بين الأصلِ في الطيرانِ والطارىءِ عليه. ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ على خلافِ الطبعِ. ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُۚ﴾ الشاملُ رحمتُه كلَّ شيءٍ بأنْ خلقهنَّ على أشكالٍ وخصائصَ هيأْتهنَّ للجري في الهواءِ. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءِۭ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ كيفَ يخلقُ الغرائبَ ويدبِّرُ العجائبَ.

(٢٠) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِۚ﴾ عديلٌ لقوله أو لم يروا على معنى أو لم تنظُروا في أمثالِ هذه الصنائعِ، فلم تعلمُوا قدرتَنا على تعذيبهم بنحو خسْفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أم لكم جندٌ ينصرُكم من دون الله إنْ أرسلَ عليكم عذابَه فهو كقوله ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٞ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَاۚ﴾[١] إلا أنه أخرجَ مخرجَ الاستفهام عن تعيينِ مَنْ ينصرُهم إشعاراً بأنهم اعتقدُوا هذا القسمَ، ومَنْ مبتدأٌ وهذا خبرُه والذي بصِلَتِه صفتُه وينصرُكم وصفٌ لجندٍ محمولٌ على لفظه[٢]. ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ﴾ لا معتمدَ لهم[٣].

(٢١) ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرْزُقُكُمْ﴾ أم مَنْ يُشَارُ إليه ويقال هذا الذي يرزقُكم. ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥۚ﴾ بإمساكِ المطرِ وسائرِ الأسبابِ المخلِّصةِ والموصِلةِ له إليكم. ﴿بَل لَّجُّواْ﴾ تمادَوْا. ﴿فِي عُتُوّٖ﴾ عنادٍ. ﴿وَنُفُورٍ﴾ شِرَادٍ عن الحقِّ لتنفُرَ طباعُهم عنه.

(٢٢) ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ يُقَالُ كَبَبْتُهُ فأكبَّ وهو من الغرائب كقشعَ الله السحابَ فأقشعَ، والتحقيقُ أنهما من باب انفضّ بمعنى صارَ ذا كبٍّ وذا قشعٍ، وليس مطاوعي كبَّ وقشعَ بل المطاوعُ لهما انكبَّ وانقشعَ، ومعنى مكِباً أنه يعثُر كلَّ ساعة ويخرُّ على وجْهِهِ لوعورةِ طريقِه واختلافِ

---

(١) الأنبياء: «٤٣».

(٢) والالتفات إلى الخطاب في «ينصركم» لتشديد التبكيت (س٩/٨).

(٣) والالتفات إلى الغيبة في «إن الكافرون» للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيان قبائحهم لغيرهم (س٩/٨).

أجزائِه، ولذلك قابلَه بقوله: ﴿أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا﴾ قائماً سالماً من العِثَار. ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاءِ والجهةِ، والمرادُ تمثيلُ المشرك والموحِّدِ بالسالكين والدينين بالمسلكينَ، ولعلَّ الاكتفاءَ بما في الكبِّ من الدلالة على حالِ المسلكِ للإشعار بأنَّ ما عليه المشركُ لا يستأهلُ أنْ يُسَمَّى طريقاً، كمشي المتعسِّفِ في مكان متعادٍ غيرِ مستوٍ. وقيل المراد بالمكبِّ الأعمى فإنه يتعسَّفُ فينكبُّ وبالسويِّ البصيرُ، وقيل مَنْ يمشي مكباً هو الذي يُحْشَرُ على وجهه إلى النار ومن يمشي سوياً الذي يُحْشَرُ على قدميه إلى الجنة.

قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ
مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ
أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

(٢٣) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعُوا المواعظَ. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا صنائِعَهُ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكروا وتعتبروا. ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستعمالها فيما خُلِقَتْ لأجلِها.

(٢٤) ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاءِ.

(٢٥) ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي الحشرُ أو ما وعدوا به من الخسْفِ والحاصب. ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنُونَ النبيَّ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ.

(٢٦) ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي عِلْمُ وقْتِه. ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطَّلِع عليه غيرُه. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذارُ يكفي فيه العلمُ بلِ الظنُّ بوقوعِ المحذَّرِ منه.

(٢٧) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ أي الوعدَ فإنه بمعنى الموعود. ﴿زُلْفَةً﴾ ذا زلفةٍ أي قربٍ منهم. ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنْ علتها الكآبةُ وساءَتْها رؤيةُ العذاب. ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ تطلبون وتستعجلون تفتعِلونَ من الدعاءِ، أو تدَّعون أنْ لا بعثَ فهو من الدَّعْوى.

(٢٨) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أماتَنِيْ. ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ من المؤمنين. ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالِنا. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي لا ينجيهم أحدٌ من العذاب مِتْنَا أو بقينا، وهو جوابٌ لقولهم نتربَّصُ به ريبَ المنون.

(٢٩) ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكم إليه مُوْلِيْ النعمِ كلِّها. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلم بذلك ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوقِ عليه والعلمِ بأنَّ غَيْرَهُ بالذاتِ لا يضرُّ ولا ينفعُ، وتقديمُ الصلةِ للتخصيصِ والإشعارِ به. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ منا ومنكم، وقرأ الكسائيُّ بالياء.

(٣٠) ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ غائراً في الأرض بحيثُ لا تنالُه الدِّلاءُ مصدرٌ وُصِفَ به. ﴿فَمَن

يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾ جارٍ أو ظاهرٌ سهلُ المأخذِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الملكِ فكأنما أحيا ليلةَ القدر»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) **وهو حديث موضوع.**
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٦ رقم ٢٠٨).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَلَمِ

ترتيبها ٦٨ — آياتها ٥٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ
عَظِيمٍ ﴿٤﴾ فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ ﴿٥﴾ بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ
بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٧﴾ فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ﴿٩﴾ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ
مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾

سورة نٓ مكية[١] وآيها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿نٓ﴾ من أسماءِ الحروفِ، وقيل اسمُ الحوتِ والمرادُ به الجنسُ، أو البَهْموت[٢] وهو الذي عليه الأرضُ، أوِ الدواةُ فإنَّ بعضَ الحيتانِ يُسْتَخرَجُ منه شيءٌ أشدُّ سواداً من النِّقْس[٣] يُكْتَبُ به، ويؤيد الأولَ سكونُه وكَتْبُه بصورةِ الحرفِ. ﴿وَٱلْقَلَمِ﴾ وهو الذي خطَّ اللوحَ، أو الذي يُخَطُّ به أقسمَ به تعالى لكثرةِ فوائدِه. وأخفى ابنُ عامر والكسائي ويعقوبُ النونَ إجراءً للواوِ المنفصلِ مجرى المتَّصلِ؛ فإنَّ النونَ الساكنةَ تُخفَى مع حروفِ الفمِ إذا اتصلتْ بها، وقد رُوِيَ ذلك عن نافع وعاصمٍ، وقرئت بالفتحِ والكسرِ كصَ. ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ وما يكتُبونَ، والضميرُ للقلم بالمعنى الأولِ على التعظيم، أو بالمعنى

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٧٣): «وهي مكية ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل» هـ.

(٢) البهموت اسم لسمكة عليها الأرض، وقد أخرج ابن مردويه عن ابن عباس في قوله «نٓ والقلم..» قال: قال رسول الله ﷺ: «النون السمكة التي عليها قرار الأرضين...» (الدر المنثور ٦/ ٣٨٩).

(٣) النقس: هو الشيء الذي يكتب به (مختار الصحاح مادة نقس).

الثاني على إرادةِ الجنسِ. وإسنادُ الفعل إلى الآلةِ وإجراؤُه مجرى أولي العلمِ لإقامتِه مقامَهُم، أو لأصحابه، أو للحفَظَةِ، وما مصدريةٌ أو موصولة.

(٢) ﴿مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ﴾ جوابُ القسم والمعنى ما أنتَ بمجنونٍ مُنْعَماً عليك بالنبوة وحصافةِ الرأي، والعاملُ في الحال معنى النفي. وقيلَ بمجنونٍ الباءُ لا تمنعُ عملَه فيما قبلَه لأنها مزيدةٌ، وفيه نظرٌ من حيثُ المعنى[١].

(٣) ﴿وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا﴾ على الاحتمالِ والإبلاغِ. ﴿غَيْرَ مَمْنُونٍ﴾ مقطوعٍ أو ممنونٍ به عليك من الناس فإنه تعالى يعطيك بلا توسُّطٍ.

(٤) ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ إذ تتحمَّلُ من قومك ما لا يتحمَّلُ أمثالُك، وسُئِلَتْ عائشةُ رضي الله تعالى عنها عن خُلُقِه ﷺ فقالت: كان خلُقه القرآن[٢]، ألسْتَ تقرأُ القرآنَ ﴿قد أفلحَ المؤمنون﴾[٣].

(٥) ﴿فَسَتُبْصِرُ وَيُبْصِرُونَ﴾.

(٦) ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ﴾ أيكُم الذي فُتِنَ بالجنون والباءُ مزيدةٌ، أو بأيِّكم الجنونُ على أنَّ المفتونَ مصدرٌ كالمعقول والمجلودِ، أو بأي الفريقين منكم المجنونُ أبفريقِ المؤمنينَ أو بفريق الكافرين، أي في أيِّهما يوجدُ مَنْ يستحقُّ هذا الاسمَ.

(٧) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ وهم المجانينُ على الحقيقة. ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الفائزين بكمالِ العقلِ[٤].

(٨) ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ تهيُّجٌ للتصميم على معاصاتِهم.

(٩) ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ﴾ تلاينُهم بأنْ تدعَ نَهْيَهُم عن الشرك، أو توافِقَهم فيه أحياناً[٥]. ﴿فَيُدْهِنُونَ﴾ فيلاينُونَك بتركِ الطعنِ والموافقةِ، والفاءُ للعطفِ أي ودُّوا التداهُنَ وتمنَّوه لكنَّهم أخَّروا ادّهانَهم حتى تدهِنَ، أو للسببيةِ أي ودُّوا لو تدهنُ فهم يدهنونَ حينئذٍ، أو ودُّوا ادِّهانك فهم الآنَ يدهنونَ طمَعاً فيه، وفي بعض المصاحفِ فيدهِنُوا على أنه جوابُ التمنِّي.

(١٠) ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ﴾ كثيرَ الحلفِ في الحقِّ والباطل. ﴿مَّهِينٍ﴾ حقيرِ الرأيِ من المهانةِ وهي الحقارةُ.

(١١) ﴿هَمَّازٍ﴾ عياب. ﴿مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ نقال للحديث على وجه السعاية.

---

(١) والتعرض لوصف الربوبية «ربك» مع الإضافة إلى ضميره ﷺ لتشريفه ـ عليه السلام ـ والإيذان بأنه تعالى يتم نعمته عليه ويبلغه من العلوّ إلى غاية لا غاية وراءها (س٩/ ١١).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥١٣ رقم ٧٤٦/١٣٩) في سياق طويل هذا جزء منه. وأخرجه الحاكم (٢/ ٤٩٩) مختصراً بلفظ المصنف. وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وهذا وهم منه فإن مسلماً أخرجه كما رأيت.

(٣) المؤمنون: «١».

(٤) وزيادة «هو أعلم» لزيادة تقرير علمه تعالى (س٩/ ١٢).

(٥) عبر عن مداهنتهم بالطاعة التي نهى عنها قبل للمبالغة في الزجر والتنفير (س٩/ ١٣).

مَنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ ﴿١٦﴾ إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾

(١٢) ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ يمنع الناس عن الخير من الإيمان والإيقان والعمل الصالح. ﴿مُعْتَدٍ﴾ متجاوز في الظلم. ﴿أَثِيمٍ﴾ كثير الآثام.

(١٣) ﴿عُتُلٍّ﴾ جافٍ غليظٌ من عتلَه إذا قادَه بعنفٍ وغِلْظَةٍ. ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ بعدَما عدَّ من مثالِبِه. ﴿زَنِيمٍ﴾ دعيٌّ مأخوذٌ من زنمتي الشاةِ وهما المتدليتانِ من أُذُنِها وحلقِها، قيل هو الوليد بنُ المغيرة ادّعاه أبوه بعدَ ثماني عشرةَ من مولدِه، وقيل الأخنس بنُ شريق أصلُه من ثقيفَ وعِدَاده في زهرةَ.

(١٤) ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾.

(١٥) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ قال ذلك حينئذٍ لأنه كان متمولاً مستظهِراً بالبنينِ من فَرْطِ غُروره، لكنَّ العاملَ مدلولُ قال لانفسُه، لأنَّ ما بعدَ الشرط لا يعملُ فيما قبلَه، ويجوزُ أنْ يكونَ علة لِلَاتُطِعْ أي لا تطعْ مَنْ هذه مثالُه لأنّ كان ذا مالٍ. وقرأ ابنُ عامر وحمزةُ ويعقوب وأبو بكر أنْ كانَ على الاستفهامِ، غيرَ أنَّ ابنَ عامرٍ جعلَ الهمزةَ الثانيةَ بينَ بينَ أي ألأن كان ذا مال كذَبَ، أو أتطيعُه لأنْ كان ذا مال. وقرىء إن كان بالكسرِ على أنَّ شرط الغِنَى في النهي عن الطاعةِ كالتعليل بالفقرِ في النهي عن قتلِ الأولاد، أو أنَّ شرطَه للمخاطبِ أي لا تطعْهُ شارِطاً يسارهُ لأنه إذا أطاعَ للغني فكأنه شرطَه في الطاعةِ.

(١٦) ﴿سَنَسِمُهُۥ﴾ بالكيِّ. ﴿عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ على الأنفِ وقد أصابَ أنفَ الوليد جراحةٌ يومَ بدْرٍ فبقي أثرهُ، وقيل هو عبارةٌ عن أنْ يذلَّه غايةَ الإذلالِ كقولهم: جدَعَ أنفَه، رغِمَ أنفُه، لأنَّ السِّمةَ على الوجْهِ سيما على الأنفِ شينٌ ظاهر، أو نسوِّدُ وجْهَهُ يومَ القيامة.

(١٧) ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ﴾ بلونا أهلَ مكَّةَ شرَّفها الله تعالى بالقحْطِ. ﴿كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ يريدُ البستانَ الذي كان دونَ صنعاءَ بفرسخينِ، وكان لرجلٍ صالح، وكان ينادي الفقراءَ وقْتَ الصرام ويتركُ لهم ما أخطأه المنجلُ وألقتْه الريحُ. أو بَعُدَ من البساطِ الذي يُبْسَطُ تحتَ النخلة، فيجتمعُ لهم شيءٌ كثيرٌ، فلما ماتَ قال بنوه إنْ فعلْنا ما كان يفعلُه أبونا ضاقَ علينا الأمرُ، فحلفوا ليصرمُنّها وقْتَ الصباحِ خُفْيَةً عن المساكين كما قال: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ﴾ ليقطعنَّها داخلين في الصباحِ.

(١٨) ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ﴾ ولا يقولون إنْ شاءَ الله، وإنما سمَّاه استثناءً لما فيه من الإخراجِ غيرَ أن المخرجَ به خلافُ المذكورِ والمخرجُ بالاستثناءِ عينُه، أو لأنَّ معنى لأخرجُ إنْ شاءَ الله ولا أخرجُ إلى أن يشاءَ الله واحدُ، أو ولا يستثنون حصَّةَ المساكينِ كما كان يخرجُ أبوهم.

(١٩) ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا﴾ على الجنةِ. ﴿طَآئِفٌ﴾ بلاءٌ طائفٌ. ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ مبتدأٌ منه. ﴿وَهُمْ نَآئِمُونَ﴾.

(٢٠) ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ﴾ كالبستانِ الذي صُرِمَ ثمارُه بحيثُ لم يبقَ فيه شيءٌ. فعيلٌ بمعنى مفعولٍ، أو كالليل باحتراقها واسودادِها، أو كالنهار بابيضاضِها من فرطِ اليُبْسِ سُمِّيا بالصريمِ لأنَّ كلاًّ منهما ينصرمُ عن صاحبِه أو كالرملِ.

فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم
مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ
لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ ﴿٣٠﴾

(٢١) ﴿فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ﴾ .

(٢٢) ﴿أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْثِكُمْ﴾ أنِ اخرجُوا أو بأنِ أخرجُوا إليه غدوةً، وتعديةُ الفعلِ بعلَى إما لتضمُّنه معنى الإقبالِ أو لتشبيهِ الغدوِّ للصرَّامِ بغدوِّ العدوِّ المتضمِّنِ لمعنى الاستيلاءِ. ﴿إِن كُنتُمْ صَارِمِينَ﴾ قاطعين له.

(٢٣) ﴿فَانطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخَافَتُونَ﴾ يتشاورون فيما بينَهم وخفَى وخَفَتَ وخَفَدَ بمعنى الكتْم، ومنه الخفدودُ للخفاش.

(٢٤) ﴿أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾ أنْ مفسِّرةٌ، وقرىء بطرحِها على إضمار القول، والمرادُ بنهي المسكين عن الدخولِ المبالغةُ في النهي عن تمكينِه من الدخول كقولهم: لا أرينَّك ها هُنا.

(٢٥) ﴿وَغَدَوْا عَلَىٰ حَرْدٍ قَادِرِينَ﴾ وغدوا قادرينَ على نَكَدٍ لا غيرَ، من حارَدَتِ السَّنَةُ إذا لم يكنْ فيها مطرٌ، وحاردتِ الإبلُ إذا منعتْ درَّها. والمعنى أنهم عزموا أنْ يتنكَّدوا على المساكين فتُنُكِّدَ عليهم بحيث لا يقدرون إلا على النكِدِ، أو غدوا حاصلينَ على النكدِ والحرمانِ مكانَ كونهم قادرينَ على الانتفاعِ. وقيل الحرْدُ بمعنى الحَرَدِ وقد قرىء به أي لم يقدروا إلا على حنقٍ بعضِهم لبعضٍ كقوله ﴿يَتَلَاوَمُونَ﴾[1] وقيل الحردُ القصدُ والسرعةُ قال:

أَقْبَلَ سَيْلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللهِ يَحْرُدُ حَرْدَ الجَنَّةِ المُغِلَّة

أي غَدَوْا قاصدين إلى جنَّتهم بسرعةٍ قادرينَ عندَ أنفسِهم على صِرَامِها. وقيل عَلَمٌ للجنَّةِ.

(٢٦) ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أولَ ما رأوها. ﴿قَالُوا إِنَّا لَضَالُّونَ﴾ طريقَ جنَّتِنا وما هي بها.

(٢٧) ﴿بَلْ نَحْنُ﴾ أي بعدَ ما تأملوا وعرفُوا أنها هي قالوا بل نحن ﴿مَحْرُومُونَ﴾ حُرِمْنَا خيرها لجنايتنا على أنفسِنا.

(٢٨) ﴿قَالَ أَوْسَطُهُمْ﴾ رأياً، أو سِنّاً. ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ لولا تَذْكرونه وتتوبون إليه من خُبْثِ نيَّتِكم، وقد قاله حينما عزموا على ذلك ويدلُّ على هذا المعنى.

(٢٩) ﴿قَالُوا سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ أي لولا تستثنونَ فسُمِّيَ الاستثناءُ تسبيحاً لتشارُكِهما في التعظيمِ، أو لأنه تنزيهٌ عن أنْ يجريَ في ملكِه ما لا يريدُه.

(٣٠) ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَاوَمُونَ﴾ يلوم بعضُهم بعضاً، فإنَّ منهم مَنْ أشار بذلك ومنهم مِن استَصْوَبَه ومنهم من سكتَ راضياً ومنهم من أنكرهُ.

---

(١) نَ: «٣٠».

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ
كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣٤﴾ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ
لَكُمْ كِتَابٌ فِيهِ تَدْرُسُونَ ﴿٣٧﴾ إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا بَالِغَةٌ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ ﴿٣٩﴾
سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ ﴿٤٠﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٤١﴾

(٣١) ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا طَاغِينَ﴾ متجاوزين حدودَ اللهِ تعالى.

(٣٢) ﴿عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا﴾ ببركةِ التوبةِ والاعترافِ بالخطيئةِ، وقد رُوِيَ[1] أنهم أُبدِلُوا خيراً منها. وقرىء يبدِلُنا بالتخفيفِ. ﴿إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رَاغِبُونَ﴾ راجونَ العفوَ طالبونَ الخيرَ. وإلى لانتهاءِ الرغبةِ، أو لتضمُّنِها معنى الرجوعِ.

(٣٣) ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ﴾ مثلُ ذلك العذابِ الذي بلونا به أهلَ مكَّة وأصحابَ الجنةِ العذابَ في الدنيا. ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ أعظمُ منه. ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ لاحترزوا عما يؤدِّيهم إلى العذاب.

(٣٤) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ أي في الآخرة، أو في جوار القدسِ. ﴿جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ جناتٍ ليس فيها إلا التنعُّمُ الخالِصُ.

(٣٥) ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ إنكارٌ لقول الكفرةِ، فإنَّهم كانوا يقولون: إنْ صحَّ أنَّا نُبعَثُ كما يزعم محمدٌ ومن معه لم يفضُلونا بل نكون أحسنَ حالاً منهم كما نحن عليه في الدنيا.

(٣٦) ﴿مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ التفاتٌ فيه تعجُّبٌ من حُكْمِهم واستبعادٌ له، وإشعارٌ بأنه صادرٌ مِن اختلالِ فِكْرٍ واعوجاجِ رأيٍ.

(٣٧) ﴿أَمْ لَكُمْ كِتَابٌ﴾ من السماءِ. ﴿فِيهِ تَدْرُسُونَ﴾ تقرؤُون.

(٣٨) ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَمَا تَخَيَّرُونَ﴾ إن لكم ما تختارونَه وتشتهونَه، وأصلُه أنَّ لكم بالفتحِ لأنه المدروسُ فلما جِيْءَ باللامِ كُسِرتْ، ويجوز أنْ يكونَ حكايةً للمدروسِ أوِ استئنافاً. وتخيَّر الشيءَ واختارَه أخذَ خيرَهُ.

(٣٩) ﴿أَمْ لَكُمْ أَيْمَانٌ عَلَيْنَا﴾ عهودٌ مؤكَّدة بالإيمان. ﴿بَالِغَةٌ﴾ متناهيةٌ في التوكيد، وقُرِئَتْ بالنصبِ على الحالِ والعاملُ فيها أحدُ الظرفينِ. ﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ متعلِّقٌ بالمقدَّرِ في لكم أي ثابتة لكم علينا إلى يوم القيامةِ لا نخرجُ عن عهدَتِها حتى نحكِّمَكُم في ذلك اليوم، أو ببالغةٍ أي أيمانٌ تبلغُ ذلك اليومَ. ﴿إِنَّ لَكُمْ لَمَا تَحْكُمُونَ﴾ جوابُ القسمِ لأنَّ معنى أم لكم أيمانٌ علينا أم أقسمْنا لكم.

(٤٠) ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ بذلك الحكمِ قائمٌ يدَّعيه ويصحِّحُهُ.

(٤١) ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ﴾ يشاركونهم في هذا القولِ. ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرَكَائِهِمْ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ في دعواهم إذ لا أقلَّ من التقليد. وقد نبَّه سبحانه وتعالى في هذه الآياتِ على نفي جميعِ ما يمكن أنْ يتشبَّثوا به من عقلٍ أو نقلٍ يدلُّ عليه لاستحقاقٍ أو وعدٍ أو محضِ تقليدٍ على الترتيبِ تنبيهاً على مراتبِ النظرِ وتزييفاً

---

(١) ذكره الألوسي (٢٩/ ٣٢) عنه بدون سند.

لما لا سندَ له. وقيل المعنى أم لهم شركاءُ يعني الأصنامَ يجعلونَهم مثلَ المؤمنين في الآخرة، كأنه لما نَفَى أنْ تكونَ التسويةُ من الله تعالى نَفَى بهذا أنْ تكون مما يشاركونَ اللهَ به.

يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ وَهُمْ سَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٦﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤٧﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾

(٤٢) ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ﴾ يومَ يشتدُّ الأمرُ ويصعبُ الخطبُ، وكَشْفُ الساقِ مَثَلٌ في ذلك، وأصلُه تشميرُ المخدَّراتِ عن سوقهنَّ في الهربِ. قال حاتمٌ:

أَخو الحَرْبِ إنْ عَضَّتْ بِهِ الحَرْبُ عَضَّهَا وإِنْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا الحَرْبُ شَمَّرَا[1]

أو يومَ يُكْشَفُ عن أصلِ الأمرِ وحقيقتِه بحيثُ يصيرُ عَيَاناً مستعارٌ من ساقِ الشجرِ وساقِ الإنسان، وتنكيرُهُ للتهويل أوِ للتعظيم. وقرىءَ تَكْشِفُ وتُكْشَفُ بالتاءِ على بناءِ الفاعلِ أوِ المفعولِ، والفعلُ للساعةِ أوِ الحالِ. ﴿وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ توبيخاً على تركِهم السجودَ إن كان اليومُ يومَ القيامةِ، أو يدعون إلى الصلواتِ لأوقاتِها إنْ كان وقتُ النزعِ. ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ لذهابِ وقْتِه أو زوالِ القدرةِ عليه.

(٤٣) ﴿خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ تلحقُهم ذلَّةٌ. ﴿وَقَدْ كَانُوا۟ يُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ﴾ في الدنيا أو زمانَ الصحةِ. ﴿وَهُمْ سَٰلِمُونَ﴾ متمكِّنون منه مزاحُو العللِ فيه.

(٤٤) ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ كِله إليَّ فإني أكفيكهُ. ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم﴾ سندْنِيهم من العذاب درجةً درجةً بالإمهالِ وإدامةِ الصحةِ وازديادِ النِّعمةِ. ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنه استدراجٌ وهو الإنعامُ عليهم لأنَّهم حَسِبُوه تفضيلاً لهم على المؤمنينَ.

(٤٥) ﴿وَأُمْلِى لَهُمْ﴾ وأمهِلْهم. ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ﴾ لا يُدْفَعُ بشيءٍ، وإنما سمَّى إنعامَه استدراجاً بالكيد لأنه في صورته.

(٤٦) ﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا﴾ على الإرشادِ. ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ﴾ من غرامةٍ. ﴿مُّثْقَلُونَ﴾ بحملِها فيعرِضُون عنك.

(٤٧) ﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ﴾ اللوحُ أو المغيَّباتُ. ﴿فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ منه ما يحكمونَ به ويستغنونَ به عن علمِكَ.

(٤٨) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ وهو إمهالُهم وتأخيرُ نُصْرَتِكَ عليهم. ﴿وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ يونسُ عليه الصلاة والسلام. ﴿إِذْ نَادَىٰ﴾ في بطن الحوتِ. ﴿وَهُوَ مَكْظُومٌ﴾ مملوءٌ غيظاً من الضجرةِ فتبتلي ببلائِه.

---

(١) من الطويل.

لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ ﴿٥١﴾ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٢﴾

(٤٩) ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ يعني التوفيقَ للتوبةِ وقبولَها، وحَسُنَ تذكيرُ الفعلِ للفصْلِ، وقرىء تداركتْه وتدّاركَه أي تتداركُه على حكايةِ الحال الماضيةِ بمعنى لولا أن كان يُقَالُ في تتداركُه. ﴿لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ﴾ بالأرضِ الخاليةِ عن الأشجارِ. ﴿وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾ مليمٌ مطرودٌ عن الرحمة والكرامةِ، وهو حالٌ يعتمِدُ عليها الجوابُ لأنها المنفيةُ دونَ النَّبْذِ.

(٥٠) ﴿فَٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ بأنْ ردَّ الوحْيَ إليه، أو استنبأَه إنْ صحَّ أنه لم يكن نبياً قبل هذه الواقعةِ. ﴿فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ من الكاملين في الصلاح بأنْ عصَمَه من أنْ يفعلَ ما تركُه أَوْلَى، وفيه دليلٌ على خلْقِ الأفعال. والآيةُ نزلتْ حين همَّ رسول الله ﷺ أنْ يدعوَ على ثقيفٍ. وقيل بأُحُدٍ حين حلَّ به ما حلَّ فأرادَ أنْ يدعوَ على المنهزمينَ.

(٥١) ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ﴾ إنْ هي المخففةُ واللامُ دليلُها والمعنى: أنهم لشدةِ عداوتِهم ينظرون إليك شَزَراً بحيثُ يكادون يُزِلُّون قدمَك، أو يهلِكُونك من قولهم نَظَرَ إليَّ نظراً يكاد يصرعُني أي لو أمكنَه بنظره الصرعَ لفعلَه، أو أنهم يكادون يصيبونك بالعينِ؛ إذ رُوِيَ أنه كان في بني أسدٍ عيَّانون، فأراد بعضُهم أنْ يعيِّنَ رسولَ الله ﷺ، فنزلتْ[1]. وفي الحديث: «إنَّ العينَ لَتُدْخِلُ الرجلَ القبرَ والجملَ القِدْرَ»[2] ولعلَّه يكون من خصائص بعضِ النفوس. وقرأ نافعٌ لَيَزْلِقونَك من زَلَقْتُه فزَلَقَ

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٤٣ بدون سند.

(٢) أخرجه ابن عدي (٦/ ٢٤٠٣) وأبو نعيم في الحلية (٧/ ٩٠) والخطيب في تاريخ بغداد» (٩/ ٢٤٤) من حديث جابر.
وأشار الذهبي في «الميزان» (٢/ ٢٧٥) إلى هذا الحديث وحكم عليه بالنكارة.
وقال أبو نعيم: «غريب من حديث الثوري تفرد به معاوية».
وقال الألباني في «الصحيحة» (٣/ ٢٥١): «... وإسناده حسن عندي لأن شعيب بن أيوب وثقه الدارقطني وابن حبان، وجرحه أبو داود جرحاً مبهماً فقال: إني لأخاف الله تعالى في الرواية عنه» هـ.
● وله شاهد بالمعنى من حديث أبي ذر بلفظ «إن العين لتولع الرجل بإذن الله حتى يصعد حالقاً ثم يتردى منه».
أخرجه أحمد (٥/ ١٤٦) والبزار (٤/ ٤٠٣ ـ ٤٠٤ ـ كشف) وابن عدي في الكامل (٣/ ٩٧١) عنه.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٦) وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجال أحمد ثقات، وقال الألباني في «الصحيحة» (٢/ ٥٨١): «وهذا إسناد رجاله كلهم ثقات معروفون غير محجن هذا أورده في «تعجيل المنفعة» (ص٣٩٥) ـ من هذا الإسناد ـ وقال: «ذكره ابن حبان في الثقات ـ (٥/ ٤٤٨) ـ» هـ.
● وله شاهد آخر بالمعنى أيضاً من حديث ابن عباس بلفظ: «العين حق تستنزل الحالق».
أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤، ٢٩٤) والطبراني في الكبير (١٢/ ١٨٤ رقم ١٢٨٣٣) والحاكم (٤/ ٢١٥) عنه. وقال الحاكم: صحيح ووافقه الذهبي.
وأورده الهيثمي في «المجمع» (٥/ ١٠٧) وقال: «رواه أحمد والطبراني وفيه دويد البصري، وقال أبو حاتم لين، وبقية رجاله ثقات» هـ.
=

كحزنْتُه فحزِنَ، وقرىء ليُزهِقونك أي ليهلِكُونك. ﴿لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ﴾ أي القرآنَ أي ينبعثُ عند سماعِه بغضُهم وحسدُهم. ﴿وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾ حيرةً في أمره وتنفيراً عنه.

(٥٢) ﴿وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ لما جنّنُوه لأجلِ القرآنِ بيَّن أنه ذِكْرٌ عامٌّ لا يدركُه ولا يتعاطَاه إلا مَنْ كان أكملَ الناسِ عقلاً وأميزَهم رأياً. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ القلمِ أعطاه الله ثوابَ الذين حسَّنَ الله أخلاقَهم»[1].

☆ ☆ ☆

= والخلاصة أن الحديث حسن بشواهده والله أعلم.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٧ رقم ٢١٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الحاقة

ترتيبها ٦٩ آياتها ٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٣﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ ﴿٤﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ ﴿٥﴾ وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾

سورة الحاقة مكية [1]، وآيها اثنتان وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْحَآقَّةُ﴾ أي الساعةُ أو الحالةُ التي يحقُّ وقوعُها، أوِ التي تحقُّ فيها الأمورُ أي تُعْرَفُ حقيقتُها، أو تقعُ فيها حواقُّ الأمورِ من الحسابِ والجزاءِ على الإسنادِ المجازيِّ، وهي مبتدأٌ خبرُها:

(٢) ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأصلُه ما هيَ أيْ: أيُّ شيءٍ هيَ على التعظيمِ لشأنِها والتهويلِ لها، فوضَعَ الظاهرَ موضِعَ الضمير لأنه أهولُ لها.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ وأيُّ شيءٍ أعْلَمَكَ ما هيَ، أي أنك لا تعلمُ كُنْهَهَا فإنَّها أعظمُ من أنْ تبلُغَها درايةُ أحدٍ، وما مبتدأٌ وأدراكَ خبرهُ.

(٤) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌۢ بِٱلْقَارِعَةِ﴾ بالحالةِ التي تقرعُ فيها الناسَ بالإفزاعِ والأجرامَ بالانفطارِ والانتشارِ، وإنما وُضِعَتْ موضعَ ضميرِ الحاقةِ زيادةً في وصْفِ شدَّتِها.

(٥) ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا۟ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾ بالواقعةِ المجاوزةِ للحدِّ في الشدَّةِ وهي الصيحةُ، أوِ الرجفةُ لتكذيبهم بالقارعةِ، أو بسببِ طغيانِهم بالتكذيبِ وغيرِهِ على أنها مصدرٌ كالعاقبةِ وهو لا يطابِقُ قولَه:

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».
(١٦/ ٩٢): «وهي مكية بالإجماع».

(٦) ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ﴾ أي شديدةِ الصوتِ أو البردِ من الصرِّ أوِ الصَّرِّ. ﴿عَاتِيَةٍ﴾ شديدةِ العصفِ كأنها عتتْ على خزَّانِها فلم يستطيعوا ضَبْطَها، أو على عادٍ فلم يقدروا على ردِّها.

(٧) ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ﴾ سلَّطها عليهم بقدرتِه، وهو استئنافٌ أو صفةٌ جيء به لنفي ما يُتَوَهَّمُ من أنها كانتْ من اتصالاتٍ فلكيةٍ، إذ لو كانتْ لكان هو المقدِّر لها والمسبِّبُ. ﴿سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا﴾ متتابعاتٍ جمعُ حاسمٍ من حسمتُ الدابةَ إذا تابعْتَ بين كيِّها، أو نَحِساتٍ حسمتْ كلَّ خيرٍ واستأصلتْه، أو قاطعاتٍ قطعتْ دابِرَهم، ويجوزُ أنْ يكونَ مصدراً منتصِباً على العلَّةِ بمعنى قطعاً، أوِ المصدرِ لفعله المقدَّرِ حالاً أي تحسمُهم حسوماً ويؤيده القراءةُ بالفتح، وهي كانتْ أيامُ العجوزِ من صبيحةِ أربعاءٍ إلى غروبِ الأربعاءِ الآخَرِ، وإنما سُمِّيتْ عجوزاً لأنها عَجُزُ الشتاء، أو لأنَّ عجوزاً من عادٍ توارتْ في سربٍ فانتزعتْها الريحُ في الثامنِ فأهلكتْها. ﴿فَتَرَى الْقَوْمَ﴾ إنْ كنتَ حاضِرَهم ﴿فِيهَا﴾ في مهابِّها أو في الليالي والأيام. ﴿صَرْعَى﴾ موتى جمعُ صريعٍ. ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أصولُ نخلٍ. ﴿خَاوِيَةٍ﴾ متآكلةِ الأجوافِ.

فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ﴿٨﴾ وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ بِٱلْخَاطِئَةِ ﴿٩﴾ فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً ﴿١٠﴾ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴿١١﴾ لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ ﴿١٢﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾

(٨) ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ من بقيةٍ أو نَفْسٍ باقية أو بقاءٍ.

(٩) ﴿وَجَآءَ فِرْعَوْنُ وَمَن قَبْلَهُۥ﴾ ومن تقدَّمه. وقرأ البصريانِ والكسائيُّ ومَنْ قِبَلَهُ أي ومَنْ عِندَه من أتباعِه، ويدل عليه أنه قرىء ومَنْ معهُ. ﴿وَٱلْمُؤْتَفِكَٰتُ﴾ قُرَى قومِ لوطٍ والمرادُ أهلُها. ﴿بِٱلْخَاطِئَةِ﴾ بالخطأ أو بالفعلةِ، أو الأفعالِ ذاتِ الخطأ.

(١٠) ﴿فَعَصَوْا۟ رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ أي فعصتْ كلُّ أمةٍ رسولَها. ﴿فَأَخَذَهُمْ أَخْذَةً رَّابِيَةً﴾ زائدةً في الشدةِ زيادةَ أعمالِهم في القُبحِ.

(١١) ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ جاوزَ حدَّه المعتادَ، أو طغى على خُزَّانه وذلك في الطوفانِ وهو يؤيد مَنْ قِبَلَهُ. ﴿حَمَلْنَٰكُمْ﴾ أي آباءَكم وأنتم في أصلابهم. ﴿فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ في سفينةِ نوحٍ عليه الصلاة والسلام.

(١٢) ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ﴾ لنجعلَ الفعلةَ وهي إنجاءُ المؤمنين وإغراقُ الكافرين. ﴿تَذْكِرَةً﴾ عبرةً ودلالةً على قدرة الصانعِ وحكمته وكمالِ قهرِهِ ورحمته. ﴿وَتَعِيَهَآ﴾ وتحفظُها، وعن ابن كثير تَعْيَهَا بسكونِ العين تشبيهاً بكَتْفٍ، والوعيُ أنْ تحفظَ الشيءَ في نفسِك والإيعاءُ أنْ تحفظَه في غيرِكَ. ﴿أُذُنٌ وَٰعِيَةٌ﴾ من شأنِها أنْ تحفظَ ما يَجبُ حفظُه بتذكُّرِه وإشاعتِه والتفكُّرِ فيه والعملِ بموجبِه، والتنكيرُ للدلالة على قلَّتِها وأنَّ مَنْ هذا شأنُه مع قلَّته تسبَّبَ لإنجاءِ الجمِّ الغفير وإدامةِ نسْلِهم. وقرأ نافع أذْنٌ بالتخفيفِ.

(١٣) ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ لما بالغَ في تهويلِ القيامةِ وذَكَرَ مآل المكذبينَ بها تفخيماً لشأنِها وتنبيهاً على مكانها عادَ إلى شرحها. وإنما حَسُنَ إسناد الفعلِ إلى المصدرِ لتقيده، وحسُن تذكيرُه

للفصْلِ، وقرىء نفخةً بالنصبِ على إسنادِ الفعل إلى الجارِّ والمجرور والمرادُ بها النفخةُ الأولى التي عندَها خرابُ العالَم.

﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً ﴿١٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ﴿١٥﴾ وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ ﴿١٦﴾ وَٱلْمَلَكُ عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا ۚ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾

(١٤) ﴿وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ رُفِعَتْ من أماكِنها بمجرَّدِ القدرةِ الكاملة، أو بتوسُّطِ زلزلةٍ أو ريحٍ عاصفة. ﴿فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ فضربتِ الجملتانِ بعضُها ببعض ضربةً واحدةً فيصيرُ الكلُّ هباءً، أو فَبُسِطَتَا بسطةً واحدةً فصارتا أرضاً لا عِوجَ فيها ولا أَمْتاً لأنَّ الدكَّ سببٌ للتسويةِ، ولذلك قيل ناقةٌ دكَّاء للتي لا سنامَ لها، وأرضٌ دكَّاءُ للمتَّسِعة المستويةِ.

(١٥) ﴿فَيَوْمَئِذٍ﴾ فحينئذٍ. ﴿وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ قامتِ القيامةُ.

(١٦) ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ لنزولِ الملائكة. ﴿فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ ضعيفةٌ مسترخيةٌ.

(١٧) ﴿وَٱلْمَلَكُ﴾ والجنسُ المتعارفُ بالمَلَكِ. ﴿عَلَىٰٓ أَرْجَآئِهَا﴾ جوانبها جمعُ رجا بالقصرِ، ولعلَّه تمثيلٌ لخراب السماءِ بخرابِ البنيانِ وانضواءِ أهلها إلى أطرافِها وحواليها، وإنْ كانَ على ظاهرِه فلعلَّ هلاكَ الملائكة أثرُ ذلك. ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ﴾ فوقَ الملائكةِ الذين هم على الأرجاءِ، أو فوقَ الثمانيةِ لأنها في نية التقديم. ﴿يَوْمَئِذٍ ثَمَٰنِيَةٌ﴾ ثمانيةُ أملاكٍ، لما رُوِيَ مرفوعاً «أنهم اليومَ أربعةٌ فإذا كان يومُ القيامة أمدَّهم الله بأربعةٍ آخرِيْنَ»(١). وقيل ثمانيةُ صفوفٍ من الملائكة لا يعلمُ عدَّتَهم إلا اللهُ، ولعله أيضاً تمثيلٌ لعظمتِه بما يشاهدُ من أحوالِ السلاطين يومَ خروجِهم على الناس للقضاءِ العامِّ وعلى هذا قال:

(١٨) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ﴾ تشبيهاً للمحاسبة بعرضِ السلطان العسكرَ لِتُعْرَفَ أحوالُهم، وهذا وإن كان بعدَ النفخةِ الثانية لكنْ لما كان اليومُ اسماً لزمانٍ متَّسِعٍ تقعُ فيه النفختانِ والصعقةُ والنشورُ والحساب وإدخالُ أهلِ الجنةِ الجنةَ وأهلِ النارِ النارَ صح جعلُه ظرفاً للكلِّ. ﴿لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ سريرةٌ على الله تعالى حتى يكونَ العرضُ للاطلاع عليها، وإنما المرادُ منه إفشاءُ الحال والمبالغةُ في العدلِ، أو على الناس كما قال الله تعالى ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾(٢) وقرأ حمزةُ والكسائي بالياء للفصْلِ.

(١٩) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾ تفصيلٌ للعرض. ﴿فَيَقُولُ﴾ تبجُّحاً. ﴿هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ﴾ هاء اسمٌ لخذْ، وفيه لغاتٌ أجودُها هاءُ يا رجلُ وهاءِ يا امرأةُ وهاؤما يا رجلانِ أو يا امرأتانِ وهاؤمُ يا رجالُ

---

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٤/ج٢٩/ ٥٩) عن ابن إسحاق. وفيه محمد بن حميد الرازي ضعيف. كما أن الحديث معضل.

● وقال صاحب البحر المحيط (٨/ ٣٢٤): «وذكروا في صفات هؤلاء الثمانية أشكالاً متكاذبة ضربنا عن ذكرها صفحاً» هـ.

(٢) الطارق: «٩».

وهاؤنَ يا نسوةُ، ومفعولُه محذوفٌ، وكتابيه مفعولُ اقرؤوا لأنه أقربُ العاملَيْنِ، ولأنه لو كانَ مفعولَ هاؤم لقيلَ اقرؤوه إذ الأَوْلَى إضماره حيثُ أمكنَ والهاءُ فيه وفي حسابية وماليةْ وسلطانية للسَّكْتِ تثبُتُ في الوقفِ وتسقطُ في الوصلِ، واستُحِبَّ الوقفُ لثباتها في الإمامِ، ولذلك قرىء بإثباتها في الوَصْلِ.

إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾

(٢٠) ﴿إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ﴾ أي علمتُ، ولعلَّه عبَّر عنه بالظنِّ إشعاراً بأنه لا يقدحُ في الاعتقادِ ما يهجسُ في النفس من الخطراتِ التي لا تنفكُّ عنها العلومُ النظريةُ غالباً.

(٢١) ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ﴾ ذاتِ رضا على النسبةِ بالصيغةِ، أو جعلِ الفعلِ لها مجازاً وذلك لكونها صافيةً عن الشوائبِ دائمةً مقرونةً بالتعظيمِ.

(٢٢) ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ مرتفعةِ المكانِ لأنها في السماءِ، أو الدرجاتِ أو الأبنية والأشجار.

(٢٣) ﴿قُطُوفُهَا﴾ جمعُ قِطْفٍ وهو ما يُجْتَنَى بسرعةٍ والقَطفُ بالفتحِ المصدرُ. ﴿دَانِيَةٌ﴾ يتناولُها القاعدُ.

(٢٤) ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ بإضمار القولِ، وجُمِعَ الضميرُ للمعنى. ﴿هَنِيٓـًٔا﴾ أكلاً وشرباً هنيئاً أو هنئتُم هنيئاً. ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ﴾ بما قدمتُم من الأعمال الصالحةِ. ﴿فِي ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ الماضيةِ من أيام الدنيا.

(٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ﴾ لما يرى من قُبْحِ العملِ وسوءِ العاقبة. ﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ﴾.

(٢٦) ﴿وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ﴾.

(٢٧) ﴿يَٰلَيْتَهَا﴾ يا ليتَ الموتةَ التي مِتُّها. ﴿كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ﴾ القاطعةَ لأمري فلم أبعثْ بعدَها، أو يا ليت هذه الحالةَ كانت الموتةَ التي قضتْ عليَّ لأنه صادفَها أمرٌ من الموتِ فتمنَّاه عندَها، أو يا ليت حياةُ الدنيا كانتِ الموتةَ ولم أُخلَقْ فيها حياً.

(٢٨) ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ﴾ مالي من المالِ والتبعِ. وما نَفْيٌ والمفعولُ محذوفٌ، أو استفهامُ إنكارٍ مفعولٌ لأغْنَىٰ.

(٢٩) ﴿هَلَكَ عَنِّي سُلْطَٰنِيَهْ﴾ مُلْكِي وتسلُّطي على الناس، أو حجَّتي التي كنت أحتجُّ بها في الدنيا. وقرأ حمزةُ عنِّي مالي عنِّي سلطاني بحذفِ الهاءينِ في الوصلِ، والباقون بإثباتِها في الحالينِ.

(٣٠) ﴿خُذُوهُ﴾ يقوله اللهُ تعالى لخزنةِ النار. ﴿فَغُلُّوهُ﴾.

(٣١) ﴿ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ ثم لا تُصْلُوه إلا الجحيمَ، وهي النارُ العُظمى لأنه كان يتعظَّم على الناس.

ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا
تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ
قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾

(٣٢) ﴿ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا﴾ أي طويلةٍ. ﴿فَٱسْلُكُوهُ﴾ فأدْخِلُوه فيها بأنْ تلفُّوها على جسده وهو فيما بينها مرهَقٌ لا يقدِرُ على حركةٍ، وتقديمُ السلسلةِ كتقديمِ الجحيمِ للدلالةِ على التخصيصِ والاهتمامِ بذكْرِ أنواعِ ما يُعَذَّبُ به، وثمَّ لتفاوُتِ ما بينَها في الشدة.

(٣٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ﴾ تعليلٌ على طريقة الاستئنافِ للمبالغة، وذِكْرُ العظيمِ للإشعار بأنه هو المستحقُّ للعظمةِ فمن تعظَّم فيها استوجَبَ ذلك.

(٣٤) ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ ولا يحثُّ على بذْلِ طعامه أو على إطعامِه فضلاً عن أنْ يبذُلَ من ماله، ويجوز أنْ يكون ذِكْرُ الحضِّ للإشعارِ بأنَّ تاركَ الحضِّ بهذه المنزلة فكيف بتارك الفعلِ. وفيه دليلٌ على تكليف الكفار بالفروعِ، ولعلَّ تخصيصَ الأمرين بالذِّكْرِ لأنَّ أقْبَحَ العقائدِ الكفرُ بالله تعالى وأشنعَ الرذائلِ البخلُ وقسوةُ القلبِ.

(٣٥) ﴿فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ﴾ قريبٌ يحميه.

(٣٦) ﴿وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ﴾ غُسَالةُ أهلِ النار وصديدُهم فِعْلِينٌ من الغَسْلِ.

(٣٧) ﴿لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾ أصحابُ الخطايا من خطِيءَ الرجل إذا تعمَّد الذَّنْبَ لا من الخطأ المضادِّ للصواب. وقرىء الخاطيونَ بقلبِ الهمزة ياءً، والخاطونَ بطرحِها.

(٣٨، ٣٩) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ﴾ لظهور الأمر واستغنائِه عن التحقيق بالقسم، أو فأقسم ولا مزيدةٌ، أو فلا ردٌّ لإنكارهم البعثَ وأقْسِمُ مستأنَفٌ. ﴿بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ بالمشاهداتِ والمغيَّباتِ وذلك يتناول الخالقَ والمخلوقاتِ بأسْرِها.

(٤٠) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ القرآنَ. ﴿لَقَوْلُ رَسُولٍ﴾ يبلِّغهُ عن اللهِ تعالى فإنَّ الرسولَ لا يقولُ عن نفسِه. ﴿كَرِيمٍ﴾ على الله تعالى وهو محمدٌ أو جبريلُ عليهما الصلاة والسلام.

(٤١) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ﴾ كما تزعمون تارةً. ﴿قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ﴾ تصدِّقون لما ظهرَ لكم صدْقُه تصديقاً قليلاً لفرط عِنَادِكم.

(٤٢) ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ﴾ كما تدَّعون أخرى. ﴿قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ تذكَّرون تذكُّراً قليلاً، فلذلك يلتبسُ الأمرُ عليكم وذِكْرُ الإيمانِ مع نفيِ الشاعريةِ للتذكُّرِ مع نفي الكاهنيةِ، لأنَّ عدمَ مشابهةِ القرآن للشِّعرِ أمرٌ بيِّنٌ لا ينكِره إلا معاندٌ بخلاف مباينتهِ للكهانةِ، فإنها تتوقفُ على تذكُّر أحوالِ الرسول ومعاني القرآن المنافيةِ لطريقةِ الكهنة ومعاني أقوالهم. وقرأ ابنُ كثير ويعقوبُ بالياء فيهما.

تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٣﴾ وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا
مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِنَّهُۥ لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى
ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ ﴿٥١﴾ فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٥٢﴾

(٤٣) ﴿تَنزِيلٌ﴾ هو تنزيلٌ. ﴿مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ نزَّله على لسان جبريلَ عليه السلام.

(٤٤) ﴿وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ﴾ سُمِّيَ الافتراءُ تقوُّلاً لأنه قولٌ متكلَّفٌ، والأقوالُ المفتراةُ أقاويلُ تحقيراً لها كأنه جمعُ أُفعولةَ من القول كالأضاحيك.

(٤٥) ﴿لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ﴾ بيمينه.

(٤٦) ﴿ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ﴾ أي نياطَ قلبِه بضربِ عُنُقِه، وهو تصويرٌ لإهلاكه بأفظع ما يفعلُه الملوك بمن يغضَبُون عليه، وهو أنْ يأخذَ المقتولَ بيمينه ويكفحَه بالسيفِ ويضربَ به جِيْدَه، وقيل اليمينُ بمعنى القوةِ.

(٤٧) ﴿فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ﴾ عن القتلِ أو المقتولِ. ﴿حَٰجِزِينَ﴾ دافعينَ وصفٌ لأحدٍ فإنه عامٌّ والخطابُ للناس.

(٤٨) ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ وإنَّ القرآنَ. ﴿لَتَذۡكِرَةٞ لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ لأنهم المنتفعونَ به.

(٤٩) ﴿وَإِنَّا لَنَعۡلَمُ أَنَّ مِنكُم مُّكَذِّبِينَ﴾ فنجازيهم على تكذيبهم.

(٥٠) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَسۡرَةٌ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ إذا رأوا ثوابَ المؤمنين به.

(٥١) ﴿وَإِنَّهُۥ لَحَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ لليقين الذي لا ريبَ فيه.

(٥٢) ﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ فسبِّح اللهَ بذكرِ اسمه العظيمِ تنزيهاً له عن الرضا بالتقوُّلِ عليه وشكراً على ما أَوْحَىٰ إليك. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الحاقةِ حاسبهُ الله تعالى حساباً يسيراً»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي والثعلبي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٧٧ رقم ٢١٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة المعارج
ترتيبها ٧٠ — آياتها ٤٤

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ﴿٢﴾ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴿٣﴾ تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ﴿٤﴾ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُۥ بَعِيدًا ﴿٦﴾ وَنَرَىٰهُ
قَرِيبًا ﴿٧﴾ يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ﴿٩﴾ وَلَا يَسْـَٔلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ﴿١٠﴾ يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ
ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ ﴿١١﴾

سورة المعارج مكية[١]، وآيها أربع وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ﴾ أي دعا داعٍ به بمعنى استدعاه ولذلك عدِّيَ الفعلُ بالباءِ، والسائلُ هو النضر بنُ الحارثِ فإنه قال: «إنْ كان هذا هو الحقَّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء»[٢] الآيةَ، أو أبو جهل فإنه قال «فأسقِطْ علينا كسَفاً من السماء»[٣] سأله استهزاءً، أو الرسولُ عليه الصلاة والسلام استعجلَ بعذابهم. وقرأ نافع وابن عامر سالَ وهو إما من السؤالِ على لغةِ قريشٍ قال:

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/١٠٦): «وهي مكية لا خلاف بين الرواة في ذلك».
(٢) الأنفال الآية «٣٢».
وأخرج الحديث الحاكم في «المستدرك» (٢/٥٠٢) عن سعيد بن جبير. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: على شرط البخاري فقط.
وأورده السيوطي في «الدر» (٨/٢٧٧) وزاد نسبته للغريابي، وعبد بن حميد، والنسائي، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس.
(٣) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٩/٥٥) بدون سند ولا راوٍ.

سـالـتْ هـذيـلٌ رسـولَ الله فـاحشـةً ضلَّت هـذيـلٌ بمـا سـالـتْ ولـم تُصِـبِ

أو من السيلانِ ويؤيده أنه قرىء سالَ سيلٌ على أنَّ السيلَ مصدرٌ بمعنى السائلِ كالغورِ والمعنى سالَ وادٍ بعذاب. ومُضِيُّ الفعلِ لتحقُّقِ وقوعه إما في الدنيا وهو قتل بدرٍ أو في الآخرة وهو عذابُ النار.

(٢) ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ صفةٌ أخرى لعذاب أو صلةٌ لواقع وإنْ صحَّ أن السؤالَ كان عمَّن يقع به العذابُ كان جواباً، والباءُ على هذا لتضمُّنِ سأل معنى اهتمَّ ﴿لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ﴾ يردُّه.

(٣) ﴿مِّنَ اللَّهِ﴾ من جهته لتعلُّقِ إرادتِه ﴿ذِي الْمَعَارِجِ﴾ ذي المصاعدِ وهي الدرجاتُ التي يَصْعَدُ فيها الكلِمُ الطيبُ العملُ الصالحُ أو يترقَّى فيها المؤمنون في سلوكِهم أو في دار ثوابِهم أو مراتبِ الملائكة أو في السموات فإنَّ الملائكة يعرجُون فيها.

(٤) ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ استئنافٌ لبيان ارتفاع تلك المعارجِ وبُعْدِ مداها على التمثيلِ والتخييلِ، والمعنى أنها بحيث لو قدِّر قطعُها في زمان لكان في زمان يقدَّر بخمسين ألف سنة من سِنيِّ الدنيا. وقيل معناه تعرجُ الملائكة والروحُ إلى عرشه في يوم كان مقدارُه خمسينَ ألفِ سنةٍ من حيثُ إنهم يقطعون فيه ما يقطع الإنسانُ فيها لو فرض لا أنَّ ما بين أسفلِ العالم وأعلى شُرُفاتِ العرش مسيرةُ خمسين ألف سنةٍ لأن ما بين مركز الأرض ومقعرِ السماء الدنيا على ما قيل مسيرةُ خمسمائة عام وثخنُ كلٍّ واحدة من السموات السبعِ والكرسي والعرشِ كذلك، وحيث قال في يوم كان مقدارُه ألفَ سنة يريد زمانَ عروجِهم من الأرضِ إلى محدبِ السماء الدنيا. وقيل في يوم متعلِّقٌ بواقعٍ أو سالَ إذا جُعِلَ من السيلانِ والمرادُ به يومُ القيامة واستطالتُه إما لشدَّته على الكفار أو لكثرةِ ما فيه من الحالات والمحاسباتِ أو لأنه على الحقيقة كذلك، والروحُ جبريلُ عليه السلام وإفراده لفضلِه أو خلْقٌ أعظمُ من الملائكة.

(٥) ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا﴾ لا يشوبُه استعجالٌ واضطرابُ قلبٍ وهو متعلِّقٌ بِسَأَلَ لأن السؤالَ كان عن استهزاءٍ أو تعنُّتٍ وذلك مما يضجره أو عن تضجُّر واستبطاء للنصرِ أو بسالَ لأن المعنى قربَ وقوعُ العذاب فاصبر فقد شارفْتَ الانتقامَ.

(٦) ﴿إِنَّهُمْ يَرَوْنَهُ﴾ الضميرُ للعذاب أو يوم القيامة ﴿بَعِيدًا﴾ من الإمكان.

(٧) ﴿وَنَرَاهُ قَرِيبًا﴾ منه أو من الوقوع.

(٨) ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ ظرفٌ لقريباً أي يمكن يومَ تكون أو لمضمر دلَّ عليه واقعٌ أو بدل من في يوم إنْ علِّقَ به، والمهلُ المذابُ في مَهْلٍ كالفِلزَّاتِ أو دردي الزيتِ.

(٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ كالصوفِ المصبوغ ألواناً لأنَّ الجبالَ مختلفةُ الألوان فإذا بُسَّتْ وطُيِّرتْ في الجو أشبهتِ العِهْنَ المنفوشَ إذا طيرتْه الريحُ.

(١٠) ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا﴾ ولا يسألُ قريبٌ قريباً عن حاله. وعن ابن كثير ولا يُسْأَلُ على بناءِ المفعول أي لا يُطْلَبُ من حميمٍ حميمٌ، أو لا يسألَ منه حالَه.

(١١) ﴿يُبَصَّرُونَهُمْ﴾ استئنافٌ أو حال تدل على أن المانعَ من هذا السؤال هو التشاغلُ دون الخفاءِ أو

ما يغني عنه من مشاهدة الحالِ كبياض الوجه وسوادِه. وجمعُ الضميرين لعمومِ الحميم. ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ﴾.
﴿لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ﴾.

وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ ﴿١٣﴾ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ﴿١٦﴾ تَدْعُوا۟ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٧﴾ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ﴿١٨﴾ ۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٢٢﴾

(١٢) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ﴾ حالٌ من أحد الضميرين أو استئناف يدلُّ على أن اشتغالَ كل مجرمٍ بنفسِه بحيث يتمنَّى أنْ يفتديَ بأقربِ الناس إليه وأعلقِهم بقلبه فضلاً أنْ يهتمَّ بحاله ويسأل عنها. وقرأ نافع والكسائيُّ بفتح ميم يومئذٍ، وقرىء بتنوين عذابٍ ونصبِ يومئذ به لأنه بمعنى تعذيبٍ.

(١٣) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾ وعشيرتِه الذين فُصِلَ عنهم ﴿ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ﴾ تضمُّه في النَّسَبِ أو عند الشدائد.

(١٤) ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ من الثقلينِ أو الخلائق ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ﴾ عطفٌ على يفتدى أي ثم ينجيه الافتداءُ وثم للاستبعادِ.

(١٥) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ للمجرم عن الودادةِ ودلالةٌ على أنَّ الافتداءَ لا ينجيه ﴿إِنَّهَا﴾ الضمير للنارِ أو مبهمٌ يفسِّره ﴿لَظَىٰ﴾ وهو خبرٌ أو بدل أو للقصةِ ولظى مبتدأٌ خبرهُ:

(١٦) ﴿نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ﴾ وهو اللهبُ الخالصُ وقيل علمٌ للنار منقولٌ من اللَّظي بمعنى اللهب. وقرأ حفص عن عاصمٍ نزاعةً بالنصبِ على الاختصاصِ أو الحالِ المؤكدة أو المتنقلةِ على أنَّ لظى بمعنى متلظيةٍ والشَّوى الأطرافُ أو جمعُ شواةٍ وهي جلدة الرأسِ.

(١٧) ﴿تَدْعُوا۟﴾ تجذب وتُحْضِرُ كقول ذي الرِّمةِ، تدعو أنفَه الرِّبَبُ، مجازٌ عن جذبها وإحضارِها لمن فرَّ عنها، وقيل تدعو زبانيتُها، وقيل تدعو تهلِك مِنْ قولهم دعاه الله إذا أهلكَه ﴿مَنْ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ ﴿وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

(١٨) ﴿وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ﴾ وجمع المالَ فجعلَه في وعاء وكنزهُ حرصاً وتأميلاً.

(١٩) ﴿۞ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾ شديد الحرصِ قليلَ الصبر.

(٢٠) ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ الضر ﴿جَزُوعًا﴾ يكثِرُ الجزعَ.

(٢١) ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ﴾ السعةُ ﴿مَنُوعًا﴾ يبالغ بالإمساكِ، والأوصافُ الثلاثة أحوالٌ مقدَّرةٌ أو محققةٌ لأنها طبائعُ جُبِلَ الإنسانُ عليها، وإذا الأُولى ظرفٌ لجزوعاً والأخرى لمنوعاً.

(٢٢) ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ استثناءٌ للموصوفين بالصفاتِ المذكورة بعدُ من المطبوعين على الأحوال المذكورة قبلُ لمضادةِ تلك الصفاتِ لها من حيثُ إنها دالةٌ على الاستغراقِ في طاعة الحق والإشفاقِ على الخلقِ والإيمان بالجزاء والخوفِ من العقوبة وكسرِ الشهوة وإيثارِ الآجلِ على العاجل وتلك ناشئةٌ من الانهماكِ في حبِّ العاجل وقصورِ النظرِ عليها.

﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ٢٣ وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥ وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ
ٱلدِّينِ ٢٦ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٢٧ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ ٢٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٢٩
إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٣٠ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٣١ وَٱلَّذِينَ هُمۡ
لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ ٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ
مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾

(٢٣) ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ لا يشغلُهم عنها شاغلٌ.

(٢٤) ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ﴾ كالزكواتِ والصدقاتِ الموظفة.

(٢٥) ﴿لِّلسَّآئِلِ﴾ الذي يسأل ﴿وَٱلۡمَحۡرُومِ﴾ الذي لا يَسْأَلُ فيحسب نفسه غنياً فيُحْرَمُ.

(٢٦) ﴿وَٱلَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ تصديقاً بأعمالهم وهو أن يتعب نفسه ويصرف ماله طمعاً في المثوبة الأخروية ولذلك ذكر الدين.

(٢٧) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ خائفون على أنفسهم.

(٢٨) ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمۡ غَيۡرُ مَأۡمُونٖ﴾ اعتراضٌ يدل على أنه لا ينبغي لأحدٍ أن يأمنَ عذابَ الله وإن بالغَ في طاعته.

(٢٩) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾.

(٣٠) ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾.

(٣١) ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ سبق تفسيره في سورة المؤمنين.

(٣٢) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ حافظون، وقرأ ابن كثير لأمانتهم يعني لا يخونُون ولا ينكرون ولا يُخْفُونَ ما علمُوه من حقوق الله وحقوقِ العباد.

(٣٣) ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمۡ قَآئِمُونَ﴾ وقرأ يعقوب وحفصٌ بشهاداتِهم لاختلافِ الأنواعِ[1].

(٣٤) ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ فيراعون شرائطَها ويكمّلون فرائضَها وسُنَنَها. وتكريرُ ذكْرِ الصلاة ووصفُهم بها أولاً وآخراً باعتبارين للدلالةِ على فضلِها وإنافتِها على غيرها، وفي نظمِ هذه الصلاة مبالغاتٌ لا تخفى[2].

(٣٥) ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٖ مُّكۡرَمُونَ﴾ بثوابِ الله تعالى.

---

(١) وتخصيص القيام بالشهادة مع اندراجها في الأمانات لإبانة فضلها (س٩/ ٣٣).

(٢) وتكرير الموصولات «الذين» لتنزيل اختلاف الصفات منزلة اختلاف الذوات، كما في قول من قال:

إلى الملك القرم وابن الهمام وليث الكتائب في المزدحم

(س٩/ ٣٤).

﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ مُهْطِعِينَ ﴿٣٦﴾ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ ﴿٣٧﴾ أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ
نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا
مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٤١﴾ فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا
كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٤﴾

(٣٦) ﴿فَمَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا قِبَلَكَ﴾ **حولك** ﴿مُهْطِعِينَ﴾ **مسرعين.**

(٣٧) ﴿عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ عِزِينَ﴾ **فِرَقاً شتَّى، جمعُ عِزَةٍ وأصلُها عزوةٌ من العزْو، وكأن كلَّ فرقةٍ تعتزي إلى غير مَنْ تعتزي إليه الأخرى، وكان المشركون يحتفونَ حولَ رسولِ الله ﷺ حِلقاً حِلقاً ويستهزئون بكلامه.**

(٣٨) ﴿أَيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ﴾ **بلا إيمان وهو إنكارٌ لقولهم لو صحَّ ما يقوله لِنكونَ فيها أفضلَ حظاً منهم كما في الدنيا.**

(٣٩) ﴿كَلَّا﴾ **ردعٌ لهم عن هذا الطمع** ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّمَّا يَعْلَمُونَ﴾ **تعليلٌ له والمعنى أنهم مخلَّقون من نطفةٍ مذرةٍ لا تناسبُ عالم القدُسِ فمَنْ لم يستكملْ بالإيمان والطاعة ولم يتخلَّقْ بالأخلاق الملكيةِ لم يستعدَّ لدخولها، أو إنكم مخلوقون من أجلِ ما تعلمون وهو تكميلُ النفسِ بالعلم والعملِ فمن لم يستكمِلْها لم يتبوأْ في منازل الكاملين، أو الاستدلالُ بالنشأة الأولى على إمكان النشأةِ الثانية التي بنوا الطمعَ على فرضِها فرضاً مستحيلاً عندهم بعد ردْعِهم عنه.**

(٤٠) ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ﴾.

(٤١) ﴿عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ **أي نهلكَهم ونأتيَ بخلْقٍ أمثلَ منهم أو نعطي محمداً بدلكم مَنْ هو خيرٌ منكم وهم الأنصار.** ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ **بمغلوبين إن أردْنا ذلك.**

(٤٢) ﴿فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ﴾ **مرَّ في آخر سورة الطور**[1].

(٤٣) ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا﴾ **مسرعين جمعُ سريعٍ** ﴿كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ﴾ **منصوبٍ للعبادةِ أو عَلَمٍ** ﴿يُوفِضُونَ﴾ **يسرعون. وقرأ ابن عامر وحفصٌ إلى نُصُبٍ بضمِ النون والصاد، والباقون من السبعةِ نَصْبٍ بفتح النون وسكونِ الصاد، وقرىء بالضمِّ على أنه تخفيف نُصُب أو جمعٌ.**

(٤٤) ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾ **مرَّ تفسيره** ﴿ذَٰلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ **في الدنيا عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ سأل سائل أعطاه الله ثوابَ الذين هم لأماناتِهم وعهدِهم راعونَ»**[2].

---

(١) الطور: «٤٥».

(٢) وهو حديث موضوع. أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي من حديث أبي بن كعب كما ذكره الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٧٧ رقم ٢٢١). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾
أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا
يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾

سورة نوح مكية[1] وآيها تسع أو ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ﴾ أي بأنْ أنذِرْ أي بالإنذارِ، أو بأن قلْنا له أنذرْ، ويجوز أن تكونَ مفسِّرةً لتضمُّنِ الإرسالِ معنى القولِ، وقرىء بغير أنْ على إرادةِ القول. ﴿قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ عذابُ الآخرة أو الطوفانِ.

(٢) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

(٣) ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ﴾ مرّ في الشُّعراء نظيرهُ وفي أنْ يُحْتَمَلُ الوجهانِ.

(٤) ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ يغفرْ لكم بعضَ ذنوبكم وهو ما سبق فإنَّ الإسلام يجبُّه فلا يؤاخذُكم به في الآخرة. ﴿وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو أقصى ما قُدِّرَ لكم بشرطِ الإيمان والطاعةِ. ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ﴾ إنَّ الأجلَ الذي قدَّره. ﴿إِذَا جَاءَ﴾ على الوجه المقدَّرِ به آجلاً. وقيل إذا جاء الأجلُ الأطولُ. ﴿لَا يُؤَخَّرُ﴾ فبادروا في أوقاتِ الإمهال والتأخير. ﴿لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لو كنتم من أهلِ العلمِ والنظرِ لعلمتُم ذلك، وفيه أنهم لانهمَاكِهم في حبِّ الحياة كأنهم شاكُّون في الموت.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٢٠): «وهي مكية بإجماع المتأولين».

قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا
أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي
أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾
وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾

(٥) ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ **أي دائماً.**

(٦) ﴿فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاءِيَ إِلَّا فِرَارًا﴾ **عن الإيمان والطاعة، وإسنادُ الزيادة إلى الدعاء على السببيةِ كقوله** ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾[1].

(٧) ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ﴾ **إلى الإيمانِ.** ﴿لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ **بسببه.** ﴿جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي ءَاذَانِهِمْ﴾ **سدُّوا مسامِعَهم عن استماع الدعوة.** ﴿وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ **تغطَّوْا بها لئلا يروني كراهةَ النظرِ إليّ مَنْ فرْط كراهةَ دعوتي، أو لئلا أعرفَهم فأدعُوهم، والتعبير بصيغةِ الطلبِ للمبالغة.** ﴿وَأَصَرُّوا﴾ **وأكبُّوا على الكفرِ والمعاصي مستعارٌ من أصرَّ الحمارُ على العانة[2] إذا صرَّ أذنيه وأقبلَ عليها.** ﴿وَاسْتَكْبَرُوا﴾ **عن اتباعي.** ﴿اسْتِكْبَارًا﴾ **عظيماً.**

(٨) ﴿ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا﴾.

(٩) ﴿ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ **أي دعوتُهم مرةً بعد أخرى وكرةً بعد أُوْلَى على أي وجهٍ أمكنني. وثمَّ لتفاوُتِ الوجوه فإن الجهارَ أغلظُ من الإسرارِ والجمعُ بينَهما أغلظُ من الإفرادِ، أو لتراخي بعضِها عن بعض. وجهاراً نُصِبَ على المصدرِ لأنه أحدُ نوعي الدعاءِ؛ أو صفةُ مصدرٍ محذوفٍ بمعنى دعاءً جهاراً أي مجاهَراً به، أو الحالِ فيكون بمعنى مجاهِراً.**

(١٠) ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ **بالتوبة عن الكفرِ.** ﴿إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ **للتائبين وكأنهم لما أمرهم بالعبادةِ قالوا: إنْ كنَّا على حق فلا نتركُه وإنْ كنَّا على باطلٍ فكيف يقبلنا ويلطفُ بنا من عصيناهُ، فأمرهُم بما يجبُّ معاصيهم ويجلبُ إليهم المِنَحَ ولذلك وعدَهم عليه ما هو أوقعُ في قلوبهم. وقيل لما طالتْ دعوتُهم وتمادى إصرارُهم حبسَ الله عنهم القَطْرَ أربعينَ سنةً، وأعقمَ أرحامَ نسائِهم فوعدَهم بذلك على الاستغفارِ عما كانوا عليه بقوله:**

(١١) ﴿يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا﴾.

(١٢) ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ **ولذلك شُرِعَ الاستغفارُ في الاستسقاءِ، والسماءُ تحتملُ المظلَّةَ والسحابَ، والمدرارُ كثيرُ الدرورِ ويستوي في هذا البناءِ المذكَّرُ والمؤنَّثُ، والمراد بالجناتِ البساتينُ.**

---

(١) **التوبة: ١٢٤.**

(٢) **القطيع من حمير الوحش.**

﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ
الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ﴿١٦﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ
إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ﴿٢٠﴾ قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي
وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ﴿٢١﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ﴿٢٢﴾﴾

(١٣) ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ **لا تأملُون له توقيراً أي تعظيماً لمن عبدَه وأطاعَه فتكونوا على حال تأملُون فيها تعظيمَها إياكم، ولله بيانٌ للموقِّرِ ولو تأخَّر لكان صلةً للوقارِ، أو لا تعتقدون له عظمةً فتخافوا عصيانَه. وإنما عبَّر عن الاعتقادِ بالرجاء التابعِ لأدنى الظنِّ مبالغةً.**

(١٤) ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ **حالٌ مقرِّرةٌ للإنكار من حيثُ إنها موجبةٌ للرجاء فإنه خلقَهم أطواراً أي تاراتٍ، إذ خلقَهم أولاً عناصرَ. ثم مركباتٍ تغذَّى بها الإنسانُ ثم أخلاطاً ثم نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عظاماً ولحوماً ثم أنشأهم خلقاً آخرَ، فإنه يدلُّ على أنه يمكنُ أنْ يعيدَهم تارةً أخرى فيعظِّمَهم بالثوابِ وعلى أنه تعالى عظيمُ القدرةِ تامُّ الحكمةِ، ثم أتبعَ ذلك ما يؤيده من آياتِ الآفاقِ فقال:**

(١٥) ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾.

(١٦) ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ **أي في السمواتِ وهو في السماء الدنيا، وإنما نُسِبَ إليهن لما بينهنَّ من الملابسةِ.** ﴿وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ **مثَّلَها به لأنها تزيلُ ظلمةَ الليل عن وجه الأرض كما يزيلُها السراجُ عما حولَه.**

(١٧) ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ **أنشأكُم منها فاستُعِيْرَ الإنباتُ للإنشاءِ لأنه أدلُّ على الحدوثِ والتكوُّنِ من الأرض، وأصلُه أنبتكُم من الأرضِ إنباتاً فنبتم نباتاً فاخْتَصَرَهُ اكتفاءً بالدلالة الالتزامية.**

(١٨) ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا﴾ **مقبورين.** ﴿وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ **بالحشرِ، وأكَّده بالمصدرِ كما أكَّد به الأولَ دلالةً على أنَّ الإعادةَ محقَّقةٌ كالإبداء، وأنها تكون لا محالةَ.**

(١٩) ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا﴾ **تتقلَّبون عليها.**

(٢٠) ﴿لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ **واسعةً جمعُ فَجٍّ، ومِنْ لتضمُّنِ الفعل معنى الاتخاذ.**

(٢١) ﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي﴾ **فيما أمرتُهم به.** ﴿وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ **واتبعوا رؤساءَهم البطِرِيْنَ بأموالهم المغترينَ بأولادهم بحيثُ صار ذلك سبباً لزيادة خسارِهم في الآخرة، وفيه أنهم إنما اتبعوهم لوجاهةٍ حصلتْ لهم بالأموالِ والأولاد وأدَّت بهم إلى الخسارِ. وقرأ ابن كثير وحمزةُ والكسائي والبصريانِ وُلْدُه بالضمِّ والسكونِ، على أنه لغةٌ كالحزْنِ والحَزَنِ أو جمعٌ كالأُسْدِ.**

(٢٢) ﴿وَمَكَرُوا﴾ **عطفٌ على لم يزدْه والضميرُ لمن وجَمَعَهُ للمعنى.** ﴿مَكْرًا كُبَّارًا﴾ **كبيراً في الغاية فإنه أبلغُ من كبار وهو من كبير، وذلك احتيالُهم في الدين وتحريشُ الناس على أذى نوحٍ.**

وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴿٢٣﴾ وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ
إِلَّا ضَلَٰلًا ﴿٢٤﴾ مِّمَّا خَطِيٓـَٰتِهِمْ أُغْرِقُواْ فَأُدْخِلُواْ نَارًا فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا ﴿٢٥﴾ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا
تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾ رَّبِّ
ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾

(٢٣) ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ أي عبادتها. ﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ ولا تذرُنَّ هؤلاءِ خصوصاً. قيل هي أسماءُ رجالٍ صالحين كانوا بين آدمَ ونوحٍ فلما ماتوا صُوِّروا تبرُّكاً بهم، فلما طال الزمانُ عُبِدُوا، وقدِ انتقلتْ إلى العرب فكان وُدٌّ لكلبٍ، وسواعٌ لهمدانَ، ويغوثُ لمذحجٍ، ويعوقُ لِمُرَادٍ، ونسرٌ لحميرٍ. وقرأ نافع وُداً بالضمِّ، وقرىء يغوثاً ويعوقاً للتناسُبِ، ومنعُ صرفهما للعلَميةِ والعجمةِ.

(٢٤) ﴿وَقَدْ أَضَلُّواْ كَثِيرًا﴾ الضميرُ للرؤساءِ أو للأصنام كقوله ﴿إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا﴾[١]. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا ضَلَٰلًا﴾ عطفٌ على ربِّ إنهم عصوني[٢]، ولعلَّ المطلوبَ هو الضلالُ في ترويج مكرِهم ومصالحِ دنياهم لا في أمرِ دينهم، أو الضياعُ والهلاكُ كقوله ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾[٣].

(٢٥) ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰتِهِمْ﴾ من أجلِ خطيئاتِهم، وما مزيدةٌ للتأكيد والتفخيم، وقرأ أبو عمرو مما خطاياهُم. ﴿أُغْرِقُواْ﴾ بالطوفان. ﴿فَأُدْخِلُواْ نَارًا﴾ المرادُ عذابُ القبر أو عذابُ الآخرة، والتعقيب لعدمِ الاعتدادِ بما بَيْنَ الإغراقِ والإدخالِ، أو لأن المسبب كالمتعقبِ للسببِ وإنْ تراخَى عنه لفقْدِ شرطٍ أو وجود مانعٍ، وتنكيرُ النارِ للتعظيم، أو لأنَّ المرادَ نوعٌ من النيرانِ. ﴿فَلَمْ يَجِدُواْ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَنصَارًا﴾ تعريضٌ لهم بأتخاذِ آلهة من دون الله لا تقدِرُ على نَصْرِهم.

(٢٦) ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ أي أحداً وهو مما يُسْتَعْمَلُ في النفي العامِّ فَيْعَالٌ مِنَ الدارِ أو الدورِ. وأصلُه ديوارٌ فَفُعِلَ به ما فُعِلَ بأصلِ سيِّد لافِعال وإلا لكانَ دَوَّاراً.

(٢٧) ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّواْ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ قال ذلك لما جرَّبهم واستَقْرى أحوالَهم ألفَ سنةٍ إلا خمسينَ عاماً فعرفَ شِيَمَهُم وطِبَاعَهُم.

(٢٨) ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِوَٰلِدَىَّ﴾ لِمَلِكِ بنِ متوشلخ وشمخا بنتِ أنوش وكانا مؤمنينِ. ﴿وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِىَ﴾ منزلي أو مسجدي أو سفينتي. ﴿مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى يوم القيامة. ﴿وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ هلاكاً. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ نوحٍ كان من المؤمنين الذين تذرِكُهم دعوةُ نوحٍ»[٤].

---

(١) إبراهيم: «٣٦».

(٢) ووضع الظاهر «الظالمين» موضع ضميرهم للتسجيل عليهم بالظلم المفرط وتعليل الدعاء عليهم به (س٩/ ٤١).

(٣) القمر: «٤٧».

(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٧ رقم ٢٢٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الجن

آياتها ٢٨ ترتيبها ٧٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا ﴿٣﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾

سورة الجن مكية[1] وآيها ثمان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ﴾ وقُرِئ أُحِيَ وأصلُه وُحِيَ من وَحَى إليه فقُلِبَتِ الواوُ همزةً لضمَّتها وَوَحَى على الأصلِ وفاعلُه: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ والنفرُ ما بين الثلاثةِ إلى العشرةِ. والجنُّ أجسامٌ عاقلةٌ خفيةٌ يغلبُ عليهم الناريةُ أو الهوائيةُ، وقيل نوعٌ من الأرواحِ المجرَّدة، وقيل نفوسٌ بشريةٌ مفارَقةٌ عن أبدانِها. وفيه دلالةٌ على أنه عليه الصلاة والسلام ما رآهم ولم يقرأْ عليهم وإنما اتفقَ حضورُهم في بعض أوقاتِ قراءتِه فسمعُوها فأخبر الله به رسولَه. ﴿فَقَالُوٓا۟﴾ لما رجعُوا إلى قومِهم. ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا﴾ كتاباً. ﴿عَجَبًا﴾ بديعاً مبايِناً لكلام الناسِ في حسنِ نظْمِه ودقَّةِ معناه. وهو مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغةِ.

(٢) ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾ إلى الحقِّ والصوابِ. ﴿فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ بالقرآن. ﴿وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا﴾ على ما نطقتْ به الدلائلُ القاطعةُ على التوحيد.

(٣) ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا﴾ قرأه ابن كثير والبصريانِ بالكسرِ على أنه من جملةِ المحكيِّ بعدَ القولِ، وكذا ما بعدَه إلا قولَه ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾[2]، ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ﴾[3]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٣٠): «وهي مكية بإجماع المفسرين».
(٢) الجن: «١٦».
(٣) الجن: «١٨».

قَامَ﴾[١] فإنها من جملةِ الموحَى به ووافقَهم نافعٌ وأبو بكر إلا في قوله ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ﴾[٢] على أنه استئنافٌ أو مقولٌ، وفتحَ الباقون الكلَّ إلا ما صُدِّرَ بالفاء على أن ما كان من قولهم فمعطوفٌ على محلِّ الجارِّ والمجرورِ في به كأنه قيل: صدَّقنا أنه تعالى جدُّ ربِّنا أي عظمتُه من جدَّ فلانٌ في عيني إذا عظُمَ، أو سلطانُه أو غِناهُ مستعارٌ من الجدِّ الذي هو البختُ، والمعنى وصْفُه بالتعالي عن الصاحبةِ والولدِ لعظمته أو لسلطانِه أو لغِنَاهُ وقوله: ﴿مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ بيانٌ لذلك. وقرىء جداً على التمييز، وجد ربنا بالكسرِ أي صدق ربوبيتَهُ، كأنهم سمعوا من القرآنِ ما نبَّهَهُم على خطإِ ما اعتقدوه من الشركِ واتخاذِ الصاحبةِ والولدِ.

(٤) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا﴾ إبليسُ أو مردةُ الجنِّ. ﴿عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا﴾ قولاً ذا شططٍ وهو البعدُ ومجاوزةُ الحدِّ، أو هو شططٌ لفرْطِ ما أشطَّ فيه، وهو نسبةُ الصاحبةِ والولدِ إلى الله.

(٥) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ اعتذارٌ عن اتِّباعِهم السفيهَ في ذلك بظنِّهم أنَّ أحداً لا يكذِبُ على الله، وكذباً نُصِبَ على المصدرِ لأنه نوعٌ من القولِ أوِ الوصفِ المحذوفِ، أي قولاً مكذوباً فيه، ومن قرأ أنْ لنْ تقوّلَ كيعقوبَ جعلَه مصدراً لأن التقوُّلَ لا يكونُ إلا كذِباً.

وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ
أَحَدًا ﴿٧﴾ وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ﴿٨﴾ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ
فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا ﴿٩﴾

(٦) ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾ فإنَّ الرجلَ كان إذا أمسى بقفْرٍ قال أعوذُ بسيِّدِ هذا الوادي من شرِّ سفهاءِ قومِه. ﴿فَزَادُوهُمْ﴾ فزادوا الجنَّ باستعاذتِهم بهم. ﴿رَهَقًا﴾ كِبْراً وعتواً، أو فزاد الجنُّ والإنسَ غياً بأنْ أضلُّوهم حتى استعاذوا بهم، والرَّهقُ في الأصل غشيانُ الشيءِ.

(٧) ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ وأنَّ الإنسَ. ﴿ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ﴾ أيُّها الجنُّ أو بالعكس، والآيتانِ من كلام الجنِّ بعضَهم لبعضٍ أو استئنافُ كلامٍ من الله تعالى، ومَنْ فتحَ أنَّ فيهما جعلَهما من الموحَى به. ﴿أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ سادٌّ مسدَّ مفعولي ظنُّوا.

(٨) ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ﴾ طلبْنا بلوغَ السماءِ أو خَبَرَهَا، واللمسُ مستعارٌ من المسِّ للطلبِ كالجسِّ يقَالُ لمسه والتمَسَهُ وتلمَّسه كطلبه واطَّلبه وتطلَّبه. ﴿فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا﴾ حُرَّاساً اسمُ جمعٍ كالخدمِ. ﴿شَدِيدًا﴾ قوياً وهم الملائكةُ الذين يمنعونَهم عنها. ﴿وَشُهُبًا﴾ جمع شِهابٍ وهو المضيءُ المتولِّد من النارِ.

(٩) ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ﴾ مقاعدَ خاليةً عن الحرس والشُّهبِ، أو صالحةً للترصُّد والاستماعِ، وللسمعِ صلةٌ لِنَقْعُدَ أو صفةٌ لمقاعدَ. ﴿فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي شهاباً راصِداً

---

(١) الجن: «١٩».
(٢) الجن: «١٩».

له ولأجله يمنعُه عن الاستماعِ بالرَّجْمِ، أو ذوي شهابٍ راصدينَ على أنه اسمُ جمعٍ للراصد، وقد مرَّ بيانُ ذلك في الصافات.

وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴿١٠﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ
قِدَدًا ﴿١١﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا ﴿١٢﴾ وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن
يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا ﴿١٣﴾ وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟
رَشَدًا ﴿١٤﴾ وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٥﴾ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾
لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٧﴾

(١٠) ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بحراسةِ السماءِ. ﴿أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ خيراً.

(١١) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ المؤمنون الأبرارُ. ﴿وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي قومٌ دون ذلك فحذفَ الموصوفَ وهم المقتصدون. ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ﴾ ذوي طرائقَ أي مذاهبَ، أو مثلَ طرائقَ في اختلافِ الأحوالِ أو كانتْ طرائقُنا طرائقَ. ﴿قِدَدًا﴾ متفرقةً مختلفةً جمعُ قِدَّةٍ من قدَّ إذا قطَعَ.

(١٢) ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ﴾ علِمْنا. ﴿أَن لَّن نُّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ كائنين في الأرض أينما كنَّا فيها. ﴿وَلَن نُّعْجِزَهُۥ هَرَبًا﴾ هاربينَ منها إلى السماءِ، أو لن نعجِزَه في الأرض إن أرادَ بنا أمراً ولن نعجزَه هرباً إلى طلبنا.

(١٣) ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا ٱلْهُدَىٰٓ﴾ أي القرآنَ. ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ فَمَن يُؤْمِنۢ بِرَبِّهِۦ فَلَا يَخَافُ﴾ فهو لا يخافُ، وقرىء فلا يَخَفْ والأولُ أدلُّ على تحقيقِ نجاةِ المؤمنينَ واختصاصِها بهم. ﴿بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ نقْصاً في الجزاءِ ولا أن يرهِقَه ذلَّةٌ، أو جزاءَ بخسٍ لأنه لم يبخسْ لأحدٍ حقاً ولم يرهِقْ ظلماً، لأن من حقِّ المؤمن بالقرآنِ أنْ يجتنبَ ذلك.

(١٤) ﴿وَأَنَّا مِنَّا ٱلْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا ٱلْقَٰسِطُونَ﴾ الجائرون عن طريقِ الحقِّ وهو الإيمان والطاعةُ. ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ تَحَرَّوْا۟ رَشَدًا﴾ توخَّوْا رشداً عظيماً يبلِّغُهم إلى دار الثواب.

(١٥) ﴿وَأَمَّا ٱلْقَٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ تُوقَدُ بهم كما توقدُ بكفَّارِ الإنسِ.

(١٦) ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟﴾ أي أنَّ الشأنَ لو استقامَ الجنُّ أو الإنسُ أو كلاهما. ﴿عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ﴾ أي على الطريقة المثْلَى. ﴿لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾ لوسَّعْنا عليهم الرزقَ، وتخصيصُ الماءِ الغَدَقِ وهو الكثيرُ بالذكرِ لأنه أصلُ المعاشِ والسعةِ ولعزَّة وجودِه بين العرب.

(١٧) ﴿لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ لنختبِرَهم كيف يشكُرونه، وقيل معناه أن لوِ استقامَ الجنُّ على طريقتهم القديمةِ ولم يسلموا باستماع القرآنِ لوسَّعنا عليهم الرزقَ مستدرجين لهم لنوقِعَهم في الفتنةِ ونعذِّبَهم في كُفْرانِهم. ﴿وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِۦ﴾ عن عبادتِه أو موعظته أو وحْيِه. ﴿يَسْلُكْهُ﴾ يدخِلْه، وقرأ غيرُ الكوفيينَ بالنونِ. ﴿عَذَابًا صَعَدًا﴾ شاقاً يعلو المعذَّبَ ويغلبه مصدرٌ وُصِفَ به.

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ
أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ
أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ
أَبَدًا ﴿٢٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا ﴿٢٤﴾

(١٨) ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ﴾ مختصةٌ به. ﴿فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ فلا تعبدُوا فيها غَيْرَهُ، ومن جعلَ أنَّ مقدَّرةً باللام علةً للنهي ألغَى فائدةَ الفاءِ، وقيل المرادُ بالمساجدِ الأرضُ كلُّها لأنها جعلت للنبي عليه الصلاة والسلام مسجداً، وقيل المسجدُ الحرام لأنه قبلةُ المساجدِ ومواضعَ السجودِ على أنَّ المرادَ النهيُ عن السجود لغيرِ الله، وآرابُه السبعةُ أو السجدات على أنه جمعُ مسجدٍ.

(١٩) ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ أي النبيُّ عليه الصلاة والسلام، وإنما ذُكِرَ بلفظ العبدِ للتواضُعِ فإنه واقعٌ موقعَ كلامه عن نفسِه، والإشعار بما هو المقتضي لقيامه. ﴿يَدْعُوهُ﴾ يعبدُه ﴿كَادُوا۟﴾ كاد الجنُّ. ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ متراكمينَ من ازدِحَامهم عليه تعجُّباً مما رأوا من عبادتِه وسمعُوا من قراءته، أو كاد الإنسُ والجنُّ يكونون عليه مجتمعينَ لإبطال أمره، وهو جمعُ لبدةٍ وهي ما تلبَّد بعضُه على بعض كلبدةِ الأسدِ. وعن ابن عامرٍ لُبداً بضمِّ اللامِ جمع لبدةٍ وهي لغةٌ، وقرىء لُبّداً كسجداً جمعُ لابدٍ، ولُبُداً كصبرٍ جمع لبودٍ.

(٢٠) ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾ فليس ذلك ببدعٍ ولا منكرٍ يوجب تعجُّبَكُم أو إطباقكم على مقْتي، وقرأ عاصمٌ وحمزة قلْ على الأمر للنبيِّ عليه الصلاة والسلام ليوافقَ ما بعدَه.

(٢١) ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ ولا نفعاً أو غياً، عبَّر عن أحدِهما باسمه وعن الآخر باسم سببه أو مسبَّبِه إشعاراً بالمعنيينِ.

(٢٢) ﴿قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ﴾ إنْ أرادَ بي سوءاً. ﴿وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ منحَرَفاً أو ملتَجأً وأصلُه المدخلُ من اللَّحْدِ.

(٢٣) ﴿إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ استثناءٌ من قوله لا أملِكُ فإنَّ التبليغَ إرشادٌ وإنفاعٌ وما بينَهما اعتراضٌ مؤكِّد لنفيِ الاستطاعةِ، أو مِنْ ملتحداً، أو معناه أنْ لا أبلِّغَ بلاغاً وما قبله دليلُ الجواب. ﴿وَرِسَٰلَٰتِهِۦ﴾ عطفٌ على بلاغاً ومن الله صفتُه فإنَّ صِلَتَهُ عن كقوله ﷺ «بلِّغوا عنِّي ولو آيةً»(١). ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ في الأمر بالتوحيدِ إذ الكلامُ فيه. ﴿فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ﴾ وقُرِىءَ فأنَّ على فجزاؤُه أنَّ. ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ جمعَه للمعنَى.

(٢٤) ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ﴾ في الدنيا كوقْعَةِ بدْرٍ، أو في الآخرة، والغايةُ لقوله ﴿يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾(٢) بالمعنى الثاني، أو لمحذوف دلَّ عليه الحالُ مِن استضعافِ الكفارِ وعِصْيَانِهم له.

---

(١) أخرجه البخاري (٦/٤٩٦ رقم ٣٤٦١) من حديث عبدالله بن عمرو بن العاص.
(٢) الجن: «١٩».

﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَضْعَفُ نَاصِرًا وَأَقَلُّ عَدَدًا﴾ هو أمْ هم.

قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴿٢٥﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾
إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا ﴿٢٧﴾ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ
وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴿٢٨﴾

(٢٥) ﴿ قُلْ إِنْ أَدْرِىٓ ﴾ ما أدري. ﴿ أَقَرِيبٌ مَّا تُوعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُۥ رَبِّىٓ أَمَدًا ﴾ غايةً تطولُ مدَّتُها كأنه لما سمعَ المشركون حتى إذا رأوا ما يوعدون قالوا متَى يكونُ إنكاراً، فقيل قلْ إنه كائنٌ لا محالةَ ولكن لا أدري ما وقتُه.

(٢٦) ﴿ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ هو عالمُ الغيبِ. ﴿ فَلَا يُظْهِرُ ﴾ فلا يُطْلِعُ. ﴿ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا﴾ أي على الغيب المخصوصِ به علمُه.

(٢٧) ﴿ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ لِعَلَّمَ بعضَه حتى يكونَ له معجزةً. ﴿ مِن رَّسُولٍ﴾ بيانٌ لِمَنْ، واسْتُدِلَّ به على إبطالِ الكراماتِ، وجوابُه تخصيصُ الرسول بالملَكِ والإظهار بما يكون بغير وسطٍ، وكراماتُ الأولياء على المغيَّباتِ إنما تكونُ تلقياً عن الملائكة كاطلاعنا على أحوالِ الآخرة بتوسُّطِ الأنبياء. ﴿ فَإِنَّهُۥ يَسْلُكُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ من بين يدي المرتَضَى. ﴿وَمِنْ خَلْفِهِۦ رَصَدًا﴾ حَرَسَاً من الملائكة يحرسُونه من اختطافِ الشياطين وتخاليطِهم.

(٢٨) ﴿ لِّيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا۟ ﴾ أي ليعلمَ النبيُّ الموحَى إليه أنْ قد أبلغَ جبريلُ والملائكةُ النازلونَ بالوحْي، أو ليعلم الله تعالى أنْ قد أبلغَ الأنبياءُ بمعنى ليتعلَّق علمُه به موجوداً. ﴿رِسَٰلَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ كما هي محروسةٌ من التغيير. ﴿وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ بما عندَ الرسلِ. ﴿ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَىْءٍ عَدَدًۢا ﴾ حتى القطْرَ والرملَ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الجنِّ كان له بعددِ كلِّ جنِّي صدَّقَ محمداً أو كذَّبَ به عتقُ رقبةٍ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٨ رقم ٢٣٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُزَّمِّلِ

ترتيبها ٧٣ — آياتها ٢٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ إِنَّا
سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥﴾ إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴿٧﴾

سورة المزمل مكية[1]، وآيها تسع عشرة أو عشرون

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ أصلُه المتزمِّل من تزمَّل بثيابه إذا تلفَّفَ بها فأدغَم التاءَ في الزاي وقد قرىء به، وبالمزمل مفتوحةَ الميم ومكسورتَها أي الذي زمَّله غيرهُ، أو زمَّل نفسَه. سُمِّيَ به النبيُّ عليه الصلاة والسلام تهجيناً لما كان عليه فإنه كان نائماً أو مرتعداً مما دهشَه من بَدْءِ الوحي متزملاً في قطيفةٍ أو تحسيناً له، إذ رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلي متلففاً بمرطٍ مفروشٍ على عائشةَ رضيَ الله تعالى عنها فنزلتْ[2]، أو تشبيهاً له في تثاقلِه بالمتزمِّل لأنه لم يتمرّنْ بعدُ في قيام الليلِ، أو من تزمَّل الزِّملَ إذا تحمَّل الحملَ أي الذي تحمَّل أعباءَ النبوَّةِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٤٤): «وهي مكية كلها في قول المهدوي وجماعة. وقال الجمهور: هي مكية إلاَّ قوله تعالى «إن ربك يعلم...» إلى آخر السورة فإن ذلك نزل بالمدينة» هـ.

(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٧٨ رقم ٢٣٥): لم أره هكذا.
قلت: وأصله في الصحيحين البخاري (١/ ١٨ رقم ٣) ومسلم (١/ ١٣٩ ـ ١٤٢ رقم ٢٥٢/ ١٦٠). من حديث عائشة.

(٢) ﴿قُمِ ٱلَّيْلَ﴾ أي قمْ إلى الصلاة، أو داوِمْ عليها فيه، وقرىء بضمِّ الميم وفتحِها للاتباعِ أو التخفيفِ. ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ .

(٣) ﴿نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا﴾ .

(٤) ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ الاستثناءُ من الليلِ، ونصفَه بدلٌ من قليلاً وقلَّته بالنسبةِ إلى الكلِّ، والتخييرُ بينَ قيامِ النصفِ والزائدِ عليه كالثلثينِ والناقصِ عنه كالثُّلثِ. أو نصفَه بدلٌ من الليلِ والاستثناءُ منه والضميرُ في منه وعليه للأقلِّ من النصفِ كالثلثِ فيكون التخييرُ بينه وبين الأقلِّ منه كالرُّبعِ والأكثر منه كالنصفِ، أو للنصفِ والتخييرُ بينَ أنْ يقومَ أقلَّ منه على البتِّ وأنْ يختارَ أحدَ الأمرين من الأقلِّ والأكثر، أو الاستثناءُ من إعدادِ الليل فإنه عامٌ والتخيير بين قيام النصفِ والناقص عنه والزائدِ عليه. ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ اقرأه على تُؤَدَةٍ وتبيينِ حروفٍ بحيثُ يتمكَّن السامعُ من عدِّها، من قوله ثَغْرٌ رَتَلٌ ورَتِلٌ إذا كان مفلَّجاً.

(٥) ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ يعني القرآنَ فإنه لما فيه من التكاليفِ الشاقَّةِ ثقيلٌ على المكلَّفين سيَّما على الرسول ﷺ إذ كان عليه أنْ يتحمَّلها ويُحَمِّلَها أمَّتَهُ، والجملةُ اعتراضٌ يسهِّلُ التكليفَ عليه بالتهجُدِ، ويدلُّ على أنه مشقٌّ مضادٌّ للطبع مخالِفٌ للنفسِ، أو رصينٌ لرزانةِ لفظِه ومتانةِ معناه، أو ثقيلٌ على المتأمِّلِ فيه لافتقارِهِ إلى مزيدِ تصفيةٍ للسرِّ وتجريدٍ للنظرِ، أو ثقيلٌ في الميزان أو على الكفار والفجَّارِ، أو ثقيلٌ تلقيه لقولِ عائشةَ رضي الله تعالى عنها: رأيته عليه الصلاة والسلام ينزلُ عليه الوحيُ في اليوم الشديد البردِ، فَيُفْصَمُ عنه وإنَّ جبينَه ليرفَضُّ عرَقاً[1]. وعلى هذا يجوز أن يكونَ صفة للمصدر، والجملةُ على هذه الأوجُهِ للتعليلِ مستأنفٌ فإنَّ التهجُّدَ يُعَدُّ للنَّفسِ ما به تعالجُ ثِقَلَه.

(٦) ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ﴾ إنَّ النفسَ التي تنشأُ من مضجِعِها إلى العبادة من نشأَ مِنْ مكانِه إذا نهض وقامَ، قال:

نَشَأْنَا إِلَى خُوصٍ بَرَانِيهَا السُّرَى وأَلْصَقَ مِنْهَا مُشْرِفَاتِ القَمَاحِدِ

أو قيامَ الليلِ على أنَّ الناشئةَ له، أو العبادةَ التي تنشأُ بالليل أي تحدُثُ، أو ساعاتِ الليلِ لأنها تحدثُ واحدةً بعد أخرى، أو ساعاتِها الأُوَلَ من نشأَتْ إذا ابتدأتْ. ﴿هِىَ أَشَدُّ وَطْـًٔا﴾ أي كلفةً أو ثباتَ قدَمٍ، وقرأ أبو عمرو وابنُ عامر وِطاءً بكسر الواوِ وألفٍ ممدودةٍ أي مواطأةً القلبِ اللسانَ لها أو فيها، أو موافقةً لما يُرَادُ منها من الخضوعِ والإخلاصِ. ﴿وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي وأسدُّ مقالاً أو أثبتُ قراءة لحضور القلبِ وهدوءِ الأصوات.

(٧) ﴿إِنَّ لَكَ فِى ٱلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ تقلُّباً في مهمَّاتِك واشتغالاً بها فعليك بالتهجدِ، فإنَّ مناجاةَ الحقِّ تستدعي فراغاً. وقرىء سبخاً أي تفرُّقَ قلب بالشواغل مستعارٍ من سَبْخِ الصوفِ وهو نفشُه ونشرُ أجزائِه.

---

(١) أخرجه البخاري (١/١٨ رقم ٢) ومسلم (٤/١٨١٦ ـ ١٨١٧ رقم ٢٣٣٣) والبغوي في شرح السنة (١٣/٣٢١ ـ ٣٢٢).

وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ﴿٨﴾ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا ﴿١١﴾ إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا وَجَحِيمًا ﴿١٢﴾
وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ وَعَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ﴿١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ
رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا ﴿١٦﴾

(٨) ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ﴾ ودمْ على ذكره ليلاً ونهاراً، وذِكْرُ الله يتناولُ كلَّ ما يُذْكَرُ به من تسبيح وتهليل وتمجيد وتحميد وصلاة وقراءة قرآنٍ ودراسة علم. ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ وانقطِعْ إليه بالعبادة وجرِّد نفسَك عما سواه، ولهذه الرمزةِ ومراعاةِ الفواصل وضعَهُ موضِعَ تبتلاً.

(٩) ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ خبرٌ محذوف أو مبتدأٌ خبره: ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ وقرأ ابن عامر والكوفيون غيرَ حفصٍ ويعقوبُ بالجرِّ على البذلِ من ربِّك، وقيل بإضمار حرفِ القسم وجوابُه لا إله إلا هو. ﴿فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ مسبَّبٌ عن التهليلِ، فإنَّ توحُّدَه بالألوهية يقتضي أن تُوَكلَ إليه الأمورُ.

(١٠) ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ من الخرافاتِ. ﴿وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ بأنْ تجانبهم وتداريَهم ولا تكافِئَهم وتكلَ أمرَهُم إلى الله فالله يكفيكهم كما قال:

(١١) ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ﴾ دعني وإياهم وكِلْ إليَّ أَمْرَهُم فإنَّ بي غنيةً عنك في مجازاتِهم. ﴿أُولِي النَّعْمَةِ﴾ أربابِ التنعُّمِ، يريد صناديدَ قريشٍ. ﴿وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلًا﴾ زماناً أو إمهالاً.

(١٢) ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾ تعليلٌ للأمرِ، والنكلُ القيدُ الثقيلُ. ﴿وَجَحِيمًا﴾.

(١٣) ﴿وَطَعَامًا ذَا غُصَّةٍ﴾ طعاماً ينشُبُ في الحلق كالضريع والزقوم. ﴿وَعَذَابًا أَلِيمًا﴾ ونوعاً آخرَ من العذاب مؤلماً لا يعرفُ كُنْهَهُ إلا اللهُ تعالى. ولما كانتِ العقوباتُ الأربعُ مما تشترك فيها الأشباحُ والأرواح ـ فإنَّ النفوسَ العاصيةَ المنهمكةَ في الشهواتِ تبقى مقيَّدةً بحبِّها والتعلُّقِ بها عن التخلصِ إلى عالم المجرَّداتِ متحرقةً بحرقةِ الفرقةِ متجرِّعةً غصَّةَ الهِجْرَانِ معذبةٌ بالحرمانِ عن تجلي أنوار القدس ـ فسَّرَ العذابَ بالحرمان عن لقاءِ الله تعالى.

(١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ﴾ تضطربُ وتتزلزلُ، ظرفٌ لما في ﴿إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالًا﴾[1] من معنى الفعلِ. ﴿وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا﴾ رملاً مجتمعاً كأنه فعيلٌ بمعنى مفعولٍ من كثبتُ الشيءَ إذا جمعتُه. ﴿مَّهِيلًا﴾ منثوراً من هِيْلَ هيلاً إذا نُثِرَ.

(١٥) ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا﴾ يا أهلَ مكَّة. ﴿شَاهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ يشهدُ عليكم يومَ القيامة بالإجابة والامتناع. ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ يعني موسى عليه الصلاة والسلام ولم يعيِّنه لأنَّ المقصودَ لم يتعلَّقْ به.

(١٦) ﴿فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ﴾ عرّفه لسبق ذِكْرِه. ﴿فَأَخَذْنَاهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ ثقيلاً من قولهم طعامٌ وبيلٌ لا يُسْتَمْرَأُ لثقلِه، ومنه الوابلُ للمطرِ العظيمِ.

(١) المزمل: «١٢».

فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ ۚ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴿١٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ
تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿١٩﴾ ۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ
مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ
مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ
وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ
أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿٢٠﴾

(١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ أنفسَكم. ﴿إِن كَفَرْتُمْ﴾ بقيتُم على الكفر. ﴿يَوْمًا﴾ عذابَ يومٍ. ﴿يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا﴾ من شدة هولِه وهذا على الفرضِ أو التمثيلِ، وأصله أنَّ الهمومَ تُضْعِف القوى وتسرعُ الشيبَ، ويجوز أنْ يكونَ وصفاً لليوم بالطولِ.

(١٨) ﴿ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ﴾ منشقٌّ، والتذكير على تأويلِ السقفِ أو إضمارِ شيءٍ[1]. ﴿بِهِۦ﴾ بشدةِ ذلك اليوم على عِظَمِها وأحكامِها فضلاً عن غيرها. والباءُ للآلةِ. ﴿كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا﴾ الضميرُ لله عز وجل، أو لليومِ على إضافةِ المصدرِ إلى المفعولِ.

(١٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ﴾ أي الآياتِ الموعِدَةِ. ﴿تَذْكِرَةٌ﴾ عظةٌ. ﴿فَمَن شَآءَ﴾ أنْ يتَّعِظَ. ﴿ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ أي يتقربُ إليه بسلوك التقوى.

(٢٠) ﴿۞ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ﴾ استعارَ الأدنى للأقلِّ لأن الأقربَ إلى الشيءِ أقلُّ بعداً منه، وقرأ ابن كثير والكوفيونَ ونصفَه وثلثَه بالنصبِ عطفاً على أدنى. ﴿وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ﴾ ويقومُ ذلك جماعةٌ من أصحابك. ﴿وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ﴾ لا يعلم مقاديرَ ساعاتِهما كما هي إلا اللهُ تعالى، فإنَّ تقديمَ اسمِه ـ مبتدأً مبنياً عليه يُقدِّر ـ يشعِرُ بالاختصاص ويؤيدُه قولُه: ﴿عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ﴾ أي لن تُحصُوا تقديرَ الأوقات ولن تستطيعوا ضبطَ الساعاتِ. ﴿فَتَابَ عَلَيْكُمْ﴾ بالترخُّصِ في تركِ القيام المقدَّرِ ورفعِ التبعةِ فيه كما رفعَ التبعةَ عن التائب. ﴿فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ فصلُّوا ما تيسَّر عليكم من صلاةِ الليل، عبَّر عن الصلاةِ بالقرآن كما عبَّر عنها بسائر أركانِها، قيل كان التهجدُ واجباً على التخييرِ المذكور فعسُر عليهم القيامُ به فنُسِخَ به، ثم نُسِخَ هذا بالصلواتِ الخمس، أو فاقرؤوا القرآنَ بعينه كيفما تيسَّر عليكم. ﴿عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ﴾ استئنافٌ يبين حكمةً أخرى مقتضيةً الترخيصَ والتخفيفَ ولذلك كرَّر الحكمَ مرتَّباً عليه وقال: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ والضربُ في الأرض ابتغاءً للفضلِ المسافرةُ للتجارةِ وتحصيلِ العلم ﴿وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ. ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ الواجبةَ. ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ يريدُ به الأمرَ في سائرِ الإنفاقاتِ في سبلِ الخيراتِ، أو بأداءِ الزكاةِ على أحسن وجهٍ والترغيبِ فيه بوعد العِوَض كما صرَّح به في قوله: ﴿وَمَا

(١) وعبر عنها بذلك للتنبيه على أنه تبدلت حقيقتها وزال عنها اسمها ورسمها ولم يبقَ منها إلا ما يعبر عنه بالشيء (س٩/ ٥٢).

تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾ مِنَ الذي تؤخِّرونه إلى الوصيةِ عند الموت أو منْ متاعِ الدنيا. وخيراً ثاني مفعولي تجدُوه، وهو تأكيدٌ أو فصلٌ؛ لأن أفعَلَ مِنْ كالمعرفةِ ولذلك يُمتنعُ مِنْ حرفِ التعريف، وقرىء هو خيرٌ على الابتداءِ والخبر. ﴿وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ﴾ في مجامعِ أحوالِكم فإنَّ الإنسانَ لا يخلو من تفريطٍ. ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المزملِ رفعَ الله عنه العُسْرَ في الدنيا والآخرة»(١).

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٧٩ رقم ٢٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ (٣) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (٥) وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦)
وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ (٧) فَإِذَا نُقِرَ فِي النَّاقُورِ (٨) فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ (٩) عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ (١٠)

سورة المدثر مكية[(١)]. وآيها خمس وخمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾ أي المتدثِّر وهو لابسُ الدثارَ. رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قال: «كنتُ بحراءَ فَنُودِيْتُ فنظرتُ عن يميني وشمالي فلم أرَ شيئاً، فنظرتُ فوقي فإذا هو على عرش بين السماء والأرض ـ يعني الملكَ الذي ناداه ـ فرُعِبْتُ، فرجعتُ إلى خديجةَ فقلت: دثِّروني، فنزل جبريلُ وقال: يا أيها المدثر»[(٢)] ولذلك قيل هي أول سورةٍ نزلتْ. وقيل تأذى من قريش فتغطَّى بثوبه مفكِّراً، أو كان نائماً مدثراً فنزلتْ. وقيل المراد بالمدثر المتدثرُ بالنبوةِ والكمالاتِ النفسانية، أو المختفي فإنه كان بحراءَ كالمختفي فيه على سبيلِ الاستعارةِ. وقرىء المُدثَّر أي الذي دُثِّر هذا الأمرَ وعُصِبَ به.

(٢) ﴿قُمْ﴾ من مضجعِك أو قمْ قيامَ عزمٍ وجِدٍّ. ﴿فَأَنذِرْ﴾ مطلقٌ للتعميم أو مقدَّر بمفعولٍ دلَّ عليه قولُه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾[(٣)] أو قولُه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾[(٤)].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٥٤): «وهي مكية بإجماع من أهل التفسير».
(٢) أخرجه البخاري (٨/ ٦٧٦ ـ ٦٧٧ رقم ٤٩٢٢) و(٨/ ٧١٥ رقم ٤٩٥٤) ومسلم (١/ ١٤٣، ١٤٤ رقم ٢٥٦، ٢٥٧) من حديث جابر بن عبدالله.
(٣) الشعراء: «٢١٤».
(٤) سبأ: «٢٨».

(٣) ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ وخصِّصْ ربَّك بالتكبير وهو وصفه بالكبرياء عقداً وقولاً، روي أنه لما نزلَ كبَّر رسولُ الله ﷺ وأيقن أنه الوحي[1]، وذلك لأنَّ الشيطانَ لا يأمرُ بذلك. والفاءُ فيه وفيما بعدَه لإفادة معنى الشرطِ وكأنه قال: وما يكنْ فكبِّر ربَّك، أو الدلالةِ على أن المقصودَ الأولَ من الأمر بالقيام أن يكبِّر ربَّه عن الشرك والتشبيهِ؛ فإن أولَ ما يجب معرفةُ الصانعِ وأولُ ما يجب بعدَ العلم بوجوده تنزيهُهُ، والقوم كانوا مقرِّين به.

(٤) ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ من النجاساتِ فإن التطهير واجبٌ في الصلوات محبوبٌ في غيرها، وذلك بغسْلِها أو بحفْظِها عن النجاسةِ بتقصيرها مخافةَ جرِّ الذيول فيها، وهو أول ما أُمِرَ به من رفضِ العاداتِ المذمومة. أو طهِّر نفسَك من الأخلاق الذميمة والأفعالِ الدنيئة، فيكون أمراً باستكمالِ القوة العمليةِ بعد أمره باستكمال القوّة النظريةِ والدعاء إليه. أو فطهر دِثَار النبوةِ عما يدنِّسه من الحقدِ والضَّجَرِ وقلَّةِ الصَّبْرِ.

(٥) ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ فاهجرِ العذابَ بالثباتِ على هجْرِ ما يؤدي إليه من الشرك وغيرِه من القبائحِ، وقرأ يعقوب وحفصٌ والرُّجزَ بالضمِّ وهو لغةٌ كالذكرِ.

(٦) ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ أي لا تعطِ مستكثراً، نهيٌ عن الاستغزار وهو أنْ يهبَ شيئاً طامعاً في عوضٍ أكثرَ، نَهْيَ تنزيهٍ أو نهياً خاصاً به لقوله عليه الصلاة والسلام «المستغزر[2] يُثَابُ من هبتِه[3]» والموجب له ما فيه من الحرصِ والضنَّةِ، أو لا تمننْ على الله تعالى بعبادتِك مستكثراً إياها أو على الناس بالتبليغ مستكثِراً به الأجرَ منهم أو مستكثراً إياه. وقرىء تستكثرْ بالسكون للوقفِ أوِ الإبدالِ من تمننْ على أنه مِنْ منَّ بكذا أو تستكثر بمعنى تجده كثيراً، وبالنصبِ على إضمارِ أنْ؛ وقد قرىء بها، وعلى هذا يجوزُ أنْ يكون الرفعُ بحذفِها وإبطالِ عملِها كما رُوِيَ احضرُ الوغى بالرفعِ.

(٧) ﴿وَلِرَبِّكَ﴾ لوجهه أو أمرِه. ﴿فَاصْبِرْ﴾ فاستعملِ الصبرَ، أو فاصبرْ على مشاقِّ التكاليفِ وأذى المشركين.

(٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ﴾ نُفِخَ. ﴿فِي النَّاقُورِ﴾ في الصُّورِ فاعولٌ من النَّقْرِ بمعنى التصويتِ وأصلُه القرعُ الذي هو سببُ الصوتِ، والفاء للسببيةِ كأنه قال: اصبِرْ على زمانٍ صعبٍ تَلْقَى فيه عاقبةَ صبْرِك وأعداؤُك عاقبةَ ضُرِّهم، وإذا ظرفٌ لما دلَّ عليه قولُه:

(٩) ﴿فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾[4].

(١٠) ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ لأن معناه عَسُرَ الأمرُ على الكافرين، وذلك إشارةٌ إلى وقتِ النَّقْرِ، وهو مبتدأٌ

---

(١) ذكره الألوسي في «روح المعاني» (٢٩/١١٦) بدون سند.

(٢) المستغزر: الذي يطلب أكثر مما يُعطي، وهي المغازرة: أي إذا أهدى لك الغريب يطلب أكثر منه فأعطه في مقابله هديته. قال: وفيه عن بعض التابعين «الجانب المستغزر يُثاب من هبته» [النهاية (٣/٣٦٥)].

(٣) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٧٩ رقم ٢٥٠): «تقدم في الروم من قول شريح».
قلت: أخرجه عبدالرزاق في «المصنف» (٩/١٠٦) عن شريح.

(٤) ذلك: إشارة إلى وقت النقر.
وما فيه من معنى البعد ـ مع قرب العهد بالمشار إليه ـ للإيذان ببعد منزلته في الهول والفظاعة (س٩/ ٥٥).

خبرُه يومٌ عسيرٌ، ويومئذ بدلٌ أو ظرفٌ لخبرِهِ إذ التقديرُ: فذلك الوقتُ وقتُ وقوعِ يومٍ عسير. ﴿غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ تأكيدٌ يمنعُ أنْ يكونَ عسيراً عليهم من وجْهٍ ويشعرُ بِيُسْرِه على المؤمنين.

ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

(١١) ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾ نزلتْ في الوليد بنِ المغيرة[١]. ووحيداً حالٌ من الياء أي ذرني وحدِي معه فإني أكفيكَهُ، أو من التاءِ أي ومَنْ خلقتُه وحدي لم يشركْني في خلقِه أحد، أو من العائد المحذوفِ أي من خلقتُه فريداً لا مالَ له ولا ولدَ، أو ذمٌّ فإنه كان ملقَّباً به فسمَّاه الله به تهكُّماً، أو إرادةُ أنه وحيدٌ ولكن في الشرارة أو عن أبيه فإنه كان زنيماً.

(١٢) ﴿وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا﴾ مبسوطاً كثيراً أو مُمَدّاً بالنماء، وكان له الزرعُ والضرعُ والتجارةُ.

(١٣) ﴿وَبَنِينَ شُهُودًا﴾ حضوراً معه بمكَّةَ يتمتَّع بلقائِهم لا يحتاجون إلى سفرٍ لطلب المعاشِ استغناءً بنعمته، ولا يحتاج إلى أنْ يرسِلَهم في مصالِحِه لكثرةِ خدمِه، أو في المحافلِ والأنديةِ لوجاهَتِهم واعتبارِهم. قيل كان له عشرةُ بنينَ أو أكثرُ كلُّهم رجالٌ، فأسلمَ منهم ثلاثةٌ خالد وعمارةُ وهشامٌ.

(١٤) ﴿وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيدًا﴾ وبسطْتُ له الرياسةَ والجاهَ العريضَ حتى لُقِّبَ ريحانةَ قريش، والوحيدُ أي باستحقاقِهِ الرياسةَ والتقدُّمَ.

(١٥) ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ على ما أُوتِيَه وهو استبعادٌ لطمعِه إما لأنه لا مزيدَ على ما أوتي، أو لأنه لا يناسِبُ ما هو عليه من كفرانِ النِّعمِ ومعاندةِ المنعِمِ ولذلك قال:

(١٦) ﴿كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا﴾ فإنه ردعٌ له عن الطمعِ وتعليلٌ للردعِ على سبيل الاستئنافِ بمعاندة آيات المنعِمِ المناسبة لإزالة النعمةِ المانعةِ عن الزيادة، قيل: ما زالَ بعدَ نزولِ هذه الآيةِ في نقصانِ ماله حتى هَلَكَ.

(١٧) ﴿سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا﴾ سأغشّيه عَقَبَةً شاقَّةَ المصعدِ، وهو مَثَلٌ لما يَلْقَى من الشدائد. وعنه عليه الصلاةُ والسلام «الصَّعُودُ جبلٌ من نار يصعدُ فيه سبعينَ خريفاً ثم يهوي فيه كذلك أبداً»[٢].

(١٨) ﴿إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ تعليلٌ للوعيدِ أو بيانٌ للعِنادِ، والمعنى فكَّر فيما يُخَيَّلُ طعناً في القرآن وقدَّر في نفسِه ما يقول فيه.

---

(١) أخرجه الحاكم (٢/٥٠٦) والبيهقي في «الدلائل» كما في «فتح القدير» (٥/٣٢٨) من طريق عبدالرزاق به وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه الترمذي (٧/٢٩٧ ـ ٢٩٨ مع التحفة) وقال هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلاَّ من حديث ابن لهيعة. وأخرجه أحمد (٣/٧٥) وابن جرير (١٤/ج٢٩/١٥٥) والحاكم (٢/٥٠٧) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ووافقه الذهبي. وانظر «الكافي الشاف» (ص١٧٩ رقم ٢٥٢).

﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ
يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾ إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾
عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ ﴿٣٠﴾﴾

(١٩) ﴿فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تعجُّبٌ من تقديره استهزاءً به، أو لأنه أصابَ أقْصَى ما يمكنُ أنْ يُقَالَ عليه مِنْ قولهم: قتلَه اللهُ ما أشجَعَه، أي بلغَ في الشجاعةِ مبلغاً يحقُّ أنْ يُحْسَدَ ويدعو عليه حاسِدُه بذلك. رُوِيَ[1] أنه مرَّ بالنبي ﷺ وهو يقرأ حمّ السجدة، فأتى قومَه وقال لقد سمعتُ من محمدٍ آنفاً كلاماً ما هو من كلام الإنس والجنِّ. إنَّ له لحلاوةً وإن عليه لطلاوةً. وإنَّ أعلاهُ لمثمرٌ وإنَّ أسفلَه لمغدِقٌ وإنه ليعلو ولا يُعْلَى، فقالتْ قريشٌ صبأ الوليدُ، فقال ابنُ أخيه أبو جهل: أنا أكفيكُموه، فقعدَ إليه حزيناً وكلَّمه بما أحماه فناداهم، فقال: تزعُمونَ أنَّ محمداً مجنونٌ فهل رأيتموه يخنقُ؟ وتقولون إنه كاهنٌ فهل رأيتموه يتكهَّنُ؟ وتزعمون أنه شاعرٌ فهل رأيتموه يتعاطَى شعراً؟ فقالوا لا، فقال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرِّق بينَ الرجلِ وأهلِه وولدِه ومواليه، ففرِحُوا بقوله وتفرَّقوا عنه متعجِّبينَ منه.

(٢٠) ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ تكرير للمبالغة، وثم للدلالة على أن الثانية أبلغ من الأولى وفيما بعد على أصلها.

(٢١) ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أي في أمرِ القرآن مرةً بعدَ أخرى.

(٢٢) ﴿ثُمَّ عَبَسَ﴾ قطَّب وجْهَهُ لما لم يجدْ فيه مطْعَناً ولم يدرِ ما يقول، أو نظرَ إلى رسول الله ﷺ وقطَّب في وجْهِه. ﴿وَبَسَرَ﴾ إتباعٌ لِعَبَسَ.

(٢٣) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الحقِّ أو الرسولِ عليه الصلاة والسلام. ﴿وَاسْتَكْبَرَ﴾ عن اتباعِه.

(٢٤) ﴿فَقَالَ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ يُرْوَى ويُتَعَلَّمُ، والفاءُ للدلالة على أنه لما خَطَرتْ هذه الكلمةُ بباله تفوَّه بها من غير تلبُّثٍ وتفكُّرٍ.

(٢٥) ﴿إِنْ هَٰذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ﴾ كالتأكيدِ للجملة الأولى ولذلك لم يُعْطَفْ عليها.

(٢٦) ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾ بدلٌ من سأرهِقُه صُعُوداً.

(٢٧) ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ﴾ تفخيمٌ لشأنها، وقوله:

(٢٨) ﴿لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ﴾ بيانٌ لذلك أو حالٌ من سقرَ، والعاملُ فيها معنى التعظيم، والمعنى لا تبقي على شيء يُلْقَى فيها ولا تدعُه حتى تهلِكَه.

(٢٩) ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ﴾ أي مسوِّدةٌ لأعالي الجلْدِ، أو لائحةٌ للناس. وقرئتْ بالنصبِ على الاختصاصِ.

(٣٠) ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ ملَكاً أو صنفاً من الملائكة يلُونَ أمْرَها. والمخصِّصُ لهذا العددِ أنَّ اختلالَ النفوس البشريةِ في النظر والعمل بسبب القُوى الحيوانيةِ الاثنتي عشرة والطبيعيةِ السبعِ، أو أنَّ لجهنَّمَ

---

(١) انظر تفسير عبدالرزاق (٢/ ٣٢٨ ـ ٣٢٩) والواحدي في أسباب النزول ص٤٤٧.

سبعَ دركاتٍ ستٌّ منها لأصنافِ الكفار وكلُّ صنفٍ يُعَذَّبُ بتركِ الاعتقاد والإقرارِ أو العملِ أنواعاً منَ العذابِ تناسِبُها على كلِّ نوع مَلَكٍ أو صِنفٍ يتولاَّه وواحدةٌ لعُصَاةِ الأمةِ يعذَّبون فيها بتركِ العملِ نوعاً يناسِبُه ويتولاه مَلَكٌ، أو صنفٌ، أو أن الساعاتِ أربعُ وعشرونَ خمسةٌ منها مصروفةٌ في الصلاة فيبقى تسعةَ عشرَ قد تصرَّف فيما يُؤَاخَذُ به بأنواعِ من العذابِ يتولاَّها الزبانيةُ. وقرىء تسعةَ عْشَرَ بسكونِ العين كراهةَ توالي حركاتٍ فيها هو كاسمٍ واحدٍ، وتسعةَ أعشُرَ جمعُ عشيرٍ كيمينٍ وأيمنٍ، أي تسعةَ كلِّ عشيرٍ جَمْعٌ يعني نقيبَهم أو جمعُ عشرٍ فتكون تسعينَ.

وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ ﴿٣١﴾ كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ﴿٣٢﴾

(٣١) ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾ ليخالفوا جنسَ المعذَّبين فلا يرقُون لهم ولا يستروِحُون إليهم، ولأنهم أقوى الخلْقِ بأساً وأشدُّهم غضباً لله. رُوِيَ أنَّ أبا جهلٍ لما سمِعَ عليها تسعةَ عشرَ قال لقريش: أيعجزُ كلُّ عشرةٍ منكم أنْ يبطشُوا برجلٍ منهم؟ فنزلتْ [١]. ﴿وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وما جعلنا عَدَدهم إلا العددَ الذي اقتضَى فتنتَهم وهو التسعةَ عشرَ، فعبَّر بالأثرِ عن المؤثِّر تنبيهاً على أنه لا ينفكُّ منه، وافتتانُهم به استقلالُهم واستهزاؤُهم به واستبعادُهم أنْ يتولَّى هذا العددُ القليلُ تعذيبَ أكثرِ الثَّقَلَيْنِ، ولعلَّ المرادَ الجعلُ بالقولِ ليحسُنَ تعليلُه بقوله: ﴿لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي ليكتسِبوا اليقينَ بنبوةِ محمدٍ ﷺ وصدقِ القرآن لما رأوا ذلك موافقاً لما في كتابهم. ﴿وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا﴾ بالإيمان به وبتصديقِ أهل الكتاب له. ﴿وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ أي في ذلك وهو تأكيدٌ للاستيقانِ وزيادةِ الإيمانِ ونفيٌ لما يعرضُ للمتيقِّن حيثُما عراهُ شبهةٌ [٢]. ﴿وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ شكٌّ أو نفاقٌ، فيكون إخباراً بمكَّةَ عما سيكونُ في المدينة بعدَ الهجرةِ. ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ﴾ الجازمون في التكذيبِ. ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا﴾ أيُّ شيءٍ أراد بهذا العددِ المستغرَبِ استغرابَ المثَلِ، وقيل لما استبعدوه حسِبُوا أنه مثلٌ مضروبٌ. ﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ مثلُ ذلك المذكور من الإضلالِ والهدى يضلُّ الكافرين ويهدي المؤمنين. ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ﴾ جموعَ خلْقه على ما هم عليه. ﴿إِلَّا هُوَ﴾ إذ لا سبيلَ لأحدٍ إلى حصْرِ الممكِنات والاطلاع على حقائقها وصفاتِها وما يوجبُ اختصاصَ كلٍّ منها بما يخصُّه من كمٍّ وكيفٍ واعتبارٍ ونسبةٍ. ﴿وَمَا هِىَ﴾ وما سقرُ أو عدَّةُ الخزنةِ أو السورةُ. ﴿إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ إلا تذكرةٌ لهم.

(٣٢) ﴿كَلَّا﴾ ردْعٌ لمن أنكرَها، أو إنكارٌ لأنْ يتذكَّروا بها. ﴿وَٱلْقَمَرِ﴾.

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٤/ج٢٩/ ١٥٩).

(٢) والتعبير عنهم باسم الفاعل «المؤمنون» ـ بعد ذكرهم بالموصول والصلة الفعلية المنبئة عن الحدوث ـ للإيذان بثباتهم على الإيمان بعد ازدياده ورسوخهم في ذلك (س٩/ ٦٠).

وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ ﴿٣٣﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ ﴿٣٤﴾ إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾
كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ﴿٣٩﴾ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمۡ فِي
سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ
بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾

(٣٣) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾ أي أَدْبَرَ كقَبَلَ بمعنى أَقْبَلَ، وقرأ نافع وحمزةُ ويعقوب وحفص إذا أدْبَرَ على المضيِّ.

(٣٤) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَآ أَسۡفَرَ﴾ أضاءَ.

(٣٥) ﴿إِنَّهَا لَإِحۡدَى ٱلۡكُبَرِ﴾ أي لإحدى البلايا الكُبَرِ أي البلايا الكبرِ كثيرةٌ وسقرُ واحدةٌ منها، وإنما جَمَعَ كُبْرى على كُبَرٍ إلحاقاً لها بفعلِه تنزيلاً للألفِ منزلةَ التاء كما أُلحِقَتْ قاصعاءُ بقاصعةٍ فجُمِعَتْ على قواصعَ، والجملة جوابُ القسمِ أو تعليلٌ لكلاَّ، والقسمُ معترضٌ للتأكيد.

(٣٦) ﴿نَذِيرٗا لِّلۡبَشَرِ﴾ تمييزٌ أي لإحدى الكُبَرِ إنذاراً أو حالٌ عما دلَّت عليه الجملةُ أي كَبُرَتْ منذِرةً، وقرىء بالرفعِ خبراً ثانياً أو خبراً لمحذوفٍ.

(٣٧) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَتَقَدَّمَ أَوۡ يَتَأَخَّرَ﴾ بدلٌ مِنْ للبشرِ أي نذيراً للمتمكنينَ من السَّبْقِ إلى الخير والتخلُّفِ عنه، أو لمن شاء خَبَرٌ لأنْ يتقدمَ فيكونُ في معنى قوله ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ .

(٣٨) ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ مرهونةٌ عند الله مصدرٌ كالشكيمةِ أُطْلِقَتْ للمفعولِ كالرهنِ ولو كانتْ صفةً لقيلَ رهينٌ.

(٣٩) ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ فإنَّهم فكُّوا رِقَابَهم بما أحسَنُوا من أعمالِهم، وقيل هم الملائكةُ أوِ الأطفالُ.

(٤٠) ﴿فِي جَنَّٰتٖ﴾ لا يُكْتَنَهُ وصفُها وهي حالٌ من أصحابِ اليمين، أو ضميرِهم في قوله: ﴿يَتَسَآءَلُونَ﴾ .

(٤١) ﴿عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ﴾ أي يسألُ بعضُهم بعضاً، أو يسألون غيرَهُم عن حالهم كقولك: تداعَيْناه أي دَعَوْناه[1]، وقولُه:

(٤٢) ﴿مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ بجوابِه حكايةٌ لما جرى بينَ المسؤولينَ والمجرمينَ أجابوا بها.

(٤٣) ﴿قَالُواْ لَمۡ نَكُ مِنَ ٱلۡمُصَلِّينَ﴾ الصلاةَ الواجبةَ.

(٤٤) ﴿وَلَمۡ نَكُ نُطۡعِمُ ٱلۡمِسۡكِينَ﴾ أي ما يجبُ إعطاؤه، وفيه دليلٌ على أنَّ الكفارَ مخاطَبُوْنَ بالفروعِ.

(٤٥) ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ﴾ نشرعُ في الباطلِ. ﴿مَعَ ٱلۡخَآئِضِينَ﴾ مع الشارِعينَ فيه.

(٤٦) ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ أخَّره لتعظيمِه أي وكنَّا بعدَ ذلك كلِّه مكذِّبينَ بالقيامة.

---

(١) وحذف المسؤول لكونه عين المسؤول عنه (س٩/ ٦١).

حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ
مُّسْتَنفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ ﴿٥١﴾ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّا ۖ بَل لَّا يَخَافُونَ
ٱلْـَٔاخِرَةَ ﴿٥٣﴾ كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ
ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

(٤٧) ﴿حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ﴾ الموتُ ومقدِّماتُه.

(٤٨) ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَـٰعَةُ ٱلشَّـٰفِعِينَ﴾ لو شفَعُوا لهم جميعاً.

(٤٩) ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ أي معرضِينَ عن التذكيرِ يعني القرآنَ أو ما يعمُّه، ومعرضينَ حالٌ.

(٥٠) ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ﴾ شبَّهُهُم في إعراضِهِم ونِفَارِهم عن استماعِ الذِّكْرِ بِحُمُرٍ نافرةٍ.

(٥١) ﴿فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍۭ﴾ أي أسدٍ فعولةٍ من القسْرِ وهو القهْرُ.

(٥٢) ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً﴾ قراطيسَ تنشرُ وتُقْرَأُ وذلك أنهم قالوا للنبيِّ ﷺ: لن نتَّبعَك حتى تأتيَ كلامنا بكتاب من السماء فيه من الله إلى فلان اتبع محمداً.

(٥٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ لهم عن اقتراحِهِم الآياتِ. ﴿بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾ فلذلك أعرضُوا عن التذكرة لا لامتناعِ إيتاءِ الصُّحُفِ.

(٥٤) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إعراضِهِم. ﴿إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ﴾ وأيُّ تذكرةٍ.

(٥٥) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ فمنْ شاء أنْ يذكُرَهُ.

(٥٦) ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ذِكْرُهم أو مشيئَتُهم كقوله ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾[1] وهو تصريحٌ بأنَّ فِعْلَ العبدِ بمشيئة الله تعالى، وقرأ نافعٌ تَذْكُرونَ بالتاء وقرىء بهما مشدَّداً. ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ حقيقٌ بأنْ يُتَّقَى عقابُه. ﴿وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ حقيقٌ بأنْ يغفِر لعبادِه سيَّما المتقينَ منهم. وعن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المدثرِ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ مَنْ صدق بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وكذَّب به بمكَّة شرَّفها الله تعالى»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) التكوير: «٢٩».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٠ رقم ٢٥٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القِيَامَةِ

ترتيبها ٧٥ — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿١﴾ وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ ﴿٢﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾ بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ ﴿٥﴾ يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴿٦﴾ فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ﴿٧﴾ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ﴿١٠﴾ كَلَّا لَا وَزَرَ ﴿١١﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴿١٢﴾ يُنَبَّؤُا۟ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴿١٣﴾

سورة القيامة مكية[١] وآيها أربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ إدخالُ لا النافيةِ على فعلِ القسمِ للتأكيد شائعٌ في كلامهم قال امرؤُ القيس:

لاَ وَأَبِيــــك ابْنَــــةَ العَـــامِـــرِيِّ   لا يَـــدَّعِـــي القَـــوْمُ أَنِّـــي أفِـــرّ

وقد مرَّ الكلامُ فيه في قوله ﴿أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[٢] وقرأ قنبلٌ لأُقْسِمُ بغير ألف بعد اللامِ، وكذا روي عن البزِّي.

(٢) ﴿وَلَآ أُقْسِمُ بِٱلنَّفْسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ بالنفسِ المتقيةِ التي تلومُ النفوسَ المقصِّرةَ في التقوى يومَ القيامة على تقصيرها أو التي تلوم نفسَها أبداً وإنِ اجتهدتْ في الطاعة، أو النفسِ المطمئنةِ اللائمةِ للنفس الأمارةِ، أو بالجنسِ لما رويَ أنه عليه الصلاة والسلام قال «ليس من نفسٍ برَّةٍ ولا فاجرةٍ إلا وتلوم نفسَها يومَ القيامة إنْ عملتْ خيراً قالتْ كيف لم أزدذ وإنْ عملتْ شراً قالت يا ليتني كنت قصَّرتُ»[٣] أو نفسِ آدمَ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٧٠): «وهي مكية بإجماع من المفسرين وأهل التأويل».
(٢) الواقعة: «٧٥».
(٣) ذكره الفراء في معاني القرآن (٣/ ٢٠٨) بدون راوٍ أو سند.

فإنها لم تزلْ تتلومُ على ما خرجتْ به من الجنةِ، وضمُّها إلى يوم القيامة لأنَّ المقصودَ من إقامتها مجازاتُها.

(٣) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني الجنسَ؛ وإسنادُ الفعل إليه لأن فيهم مَنْ يحسبُ، أو الذي نزلَ فيه وهو عدي بنُ أبي ربيعة سأل رسولَ الله ﷺ عن أمر القيامة، فأخبره به فقال: لو عاينتُ ذلك اليومَ لم أصدِّقْكَ، أوَ يجمعُ اللهُ هذه العِظامَ[1]. ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ بعد تفرُّقها، وقرىء أن لن يُجْمَعَ على البناء للمفعول.

(٤) ﴿بَلَىٰ﴾ نجمعُها. ﴿قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّيَ بَنَانَهُۥ﴾ بجمع سُلامَيَّاتِه وضمِّ بعضِها إلى بعض كما كانت مع صِغَرِها ولطافتِها فكيف بكبار العظامِ، أو على أن نسويَ بنانَه الذي هو أطرافُه فكيف بغيرها، وهو حالٌ من فاعل الفعلِ المقدر بعدَ بلَى، وقرىء بالرفع أي نحن قادرونَ.

(٥) ﴿بَلْ يُرِيدُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ عطفٌ على أيحسبُ فيجوز أن يكون استفهاماً وأنْ يكون إيجاباً لجوازِ أن يكون الإضرابُ عن المستفهم وعن الاستفهام. ﴿لِيَفْجُرَ أَمَامَهُۥ﴾ ليدومَ على فجوره فيما يستقبله من الزمان.

(٦) ﴿يَسْـَٔلُ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ متى يكون يومُ القيامة استبعاداً له أوِ استهزاء.

(٧) ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ﴾ تحيَّر فَزَعاً من بَرِقَ فدهِشَ بصرهُ، وقرأ نافع بالفتحِ وهو لغةٌ، أو من البريقِ بمعنى لمعَ من شدةِ شخوصه، وقرىء بلقَ من بلقَ البابُ إذا انفتحَ.

(٨) ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ﴾ ذهب ضوءه، وقرىء على البناء للمفعولِ.

(٩) ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ في ذهاب الضوءِ أو الطلوع من المغرب، ولا ينافيه الخسوفُ فإنه مستعار للمُحاقِ. ولمن حَمَلَ ذلك على أماراتِ الموت أنْ يفسِّر الخسوفَ بذهابِ ضوء البصر والجمعَ باستتباع الروح الحاسةَ في الذهابِ، أو بوصوله إلى من كان يقتبس منه نور العقلِ من سكان القدُسِ، وتذكيرُ الفعلِ لتقدمه وتغليبِ المعطوفِ.

(١٠) ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ﴾ أي الفرارُ يقوله قولَ الآيس من وُجْدَانِه المتمنِّى، وقرىء بالكسر وهو المكانِ.

(١١) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن طلب المفرِّ. ﴿لَا وَزَرَ﴾ لا ملجأ مستعارٌ من الحبلِ واشتقاقه من الوَزَرِ وهو الثِّقَلُ.

(١٢) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ إليه وحدَه استقرارُ العباد، أو إِلى حكمِه استقرارُ أمرِهم، أو إلى مشيئته موضعُ قرارِهم يدخل مَنْ يشاء الجنةَ ومن يشاء النارَ.

(١٣) ﴿يُنَبَّؤُا ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍۭ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ بما قدَّم من عمل عمِلَه وبما أخَّر منه لم يعملْه، أو بما قدَّم من عملٍ عمِلَه وبما أخَّر من سنَّةٍ حسنةٍ أو سيئة عمل بها بعدَه، أو بما قدَّم من مال تصدَّق به وبما أخَّر فخلَّفه، أو بأول عمله وآخره.

---

(١) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٨٠ رقم ٢٥٦): «ذكره الثعلبي والبغوي والواحدي بدون إسناد».

بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴿١٤﴾ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴿١٥﴾ لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾ كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴿٢١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾

(١٤) ﴿ بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ ﴾ حجَّةٌ بيِّنةٌ على أعمالِها لأنه شاهدٌ بها، وصفَها بالبصارةِ على المجاز، أو عين بصيرةٌ بها فلا يحتاج إلى الإنباء.

(١٥) ﴿ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُۥ ﴾ ولو جاء بكل ما يمكنُ أن يعتذرَ به جمعُ معذارٍ وهو العذْرُ، أو جمع معذرةٍ على غير قياس كالمناكير في المنكرِ فإنَّ قياسَه معاذِرُ وذلك أولى وفيه نظرٌ.

(١٦) ﴿ لَا تُحَرِّكْ ﴾ يا محمدُ. ﴿ بِهِۦ ﴾ بالقرآنِ. ﴿ لِسَانَكَ ﴾ قبل أن يتمَّ وحيُه. ﴿ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴾ لتأخذَه على عجلة مخافةَ أن ينفلِتَ منك.

(١٧) ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ ﴾ في صدرك. ﴿ وَقُرْءَانَهُۥ ﴾ وإثباتَ قراءتِه في لسانِك، وهو تعليلٌ للنهي.

(١٨) ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ ﴾ بلسانِ جبريلَ عليك[1] . ﴿ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ قراءتَه وتكرر فيه حتى يرسخَ في ذهنك.

(١٩) ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴾ بيانَ ما أشكلَ عليك من معانيه، وهو دليلٌ على جواز تأخير البيان عن وقت الخطاب، وهو اعتراضٌ بما يؤكد التوبيخَ على حبِّ العجلة لأن العجلةَ إذا كانت مذمومةً فيما هو أهمُّ الأمور وأصلُ الدين فكيف بها في غيره، أو بذكرِ ما اتفقَ في أثناء نزولِ هذه الآياتِ. وقيل الخطابُ مع الإنسانِ المذكورِ والمعنى أنه يُؤتَى كتابَهُ فيتلجلجُ لسانه من سرعةِ قراءتِه خوفاً، فيقالُ له لا تحرِّكْ به لسانَك لتعجلَ به فإن علينا بمقتضَى الوعدِ جمعَ ما فيه من أعمالك وقراءتَه، فإذا قرأناه فاتبعْ قراءتَه بالإقرار أوِ التأملِ فيه، ثم إن علينا بيانَ أمرِه بالجزاءِ عليه.

(٢٠) ﴿ كَلَّا ﴾ ردعٌ للرسول عن عادةِ العجلةِ أو للإنسان عن الاغترارِ بالعاجلِ. ﴿ بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ﴾ .

(٢١) ﴿ وَتَذَرُونَ ٱلْءَاخِرَةَ ﴾ تعميمٌ للخطابِ إشعاراً بأنَّ بني آدمَ مطبوعون على الاستعجالِ وإن كان الخطابُ للإنسان، والمرادُ به الجنسُ فجَمَعَ الضميرَ للمعنى ويؤيده قراءةُ ابنِ كثير وابن عامر والبصريينِ بالياءِ فيهما.

(٢٢) ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ بهيةٌ متهلِّلَةٌ.

(٢٣) ﴿ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ تراه مستغرقةً في مطالعةِ جماله بحيثُ تغفلُ عما سواه ولذلك قدَّم المفعولَ، وليس هذا في كل الأحوالِ حتى ينافيه نظرُها إلى غيره[2] . وقيل منتظرةٌ إنعامَه، ورُدَّ بأنَّ الانتظارَ

---

(١) وإسناد القراءة إلى نون العظمة للمبالغة (س٩/٦٧).

(٢) عن جرير بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عِياناً كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته» رواه البخاري (٢/٢٧) ومسلم (٦٣٣).
وعن صهيب ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبيض وجوهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجّنا من النار؟ فيكشِفُ الحجابَ، فما أعطوا شيئاً

لا يسندُ إلى الوجهِ وتفسيره بالجملةِ خلافُ الظاهرِ، وأنَّ المستعملَ بمعناه لا يتعدَّى بإلى. وقولُ الشاعر:

وَإِذَا نَظَرْتُ إِلَيْكَ مِنْ ملكٍ والبَحْرُ دُونَكَ زِدْتَنِي نِعَماً

بمعنى السؤال فإنَّ الانتظار لا يستعقبُ العطاءَ.

وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ ﴿٢٤﴾ تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ ﴿٢٥﴾ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾
وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾ فَلَا صَدَّقَ وَلَا صَلَّىٰ ﴿٣١﴾ وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ
أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ ﴿٣٣﴾ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ ﴿٣٤﴾

(٢٤) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ﴾ شديدةُ العبوس والباسلُ أبلغُ من الباسرِ لكنه غلبَ في الشجاعِ إذا اشتدَّ كلوحُه.

(٢٥) ﴿تَظُنُّ﴾ تَتوقَّع أربابها. ﴿أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾ داهيةٌ تكسرُ الفِقَارَ.

(٢٦) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن إيثار الدنيا على الآخرة. ﴿إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾ إذا بلغتِ النفسُ أعاليَ الصدرِ، وإضمارُها من غير ذكرٍ لدلالةِ الكلامِ عليها.

(٢٧) ﴿وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ﴾ وقال حاضرٌ وصاحبُها مَنْ يرقيه مما به من الرقْيَةِ، أو قال ملائكةُ الموتِ أيكم يرقَى بروحِه ملائكةُ الرحمةِ أو ملائكةُ العذاب، من الرقيِّ.

(٢٨) ﴿وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ﴾ وظن المحتضِرُ أن الذي نزلَ به فراقُ الدنيا ومحابها.

(٢٩) ﴿وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ﴾ والتَوَتْ ساقه بساقِه فلا يقدرُ على تحريكِهما، أو شدةُ فراقِ الدنيا بشدةِ خوف الآخرة.

(٣٠) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ﴾ سوقُه إلى الله تعالى وحُكْمِه.

(٣١) ﴿فَلَا صَدَّقَ﴾ ما يجب تصديقُه، أو فلا صدقَ مالَه أي فلا زكاةَ. ﴿وَلَا صَلَّىٰ﴾ ما فُرِضَ عليه والضمير فيهما للإنسان المذكور في أيحسبُ الإنسانُ.

(٣٢) ﴿وَلَٰكِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ عن الطاعة.

(٣٣) ﴿ثُمَّ ذَهَبَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ يَتَمَطَّىٰٓ﴾ يتبخترُ افتخاراً بذلك من المطِّ، فإن المتبخترَ يمدُّ خطاه فيكون أصلُه يتمطَّطُ، أو من المطِّ وهو الظهرُ فإنه يلويه.

(٣٤) ﴿أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰ﴾ ويلٌ لك من الولي، وأصلُه أولاك اللهُ ما تكرهُه، واللامُ مزيدةٌ كما في ﴿رَدِفَ لَكُم﴾[1] أو أولى لك الهلاكُ. وقيل أفعلُ من الويلِ بعد القلبِ أدنى من أدونَ، أو فعلى من آل يؤولُ بمعنى عقباك النارُ.

= أحب إليهم من النظر إلى ربهم» رواه مسلم (١٨١).

(١) النمل: «٧٢».

ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾
فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾

(٣٥) ﴿ثُمَّ أَوْلَىٰ لَكَ فَأَوْلَىٰٓ﴾ أي يتكرر ذلك عليه مرةً بعد أُخرى.

(٣٦) ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ مهمَلاً لا يكلَّفُ ولا يجازى، وهو يتضمنُ تكريرَ إنكارِه للحشر، والدلالةُ عليه من حيثُ إن الحكمةَ تقتضي الأمرَ بالمحاسنِ والنهيَ عن القبائح، والتكليفُ لا يتحققُ إلا بالمجازاةِ وهي قد لا تكون في الدنيا فتكون في الآخرة.

(٣٧) ﴿أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ﴾.

(٣٨) ﴿ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ فقدَّره فعدَّله.

(٣٩) ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ﴾ للصِّنفينِ ﴿ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ وهو استدلالٌ آخرُ بالإبداءِ على الإعادةِ على ما مرَّ تقريره مراراً ولذلك رتَّب عليه قولَه:

(٤٠) ﴿أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ عن النبيِّ ﷺ أنه كان إذا قرأَها قال: «سبحانك، بلى»[1]. وعنه ﷺ «من قرأ سورةَ القيامة شهدتُ له أنا وجبريلُ يومَ القيامة أنه كان مؤمِناً به»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه أبو داود (١/٥٤٩ رقم ٨٨٤) من طريق موسى بن أبي عائشة عن رجل سمعه من رسول الله ﷺ.
قلت: موسى هذا لم يدرك أحداً من الصحابة فهو معضل.
وأخرجه الحاكم (٢/ ٥١٠) من طريق إسماعيل بن أمية عن أبي اليسع من حديث أبي هريرة نحوه.
قال الحاكم: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي.
قلت: بل فيه «يزيد بن عياض» كذبه مالك وغيره وأورده الذهبي في الميزان (٤/ ٤٣٦) وذكر فيه أقوال العلماء أنه ضعيف.
وكذلك أورد الذهبي الحديث في الميزان وقال: أبو اليسع لا يدري من هو والسند بذلك مضطرب.
والخلاصة أن الحديث ضعيف من كلا الطريقين.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٠ رقم ٢٥٩) ـ وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الإنسَانِ

ترتيبها ٧٦ — آياتها ٣١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا ﴿٤﴾

سورة الإنسان مكية[1] وآيها إحدى وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ﴾ استفهامُ تقريرٍ وتقريبٍ ولذلك فُسِّر بقدْ وأصلُه أَهَلْ كقوله: أَهَلْ رَأَوْنَا بِسَفْحِ القَاعِ ذِي الأكمِ. ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ﴾ طائفةٌ محدودة من الزمان الممتدِّ الغيرِ المحدودِ. ﴿لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ بل كان شيئاً منسياً غيرَ مذكورٍ بالإنسانية كالعنصرِ والنطفةِ، والجملة حالٌ من الإنسان أو وصفٌ لحين بحذف الراجعِ والمراد بالإنسان الجنسُ لقوله:

(٢) ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ أو آدم بيَّنَ أولاً خلْقه ثم ذَكَر خلْقَه بنيه. ﴿أَمْشَاجٍ﴾ أخلاطٍ جمعُ مِشْجٍ أو مَشْجٍ أو مشيج من مشجتُ الشيءَ إذا خلطْتُه، وجَمَعَ النطفةَ به لأن المرادَ بها مجموعُ منيِّ الرجلِ والمرأةِ وكلٌّ منهما مختلف الأجزاءِ في الرقةِ والقوامِ والخواصِّ، ولذلك يصير كلُّ جزء منهما مادةَ عضوٍ. وقيل مفردٌ كأعشار وأكباشٍ. وقيل ألوان فإنَّ ماءَ الرجل أبيضُ وماءَ المرأةِ أصفرُ فإذا

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٨٢): قال بعض المفسرين هي مكية كلها، وحكى النقاش والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية وهي قوله تعالى: «ولا تطع منهم آثماً أو كفوراً» والباقي مدني.

اختلطا اخضرًا، أو أطوارٌ فإنَّ النطفةَ تصير علقةً ثم مضغةً إلى تمام الخِلْقة. ﴿نَّبْتَلِيهِ﴾في موضع الحال أي مبتلينَ له بمعنى مريدينَ اختبارَه أو ناقلينَ له من حالٍ إلى حال فاستُعير له الابتلاءُ. ﴿فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ ليتمكَّن من مشاهدةِ الدلائلِ واستماعِ الآيات، فهو كالمسبَّبِ عن الابتلاءِ ولذلك عطف بالفاءِ على الفعل المقيَّدِ به ورتَّب عليه قولَه:

(٣) ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ﴾ أي بنصبِ الدلائلِ وإنزالِ الآيات. ﴿إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ حالانِ من الهاء، وإما للتفصيلِ أو التقسيمِ أي هديناه في حالَيْه جميعاً أو مقسوماً إليهما بعضُهم شاكراً بالاهتداءِ والأخذِ فيه، وبعضُهم كفورٌ بالإعراضِ عنه، أو من السبيلِ ووصْفُهُ بالشكر والكفر مجازٌ. وقرىء أما بالفتح على حذفِ الجواب. ولعلَّه لم يقلْ كافراً ليطابقَ قَسِيمَهُ محافظةً على الفواصلِ، وإشعاراً بأنَّ الإنسانَ لا يخلو عن كفرانٍ غالبًا وإنما المؤاخَذُ به التوغلُ فيه.

(٤) ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَا۟﴾ بها يُقَادُوْنَ. ﴿وَأَغْلَٰلًا﴾بها يقيَّدون. ﴿وَسَعِيرًا﴾بها يحرقونَ، وتقديمُ وعيدِهم وقد تأخَّر ذِكْرُهم لأنَّ الإنذارَ أهمُّ وأنفع، وتصديرُ الكلام وخَتْمُهُ بذكرِ المؤمنين أحسنُ، وقرأ نافع والكسائيُّ وأبو بكر سلاسلاً للمناسبةِ.

إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ﴿٦﴾
يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا ﴿٧﴾ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾

(٥) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ﴾ جمعُ بَرٍّ كأرباب، أو بارٌّ كأشهادٍ. ﴿يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ﴾من خمر وهي في الأصلِ القدحُ تكون فيه. ﴿كَانَ مِزَاجُهَا﴾ما يُمزَجُ بها. ﴿كَافُورًا﴾لِبَرْدِهِ وعذوبتِهِ وطيبِ عُرْفِهِ. وقيل اسمُ ماءٍ في الجنة يشبه الكافورَ في رائحتِهِ وبياضِهِ. وقيل يخلقُ فيها كيفياتِ الكافورِ فتكون كالممزوجةِ به.

(٦) ﴿عَيْنًا﴾بدلٌ من كافوراً إنْ جُعِلَ اسمَ ماء، أو من محلِّ من كأسٍ على تقديرِ مضافٍ أي ماءَ عينٍ أو خمرَها. أو نُصِبَ على الاختصاصِ، أو بفعلٍ يفسره ما بعدَها. ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾أي ملتذاً بها أو ممزوجاً بها، وقيل الباء مزيدةٌ أو بمعنى مِنْ لأنَّ الشربَ مبتدأٌ منها كما هو. ﴿يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ يُجرونَها حيثُ شاءوا إجراءً سهلاً.

(٧) ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ استئنافٌ ببيانِ ما رزقوه لأجلِه كأنه سُئِلَ عنه فأُجيبَ بذلك، وهو أبلغُ في وصْفِهِم بالتوفُّرِ على أداءِ الواجباتِ لأن من وفَّى بما أوجبه على نفسِه لله تعالى كان أوفَى بما أوجبه الله تعالى عليه. ﴿وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ﴾ شدائدُه. ﴿مُسْتَطِيرًا﴾فاشياً منتشِراً غايةَ الانتشارِ مِن استطارَ الحريقُ والفجْرُ، وهو أبلغُ من طارَ، وفيه إشعارٌ بحسن عقيدتِهم واجتنابهم عن المعاصي.

(٨) ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ حبِّ الله تعالى أوِ الطعام أوِ الإطعام. ﴿مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ يعني أُسَرَاءَ الكفارِ فإنه ﷺ كان يُؤتَى بالأسير فيدفعُه إلى بعضِ المسلمين فيقول أحسنْ إليه، أو الأسيرَ المؤمنَ ويدخلُ فيه المملوكُ والمسجونُ، وفي الحديث: «غريمك أسيرٌ فأحسنْ إلى أسيرك»[(١)].

---

(١) لم أقف عليه.

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ﴿١٠﴾ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ﴿١١﴾ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ﴿١٢﴾ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾

(٩) ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ﴾ على إرادةِ القول بلسانِ الحالِ أو المقالِ إزاحةً لتوهُّم المنِّ وتوقُّعِ المكافأة المنقِصَةِ للأجرِ. وعن عائشةَ رضي الله تعالى عنها أنها كانت تبعثُ بالصدقة إلى أهل بيتٍ ثم تسأل المبعوثَ ما قالوا، فإن ذكر دعاءً دعتْ لهم بمثلِه ليبقى ثوابُ الصدقةِ لها خالصاً عند الله[(١)]. ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ أي شكراً.

(١٠) ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ فلذلك نحسنُ إليكم أو لا نطلبُ المكافأةَ منكم. ﴿يَوْمًا﴾ عذابَ يوم. ﴿عَبُوسًا﴾ تعبُس فيه الوجوهُ أو يشبه الأسدَ العبوسَ في ضراوته. ﴿قَمْطَرِيرًا﴾ شديدَ العبوسِ كالذي يجمعُ ما بين عينيه من اقمطرَّتِ الناقةُ إذا رفعتْ ذَنَبَهَا وجمعتْ قُرْطَيْهَا، أو مشتقٌّ من القطرِ والميمُ مزيدةٌ.

(١١) ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ﴾ بسببِ خوفِهم وتحفُّظِهم عنه. ﴿وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا﴾ بدلَ عبوسِ الفجار وحزنِهم.

(١٢) ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا﴾ بصبرِهم على أداءِ الواجبات واجتنابِ المحرَّماتِ وإيثارِ الأموال. ﴿جَنَّةً﴾ بستاناً يأكلون منه. ﴿وَحَرِيرًا﴾ يلبسونه. وعن ابن عباسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ الحسنَ والحسينَ رضي الله عنهما مرِضَا فعادهما رسولُ الله ﷺ في ناسٍ فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرتَ على ولديكَ، فنذرَ عليٌّ وفاطمة رضي الله تعالى عنهما وفضةُ -جاريةٌ لهما- صومَ ثلاثٍ إنْ بَرِئا، فشُفِيا وما معهم شيءٌ، فاستقرضَ عليٌّ من شمعونَ الخيبريِّ ثلاثةَ أَصْوُعٍ من شعيرٍ فطحنتْ فاطمةُ صاعاً واختبزتْ خمسةَ أقراصٍ فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقفَ عليهم مسكينٌ فآثروه وباتوا ولم يذوقوا إلا الماءَ وأصبحوا صياماً، فلما أَمْسَوْا ووضعوا الطعامَ وقفَ عليهم يتيمٌ فآثروه، ثم وقفَ عليهم في الثالثةِ أسيرٌ ففعلوا مثلَ ذلك، فنزلَ جبريلُ عليه السلام بهذه السورةِ وقال خذْها يا محمد هنَّاك الله في أهلِ بيتك[(٢)].

(١٣) ﴿مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ﴾ حالٌ من همْ في جزاهُم، أو صفةٌ لجنةٍ. ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ يحتملُهما وأنْ يكون حالاً من المستكِنِّ في متكئينَ، والمعنى أنه يمرُّ عليهم فيها هواءٌ معتدلٌ لا حارٌّ

---

(١) أخرجه ابن السني في عمل اليوم والليلة (رقم: ٢٧٨) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (رقم ٣٠٣) بإسناد حسن.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ٣٩٠ - ٣٩٢) من طريق أبي عبدالله السمرقندي عن محمد بن كثير الكوفي عن الأصبغ بن نباته مرسلاً.
وقال: «هذا حديث لا يشك في وضعه ولو لم يدل على ذلك إلا الأشعار الركيكة والأفعال التي يتنزه عنها أولئك السادة. قال يحيى بن معين: أصبغ بن نباته لا يساوي شيئاً، وقال أحمد بن حنبل: حرقنا حديث محمد بن كثير، وأما عبدالله السمرقندي فلا يوثق به» هـ.

مجمٌّ ولا باردٌ مؤذٍ، وقيل الزمهرير القمرُ في لغة طيءٍ قال راجزهم:

وَلَيْلَــــةٌ ظَـــلاَمُهَـــا قَـــدِ اعْتَكَـــر قطَعْتُهَـــا وَالـــزَّمْهَـــرِيـــرُ مَـــا زَهَـــرْ

والمعنى أنَّ هواءها مضيءٌ بذاته لا يحتاج إلى شمسٍ وقمرٍ.

وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا ﴿١٤﴾ وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيرَا ﴿١٥﴾ قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا ﴿١٦﴾ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴿١٧﴾ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا ﴿١٨﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

(١٤) ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا﴾ حالٌ أو صفةٌ أخرى معطوفةٌ على ما قبلَها، أو عطفٌ على جنةً أي وجنةً أخرى دانيةً على أنهم وُعِدُوا جنتين كقوله ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾[١] وقرئتْ بالرفع على أنها خبرُ ظلالُها. والجملةُ حالٌ أو صفةٌ. ﴿وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ معطوفٌ على ما قبلَه أو حالٌ من دانيةٍ، وتذليلُ القطوفِ أن تُجْعَلَ سهلة التناوُلِ لا تمتنعُ على قُطَّافِها كيفَ شاءوا.

(١٥) ﴿وَيُطَافُ عَلَيْهِم بِآنِيَةٍ مِّن فِضَّةٍ وَأَكْوَابٍ﴾ وأباريقَ بلا عروةٍ. ﴿كَانَتْ قَوَارِيرَا﴾.

(١٦) ﴿قَوَارِيرَا مِن فِضَّةٍ﴾ أي تكونتْ جامعةً بين صفاءِ الزجاجةِ وشفيفِها وبياضِ الفضةَ ولِينِها، وقد نوَّنَ قواريرَ من نوّن سلاسلاً، وابنُ كثير الأولى لأنها رأسُ الآيةِ، وقرىء قواريرَ من فضة على هي قواريرُ. ﴿قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ أي قدَّروها في أنفسِهم فجاءت مقاديرُها وأشكالُها كما تمنَّوه، أو قدَّروها بأعمالهم الصالحةِ فجاءتْ على حَسَبِها، أو قدَّرَ الطائفونَ بها المدلولُ عليهم بقولِه يُطَافُ شرابُها على قدرِ اشتهائِهم. وقرىء قُدِروها أي جُعِلُوا قادرينَ لها كما شاءوا، من قَدَرَ منقولاً من قَدَرتُ الشيءَ.

(١٧) ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا﴾ ما يشبهُ الزنجبيلَ في الطعمِ وكانتِ العربُ يستلذُّون الشرابَ الممزوجَ به.

(١٨) ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ لسلاسةِ انحدارِها في الحلْقِ وسهولةِ مساغِها، يقال شرابٌ سلسلٌ وسلسالٌ وسلسبيلٌ، ولذلك حُكِمَ بزيادةِ الباء، والمرادُ به أن ينفي عنها لذعَ الزنجيلِ ويصفَها بنقيضِه، وقيل أصلُه سلْ سبيلاً فسُمِّيتْ به كتأبطَ شرّاً لأنه لا يشربُ منها إلا من سألَ إليها سبيلاً بالعملِ الصالحِ.

(١٩) ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ دائمون. ﴿إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ من صفاءِ ألوانهم وانبثاثِهم في مجالسِهم وانعكاسِ شعاع بعضِهم إلى بعض.

(٢٠) ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ﴾ ليس له مفعولٌ ملفوظٌ ولا مقدَّرٌ لأنه عامٌّ معناه إنَّ بصرَك أينما وقعَ. ﴿رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا﴾ واسعاً، وفي الحديث «أدنى أهلِ الجنة منزلةً ينظر في ملكِه مسيرةَ ألف عام يرى أقصاهُ كما يرى أدناه»[٢] هذا وللعارفِ أكبرُ من ذلك وهو أن تنتقشَ نفسُه بجلايا الملكِ وخفايا الملكوتِ،

---

(١) الرحمن: ٤٦.

(٢) قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٥٠٨/٤ رقم ٢٠):

فيستضيءَ بأنوار قُدُسِ الجبروت.

﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا ﴿٢١﴾ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴿٢٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾ وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٢٥﴾﴾

(٢١) ﴿عَٰلِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ﴾ يعلوهم ثيابُ الحرير الخضرُ ما رقَّ منها وما غلُظَ. ونصْبُه على الحالِ من هُمْ في عليهم أو حسبتَهم، أو ملكاً على تقدير مضافٍ أي وأهلَ ملكٍ كبيرٍ عالِيَهُم. وقرأ نافعٌ في عاليهم وحمزةُ بالرفعِ على أنه خبرُ ثيابٍ، وقرأ ابنُ كثير وأبو بكر خضرٍ بالجرِّ حملاً على سندسٍ بالمعنى فإنه اسم جنسٍ، وإستبرقٌ بالرفعِ عطفاً على ثيابٌ، وقرأهما حفص وحمزةُ والكسائيُّ بالرفعِ، وقرىء واستبرقَ بوصْلِ الهمزةِ والفتحِ على أنه استفعلَ من البريقِ جُعِلَ علماً لهذا النوع من الثياب. ﴿وَحُلُّوٓا۟ أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ﴾ عطفٌ على ويطوفُ عليهم ولا يخالفُه قولُه أساورَ من ذهب لإمكان الجمعِ والمعاقبةِ والتبعيضِ، فإنَّ حُليَّ أهلِ الجنة تختلف باختلافِ أعمالهم، فلعلَّه تعالى يفيضُ عليهم جزاءً لما عملوه بأيديهم حلياً وأنواراً تتفاوتُ تفاوتَ الذهب والفضةِ، أو حالٌ من الضمير في عاليهم بإضمارِ قد، وعلى هذا يجوز أنْ يكون هذا للخدمِ وذلك للمخدومينَ. ﴿وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا﴾ يريدُ به نوعاً آخرَ يفوقُ على النوعين المتقدمينِ ولذلك أَسْنَدَ سقْيَه إلى اللهِ عزَّ وجل، ووصفَه بالطهوريةِ فإنه يطهرُ شارِبَه عن الميلِ إلى اللذاتِ الحسيةِ والركون إلى ما سوى الحقِّ، فيتجرَّدُ لمطالعةِ جمالِه ملتذاً بلقائهِ باقياً ببقائه، وهي منتهى درجاتِ الصِّديقينَ ولذلك ختمَ بها ثوابَ الأبرارِ.

(٢٢) ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً﴾ على إضمارِ القولِ، والإشارةُ إلى ما عدَّ من ثوابِهم. ﴿وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا﴾ مُجَازَى عليه غيرَ مضيَّعٍ.

(٢٣) ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ مفرَّقاً منجَّماً لحكمة اقتضتْه، وتكريرُ الضمير مع أنَّ مزيدُ لاختصاصِ التنزيلِ به.

(٢٤) ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ بتأخير نصْرِكَ على كفارِ مكَّةَ وغيرِهم. ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أي كلَّ واحدٍ من مرتكبِ الإثم الداعي لك إليه ومن الغالي في الكفرِ الداعي لك إليه، وأو للدلالةِ على أنهما سِيَّانِ في استحقاقِ العصيانِ والاستقلال به، والقسمُ باعتبار ما يدعونه إليه، فإنَّ ترتُّبَ النهي على الوصفينِ مشعِرٌ أنه لهما وذلك يستدعي أن تكونَ المطاوعةُ في الإثم والكفرِ، فإنَّ مطاوعتَها فيما ليس بإثمٍ ولا كفرٍ غيرُ محظورٍ.

(٢٥) ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ وداوِمْ على ذِكْرِه أو دُمْ على صلاة الفجر والظهرِ والعصر فإنَّ

= «وروى ابن أبي الدنيا عن الأعمش عن ثُوَيْرٍ قال: أراهُ عن ابن عمرَ قال: إنَّ أدنى أهل الجنة منزلة لرجلٌ له ألفُ قصرٍ بين كُلِّ قصرين مسيرةُ سنةٍ يرى أقصاها كما يرى أدناها في كل قصر من الحور العين والرياحين والولدان ما يدعُو بشيء إلاَّ أُتِيَ به. رواه هكذا موقوفاً» هـ.

الأصيلَ يتناولُ وقتَيْهما.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا
ثَقِيلًا ﴿٢٧﴾ نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾ إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَن شَآءَ
ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى
رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا ﴿٣١﴾﴾

(٢٦) ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ﴾ وبعضُ الليل فصلِّ له تعالى، ولعلَّ المرادَ به صلاةُ المغربِ والعشاء، وتقديمُ الظرف لما في صلاة الليل من مزيدِ الكلفةِ والخلوصِ. ﴿وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا﴾ وتهجَّدْ له طائفةً طويلةً من الليل.

(٢٧) ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ﴾ أمامَهم أو خَلْفَ ظهورِهم. ﴿يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ شديداً مستعارٌ من الثقلِ الباهظِ للحاملِ، وهو كالتعليلِ لما أَمَرَ به ونَهَى عنه.

(٢٨) ﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ﴾ وأحكمْنا ربطَ مفاصِلهم بالأعصاب. ﴿وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا﴾ وإذا شئنا أهلكْناهم وبدَّلنا أمثالَهم تبديلاً في الخِلْقَةِ وشدةِ الأسرِ يعني النشأةَ الثانيةَ ولذلك جِيءَ بإذا، أو بدلنا غيرهم ممن يطيعُ وإذا لتحققِ القدرةِ وقوةِ الداعيةِ.

(٢٩) ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦ تَذْكِرَةٌ﴾ الإشارةُ إلى السورة أو الآياتِ القريبة، ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا﴾ تقرَّب إليه بالطاعة.

(٣٠) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ وما تشاءون ذلك إلا وقتَ أنْ يشاءَ الله مشيئتَكُم، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر يشاءون بالياء. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بما يستأهلُ كلُّ أحد. ﴿حَكِيمًا﴾ لا يشاء إلا ما تقتضيه حكمتُه.

(٣١) ﴿يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ﴾ بالهداية والتوفيق للطاعةِ. ﴿وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًۢا﴾ نصبَ الظالمينَ بفعلٍ يفسره أعدَّ لهم مثلَ أوعدَ وكافأَ ليطابقَ الجملةَ المعطوفَ عليها، وقرىء بالرفعِ على الابتداءِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ هل أتى كان جزاؤُه على اللهِ جنةً وحريراً»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨١ رقم ٢٦٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ المُرْسَلَاتِ

ترتيبها ٧٧ — آياتها ٥٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا ﴿١﴾ فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا ﴿٢﴾ وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا ﴿٣﴾ فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا ﴿٤﴾ فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ﴿٥﴾ عُذْرًا أَوْ
نُذْرًا ﴿٦﴾ إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَٰقِعٌ ﴿٧﴾ فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ ﴿٨﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا
ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾

سورة المرسلات مكية[1] وآيها خمسون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾.

(٢) ﴿فَٱلْعَٰصِفَٰتِ عَصْفًا﴾.

(٣) ﴿وَٱلنَّٰشِرَٰتِ نَشْرًا﴾.

(٤) ﴿فَٱلْفَٰرِقَٰتِ فَرْقًا﴾.

(٥) ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا﴾ إقسامٌ بطوائفَ من الملائكةِ أرسلهنَّ الله تعالى بأوامره متتابعةً فعصفْنَ عصفَ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ١٩٦): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل إن فيها من المدني قوله «وإذا قيل لهم اركعوا لا يركعون» على قول من قال إنها حكاية عن حال المنافقين في القيامة. وإنها بمعنى قوله تعالى: «يدعون إلى السجود فلا يستطيعون».
وأخرج البخاري (٨/ ٦٨٥ رقم ٤٩٣٠) ومسلم (٤/ ١٧٥٥ رقم ٢٢٣٤) عن ابن مسعود قال: «كنا مع رسول الله ﷺ وأنزلت عليه «والمرسلات» وإنا لنتلقاها من فيه فخرجت حيّةٌ فابتدرناها، فسبقتنا فدخلت جُحرها فقال رسول الله ﷺ: «وقيت شركم كما وقيتم شرَّها».

الرياح في امتثالَ أمره ونشرْنَ الشرائعَ في الأرض، أو نشرنَ النفوسَ الموتى بالجهلِ بما أوحينَ من العلم. ففرقْنَ بينَ الحقِّ والباطل، فألقينَ إلى الأنبياءِ ذكراً عذراً للمحقِّين ونذراً للمبطلينَ(١)، أو بآياتِ القرآن المرسلةِ بكلِّ عرفٍ إلى محمد عليه الصلاة والسلام فعصفْن سائرَ الكتبِ والأديانِ بالنسخِ ونشرْنَ آثارَ الهدى والحِكَمِ في الشرقِ والغربِ وفرقْنَ بين الحقِّ والباطل فألقينَ ذِكْرَ الحقِّ فيما بين العالمين، أو بالنفوسِ الكاملة المرسَلةِ إلى الأبدانِ لاستكمالِها فعصفْنَ ما سوى الحقِّ ونشرنَ أثرَ ذلك في جميع الأعضاءِ ففرقْنَ بينَ الحقِّ بذاته والباطلِ في نفسِه فيرونَ كلَّ شيء هالكاً إلا وجْهَهُ فألقيْنَ ذكراً بحيث لا يكون في القلوب والألسنةِ إلا ذكرُ الله تعالى، أو برياحِ عذابٍ أُرْسِلْنَ فعصفْنَ ورياحِ رحمةٍ نشرْنَ السحابَ في الجوِّ ففرقْنَ فألقينَ ذكراً أي تسبَّبْنَ له فإن العاقلَ إذا شاهدَ هبوبَها وآثارها ذَكَرَ الله تعالى وتذكَّر كمالَ قدرتِه. وعرفاً إما نقيضُ النكرِ وانتصابُه على العلَّةِ أي أُرْسِلْنَ للإحسانِ والمعروف، أو بمعنى المتتابعةِ من عرفِ الفرسِ وانتصابُه على الحالِ.

(٦) ﴿عُذْرًا أَوْ نُذْرًا﴾ مصدرانِ لعذرٍ إذا محا الإساءةَ وأنذرَ إذا خوَّف، أو جمعانِ لعذيرٍ بمعنى المعذرةِ ونذير بمعنى الإنذارِ، أو بمعنى العاذرِ والمنذرِ، ونصبَهما على الأوَّلينِ بالعِلِّيَّةِ أي عذراً للمحقِّين أو نذراً للمبطِّلينَ، أوِ البدلِ من ذكراً على أنَّ المرادَ به الوحيُ أو ما يعمُّ التوحيدَ والشرك والإيمانَ والكفرَ وعلى الثالثِ بالحاليةِ، وقرأهما أبو عمرو وحمزةُ والكسائي وحفصٌ بالتخفيفِ.

(٧) ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَوَاقِعٌ﴾ جوابُ القسمِ ومعناه أن الذي تُوْعَدُوْنَهُ من مجيءِ القيامة كائنٌ لا محالة.

(٨) ﴿فَإِذَا ٱلنُّجُومُ طُمِسَتْ﴾ مُحِقَتْ أو أُذْهِبَ نورُها.

(٩) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ فُرِجَتْ﴾ صُدِعَتْ.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾ كالحبِّ يُنْسَفُ بالمِنْسَفِ.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ﴾ عُيِّنَ لها وقتُها الذي يحضرون فيه للشهادةِ على الأمم بحصولِه، فإنه لا يتعيَّن لهم قبلَه، أو بلغتْ ميقاتَها الذي كانتْ تنتظرهُ، وقرأ أبو عمرو وُقِّتتْ على الأصلِ.

(١٢) ﴿لِأَيِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ﴾ أي يقال لأي يومٍ أُخِّرتْ، وضَرْبُ الأجلِ للجمعِ وهو تعظيمٌ لليوم وتعجيبٌ من هوله، ويجوز أن يكونَ ثاني مفعولي أقتتْ على أنه بمعنى أعلِمَتْ.

(١٣) ﴿لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ﴾ بيانٌ ليوم التأجيلِ.

(١٤) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ ومن أين تعلمُ كُنْهَهُ ولم ترَ مثْلَه(٢).

---

(١) ولعل تقديم نشر الشرائع أو نشر النفوس والفرق على الإلقاء للإيذان بكونها غاية للإلقاء حقيقة بالاعتناء بها، أو للإشعار بأن كلاً من الأوصاف المذكورة مستقل بالدلالة على استحقاق الطوائف الموصوفة بها التفخيم والإجلال بالإقسام بهن، ولوجيء بها على ترتيب الوقوع لربما فهم أن مجموع الإلقاء والنشر والفرق هو الموجب لما ذكر من الاستحقاق (س٩/ ٧٧).

(٢) وضع يوم الفصل موضع الضمير فقال: «وما أدراك ما يوم الفصل» ولم يقل: وما هو، وذلك لزيادة التفظيع والتهويل (س٩/ ٧٨).

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٥﴾ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ ﴿١٧﴾ كَذَٰلِكَ نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٨﴾ وَيْلٌ
يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٩﴾ أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٢٠﴾ فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿٢١﴾ إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ
ٱلْقَٰدِرُونَ ﴿٢٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٤﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا ﴿٢٦﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ
وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا ﴿٢٧﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٨﴾

(١٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ أي بذلك، وويل في الأصل مصدرٌ منصوب بإضمارِ فعلِه عَدَلَ به إلى الرفعِ للدلالة على ثباتِ الهلكِ للمدعوِّ عليه، ويومئذ ظرفُه أو صفتُه.

(١٦) ﴿أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ كقومِ نوحٍ وعاد وثمودَ، وقرىء نَهْلِك من هلَكَه بمعنى أهْلَكَه.

(١٧) ﴿ثُمَّ نُتْبِعُهُمُ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي ثم نحن نتبعُهم نُظَراءَه ككفار مكَّةَ، وقرىء بالجزم عطفاً على نهلكْ فيكونُ الآخرين المتأخرينَ من المهلَكِيْنَ كقوم لوطٍ وشعيب وموسى عليهم الصلاة والسلام.

(١٨) ﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلُ ذلك الفعلِ. ﴿نَفْعَلُ بِٱلْمُجْرِمِينَ﴾ بكلِّ مَنْ أجرمَ.

(١٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بآياتِ الله وأنبيائه فليس تكريراً، وكذا إنْ أُطْلِقَ التكذيبُ أو علِّق في الموضعين بواحدٍ، لأنَّ الويلَ الأولَ لعذابِ الآخرةِ وهذا للإهلاكِ في الدنيا، مع أن التكرير للتوكيدِ حسنٌ شائع في كلام العرب.

(٢٠) ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ نطفةٍ مذِرةٍ ذليلةٍ.

(٢١) ﴿فَجَعَلْنَٰهُ فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ هو الرَّحِمُ.

(٢٢) ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ إلى مقدار معلومٍ من الوقْتِ قدَّره الله تعالى للولادةِ.

(٢٣) ﴿فَقَدَرْنَا﴾ على ذلك، أو فقدَّرْناه ويدلُّ عليه قراءةُ نافعٍ والكسائيِّ بالتشديد. ﴿فَنِعْمَ ٱلْقَٰدِرُونَ﴾ نحن.

(٢٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بقدرتِنا على ذلك أو على الإعادة.

(٢٥) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا﴾ كافتةً اسمٌ لما يُكْفَتُ أي يضمُّ ويجمعُ كالضمامِ والجماعِ اسمٌ لما يضمُّ ويجمعُ، أو مصدرٌ نُعِتَ به أو جمعُ كافتٍ كصائمٍ وصيامٍ، أو كِفْتٍ وهو الوعاءُ أجريَ على الأرض باعتبارِ أقطارها.

(٢٦) ﴿أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ منتصبانِ على المفعولية، وتنكيرُهما للتفخيمِ، أو لأنَّ إحياءَ الإنس وأمواتِهم بعضُ الأحياءِ والأمواتِ، أو الحاليةِ من مفعولِه المحذوفِ للعلم به وهو الإنس، أو بنجعلْ على المفعوليةِ وكفاتاً حالٌ أو الحاليةِ فيكون المعنى بالأحياءِ ما ينبتُ وبالأمواتِ ما لا ينبتُ.

(٢٧) ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ﴾ جبالاً ثوابتَ طوالاً. والتنكير للتفخيم، أو الإشعار بأنَّ فيها ما لم يُعْرَفْ ولم يُرَ. ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ بخلقِ الأنهارِ والمنابعِ فيها.

(٢٨) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بأمثالِ هذه النِّعمِ.

ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٩﴾ ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ ﴿٣٢﴾ كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ صُفْرٌ ﴿٣٣﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٤﴾ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٧﴾ هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾

(٢٩) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ أي يُقَالُ لهم انطلقوا. ﴿إِلَىٰ مَا كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ من العذاب.

(٣٠) ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ﴾ خصوصاً وعن يعقوبَ انطلقوا على الإخبارِ عن امتثالِهم للأمرِ اضطراراً. ﴿إِلَىٰ ظِلٍّ﴾ يعني ظلَّ دخانِ جهنَّم كقوله تعالى ﴿وظل من يحموم﴾. ﴿ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ﴾ يتشعَّب لعِظَمِه كما ترى الدخانَ العظيمَ يتفرق. تفرُّقَ الذوائبِ، وخصوصيةُ الثلاثِ إما لأن حجابَ النفس عن أنوار القدسِ الحسُّ والخيال والوهْمُ، أو لأن المؤديَ إلى هذا العذابِ هو القوةُ الواهمةُ الحالية في الدماغِ والغضبيةُ التي في يمين القلبِ والشهويةُ التي في يسارِه، ولذلك قيل شعبةٌ تقف فوقَ الكافرِ وشعبة عن يمينِه وشعبةٌ عن يساره.

(٣١) ﴿لَّا ظَلِيلٍ﴾ تهكُّمٌ بهم وردٌ لما أَوْهَمَ لفظُ الظلِّ. ﴿وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ وغيرُ مغنٍ عنهم من حرِّ اللهب شيئاً.

(٣٢) ﴿إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ أي كلُّ شرارة كالقصرِ في عِظَمِها، ويؤيده أنه قرىء بشرارٍ، وقيل هو جمعُ قصرةٍ وهي الشجرةُ الغليظة. وقرىء كالقُصُرِ بمعنى القصورِ كرهُنٍ ورُهُنٍ، وكالقِصَرِ جمعُ قَصَرةٍ كحاجةٍ وحِوَجٍ، وكالقَصِر جمع قصرةٍ وهي أصلُ العنقِ والهاءُ للشُّعبِ.

(٣٣) ﴿كَأَنَّهُۥ جِمَٰلَتٌ﴾ جمعُ جمالٍ أو جمالةٍ جمعُ جملٍ. ﴿صُفْرٌ﴾ فإنَّ الشرارَ بما فيه من الناريةِ يكون أصفرَ، وقيل سودٌ لأن سوادَ الإبلِ يضربُ إلى الصفرةِ، والأول تشبيهٌ في العِظَمِ وهذا في اللونِ والكثرةِ والتتابُعِ والاختلاط وسرعةِ الحركةِ. وقرأ حمزة والكسائيُ وحفص جمالةٌ، وعن يعقوبَ جُمالاتٌ بالضمِّ جمع جمالة، وقد قرىء بها وهي الحبلُ الغليظ من حبالِ السفينة شبَّهه بها في امتدادِه والْتِفَافِه.

(٣٤) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٣٥) ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ﴾ أي بما يستحقُ فإنَّ النُّطْقَ بما لا ينفعُ كَلاَ نُطقٍ، أو بشيءٍ من فَرْطِ الدهشةِ والحيرةِ وهذا في بعض المواقفِ، وقرىء بنصبِ اليوم أي هذا الذي ذُكِرَ واقع يومَئِذٍ.

(٣٦) ﴿وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾.

(٣٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ عطَفَ فيعتذرونَ على يُؤْذَنُ ليدلَّ على نفي الإذْنِ والاعتذار عقيبَهُ مطلقاً، ولو جعلَه جواباً لدلَّ على أن عدمَ اعتذارِهم لعدم الإذن فأَوْهَم ذلك أنَّ لهم عذْراً لكن لا يؤذنُ لهم فيه.

(٣٨) ﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ﴾ بين المحقِّ والمبطِلِ. ﴿جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ﴾ تقرير وبيانٌ للفصْلِ.

(٣٩) ﴿فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ﴾ تقريعٌ لهم على كيدِهم للمؤمنين في الدنيا وإظهارٌ لعجزهم.

﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٠﴾ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾ وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٤٢﴾ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ
تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٤٤﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٥﴾ كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ
لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٩﴾ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٠﴾﴾

(٤٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ إذ لا حيلةَ لهم في التخلُّص من العذاب.

(٤١) ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ﴾ عن الشرك لأنهم في مقابلة المكذِّبين.

(٤٢) ﴿وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ مستقرُّون في أنواع الترفُّه.

(٤٣) ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي مقولاً لهم ذلك.

(٤٤) ﴿إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ في العقيدة.

(٤٥) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ يمحضُ لهم العذابَ المخلَّد ولخصومهم الثوابَ المؤبَّدَ.

(٤٦) ﴿كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلًا إِنَّكُم مُّجْرِمُونَ﴾ حالٌ من المكذبين أي الويلُ ثابتٌ لهم في حال ما يُقَالُ لهم ذلك، تذكيراً لهم بحالهم في الدنيا وبما جَنَوْا على أنفسِهم من إيثارِ المتاعِ القليل على النعيم المقيم.

(٤٧) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ حيثُ عرَّضوا أنفسَهم للعذاب الدائمِ بالتمتُّعِ القليل.

(٤٨) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا﴾ أطيعوا واخضَعُوا أو صلُّوا أو اركعوا في الصلاة، إذ روي أنه نزلَ حين أمرَ رسولُ الله ﷺ ثقيفاً بالصلاة فقالوا: لا نُجبِي أي لا نركعُ فإنها مسبَّةٌ[1]. وقيل هو يومُ القيامة حين يُدْعَوْنَ إلى السجود فلا يستطيعون. ﴿لَا يَرْكَعُونَ﴾ لا يمتثلون، واستُدِلَّ به على أن الأمرَ للوجوبِ وأن الكفارَ مخاطَبون بالفروع.

(٤٩) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾.

(٥٠) ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ﴾ بعدَ القرآن. ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ إذا لم يؤمنوا به وهو معجزٌ في ذاته مشتملٌ على الحججِ الواضحةِ والمعاني الشريفةِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والمرسلاتِ كُتِبَ له أنه ليس من المشركينَ»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (٣/٤٢٠ ـ ٤٢١ رقم ٣٠٢٦) وأحمد في المسند (٤/٢١٨) والطبراني في الكبير (٩/٤٥ رقم ٨٣٧٢) من رواية الحسن عن عثمان بن أبي العاص. واختلف في سماع الحسن من عثمان كما قال المنذري.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّبَإِ

ترتيبها ٧٨ — آياتها ٤٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ
ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا ﴿٦﴾ وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١٠﴾
وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ مَآءً
ثَجَّاجًا ﴿١٤﴾ لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾

سورة النبأ مكية[1]، وآيها إحدى وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ﴾ أصلُه عمَّا فحذفَ الألفَ لما مرَّ، ومعنى هذا الاستفهامِ تفخيمُ شأنِ ما يتساءلون عنه كأنه لفخامتِه خَفِيَ جنسُه فَيُسْأَلُ عنه، والضميرُ لأهلِ مكَّةَ كانوا يتساءلون عن البعثِ فيما بينهم، أو يسألون الرسولَ عليه الصلاة والسلام والمؤمنينَ عنه استهزاءً كقولهم: يتداعونَهم ويتراءونَهم أي يدعونَهم ويرونَهم، أو للناس.

(٢) ﴿عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ بيانٌ لشأنِ المفخَّمِ أو صلةُ يتساءلون، وعمَّ متعلِّقٌ بمضمَر مفسِّرٍ به، ويدلُّ عليه قراءةُ يعقوبَ: عمَّهْ.

(٣) ﴿ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ بجزمِ النفي والشكِّ فيه، أو بالإقرار والإنكار.

(٤) ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ ردعٌ عن التساؤل ووعيدٌ عليه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٠٦): «وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى «لبثوا فيها أحقاباً» من أنه منسوخ وهو قول خلف لأن الأخبار لا تنسخ وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده» هـ.

(٥) ﴿ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للمبالغة. وثمَّ للإشعار بأنَّ الوعيدَ الثاني أشدُّ، وقيل الأولُ عند النَّزعِ والثاني في القيامةِ، أو الأولُ للبعثِ والثاني للجزاءِ. وعن ابن عامرٍ ستعلمون بالتاءِ على تقدير قلْ لهم ستعلمون.

(٦) ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾.

(٧) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ تذكيرٌ ببعضِ ما عاينوا من عجائبِ صُنْعِه الدالةِ على كمال قدرته ليستدِلُّوا بذلك على صحة البعثِ كما مرَّ تقريره مراراً، وقرىء مهداً أي أنها لهم كالمهدِ للصبيِّ مصدرٌ سُمِّي به ما يُمَهَّدُ لِيُنَوَّمَ عليه.

(٨) ﴿وَخَلَقْنَٰكُمْ أَزْوَٰجًا﴾ ذكراً وأنثى.

(٩) ﴿وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا﴾ قطعاً عن الإحساسِ والحركة استراحةً للقِوى الحيوانيةِ وإزاحةً لِكَلَالِها، أو موتاً لأنه أحدُ التوفيينِ ومنه المسبوتُ للميتِ، وأصله القطعُ أيضاً.

(١٠) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِبَاسًا﴾ غطاءً يستَتِرُ بظُلْمتِه مَنْ أراد الاختفاءَ.

(١١) ﴿وَجَعَلْنَا ٱلنَّهَارَ مَعَاشًا﴾ وقتَ معاشٍ تتقلَّبون فيه لتحصيل ما تعيشون به، أو حياةً تنبعثون فيها عن نومِكم.

(١٢) ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ سبعَ سمواتٍ أقوياءَ محكَمَاتٍ لا يؤثر فيها مرورُ الدهورِ.

(١٣) ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ متلألِئاً وقَّاداً من وهجتِ النارُ إذا أضاءتْ، أو بالغاً في الحرارة من الوهجِ وهو الحرُّ والمرادُ الشمسُ.

(١٤) ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ السحائبُ إذا أُعْصِرَتْ أي شارفتْ أنْ تعصِرَها الرياحُ فتمرُّ كقولك: احصدِ الزرعَ إذا حان له أنْ يُحْصَدَ، ومنه أعْصَرتِ الجاريةُ إذا دنتْ أنْ تحيضَ، أو من الرياح التي حانَ لها أنْ تعصِرَ السحابَ، أو الرياحُ ذواتُ الأعاصير، وإنما جُعِلَتْ مبدأً للإنزال لأنها تنشىء السحابُ وتدرأ خلافَه، ويؤيدُه أنه قرىء بالمعصراتِ. ﴿مَآءً ثَجَّاجًا﴾ منصبّاً بكثرةٍ يقال ثجَّه وثجَّ بنفسِه. وفي الحديث: «أفضلُ الحجِّ العجُّ[1] والثجُّ[2]» أي رفعُ الصوتِ بالتلبية وصبُّ دماءِ الهدْي، وقرىء ثجاجاً، ومثاجِجُ الماءِ مصابُّه.

(١٥) ﴿لِّنُخْرِجَ بِهِۦ حَبًّا وَنَبَاتًا﴾ ما يُقْتَاتُ به وما يُعْتَلَفُ من التبنِ والحشيشِ.

---

(١) العج: رفع الصوت بالتلبية [النهاية: (٣/ ١٨٤)].

(٢) أخرجه الترمذي (٥/ ٢٢٥ رقم ٢٩٩٨) من حديث ابن عمر.
وضعفه الترمذي بإبراهيم بن يزيد الخوزي. قلت: هو متروك الحديث [التقريب (١/ ٤٦)].
وأخرجه ابن ماجة (٢/ ٩٧٥ رقم ٢٩٢٤) والترمذي (٣/ ١٨٩ رقم ٨٢٨) من حديث أبي بكر الصديق مرفوعاً بنحوه. وانظر الكلام عليه في «الصحيحة» (رقم: ١٥٠٠).
وخلاصة ذلك أنه حديث حسن والله أعلم.
● والثج هو سيلان دماء الهدي والأضاحي [النهاية (١/ ٢٠٧)].

﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا ﴿١٦﴾ إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴿١٩﴾ وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ﴿٢٠﴾ إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾﴾

(١٦) ﴿وَجَنَّٰتٍ أَلْفَافًا﴾ ملتفة بعضُها ببعض جمعُ لفٌّ كجِذْعٍ. قال:

جَنَّـــــةٌ لــــفٌّ وَعَيْـــشٌ مُغْـــدِق ونَــــدَامـــى كُلُّهُــــمْ بيـــضٌ زهـــر

أو لَفيفٍ كشريفٍ أو لُفٌّ جمعُ لفَّاءَ كخضراءَ وخضْرٍ وأخضارٍ أو متلفةٍ بحذفِ الزوائدِ.

(١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ﴾ في علمِ الله تعالى أو في حُكْمِه. ﴿مِيقَٰتًا﴾ حداً تؤقَّتُ به الدنيا وتنتهي عندَه، أو حداً للخلائق ينتهون إليه.

(١٨) ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾ بدلٌ أو بيانٌ ليوم الفصلِ. ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ جماعاتٍ من القبور إلى المحشر، روي أنه ﷺ سُئِلَ عنه فقال: «يحشر عشرةُ أصناف من أمتي بعضُهم على صورة القردةِ، وبعضُهم على صورة الخنازيرِ، وبعضهم منكَّسونَ يُسْحَبُونَ على وجوهِهم، وبعضُهم عميٌ وبعضُهم صمٌّ بكمٌ، وبعضُهم يمضغونَ ألسنتهم فهي مدلاةٌ على صدورهم فيسيل القيحُ من أفواهِهم يتقذَّرهم أهلُ الجمْعِ، وبعضُهم مقطَّعَةٌ أيديهم وأرجلُهم، وبعضُهم مصلوبونَ على جذوعٍ من نارٍ، وبعضُهم أشدُّ نَتَناً من الجِيفِ، وبعضهم مُلْبَسُوْنَ جباباً سابغةً من قَطِرانٍ لازقةً بجلودهم»[١]. ثم فسَّرهم بالقتّاتِ[٢]، وأهلِ السحتِ، وأكَلَةِ الربا، والجائرينَ في الحكم، والمعْجَبِيْنَ بأعمالهم، والعلماءِ الذين خالفَ قولُهم عملَهم، والمؤذِيْنَ جيرانَهم، والساعينَ بالناس إلى السلطان، والتابعينَ للشهواتِ المانعين حقَّ الله تعالى، والمتكبرينَ الخيلاءَ.

(١٩) ﴿وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ وشُقِّقَتْ. وقرأ الكوفيون بالتخفيفِ. ﴿فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا﴾ فصارتْ من كثرةِ الشقوقِ كأنَّ الكلَّ أبوابٌ أو فصارتْ ذاتَ أبوابٍ.

(٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ﴾ أي في الهواء كالهباء. ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ مثلَ سرابٍ إذ تُرى على صورةِ الجبال ولم تبقَ على حقيقتِها لتفتُّتِ أجزائهَا وانبثاثِها.

(٢١) ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا﴾ موضعَ رصدٍ يرصُدُ فيه خزنةُ النارِ الكفارَ، أو خزنةُ الجنة المؤمنينَ ليحرسُوهم من فيحِها في مجازِهم عليها، كالمضمارِ فإنه الموضعُ الذي تُضْمَرُ فيه الخيلُ، أو مُجِدَّةً في ترصُّدِ الكفرةِ لئلا يشذَّ منها واحدٌ كالمطعانِ، وقرىء أنَّ بالفتح على التعليلِ لقيام الساعةِ.

(٢٢) ﴿لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا﴾ مرجِعاً ومأوى.

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه عن البراء بن عازب ـ كما في «الدر المنثور» (٨/ ٣٩٣) ـ وذكره القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (١٩/ ١٧٥ ـ ١٧٦). والألولسي (٣٠/ ١٢) ثم قال: «وهذا كما قال ابن حجر حديث موضوع. وآثار الوضع لائحة عليه» هـ.

(٢) القتّات هو النمام، والقتّ هم نمُّ الحديث (مختار الصحاح مادة قتت).

﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟
لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾﴾

(٢٣) ﴿لَّبِثِينَ فِيهَآ﴾ وقرأ حمزة وروحٌ لبثينَ وهو أبلغُ. ﴿أَحْقَابًا﴾ دهوراً متتابعةً، وليس فيها ما يدلُّ على خروجهم منها إذ لو صحَّ أن الحقبَ ثمانونَ سنةً أو سبعونَ ألفِ سنةٍ، فليس فيه ما يتقضَّى تناهي تلك الأحقاب لجواز أنْ يكون المرادُ أحقاباً مترادفةً كلَّما مضى حِقْبٌ تبعه آخرُ، وإنْ كان فمِنْ قبيلِ المفهوم فلا يعارِضُ المنطقَ الدالَّ على خلود الكفارِ، ولو جُعِلَ قولُه:

(٢٤) ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا﴾.

(٢٥) ﴿إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ حالاً من المستكِنِّ في لابثينَ أو نصبَ أحقاباً بلا يذوقون احتُمِل أنْ يلبثوا فيها أحقاباً غيرَ ذائقينَ إلا حميماً وغساقاً، ثم يُبَدَّلون جنساً آخرَ من العذاب، ويجوز أن يكونَ جمعَ حقبٍ من حَقِبَ الرجلُ إذا أخطأه الرزقُ وحقِبَ العامُ إذا قلَّ مطرهُ وخيرهُ فيكون حالاً بمعنى لابثينَ فيها حقبينَ، وقوله لا يذوقون تفسيرٌ له. والمرادُ بالبردِ ما يُرَوِّحُهم وينفِّسُ عنهم حرَّ النارِ أو النوم، وبالغساقِ ما يغسقُ أي يسيلُ من صديدِهم. وقيل الزمهريرُ وهو مستثنى من البردِ إلا أنه أُخِّرَ ليتوافقَ رؤوسُ الآي، وقرأ حمزة والكسائيُّ وحفص بالتشديدِ(١).

(٢٦) ﴿جَزَآءً وِفَاقًا﴾ أي جُوزُوا بذلك جزاءً ذا وفاقٍ لأعمالهم، أو موافقاً لها أو وافقَها وفاقاً، وقرىء وِفّاقاً فِعّالٌ من وَفِقَه كذا.

(٢٧) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا﴾ بيانٌ لما وافقَه هذا الجزاءُ.

(٢٨) ﴿وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا﴾ تكذيباً وفِعَّالٌ بمعنى تفعيلٍ مطَّرِدٌ شائعٌ في كلام الفُصَحَاءِ. وقرىء بالتخفيف وهو بمعنى الكذِبِ كقوله:

فَصَدَقْتُهَا وَكَذَبْتُهَا   والمَرْءُ يَنْفَعُهُ كِذَّابُهُ(٢)

وإنما أُقِيْمَ مقامَ التكذيب للدلالة على أنهم كَذَبُوا في تكذيبهم، أو المكاذبةِ فإنَّهم كانوا عند المسلمين كاذبينَ وكان المسلمون كاذبينَ عندَهم فكان بينَهم مكاذبةٌ، أو كانوا مبالِغينَ في الكذِب مبالغةَ المبالغينَ فيه، وعلى المعْنَيَيْنِ يجوزُ أنْ يكونَ حالاً بمعنى كاذبينَ أو مكاذبين، ويؤيدُه أنه قرىء كِذَاباً وهو جمعُ كاذبٍ، ويجوزُ أنْ يكونَ للمبالغةِ فيكون صفةً للمصدرِ أي تكذيباً مفرِطاً كذِبُه.

(٢٩) ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ﴾ وقرىء بالرفع على الابتداءِ. ﴿كِتَٰبًا﴾ مصدرٌ لأحصيناهُ فإنَّ الإحصاءَ والكتبةَ يتشاركان في معنى الضبطِ أو لفعلِهِ المقدَّرِ أو حال بمعنى مكتوباً في اللوحِ أو صحفِ الحفظة، والجملةُ اعتراضٌ وقوله:

---

(١) أي بتشديد السين من غسّاقاً، وقرأ آخرون بتخفيف السين غسَاقاً.

(٢) من مجزوء الكامل.

﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ۝٣٠ إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ۝٣١ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ۝٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ۝٣٣ وَكَأْسًا دِهَاقًا ۝٣٤ لَّا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝٣٥ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ۝٣٦ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ
مِنْهُ خِطَابًا ۝٣٧ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ۝٣٨﴾

(٣٠) ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾ مسبَّبٌ عن كفرهم بالحساب وتكذيبهم بالآياتِ، ومجيئُه على طريقةِ الالتفاتِ للمبالغةِ. وفي الحديث: «هذه الآيةُ أشدُّ ما في القرآن على أهلِ النار»[1].

(٣١) ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ فوزاً أو موضعَ فوزٍ.

(٣٢) ﴿حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا﴾ بساتينَ فيها أنواعُ الأشجار المثمرةِ بدلٌ من مفازاً بدلَ الاشتمالِ والبعضِ.

(٣٣) ﴿وَكَوَاعِبَ﴾ نساءً فُلِكَتْ ثديهنَّ. ﴿أَتْرَابًا﴾ لِداتٍ[2].

(٣٤) ﴿وَكَأْسًا دِهَاقًا﴾ ملآناً، وأدهقَ الحوضَ ملأه.

(٣٥) ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ وقرأ الكسائي بالتخفيفِ أي كذِباً أو مكاذبةٍ، إذ لا يكذِّبُ بعضُهم بعضاً.

(٣٦) ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ﴾ بمقتضى وعدِه. ﴿عَطَآءً﴾ تفضُّلاً منه إذ لا يجب عليه شيءٌ، وهو بدلٌ من جزاء، وقيل منتصبٌ به نصبَ المفعولِ به. ﴿حِسَابًا﴾ كافياً من أَحْسَبَهُ الشيءَ إذا كفاهُ حتى قال حسبي، أو على حسبِ أعمالهم وقرىء حَسّاباً أي محسباً كالدرّاكِ بمعنى المدرَكِ.

(٣٧) ﴿رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بدلٌ من ربِّك، وقد رفعَه الحجازيانِ وأبو عمرو على الابتداءِ. ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالجرِّ صفةٌ له وكذا في قراءة ابن عامر وعاصمٍ ويعقوبَ، وبالرفع في قراءة أبي عمرو، وفي قراءة حمزةَ والكسائي بجرِّ الأول ورفعِ الثاني على أنه خبرُ محذوف، أو مبتدأٌ خبرهُ: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ
والواوُ لأهل السمواتِ والأرضِ أي لا يملكون خطابَه، والاعتراضُ عليه في ثوابٍ أو عقاب لأنهم مملوكونَ له على الإطلاق فلا يستحقُّون عليه اعتراضاً وذلك لا ينافي الشفاعةَ بإذنه.

(٣٨) ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ تقريرٌ وتوكيدٌ لقوله لا يملكون، فإنَّ هؤلاءِ الذين هم أفضلُ الخلائقِ وأقربُهم من الله إذا لم يقدروا أنْ يتكلَّموا بما يكون صواباً كالشفاعةِ لِمَنِ ارتضَى إلا بإذنه، فكيف يملكُه غيرُهم؟! ويومَ ظرفٌ لِلاَ يملِكُون، أو ليتكلمون. والروحُ مَلَكٌ موكَّل على الأرواحِ أو جنسِها، أو جبريلُ عليه السلام، أو خلْقٌ أعظمُ من الملائكة.

---

(١) قال الحافظ في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٦٨): «ـ أخرجه ـ ابن أبي حاتم، والثعلبي من رواية جسر بن فرقد السبخي عن الحسن سألت أبا برزة الأسلمي فذكره. وجسر ضعيف، ورواه الطبراني ـ (٧/ ١٣٣) وفيه شعيب بن بيان وهو ضعيف ـ والبيهقي في الشعب موقوفاً» هـ.

(٢) كواعب جمع كاعب وهي المرأة التي تكعّب ثدياها واستدار مع ارتفاع يسير، ويكون ذلك في سن البلوغ.
وأتراباً أي لدات ينشأن معاً تشبيهاً في التساوي والتماثل بالترائب التي هي ضلوع الصدر، أو لوقوعهن معاً على التراب.. (روح المعاني ٣٠/ ١٨).

ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ مَـَٔابًا ﴿٣٩﴾ إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا ﴿٤٠﴾

(٣٩) ﴿ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلْحَقُّ﴾ الكائنُ لا محالةَ. ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ إلى ثوابه. ﴿مَـَٔابًا﴾ بالإيمان والطاعة.

(٤٠) ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ يعني عذابَ الآخرةِ، وقربه لتحقُّقِه فإنَّ كلَّ ما هو آتٍ قريبٌ ولأنَّ مبدأه الموتُ. ﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾ يرى ما قدَّمه من خير أو شرٍّ. والمرءُ عامٌّ، وقيل هو الكافر لقوله ﴿إِنَّآ أَنذَرْنَـٰكُمْ﴾[1] فيكون الكافرُ ظاهراً وُضِعَ موضعَ الضمير لزيادة الذمِّ، وما موصولةٌ منصوبةٌ بينظرُ أو استفهاميةٌ منصوبةٌ بقدَّمت، أي ينظر أيَّ شيءٍ قدَّمتْ يداهُ. ﴿وَيَقُولُ ٱلْكَافِرُ يَـٰلَيْتَنِى كُنتُ تُرَٰبًۢا﴾ في الدنيا فلم أُخلَقْ ولم أكلَّفْ، أو في هذا اليومِ فلم أُبعَثْ، وقيل يحشرُ سائرُ الحيواناتِ للاقتصاصِ ثم تَرَدُّ تراباً فيودُّ الكافرُ حالَها. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ عمَّ سقاه الله بَرْدَ الشرابِ يومَ القيامة»[2].

☆ ☆ ☆

(١) النبأ: «٤٠».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه من حديث أبي بن كعب. كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨١ رقم ٢٦٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّازِعَاتِ

آياتها ٤٦ — ترتيبها ٧٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا ﴿١﴾ وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا ﴿٢﴾ وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا ﴿٣﴾ فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا ﴿٤﴾ فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا ﴿٥﴾ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴿٧﴾ قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ﴿٨﴾ أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ ﴿٩﴾ يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴿١٠﴾ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴿١٢﴾

سورة النازعات مكية[١] وآيها خمس أو ست وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا﴾.

(٢) ﴿وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾.

(٣) ﴿وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا﴾.

(٤) ﴿فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا﴾.

(٥) ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ هذه صفاتُ ملائكةِ الموتِ فإنهم ينزعونَ أرواحَ الكفار من أبدانهم غَرْقاً أي إغراقاً في النزعِ. فإنهم ينزِعُونها من أقاصي الأبدانِ أو نفوساً غرقتْ في الأجسادِ، وينشطونَ أي يخرجونَ أرواحَ المؤمنينَ برفقٍ من نشطَ الدلْوَ من البئر إذا أخرجَها، ويَسْبَحُون في إخراجها سبحَ الغوَّاصِ الذي يُخْرِجُ الشيءَ من أعماق البحر، فيسبقونَ بأرواحِ الكفارِ إلى النار وبأرواحِ المؤمنين إلى الجنة، فيدبرون أمرَ عقابِها وثوابِها بأنْ يهيِّئُوها لإدراك ما أعدَّ لها من الآلام واللذاتِ، أو الأوليانِ لهم

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز».
(٢١٨/١٦): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

والباقياتُ لطوائفَ من الملائكةِ يسبحون في مضيِّها أي يسرعون فيه فيسبِقُون إلى ما أُمِروا به فيدبرون أمْرَهُ. أو صفاتُ النجومِ فإنها تنزعُ من المشرقِ إلى المغرب غرقاً في النزعِ بأن تقطعَ الفلكَ حتى تنحطَّ في أقصى الغربِ، وتنشطُ من برجٍ إلى برجٍ أي تخرجُ من نشطَ الثورُ إذا خرجَ من بلد إلى بلد، ويسبَحْنَ في الفلكِ فيسبقُ بعضُها في السير لكونه أسرعَ حركةً فيدبر أمراً نِيْطَ بها، كاختلافِ الفصول وتقدير الأزمنة وظهور مواقيتِ العبادات، ولما كانت حركاتُها من المشرقِ إلى المغرب قسريةً وحركاتُها من برج إلى برج ملائمة سمّى الأولى نزعاً والثانية نشطاً. أو صفاتُ النفوسِ الفاضلةِ حالَ المفارقة فإنها تُنْزَعُ عن الأبدانِ غرقاً أي نزعاً شديداً من إغراق النازع في القوسِ، وتنشطُ إلى عالَمِ الملكوتِ وتسْبَحُ فيها فتسبقُ إلى حظائرِ القدُسِ فتصيرُ لِشَرَفِها وقوَّتها من المدبِّرات، أو حالَ سلوكِها فإنها تنزعُ عن الشهواتِ فتنشطُ إلى عالم القدس، فتسْبَحُ في مراتبِ الارتقاءِ فتسبقُ إلى الكمالاتِ حتى تصيْرَ من المكملاتِ. أو صفاتُ أنفسِ الغزاةِ، أو أيديهم تنزعُ القِسِيَّ بإغراقِ السهام وينشطون بالسهمِ للرمي ويسبحون في البرِّ والبحرِ فيسبقُون إلى حربِ العدوِّ فيدبرون أَمْرَهَا. أو صفاتُ خيلِهم فإنها تنزعُ في أعِنَّتها نزعاً تغرقُ فيه الأعنةُ لطولِ أعناقِها وتخرجُ من دار الإسلام إلى دار الكفرِ، وتسبح في حربها فتسبقُ إلى العدوِّ فتدبِّرُ أَمْرَ الظَّفَرِ.

أقسمَ اللهُ تعالى بها على قيامِ الساعة وإنما حُذِفَ لدلالة ما بعدَه عليه.

(٦) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ﴾ وهو منصوبٌ به، والمرادُ بالراجفةِ الأجرامُ الساكنةُ التي تشتدُّ حركتُها حينئذ كالأرضِ والجبال لقوله تعالى ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾[1] أو الواقعةُ التي ترجفُ الأجرامُ عندَها وهي النفخةُ الأُولى.

(٧) ﴿تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ التابعةُ وهي السماء والكواكبُ تنشق وتنتشرُ، أو النفخةُ الثانية. والجملةُ في موقع الحال.

(٨) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾ شديدةُ الاضطرابِ من الوجيفِ وهي صفة القلوب، والخبرُ.

(٩) ﴿أَبْصَـٰرُهَا خَـٰشِعَةٌ﴾ أي أبصارُ أصحابِها ذليلةٌ من الخوف ولذلك أضافَها إلى القلوب.

(١٠) ﴿يَقُولُونَ أَءِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِى ٱلْحَافِرَةِ﴾ في الحالةِ الأولى يعنونَ الحياةَ بعدَ الموت من قولهم رجعَ فلانٌ في حافرته أي طريقِه التي جاء فيها، فحفَرها أي أثَّر فيها بمشْيِه على النسبة كقوله تعالى ﴿في عيشة راضية﴾ أو تشبيهُ القائلِ بالفاعل. وقرىء في الحَفِرةِ بمعنى المحفورةِ يُقَالُ حفرتْ أسنانُه فحفَرتْ حفْراً وهي حَفِرةٌ.

(١١) ﴿أَءِذَا كُنَّا﴾ وقرأ نافعٌ وابن عامر والكسائيُ إذا كنَّا على الخبر. ﴿عِظَـٰمًا نَّخِرَةً﴾ باليةٌ وقرأ الحجازيانِ والشاميُ وحفص وروحٌ نَخِرةً وهي أبلغُ.

(١٢) ﴿قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ ذاتُ خسرانٍ أو خاسرٌ أصحابُها، والمعنى أنها إنْ صحَّتْ فنحن إذاً خاسرون لتكذيبنا بها، وهو استهزاءٌ منهم.

---

(١) المزمل: «١٤».

فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٦﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿١٧﴾ فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٢٠﴾ فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ ﴿٢١﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعَىٰ ﴿٢٢﴾ فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ ﴿٢٥﴾

(١٣) ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ متعلّقٌ بمحذوف أي لا يستصعِبوها فما هي إلا صيحةٌ واحدةٌ يعني النفخةَ الثانيةَ.

(١٤) ﴿فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ﴾ فإذا هم أحياءٌ على وجهِ الأرض بعدَ ما كانوا أمواتاً في بطْنِها. والساهرةُ الأرضُ البيضاءُ المستويةُ، سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ السرابَ يجري فيها من قولهم: عينٌ ساهرةٌ للتي يجري ماؤها وفي ضدِّها نائمةٌ، أو لأن سالِكَها يسهرُ خوفاً، وقيل اسمٌ لجهنَّمَ.

(١٥) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ أليسَ قد أتاك حديثُه فيسلِّيكَ على تكذيبِ قومِك وتهدُّدِهم عليه بأنْ يصيبَهم مثلُ ما أصابَ من هو أعظمُ منهم.

(١٦) ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ قد مرَّ بيانُه في سورةِ طه.

(١٧) ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ على إرادةِ القولِ، وقرىء أنِ اذهبْ لما في النداءِ من معنى القولِ.

(١٨) ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ﴾ هل لك ميلٌ إلى أنْ تتطهرَ من الكفر والطغيان، وقرأ الحجازيانِ ويعقوب تزَّكّىٰ بالتشديد.

(١٩) ﴿وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ وأرشِدُك إلى معرفَتِه. ﴿فَتَخْشَىٰ﴾ بأداءِ الواجباتِ وتركِ المحرَّماتِ، إذ الخشيةُ إنما تكون بعدَ المعرفةِ وهذا كالتفصيلِ لقوله ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾[١].

(٢٠) ﴿فَأَرَىٰهُ ٱلْءَايَةَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ أي فذهبَ وبلّغ فأراه المعجزةَ الكبرى وهي قلبُ العصا حيةً فإنه كان المقدَّمُ والأصل، أو مجموعُ معجزاته فإنها باعتبار دلالتِها كالآية الواحدةِ.

(٢١) ﴿فَكَذَّبَ وَعَصَىٰ﴾ فكذَّب موسى وعصى اللهَ عزَّ وجلَّ بعد ظهور الآية وتحقُّقِ الأمر.

(٢٢) ﴿ثُمَّ أَدْبَرَ﴾ عن الطاعةِ. ﴿يَسْعَىٰ﴾ ساعياً في إبطال أمرِه، أو أدبر بعدَ ما رأى الثعبانَ مرعوباً مسرعاً في مشيِه.

(٢٣) ﴿فَحَشَرَ﴾ فجمعَ السحرةَ أو جنودَه. ﴿فَنَادَىٰ﴾ في المجْمَعِ بنفسِه أو بمنادٍ.

(٢٤) ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ أعلى كلِّ مَنْ يلي أَمْرَكُم.

(٢٥) ﴿فَأَخَذَهُ ٱللَّهُ نَكَالَ ٱلْءَاخِرَةِ وَٱلْأُولَىٰٓ﴾ أخذاً منكلاً لمن رآهُ، أو سمعه في الآخرة بالإحراقِ وفي الدنيا بالإغراقِ، أو على كلمتِه الآخرة وهي هذه وكلمتِه الأولى وهو قولُه ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[٢] أو للتنكيلِ فيهما، أو لهما، ويجوزُ أنْ يكون مصدراً مؤكداً مقدَّراً بفعلِه.

---

(١) طه: «٤٤».

(٢) القصص: «٣٨».

إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ ﴿٢٦﴾ ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ
ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا ﴿٣٢﴾ مَتَٰعًا لَّكُمْ
وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٣﴾ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾

(٢٦) ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَىٰٓ﴾ لمن كان من شأنِه الخشيةُ.

(٢٧) ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾ أصعبُ خلقاً. ﴿أَمِ ٱلسَّمَآءُ﴾ ثم بين كيفَ خلقَها فقال: ﴿بَنَىٰهَا﴾ ثم بيَّن البناءَ فقال:

(٢٨) ﴿رَفَعَ سَمْكَهَا﴾ أي جعلَ مقدارَ ارتفاعِها من الأرض أو ثُخْنَها لِذَاهبِ في العلوِّ رفيعاً. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فعدَلَها أو فجعلَها مستويةً، أو فتمَّمَها بما يتمُّ به كمالُها من الكواكبِ والتداوير وغيرها من قولِهم: سوَّى فلان أمْرَهُ إذا أصلحه.

(٢٩) ﴿وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا﴾ أظْلَمَهُ منقولٌ من غطشَ الليلُ إذا أظلمَ، وإنما أضافه إليها لأنه يحدثُ بحركتِها. ﴿وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا﴾ وأبرزَ ضوءَ شمسِها. كقوله تعالى ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾[1] يريدُ النهارَ.

(٣٠) ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ بسطَها ومهَّدَها للسُّكْنَى.

(٣١) ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا﴾ بتفجير العيونِ. ﴿وَمَرْعَىٰهَا﴾ ورعْيَهَا وهو في الأصلِ لموضعِ الرعي، وتجريدُ الجملة عن العاطفِ لأنها حالٌ بإضمارِ قد أو بيانٌ للدُّحوِّ.

(٣٢) ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ أثبتَها وقرىء والأرضُ والجبالُ بالرفعِ على الابتداء، وهو مرجوحٌ لأن العطفَ على فعليةٍ.

(٣٣) ﴿مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ تمتيعاً لكم ولمواشيكم.

(٣٤) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ﴾ الداهيةُ التي تطمُّ أي تعلو على سائر الدواهي. ﴿ٱلْكُبْرَىٰ﴾ التي هي أكبر الطَّاماتِ وهي القيامة، أو النفخةُ الثانية أو الساعةُ التي يُسَاقُ فيها أهلُ الجنةِ إلى الجنة وأهل النار إلى النار.

(٣٥) ﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ﴾ بأنْ يراهُ مدوَّناً في صحيفتِه وكان قد نسيه من فَرْطِ الغفلةِ أو طولِ المدة، وهو بدلٌ من إذا جاءتْ وما موصولةٌ أو مصدرية.

(٣٦) ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾ وأُظْهِرَتْ. ﴿لِمَن يَرَىٰ﴾ لكل راءٍ بحيث لا تخفَى على أحدٍ، وقرىء وبَرَزَتْ ولمن رأى ولمن تَرَى على أن فيه ضميرَ الجحيمِ كقوله تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾[2]. أو أنه خطابُ الرسولِ ﷺ أي لمن تراه من الكفارِ، وجوابُ فإذا جاءتْ محذوفٌ دلَّ عليه يوم يتذكَّر أو ما بعدَه من التفصيل.

---

(١) الشمس: «١».
(٢) الفرقان: «١٢».

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا ﴿٤٥﴾ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا ﴿٤٦﴾

(٣٧) ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ﴾ حتى كفرَ.

(٣٨) ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فانهمكَ فيها ولم يستعدَّ للآخرةِ بالعبادة وتهذيبِ النفس.

(٣٩) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ هي مأواهُ واللامُ فيه سادَّةٌ مسدَّ الإضافةِ للعلم بأنَّ صاحبَ المأوى هو الطاغي، وهي فصلٌ أو مبتدأ.

(٤٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ مقامه بين يدي ربه لعلمه بالمبدأ والمعاد. ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ لعلمِه بأنه مردٍ.

(٤١) ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ ليس لها سِواها مأوى.

(٤٢) ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ متى إرساؤُها أي إقامتُها وإثباتُها، أو منتهاها ومستقرُّها من مَرْسَى السفينةِ وهو حيث تنتهي إليه وتستقرُّ فيه.

(٤٣) ﴿فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ﴾ في أي شيءٍ أنتَ من أنْ تذكُرَ وقتَها لهم أي ما أنت من ذِكْرِها لهم، وتبينِ وقتِها في شيء فإنَّ ذكرَها لا يزيدُهم إلا غياً، ووقتُها مما استأثر الله تعالى بعلمِه. وقيل فيمَ إنكارٌ لسؤالِهم وأنتَ من ذِكراها مستأنفٌ، ومعناه أنت ذكرُ مَنْ ذكَرَها أي علامةٌ من أشراطِها، فإنَّ إرسالَه خاتَماً للأنبياءِ أمارةٌ من أماراتها، وقيل إنه متصلٌ بسؤالهم والجوابُ.

(٤٤) ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ أي منتهى علمِها.

(٤٥) ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرُ مَن يَخْشَىٰهَا﴾ إنما بُعِثْتُ لإنذار مَنْ يخاف هولَها، وهو لا يناسبُ تعيينَ الوقتِ وتخصيصَ مَنْ يخشى لأنه المنتفعُ به، وعن أبي عمرو منذرٌ بالتنوينِ والإعمالِ على الأصلِ لأنه بمعنى الحال.

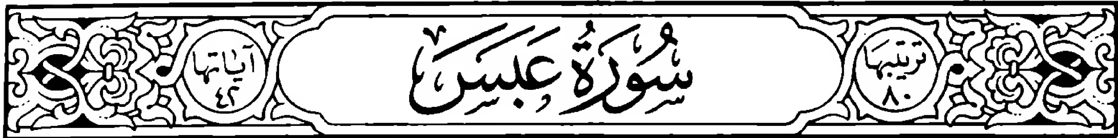
(٤٦) ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓا۟﴾ في الدنيا أو في القبور. ﴿إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ أي عشيةَ يومٍ أو ضحاهُ كقوله ﴿إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾[1] ولذلك أضافَ الضُّحى إلى العشيةِ لأنهما من يوم واحدٍ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ النازعات كان ممَّنْ حبسَهُ الله في القيامة حتى يدخلَ الجنةَ قدْرَ صلاةِ المكتوبة»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) الأحقاف: «٣٥».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨١ رقم ٢٧٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١﴾ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴿٣﴾ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴿٤﴾ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ﴿٥﴾ فَأَنتَ
لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴿٦﴾ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَىٰ ﴿٩﴾ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴿١٠﴾ كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾
فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍۭ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾

سورة عبس مكية[1] وآيها ثنتان وأربعون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

(٢) ﴿أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ﴾ رُوِيَ[2]: أنَّ ابنَ أمِّ مكتوم أتى رسولَ الله ﷺ وعنده صناديدُ قريش يدعوهم إلى الإسلام، فقال: يا رسولَ الله علِّمني مما علَّمكَ اللهُ، وكرر ذلك ولم يعلمْ تشاغُلَه بالقومِ، فكره

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٢٨): «وهي مكية بإجماع المفسرين».

(٢) أخرجه الترمذي (٥/٤٣٢ رقم ٣٣٣١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٥٠ ـ ٥١). وابن حبان في الموارد (رقم: ١٧٦٩) والحاكم (٢/٥١٤) من حديث عائشة.
قال الترمذي: غريب، وروى بعضهم هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه ولم يذكر فيه عن عائشة.
وقال الحاكم: صحيح على شرط الشيخين، وقد أرسله جماعة عن هشام بن عروة، وقال الذهبي: وهو الصواب.
● وأخرج الحاكم نحوه (٣/٦٣٤ ـ ٦٣٥) من طريقين عن عائشة وسكت عليه، وذكر الذهبي متابعة طريق لآخر وسكت.
وقال الشيخ شعيب في «الإحسان» (٢/٢٩٤): رواه مرسلاً مالك في «الموطأ» (١/٢٠٧) وصوب الإمام الذهبي كونه مرسلاً» وانظر «الدر المنثور» (٨/٤١٦).

رسولُ الله ﷺ قطْعَه لكلامِهِ وعَبَسَ وأعرضَ عنه فنزلتْ، فكان رسولُ الله ﷺ يكرمُه ويقول إذا رآه: «مرحباً بمن عاتبني فيه ربِّي، واستخلفَه على المدينة مرتين[1]. وقرئ عبَّس بالتشديد للمبالغةِ وأنْ جاءه علةٌ لتولَّى أو عبس على اختلافِ المذهبينِ. وقرئ آأنْ بهمزتينِ وبألفٍ بينَهما بمعنى ءَأَلِنْ جاءه الأعمى فعلَ ذلك. وذَكَرَ الأعمى للإشعارِ بعذرِهِ في الإقدامِ على قطعِ كلامِ رسولِ الله ﷺ بالقومِ والدلالةِ على أنه أحقُّ بالرأفة والرِّفقِ، أو لزيادةِ الإنكارِ كأنه قال: تولى لكونه أعمى كالالتفاتِ في قوله:

(٣) ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ أي: وأيُّ شيءٍ يجعلُك دارياً بحاله لعلَّه يتطهَّر من الآثام بما يتلقَّفُ منك. وفيه إيماءٌ بأنَّ إعراضَه كان لتزكيةِ غيرِه.

(٤) ﴿أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ﴾ أو يتَّعِظُ فتنفعَه موعِظَتُك، وقيل الضميرُ في لعله للكافر أي أنك طمعتَ في تزكيه بالإسلامِ وتذكُّرِه بالموعظةِ ولذلك أعرضْتَ عن غيرِهِ، فما يدريك أنَّ ما طمعْتَ فيه كائنٌ، وقرأ عاصمٌ فتنفعَهُ بالنصبِ جواباً لِلَعَلَّ.

(٥) ﴿أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ﴾.

(٦) ﴿فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ﴾ تتعرَّض له بالإقبالِ عليه وأصلُه تتصدَّى. وقرأ ابن كثير ونافع تَصَّدَّى بالإدغام، وقرئ تُصَدَّىٰ أي تعرضُ وتُدْعَى إلى التصدِّي.

(٧) ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾ وليس عليك بأسٌ في أنْ لا يتزكَّى بالإسلام حتى يبعثَك الحرصُ على إسلامه إلى الإعراض عمَّن أسْلَمَ ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾[2].

(٨) ﴿وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ﴾ يسرعُ طالباً للخير.

(٩) ﴿وَهُوَ يَخْشَىٰ﴾ اللهَ أو أذيةَ الكفار في إتيانِك، أو كبوةَ الطريقِ لأنه أعمى لا قائدَ له.

(١٠) ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾ تتشاغلُ، يقالُ لها عنه والْتهى وتلهَّى، ولعلَّ ذِكْرَ التصدُّقِ والتلهي للإشعارِ بأنَّ العتابَ على اهتمام قلبِه بالغنيِّ وتلهِّيهِ عن الفقيرِ، ومثلُه لا ينبغي له ذلك.

(١١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن المعاتَبِ عليه أو عن معاودةِ مثلِه. ﴿إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ﴾.

(١٢) ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾ حفظَه أوِ اتَّعظَ به والضميرانِ للقرآنِ، أو العتابُ المذكورُ وتأنيثُ الأول لتأنيثِ خبرِه.

(١٣) ﴿فِى صُحُفٍ﴾ مثبتةٍ فيها صفةٌ لتذكرةٍ، أو خبرٌ ثانٍ أو خبرٌ لمحذوفٍ. ﴿مُّكَرَّمَةٍ﴾ عند الله.

(١٤) ﴿مَّرْفُوعَةٍ﴾ القدْرِ. ﴿مُّطَهَّرَةٍ﴾ منزَّهةٍ عن أيدي الشياطين:

(١٥) ﴿بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ كتبةٍ من الملائكةِ أوِ الأنبياءِ ينتسخُون الكُتُبَ من اللوح أو الوحي، أو سفراءَ

---

(١) انظر «أسد الغابة» لابن الأثير (٣/٢٧٦ رقم ٣٠٠٧).
واستخلافه على المدينة أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/ ٥١ ـ ٥٢) وهو معضل.

(٢) الشورى: «٤٨».

يسفرونَ بالوحي بينَ الله تعالى ورسلِه، أو الأمةِ جمعُ سافرٍ من السَّفَرِ أو السِّفارةِ والتركيبُ للكشفِ يقالُ سَفَرَتِ المرأةُ إذا كشفتْ وجْهَهَا.

كِرَامِۭ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴿١٧﴾ مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ ﴿١٩﴾ ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ ﴿٢١﴾ ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ ﴿٢٢﴾ كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ﴿٢٣﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾

(١٦) ﴿كِرَامِۭ﴾ أعزَّاءَ على الله أو متعطفينَ على المؤمنين يكلِّمونهم ويستغفِرون لهم. ﴿بَرَرَةٍ﴾ أتقياءَ.

(١٧) ﴿قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ دعاءٌ عليه بأشنعِ الدعواتِ وتعجُّبٌ من إفراطه في الكفرانِ، وهو مع قِصَرِهِ يدلُّ على سخطٍ عظيم وذمٍّ بليغ.

(١٨) ﴿مِنْ أَىِّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ بيانٌ لما أنعمَ عليه خصوصاً من مبدأِ حدوثِه، والاستفهامُ للتحقيرِ ولذلك أجابَ عنه بقوله:

(١٩) ﴿مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُۥ فَقَدَّرَهُۥ﴾ فهيَّأه لما يصلُح له من الأعضاءِ والأشكالِ، أو فقدَّره أطواراً إلى أن تمَّ خِلْقَته.

(٢٠) ﴿ثُمَّ ٱلسَّبِيلَ يَسَّرَهُۥ﴾ ثم سهَّل مخرجَه من بطنِ أمه بأنْ فتحَ فوهةَ الرحمِ وألهمَه أنْ ينتكِسَ، أو ذلَّلَ له سبيلَ الخير والشرِّ، ونصبَ السبيلَ بفعلٍ يفسِّره الظاهرُ للمبالغة في التيسير، وتعريفُه باللامِ دون الإضافةِ للإشعارِ بأنه سبيلٌ عام، وفيه على المعنى الأخير إيماءٌ بأنَّ الدنيا طريقٌ والمقصدُ غيرها ولذلك عقَّبه بقوله:

(٢١) ﴿ثُمَّ أَمَاتَهُۥ فَأَقْبَرَهُۥ﴾.

(٢٢) ﴿ثُمَّ إِذَا شَآءَ أَنشَرَهُۥ﴾ وعدّ الإماتةَ والإقبارَ في النِّعم لأنَّ الإماتةَ وُصْلَةٌ في الجملةِ إلى الحياة الأبديةِ واللذاتِ الخالصة، والأمرُ بالقبرِ تكرمةً وصيانةً عن السِّباعِ، وفي إذا شاءَ إشعارٌ بأنَّ وقْتَ النشورِ غيرُ متعيِّنٍ في نفسه، وإنما هو موكول إلى مشيئته تعالى.

(٢٣) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للإنسان بما هو عليه. ﴿لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ﴾ لم يقضِ بعدُ من لدنْ آدمَ إلى هذه الغايةِ ما أمره الله بأمرِه، إذ لا يخلو أحدٌ من تقصيرٍ ما.

(٢٤) ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ﴾ إتباعٌ للنعمِ الذاتيةِ بالنعمِ الخارجيةِ.

(٢٥) ﴿أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا﴾ استئنافٌ مبيِّنٌ لكيفية إحداثِ الطعام، وقرأ الكوفيونَ بالفتحِ على البدلِ منه بدلَ الاشتمال.

(٢٦) ﴿ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا﴾ أي بالنباتِ أو بالكرابِ، وأسندَ الشقَّ إلى نفسِه إسنادَ الفعلِ إلى السَّببِ.

(٢٧) ﴿فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ كالحنطةِ والشعير.

وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ ﴿٣٢﴾ فَإِذَا جَآءَتِ
ٱلصَّآخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾
وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ
ٱلْفَجَرَةُ ﴿٤٢﴾

(٢٨) ﴿وَعِنَبًا وَقَضْبًا﴾ يعني الرطبةَ سُمِّيَتْ بمصدرِ قضَبه إذا قطعَه لأنها تُقْضَبُ مرةً بعدَ أخرى.

(٢٩) ﴿وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا﴾.

(٣٠) ﴿وَحَدَآئِقَ غُلْبًا﴾ عظاماً وصفَ به الحدائقَ لتكاثُفِها وكثرةِ أشجارها، أو لأنها ذاتُ أشجار غلاظٍ مستعارٌ من وصفِ الرقابِ.

(٣١) ﴿وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا﴾ ومرعَى من أبَّ إذا أمَّ لأنه يُؤَمُّ وينتجعُ، أو من أبَّ لكذا إذا تهيَّأ له لأنه متهيءٌ للرعي، أو فاكهةً يابسةً تؤوب للشتاءِ.

(٣٢) ﴿مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ فإنَّ الأنواعَ المذكورة بعضُها طعام وبعضُها عَلَفٌ.

(٣٣) ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ﴾ أي النفخةُ وُصِفَتْ بها مجازاً لأنَّ الناسَ يصخُّون لها.

(٣٤) ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ﴾.

(٣٥) ﴿وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾.

(٣٦) ﴿وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ﴾ لاشتغالِه بشأنه وعلمِه بأنهم لا ينفعونَه، أو للحذرِ من مطالبتهم بما قصَّر في حقِّهم، وتأخيرُ الأحبِّ فالأحبُّ للمبالغةِ كأنه قيل: يفرُّ من أخيه بل من أبويْهِ بل من صاحِبَته وبنيهِ.

(٣٧) ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ يكفيه في الاهتمام به، وقرىء يعنيْهِ أي يهمُّه.

(٣٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ﴾ مضيئةٌ من إسفارِ الصبح.

(٣٩) ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ لما ترى من النعيم.

(٤٠) ﴿وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾ غبارٌ وكدورةٌ.

(٤١) ﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾ يغشاها سوادٌ وظُلْمةٌ.

(٤٢) ﴿أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَفَرَةُ ٱلْفَجَرَةُ﴾ الذين جمعوا إلى الكفر الفجورَ، فلذلك يجمعُ إلى سواد وجوهِهم الغبرةَ، قال النبيُّ ﷺ: «منْ قرأ سورةَ عبس جاء يومَ القيامة ووجْهُهُ ضاحِكٌ مستَبْشِرٌ»[1].

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٢ رقم ٢٧٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكْوِيرِ

ترتيبها ٨١ — آياتها ٢٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ ﴿٤﴾ وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ ﴿٥﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ ﴿٦﴾ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴿٧﴾ وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ ﴿١٠﴾ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١١﴾

سورة التكوير مكية[1] وآيها تسع وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ لُفَّتْ من كوَّرت العمامةَ إذا لَفَفْتها بمعنى رُفِعَتْ لأنَّ الثوبَ إذا أُرِيدَ رفعُه لُفَّ، أو لُفَّ ضوءُها فذهبَ انبساطُه في الآفاقِ وزالَ أثرهُ، أو أُلْقِيَتْ عن فَلَكِها من طَعَنَهُ فكوَّره إذا ألقاه مجتمِعاً. والتركيبُ للإدارة والجمعِ، وارتفاعُ الشمسِ بفعلٍ يفسره ما بعدَها أولىٰ لأنَّ إذا الشرطيةَ تطلب الفعلَ.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ انقضتْ قال: أَبْصِرْ خَرْبَانَ فَضَاءً فانكدَر. أو أظلمتْ من كدَّرت الماءَ فانكدر.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ عن وجه الأرضِ أو في الجوِّ.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ﴾ النوقُ اللواتي أتى على حملهنَّ عشرةُ أشهرٍ جمعُ عشراءَ. ﴿عُطِّلَتْ﴾ تُرِكَتْ مهملةً، أو السحائبُ عُطِّلَتْ عن المطرِ، وقرىء بالتخفيفِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز». (٢٣٧/١٦): «وهي مكية بإجماع من المتأولين».

(٥) ﴿وَإِذَا ٱلْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾ جمعتْ من كلِّ جانب أو بعثت للقصاصِ ثمَّ رُدَّتْ تراباً، أو أُمِيتَتْ من قولهم إذا أجحفتِ السنةُ بالناس حشرتْهم، وقرىء بالتشديدِ.

(٦) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ أُحْمِيَتْ أو مُلِئَتْ بتفجيرِ بعضِها إلى بعض حتى تعودَ بحراً واحداً، من سَجَرَ التنورَ إذا ملأه بالحطبِ ليحميَهُ، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وروحٌ بالتخفيف.

(٧) ﴿وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ قُرِنَتْ بالأبدانِ أو كلٌّ منها بشكْلِها، أو بكتابِها وعملِها، أو نفوسُ المؤمنين بالحورِ ونفوسُ الكافرين بالشياطينِ.

(٨) ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ﴾ المدفونةُ حيةً، وكانتِ العربُ تَئِدُ البناتِ مخافةَ الإملاقِ، أو لحوقِ العار بهم من أجلِهم ﴿سُئِلَتْ﴾.

(٩) ﴿بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ﴾ تبكيتاً لوائِدِهَا كتبكيتِ النصارى بقوله تعالى لعيسى عليه الصلاة والسلام ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[١] وقرىء سَأَلَتْ أي خاصمتْ عن نفسِها وسألتْ. وإنما قيل قُتِلَتْ على الإخبار عنها، وقرىء قُتِلْتُ على الحكايةِ.

(١٠) ﴿وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني صحفَ الأعمالِ فإنها تُطْوَى عند الموتِ وتنشرُ وقتَ الحساب. وقيل نشرت فرّقتْ بين أصحابها. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وحمزةُ والكسائي بالتشديد للمبالغةِ في النشرِ، أو لكثرةِ الصحف أو شدةِ التطايُرِ.

(١١) ﴿وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ﴾ قُلِعَتْ وأُزِيلَتْ كما يُكْشَطُ الإهابُ عن الذبيحةِ، وقرىء قُشِطَتْ، واعتقابُ القافِ والكافِ كثيرٌ.

وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٢﴾ وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٣﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

(١٢) ﴿وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أُوقِدَتْ إيقاداً شديداً. وقرأ نافع وابن عامر وحفصٌ ورويس بالتشديدِ.

(١٣) ﴿وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ﴾ قرِّبتْ من المؤمنين.

(١٤) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ﴾ جوابُ إذا. وإنما صحَّ والمذكورُ في سياقها اثنتا عشرةَ خصلةً ستٌّ منها في مبادىء قيامِ الساعة قبل فناءِ الدنيا وستٌّ بعدَه لأنَّ المرادَ زمانٌ متسعٌ شاملٌ لها ولمجازاة النفوسِ على أعمالها، ونفسٌ في معنى العمومِ كقولهم تمرةٌ خير من جرادةٍ.

(١٥) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ﴾ بالكواكبِ الرواجعِ من خَنَسَ إذا تأخّر، وهي ما سِوَى النيرينِ من الكواكبِ السياراتِ ولذلك وصفَها بقوله:

(١٦) ﴿ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ أي السياراتِ التي تختفي تحتَ ضوءِ الشمس من كَنَسَ الوحشُ إذا دخل كِنَاسَهُ، وهو بيتُه المتخذُ من أغصانِ الشجر.

(١) المائدة: «١١٦».

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٧﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ ﴿١٩﴾ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٖ ثَمَّ
أَمِينٖ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدۡ رَءَاهُ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلۡغَيۡبِ بِضَنِينٖ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ
رَّجِيمٖ ﴿٢٥﴾ فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٨﴾

(١٧) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ﴾ أقبل ظلامُه أو أدبرَ وهو من الأضدادِ يقال عسعس الليلُ وسعسعَ إذا أدبرَ.

(١٨) ﴿وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾ أي أضاءَ غبرتَه عند إقبالِ روحٍ ونسيمٍ.

(١٩) ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي القرآنُ. ﴿لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ﴾ يعني جبريلَ فإنه قاله عن الله تعالى.

(٢٠) ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ كقوله شديدُ القوى. ﴿عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ﴾ عندَ الله ذي مكانة.

(٢١) ﴿مُّطَاعٖ﴾ في ملائكته. ﴿ثَمَّ أَمِينٖ﴾ على الوحي، وثَمَّ يحتملُ اتصالُه بما قبلَه وما بعدَه، وقرىء ثُمَّ تعظيماً للأمانة وتفضيلاً لها على سائر الصفاتِ.

(٢٢) ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجۡنُونٖ﴾ كما تبهتُه الكفرةُ[1]. واستُدِلَّ بذلك على فضل جبريلَ على محمدٍ عليه الصلاة والسلام حيث عد فضائلَ جبريلَ واقتصرَ على نفي الجنونِ عن النبيِّ ﷺ، وهو ضعيفٌ إذ المقصودُ منه نفيُ قولهم إنما يعلمُه بشرٌ أَفْتَرَى على اللهِ كذباً أم به جِنَّةٌ لا تعدادُ فضلِهما والموازنةُ بينَهما.

(٢٣) ﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ﴾ ولقد رأى رسولُ الله ﷺ جبريلَ عليه الصلاة والسلام. ﴿بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡمُبِينِ﴾ بمطلعِ الشمس.

(٢٤) ﴿وَمَا هُوَ﴾ وما محمدٌ عليه الصلاة والسلام. ﴿عَلَى ٱلۡغَيۡبِ﴾ على ما يخبرهُ من الموحَى إليه وغيره من الغيوب. ﴿بِضَنِينٖ﴾ بمتَّهمٍ من الظنَّةِ، وهي التهمةُ، وقرأ نافع وعاصم وحمزةُ وابن عامر بضنينٍ بالضاد من الضنِّ وهو البخلُ أي لا يبخلُ بالتبليغِ والتعليمِ، والضادُ من أصل حافةِ اللسان وما يليها من الأضراسِ من يمينِ اللسان أو يساره، والظاءُ من طرفِ اللسانِ وأصولِ الثنايا العليا.

(٢٥) ﴿وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٖ﴾ بقول بعضِ المسترقةِ للسمع، وهو نفيٌ لقولهم إنه لكهانةٌ وسحرٌ.

(٢٦) ﴿فَأَيۡنَ تَذۡهَبُونَ﴾ استضلالٌ لهم فيما يسلكونه في أمرِ الرسولِ ﷺ والقرآنِ، كقولك لتارِك الجادَّةِ أين تذهبُ؟

(٢٧) ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ تذكيرٌ لمن يعلمُ.

(٢٨) ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ﴾ بتحري الحقِّ وملازمة الصواب، وإبدالُه من العالمين لأنهم المنتفعونَ بالتذكير.

---

(١) والتعرض لعنوان المصاحبة للتلويح بإحاطتهم بتفاصيل أحواله عليه الصلاة والسلام خبراً وعلمهم بنزاهته عليه السلام عما نسبوه إليه بالكلية (س٩/١١٨).

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٩﴾

(٢٩) ﴿وَمَا تَشَآءُونَ﴾ الاستقامةَ يا مَنْ يشاؤُها. ﴿إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ إلا وقْتَ أنْ يشاء الله مشيئَتَكُم فله الفضلُ والحقُّ عليكم باستقامتِكم. ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ مالكُ الخلقِ كلِّه. قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ التكوير أعاذه الله أن يفضَحَه حين تنتشرُ صحيفتُه»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٢ رقم ٢٨١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الانفطار ترتيبها ٨٢ آياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴿٤﴾ عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا
قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ
مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾ كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ﴿٩﴾

سورة الانفطار مكية[1] وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ انشقَّتْ.

(٢) ﴿وَإِذَا ٱلْكَوَاكِبُ ٱنتَثَرَتْ﴾ تساقطتْ متفرقةً.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ فُتِحَ بعضُها إلى بعض فصار الكلُّ بحراً واحداً.

(٤) ﴿وَإِذَا ٱلْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ قُلِبَ ترابُها وأُخرِجَ موتاها. وقيل إنه مركب من بعثَ وراءَ الإثارةِ كبسمل ونظيرهُ بحثَرَ لفظاً ومعنى.

(٥) ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ من عملٍ أو صدقة. ﴿وَأَخَّرَتْ﴾ من سيئة أو تركةٍ، ويجوز أنْ يُرَادَ بالتأخير التضييعُ وهو جواب إذا.

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ أيُّ شيء خدعك وجرّأك على عصيانِه، وذَكَرَ الكريمَ للمبالغةِ في المنعِ عن الاغترارِ فإن محضَ الكرمِ لا يقتضي إهمالَ الظالمِ وتسويةَ الموالي والمعادي

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٤٥): «وهي مكية بإجماع».

والمطيعِ والعاصي، فكيف إذ انضمَّ إليه صفةُ القهر والانتقام؟ والإشعارِ بما به يغرُّه الشيطانُ؛ فإنه يقول له افعلْ ما شئتَ فربُّكَ كريمٌ لا يعذِّب أحداً ولا يعاجِلُ بالعقوبة، والدلالةِ على أنَّ كثرةَ كرمِه تستدعي الجدَّ في طاعتِه لا الانهماكَ في عصيانه اغتراراً بكرمِه.

(٧) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ صفةٌ ثانية مقررةٌ للربوبية مبينةٌ للكرم منبهةٌ على أن من قَدَرَ على ذلك أولاً قَدَرَ عليه ثانياً، والتسويةُ جعْلُ الأعضاءِ سليمةً مسوَّاةً معدَّةً لمنافِعها، والتعديلُ جعْلُ البِنْيةِ معدلةً متناسبةَ الأعضاءِ، أو معدلةً بما تسعِدُها من القِوى. وقرأ الكوفيون فعَدَلك بالتخفيف أي عَدَلَ بعضَ أعضائِك ببعضٍ حتى اعتدلتْ، أو فصرفَك عن خلقةِ غيرك وميَّزك بخلقةٍ فارقتْ خلقةَ سائرِ الحيوانِ.

(٨) ﴿فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ أي ركَّبك في أي صورة شاءها، وما مزيدةٌ وقيل شرطيةٌ، وركَّبك جوابُها، والظرفُ صلةُ عَدَلَك، وإنما لم يعطفِ الجملةَ على ما قبلَها لأنها بيانٌ لِعَدَلَكَ.

(٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الاغترارِ بكرم الله وقوله: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ إضرابٌ إلى بيان ما هو السببُ الأصلي في اغترارهم، والمرادُ بالدين الجزاءُ أو الإسلامُ.

وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾
يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿١٥﴾ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ﴿١٦﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴿١٨﴾

(١٠) ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ﴾.

(١١) ﴿كِرَامًا كَٰتِبِينَ﴾.

(١٢) ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ تحقيقٌ لما يكذبون به وردٌّ لما يتوقعون من التسامحِ والإهمال، وتعظيمُ الكتبةِ بكونهم كراماً عند الله لتعظيم الجزاءِ.

(١٣) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

(١٤) ﴿وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾[1] بيانٌ لما يكتبون لأجلِه.

(١٥) ﴿يَصْلَوْنَهَا﴾ يقاسُون حرَّها. ﴿يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

(١٦) ﴿وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ﴾ لخلودِهم فيها. وقيل معناه وما يغيبونَ عنها قبلَ ذلك إذ كانوا يجدُون سَمُومَهَا في القبور.

(١٧) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾.

(١٨) ﴿ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ﴾ تعجيبٌ وتفخيمٌ لشأن اليوم، أي كُنْهُ أمرِه بحيث لا تدركُه درايةُ دارٍ.

---

(١) تنكير النعيم والجحيم للتفخيم والتهويل (س٩/ ١٢٢).

يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴿١٩﴾

(١٩) ﴿ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا ۖ وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ﴾ تقريرٌ لشدة هوله وفخامةِ أمره إجمالاً. ورفعَ ابنُ كثير والبصريان يومُ على البدلِ من يوم الدين، أو الخبرِ المحذوفِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ إذا السماء انفطرت كتبَ الله له بعددِ كلِّ قطرةٍ من السماء حسنةً، وبعددِ كلِّ قبر حسنةً»[1]. والله أعلمُ.

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدى عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٢ رقم ٢٨٤).

سُورَةُ المُطَفِّفِين

ترتيبها ٨٣ — آياتها ٣٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ
أُو۟لَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ لَفِى سِجِّينٍ ﴿٧﴾
وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴿٨﴾ كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ ﴿٩﴾

سورة المطففين مختلف فيها[1]، وآيها ست وثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ التطفيف البخس في الكيل والوزن لأن ما يبخس طفيف أي حقير. روي أن أهل المدينة كانوا أخبث الناس كيلاً فنزلت فأحسنوه[2]، وفي الحديث «خمس بخمس ما نقض العهد

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٤٩): «وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا لذكر الأساطير، وهذا على أن هذا تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسبما هو في كل أمة ولا سيما مع كفرهم.
وقال ابن عباس والسدي والنقاش وغيره: السورة مدنية. قال السدي: كان بالمدينة رجل يكنى أبا جهينة له مكيالان يأخذ بالأوفى ويعطى بالأنقص فنزلت السورة فيه.
يقال إنها أول سورة نزلت بالمدينة. وقال ابن عباس أيضاً فيما روى عنه: نزل بعضها بمكة ونزل أم التطفيف بالمدينة، لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى فأصلحهم الله تعالى بهذه السورة، وقال آخرون: نزلت السورة بين مكة والمدينة، وذلك ليصلح الله أمرهم قبل ورود رسوله عليهم» هـ.

(٢) أخرج النسائي في «تفسيره» (رقم: ٦٧٤) وابن ماجة (٢/٧٤٨ رقم ٢٢٢٣) عن ابن عباس، قال: لما قدم نبي الله ﷺ المدينة فكانوا من أخبثِ الناس كيلاً فأنزل الله عز وجل «ويل للمطففين» فحسنوا الكيل بعد ذلك» وإسناده حسن.
وانظر «الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان» تخريج الشيخ شعيب (١١/٢٨٦).

قوم إلا سلط الله عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا الكيل إلا منعوا النبات وأُخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»(١).

(٢) ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكۡتَالُواْ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسۡتَوۡفُونَ﴾ أي إذا اكتالوا من الناس حقوقهم يأخذونها وافية، وإنما أبدل على بمن للدلالة على أن اكتيالهم لما لهم على الناس، أو اكتيال يتحامل فيه عليهم.

(٣) ﴿وَإِذَا كَالُوهُمۡ أَو وَّزَنُوهُمۡ﴾ أي إذا كالوا الناس أو وزنوا لهم. ﴿يُخۡسِرُونَ﴾ فحذف الجار وأوصل الفعل كقوله: وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكمؤاً وَعَساقلا(٢).

بمعنى جنيت لك، أو كالوا مكيلهم فحذف المضاف وأقيم المضاف مقامه، ولا يحسن جعل المنفصل تأكيداً للمتصل فإنه يخرج الكلام عن مقابلة ما قبله إذ المقصود بيان اختلاف حالهم في الأخذ والدفع لا في المباشرة وعدمها، ويستدعي إثبات الألف بعد الواو كما هو خط المصحف في نظائره.

(٤) ﴿أَلَا يَظُنُّ أُوْلَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ﴾ فإن من ظن ذلك لم يتجاسر على أمثال هذه القبائح، فكيف بمن تيقنه؟ وفيه إنكار وتعجيب من حالهم.

(٥) ﴿لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ عظّمه لعظم ما يكون فيه.

(٦) ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ﴾ نُصب بمبعوثين أو بدلَ من الجار والمجرور، ويؤيده القراءة بالجر ﴿لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ لحكمه. وفي هذا الإنكارِ والتعجيبِ وذكرِ الظن ووصفِ اليوم بالعِظم وقيامِ الناس فيه لله والتعبيرِ عنه بربِّ العالمين مبالغاتٌ في المنعِ عن التطفيف وتعظيمُ إثمِه.

(٧) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ عن التطفيف والغفلةِ عن البعثِ والحسابِ. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلۡفُجَّارِ﴾ ما يُكْتَبُ من أعمالهم أو كتابةُ أعمالهم. ﴿لَفِي سِجِّينٖ﴾ كتابٌ جامعٌ لأعمال الفجرةِ من الثَّقَلَيْنِ كما قال:

(٨) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ﴾.

(٩) ﴿كِتَٰبٞ مَّرۡقُومٞ﴾ أي مسطورٌ بين الكتابةِ أو معلَّمٌ يعلَمُ مَنْ رآه أنه لا خيرَ فيه، فعيلٌ من السجنِ لُقِّبَ به الكتابُ لأنه سببُ الحبسِ، أو لأنه مطروحٌ كما قيل: تحتَ الأرضينَ في مكانٍ وحشٍ، وقيل

---

(١) وهو حديث حسن بشواهده.

● أخرجه الحاكم (٢/ ١٢٦) من حديث بريده. وقال الحاكم صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الترغيب» (١/ ٣٢٠).

● وأخرجه الحاكم (٤/ ٥٤٠) وابن ماجة (٢/ ١٣٣٢ رقم ٤٠١٩) من حديث عبدالله بن عمر. وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

● وأخرجه الطبراني في الكبير (١١/ ٤٥ رقم ١٠٩٩٢) من حديث ابن عباس.

وأورده الهيثمي في «المجمع» (٣/ ٦٥) وقال: «فيه إسحاق بن عبدالله بن كيسان المروزي لينه الحاكم، وبقية رجاله موثقون وفيهم كلام» هـ.

والخلاصة أن الحديث يرتقي إلى درجة الحسن والله أعلم.

(٢) من الكامل.

هو اسمُ مكان والتقديرُ ما كتابُ السجين، أو محلُّ كتابٍ مرقوم فحذفَ المضافَ.

وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿١١﴾ وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ
أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ
لَصَالُوا الْجَحِيمِ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ بالحقِّ أو بذلك.

(١١) ﴿الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ﴾ صفةٌ مخصِّصة أو موضِّحةٌ أو ذامَّةٌ.

(١٢) ﴿وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ﴾ متجاوزٍ عن النظر غالٍ في التقليدِ حتى استقصرَ قدرةَ الله تعالى وعِلْمَه فاستحالَ منه الإعادةُ. ﴿أَثِيمٍ﴾ منهمكٍ في الشهواتِ المخدجة[1] بحيث أشغلَته عما وراءَها وحملتْه على الإتقانِ لما عداهُ.

(١٣) ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ من فَرْطِ جهلِه وإعراضِه عن الحقِّ فلا تنفعه شواهدُ النقلِ كما لم تنفعْه دلائلُ العقلِ.

(١٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن هذا القولِ. ﴿بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ ردٌّ لما قالوه وبيانٌ لما أدى بهم إلى هذا القولِ، بأنْ غلبَ عليهم حبُّ المعاصي بالانهماكِ فيها حتى صارَ ذلك صدأً على قلوبهم فعمَّى عليهم معرفةَ الحقِّ والباطلِ، فإنَّ كثرةَ الأفعال سببٌ لحصولِ الملكاتِ كما قال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ العبدَ كلما أذنبَ ذنباً حصلَ في قلبه نكتةٌ سوداءُ حتى يسودَّ قلبُه»[2] والرَّيْنُ الصدأُ، وقرأ حفصٌ بلْ رانَ بإظهارِ اللامِ.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ عن الكسبِ الرائنِ. ﴿إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ﴾ فلا يرونَه بخلافِ المؤمنينَ. ومن أنكرَ الرؤيةَ جعلَه تمثيلاً لإهانتِهم بإهانة من يُمْنَعُ عن الدخولِ على الملوك، أو قدَّر مضافاً مثلَ رحمةِ ربِّهم. أو قربِ ربِّهم.

(١٦) ﴿ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ﴾ ليدخلونَ النارَ ويصلَون بها.

---

(١) الشهوات المخدجة أي الناقصة ويراد بها شهوات الدنيا. والخداج النقص، وفي الحديث: «كل صلاة لا يقرأ فيها بأم الكتاب فهي خداج» أي نقصان (مختار الصحاح مادة خدج).

(٢) وهو حديث حسن.
أخرجه أحمد في المسند (٢/٢٩٧) والترمذي (٥/٤٣٤ رقم ٣٣٤٥) وابن ماجة (٢/١٤١٨ رقم ٤٢٤٤) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٩٨) والحاكم (٢/٥١٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة (رقم: ٤١٨) وابن حبان في 'الإحسان (٣/٢١٠ رقم ٩٣٠) من حديث أبي هريرة.
قال الترمذي: حديث حسن صحيح.
وقال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي. وحسنه الألباني في صحيح الجامع.

ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ﴿١٨﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ ﴿١٩﴾ كِتَٰبٌ
مَّرْقُومٌ ﴿٢٠﴾ يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُومٍ ﴿٢٥﴾ خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ ۚ وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمِزَاجُهُۥ مِن
تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ﴾ تقوله لهم الزبانيةُ.

(١٨) ﴿كَلَّآ﴾ تكرير ليعقبَ بوعدِ الأبرارِ كما عقَّب الأولَ بوعيدِ الفجارِ إشعاراً بأنَّ التطفيفَ فجورٌ والإيفاءَ برٌّ، أو ردعٌ عن التكذيب. ﴿إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ﴾.

(١٩) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ﴾.

(٢٠) ﴿كِتَٰبٌ مَّرْقُومٌ﴾ الكلامُ فيه ما مرَّ في نظيره[١].

(٢١) ﴿يَشْهَدُهُ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ يحضرونه فيحفظُونه، أو يشهدون على ما فيه يومَ القيامة.

(٢٢) ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾.

(٢٣) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾ على الأسرَّةِ في الحِجَالِ. ﴿يَنظُرُونَ﴾ إلى ما يسردُه من النعمِ والمتفرّجاتِ.

(٢٤) ﴿تَعْرِفُ فِى وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ ٱلنَّعِيمِ﴾ بهجةَ التنعمِ وبريقَه، وقرأ يعقوب تُعْرَفُ على البناءِ للمفعولِ ونضرةُ بالرفعِ.

(٢٥) ﴿يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ﴾ شرابٍ خالصٍ. ﴿مَّخْتُومٍ﴾.

(٢٦) ﴿خِتَٰمُهُۥ مِسْكٌ﴾ أي مختومٌ أوانيه بالمسكِ مكانَ الطينِ، ولعلَّه تمثيلٌ لنفاسَتِهِ، أو الذي له ختامٌ أي مقطعٌ هو رائحةُ المسكِ، وقرأ الكسائيُّ خاتَمهُ بفتح التاءِ أي ما يُخْتَمُ به ويُقْطَعُ. ﴿وَفِى ذَٰلِكَ﴾ يعني الرحيقَ أو النعيمَ. ﴿فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ﴾ فليرتَغِبِ المرتغبونَ.

(٢٧) ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ﴾ عَلَمٌ لعينٍ بعينها سُمِّيَتْ تسنيماً لارتفاعِ مكانِها أو رفعةِ شرابها.

(٢٨) ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ فإنَّهم يشربونها صِرْفاً لأنهم لم يشتغلوا بغير الله، وتُمْزَجُ لسائرِ أهلِ الجنة، وانتصابُ عيناً على المدحِ أو الحالِ من تسنيمٍ والكلامُ في الباءِ كما في ﴿يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾[٢].

(٢٩) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟﴾ يعني رؤساءَ قريش. ﴿كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ﴾ كانوا يستهزئون بفقراءِ المؤمنين.

---

(١) الآية «٩» من سورة المطففين.
(٢) الآية «٦» من سورة الإنسان.
والباء فيها إما مزيدة أو بمعنى من.

وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ
لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾ فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ
يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾

(٣٠) ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾ يغمزُ بعضُهم بعضاً ويشيرون بأعينِهم.

(٣١) ﴿وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُوا۟ فَكِهِينَ﴾ متلذذينَ بالسخريةِ منهم، وقرأ حفص فكِهِيْنَ.

(٣٢) ﴿وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓا۟ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ وإذا رأوا المؤمنينَ نسبوهم إلى الضلال.

(٣٣) ﴿وَمَآ أُرْسِلُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ على المؤمنين. ﴿حَٰفِظِينَ﴾ يحفظون عليهم أعمالَهم ويشهدون برشْدِهم وضلالهم.

(٣٤) ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ﴾ حين يرونَهم أذلاَّءَ مغلوبينَ في النار. وقيل يُفْتَحُ لهم بابٌ إلى الجنة فيقال لهم اخرُجوا إليها، فإذا وصلُوا أُغْلِقَ دونَهم فيضحكُ المؤمنون منهم.

(٣٥) ﴿عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ﴾ حالٌ من يضحكونَ.

(٣٦) ﴿هَلْ ثُوِّبَ ٱلْكُفَّارُ﴾ أي هل أُثِيْبُوا. ﴿مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ وقرأ حمزة والكسائيُّ بإدغام اللامِ في الثاء. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ المطففينَ سقاه الله من الرحيقِ المختومِ يومَ القيامة»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٣ رقم ٢٩٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الانشقاق

ترتيبها ٨٤ آياتها ٢٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴿١﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٤﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٥﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾

سورة الانشقاق مكية[١] وآيها خمس وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ بالغمام كقوله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ﴾[٢] وعن علي[٣] رضي الله تعالى عنه: تنشق من المجرة.

(٢) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ واستمعت له أي انقادت لتأثير قدرته حين أراد انشقاقها انقياد المطواع الذي يأذن للآمر ويذعن[٤] له. ﴿وَحُقَّتْ﴾ وجعلت حقيقة بالاستماع والانقياد. يقال: حق بكذا فهو محقوق وحقيق.

(٣) ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ بسطت بأن تزال جبالها وآكامها.

(٤) ﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾ ما في جوفها من الكنوز والأموات ﴿وَتَخَلَّتْ﴾ وتكلّفت في الخلوّ أقصى جهدِها حتى لم يبقَ شيء في باطنها.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٦٠): «وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين».

(٢) الفرقان: «٢٥».

(٣) ذكره الماوردي في تفسيره (٦/ ٢٣٣) عنه بدون سند.

(٤) والتعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إليها للإشعار بعلة الحكم (س٩/ ١٣١).

(٥) ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا﴾ في الإلقاءِ والتخلي. ﴿وَحُقَّتْ﴾ للإذنِ. وتكريرُ إذا لاستقلال كلٍّ من الجملتين بنوعٍ من القدرةِ، وجوابه محذوفٌ للتهويل بالإبهام أو الاكتفاءِ بما مرَّ في سورتي التكوير والانفطار أو لدلالةِ قوله:

(٦) ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ عليه وتقديرُه لاقَى الإنسانُ كدْحَه أي جهداً يؤثرُ فيه من كَدَحَهُ إذا خَدَشَهُ، أو فملاقيه ويٰأيـها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك اعتراضٌ، والكدحُ إليه السعيُ إلى لقاء جزائِه.

(٧) ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ﴾.

(٨) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ سهلاً لا يُنَاقَشُ فيه.

وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿٩﴾ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا ﴿١٣﴾ إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ ﴿١٤﴾ بَلَىٰٓ إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا ﴿١٥﴾ فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾

(٩) ﴿وَيَنقَلِبُ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ مَسْرُورًا﴾ إلى عشيرته المؤمنين، أو فريقِ المؤمنين، أو أهله في الجنةِ من الحورِ.

(١٠) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ أي يُؤْتَى كتابَه بشمالِه من وراء ظهرِه. قيل تُغَلُّ يُمْنَاهُ إلى عُنُقِهِ وتُجْعَلُ يسراهُ وراءَ ظهرِه.

(١١) ﴿فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا﴾ يتمنَّى الثُّبورَ ويقول يا ثبوراهُ وهو الهلاكُ.

(١٢) ﴿وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا﴾ وقرأ الحجازيانِ والشاميُّ ويُصَلَّىٰ لقوله تعالى ﴿وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾[١] وقرىء ويُصْلىٰ لقوله تعالى ﴿وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ﴾[٢].

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فِىٓ أَهْلِهِۦ﴾ أي في الدنيا. ﴿مَسْرُورًا﴾ بطِراً بالمالِ والجاهِ فارغاً عن الآخرة.

(١٤) ﴿إِنَّهُۥ ظَنَّ أَن لَّن يَحُورَ﴾ لن يرجعَ إلى الله تعالى.

(١٥) ﴿بَلَىٰٓ﴾ إيجابٌ لما بعدَ لن. ﴿إِنَّ رَبَّهُۥ كَانَ بِهِۦ بَصِيرًا﴾ عالماً بأعماله فلا يهملُه بل يرجِعُه ويجازيه.

(١٦) ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ﴾ الحمرةِ التي تُرَى في أُفُقِ المغربِ بعدَ الغروب. وعن أبي حنيفةَ رحمه الله تعالى: أنه البياضُ الذي يليها، سُمِّي به لرقَّته من الشفقةِ.

(١٧) ﴿وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ﴾ وما جَمَعَهُ وسَتَرَهُ من الدوابِّ وغيرها يُقَالُ: وسقَه فاتَّسق واستوسقَ، قال:

---

(١) الواقعة: «٩٤».
(٢) النساء: «١١٥».

مُسْتَوْسِقَاتٍ لَوْ يَجِدْنَ سَائِقاً، أو طَرَدَه إلى أماكنِه من الوسيقةِ.

وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ ﴿١٩﴾ فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا
يَسْجُدُونَ ۩ ﴿٢١﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ ﴿٢٢﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٢٣﴾ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ إِلَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ ﴿٢٥﴾

(١٨) ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ﴾ اجتمعَ وتمَّ بدْراً.

(١٩) ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ حالاً بعدَ حالٍ مطابقةً لأختِها في الشدةِ، وهو لما طابقَ غيرَه فقيلَ للحال المطابقةُ، أو مراتبَ من الشدةِ بعدَ المراتب هي الموتُ ومواطنُ القيامة وأهوالُها، أو هي وما قبلَها من الدواهي على أنه جمع طبقةٍ. وقرأ ابنُ كثير وحمزة والكسائيُّ لتركَبَنَّ بالفتح على خطابِ الإنسان باعتبارِ اللفظ، أو الرسولِ عليه الصلاة والسلام على معنى لتركبنَّ حالاً شريفةً ومرتبةً عاليةً بعدَ حالٍ ومرتبةٍ، أو طَبَقاً من أطباقِ السماء بعدَ طبق ليلةَ المعراج وبالكسرِ على خطابِ النفس، وبالياءِ على الغيبة، وعن طبقٍ صفةٌ لطبقاً أو حالٌ من الضمير بمعنى مجاوزِ الطبقِ أو مجاوزينَ له.

(٢٠) ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بيومِ القيامة.

(٢١) ﴿وَإِذَا قُرِئَ عَلَيْهِمُ ٱلْقُرْءَانُ لَا يَسْجُدُونَ ۩﴾ لا يخضَعون أو لا يسجدون لتلاوته. لما رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام قرأ ﴿وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩﴾[(١)] فسجدَ بمن معه من المؤمنينَ وقريشٌ تصفقُ فوقَ رؤوسهم، فنزلتْ[(٢)]. واحتجَّ به أبو حنيفة على وجوب السجودِ فإنه ذمٌّ لمن سمعَه ولم يسجدْ. وعن أبي هريرةَ رضيَ الله تعالى عنه أنه سجدَ فيها وقال: واللهِ ما سجدتُ فيها إلا بعدَ أنْ رأيتُ رسولَ الله ﷺ يسجدُ فيها[(٣)].

(٢٢) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُكَذِّبُونَ﴾ أي بالقرآنِ.

(٢٣) ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ﴾ بما يضمِرون في صدورهم من الكفرِ والعداوةِ.

(٢٤) ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ استهزاءٌ بهم.

(٢٥) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ استثناءٌ منقطعٌ أو متصلٌ، والمرادُ مَنْ تاب وآمنَ منهم. ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍۭ﴾ مقطوعٍ أو ممنونٍ به عليهم. وعن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الانشقاقِ أعاذه الله أنْ يعطيه كتابَه وراءَ ظهْرِه»[(٤)].

---

(١) العلق: «١٩».
(٢) قال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص١٨٣ رقم ٢٩٣): لم أجده.
(٣) أخرجه البخاري (٢/٥٥٩ رقم ١٠٧٨) ومسلم (١/٤٠٧ رقم ٥٧٨) عنه بمعناه.
(٤) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي، وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٣ رقم ٢٩٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ البُرُوجِ

ترتيبها ٨٥ — آياتها ٢٢

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ ﴿١﴾ وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ ﴿٢﴾ وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ ﴿٣﴾ قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ ﴿٤﴾ ٱلنَّارِ ذَاتِ ٱلْوَقُودِ ﴿٥﴾
إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴿٦﴾ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴿٧﴾ وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلَّآ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ
ٱلْحَمِيدِ ﴿٨﴾ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٩﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُواْ ٱلْمُؤْمِنِينَ
وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُواْ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾

سورة البروج مكية[1] وآيها اثنتان وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ يعني البروجَ الاثني عشرَ شبِّهتْ بالقصور لأنها تنزلها السياراتُ وتكون فيها الثوابتُ، أو منازلَ القمرِ أو عظامَ الكواكبِ سمِّيتْ بروجاً لظهورِها، أو أبوابَ السماء فإنَّ النوازلَ تخرجُ منها، وأصلُ التركيب للظهورِ.

(٢) ﴿وَٱلْيَوْمِ ٱلْمَوْعُودِ﴾ يوم القيامةِ.

(٣) ﴿وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ﴾ ومَنْ يشهدُ في ذلك اليوم من الخلائقِ وما أُحضِرَ فيه من العجائب، وتنكيرهُما للإبهام في الوصفِ أي وشاهدٍ ومشهودٍ لا يُكْتَنَهُ وصفُهما، أو المبالغةِ في الكثرة كأنه قيل: ما أفرطت كثرتُه من شاهد ومشهود، أو النبيُّ عليه الصلاة والسلام وأُمَّتُه، أو أمَّتُه وسائرَ الأمم، أو كلُّ نبيٍّ وأمَّتُهُ، أو الخالِقُ والخلْقُ، أو عكسه فإنَّ الخالقَ مطَّلِعٌ على خلْقِه وهو شاهدٌ على وجوده، أو المَلَكُ الحفيظُ والمكلَّفُ، أو يومُ النحرِ، أو عرفةُ والحجيجُ، أو يومُ الجمعة والجمَعُ فإنه يشهدُ له أو كلُّ يومٍ وأهلَه.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٢٦٧): «وهي مكية بإجماع من المتأولين لا خلاف في ذلك».

(٤) ﴿قُتِلَ أَصْحَٰبُ ٱلْأُخْدُودِ﴾ قيل إنه جوابُ القسم على تقدير لقدْ قُتِلَ، والأظهرُ أنه دليلُ جوابٍ محذوف كأنه قيل إنهم ملعونون يعني كفارَ مكّة كما لَعَنَ أصحابَ الأخدودِ، فإنَّ السورةَ وردتْ لتثبيتِ المؤمنين على أذاهم وتذكيرهم بما جرى على مَنْ قبلَهم، والأخدودُ الخدُّ وهو الشقُّ في الأرض ونحوُهما بناءً ومعنىً. الحقُّ والأُحقوقُ. روي مرفوعاً: أن ملِكاً كان له ساحر فلما كبرُ ضمَّ إليه غلاماً ليعلِّمه، وكان في طريقه راهبٌ فمال قلبُه إليه، فرأى في طريقه ذاتَ يوم حيةً قد حبستِ الناسَ فأخذ حجراً وقال: اللَّهمَّ إن كان الراهبُ أحبَّ إليه من الساحرِ فاقتلْها فقتلَها، وكان الغلام بَعْدُ يبرىءُ الأكمهَ والأبرصَ ويشفي من الأدواءِ، وعميَ جليسُ الملِك فأبرأَه، فسأله الملكَ عمَّن أبرأه فقال ربي فغضبَ فعذَّبه فدلَّ على الغلام فعذَّبه، فدلَّ على الراهبِ فقدَّه بالمنشارِ، وأرسل الغلامَ إلى جبلٍ ليُطْرَحَ من ذُرْوَتِهِ، فدَعا فرجفَ بالقوم فهلكوا ونَجَا، وأجلسَه في سفينة ليغرقَ فدعا فانكفأَتِ السفينةُ بمن معه فغرقوا ونَجَا، فقال للملِك لستَ بقاتلي حتى تجمعَ الناسَ وتصلُبَني وتأخذَ سهماً من كنانتي وتقول: بسم اللهِ ربِّ هذا الغلام، ثم ترميني به فرماه فوقعَ في صدغه فماتَ، فآمن الناسُ بربِّ الغلام، فأمر بأخاديدَ وأوقدتْ فيها النيرانُ، فمن لم يرجعْ منهم طرحَه فيها حتى جاءتِ امرأةٌ معها صبيٌّ فتقاعستْ فقال الصبيُّ: يا أماه اصبري فإنكِ على الحقِّ فاقتحمتْ[١]. وعن علي رضي الله تعالى عنه: كان بعضُ ملوك المجوسِ خطبَ الناسَ وقال: إن الله أحلَّ نكاح الأخواتِ فلم يقبلُوه، فأمر بأخاديدِ النارِ فطَرَحَ فيها مَنْ أبى[٢]. وقيل لما تنصَّر نجرانُ غزاهم ذو نواسٍ اليهوديُّ من حِمْيَرَ فأحرقَ في الأخاديدِ مَنْ لم يرتدَّ.

(٥) ﴿ٱلنَّارِ﴾ بدلٌ من الأخدود بدلَ الاشتمالِ. ﴿ذَاتِ ٱلْوَقُودِ﴾ صفةٌ لها بالعظمة وكثرةِ ما يرتفعُ به لهبُها، واللامُ في الوقود للجنسِ.

(٦) ﴿إِذْ هُمْ عَلَيْهَا﴾ على حافةِ النار. ﴿قُعُودٌ﴾ قاعدون.

(٧) ﴿وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾ يشهدُ بعضُهم لبعضٍ عند الملك بأنهم لم يقصِّروا فيما أُمِرُوا به، أو يشهدون على ما يفعلون يومَ القيامة حين تشهدُ عليهم ألسنتُهم وأيديهم.

(٨) ﴿وَمَا نَقَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ وما أنكروا. ﴿إِلَّآ أَن يُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ استثناءٌ على طريقة قولِه:

وَلاَ عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنَّ سُيُوفَهُمْ بِهِنَّ فُلُولٌ مِنْ قِراعِ الكتائبِ

ووصْفُه بكونه عزيزاً غالباً يُخْشَى عقابُه حميداً منعِماً يُرْجَى ثوابُه وقرّر ذلك بقوله:

(٩) ﴿ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ للإشعارِ بما يستحقُّ أنْ يُؤْمَنَ به ويُعْبَدَ.

(١٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بَلَوْهُم بالأذى. ﴿ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ بِكفرهم. ﴿وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ﴾ العذابُ الزائدُ في الإحراق بفتنتهم. بلِ المرادُ بالذين فتنوا أصحابَ الأخدودِ وبعذابِ الحريق ما روي أنَّ النارَ انقلبتْ عليهم فأحرقَتْهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢٢٩٩ رقم ٣٠٠٥) عن صهيب.
(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ج٣٠/١٣٢).

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ ﴿١١﴾ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ
لَشَدِيدٌ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٦﴾ هَلْ أَتَىٰكَ
حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ ﴿١٧﴾ فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ ﴿١٨﴾ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ ﴿١٩﴾ وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ ﴿٢٠﴾ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ
مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾

(١١) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ لَهُمْ جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْكَبِيرُ﴾ إذِ الدنيا وما فيها تصغُر دونه[1].

(١٢) ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ مضاعَفٌ عنفُه فإنَّ البطشَ أَخذٌ بعنفٍ.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ﴾ يبدئُ الخلقَ ويعيده، أو يبدىء البطشَ بالكفرةِ في الدنيا ويعيدُه في الآخرة.

(١٤) ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تابَ. ﴿ٱلْوَدُودُ﴾ المحبُّ لمن أطاعَ.

(١٥) ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ﴾ خالقُه، وقيل المراد بالعرشِ الملْكُ، وقرىء ذي العرش صفةٌ لربِّك. ﴿ٱلْمَجِيدُ﴾ العظيمُ في ذاته وصفاته، فإنه واجبُ الوجود تامُّ القدرةِ والحكمةِ، وجرَّه حمزةُ والكسائي صفةً لربِّك، أو للعرشِ، ومجدُه علوُّه وعظمتُه.

(١٦) ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ لا يمتنعُ عليه مرادٌ من أفعاله وأفعالِ غيرِه.

(١٧) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْجُنُودِ﴾.

(١٨) ﴿فِرْعَوْنَ وَثَمُودَ﴾ أبدلَهما من الجنودِ لأن المرادَ بفرعونَ هو وقومُه، والمعنى قد عرفت تكذيبهم للرسلِ وما حاقَ بهم فتسلَّ واصبرْ على تكذيب قومِك وحذِّرهم مثلَ ما أصابَهم.

(١٩) ﴿بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى تَكْذِيبٍ﴾ لا يَرْعَوُوْنَ عنه، ومعنى الإضرابِ أنَّ حالَهم أعجبُ من حالِ هؤلاء فإنهم سمعوا قصَّتَهم ورأوا آثارَ هلاكِهم وكذَّبوا أشدَّ من تكذيبهم.

(٢٠) ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ لا يفوتونه كما لا يفوتُ المحاطُ المحيطَ.

(٢١) ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾ بل هذا الذي كذَّبوا به كتابٌ شريف وحيدٌ في النظم والمعنى، وقرىء قرآنُ مجيدٍ بالإضافةِ أي قرآنُ ربٍّ مجيدٍ.

---

(١) التذكير في «ذلك» للإشعار بأن مدار الحكم عنوانها الذي يتنافس فيها المتنافسون، فإن اسم الإشارة متعرض لذات المشار إليه من حيث اتصافه بأوصافه المذكورة، لا لذاته فقط كما هو شأن الضمير فإذا أشير إلى الجنات من حيث ذكرها فقد اعتبر معها عنوانها المذكور حتماً.
وما فيه من معنى البعد للإيذان بعلو درجته وبعد منزلته في الفضل والشرف (س٩/١٣٨).

(٢٢) ﴿فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ من التحريفِ، وقرأ نافع محفوظٌ بالرفع صفةٌ للقرآن، وقرىء في لوح وهو الهواءُ يعني ما فوقَ السماء السابعة الذي فيه اللوحُ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ البروج أعطاه الله بعددِ كل جمعةٍ وعَرَفَةٍ تكون في الدنيا عشرَ حسناتٍ»[1].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٣ رقم ٣٠٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الطَّارِقِ

ترتيبها ٨٦ — آياتها ١٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ﴿٢﴾ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ
خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾ إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ ﴿٨﴾ يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ ﴿٩﴾ فَمَا لَهُۥ
مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ ﴿١٠﴾ وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ ﴿١١﴾ وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ ﴿١٢﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ﴿١٣﴾ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ ﴿١٤﴾ إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ
كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا ﴿١٧﴾

سورة الطارق مكية[1] وآيها سبع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ والكوكبِ البادي بالليلِ وهو في الأصل لسالكِ الطريق، واختصَّ عُرْفاً بالآتي ليلاً ثم استُعْمِل للبادي فيه.

(٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ﴾.

(٣) ﴿ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ﴾ المضيءُ كأنه يثقبُ الظلامَ بضوئه فينفذُ فيه أو الأفلاكَ، والمرادُ الجِنسُ أو معهودٌ بالثقبِ وهو زُحَلُ عبَّر عنه أولاً بوصفٍ عام ثم فسَّره بما يخصُّه تفخيماً لشأنه.

(٤) ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا﴾ أي إنَّ الشأنَ كلُّ نفس لَعَلَيْهَا. ﴿حَافِظٌ﴾ رقيبٌ فإنْ هي المخففةُ واللامُ الفاصلةُ وما مزيدةٌ. وقرأ ابنُ عامر وعاصمٌ وحمزةُ لما على أنها بمعنى الأوانِ نافيةٌ، والجملةُ على الوجهين جوابُ القسم.

(٥) ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ﴾ لما ذَكَرَ أنَّ كلَّ نفس عليها حافظٌ أتبعه توصيةَ الإنسان بالنظرِ في

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٧٤): «وهي مكية لا خلاف بين المفسرين في ذلك» هـ.

مبدئه ليعلمَ صحةَ إعادته فلا يملي على حافظهِ إلا ما يسرُّه في عاقبتِهِ.

(٦) ﴿خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ﴾ جوابُ الاستفهام وماءٌ دافقٌ بمعنى ذي دفْقٍ، وهو صبٌّ فيه دفعٌ، والمرادُ الممتزِجُ من الماءين في الرحم لقوله:

(٧) ﴿يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ من بين صلبِ الرجلِ وترائبِ المرأةِ وهي عظامُ صدرها، ولو صحَّ أن النطفةَ تتولَّد من فضلِ الهضمِ الرابعِ وتنفصلُ عن جميعِ الأعضاءِ حتى تستعدَّ لأنْ يتولَّدَ منها مثلُ تلك الأعضاء، ومقرُّها عروقٌ ملتفٌّ بعضُها بالبعضِ عند البَيضتينِ، فلا شكَّ أن الدماغ أعظمَ الأعضاء معونةً في توليدها، ولذلك تشبههُ، ويسرعُ الإفراطُ في الجماعِ بالضعفِ فيه وله خليفةٌ وهو النخاعُ! وهو في الصلبِ وشعبٌ كثيرة نازلةٌ إلى الترائب، وهما أقربُ إلى أوعية المنيِّ فلذلك خُصَّا بالذِّكْرِ. وقرىء الصَلَبُ بفتحينِ والصُّلُبُ بضمتينِ وفيه لغةٌ رابعة وهي صالبٌ.

(٨) ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ رَجْعِهِۦ لَقَادِرٌ﴾ والضميرُ للخالقِ ويدلُّ عليه خلقَ.

(٩) ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ تتعرفُ ويميزُ بينَ ما طابَ من الضمائر وما خفيَ من الأعمال وما خبُثَ منها، وهو ظرف لرجْعِهِ.

(١٠) ﴿فَمَا لَهُۥ﴾ فما للإنسان. ﴿مِن قُوَّةٍ﴾ من مَنَعَةٍ في نفسه يمتنعُ بها. ﴿وَلَا نَاصِرٍ﴾ يمنعه.

(١١) ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجْعِ﴾ ترجعُ في كلِّ دورة إلى الموضعِ الذي تتحرَّك عنه، وقيل الرجعُ المطرُ سُمِّيَ به كما سُمِّيَ أوْباً لأنَّ الله يرجِعُه وقتاً فوقتاً، أو لما قيلَ من أنَّ السحابَ يحمِلُ الماءَ من البحارِ ثم يرجعهُ إلى الأرض، وعلى هذا يجوز أنْ يُرَادَ بالسماء السحابُ.

(١٢) ﴿وَٱلْأَرْضِ ذَاتِ ٱلصَّدْعِ﴾ ما تتصدَّع عنه الأرضُ من النبات أو الشقِّ بالنباتِ والعيونِ.

(١٣) ﴿إِنَّهُۥ﴾ إنَّ القرآنَ. ﴿لَقَوْلٌ فَصْلٌ﴾ فاصلٌ بين الحق والباطلِ.

(١٤) ﴿وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ فإنه جِدٌّ كلُّه.

(١٥) ﴿إِنَّهُمْ﴾ يعني أهلَ مكَّةَ. ﴿يَكِيدُونَ كَيْدًا﴾ في إبطالِه وإطفاءِ نورهِ.

(١٦) ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ وأقابلُهم بكيدٍ في استدراجي لهم وانتقامي منهم من حيثُ لا يحتسبونَ.

(١٧) ﴿فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ فلا تشتغلْ بالانتقامِ منهم، أو لا تستعجلْ بإهلاكِهم. ﴿أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾ إمهالاً يسيراً. والتكريرُ وتغييرُ البنيةِ لزيادة التسكينِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الطارقِ أعطاه الله بكلِّ نجمٍ في السماء عشرَ حسناتٍ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٣ رقم ٣٠٣).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الأَعْلَى

ترتيبها ٨٧ — آياتها ١٩

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً
أَحْوَىٰ ﴿٥﴾ سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ ﴿٧﴾ وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٨﴾ فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ
ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٩﴾ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾

سورة الأعلى مكية[١] وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ نزِّه اسْمَهُ عن إلحادٍ فيه بالتأويلاتِ الزائغةِ وإطلاقِه على غيره زاعماً أنهما فيه سواءٌ وذِكْرِه لاعلى وجهِ التعظيم، وقرىء سبحانَ ربِّيَ الأعلى. وفي الحديث لما نزلتْ ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾[٢] قال عليه الصلاة والسلام «اجعلُوها في ركوعِكم»، فلما نزلتْ ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾[٣] قال عليه الصلاة والسلام «اجعلوها في سجودِكم»[٤] وكانوا يقولون في الركوع

---

(١) قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/١٣): «مكية في قول الجمهور. وقال الضحاك: مدنية» هـ.

(٢) الواقعة: «٧٤».

(٣) الأعلى: «١».

(٤) وهو حديث ضعيف.
أخرجه أبو داود (١/٥٤٢ رقم ٨٦٩) وابن ماجة (١/٢٨٧ رقم ٨٨٧) وأحمد (٤/١٥٥) والحاكم (١/٢٢٥) و(٢/٤٧٧) والبيهقي (٢/٨٦) وغيرهم من حديث عقبة بن عامر.
قال الحاكم: صحيح. وقد اتفقا على الاحتجاج برواته غير إياس بن عامر وهو مستقيم الإسناد ورده الذهبي بقوله: إياس ليس بالمعروف ووافقه الألباني في الإرواء (٢/٤١).

اللهم لك ركعتُ، وفي السجود اللهم لك سجدتُ.

(٢) ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ خلق كلَّ شيء فسوَّى خلْقه بأنْ جعلَ له ما به يتأتَّى كمالُه ويتمُّ معاشُه.

(٣) ﴿وَٱلَّذِى قَدَّرَ﴾ أي قدَّر أجناسَ الأشياءِ وأنواعَها وأشخاصَها ومقاديرَها وصفاتِها وأفعالَها وآجالَها. ﴿فَهَدَىٰ﴾ فوجَّهَهُ إلى أفعاله طبعاً واختياراً بخلقِ الميولِ والإلهاماتِ ونصْبِ الدلائلِ وإنزالِ الآياتِ.

(٤) ﴿وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ﴾ أنبتَ ما ترعاه الدوابُّ.

(٥) ﴿فَجَعَلَهُۥ﴾ بعد خضرته. ﴿غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ يابساً أسودَ. وقيل أحوى حالٌ من المرعَى أي أخرجَه أحْوى أي أسودَ من شدةِ خُضْرَتِه.

(٦) ﴿سَنُقْرِئُكَ﴾ على لسانِ جبريلَ عليه الصلاة والسلام، أو سنجعلُك قارئاً بإلهام القراءةِ ﴿فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ أصلاً من قوة الحفظِ مع أنك أميٌّ ليكون ذلك آيةً أخرى لك مع أنَّ الإخباريةَ عما يُسْتَقْبَلُ ووقوعُه كذلك أيضاً من الآياتِ، وقيل نهيٌ والألفُ للفاصلةِ كقوله السبيلا.

(٧) ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ نسيانَه بأنْ نسخَ تلاوتَه، وقيل أراد به القلةَ والنُّدْرَةَ. لما روي أنه عليه الصلاة والسلام أسقطَ آيةً في قراءته في الصلاة فحسبَ أُبَيٌّ أنها نُسِخَتْ فسأله فقال: «نسيتُها»[1]. أو نفيُ النسيانِ رأساً فإنَّ القلَّة تُسْتَعْمَلُ للنفي. ﴿إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ وَمَا يَخْفَىٰ﴾ ما ظهرَ من أحوالكم وما بطنَ، أو جهْرَكَ بالقراءةِ مع جبريلَ عليه الصلاة والسلام وما دعاك إليه من مخافةِ النسيانِ فيعلمُ ما فيه صلاحُكم من إبقاء وإنساءٍ.

(٨) ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ ونعِدُّك للطريقة اليُسرى في حفظِ الوحي، أو التدينِ ونوفِّقُك لها. ولهذه النكتةِ قال نيسرك لا نيسِّرُ لك عطفٌ على سنقرئك، وإنه يعلمُ اعتراضٌ[2].

(٩) ﴿فَذَكِّرْ﴾ بعدَ ما استتبَّ لك الأمرُ. ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ لعلَّ هذه الشرطيةَ إنما جاءت بعد تكرير التذكيرِ وحصولِ اليأسِ من البعضِ لئلا يتعِبَ نفسَه ويتلهَّفَ عليهم كقوله: «وما أنت عليهم بجبارٍ» الآيةَ، أو لذمِّ المذكورين واستبعادِ تأثير الذكرى فيهم، أو للإشعار بأنَّ التذكير إنما يجبُ إذا ظُنَّ نفعُه ولذلك أُمِرَ بالإعراض عمَّن تولَّى.

(١٠) ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ سيتَّعظُ وينتفعُ بها مَنْ يخشى اللهَ تعالى بأنْ يتأمَّلَ فيها فيعلمَ حقيقتَها، وهو يتناولُ العارفَ والمتردِّدَ.

(١١) ﴿وَيَتَجَنَّبُهَا﴾ ويتجنَّبُ الذِّكرى. ﴿ٱلْأَشْقَى﴾ الكافرُ فإنه أشقَى من الفاسقِ، أو الأشقَى من الكَفَرة لتوغُّلِه في الكفرِ.

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى» ـ كما في «التحفة» (٧/١٨٨ رقم ٩٦٨٢) ـ عن عبدالرحمن بن أبزى.

(٢) وتعليق التيسير به عليه الصلاة والسلام، مع أن الشائع تعليقه بالأمور المسخرة للفاعل، كما في قوله تعالى «ويسر لي أمري» للإيذان بقوة تمكينه عليه الصلاة والسلام من اليسرى والتصرف فيها بحيث صار ذلك ملكة راسخة له كأنه عليه الصلاة والسلام جُبل عليها (س٩/١٤٥).

ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ بَلْ
تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ
وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾

(١٢) ﴿ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ نارَ جهنَّم فإنه عليه الصلاة والسلام قال: «ناركم هذه جزءٌ من سبعين جزءاً من نارِ جهنَّم»[(١)]، أو ما في الدركِ الأسفلِ منها.

(١٣) ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحُ. ﴿وَلَا يَحْيَىٰ﴾ حياةً تنفعُه.

(١٤) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهَّر من الكفر والمعصية، أو تكثَّر من التقوى من الزكاة، أو تطهَّر للصلاة أو أدى الزكاةَ.

(١٥) ﴿وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ﴾ بقلبِه ولسانِه ﴿فَصَلَّىٰ﴾ كقوله ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾[(٢)] ويجوزُ أنْ يُرادَ بالذِّكرِ تكبيرةُ التحريم، وقيل تزكى تصدَّق للفطرِ وذكر اسمَ ربِّه كبَّره يومَ العيدِ فصلَّى صلاته.

(١٦) ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾ فلا تفعلون ما يسعدُكم في الآخرة، والخطابُ للأشقينَ على الالتفاتِ أو على إضمار قلْ، أو للكلِّ فإنَّ السعيَ للدنيا أكثرُ في الجملةِ، وقرأ أبو عمرو بالياءِ.

(١٧) ﴿وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ فإنَّ نعيمَها ملذٌّ بالذاتِ خالصٌ عن الغوائل لا انقطاعَ له.

(١٨) ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ الإشارةُ إلى ما سبقَ من قد أفلحَ فإنه جامعُ أمرِ الديانةِ وخلاصةُ الكتبِ المنزَّلةِ.

(١٩) ﴿صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ بدلٌ من الصحفِ الأُولى. قال ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ الأعلى أعطاهُ الله عشرَ حسناتٍ بعددِ كلِّ حرفٍ أنزله الله على إبراهيمَ وموسى ومحمدٍ عليهم الصلاةُ والسلام»[(٣)].

☆ ☆ ☆

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) طه: «١٤».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٤ رقم ٣١٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الغاشية

ترتيبها ٨٨ آياتها ٢٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴿١﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ ﴿٢﴾ عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ ﴿٣﴾ تَصْلَىٰ نَارًا حَامِيَةً ﴿٤﴾ تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ
ءَانِيَةٍ ﴿٥﴾ لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ ﴿٦﴾ لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ ﴿٧﴾ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ ﴿٨﴾ لِّسَعْيِهَا
رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿١٠﴾ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾

سورة الغاشية مكية[1] وهي ست وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ الداهيةُ التي تغشَى الناسَ بشدائدها يعني يومَ القيامة، أو النارُ من قوله تعالى ﴿وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ ٱلنَّارُ﴾[2].

(٢) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَٰشِعَةٌ﴾ ذليلةٌ.

(٣) ﴿عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ﴾ تعملُ ما تتعبُ فيه كجرِّ السلاسل وخوضِها في النارِ خوضَ الإبل في الوحْلِ، والصعودُ والهبوطُ في تلالها ووهادِها ما عملتْ، ونَصِبَتْ في أعمالٍ لا تنفعُها يومئذ.

(٤) ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ تدخلُها. وقرأ أبو عمرو ويعقوب وأبو بكر تُصلَى من أصلاهُ الله، وقرئ تُصلَّ بالتشديدِ للمبالغة. ﴿حَامِيَةً﴾ متناهيةً في الحرِّ.

(٥) ﴿تُسْقَىٰ مِنْ عَيْنٍ ءَانِيَةٍ﴾ بلغتْ إناها في الحرِّ.

(٦) ﴿لَّيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِن ضَرِيعٍ﴾ يَبيسُ الشبرقِ وهو شوكٌ ترعاه الإبلُ ما دام رطْباً، وقيل شجرةٌ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٨٦): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين أهل التأويل».

(٢) إبراهيم: «٥٠».

نارية تشبهُ الضريعَ، ولعله طعامُ هؤلاءِ والزقومُ والغسلينُ طعامُ غيرهم، أو المراد طعامُهم ما تتحاماهُ الإبلُ وتعافُه لضُرِّهِ وعدمِ نفعِه كما قال.

(٧) ﴿لَّا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِى مِن جُوعٍ﴾ والمقصودُ من الطعام أحدُ الأمرين[١].

(٨) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ ذاتُ بهجة أو متنعمةٌ[٢].

(٩) ﴿لِّسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ﴾ رضيتْ بعملها لما رأتْ ثوابَهُ.

(١٠) ﴿فِى جَنَّةٍ عَالِيَةٍ﴾ عَلِيَّةِ المحلِّ أوِ القدْرِ.

(١١) ﴿لَّا تَسْمَعُ﴾ يا مخاطَبُ أوِ الوجوهُ، وقرأ على بناءِ المفعولِ بالياءِ ابنُ كثير وأبو عمرو ورويسٌ وبالتاء نافعٌ. ﴿فِيهَا لَٰغِيَةً﴾لغواً أو كلمةً ذاتَ لغوٍ أو نفساً تلغُو، فإنَّ كلام أهلِ الجنة الذكرُ والحِكَمُ.

(١٢) ﴿فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ﴾ يجري ماؤُها ولا ينقطعُ، والتنكيرُ للتعظيم.

فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ ﴿١٣﴾ وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴿١٦﴾ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ رفيعةُ السَّمكِ أو القدْرِ.

(١٤) ﴿وَأَكْوَابٌ﴾ جمعُ كوبٍ وهي آنيةٌ لا عُرْوَةَ لها. ﴿مَّوْضُوعَةٌ﴾ بين أيديهم.

(١٥) ﴿وَنَمَارِقُ﴾ وسائدُ جمعُ نَمْرَقَةٍ بالفتح والضمِّ. ﴿مَصْفُوفَةٌ﴾ بعضُها إلى بعض.

(١٦) ﴿وَزَرَابِيُّ﴾ بُسُطٌ فاخرٌ جمعُ زربيةٍ. ﴿مَبْثُوثَةٌ﴾ مبسوطةٌ.

(١٧) ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ﴾ نظرَ اعتبار. ﴿إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ خلقاً دالاً على كمال قدرته وحسنِ تدبيره حيثُ خلقَها لجرِّ الأثقال إلى البلاد النائية، فجعلها عظيمةً باركةً للمحلِّ ناهضةً بالحِمْل منقادةً لمنِ اقتادَها طِوالَ الأعناقِ لينوءَ بالأوقارِ، ترعَى كلَّ نابتٍ وتحتملُ العطشَ إلى عشرٍ فصاعداً ليتأتَّى لها قطعُ البوادي والمفاوزِ، مع ما لَها من منافعَ أخرى ولذلك خُصَّتْ بالذِّكْرِ لبيان الآياتِ المنبثة في الحيوانات التي هي أشرفُ المركباتِ وأكثرُها صنعاً، ولأنها أعجبُ ما عند العرب من هذا النوعِ. وقيل المرادُ بها السحابُ على الاستعارة.

(١٨) ﴿وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾ بلا عَمَدٍ.

(١٩) ﴿وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ فهي راسخةٌ لا تميل.

---

(١) تنكير الجوع للتحقير، أو لا يغني من جوع ما (س٩/ ١٤٩).

(٢) شروع في رواية حديث أهل الجنة.

وتقديمُ حكاية حال أهل النار لأنه أدخل في تهويل الغاشية وتفخيم حديثها، ولأن حكاية حسن حال أهل الجنة بعد حكاية سوء حال أهل النار مما يزيد المحكي حسناً وبهجة (س٩/ ١٥٠).

وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ
وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم ﴿٢٦﴾

(٢٠) ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ بُسِطَتْ حتى صارتْ مهاداً، وقرىء الأفعالُ الأربعةُ على بناء الفاعلِ للمتكلِّم وحذفِ الراجعِ المنصوب، والمعنى أفلا ينظرون إلى أنواع المخلوقاتِ من البسائط والمركباتِ ليتحققوا كمالَ قدرةِ الخالقِ سبحانه وتعالى، فلا ينكروا اقتدارُه على البعثِ ولذلك عقَّب به أمرَ المعادِ ورتَّب عليه الأمرَ بالتذكير فقال:

(٢١) ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ﴾ فلا عليكَ إن لم ينظروا ولم يذكروا إذ ما عليك إلا البلاغُ.

(٢٢) ﴿لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ بمتسلِّطٍ، وعن الكسائيِّ بالسين على الأصلِ وحمزةَ بالإشمامِ.

(٢٣) ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ﴾ لكنْ مَنْ تولى وكفَر.

(٢٤) ﴿فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَكْبَرَ﴾ يعني عذابَ الآخرة. وقيل متصلٌ فإنَّ جهادَ الكفار وقَتْلَهم تسلُّطٌ، وكأنه أوعدهم بالجهاد في الدنيا وعذاب النار في الآخرة، وقيل هو استثناءٌ من قوله فذكِّر أي فذكِّر إلا مَنْ تولى وأصرَّ فاستحقَّ العذابَ الأكبر، وما بينَهما اعتراضٌ ويؤيدُ الأولَ أنه قرىء إلا على التنبيهِ.

(٢٥) ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ رجوعَهم، وقرىء بالتشديد على أنه فيعالٌ مصدرُ فيعلٍ من الإياب، أو فعَّالٌ من الأَوْبِ قُلِبَتْ واوُه الأولى قلْبَها في ديوانٍ ثم الثانيةُ للإدغام.

(٢٦) ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُم﴾ في المحشرِ، وتقديمُ الخبر للتخصيصِ والمبالغةِ في الوعيد، عن النبيِّ «من قرأ سورةَ الغاشيةِ حاسبه الله حساباً يسيراً»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٤ رقم ٣١١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الفَجْرِ — ترتيبها ٨٩ — آياتها ٣٠

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴿٢﴾ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ ﴿٤﴾ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ﴿١٢﴾

سورة الفجر مكية[١] وآيها ثلاثون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ أقسمَ بالصبحِ أو فَلَقِهِ كقوله ﴿وَٱلصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[٢] أو بصلاتِهِ.

(٢) ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ عشرِ ذي الحجةِ ولذلك فُسِّرَ الفجرُ بفجرِ عرفةَ، أو النحرِ أو عشرِ رمضانَ الأخيرَ، وتنكيرُها للتعظيم، وقرىء وليالِ عشرٍ بالإضافةِ على أنَّ المرادَ بالعشرِ الأيامُ.

(٣) ﴿وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ﴾ والأشياءِ كلِّها شفعِها ووترِها، أوِ الخلقِ لقوله ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ﴾[٣] والخالقِ لأنه فردٌ، ومن فسَّرهما بالعناصرِ والأفلاكِ أوِ البروج والسياراتِ أو شفعِ الصلواتِ ووترِها، أو بيومي النحرِ وعرفةَ، وقد روي مرفوعاً[٤]، أو بغيرِها فلعلَّه أفردَ بالذكرِ من أنواعِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٢٩٢): «وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال هي مدنية والأول أشهر وأصح» اهـ.

(٢) التكوير: «١٨».

(٣) الذاريات: «٤٩».

(٤) أخرجه النسائي في تفسيره (رقم: ٦٩١) وأحمد في المسند (٣/ ٣٢٧) والبزار (٣/ ٨٠ ـ ٨١ رقم ٢٢٨٦ ـ كشف) والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٢٠) وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي. قلتُ: إن سلم من تدليس أبي الزبير، وأما ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي الزبير فقد كفانا عن تدليسه، وأما خارج صحيحه فينظر في حديثه. والخلاصة أن الحديث ضعيف. وقد قال ابن كثير في تفسيره (٤/ ٥٤٠) بعد أن عزاه لابن جرير وابن أبي حاتم: «وهذا إسناد رجاله لا بأس بهم، وعندي أن المتن في رفعه نكارة والله أعلم» هـ.

المدلولِ ما رآه أظهرَ دلالةً على التوحيدِ، أو مدخلاً في الدين أو مناسبة لما قبلَهما أو أكثرَ منفعةً موجبة للشكرِ، وقرىء والوِتر بكسر الواوِ وهما لغتانِ كالحِبْر والْحَبْرِ.

(٤) ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَسۡرِ﴾ إذا يمضي كقوله ﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذۡ أَدۡبَرَ﴾[١] والتقييدُ بذلك لما في التعاقبِ من قوة الدلالةِ على كمال القدرة ووفورِ النعمةِ، أو يسري فيه من قولهم صلَّى المقامَ، وحذفَ الياءَ للاكتفاءِ بالكسرة تخفيفاً، وقد خصَّه نافع وأبو عمرو بالوقفِ لمراعاةِ الفواصلِ ولم يحذفْها ابنُ كثير ويعقوبُ أصلاً، وقرىء يسْرٍ بالتنوينِ المبدلِ من حرفِ الإطلاق.

(٥) ﴿ هَلۡ فِي ذَٰلِكَ﴾ القسم أو المقسَم به[٢] ﴿قَسَمٞ﴾ حَلِفٌ أو محلوفٌ به. ﴿لِّذِي حِجۡرٍ﴾ يعتبره ويؤكدُ به ما يريدُ تحقيقَه، والحِجْرُ العقلُ سمِّي به لأنه يحجرُ عما لا ينبغي كما سُمِّي عقلاً ونهيةً وحصاةً من الإحصاءِ، وهو الضبطُ والمقسمُ عليه محذوفٌ وهو ليعذِّبنَّ يدلُّ عليه قولُه:

(٦) ﴿ أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ﴾ يعني أولادَ عادِ بنِ عوصنِ بنِ إرمَ بنِ سامِ بنِ نوحٍ عليه السلام، قومَ هودِ سُمُّوا باسم أبيهم كما سمِّي بنو هاشم باسمِه.

(٧) ﴿ إِرَمَ﴾ عطفُ بيانٍ لعادٍ على تقدير مضافٍ أي سبطِ إرمَ، أو أهلِ إرمَ إنْ صحَّ أنه اسمُ بلدتِهم. وقيل سمِّي أوائلُهم وهم عادٌ الأولى باسمِ جدِّهم، ومُنِعَ صرفُه للعلمية والتأنيثِ. ﴿ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ﴾ ذاتِ البناءِ الرفيع أو القدودِ الطوالِ، أو الرفعةِ والثباتِ. وقيل كان لعادٍ ابنانِ شدّادٌ وشديدٌ فملكا وقَهَرَا، ثم ماتَ شديدٌ فخلَصَ الأمرُ لشدّادٍ وملكَ المعمورةَ ودانتْ له ملوكُها، فسمعَ بذكرِ الجنةِ فبنى على مثالِها في بعضِ صحارى عدنٍ جنةً وسمَّاها إرمَ، فلما تمتْ سارَ إليها بأهله، فلما كان منها على مسيرةِ يوم وليلةٍ بعث الله عليهم صيحةً من السماءِ فهلكوا. وعن عبدالله بن قلابةَ[٣] أنه خرجَ في طلب إبلِه فوقعَ عليها.

(٨) ﴿ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفةٌ أخرى لإرمَ، والضميرُ لها سواءٌ جعلْتَ إرمَ القبيلةَ أوِ البلدةَ.

(٩) ﴿ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُواْ ٱلصَّخۡرَ﴾ قطَعوه واتخذُوه منازلَ لقوله ﴿وَتَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتٗا﴾[٤] ﴿بِٱلۡوَادِ﴾ وادي القُرى.

(١٠) ﴿ وَفِرۡعَوۡنَ ذِي ٱلۡأَوۡتَادِ﴾ لكثرةِ جنوده ومضارِبهم التي كانوا يضربونها إذا نزلوا، أو لتعذيبه بالأوتادِ.

(١١) ﴿ٱلَّذِينَ طَغَوۡاْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ صفةٌ للمذكورين عادٍ وثمودَ وفرعونَ، أو ذمٌّ منصوبٌ أو مرفوعٌ.

(١٢) ﴿فَأَكۡثَرُواْ فِيهَا ٱلۡفَسَادَ﴾ بالكفر والظلمِ.

---

(١) المدثر: «٣٣».

(٢) والإشارة إليه بالبعيد «ذلك» للإيذان بعلو رتبة المشار إليه وبعد منزلته في الشرف والفضل (س٩/ ١٥٤).

(٣) أخرجه الثعلبي من طريق عثمان الدارمي، عن عبدالله بن أبي صالح، عن ابن لهيعة، عن خالد بن أبي عمران، عن وهب بن منبه، عن عبدالله بن قلابة، أنه خرج في طلب إبل له شردت فذكره مطولاً ـ كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٤ رقم ٣١٣) ـ وقال ابن حجر: «قلت: آثار الوضع عليه لائحة» هـ.

(٤) الشعراء: «١٤٩».

فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ ﴿١٦﴾ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾

(١٣) ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾ ما خلطَ لهم من أنواع العذابِ، وأصلُه الخلطُ وإنما سمِّي به الجلدُ المضفورُ الذي يُضرَبُ به لكونه مخلوطَ الطاقاتِ بعضُها ببعض، وقيل شَبَّه بالسوطِ ما أحلَّ بهم في الدنيا إشعاراً بأنه القياسُ إلى ما أعدَّ لهم في الآخرة من العذابِ كالسوطِ إذا قيسَ إلى السيفِ.

(١٤) ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾ إلى المكان الذي يُتَرَقَّبُ فيه الرصدُ، مفعالٌ من رصدَه كالميقاتِ من وقَّته، وهو تمثيلٌ لإرصادِه العصاةَ بالعقاب.

(١٥) ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ﴾ متصلٌ بقوله ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[1] كأنه قيلَ إنه لبالمرصادِ من الآخرة فلا يريدُ إلا السعيَ لها فأما الإنسانُ فلا يهمُّه إلا الدنيا ولذَّاتُها. ﴿إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ اختبره بالغنى واليُسرِ. ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ بالجاهِ والمالِ. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ﴾ فضَّلني بما أعطاني، وهو خبرُ المبتدأِ الذي هو الإنسان، والفاءُ لما في أما من معنى الشرطِ، والظرفُ المتوسطُ في تقديرِ التأخيرِ كأنه قيل: فأما الإنسانُ فقائلٌ ربي أكرمني وقتَ ابتلائِه بالإنعامِ، وكذا قوله:

(١٦) ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾ إذ التقديرُ وأما الإنسانُ إذا ما ابتلاه أي بالفقرِ والتقتير ليوازنَ قَسِيمَهُ. ﴿فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ لقصورِ نظره وسوءِ فقره، فإنَّ التقتيرَ قد يؤدي إلى كرامةِ الدارين، والتوسعةُ قد تفضي إلى قصدِ الأعداءِ والانهماكِ في حبِّ الدنيا ولذلك ذمَّه على قوليه وردعَه عنه بقوله:

(١٧) ﴿كَلَّا﴾ مع أنَّ قولَه الأولَ مطابقٌ لأكرمَهُ ولم يقلْ فأهانه وقدَرَ عليه كما قال ﴿فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ﴾ لأنَّ التوسعةَ تفضلٌ والإخلالُ به لا يكون إهانةً. وقرأ ابن عامر والكوفيونَ أكرمنِ وأهاننِ بغير ياءٍ في الوَصلِ والوقفِ، وعن أبي عمرو مثلُه، ووافقَهم نافعٌ في الوقف، وقرأ ابن عامر فقدَّر بالتشديدِ. ﴿بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ﴾.

(١٨) ﴿وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ أي بل فِعْلُهم أسوأُ من قولهم وأدلُّ على تهالُكِهم بالمال وهو أنهم لا يكرمونَ اليتيمَ بالنفقةِ والمبرَّةِ، ولا يحثُّون أهلَهم على طعامِ المسكينِ فضلاً عن غيرِهم، وقرأ الكوفيون ولا تحاضُّونَ.

(١٩) ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ﴾ الميراثَ وأصلُه وراثٌ. ﴿أَكْلًا لَّمًّا﴾ ذا لمٍّ أي جمعَ بينَ الحلالِ والحرامِ فإنَّهم كانوا لا يورِّثون النساءَ والصبيانَ ويأكلون أنصِباءَهم، أو يأكلون ما جمعَه المورِّثُ من حلالٍ وحرام عالمينَ بذلك.

(١) الفجر: ١٤.

وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾
وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ ﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى ﴿٢٤﴾
فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً
مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾

(٢٠) ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾ كثيراً مع حرصٍ وشَرَهٍ، وقرأ أبو عمرو وسهلٌ ويعقوب لا يُكرمون إلى ويحبُّون بالياءِ والباقون بالتاءِ.

(٢١) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لهم عن ذلك وإنكارٌ لفعلهم وما بعدَه وعيدٌ عليه. ﴿إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ أي دكّاً بعد دكٍّ حتى صارتْ منخفضةَ الجبالِ والتلالِ، أو هباءً منبثاً.

(٢٢) ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ﴾ أي ظهرتْ آياتُ قدرتِه وآثارُ قهرِه مثلُ ذلك بما يظهرُ عند حضورِ السلطانِ من آثار هيبتِه وسياسته. ﴿وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ بحسبِ منازِلهم ومراتبِهم.

(٢٣) ﴿وَجِاْيٓءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ﴾ كقوله تعالى ﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ﴾[١] وفي الحديث: «يؤتى بجهنَّم يومئذ لها سبعون ألفِ زمام مع كلِّ زمام سبعون ألفِ مَلَكٍ يجرُّونها»[٢]. ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ بدلٌ من إذا دُكَّتِ الأرضُ والعاملُ فيهما. ﴿يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ أي يتذكر معاصيه أو يتعظ لأنه يعلمُ قُبحَها فيندمُ عليها. ﴿وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ أي منفعةُ الذكرى لئلا يناقِضُ ما قبلَه، واسْتُدِلَّ به على عدمِ وجوبِ قبولِ التوبةِ، فإنَّ هذا التذكُّرَ توبةٌ غيرُ مقبولةٍ.

(٢٤) ﴿يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى قَدَّمْتُ لِحَيَاتِى﴾ أي لحياتي هذه، أو وقتَ حياتي في الدنيا أعمالاً صالحةً، وليس في هذا التمنِّي دلالةٌ على استقلال العبدِ بفعله فإنَّ المحجورَ عن شيء قد يتمنَّى أنْ كان ممكَّناً منه.

(٢٥، ٢٦) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ الهاءُ لله أي لا يتولَّى عذابَ الله ووثاقَه يومَ القيامة سواهُ إذ الأمرُ كلُّه له، أو للإنسان أي لا يعذِّب أحدٌ من الزبانية مثلَ ما يعذِّبونه، وقرأهما الكسائي ويعقوبُ على بناء المفعولِ.

(٢٧) ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ﴾ على إرادةِ القول وهي التي اطمأنتْ بذكر الله، فإنَّ النفسَ تترقى في سلسلة الأسبابِ والمسبباتِ إلى الواجب لذاتِه فتستقرُّ دون معرفته وتستغني به عن غيرِه، أو إلى الحقِّ بحيث لا يريبها شكٌّ أوِ الآمنةُ التي لا يستفزُّها خوفٌ ولا حزنٌ، وقد قرىء بهما.

(٢٨) ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ﴾ إلى أمرِه أو موعدِه بالموتِ، ويشعرُ ذلك بقولِ مَنْ قال: كانتِ النفوسُ قبلَ الأبدان موجودةً في عالم القدسِ أو البعثِ، ﴿رَاضِيَةً﴾ بما أوتيتِ. ﴿مَّرْضِيَّةً﴾ عندَ الله تعالى.

---

(١) النازعات: «٣٦».
(٢) أخرج مسلم (٤/ ٢١٨٤ رقم ٢٩) من حديث ابن مسعود مثله.

(٢٩) ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي﴾ في جملةِ عبادي الصالحين.

(٣٠) ﴿وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ معَهم أو في زمرةِ المقرَّبينَ فتستضيءُ بنورهم، فإنَّ الجواهرَ القدسيةَ كالمرايا المتقابلةِ، أو ادخلي في أجسادِ عبادي التي فارقْتِ عنها وادخلي دارَ ثوابي التي أُعِدَّتْ لك. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورة الفجرِ في الليالي العشرِ غُفِرَ له، ومن قرأها في سائرِ الأيامِ كانت له نوراً يومَ القيامة»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٤ رقم ٣١٥). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ البَلَدِ

ترتيبها ٩٠ — آياتها ٢٠

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿١﴾ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴿٢﴾ وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ ﴿٥﴾ يَقُولُ أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا ﴿٦﴾ أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٧﴾ أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ﴿٨﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٩﴾

سورة البلد مكية[1] وآيها عشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾.

(٢) ﴿وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ﴾ أقسمَ سبحانه بالبلد الحرام، وقيّده بحلولِ الرسول عليه الصلاةُ والسلام فيه إظهاراً لمزيدِ فضلِه وإشعاراً بأن شرفَ المكان بشرفِ أهله. وقيل حلٌّ مستحِلٌّ تعرُّضَك فيه كما يُسْتَحَلُّ تعرُّضُ الصيدِ في غيره، أو حلالٌ لك أنْ تفعلَ فيه ما تريدُ ساعةً من النهارِ فهو وعدٌ بما أحلَّ له عامَ الفتح.

(٣) ﴿وَوَالِدٍ﴾ عطفٌ على هذا البلدِ، والوالدُ آدم أو إبراهيمُ عليهما الصلاة والسلام. ﴿وَمَا وَلَدَ﴾ ذريتُه أو محمدٌ عليه الصلاة والسلام، والتنكيرُ للتعظيم، وإيثارُ «ما» على مَنْ لمعنى التعجبِ كما في قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾[2].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٠٣): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين وقال قوم هي مدنية» هـ. وانظر «معالم التنزيل» (٨/٤٢٩) و«الدر المنثور» (٨/٥١٦).

(٢) آل عمران: «٣٦».

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ﴾ تعبٍ ومشقةٍ، منْ كَبِدَ الرجلُ كبداً إذا وجعتْ كبدُه ومنه المكابدةُ، والإنسان لا يزال في شدائدَ مبدؤُها ظلمة الرحمِ ومضيقُه ومنتهاها الموتُ وما بعدَه، وهو تسلية للرسول عليه الصلاة والسلام مما كان يكابده من قريش. والضميرُ في.

(٥) ﴿أَيَحْسَبُ﴾ لبعضِهم الذي كان يكابدُ منه أكثر، أو يغترَّ بقوته كأبي الأشدِّ بنِ كلدةَ فإنه كان يُبْسَطُ تحتَ قدميه أديم عكاظيّ ويجذبُه عشرةٌ فينقطعُ ولا تزالُ قدماهُ، أو لكلِّ أحد منهم، أو للإنسان. ﴿أَن لَّن يَقْدِرَ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ فينتقمُ منه.

(٦) ﴿يَقُولُ﴾ أي في ذلك الوقتِ ﴿أَهْلَكْتُ مَالًا لُّبَدًا﴾ كثيراً، من تلبَّد الشيءُ إذا اجتمعَ، والمراد ما أنفقه سمعةً ومفاخرةً، أو معاداةً للرسول عليه الصلاة والسلام.

(٧) ﴿أَيَحْسَبُ أَن لَّمْ يَرَهُۥٓ أَحَدٌ﴾ حيْن كان ينفقُ أو بعدَ ذلك فيسألُه عنه، يعني أنَّ اللهَ سبحانه وتعالى يراهُ فيجازيه، أو يجده فيحاسِبُه عليه، ثم بيَّنَ ذلك بقوله:

(٨) ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ﴾ يبصرُ بهما.

(٩) ﴿وَلِسَانًا﴾ يترجمُ به عن ضميرِه. ﴿وَشَفَتَيْنِ﴾ يسترُ بهما فاهُ ويستعينُ بهما على النُّطقِ والأكلِ والشربِ وغيرها.

وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ ﴿١٠﴾ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾

(١٠) ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ طريقي الخير والشرِّ، أو الثديينِ وأصله المكانُ المرتفع.

(١١) ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ﴾ أي فلم يشكرْ تلك الأيادي باقتحامِ العقبةِ وهو الدخولُ في أمرٍ شديد، والعقبةُ الطريقُ في الجبل استعارَها بما فسَّرها به من الفكِّ والإطعامِ في قوله:

(١٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾.

(١٣) ﴿فَكُّ رَقَبَةٍ﴾.

(١٤) ﴿أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ﴾.

(١٥) ﴿يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾.

(١٦) ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ لما فيهما من مجاهدةِ النفسِ. ولتعدُّدِ المرادِ بها حسنُ وقوع لا موقعَ لم، فإنها لا تكادُ تقعُ إلا مكرَّرةً، إذ المعنى فلا فكَّ رقبةً ولا أطعمَ يتيماً أو مسكيناً. والمسغبةُ والمقربةُ والمتربةُ مفعلاتٌ من سغِبَ إذا جاعَ وقربَ في النسبِ وتربَ إذا افتقرَ. وقرأ ابن كثير وأبو عمرو والكسائيُّ فكَّ رقبةً أو أطعمَ على الإبدالِ منِ اقتحمَ وقوله ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ﴾[1] اعتراضٌ معناه إنك لم تدْرِ كُنْهَ صعوبتِها وثوابِها.

---

(١) البلد: «١٢».

﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿١٩﴾ عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ ﴿٢٠﴾﴾

(١٧) ﴿ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عطفَه على اقتحمَ أو فكَّ بثُمَّ لتباعُدِ الإيمان عن العتقِ والإطعامِ في الرتبة لاستقلاله واشتراطِ سائرِ الطاعات به. ﴿وَتَوَاصَوْا۟﴾ وأوصى بعضُهم بعضاً. ﴿بِٱلصَّبْرِ﴾ على طاعة الله تعالى. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ﴾ بالرحمةِ على عباده، أو بموجباتِ رحمة الله تعالى.

(١٨) ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ اليمينِ أو اليُمْنِ.

(١٩) ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ بما نصبناه دليلاً على الحقِّ من كتاب وحجَّةٍ أو بالقرآن. ﴿هُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ الشمالِ أو الشؤم، ولتكرير ذكرِ المؤمنينَ باسم الإشارةِ والكفارِ بالضمير شأنٌ لا يَخْفَى.

(٢٠) ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌۢ﴾ مطبقةٌ من أوصدتَ البابَ إذا أطبقتَه وأغلقتَه. وقرأ أبو عمرو وحمزة وحفصٌ بالهمزة من آصدْتُه. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ لا أقسمُ بهذا البلدِ أعطاه الله سبحانه وتعالى الأمانَ من غضبِه يومَ القيامةِ»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٥ رقم ٣٢١) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشَّمْسِ

ترتيبها ٩١ — آياتها ١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ﴿١﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا ﴿٢﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٣﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا ﴿٤﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿٥﴾
وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴿٩﴾

سورة الشمس مكية[1]. وآيها خمس عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا﴾ وضوئِها إذا أشرقتْ. وقيل الضحوةُ ارتفاعُ النهار، والضُّحى فوقَ ذلك، والضَّحاءُ بالفتحِ والمد إذا امتدَّ النهارُ وكادَ ينتصِفُ.

(٢) ﴿وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا﴾ تلا طلوعُه طلوعَ الشمسِ أولَ الشهرِ أو غروبَها ليلةَ البدرِ، أو في الاستدارةِ وكمالِ النور.

(٣) ﴿وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا﴾ جلَّى الشمسَ فإنها تتجلَّى إذا انبسطَ النهارُ أوِ الظلمةُ، أو الدنيا أو الأرضُ وإنْ لم يَجْرِ ذكرُها للعلمِ بها.

(٤) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا﴾ يغشَى الشمسَ فيغطِّي ضوءَها أوِ الآفاقَ، أوِ الأرضَ. ولما كانتْ واواتُ العطفِ نوائبَ للواوِ الأولى القسَميَّةِ الجارَّةِ بنفسِها النائبةِ منابَ فعلِ القسمِ من حيثُ استلزمتْ طرحَه معَها رَبَطْنَ المجروراتِ والظروفَ بالمجرورِ والظرفِ المتقدِّمينِ ربْطَ الواوِ لما بعدَها في قولك: ضربَ زيدٌ عمراً وبكرٌ خالداً على الفاعلِ والمفعولِ من غير عطفٍ على عاملين مختلفينِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣١٠): «وهي مكية».

(٥) ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ ومَنْ بناها، وإنما أُوثِرَتْ على مَنْ لإرادة معنى الوصفيةِ كأنه قيل: والشيءِ القادرِ الذي بناها، ودلَّ على وجودِه وكمالِ قدرته بناؤُها، ولذلك أُفْرِدَ ذِكْرُهُ، وكذا الكلامُ في قوله:

(٦) ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾.

(٧) ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾ وجعلَ الماءاتِ مصدريةً يجردُ الفعلَ عن الفاعلِ ويخلُّ بنظمِ قوله:

(٨) ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ بقوله وما سوَّاها إلا أنْ يُضْمَرَ فيه اسمُ الله للعلمِ به. وتنكيرُ نفسٍ للتكثير كما في قوله تعالى ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾[1] أو للتعظيمِ. والمرادُ نفسُ آدمَ، وإلهامُ الفجور والتقوى إفهامُهما وتعريفُ حالهما أو التمكينُ من الإتيانِ بهما.

(٩) ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ أنماها بالعلم والعمل جوابُ القسمِ، وحذَفَ اللامَ للطولِ كأنه لما أرادَ به الحثَّ على تكميلِ النفس والمبالغةَ فيه أقسمَ عليه بما يدلُّهم على العلمِ بوجود الصانعِ ووجوبِ ذاته وكمالِ صفاته الذي هو أقصى درجاتِ القوة النظريةِ، ويذكِّرهم عظائِمَ آلائِه ليحمِلَهم على الاستغراقِ في شكرِ نعمائه الذي هو منتهى كمالاتِ القوةِ العملية. وقيل هو استطرادٌ بذكرِ بعضِ أحوالِ النفس، والجوابُ محذوفٌ تقديره ليُدَمْدِمَنَّ الله على كفارِ مكةَ لتكذيبهم رسولَه ﷺ كما دمدمَ على ثمودَ لتكذيبهم صالحاً عليه الصلاة والسلام.

وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ
وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾

(١٠) ﴿وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ نقَّصَها وأخفاها بالجهالة والفسوقِ، وأصلُ دَسَّىُ دسَّسَ كتقضَّى وتقضَّضَ[2].

(١١) ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ﴾ بسببِ طُغيانِها، أو بما أُوعِدَتْ به من عذابها ذي الطغوى كقوله تعالى ﴿فَأُهْلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ﴾[3] وأصله طغياها وإنما قَلِبَتْ ياؤه واواً تفرقةً بينَ الاسم والصفةِ، وقرىء بالضمِّ كالرُّجعى.

(١٢) ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ﴾ حين قامَ، ظرفٌ لكذَّبتْ أو طغوى. ﴿أَشْقَىٰهَا﴾ أشقَى ثمودَ وهو قدارُ بنُ سالفٍ، أو هو ومن مالأَه على قتلِ الناقةِ فإنَّ أفعلَ التفضيلِ إذا أضفْتَه صلُحَ للواحدِ والجمعِ وفضِّل شقاوتَهم لتولِّيهم العقْرَ.

(١٣) ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ﴾ أي ذروا ناقةَ اللهِ واحذروا عقْرَهَا[4]. ﴿وَسُقْيَٰهَا﴾ وسقْيَها

(١) التكوير: «١٤».
(٢) وتكرير «قد» لإبراز كمال الاعتناء بتحقيق مضمونه، والإيذانِ بتعلق القَسَم به أيضا أصالة (س٩/ ١٦٤).
(٣) الحاقة: «٥».
(٤) وعبر عن الرسول بعنوان الرسالة إيذاناً بوجوب طاعته، وبياناً لغاية عتوهم وتماديهم في الطغيان، وهو السرّ في =

فلا تذودُوها عنها.

(١٤) ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ فيما حذَّرهم منه من حلولِ العذاب إنْ فعلوا. ﴿فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم﴾ فأطبقَ عليهم العذابَ وهو من تكريرِ قولهم ناقةٌ مدمومةٌ إذا ألْبَسَهَا الشحْمَ. ﴿بِذَنۢبِهِمْ﴾ بسببه. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾ فسوَّى الدمدمةَ بينَهم أو عليهم فلم يفلُتْ منهم صغيرٌ ولا كبيرٌ، أو ثمودَ بالإهلاك.

(١٥) ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ أي عاقبةَ الدمدمةِ أو عاقبةَ هلاكِ ثمودَ وتَبِعَتَها فيبقي بعضَ الإبقاءِ، والواوُ للحال، وقرأ نافعٌ وابن عامر فلا على العطفِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ والشمسِ فكأنما تصدَّقَ بكلِّ شيءٍ طلعتْ عليه الشمسُ والقمرُ»[1].



= إضافة الناقة إلى الله تعالى (س٩/ ١٦٤).

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (١٨٥ رقم ٣٢٢) وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ اللَّيْلِ

ترتيبها ٩٢ — آياتها ٢١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴿١﴾ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ﴿٢﴾ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ﴿٤﴾ فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾
وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا
يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾

سورة والليل مكية[1]. وآيها إحدى وعشرون آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ أي يغشى الشمسَ أو النهارَ أو كلَّ ما يواريه بظلامِه.

(٢) ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ﴾ ظهرَ بزوالِ ظلمةِ الليل، أو تبيَّن بطلوعِ الشمسِ.

(٣) ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ﴾ والقادرُ الذي خلقَ صِنْفَي الذَّكَرِ والأُنْثى من كلِّ نوع له توالدٌ، أو آدمُ وحواءُ، وقيل ما مصدريةٌ.

(٤) ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ﴾ إنَّ مساعِيَكُم لأشتاتٌ مختلفةٌ جمعُ شتيتٍ.

(٥) ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾.

(٦) ﴿وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ﴾ تفصيلٌ مبيِّنٌ لتشتُّتِ المساعي، والمعنى من أعطَى الطاعةَ واتَّقى المعصيةَ وصدَّق بالكلمة الحسنى وهي ما دلتْ على حقٍّ ككلمة التوحيدِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣١٥): «وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدوي: وقيل هي مدنية، وقيل فيها مدني».

(٧) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ فسنهيئُه للخُلَّةِ التي تؤدي إلى يُسْرٍ وراحةٍ كدخولِ الجنةِ، مِنْ يَسَرَ الفرسَ إذا هيَّأه للركوب بالسرجِ واللجامِ.

(٨) ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ﴾ بما أُمِرَ به. ﴿وَٱسْتَغْنَىٰ﴾ بشهواتِ الدنيا عن نعيمِ العقبى.

(٩) ﴿وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ﴾ بإنكارِ مدلولها.

(١٠) ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ للخلَّةِ المؤديةِ إلى العسرِ والشدةِ كدخول النار[1].

(١١) ﴿وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ﴾ نفيٌ أو استفهامُ إنكارٍ. ﴿إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ هَلَكَ تفعَّلَ من الرَّدى، أو تردَّى في حفرة القبر أو قَعْرِ جهنَّمَ.

إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ
وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ
وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾

(١٢) ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ للإرشاد إلى الحق بموجبِ قضائِنا أو بمقتضى حِكْمَتِنا، أو إنَّ علينا طريقةَ الهدى كقوله سبحانه وتعالى ﴿وعلى الله قصد السبيل﴾[2].

(١٣) ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ﴾ فنعطي في الدارين ما نشاءُ لمن نشاءُ، أو ثوابَ الهداية للمهتدينَ، أو فلا يضرُّنا تركُكُم الاهتداءَ.

(١٤) ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ﴾ تتلهَّبُ.

(١٥) ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ﴾ لا يلزمُها مقاسياً شدَّتَها. ﴿إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ إلا الكافرُ فإنَّ الفاسِقَ وإنْ دخلَها لا يلزمُها ولذلك سمَّاه أشقَى ووصفَه بقوله:

(١٦) ﴿ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ﴾ أي كذَّب الحقَّ وأعرضَ عن الطاعةِ.

(١٧) ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾.

(١٨) ﴿ٱلَّذِى﴾ اتقى الشركَ والمعاصي فإنه لا يدخلُها فضلاً عن أن يدخلَها ويصْلاها، ومفهومُ ذلك أنَّ منِ اتقى الشركَ دون المعصية لا يُجَنَّبُها ولا يلزمُ ذلك صلْيَها فلا يخالفُ الحصرَ السابقَ. ﴿يُؤْتِى مَالَهُۥ﴾ يصرفُه في مضارفِ الخير لقوله: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ فإنه بدلٌ من يُؤْتَى أو حالٌ من فاعله.

(١٩) ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ﴾ فيقصدُ بإيتائه مجازاتَها.

---

(١) ولعل تصدير القِسْمين بالإعطاء والبخل ـ مع أن كلاً منهما أدنى رتبة مما بعدهما في استتباع التيسير لليسرى والتيسير للعسرى ـ للإيذان بأن كلاً منهما أصل فيما ذكر لا تتمة لما بعدهما من التصديق والتقوى والتكذيب والاستغناء (س٩/ ١٦٧).

(٢) النحل: «٩».

(٢٠) ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ استثناءٌ منقطع أو متصلٌ عن محذوفٍ مثلُ لا يُؤتَى إلا ابتغاءَ وجْهِ ربه لا لمكافأةِ نعمةٍ.

(٢١) ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ وُعِدَ بالثوابِ الذي يرضيه. والآياتُ نزلتْ في أبي بكر رضي الله تعالى عنه حين اشترى بلالاً في جماعة تولأَّهم المشركونَ فأعتقَهم[١]، ولذلك قيل: المرادُ بالأشقَى أبو جهل أو أمية بنُ خلف. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والليلِ أعطاهُ الله سبحانه وتعالى حتى يرضَى وعافاهُ من العُسْرِ ويسَّر له اليسْرَ»[٢].

☆ ☆ ☆

(١) أخرجه ابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٢٢٨) عن عامر بن عبدالله بن الزبير عن أبيه.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٥ رقم ٣٢٤).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الضُّحَىٰ

ترتيبها ٩٣ — آياتها ١١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

وَالضُّحَىٰ ﴿١﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ ﴿٢﴾ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ﴿٣﴾ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴿٤﴾ وَلَسَوْفَ
يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا
فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ﴿٩﴾ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴿١٠﴾ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿١١﴾

سورة الضحى مكية[1]. وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ ووقتِ ارتفاعِ الشمس، وتخصيصُه لأنَّ النهارَ يقوى فيه، أو لأنَّ فيه كلَّم موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه وأُلقِيَ السحرةُ سجداً، أو النهارِ ويؤيدُه قولُه تعالى ﴿أن يأتيهم بأسنا ضحى﴾[2] في مقابلةِ بياتاً.

(٢) ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ سكَنَ أهلُه أو ركدَ ظلامُه من سجا البحرُ سُجُوّاً إذا سكنتْ أمواجُه. وتقديمُ الليل في السورةِ المتقدمة باعتبار الأصلِ، وتقديمُ النهارِ ها هنا باعتبارِ الشرف.

(٣) ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ﴾ ما قَطَعَكَ قطْعَ المودِّع، وقرىء بالتخفيفِ بمعنى ما تركَكَ وهو جوابُ القسم. ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ وما أبغضَك، وحذفَ المفعولَ استغناءً بذكرِه من قبلُ ومراعاةً للفواصلِ. رُوِيَ أنَّ الوحْيَ تأخَّر عنه أياماً لتركِه الاستثناءَ كما مرَّ في سورةِ الكهف، أو لزجرِه سائلاً ملِحّاً، أو لأنَّ جَرْوَاً ميتاً كان تحتَ سريرِه أو لغيرِه فقال المشركون: إنَّ محمداً ودَّعه ربُّه وقلاه فنزلتْ رداً عليهم[3].

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٢٠): «وهي مكية لا خلاف في ذلك بين الرواة».
(٢) الدخان: «٤».
(٣) أخرجه مسلم (٣/ ١٤٢١ رقم ١١٤/ ١٧٩٧) من حديث جندب.

=

(٤) ﴿وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ فإنها باقيةٌ خالصةٌ عن الشوائبِ وهذه فانيةٌ مشوبةٌ بالمضارِّ، كأنه لما بيَّنَ أنه سبحانه وتعالى لا يزالُ يواصلهُ بالوحي والكرامةِ في الدنيا وَعَدَ له ما هو أعلى وأجلُّ من ذلك في الآخرة، أو لنهايةُ أمرِك خيرٌ من بدايته فإنه ﷺ لا يزالُ يتصاعدُ في الرفعةِ والكمال.

(٥) ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾ وعدٌ شاملٌ لما أعطاهُ من كمالِ النفسِ وظهورِ الأمرِ وإعلاءِ الدين، ولما ادَّخر له مما لا يعرفُ كُنْهَهُ سواهُ. واللامُ للابتداءِ؛ دخل الخبرَ بعدَ حذفِ المبتدأ والتقدير: ولأنتَ سوفَ يعطيك، لا للقسم فإنها لا تدخلُ على المضارعِ إلا مع النونِ المؤكِّدةِ، وجمعُها مع سوفَ للدلالةِ على أنَّ الإعطاءَ كائنٌ لا محالةَ وإنْ تأخَّر لحكمةٍ.

(٦) ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ﴾ تعديدٌ لما أنعم عليه تنبيهاً على أنه كما أحسنَ إليه فيما مضى يحسِنُ إليه فيما يستقبلُ وإنْ تأخَّر. ويجدْكَ من الوجود بمعنى العلم ويتيماً مفعولُه الثاني، أو المصادفةِ ويتيماً حالٌ.

(٧) ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ عن علم الحكمِ والأحكام. ﴿فَهَدَىٰ﴾ فعلَّمك بالوحي والإلهامِ والتوفيقِ للنظر. وقيل وجدكَ ضالاً في الطريق حين خرجَ بكَ أبو طالب إلى الشامِ أو حين فطمتْكَ حليمةُ وجاءتْ بكَ لتردَّك إلى جدِّك، فأزالَ ضلالَكَ عن عمِّك أو جدِّك.

(٨) ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا﴾ فقيراً ذا عيالٍ. ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بما حصلَ لك من ربح التجارة.

(٩) ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ فلا تغلبهُ على ماله لضعْفِه، وقرىء فلا تكهرْ أي فلا تعبسْ في وجهِهِ.

(١٠) ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ فلا تزجُرْهُ.

(١١) ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ فإنَّ التحدُّثَ بها شكْرُها. وقيل المراد بالنعمةِ النبوةُ والتحدثُ بها تبليغُها، عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والضحى جعلَه الله سبحانه وتعالى فيمنْ يرضَى لمحمدٍ ﷺ أنْ يشفعَ له وعشرُ حسناتٍ، يكتبها الله سبحانه وتعالى له بعددِ كلِّ يتيمٍ وسائلٍ»[1].

= ● وأخرج البخاري (٨/ ٧١٠ رقم ٤٩٥٠) ومسلم (٣/ ١٤٢٢ رقم ١١٥/ ١٧٩٧) عن جندب بن سفيان قال: اشتكى رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، فجاءت امرأة فقالت: يا محمدُ إني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركَك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله عز وجل: «والضحى والليل إذا سجى ما ودعك ربك وما قلى».

● وأخرج البخاري (٨/ ٧١١ رقم ٤٩٥١) عن جندب البجلي قالت امرأة: يا رسول الله ما أرى صاحبك إلاَّ أبطأك. فنزلت «ما ودعك ربك وما قلى» وقال الحافظ في «الفتح» عن هذه الرواية: هذا السياق يصلح أن يكون خطاباً لخديجة دون الخطاب الأول فإنه يصلح أن يكون خطاب حمالة الحطب، لتعبيرها بالشيطان والترك، ومخاطبتها بخلاف هذه فقالت: صاحبك، وقالت: يا رسول الله، وقال: أبطأ. وجوز الكرماني أن يكون من تصرف الرواة وهو موجه لأن مخرج الطريقين واحد.

وانظر الفتح أيضاً (٨/٣ ـ ٩) ففيه كلام مفصل حول هذا الاختلاف.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٥ رقم ٣٣١).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الشَّرح

ترتيبها ٩٤ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ
يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٦﴾ فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ﴿٧﴾ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴿٨﴾

سورة ألم نشرح مكية[1]. وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ ألم نفسحه حتى وسِعَ مناجاةَ الحقِّ ودعوةَ الخلْقِ فكان غائباً حاضِراً، أو ألم نفسحه بما أودعنا فيه من الحِكَمِ وأزلْنا عنه ضيقَ الجهلِ، أو بما يسَّرنا لك تلقي الوحي بعدَما كان يشقُّ عليك، وقيل إنه إشارةٌ إلى ما رُوِيَ أن جبريل عليه الصلاة والسلام أتى رسولَ الله ﷺ في صباهُ أو يومَ الميثاقِ، فاستخرجَ قلْبَه فغسله ثم ملأه إيماناً وعلماً[2]. ولعلَّه إشارةٌ إلى نحوِ ما سبق، ومعنى

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٢٥): «وهي مكية بإجماع من المفسرين لا خلاف بينهم في ذلك» هـ.

(٢) قلت: إن القاضي رحمه الله لفق بين حديثين.
(الأول): يتعلق بشق صدره ﷺ في صباه، وليس فيه ذكر ملأه إيماناً وعلماً. وهذا الحديث أخرجه مسلم (١/ ١٤٧ رقم ٢٦١) عن أنس أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو يلعب مع الصبيان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، قال: فغسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه، ثم أعاده في مكانه، قال: وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ـ يعني ظئره ـ فقالوا: إن محمداً قد قتل، فأقبلت ظئره تريده، فاستقبلها راجعاً وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنا نرى أثر المخيط في صدره.
● وغفل الحاكم فاستدركه (٢/ ٥٢٨) وقال: صحيح الإسناد، وقال الذهبي: على شرط مسلم.
(والثاني): يتعلق بشق صدره ﷺ عند المعراج، وفيه جاء ذكر ملأه إيماناً وعلماً.

الاستفهامِ إنكارُ نفيِ الانشراحِ مبالغةً في إثباته ولذلك عطف عليه.

(٢) ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ عِبْأك الثقيلَ.

(٣) ﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ الذي حملَه على النقيض وهو صوتُ الرحلِ عند الانتقاضِ من ثقلِ الحملِ. وهو ما ثَقُلَ عليه من فرطاتِه قبلَ البعثةِ، أو جهلِه بالحِكَمِ والأحكامِ، أو حيرتِه، أو تلقي الوحي، أو ما كان يرى من ضلال قومِه من العجزِ عن إرشادِهم، أو من إصرارِهم وتعدِّيهم في إيذائِه حين دعاهم إلى الإيمان.

(٤) ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ بالنبوةِ وغيرِها وأيِّ رفعٍ، مثلُ أنْ قَرَنَ اسْمَه باسمِه تعانى في كلمتي الشهادةِ وجعلَ طاعتَه طاعتَه وصلَّى عليه في ملائكته وأمرَ المؤمنينَ بالصلاةِ عليه وخاطبه بالألقابِ، وإنما زادَ «لك» ليكون إبهاماً قبل إيضاحٍ فيفيد المبالغةَ.

(٥) ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ﴾ كضيقِ الصدرِ والوزرِ المنقِضِ للظهرِ وضلالِ القوم وإيذائِهم. ﴿يُسْرًا﴾ كالشرحِ والوضعِ والتوفيقِ للاهتداء والطاعةِ فلا تيأسْ من رَوْحِ الله إذا عراك ما يغمُّك، وتنكيرُه للتعظيم. والمعنى بما في «إنّ مع» مِنَ المصاحبةِ المبالغةِ في معاقبةِ اليُسْرِ للعسرِ، واتصالِه به اتصالَ المتقارِبَيْنِ.

(٦) ﴿إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ تكريرٌ للتأكيد أو استئنافٌ وعَدَه بأنَّ العُسْرَ متبوعٌ بِيُسْرٍ آخرَ كثوابِ الآخرة كقولك: إن للصائمِ فرحةً إنَّ للصائم فرحةً أي فرحةً عندَ الإفطارِ وفرحةٌ عند لقاءِ الربِّ. وعليه قولُه عليه الصلاةُ والسلام «لن يغلِبَ عسرٌ يُسْرَيْنِ»[1] فإنَّ العسرَ معرَّفٌ فلا يتعدَّدُ سواءٌ كان للعهدِ أو

= وهذا الحديث أخرجه البخاري (٦/٣٠٢ رقم ٣٢٠٧) و(٧/٢٠١ رقم ٣٨٨٧) ومسلم (١/١٤٩ ـ ١٥٠ رقم ٢٦٤).

عن أنس بن مالك وفيه: «قال النبي ﷺ: بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان فأتيت بطست من ذهب ملآن حكمة وإيماناً، فشق من النحر إلى مراق البطن ثم غسل البطن بماء زمزم، ثم ملىء حكمة وإيماناً».

(١) ● أخرجه عبدالرزاق في «تفسيره» (٥/٣٥٩١) والحاكم في المستدرك (٢/٥٢٨) من حديث الحسن البصري مرسلاً.

وسكت عليه الحاكم، وقال الذهبي مرسل.

● وأخرجه ابن مردويه ـ كما في «الدر» (٨/٥٥٠) ـ بإسناد ضعيف من حديث جابر موصولاً في سياق طويل (الكافي الشافِ) (ص١٨٦ رقم ٣٣٤).

● وله شاهد موقوف على عمر، أخرجه مالك في الموطأ (٢/٤٤٦ رقم ٦) والحاكم (٢/٣٠٠ ـ ٣٠١) في سياق طويل.

قال الحاكم: صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

وقال الحاكم في تفسير (ألم نشرح) (٢/٥٢٨) قد صحت الرواية عن عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب «لن يغلب عسر يسرين».

● وله شاهد مرفوع من حديث أنس بلفظ «كان النبي ﷺ جالساً فنظر إلى جُحر فقال لو جاء العسر حتى يدخل هذا الحجر لجاء اليسر حتى يخرجه، ثم تلا «فإن مع العسر يسراً».

أخرجه البزار (٣/٨١ ـ كشف)وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/١٣٩) وقال: فيه عائذ بن شريح هو ضعيف. =

للجنسِ، واليسر مُنَكَّرٌ فيحتملُ أنْ يُرَادَ بالثاني فردٌ يغاير ما أُرِيْدَ بالأولِ.

(٧) ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ ﴾ من التبليغ. ﴿ فَٱنصَبْ ﴾ فاتْعَبْ في العبادة شكراً لما عَدَدْنا عليك من النعمِ السالفة ووعدْناك من النعمِ الآتية. وقيل إذا فرغْتَ من الغزوِ فانْصَبْ في العبادة، أو فإذا فرغْتَ من الصلاةِ فانصبْ بالدعاءِ.

(٨) ﴿ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب ﴾ بالسؤالِ ولا تسألْ غَيْرَهُ فإنه القادرُ وحدَه على إسعافِك، وقرىء فَرَغِّبْ أي فرغِّبِ الناسَ إلى طلبِ ثوابه. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ ألم نشرح فكأنما جاءني وأنا مغتمٌ ففرَّجَ عنِّي»[١].



= ● وشاهد من حديث ابن مسعود مثل لفظ حديث أنس أخرجه الطبراني في الكبير (١٠/ ٨٥ رقم ٩٩٧٧). وأورده الهيثمي في «المجمع» (٧/ ١٣٩) وقال: فيه إبراهيم النخعي وهو ضعيف.
كذا قال: وقال الشيخ حمدي السلفي: لعله محرف من أبي مالك النخعي وهو متروك وأبو حمزة ضعيف.
وأخرجه عبدالرزاق، وسعيد بن منصور، وعبد بن حميد، وابن أبي الدنيا في الصبر. عن ابن مسعود موقوفاً ـ كما في «الدر» (٨/ ٥٥١) ـ.

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٦ رقم ٣٣٦). وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التِّين

آياتها ٨ — ترتيبها ٩٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ﴿٣﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ
سَٰفِلِينَ ﴿٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٦﴾ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِٱلدِّينِ ﴿٧﴾ أَلَيْسَ
ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٨﴾

سورة والتين مختلف فيها(١). وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾ خصَّهما من الثمارِ بالقَسَم لأنَّ التينَ فاكهةٌ طيبةٌ لا فضلَ له وغذاءٌ لطيف سريعُ الهضم، ودواء كثيرُ النفعِ فإنه يُلينُ الطَّبْعَ ويحللُ البلغمَ ويطهِّر الكليتينِ ويزيلُ رملَ المثانةِ ويفتحُ سَدَدَ الكبدِ والطحَالِ ويسمِّن البدنَ، وفي الحديث أنه يقطعُ البواسيرَ(٢) وينفعُ من النقرسِ(٢). والزيتونُ فاكهةٌ وإدامٌ ودواءٌ وله دهنٌ لطيف كثير المنافعِ، مع أنه قد ينبتُ حيثُ لا دهنيةَ فيه كالجبالِ، وقيل المرادُ بهما جبلانِ من الأرضِ المقدسةِ أو مسجدا دمشقَ وبيتِ المقدس، أو البَلَدَانِ.

(٢) ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ يعني الجبلَ الذي ناجَى عليه موسى عليه الصلاة والسلام ربَّه، وسينينُ وسيناءُ اسمانِ للموضعِ الذي هو فيه.

قال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١١٠): «مكية في قول الأكثر، وقال ابن عباس وقتادة: هي مدنية» هـ.

أنواع من الأمراض.

● قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٨٦ رقم ٣٣٧): «ـ أخرجه ـ أبو نعيم في الطب، والثعلبي من حديث أبي ذر. وفي إسناده من لا يعرف».

(٣) ﴿وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ أي الآمِنُ من أَمِنَ الرجل أمانةً فهو أمينٌ، أو المأمونُ فيه يأمنُ فيه من دخلَه والمرادُ به مكةُ.

(٤) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ يريدُ به الجنسَ. ﴿فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ تعديلٍ بأنْ خُصَّ بانتصابِ القامةِ وحسنِ الصورة واستجماعِ خواصِّ الكائنات ونظائرِ سائرِ الممكناتِ.

(٥) ﴿ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ بأنْ جعلناه من أهلِ النار أو إلى أسفل سافلينَ وهو النارُ. وقيل هو أرذلُ العمرِ فيكون قولُه:

(٦) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ استثناءً منقطعاً. ﴿فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ لا ينقطعُ أو لا يُمَنُّ به عليهم، وهو على الأول حكمٌ مرتَّبٌ على الاستثناءِ مقرِّرٌ له.

(٧) ﴿فَمَا يُكَذِّبُكَ﴾ أي فأيُّ شيءٍ يكذِّبك يا محمدُ دلالةً أو نطقاً. ﴿بَعْدُ بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاءِ بعدَ ظهورِ هذه الدلائلِ. وقيل ما بمعنى مَنْ. وقيل الخطابُ للإنسان على الالتفاتِ، والمعنى فما الذي يحملُك على هذا الكذبِ.

(٨) ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ تحقيقٌ لما سبق. والمعنى أليس الذي فعلَ ذلك من الخلقِ والردِّ بأحكمِ الحاكمينَ صُنْعاً وتدبيراً ومَنْ كان كذلك كان قادراً على الإعادةِ والجزاءِ على ما مرَّ مراراً. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ والتينِ أعطاه الله العافيةَ واليقينَ ما دامَ حياً، فإذا ماتَ أعطاه اللهُ من الأجرِ بعددِ مَنْ قرأ هذه السورةَ»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٠).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ العَلَقِ

ترتيبها ٩٦ — آياتها ١٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ
يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا
صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾

سورة العلق مكية[١]. وآيها تسع عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ أي اقرأِ القرآنَ مُفْتَتِحاً باسمه سبحانه وتعالى، أو مستعيناً به. ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ أي الذي له الخلقُ أو الذي خلقَ كلَّ شيء[٢]، ثم أفردَ ما هو أشرفُ وأظهرُ صُنْعَاً وتدبيراً وأدلُّ على وجوب العبادة المقصودةِ من القراءة فقال:

(٢) ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أو الذي خلقَ الإنسانَ فأَبْهِمَ أولاً ثم فُسِّر تفخيماً لخلقه ودلالةً على عجيب فطرتهِ. ﴿مِنْ عَلَقٍ﴾ جمعَه على الإنسان في معنى الجمعِ، ولما كان أولُ الواجباتِ معرفةَ الله سبحانه

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٣٣): «وهي مكية بإجماع..».

(٢) التعرض لعنوان الربوبية ـ المنبئة عن التربية والتبليغ إلى الكمال اللائق شيئاً فشيئاً ـ مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام للإشعار بتبليغه عليه السلام إلى الغاية القاصية من الكمالات البشرية بإنزال الوحي المتواتر.
ووصْفُ الرب بقوله تعالى «الذي خلق» لتذكير أول النعماء الفائضة عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ منه تعالى، والتنبيه على أن من قدر على خلق الإنسان على ما هو عليه من الحياة وما يتبعها من الكمالات العلمية والعملية. من مادة لم تشمَّ رائحة الحياة فضلاً عن سائر الكمالات قادرٌ على تعليم القراءة للحي العالم المتكلم (س٩/ ١٧٧).

وتعالى نزَّلَ أولاً ما يدلُّ على وجودهِ وفَرْطِ قدرته وكمالِ حِكْمَتِه.

(٣) ﴿ٱقْرَأْ﴾ تكريرٌ للمبالغةِ، أو الأولُ مطلقٌ والثاني للتبليغ، أو في الصلاة. ولعلَّه لما قيل له: اقرأ باسم ربِّك فقال: ما أنا بقارىء، فقيل له اقرأ: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾ الزائدُ في الكرمِ على كلِّ كريم فإنه سبحانه وتعالى ينعمُ بلا عوضٍ ويحلمُ من غير تخوُّفٍ، بل هو الكريمُ وحدَه على الحقيقةِ.

(٤) ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ أي الخطَّ بالقلمِ، وقد قرىء به لِتُقَيَّدَ به العلومُ ويُعْلَمَ به البعيدُ.

(٥) ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ بخلقِ القوى ونصْبِ الدلائلِ وإنزالِ الآياتِ فيعلِّمُك القراءةَ وإن لم تكن قارئاً. وقد عدَّد سبحانه وتعالى مبدأَ أمرِ الإنسانِ ومنتهاهُ إظهاراً لما أنعمَ عليه، من أنَّ نقلَه من أخسِّ المراتِبِ إلى أعلاها تقريراً لربوبيته وتحقيقاً لأكرميَّتِه، وأشارَ أولاً إلى ما يدلُّ على معرفتِه عقلاً ثم نبَّه على ما يدلُّ عليها سمعاً.

(٦) ﴿كَلَّآ﴾ ردعٌ لمن كفَرَ بنعمةِ الله بطغيانِه وإن لم يُذْكَرْ لدلالة الكلامِ عليه. ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَيَطْغَىٰٓ﴾.

(٧) ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ أنْ رأى نفسَه[1]، واستغْنَى مفعولُه الثاني لأنه بمعنَى عِلِمَ ولذلك جازَ أنْ يكونَ فاعلُه ومفعولُه ضميرينِ لواحدٍ.

(٨) ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ الخطابُ للإنسان على الالتفاتِ تهديداً وتحذيراً من عاقبة الطغيانِ، والرُّجْعَى مصدرٌ كالبُشْرى[2].

(٩) ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ﴾.

(١٠) ﴿عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ نزلتْ في أبي جهل قال لو رأيتُ محمداً ساجداً لوطِئْتُ عُنُقَهُ، فجاءه ثم نكصَ على عقبيه فقيل له: مالَكَ؟ فقال: إنَّ بيني وبينَه لخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً، فنزلتْ[3]. ولفظُ العبدِ وتنكيرُه للمبالغةِ في تقبيحِ النهي والدلالةِ على كمال عبوديةِ المنهيِّ.

(١١) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ﴾.

(١٢) ﴿أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ﴾ أرأيتَ تكريرٌ للأول وكذا الذي في قوله:

---

(١) تعليل طغيانه برؤيته لا بنفس الاستغناء ـ كما ينبىء عنه قوله تعالى: «ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض» للإيذان بأن مدار طغيانه زعمه الفاسد (س٩/ ١٧٠).

(٢) وتقديم الجار والمجرور إلى ربك عليه لقصره عليه، أي إن إلى مالك أمرك رجوعَ الكل بالموت والبعث لا إلى غيره استقلالاً ولا اشتراكاً فسنرى حينئذ عاقبة طغيانك (س٩/ ١٧٩).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٥٤ رقم ٣٨/ ٢٧٩٧) من حديث أبي هريرة.

وزاد السيوطي نسبته في «الدر المنثور» (٨/ ٥٦٥) للنسائي وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي وأبي نعيم.

﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾﴾

(١٣) ﴿أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ﴾.

(١٤) ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ﴾ والشرطيةُ مفعولُه الثاني، وجوابُ الشرطِ محذوفٌ دل عليه جوابُ الشرط الثاني الواقعُ موقعَ القسيم له. والمعنى أخبرني عمَّن ينهى بعضَ عبادِ الله عن صلاته إن كان ذلك الناهي على هُدى فيما ينهى عنه أو آمراً بالتقوى فيما يأمرُ به من عبادةِ الأوثان كما يعتقدُه، أو إن كان على التكذيبِ للحق والتولي عن الصواب كما تقولُ: ألم يعلمْ بأنَّ الله يرى ويطَّلِعُ على أحواله من هداهُ وضلالِه. وقيل المعنى أرأيتَ الذي ينهى عبداً يصلِّي والمنهي على الهدى آمراً بالتقوى والناهي مكذِّبٌ متولٍّ فما أعْجَبَ مَنْ ذا. وقيل الخطابُ في الثانية مع الكافر فإنه سبحانه وتعالى كالحاكم الذي حضَره الخصْمانِ يخاطِبُ هذا مرةً والآخرَ أخرى، وكأنه قال يا كافِرُ أخبِرني إنْ كان صلاتُه هُدَىً ودعاؤُه إلى الله سبحانه وتعالى أمراً بالتقوى أتنهاهُ؟. ولعلَّه ذكرَ الأمرَ بالتقوى في التعجُّبِ والتوبيخِ ولم يتعرضْ له في النهي لأنَّ النهيَ كان عن الصلاة والأمر بالتقوى، فاقتصرَ على ذِكْرِ الصلاةِ لأنه دعوةٌ بالفعلِ أو لأنَّ نهيَ العبدِ إذا صلَّى يُحْتَمَلُ أنْ يكونَ لها ولغيرِها وعامةُ أحوالِها محصورةٌ في تكميلِ نفسِه بالعبادة وغيرِه بالدعوة.

(١٥) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ للناهي. ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ عما هو فيه. ﴿لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ﴾ لنأخذَنَّ بناصيتِه ولنسحبنَّه بها إلى النارِ، والسفعُ القبضُ على الشيءِ وجذْبه بشدَّةٍ. وقرىء لنسفعنَّ بنونٍ مشددة ولأسفعنَّ، وكتابتُه في المصحف بالألفِ على حكمِ الوقف، والاكتفاءُ باللام عن الإضافة للعلمِ بأنَّ المرادَ ناصيةُ المذكورِ.

(١٦) ﴿نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾ بدلٌ من الناصيةِ وإنما جازَ لوصْفِها، وقرئت بالرفعِ على هي ناصيةٌ والنصبِ على الذمِّ. ووصْفُها بالكذب والخطأ ـ وهما لصاحِبها ـ على الإسناد المجازيِّ للمبالغة.

(١٧) ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾ أي أهلَ ناديه ليعينُوه وهو المجلسُ الذي ينتدي فيه القومُ. رُوِيَ أنا أبا جهل لعنه الله مرَّ برسولِ الله ﷺ وهو يصلِّي فقال: ألم أنهكَ، فأغلظَ له رسولُ الله ﷺ فقال: أتهدِّدُني وأنا أكثر أهلِ الوادي نادياً؟ فنزلتْ[١].

(١٨) ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ ليجرُّوه إلى النار. وهو في الأصلِ الشُرَطُ واحدُها زبنيةٌ كعفريةٍ من الزَّبْنِ وهو الدفعُ، أو زبنيّ على النسبِ وأصلُها زبانيٌّ والتاء معوَّضةٌ عن الياء.

(١٩) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ أيضاً للناهي. ﴿لَا تُطِعْهُ﴾ أي اثْبُتْ أنتَ على طاعتِك. ﴿وَٱسْجُدْ﴾ داوِمْ على سجودك. ﴿وَٱقْتَرِب ۩﴾ وتقرَّب إلى ربِّك وفي الحديث «أقربُ ما يكون العبدُ إلى ربه إذا سجدَ»[٢].

---

(١) تقدم تخريجه قريباً.

(٢) أخرج مسلم (١/ ٣٥٠ رقم ٢١٥/ ٤٨٢) من حديث أبي هريرة مرفوعاً. =

عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ العلقِ أُعْطِيَ من الأجرِ كأنما قرأ المفصَّلَ كلَّه»[1].

☆ ☆ ☆

= بلفظ «أقرب ما يكون العبدُ من ربه وهو ساجد». وأخرجه أيضاً البغوي في شرح السنة (٣/ ١٥١ رقم ٥٥٨) والنسائي (٢/ ٢٢٦) وأبو داود رقم (٨٧٥).

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَدْرِ

ترتيبها ٩٧ — آياتها ٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ﴿٤﴾ سَلَٰمٌ هِىَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ ﴿٥﴾

سورة القدر مختلف فيها[1]. وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ الضميرُ للقرآن فخَّمه بإضمارِه من غير ذكرٍ شهادةٍ له بالنباهةِ المغنيةِ عن التصريحِ كما عظَّمه بأنْ أسندَ نَزْلَه إليه، وعظَّم الوقْتَ الذي أُنْزِلَ فيه بقوله:

(٢) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ .

(٣) ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ وإنزالُه فيها بأنِ ابتدأ بإنزالِه فيها، أو أنزلَه جملةً من اللوحِ إلى السماءِ الدنيا على السَّفرةِ، ثم كان جبريلُ عليه الصلاة والسلام ينزلُه على رسولِ الله ﷺ نجوماً في ثلاثٍ وعشرينَ سنةً. وقيل المعنى أنزلناه في فضلِها وهي في أوتارِ العشرِ الأخيرِ من رمضانَ، ولعلَّها السابعةُ منها، والداعي إلى إخفائها أنْ يحييَ مَنْ يريدها لياليَ كثيرةً، وتسميتُها بذلك لشرفها أو لتقديرِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٣٨): «اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال قتادة: هي مكية. وقال ابن عباس وغيره: هي مدنية» هـ.
وقال الماوردي في «النكت والعيون» (٦/٣١١): «مكية في قول الأكثرين، ومدنية في قول الضحاك، وذكر الواقدي أنها أول سورة نزلت بالمدينة» هـ.
وقال البغوي في «معالم التنزيل» (٨/٤٨٥): «مكية» هـ. وانظر «الدر المنثور» (٨/٥٦٧).

الأمورِ فيها لقوله سبحانه وتعالى ﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[١]. وذِكْرُ الألْفِ إما للتكثير، أو لما روي أنه عليه الصلاة والسلام ذكَرَ إسرائيلياً يلبسُ السلاحَ في سبيل الله ألفَ شهرٍ، فعجبَ المؤمنون وتقاصرتْ إليهم أعمالُهم، فأُعْطُوا ليلةَ القدر هي خيرٌ من مدَّةِ ذلك الغازي[٢].

(٤) ﴿ تَنَزَّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم﴾ بيانٌ لما له فُضِّلَتْ على ألفِ شهر وتنزُّلهم إلى الأرضِ، أو إلى السماء الدنيا أو تقرُّبهم إلى المؤمنين. ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ من أجلِ كلِّ أمر قُدِّرَ في تلك السنةِ، وقرىء من كلِّ امرىءٍ أي من أجلِ كلِّ إنسان.

(٥) ﴿ سَلَٰمٌ هِىَ﴾ ما هي إلا سلامةٌ أي لا يقدِّر اللهُ فيها إلا السلامةَ، ويقضي في غيرها السلامةَ والبلاءَ، أو ما هي إلا سلامٌ لكثرةِ ما يسلِّمونَ فيها على المؤمنين. ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ ٱلْفَجْرِ﴾ أي وقتِ مطلعِه أي طلوعِه. وقرأ الكسائي بالكسرِ على أنه كالمرجعِ أو اسمُ زمانٍ على غير قياس كالمشرِقِ.

عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ القدرِ أُعْطِيَ من الأجْرِ كَمَنْ صامَ رمضانَ وأحيا ليلةَ القدرِ»[٣].



(١) الدخان: «٤».

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» (١٥/ج٣٠/٢٥٩ ـ ٢٦٠)، والواحدي في «أسباب النزول» ص٤٦١ كلاهما عن مجاهد.
وأخرجه البيهقي في السنن الكبرى (٤/٣٠٦) وقال: هذا مرسل.
وذكره ابن كثير في التفسير (٤/٥٦٧) من رواية ابن أبي حاتم عن مجاهد «أن النبي ﷺ ذكر رجلاً من بني إسرائيل...» وهو منقطع، وفيه مسلم بن خالد الزنجي صدوق له أوهام.

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٧).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ البَيِّنَةِ

ترتيبها ٩٨ — آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا
مُّطَهَّرَةً ﴿٢﴾ فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ ﴿٣﴾ وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟
إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾

سورة لم يكن مختلف فيها[1]. وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ اليهودُ والنصارى فإنَّهم كفروا بالإلحادِ في صفاتِ الله سبحانه وتعالى: ومِنْ للتبيين. ﴿وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وعبدةِ الأصنام. ﴿مُنفَكِّينَ﴾ عما كانوا عليه من دينهم، أو الوعدِ باتباعِ الحقِّ إذ جاءهم الرسولُ ﷺ. ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ الرسولُ عليه الصلاة والسلام، أو القرآنُ فإنه مبيِّنٌ للحقِّ، أو معجزةُ الرسولِ بأخلاقه والقرآنِ بإفحامِه مَنْ تحدَّى به.

(٢) ﴿رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ بدلٌ من البينةِ بنفسِه أو بتقدير مضافٍ أو مبتدأ ﴿يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ صفتُه أو خبره، والرسولُ عليه الصلاة والسلام وإن كان أمياً لكنه لما تلا مثلَ ما في الصحفِ كان كالتالي لها. وقيل المرادُ جبريلُ عليه الصلاة والسلام. وكونُ الصحفِ مطهَّرةً أنَّ الباطلَ لا يأتي ما فيها، أو أنها لا يمسُّها إلا المطهرونَ.

(٣) ﴿فِيهَا كُتُبٌ قَيِّمَةٌ﴾ مكتوباتٌ مستقيمةٌ ناطقةٌ بالحق.

(٤) ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ عما كانوا عليه بأن آمنَ بعضُهم أو تردَّد في دينه، أو عن وعْدِهم بالإصرارِ على الكفرِ. ﴿إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ فيكون كقوله ﴿وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٤٣): «وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير وعطاء بن يسار أنها مدنية، والأول أشهر» هـ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[1]. وإفرادُ أهلِ الكتابِ بعدَ الجمعِ بينَهم وبين المشركين للدلالةِ على شناعةِ حالهم، وأنهم لما تفرَّقوا مع علمِهم كان غيرهم بذلك أولى.

(٥) ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ﴾ أي في كُتُبهم بما فيها. ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ لا يشركون به. ﴿حُنَفَآءَ﴾ مائلينَ عن العقائدِ الزائغةِ. ﴿وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ولكنَّهم حرَّفوا وعَصَوْا. ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ دينُ الملَّةِ القيِّمةِ.

إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٦﴾ إِنَّ
ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ ﴿٧﴾ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ
خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ ﴿٨﴾

(٦) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ أي يومَ القيامة، أو في الحالِ لملابستِهم ما يوجبُ ذلك، واشتراكُ الفريقين في جنسِ العذاب لا يوجبُ اشتراكَهما في نوعِه فلعلَّه يختلفُ لتفاوُتِ كفرِهما. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ شَرُّ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ أي الخليقةِ. وقرأ نافع البريئةِ بالهمزِ على الأصلِ.

(٧) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾.

(٨) ﴿جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ فيه مبالغاتٌ: تقديمُ المدح، وذكْرُ الجزاءِ المؤذنِ بأنَّ ما مُنِحُوا في مقابلة ما وُصِفُوا به والحكمُ عليه بأنَّه مِنْ عندِ ربِّهم، وجمعُ جناتٍ وتقييدُها إضافة ووصفاً بما تزدادُ لها نعيماً، وتأكيدُ الخلودِ بالتأبيد. ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ استئنافٌ بما يكون لهم زيادةً على جزائِهم. ﴿وَرَضُواْ عَنْهُ﴾ لأنه بلَّغهم أقصى أمانيهم. ﴿ذَٰلِكَ﴾ أي المذكورُ من الجزاء والرضوانِ. ﴿لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُۥ﴾ فإنَّ الخشيةَ ملاكُ الأمرِ والباعثُ على كلِ خير. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ لم يكنِ الذين كفروا كان يومَ القيامة مع خيرِ البريةِ مساءً ومقيلاً»[2].

☆ ☆ ☆

---

(١) البقرة: «٨٩».
(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٦ رقم ٣٤٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الزلزلة

ترتيبها ٩٩ آياتها ٨

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ﴿٢﴾ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٦﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾

سورة الزلزلة مختلف فيها[1]. وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ اضطرابَها المقدَّرَ لها عند النفخةِ الأولى أو الثانيةِ، أو الممكِنَ لها أو اللائقَ بها في الحكمةِ، وقرىء بالفتح وهو اسمُ الحركة وليس في الأبنية فعلالٌ إلا في المضاعفِ.

(٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ ما في جوفها من الدفائن أو الأمواتِ جمعُ ثِقْلٍ وهو متاعُ البيت.

(٣) ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا﴾ لما يبهرُهم من الأمر الفظيع، وقيل المراد بالإنسان الكافرُ فإنَّ المؤمنَ يعلمُ ما لها.

(٤) ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ﴾ تحدِّثُ الخلْقَ بلسان الحالِ. ﴿أَخْبَارَهَا﴾ ما لأجلِه زلزالُها وإخراجُها. وقيل ينطقُها الله سبحانه وتعالى فتخبرُ بما عُمِلَ عليها. ويومئذ بدلٌ من إذا وناصبُهما تحدِّثُ، أو أصلٌ وإذا منتصِبٌ بمضمرٍ.

(٥) ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾ أي تحدِّث بسببِ إيحاء ربِّك لها بأنْ أحدثَ فيها ما دلَّتْ على الإخبار، أو أنطقَها بها، ويجوزُ أنْ يكون بدلاً من إخبارِها إذ يُقَالُ: حدَّثْتُه كذا وبكذا، واللامُ بمعنى إلى أو

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٤٧) «وهي مكية قاله ابن عباس وغيره وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن آخرها نزل بسبب رجلين كانا بالمدينة».

على أصلِها إذ لها في ذلك تشفٌّ من العصاةِ.

(٦) ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ﴾ من مخارجهم من القبور إلى الموقف. ﴿أَشْتَاتًا﴾ متفرِّقينَ بحسبِ مراتبِهم. ﴿لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ جزاءَ أعمالهم، وقرىء بفتحِ الياء.

(٧) ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ﴾.

(٨) ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ تفصيلٌ ليَروا ولذلك قرىء يُرَهُ بالضمِّ، وقرأ هشامٌ بإسكان الهاء. ولعلَّ حسنةَ الكافرِ وسيئةَ المجتنبِ عن الكبائرِ تؤثرانِ في نقصِ الثوابِ والعقابِ. وقيل الآيةُ مشروطةٌ بعدم الإحباط والمغفرةِ، أو مَنْ الأولى مخصوصةٌ بالسعداء والثانيةُ بالأشقياءِ لقوله أشتاتاً. والذرَّة النملةُ الصغيرة أوِ الهباءُ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ إذا زلزلتِ الأرضُ أربعَ مراتٍ كان كمن قرأ القرآنَ كلَّه»(١).

☆ ☆ ☆

(١) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٨٧ رقم ٣٥١): «أخرجه الثعلبي من حديث علي بإسناد أهل البيت. لكنه من رواية أبي القاسم الطائي، وهو ساقط.
وشاهده عند ابن أبي شيبة، والبزار من رواية سلمة بن وردان عن أنس مرفوعاً: «إذا زلزلت تعدل ربع القرآن» وهو حديث ضعيف.
وأخرجه ابن مردويه والواحدي بإسناديهما إلى أبي بن كعب بلفظ «من قرأ إذا زلزلت أعطى من الأجر كمن قرأ القرآن» وهو حديث موضوع.

سُورَةُ العَادِيَات

ترتيبها ١٠٠ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا ﴿١﴾ فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا ﴿٢﴾ فَٱلْمُغِيرَٰتِ صُبْحًا ﴿٣﴾ فَأَثَرْنَ بِهِۦ نَقْعًا ﴿٤﴾ فَوَسَطْنَ بِهِۦ جَمْعًا ﴿٥﴾ إِنَّ
ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ﴿٧﴾ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴿٨﴾ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا
بُعْثِرَ مَا فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٩﴾ وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ ﴿١٠﴾ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌۢ ﴿١١﴾

سورة والعاديات مختلف فيها(١)، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْعَٰدِيَٰتِ ضَبْحًا﴾ أقسمَ سبحانه بخيلِ الغزاةِ تعدو فتضبَحُ ضبحاً، وهو صوتُ أنفاسِها عند العدْوِ. ونصبَه بفعله المحذوفِ، أو بالعاديات فإنها تدلُّ بالالتزامِ على الضابحاتِ، أو ضبْحاً حالٌ بمعنى ضابحةٍ.

(٢) ﴿فَٱلْمُورِيَٰتِ قَدْحًا﴾ فالتي توري النارَ، والإيراءُ إخراجُ النارِ يُقَالُ قدحَ الزَّنْدَ فأورى.

(٣) ﴿فَٱلْمُغِيرَٰتِ﴾ يغيرُ أهلُها على العدوِّ. ﴿صُبْحًا﴾ أي في وقتِه.

(٤) ﴿فَأَثَرْنَ﴾ فهيَّجْنَ. ﴿بِهِۦ﴾ بذلك الوقتِ. ﴿نَقْعًا﴾ غباراً أو صياحاً.

(٥) ﴿فَوَسَطْنَ بِهِۦ﴾ فتوسَّطْنَ بذلك الوقتِ أو بالعدوِّ أو بالنقعِ، أي ملتبساتٍ به. ﴿جَمْعًا﴾ من جموع الأعداء، رُوِيَ أنه عليه الصلاة والسلام بعثَ خيلاً فمضتْ أشهرٌ لم يأتِه منهم خبرٌ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٥٢): وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم. وقال المهدوي عن أنس بن مالك: هي مدنية» هـ.
وقال القرطبي في «الجامع لأحكام القرآن» (٢٠/ ١٥٣): «وهي مكية، في قول ابن مسعود وجابر والحسن وعكرمة وعطاء. ومدنية في قول ابن عباس وأنس ومالك وقتادة» هـ.

فنزلت[١]. ويُحْتَمَلُ أنْ يكونَ القسمُ بالنفوسِ العادِيَةِ إثر كمالِهنَّ، الموريات بأفكارهن أنوارَ المعارفِ، والمغيراتِ على الهوى والعاداتِ إذا ظهر لهنَّ مثلُ أنوارِ القدس، فأثرْنَ به شوقاً فوسطْن به جمعاً من مجموعِ العلّيّينَ.

(٦) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ﴾ لكفورٌ مِنْ كَنَدَ النعمةَ كُنُوداً، أو لَعاصٍ بلغةِ كِنْدَةَ، أو لبخيلٍ بلغةِ بني مالكٍ، وهو جوابُ القسم.

(٧) ﴿وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ﴾ وإنَّ الإنسان على كنودِه ﴿لَشَهِيدٌ﴾ يشهدُ على نفسه لظهور أثرِه عليه، أو أنَّ الله سبحانه وتعالى على كنوده لشهيدٌ فيكون وعيداً.

(٨) ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ﴾ المالِ من قوله سبحانه وتعالى ﴿إن ترك خيراً﴾[٢] أي مالاً. ﴿لَشَدِيدٌ﴾ لبخيلٌ أو لقويٌّ مبالغٌ فيه.

(٩) ﴿ ۞ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ﴾ بُعِثَ. ﴿مَا فِى ٱلْقُبُورِ﴾ من الموتى، وقرىء بُحْثِرَ وبُحِثَ.

(١٠) ﴿وَحُصِّلَ﴾ جُمِعَ محصّلاً في الصحفِ أو مُيّزَ. ﴿مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ من خيرٍ أو شرٍّ، وتخصيصُه لأنه الأصلُ.

(١١) ﴿إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ﴾ وهو يومُ القيامة. ﴿لَّخَبِيرٌ﴾ عالم بما أعلَنوا وما أسرُّوا فيجازيهم عليه، وإنما قال «ما» ثَمَّ قال «بهم» لاختلافِ شأنهم في الحالين، وقرىء أنَّ وخبيرٌ بلا لامٍ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والعادياتِ أُعْطِيَ من الأجر عشرَ حسنات بعددِ مَنْ باتَ بالمزدلفةِ وشهدَ جُمَعاً»[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) ذكره الواحدي في «الأسباب» ص٤٦٣ عن مقاتل بدون سند.

(٢) البقرة: «١٨٠».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي وابن مردويه والثعلبي عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٧ رقم ٣٥٤).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ القَارِعَة
ترتيبها ١٠١ — آياتها ١١

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ٱلْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ
ٱلْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ﴿٥﴾ فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٦﴾ فَهُوَ فِى
عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾
نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾

سورة القارعة مكية[1]، وآيها إحدى عشرة آية

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٢) ﴿مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾.

(٣) ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ﴾ سبقَ بيانه في الحاقة.

(٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ﴾ في كثرتِهم وذِلَّتِهم وانتشارِهم واضطرابهم. وانتصابُ يوم بمضمَر دلت عليه القارعةُ.

(٥) ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ﴾ كالصوفِ ذي الألوان. ﴿ٱلْمَنفُوشِ﴾ المندوفِ لتفرُّقِ أجزائِها وتطايرها في الجوِّ.

(٦) ﴿فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ﴾ بأنْ ترجَّحت مقاديرُ أنواعِ حسناته.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٥٦): «وهي مكية بلا خلاف».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/ ١٦٤): «وهي مكية بإجماع».

(٧) ﴿ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ ﴾ في عيشٍ. ﴿ رَّاضِيَةٍ ﴾ ذاتِ رضا أو مرضيةٍ.

(٨) ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُۥ ﴾ بأنْ لم يكنْ له حسنةٌ يُعْبَأُ بها، أو ترجَّحت سيئاتُه على حسناته.

(٩) ﴿ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴾ فمأواهُ النارُ المحرقةُ، والهاويةُ من أسمائِها ولذلك قال:

(١٠) ﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴾.

(١١) ﴿ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴾ ذاتُ حِمَى. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأَ سورةَ القارعة ثقَّلَ الله بها ميزانَه يومَ القيامةِ»[1].



(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٧ رقم ٣٥٧).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ التَّكَاثُرِ

ترتيبها ١٠٢ — آياتها ٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴿١﴾ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ﴿٢﴾ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ كَلَّا لَوْ
تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ﴿٥﴾ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ﴿٦﴾ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ﴿٧﴾ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ
ٱلنَّعِيمِ ﴿٨﴾

سورة التكاثر مختلف فيها[1]، وآيها ثمان آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلْهَىٰكُمُ﴾ شغلَكُم وأصلُه الصرفُ إلى اللهو منقولٌ من لها إذا غَفَلَ. ﴿ٱلتَّكَاثُرُ﴾ التباهي بالكثرةِ.

(٢) ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ﴾ إذا استوعبتُم عددَ الأحياءِ صرتُم إلى المقابر فتكاثرتُم بالأمواتِ، عبَّر عن انتقالهم إلى ذكرِ الموتى بزيارة المقابر. روي[2] أن بني عبدِ منافٍ وبني سهمٍ تفاخروا بالكثرة فكثَرَهُم بنو عبد مناف، فقال بنو سهمٍ إن البغي أهلكَنا في الجاهليةِ فعادُّونا بالأحياءِ والأمواتِ فكثَرَهُم بنو سهمٍ. وإنما حذفَ المنهيَّ عنه وهو ما يعنيهم من أمر الدين للتعظيم والمبالغةِ. وقيل[3] معناه ألهاكم التكاثرُ بالأموال والأولادِ إلى أن مِتُّم وقُبِرْتُم مضيِّعين أعماركم في طلبِ الدنيا عما هو أهمُّ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٥٨): «وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/١٦٨): «وهي مكية في قول جميع المفسرين، وروى البخاري أنها مدنية» هـ.

(٢) ذكره الواحدي في «الأسباب» (ص٤٦٤) من قول مقاتل والكلبي بدون سند وكذلك ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/٥١٧).

(٣) قاله الحسن البصري كما في تفسير ابن كثير (٤/ ٥٨٢).

لكم، وهو السعيُ لأُخرَاكم فتكون زيارةُ القبور عبارةً عن الموتِ.

(٣) ﴿ كَلَّا﴾ ردعٌ وتنبيهٌ على أنَّ العاقلَ ينبغي له أن لا يكونَ جميعُ همِّه ومعظمَ سعيه للدنيا فإنَّ عاقبة ذلك وبالٌ وحسرةٌ. ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ خطأَ رأيكم إذا عاينتُم ما وراءَكم، وهو إنذارٌ ليخافوا وينتبهوا من غفلَتِهم.

(٤) ﴿ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تكريرٌ للتأكيد. وفي ثمَّ دلالةٌ على أن الثاني أبلغُ من الأول، أو الأولُ عند الموت أو في القبرِ والثاني عندَ النشور.

(٥) ﴿ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي لو تعلمون ما بينَ أيديكم عِلْمَ اليقين أي كعلمِكم ما تستيقنونَه لَشَغَلَكُم ذلك عن غيره، أو لفعلتم ما لا يوصفُ ولا يكْتَنَهُ فحذفَ الجوابَ للتفخيم، ولا يجوزُ أنْ يكون قولُه:

(٦) ﴿ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ﴾ جواباً له لأنه محقَّقُ الوقوعِ بل هو جوابُ قسمٍ محذوف أكَّد به الوعيدَ وأوضحَ به ما أنذَرهم منه بعد إبهامه تفخيماً، وقرأ ابن عامر والكسائيُّ بضمِّ التاءِ.

(٧) ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا﴾ تكريرٌ للتأكيدِ، أو الأولى إذا رأيتَهم من مكان بعيد والثانية إذا وردُوها، أو المرادُ بالأولى المعرفةُ وبالثانية الإبصارُ. ﴿عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ أي الرؤيةَ التي هي نفسُ اليقين، فإنَّ علمَ المشاهدة أعلى مراتبِ اليقين.

(٨) ﴿ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ﴾ الذي ألهاكُم. والخطابُ مخصوصٌ بكلِّ مَنْ ألهاهُ دنياهُ عن دينه والنعيمُ بما يشغلُه، للقرينةِ والنصوصِ الكثيرةِ كقوله ﴿ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ﴾[1] ﴿ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾[2]، وقيل يعمَّانِ إذ كلٌّ يُسْأَلُ عن شكرِه، وقيل الآيةُ مخصوصةٌ بالكفارِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ ألهاكم لم يحاسبْه الله سبحانه وتعالى بالنعيم الذي أنعمَ به عليه في دارِ الدنيا، وأُعطِيَ من الأجرِ كأنما قرأ ألفَ آيةٍ»[3].

☆ ☆ ☆

---

(١) الأعراف: «٣٢».

(٢) المؤمنون: «٥١».

(٣) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٥٩).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ العَصْرِ

ترتيبها ١٠٣ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴿٣﴾

سورة والعصر مكية[1]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ أقسمَ سبحانه بصلاةِ العصرِ لفضلِها، أو بعصرِ النبوةِ أو بالدهرِ لاشتماله على الأعاجيبِ والتعريضِ بنفي ما يضافُ إليه من الخسرانِ.

(٢) ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إنَّ الناسَ لفي خسرانٍ في مساعيهم وصرفِ أعمارِهم في مطالبهم، والتعريفُ للجنسِ والتنكيرُ للتعظيم.

(٣) ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ فإنَّهم اشتروا الآخرةَ بالدنيا ففازوا بالحياة الأبدية والسعادةِ السرمديةِ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ الثابتِ الذي لا يصحُّ إنكارُه من اعتقادٍ أو عملٍ. ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ عن المعاصي أو على الحقِّ، أو ما يبلُو اللهُ به عبادَه. وهذا من عطفِ الخاصِّ على العامِّ للمبالغةِ إلا أنْ يخصَّ العملَ بما يكون مقصوراً على كمالِه، ولعلَّه سبحانه وتعالى إنما ذَكَرَ سببَ الربحِ دون الخسرانِ اكتفاءً ببيان المقصودِ، وإشعاراً بأنَّ ما عدا ما عدَّ يؤدي إلى خسرٍ ونقصِ حظٍّ، أو تكرُّماً فإن الإبهامَ في جانبِ الخسرِ كرمٌ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ والعصرِ غفر الله له وكانَ ممنْ تواصَوْا بالحقِّ وتواصَوْا بالصَّبْرِ»[2].

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦١): «وهي مكية».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٨ رقم ٣٦١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الهُمَزة

ترتيبها ١٠٤ — آياتها ٩

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى
ٱلْحُطَمَةِ ﴿٤﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحُطَمَةُ ﴿٥﴾ نَارُ ٱللَّهِ ٱلْمُوقَدَةُ ﴿٦﴾ ٱلَّتِى تَطَّلِعُ عَلَى ٱلْأَفْـِٔدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّهَا عَلَيْهِم
مُّؤْصَدَةٌ ﴿٨﴾ فِى عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍۭ ﴿٩﴾

سورة الهمزة مكية[١]، وآيها تسع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ الهمزُ: الكسرُ كالهزم، واللمزُ: الطعنُ كاللّهزِ فشاعَا في الكسرِ من أعراضِ الناسِ والطعنِ فيهم، وبناءُ فعلِه يدلُّ على الاعتيادِ فلا يقال ضُحَكَةٌ ولُعَنَةٌ إلا للمكثِرِ المتعوِّد، وقرىء همْزةٍ لمْزةٍ بالسكونِ على بناءِ المفعول وهو المسخرةُ الذي يأتي بالأضاحيكِ فَيُضْحَكُ منه ويُشْتَمُ. ونزولُها في الأخنسِ بنِ شريق[٢] فإنه كان مِغْياباً، أو في الوليد بن المغيرة واغتيابِه رسولَ الله ﷺ.

(٢) ﴿ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا﴾ بدلٌ من كلٍّ أو ذمٌّ منصوبٌ أو مرفوعٌ، وقرأ ابن عامر وحمزةُ والكسائي بالتشديد للتكثير. ﴿وَعَدَّدَهُۥ﴾ وجعلَه عدَّةً للنوازلِ أو عدَّة مرةً بعدَ أخرى، ويؤيدُه أنه قرىء وعَدَدَهُ على فكِّ الإدغام.

(٣) ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ﴾ تركه خالداً في الدنيا فأحبَّه كما يحبُّ الخلودَ، أو حبُّ المالِ أغفله عن الموتِ أو طَوَّلَ أملَه حتى حسِبَ أنه مخلَّدٌ فعملَ عملَ مَنْ لا يظنُّ الموتَ، وفيه تعريضٌ بأنَّ المخلِّد هو السعيُ للآخرةِ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦٣): «وهي مكية بلا خلاف».

(٢) ذكره البغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٣٠) عن الكلبي بدون سند.

(٤) ﴿كَلَّا﴾ ردعٌ له عن حسبانِه. ﴿لَيُنبَذَنَّ﴾ ليطرحنَّ. ﴿فِي ٱلۡحُطَمَةِ﴾ في النارِ التي من شأنها أن تحطمَ كلَّ ما يطرحُ فيها.

(٥) ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ﴾ ما النارُ التي لها هذه الخاصيةُ.

(٦) ﴿نَارُ ٱللَّهِ﴾ تفسيرٌ لها. ﴿ٱلۡمُوقَدَةُ﴾ التي أوقدها الله وما أوقدَه لا يقدرُ غيرهُ أنْ يطفِئَهُ.

(٧) ﴿ٱلَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى ٱلۡأَفۡـِٔدَةِ﴾ تعلُو أوساطَ القلوب وتشتملُ عليها، وتخصيصُها بالذكرِ لأنَّ الفؤادَ ألطفُ ما في البدنِ وأشدُّه ألماً، أو لأنه محلُّ العقائد الزائفةِ ومنشأُ الأعمال القبيحةِ.

(٨) ﴿إِنَّهَا عَلَيۡهِم مُّؤۡصَدَةٌ﴾ مُطْبَقَةٌ من أوصدتُ البابَ إذا أطبقتُه. قال:

تَحِنُّ إِلَى أَجْبَالِ مَكَّةَ نَاقَتِي وَمَنْ دُونِهَا أَبْوَابُ صَنْعَاءَ مُوْصَدَة

وقرأ حفصٌ وأبو عمرو وحمزةُ بالهمزة.

(٩) ﴿فِي عَمَدٖ مُّمَدَّدَةِۭ﴾ أي موثَّقين في أعمدةٍ ممدودةٍ مثلُ المقاطرِ التي تُقطَرُ فيها اللصوصُ. وقرأ الكوفيون غيرَ حفصٍ بضمتينِ، وقرىء عُمْد بسكون الميم مع ضمِّ العين. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الهمزةِ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعددِ منِ استهزأَ بمحمدٍ عليه الصلاة والسلام وأصحابِه»[١] رضوانُ الله عليهم أجمعينَ.

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦٢).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الفِيلِ

آياتها ٥ — ترتيبها ١٠٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴿١﴾ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ﴿٣﴾
تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

سورة الفيل مكية[١]، وهي خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ الخطابُ للرسولِ ﷺ، وهو وإنْ لم يشهدْ تلك الوقعةَ لكن شاهدَ آثارَها وسمعَ بالتواترِ أخبارَها فكأنه رآها، وإنما قال كيفَ ولم يقلْ ما لأنَّ المرادَ تذكيرُ ما فيها من وجوهِ الدلالةِ على كمال علمِ الله تعالى وقدرتهِ وعزةِ بيته وشرفِ رسوله عليه الصلاة والسلام فإنها من الإرهاصاتِ[٢]. إذ روي[٣] أنها وقعتْ في السنةِ التي وُلِدَ فيها رسولُ الله ﷺ. قصَّتُها أنَّ أبرهةَ بنَ الصباحِ الأشرمَ ـ ملِكَ اليمنِ من قبلِ أصحمةَ النجاشي ـ بنى كنيسةً بصنعاءَ وسمَّاها القُلّيسَ وأرادَ أن يصرفَ الحاجَّ إليها، فخرجَ رجلٌ من كنانة فقعدَ فيها ليلاً فأغضبه ذلك، فحلفَ ليهدمنَّ الكعبةَ فخرج بجيشه ومعه فيلٌ قويٌّ اسمه محمودٌ وفيلةٌ أخرى، فلما تهيأَ للدخول وعبَّى جيشَه قدَّم الفيلَ، وكان كلَّما وجَّهوه إلى الحرمِ بركَ ولم يبرخ، وإذا وجّهوه إلى اليمن أو إلى جهةٍ أخرى هَرْوَلَ، فأرسل الله تعالى طيراً مع كلِّ واحد في منقارهِ حجرٌ وفي رجليه حجرانِ، أكبرُ من العدسةِ وأصغر من الحمُّصةِ،

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦٥): «وهي مكية بإجماع الرواة».
(٢) هي التي تصدر عن النبي قبل النبوة وتكون خارقة للعادة (التعريفات للجرجاني ص١٦).
(٣) انظر «معالم التنزيل» (٨/ ٥٣٥ ـ ٥٤٠).

فترميهم فيقع الحجرُ في رأسِ الرجل فيخرجُ من دبرهِ فهلكوا جميعاً. وقرىء ألم ترَ جداً في إظهار أثرِ الجازم، وكيف نُصِبَ بفعلٍ لابْتَرَ لما فيه من معنى الاستفهام.

(٢) ﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ ﴾ في تعطيل الكعبةِ وتخريبها. ﴿فِي تَضْلِيلٍ﴾ في تضييعٍ وإبطالٍ بأنْ دمَّرهم وعظَّم شأنَها.

(٣) ﴿ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ جماعاتٍ، جمعُ إبالةٍ وهي الحزمةُ الكبيرةُ؛ شُبِّهَتْ بها الجماعةُ من الطير في تضامِّها. وقيل لا واحدَ لها كعبابيدَ وشماطيطَ.

(٤) ﴿ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ ﴾ وقرىء بالياءِ على تذكير الطيرِ لأنه اسمُ جمعٍ، أو إسناده إلى ضمير ربِّك. ﴿مِّن سِجِّيلٍ﴾ من طينٍ متحجِّرٍ معرَّبٌ، وقيل من السَّجْلِ وهو الدلو الكبيرُ، أو الإسجالِ وهو الإرسالُ، أو من السَّجْلِ ومعناه من جملة العذاب المكتوب المدون.

(٥) ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ كورقِ زرعٍ وقعَ فيه الأكالُ وهو أنْ يأكلَه الدودُ، أو أكلَ حبه فبقي صفراً منه، أو كتينٍ أكلته الدوابُّ وراثته. عنِ النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ الفيل أعفاهُ الله أيامَ حياته من الخسفِ والمسخِ»[١].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه ابن مردويه والواحدي والثعلبي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦٣).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة قريش

ترتيبها ١٠٦ — آياتها ٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾ إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ﴿٢﴾ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴿٤﴾

سورة قريش مكية[1]، وآيها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلّق بقوله ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾[2] والفاءُ لما في الكلام من معنى الشرطِ، إذ المعنى أنَّ نِعَمَ الله عليهم لا تُحصَى فإنْ لم يعبدوه لسائرِ نعمِه فليعبدُوه لأجلِ:

(٢) ﴿إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ أي الرحلةَ في الشتاءِ إلى اليمنِ وفي الصيف إلى الشام فيمْتَارون ويتَّجرون، أو بمحذوفٍ مثل أَعَجِبُوا، أو بما قبلَه كالتضمينِ في الشعر[3] أي فجعلَهم كعصفٍ مأكولٍ لإيلافِ قريش؛ ويؤيدُه أنَّهما في مصحفِ أُبَيٍّ سورةٌ واحدةٌ. وقرىء ليألفَ قريشُ إلْفَهم رحلةَ الشتاءِ. وقريشٌ ولدُ النضرِ بنِ كنانةَ منقولٌ من تصغيرِ قرشٍ، وهو دابةٌ عظيمةٌ في البحر تعبثُ بالسفنِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٦٨): «وهي مكية بلا خلاف».
وقال القرطبي في «الجامع» (٢٠/ ٢٠٠): «مكية في قول الجمهور. ومدنية في قول الضحاك والكلبي» هـ.

(٢) قريش: «٣».

(٣) قوله كالتضمين في الشعر هو أن يضمن الشعر شيئاً من شعر الغير.
قال الكازروني في حاشية: (ولا يخفىٰ أن هذا المعنى لا يتحقق في القرآن من وجهين فوجه الشبه بين تعليق هذه السورة بما قبلها، والتضمين أن في كل منهما وصل كلامٍ ظاهرِ الانفصال عما قبله به) حاشية الكازروني على البيضاوي (٥/ ١٩٦).

فلا تُطَاقُ إلا بالنارِ، فَشُبِّهوا بها لأنها تأكلُ ولا تُؤْكَلْ وتعلُو ولا تُغْلَى. وصغَّر الاسمَ للتعظيمِ، وإطلاقُ الإيلافِ ثم إبدالُ المقيدِ عنه للتفخيمِ. وقرأ ابنُ عامر لِئِلافِ بغير ياءٍ بعدَ الهمزة.

(٣) ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ﴾.

(٤) ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ أي بالرحلتينِ، والتنكيرُ للتعظيم، وقيل المرادُ به شدةٌ أكلوا فيها الجيفَ والعظامَ. ﴿وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ أصحابِ الفيل أو التخطُّفِ في بلدهم ومسايِرِهم، أو الجذامِ فلا يصيبُهم ببلدِهم. عن رسولِ الله ﷺ «من قرأ سورةَ لإيلاف قريشٍ أعطاه الله عشرَ حسناتٍ بعدد من طافَ بالكعبةِ واعتكفَ بها»[1].

☆ ☆ ☆

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أُبي بن كعب.
كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٦٥).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سورة الماعون

ترتيبها ١٠٧ آياتها ٧

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ
ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾
وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴿٧﴾

سورة الماعون مختلف فيها [(١)]، وآيها سبع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿أَرَءَيْتَ﴾ استفهامٌ معناه التعجبُ. وقرىء أريتَ بلا همزٍ إلحاقاً بالمضارعِ، ولعلَّ تصديرها بحرفِ الاستفهامِ سهَّل أمْرَها، وأرأيتَك بزيادةِ الكافِ. ﴿ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ بالجزاءِ أو الإسلامِ، والذي يحتملُ الجنسَ والعهدَ ويؤيدُ الثاني قولُه:

(٢) ﴿فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾ يدفعُه دفعاً عنيفاً. وهو أبو جهلٍ كان وصيّاً ليتيمٍ فجاءه عرياناً يسألُه من مال نفسِه فدفعه، أو أبو سفيانَ نحرَ جَزُوراً فسأله يتيمٌ لحماً فقرعَه بعصاهُ، أو الوليد بنُ المغيرة، أو منافقٌ بخيلٌ [(٢)]. وقرىء يدعُ أي يتركُ.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٠). «وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية» هـ. وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٤٣): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله الجمهور. والثاني: مدنية، روى عن ابن عباس، وقتادة. وقال هبة الله المفسِّر: نزل نصفها بمكة في العاص بن وائل، ونصفها بالمدينة في عبدالله بن أبي المنافق» هـ.

(٢) انظر «أسباب النزول» للواحدي ص٤٦٥، و«معالم التنزيل» للبغوي (٨/ ٥٥١) و«النكت والعيون» للماوردي (٦/ ٣٥٠).

(٣) ﴿ وَلَا يَحُضُّ ﴾ أهلَه وغيرَهُم. ﴿عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ لعدمِ اعتقادِه بالجزاءِ ولذلك رتَّب الجملةَ على يكذِّب بالفاء.

(٤) ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴾.

(٥) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ أي غافلون غيرَ مبالينَ بها.

(٦) ﴿ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴾ يُرُون الناسَ أعمالَهم ليروهم الثناءَ عليهم.

(٧) ﴿ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ﴾ الزكاةَ أو ما يُتَعَاوَرُ في العادةِ. والفاءُ جزائيةٌ؛ والمعنى إذا كان عدمُ المبالاة باليتيمِ من ضعفِ الدين والموجبِ للذمِّ والتوبيخ فالسهوُ عن الصلاة التي هي عمادُ الدين والرياءُ الذي هو شعبةٌ من الكفر ومنعُ الزكاة التي هي قنطرةُ الإسلام أحقُّ بذلك ولذلك رتَّب عليها الويلَ، أو للسببيةِ على معنى فويلٌ لهم، وإنما وضعَ المصلينَ موضعَ الضمير للدلالةِ على سوءِ معاملتهم مع الخالقِ والخلْقِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ أرأيتَ غُفِرَ له إنْ كان للزكاةِ مؤدِّياً»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٨٨ رقم ٣٦٩).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سُورَةُ الكَوْثَر

ترتيبها ١٠٨ — آياتها ٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴿١﴾ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴿٢﴾ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴿٣﴾

سورة الكوثر مكية[١]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِنَّآ أَعْطَيْنَـٰكَ﴾ وقرىء أنطيناكَ. ﴿ٱلْكَوْثَرَ﴾ الخيرَ المفرطَ الكثرةِ من العلمِ والعملِ وشرفِ الدارين. ورُوِيَ عنه عليه الصلاة والسلام أنه نهرٌ في الجنةِ وَعَدَنِيْهِ ربِّي فيه خيرٌ كثير[٢] أحلَى من العسلِ وأبيضُ من اللبنِ وأبردُ من الثلجِ وأليَنُ من الزُّبْدِ. حافتاهُ الزَّبَرْجَدُ وأوانيه من فضةٍ لا يظمأُ مَنْ شربَ منه[٣]، وقيل حوضٌ فيها، وقيل أولادُه وأتباعُه، أو علماءُ أمتِه والقرآنُ العظيم.

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٢): «وهي مكية».
وقال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٤٧): «وفيها قولان: أحدهما: مكية، قاله ابن عباس، والجمهور. والثاني: مدنية قاله الحسن، وعكرمة، وقتادة» هـ.

(٢) وهو جزء من حديث أخرجه مسلم (١/ ٣٠٠ رقم ٤٠٠) من حديث أنس.

(٣) وهو مؤلف من حديثين:
(الأول): أخرجه أحمد (٣/ ١٠٣، ١١٥) وهنا وفي «الزهد» (١/ ٢١١) والنسائي في «التفسير» (رقم: ٧٢٦) وابن جرير (١٥/ج٣٠/ ٣٢٣ ـ ٣٢٤) وابن أبي شيبة في «المصنف» (١٣/ ١٤٧) والآجري في «الشريعة» (ص٣٩٦) والبغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٥٨) وفي «شرح السنة» (١٥/ ١٧٠) عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: دخلتُ الجنة فإذا أنا بنهرٍ يجري بياضُه بياض اللبن، وأحلى من العسل، وحافتاه حيامَ اللؤلؤ، فضربت بيدي فإذا الثري مسك أذْخَرُ فقلت لجبريل: ما هذا؟ قال: الكوثر الذي أعطاكه الله عز وجل» وهو حديث صحيح. وأخرجه البخاري (١١/ ٤٦٤ رقم ٦٥٨١) والترمذي (٥/ ٤٤٩ رقم ٣٣٥٩ و٣٣٦٠) من طريق =

(٢) ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ فدُمْ على الصلاةِ خالصاً لوجه الله تعالى خلافَ الساهي عنها المرائي فيها شكراً لإنعامه، فإنَّ الصلاةَ جامعةٌ لأقسامِ الشكرِ. ﴿وَٱنْحَرْ﴾ البُدْنَ التي هي خيارُ أموالِ العرب وتصدَّق على المحاويجِ خلافاً لمن يدَعُهم ويمنَعُ عنهم الماعونَ، فالسورةُ كالمقابلةِ للسورةِ المتقدمةِ وقد فسِّرتِ الصلاةُ بصلاةِ العيدِ والنحرُ بالتضحيةِ.

(٣) ﴿إِنَّ شَانِئَكَ﴾ إنَّ مَنْ أبغضَك لبغضِه اللهَ. ﴿هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾ الذي لا عقِبَ له إذ لا يبقى له نسلٌ ولا حُسْنُ ذِكْرٍ، وأما أنت فتبقى ذرِّيَّتُكَ وحُسْنُ صيتِك وآثارُ فضلِك إلى يوم القيامةِ، ولك في الآخرة ما لا يدخلُ تحتَ الوصْفِ. عن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الكوثرِ سقاهُ الله من كلِّ نهرٍ له في الجنةِ، ويُكْتَبُ له عشرَ حسناتٍ بعدد كلِّ قُربانٍ قرَّبه العبادُ في يومِ النحرِ العظيمِ»[1].



قتادة عن أنس بن مالك بنحوه.

(والثاني): أخرجه أحمد (٢/ ٦٧، ١١٢، ١٥٨) وهنا وفي «الزهد» (١/ ٢٠٨) والترمذي (٥/ ٤٤٩ ـ ٤٥٠ رقم ٣٣٦١) وابن ماجة (٢/ ١٤٥٠ رقم ٤٣٣٤). والدارمي (٢/ ٣٣٨) والحاكم (٣/ ١٧١) وابن جرير في «جامع البيان» (١٥/ ج٣٠/ ٣٢٤) والبغوي في «معالم التنزيل» (٨/ ٥٥٨) وفي «شرح السنة» (١٥/ ١٦٨ ـ ١٦٩) من طرق عن عطاء بن أبي السائب عن عازب بن دثار عن ابن عمر، قال: قال رسول الله ﷺ: «الكوثر نهر في الجنة، حافتاهُ الذهبُ، مجراه على الدرِّ والياقوت، تربتهُ أطيبُ من المِسْك، وأشدُّ بياضاً من الثلج». وهو حديث صحيح.

لأن راويه عن عطاء عند أحمد حماد بن زيد وقد سمع منه قديماً.

وانظر «فتح الباري» (٨/ ٧٣٢) وجامع الأصول (٢/ ٤٣٩).

(١) وهو حديث موضوع.

أخرجه الواحدي والثعلبي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٨ رقم ٣٧٥). وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة الكافرون

ترتيبها ١٠٩ — آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا
عَبَدتُّمْ ﴿٤﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾

سورة الكافرون مكية[1]، وآيها ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ يعني كفرةً مخصوصينَ قد علمَ اللهُ منهم أنَّهم لا يؤمنون. رُوِيَ أنَّ رهْطاً من قريش قالوا يا محمد تعبدُ آلهتَنا سنةً ونعبدُ إلهكَ سنةً، فنزلتْ[2].

(٢) ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ أي فيما يُسْتَقْبَلُ، فأنْ لا تدخلُ إلا على مضارعٍ بمعنى الاستقبالِ كما أنَّ ما لا تدخلُ إلا على مضارعٍ بمعنى الحالِ.

(٣) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي فيما يستقبلُ لأنه في قرانٍ لا أعبدُ.

(٤) ﴿وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ﴾ أي في الحالِ أو فيما سلفَ.

(٥) ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ أي وما عبدتُم في وقتٍ ما ما أنا عابدُه، ويجوزُ أنْ يكونا تأكيدينِ

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٧٤): «وهي مكية إجماعاً» هـ.

(٢) أخرجه ابن جرير (١٥/ج٣٠/ ٣٣١) والطبراني في «الصغير» (١/ ٢٦٥) عن ابن عباس وقال الطبراني: لم يروه عن داود بن أبي هند إلا عبدالله بن عيسى.
وقال الحافظ في «الفتح» (٨/ ٧٣٣): «وفي إسناده أبو خلف عبدالله بن عيسى، وهو ضعيف.

على طريقةٍ أبلغَ، وأما لم يقلْ ما عبدْتُ ليطابقَ ما عبدتُم لأنهم كانوا موسومينَ قبل المبعَثِ بعبادةِ الأصنامِ، وهو لم يكن حينئذٍ موسوماً بعبادة الله، وإنما قال «ما» دونَ مِنْ لأنَّ المرادَ الصفةُ كأنه قال: لا أعبدُ الباطلَ ولا تعبدون الحقَّ أو للمطابقةِ. وقيل إنها مصدريةٌ وقيل الأوليانِ بمعنى الذي والأُخريانِ مصدريتانِ.

(٦) ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ﴾ الذي أنتم عليه لا تتركونه. ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ ديني الذي أنا عليه لا أرفضُه، فليس فيه إذْنٌ في الكفر ولا منْعٌ عن الجهادِ ليكون منسوخاً بآية القتالِ، اللهمَّ إلا إذا فُسِّرَ بالمتاركةِ وتقريرِ كلٍّ من الفريقين الآخرَ على دينه، وقد فُسِّرَ الدينُ بالحسابِ والجزاءِ والدعاءِ والعبادةِ.

عَن النبيِّ ﷺ «مَنْ قرأ سورةَ الكافرونَ فكأنما قرأ رُبُعَ القرآن وتباعدتْ عنه مردةُ الشياطين وبَرِئَ من الشركِ»[١].

☆ ☆ ☆

---

(١) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٨٩ رقم ٣٧٦).
وقد تقدم الكلام عليه في آخر سورة آل عمران.

سُورَةُ النَّصْرِ

ترتيبها ١١٠ — آياتها ٣

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾

سورة النصر مدنية[١]، وآيها ثلاث آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ﴾ إظهارُه إياك على أعدائِك. ﴿وَٱلْفَتْحُ﴾ وفتحُ مكَّةَ، وقيل المرادُ جنسُ نصرِ الله المؤمنينَ وفتحُ مكةَ وسائرَ البلادِ عليهم، وإنما عبَّر عن الحصولِ بالمجيء تجوُّزاً للإشعارِ بأنَّ المقدَّراتِ متوجِّهةٌ من الأزلِ إلى أوقاتِها المعيَّنةِ لها فتقرُبُ منها شيئاً فشيئاً، وقد قَرُبَ النصرُ من وقته فكنْ مترقِّباً لورُودِه مستعِداً لشكرِه.

(٢) ﴿وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ جماعاتٍ كثيفةً كأهلِ مكَّةَ والطائفِ واليمنِ وهوازنَ وسائرِ قبائلِ العرب، ويدخلون حالٌ على أنَّ أرأيتَ بمعنى أبصرتَ أو مفعولٌ ثانٍ على أنه بمعنى علمْتَ.

(٣) ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ فتعجَّبْ لتيسير الله ما لم يخطُر ببالِ أحدٍ حامداً له، أو فصلِّ له حامِداً على نعَمِه. روي أنه ﷺ لما دخلَ مكةَ بدأ بالمسجدِ فدخلَ الكعبةَ وصلى ثمانِ. . . . .

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/٣٧٦): «وهي مدنية بإجماع» هـ.

ركعاتٍ[١]، أو فنزِّهْهُ تعالى عما كانت الظلمةُ يقولون فيه حامداً له على أنْ صدقَ وعدَه، أو فاثْنِ على الله تعالى بصفاتِ الجلال حامداً له على صفاتِ الإكرام. ﴿وَٱسْتَغْفِرْهُ﴾ هضْماً لنفسِك واستقصاراً لعملِك واستدراكاً لما فَرَطَ منك من الالتفاتِ إلى غيره. وعنه عليه الصلاة والسلام «إني لأستغفرُ اللهَ في اليوم والليلة مائةَ مرةٍ»[٢]. وقيل استغفِره لأمَّتِك. وتقديمُ التسبيح على الحمدِ ثم الحمدِ على الاستغفارِ على طريق النزولِ من الخالقِ إلى الخلقِ، كما قيل ما رأيتُ شيئاً إلا ورأيتَ الله قبلَه. ﴿إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ لمنِ استغفرهُ مذ خلَقَ المكلَّفينَ، والأكثرُ على أنَّ السورةَ نزلتْ قبلَ فتحِ مكةَ، وأنه نُعِيَ لرسول الله ﷺ لأنه لما قرأها بكَى العباسُ رضي الله عنه، فقال عليه الصلاة والسلام «ما يبكيكَ»؟ فقال: نُعِيَتْ إليك نفسُك، فقال «إنها لكَمَا تقولُ»[٣]، ولعلَّ ذلك لدلالَتِهِا على تمامِ الدعوةِ وكمالِ أمرِ الدينِ فهي كقوله تعالى ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾[٤] أو لأنَّ الأمر بالاستغفارِ تنبيهٌ على دنوِّ الأجلِ، ولهذا سمِّيتْ سورةَ التوديعِ. وعنه عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورةَ إذا جاء أُعْطِيَ من الأجرِ كَمَنْ شهدَ مع محمدٍ عليه الصلاةَ والسلام يومَ فتحِ مكَّةَ شرَّفَها الله تعالى»[٥].



(١) أخرج البخاري (١/ ٤٦٩ رقم ٣٥٧) ومسلم (١/ ٤٩٨ رقم ٣٣٦) ومالك في «الموطأ» (١/ ١٥٢) والبغوي في «شرح السنة» (١١/ ٨٩) وفي «معالم التنزيل» (٨/ ٥٧٥). عن أم هانىء قالت: ذهبتُ إلى رسولِ الله ﷺ عامَ الفتح فوجدتُه يغتسلُ وفاطمةُ ابنتُه تستره. قالت: فسلمت عليه فقالَ: من هذا؟ فقلت: أنا أمُّ هانىء بنتُ أبي طالب، فقال: مرحباً بأمِّ هانىءٍ. فلما فرغَ من غُسلِه قام فصلَّى ثمانَ ركعاتٍ مُلتحفاً في ثوبٍ واحدٍ. فلما انصرفَ قلتُ: يا رسولَ الله زعمَ ابنُ أمِّي أنه قاتلٌ رجلاً قد أجرْتُه فلان بنَ هُبيرةَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «قد أجرنا من أجرتِ يا أمَّ هانىء» قالت أم هانىءٍ: وذاكَ ضُحىً.
قلت: أما قوله: «لما فتح باب الكعبة صلى صلاة الضحى» لم أقف عليه وقال الحافظ ابن حجر في «الكافي الشافِ» (ص١٨٩ رقم ٣٨١): «لم أجده هكذا...».

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٠٧٥ رقم ٤١) عن الأغر المزني.

(٣) قال الحافظ في «الكافي الشافِ» (ص١٨٩ رقم ٣٨٤): «ذكره الثعلبي عن مقاتل وسنده إليه دون الكتاب» هـ.
قلت: مقاتل: كذاب، وفي السند إعضال.

(٤) المائدة: «٣».

(٥) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبي بن كعب كما في «الكافي الشافِ» (ص١٩٠ رقم ٣٨٩) وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.

سورة المسد

ترتيبها ١١١ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾
وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾

سورة تبت مكية[١]، وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿تَبَّتْ﴾ هلكتْ أو خسرتْ، والتَّبابُ خسرانٌ يؤدي إلى الهلاك. ﴿يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ نفسه كقوله تعالى ﴿وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[٢] وقيل إنما خُصَّتا لأنه عليه الصلاة والسلام لما نزلَ عليه ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾[٣] جمعَ أقاربه فأنذَرَهم فقال أبو لهبٍ: تبّاً لك أَلِهَذَا دعوتَنا، وأخذَ حجَراً ليرميَهُ به، فنزلتْ[٤]. وقيل المرادُ بهما دنياهُ وأخراهُ، وإنما كنَّاه والتكنيةُ تكرِمةٌ لاشتهارِه بكنيتِه ولأنَّ اسمَه عبدُ العِزَّى فاستكرهَ ذِكْرَهُ، ولأنه لما كان من أصحاب النارِ كانت الكنيةُ أوفقَ بحاله، أو ليجانِسَ قولَه

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٥٨): «وهي مكية بإجماعهم».

(٢) البقرة: «١٩٥».

(٣) الشعراء: «٢١٤».

(٤) أخرجه البخاري (٣/ ٢٥٩ رقم ١٣٩٤) و(٨/ ٥٠١ رقم ٤٧٧٠) و(٨/ ٥٣٩ رقم ٤٨٠١) و(٨/ ٧٣٧ ـ ٧٣٨ رقم ٤٩٧١ و٤٩٧٢ و٤٩٧٣).

﴿ ذَاتَ لَهَبٍ﴾ وقرىء أبو لهبٍ كما قيل عليُّ بنُ أبو طالبٍ. ﴿ وَتَبَّ﴾ إخبارٌ بعدَ دعاءٍ، والتعبيرُ بالماضي لتحقُّقِ وقوعِه كقوله:

جَـــزَانِـــي جَـــزَاهُ الله شَـــرَّ جَـــزَائِـــهِ   جَـزَاءَ الكِـلَابِ العـاوِيـاتِ وقَـدْ فعـل[1]

ويدلُّ عليه أنه قرىء وقد تبَّ أوِ الأولُ إخبارٌ عما كسبتْ يداهُ والثاني عن عملِ نفسِه.

(٢) ﴿ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ﴾ نفيٌ لإغناءِ المالِ عنه حين نزلَ به التبابُ أو استفهامُ إنكارٍ له ومحلُّها النصبُ. ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وكسْبُه أو مكسوبُه بمالِه من النتائج والأرباح والوجاهةِ والأتباع، أو عملُه الذي ظنَّ أنه ينفعه، أو ولدُه عتبةُ وقدِ افترسَه أسدٌ في طريقِ الشام وقد أحدقَ به العيرُ وماتَ أبو لهب بالعدَسةِ بعدَ وقعةِ بدرٍ بأيامٍ معدودةٍ، وتُرِكَ ثلاثاً حتى أنتنَ ثم استأجَروا بعضَ السودانِ حتى دفنوه، فهو إخبارٌ عن الغيبِ طابقه وقوعُه.

(٣) ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ اشتعالٍ يريدُ نارَ جهنَّم، وليس فيه ما يدلُّ على أنه لا يؤمن لجوازِ أنْ يكون صَلِيّها للفسقِ، وقرىء سيصلى بالضمِّ مخففاً وسيُصَلَّى مشدَّداً.

(٤) ﴿ وَٱمْرَأَتُهُۥ﴾ عطفٌ على المستترِ في سيصْلَى أو مبتدأٌ وهي أمُّ جميل أختُ أبي سفيانَ. ﴿حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ يعني حطبَ جهنَّم فإنها كانت تحملُ الأوزارَ بمعاداةِ الرسول ﷺ وتحملُ زوجَها على إيذائه، أو اليميمةُ فإنها كانت توقدُ نارَ الخصومةِ، أو حزمةُ الشوكِ أو الحسكُ، فإنها كانت تحملُها فتنثرُها بالليل في طريق رسولِ الله ﷺ، وقرأ عاصمٌ بالنصبِ على الشتمِ.

(٥) ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ﴾ أي مما مُسِدَ أي فُتِلَ، ومنه رجلٌ ممسودُ الخلقِ أي مجدولُه، وهو ترشيحٌ للمجازِ أو تصويرٌ لها بصورةِ الحطابةِ التي تحملُ الحزمةَ وتربطُها في جيدِها تحقيراً لشأنها أو بياناً لحالها في نارِ جهنَّم حيث يكون على ظهرها حزمةٌ من حطبِ جهنَّم كالزقومِ والضريعِ وفي جيدِها سلسلةٌ من النارِ، والظرفُ في موضعِ الحال أو الخبرِ وحبلٌ مرتفعٌ به. عن النبيِّ ﷺ «من قرأ سورةَ تبَّت رجوتُ أن لا يجمعَ اللهُ بينه وبينَ أبي لهبٍ في دارٍ واحدةٍ»[2].

☆ ☆ ☆

(١) من الطويل.

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي والواحدي وابن مردويه عن أبي بن كعب.
كما في «الكافي الشاف» (ص١٩٠ رقم ٣٩١).
وقد تقدم الكلام عليه في أواخر سورة آل عمران.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾

سورة الإخلاص مختلف فيها[١]، وآيها أربع آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ الضميرُ للشأنِ كقولك: هو زيدٌ منطلقٌ وارتفاعُه بالابتداءِ وخبرهُ الجملةُ ولا حاجةَ إلى العائد لأنها هي هو، أو لما سُئِلَ عنه أي الذي سألتموني عنه هو اللهُ، إذ رُوِيَ أنَّ قريشاً قالوا: يا محمدُ صِفْ لنا ربَّك الذي تدعونا إليه فنزلتْ[٢]. وأحدٌ بدلٌ أو خبرٌ ثانٍ يدلُّ على مجامعِ

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (١٦/ ٣٨٢): «هذه السورة مكية، قاله مجاهد بخلاف عنه وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس والقرطبي وأبو العالية هي مدنية».
وانظر «زاد المسير» (٩/ ٢٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ١٣٣) وابن جرير (١٥/ج٣٠/ ٣٤٢) والواحدي في «الأسباب» (ص٤٧١) والترمذي (٥/ ٤٥١ رقم ٣٣٦٤) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٤٠) وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٢٢٣١) وابن أبي عاصم في «السنة» (١/ ٢٩٧ رقم ٦٦٣) من طريق أبي سعيد الصنعاني عن أبي جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي بن كعب به.
وقال الألباني: إسناده ضعيف. لسوء حفظ أبي جعفر الرازي. وأبو سعيد الخراساني هو محمد بن ميسر الجعفي الصاغاني البلخي الضرير ضعفه غير واحد، ولكنه قد توبع...».

صفاتِ الجلالِ كما دلَّ اللهُ على جميع صفاتِ الكمال إذ الواحدُ الحقيقيُّ ما يكونُ منزَّهَ الذاتِ عن أنحاءِ التركيبِ والتعدُّدِ، وما يستلزمُ أحدَهما كالجسميةِ والتحيُّزِ والمشاركةِ في الحقيقة وخَوَاصِّها كوجوبِ الوجودِ والقدرةِ الذاتيةِ والحكمةِ التامةِ المقتضية للألوهية. وقرىء هو الله بلا قلْ مع الاتفاقِ على أنه لا بدَّ منه في قل يا أيها الكافرون، ولا يجوزُ في تبَّتْ، ولعلَّ ذاك لأن سورةَ الكافرون مشاقةُ الرسولِ أو موادعتُه لهم وتبَّت معاتبةُ عمِّه فلا يناسبُ أنْ تكون منه، وأما هذا فتوحيدٌ يقول به تارةً ويُؤمَرُ بأنْ يدعوَ إليه أخرى.

(٢) ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ السيدُ المصمودُ إليه في الحوائج من صَمَدَ إليه إذا قَصَدَ، وهو الموصوف به على الإطلاق فإنه يستغني عن غيرهِ مطلقاً، وكلُّ ما عداه محتاجٌ إليه في جميع جهاته، وتعريفُه لعلمِهم بصمديَّتِه بخلاف أحديَّته، وتكريرُ لفظةِ اللهِ للإشعار بأنَّ مَنْ لم يتصفْ به لم يستحقَّ الألوهيةَ، وإخلاءُ الجملةِ عن العاطفِ لأنها كالنتيجةِ للأُولى أو الدليلِ عليها.

(٣) ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ لأنه لم يجانسْ ولم يفتقرْ إلى ما يعينُه أو يخلُفُ عنه لامتناعِ الحاجةِ والفناءِ عليه، ولعلَّ الاقتصارَ على لفظِ الماضي لورودهِ رداً على مَنْ قال الملائكةُ بناتُ الله، أو المسيحُ ابنُ الله أو ليطابقَ قولَه: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ وذلك لأنه لا يفتقرُ إلى شيء ولا يسبقُه عدمٌ.

(٤) ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ أي ولم يكنْ أحدٌ يكافئه أو يماثلُه من صاحبةٍ أو غيرها، وكان أصلُه أنْ يؤخَّرَ الظرفُ لأنه صلةُ كفواً لكنْ لما كان المقصودُ نفيَ المكافأةِ عن ذاته تعالى قُدِّم تقديماً للأهمِّ، ويجوزُ أنْ يكونَ حالاً من المستكِنِّ في كفواً أو خبراً، ويكونُ كفواً حالاً من أحدٍ، ولعلَّ ربطَ الجملِ الثلاثِ بالعطفِ لأنَّ المرادَ منها نفيُ أقسامِ المكافأة فهي كجملةٍ واحدة منبهةٍ عليها بالجملِ، وقرأ حمزةُ ويعقوبُ ونافع في رواية كفؤاً بالتخفيفِ، وحفصٌ كفُواً بالحركةِ وقلبِ الهمزةِ واواً، ولاشتمالِ هذه السورِ مع قِصَرِها على جميعِ المعارف الإلهية والردِّ على من ألحدَ فيها جاء في الحديث أنها تعدلُ ثلثَ القرآن[١]. فإنَّ مقاصِدَه محصورةٌ في بيانِ العقائد والأحكامِ والقصصِ ومَنْ عدَلَها بكلِّه اعتبرَ المقصودَ بالذاتِ من ذلك. وعنه ﷺ، أنه سمعَ رجلاً يقرؤها فقال «وجبتْ» قيل يا رسول الله وما وجبتْ؟ قال: «وجبتْ له الجنةُ»[٢].

☆ ☆ ☆

---

(١) أخرجه مالك (١/٢٠٨ رقم ١٧) وأحمد (٣/٣٥، ٤٣) والبخاري (٩/٥٨ ـ ٥٩ رقم ٥٠١٣) و(١١/٥٢٥ رقم ٦٦٤٣) و(١٣/٣٤٧ رقم ٧٣٧٤) وأبو داود (٢/١٥٢ رقم ١٤٦١) والنسائي (٢/١٧١ رقم ٩٩٥) عن أبي سعيد الخدري به.

(٢) وهو حديث صحيح.
أخرجه مالك (١/٢٠٨ رقم ١٨) والترمذي (٥/١٦٧ رقم ٢٨٩٧) والنسائي في عمل اليوم والليلة رقم (٧٠٢) وفي السنن (٢/١٧١) وفي التفسير رقم (٧٣٥). وصححه الحاكم في المستدرك (١/٥٦٦) ووافقه الذهبي والبغوي في «التفسير» (٨/٥٨٩ ـ ٥٩٠) وفي «شرح السنة» (٤/٤٧٦ ـ ٤٧٧).
وللحديث شواهد انظر في «تفسير النسائي» (٢/٥٧١).

سُورَةُ الفَلَق

ترتيبها ١١٣ — آياتها ٥

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾

سورة الفلق مختلف فيها(١)، وآيها خمس آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ ما يُفْلَقُ عنه أي يفرقُ كالفرقِ فَعَلٌ بمعنى مفعولٍ، وهو يعمُّ جميعَ الممكِناتِ فإنه تعالى فلقَ ظلمةَ العدمِ بنور الإيجادِ عنها، سيَّما ما يخرجُ من أصلٍ كالعيون والأمطارِ والنباتِ والأولادِ، ويختصُّ عرفاً بالصبحِ ولذلك فُسِّرَ به. وتخصيصُه لما فيه من تغيُّر الحالِ وتبدُّلِ وحشةِ الليلِ بسرورِ النور ومحاكاةِ فاتحةِ يومِ القيامة والإشعارِ بأنَّ مَنْ قدرَ أنْ يزيلَ به ظلمةَ الليل عن هذا العالمِ قدرَ أنْ يزيلَ عن العائذِ به ما يخافُه، ولفظُ الربِّ هنا أوقعُ من سائرِ أسمائه تعالى لأنَّ الإعاذةَ من المضارِّ قريبةٌ.

(٢) ﴿مِن شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ خصَّ عالمَ الخلْقِ بالاستعاذة عنه لانحصارِ الشرفية، فإنَّ عالم الأمرِ خيرٌ

---

(١) قال ابن الجوزي في «زاد المسير» (٩/ ٢٧٠): «وفيها قولان:
(أحدهما): مدنية، رواه أبو صالح عن ابن عباس، وبه قال قتادة في آخرين.
(والثاني): مكية، رواه كريب عن ابن عباس، وبه قال الحسن، وعطاء وعكرمة، وجابر.
والأول أصح. ويدل عليه أن رسول الله ﷺ سحر وهو مع عائشة فنزلت عليه المعوذتان» هـ.

كلُّه، وشرُّه اختياري لازمٌ ومتعدٍّ كالكفرِ والظلمِ، وطبيعيٌّ كإحراقِ النارِ وإهلاكِ السمومِ.

(٣) ﴿ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ ﴾ ليلٍ عظيمٍ ظلامُه من قوله ﴿ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيۡلِ ﴾[١] وأصلُه الامتلاءُ يقال غسقتِ العينُ إذا امتلأتْ دمعاً. وقيل السيلانُ وغسقُ الليلِ انصبابُ ظلامِه وغسقُ العين سيلانُ دمعِه. ﴿ إِذَا وَقَبَ ﴾ دخلَ ظلامُه في كلِّ شيء. وتخصيصُه لأنَّ المضارَّ فيه تكثُر ويعسُر الدفعُ، ولذلك قيل الليلُ أخفَى للويلِ. وقيل المرادُ به القمرُ فإنه يكسفُ فيغسقُ ووقوبُه دخولُه في الكسوفِ.

(٤) ﴿ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلۡعُقَدِ ﴾ ومن شرِّ النفوس أو النساءِ السواحرِ اللاتي يعقدْنَ عقداً في خيوط وينفُثْنَ عليها. والنفثُ النفخُ مع ريقٍ، وتخصيصُه لما رُوِيَ أنَّ يهودياً سحرَ النبيَّ ﷺ في إحدى عشرةَ عقدةً في وَتَرٍ دسَّه في بئرٍ، فمرضَ النبيُّ ﷺ ونزلتِ المعوِّذتانِ، وأخبره جبريلُ عليه الصلاة والسلام بموضعِ السحرِ فأرسل علياً رضي الله تعالى عنه فجاء به فقرأهما عليه، فكان كلّما قرأ آيةً انحلَّت عقدةٌ ووجدَ بعضَ الخفةِ[٢]، ولا يوجبُ ذلك صدقَ الكفرةِ في أنه مسحورٌ، لأنهم أرادوا به أنه مجنونٌ بواسطة السحرِ. وقيل المرادُ بالنفثِ في العقدِ إبطالُ عزائمِ الرجال بالحيلِ مستعارٌ من تليينِ العقدِ بنفثِ الريقِ ليسهلَ حلُّها وإفرادُها بالتعريف لأنَّ كلَّ نفاثةٍ شريرةٌ بِخِلافِ كلِّ غاسق وحاسدٍ.

(٥) ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴾ إذا أظهرَ حسدَه وعملَ بمقتضاهُ، فإنه لا يعودُ ضررٌ منه قبلَ ذلك إلى المحسود بل يُخَصُّ به لاغتمامِه بسرورِه، وتخصيصُه لأنه العُمْدَةُ في إضرار الإنسانِ بل الحيوانِ غيرَه. ويجوزُ أنْ يُرَادَ بالغاسقِ ما يخلُو عن النور وما يضاهيه كالقوى، وبالنفاثاتِ النباتاتُ فإنَّ قُواها النباتيةَ من حيثُ إنها تزيدُ في طولها وعرضِها وعُمْقِها كانت تنفثُ في العقدِ الثلاثةِ، وبالحاسدِ الحيوانُ فإنه إنما يقصدُ غيْرَهُ غالباً طمعاً فيما عنده، ولعلَّ إفرادَها من عالم الخلْقِ لأنها الأسبابُ القريبةُ للمضرَّة.

عن النبيِّ ﷺ «لقد أُنزِلَتْ عليَّ سورتانِ ما أُنزِلَ مثلُهما وإنك لن تقرأ سورتين أحبَّ ولا أرضى عند الله منهما» يعني المعوذتينِ[٣].

☆ ☆ ☆

---

(١) الإسراء: «٧٨».

(٢) ذكره ابن كثير في تفسيره (٤/ ٦١٤ ـ ٦١٥) عن الثعلبي ثم قال: «هكذا أورده به وفيه غرابة، وفي بعضه نكارة شديدة، ولبعضه شواهد مما تقدم والله أعلم» هـ.

(٣) وهو مؤلف من حدثين:

(الأول): أخرجه مسلم (١/ ٥٥٨ رقم ٢٦٥/ ٨١٤) عن عقبة بن عامر قال: قالَ لي رسولُ الله ﷺ: «أُنْزِلَ أو أُنْزِلَتْ عليَّ آياتٌ لم يُرَ مثلهنَّ قطُّ المعوذتين».

(والثاني): ● أخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٥) عن عقبة بن عامر...

فذكر نحوه، إلا أنه قال: «إنك لن تقرأ شيئاً أبلغَ عند الله من «قل أعوذُ برب الفلق» وهو حديث صحيح.

● وأخرج ابن حبان في «صحيحه» (رقم: ٧٩٦) عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقْرَأ يا جَابرُ» فقلت: بأبي وأمي، ما أقرأ؟ قال: «اقرأ: «قل أعوذ برب الفلق»، و«قل أعوذ برب الناس»» فقرأتهما، فقال النبيُّ ﷺ: «اقرأ بهما، فلن تقرأ بمثلهما» وهو حديث حسن.

سُورَةُ النَّاسِ

ترتيبها ١١٤ — آياتها ٦

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ﴿٦﴾

سورة الناس مختلف فيها[1]، وآيها ست آيات

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ﴿قُلْ أَعُوذُ﴾ وقرىء في السورتين بحذفِ الهمزة ونقلِ حركتها إلى اللام. ﴿بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ لما كانتِ الاستعاذةُ في السورة المتقدمةِ من المضارِّ البدنية وهي تعمُّ الإنسانَ وغيره والاستعاذةُ في هذه السورة من الأضرارِ التي تعرضُ للنفوسِ البشرية وتخصُّها، عمَّمَ الإضافةَ ثمَّ وخصَّصَها بالناس ها هنا فكأنه قيل: أعوذ من شرِّ الموسوِس إلى الناس بربِّهم الذي يملك أمورَهم ويستحقُّ عبادتَهم.

(٢) ﴿مَلِكِ ٱلنَّاسِ﴾.

(٣) ﴿إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾ عطفا بيانٍ له فإنَّ الربَّ قد لا يكون ملكاً والملكُ قد لا يكون إلهاً، وفي هذا النظم دلالةٌ على أنه حقيقٌ بالإعاذة قادر عليها غيرُ ممنوعٍ عنها وإشعارٌ على مراتب الناظرِ في المعارف فإنه يعلمُ أولاً بما يرى عليه من النعم الظاهرةِ والباطنةِ أن له رباً، ثم يتغلغل في النظر حتى يتحقَّقَ أنه

---

(١) قال ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٦/ ٣٨٨): قال ابن عباس وغيره: هي مدنية. وقال قتادة: هي مكية. وانظر «زاد المسير» (٩/ ٢٧٧).

غنيٌ عن الكلِّ وذاتُ كلِّ شيء له ومصارفُ أمرِهِ منه، فهو الملك الحقُّ، ثم يستدلُّ به على أنه المستحقُّ للعبادة لا غيرُ، وتندرج في وجوه الاستعاذةِ كما يُتدرجُ في الاستعاذة المعتادةِ تنزيلاً لاختلافِ الصفات منزلةَ اختلافِ الذاتِ إشعاراً بعظمِ الآفة المستعاذِ منها، وتكريرُ الناس لما في الإظهارِ من مزيد البيانِ والإشعارِ بشرفِ الإنسان.

(٤) ﴿مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ﴾ أي الوسوسةِ كالزلزالِ بمعنى الزلزلةِ، وأما المصدرُ فبالكسر كالزلزالِ، والمرادُ به الموسوسُ وسمِّي بفعله مبالغةً. ﴿ٱلْخَنَّاسِ﴾ الذي عادتُه أنْ يخنسَ أي يتأخَّر إذا ذَكَرَ الإنسانُ ربَّه.

(٥) ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ﴾ إذا غفلُوا عن ذكرِ ربِّهم، وذلك كالقوة الوهميةِ فإنها تساعدُ العقلَ في المقدماتِ، فإذا آلَ الأمرُ إلى النتيجةِ خنستْ وأخذتْ توسوسهُ وتشكِّكُهُ. ومحلُّ الذي الجرُّ على الصفةِ أو النصبُ أو الرفعُ على الذمِّ.

(٦) ﴿مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ بيانٌ للوسواسِ، أو الذي أو متعلِّقٌ بيوسوسُ أي يوسوسُ في صدورهم من جهة الجنةِ والناسِ. وقيل بيانٌ للناسِ على أنَّ المرادَ به ما يعمُّ الثقلينِ، وفيه تعسُّفٌ إلا أنْ يُرَادَ به الناسي كقوله تعالى ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾[1] فإنَّ نسيانَ حقِّ الله تعالى يعمُّ الثقلينِ. عن النبيِّ ﷺ «من قرأَ المعوِّذتين فكأنما قرأَ الكتبَ التي أنزلها اللهُ تبارك وتعالى»[2].

قال المصنفُ رحمه الله تعالى: وقدِ اتفقَ إتمامُ تعليقِ سوادِ هذا الكتاب المنطوي على فرائد فوائد ذوي الألباب، المشتملِ على خلاصةِ أقوالِ أكابرِ الأئمةِ وصفوةِ آراءِ أعلامِ الأمةِ، في تفسير القرآن وتحقيقِ معانيه، والكشفِ عن عُوَيْصَاتِ ألفاظه ومعجزاتِ مبانيه، مع الإيجازِ الخالي عن الإخلالِ، والتلخيصِ العاري عن الإضلال، الموسومِ بأنوار التنزيل وأسرارِ التأويل، وأسأل اللهَ تعالى أن يتمِّمَ نفعَه للطلابِ، ولا يخلي سعيَ مَنْ يتعبُ فيه من الأجر والثواب، ويختم كلَّ خاتمةِ امرىءٍ يؤمُّه بتمحيصٍ عن الآثام ويبلغني أعلى منازلِ دارِ السلام، في جوار العلِّيِّينَ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسُنَ أولئك رفيقاً وهو سبحانه حقيقٌ بأن يحقِّقَ رجاءَ الراجينَ تحقيقاً، والحمد لله ربِّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلْقِه محمدٍ وآله وصحبه الطيبينَ الطاهرينَ وأتباعِهم أجمعينَ.

☆ ☆ ☆

---

(١) القمر: «٦».

(٢) وهو حديث موضوع.
أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي عن أبي بن كعب، وقد مضى غير مرة أنها واهنة، وأن الحديث المرفوع في ذلك موضوع والله تعالى أعلم كما في «الكافي الشاف» (ص١٩٠ رقم ٣٩٨).

فهرس الســـور

☆ ☆ ☆

فهرس الأجزاء

